التبصرة

للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي

(٥١٠ – ٥٩٧ هـ)

تحقيق

الدكتور مصطفى عبد الواحد

[ينشر لأول مرة على نسخ مكتبة طلعت]

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

التبصرة

للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي

(٥١٠ — ٥٩٧ هـ)

تحقيق

الدكتور مصطفى عبد الواحد

[ينشر لأول مرة على نسخ مكتبة طلعت

الجزء الأول

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعـة الأولى
١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م

الطبعـة الثانيـة
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٠٠/١٢١٢/٤٧٨١٣٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على خير أنبيائه ورسله ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وبعد ، فهذا كتاب « التبصرة » للإمام أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى أقدمه للأمة الإسلامية ، وهو الكتاب الثالث من كتب ابن الجوزى المتوارية التى لم تطبع من قبل ، وكان لى شرف إخراجها إلى الناس ، وكان أولها « ذم الهوى » الذى طبع منذ عشرة أعوام وثانيها « الوفا بأحوال المصطفى » وكان بعده بأربعة أعوام ، وقد رأيت فى تراث ابن الجوزى ما يستحق العناية والاهتمام ..

ولا بد أن أعرض فى هذا التقديم لأمور ثلاثة : المؤلف ، والموضوع ، والكتاب .

***

ابن الجوزى :

أما المؤلف فهو(١) أبو الفرج عبد الرحمن بن أبى الحسن على بن محمد بن على بن عبد الله بن حمَّادى ، بن أحمد بن محمد بن جعفر ، الجوزى القرشى التَّيْمى البَكْرى ، البغدادى ، الفقيه الحنبلى ، الواعظ ، الملقب جمال الدين الحافظ .

والجَوْزى : نسبة إلى فَرْضة الجوز ـ كما يقول ابن خلكان ـ أو إلى محلة الجَوْز بالبصرة كما يقول ابن العماد .

---

(١) ترجمته فى شذرات الذهب ٤/٣٢٩ ووفيات الأعيان ٢/٣٢١ وتذكرة الحفاظ ٤/١٣٥ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى .

ولد سنة عشر أو ثمان وخمسمائة أو قبلها ، كما يقول ابن العماد ، وكذلك يردد ابن خلكان ميلاده بين سنة ثمان وعشر ، ومات سنة سبع وتسعين وخمسمائة .

ونشأ يتيما إذ مات أبوه وله ثلاث سنين فربته عمته .

قال عن نفسه : « فإن أبي مات وأنا لا أعقل ، والأم لم تلتفت إلى[1] »

ولكنه نشأ شغوفا بالمعرفة محبا للطلب ، فسمع الكثير ونظر في جميع الفنون كما قال : « فركز في طبعي حب العلم ، وما زال يوقعني على المهم فالمهم ، ويحملني إلى من يحملني على الأصوب ، حتى قوّم أمري » .

شيوخه :

لما ترعرع ابن الجوزي حملته عمته إلى مسجد أبي الفضل ابن ناصر ، وهو خاله ، فاعتنى به وأسمعه الحديث ، وحفظ القرآن وقرأه على جماعة من القراء بالروايات .

وقد كان لابن الجوزي شيوخ يبلغون سبعة وثمانين ! منهم علي بن عبد الواحد الدينوري ، وابن الحصين ، وأبو عبد الله البارع ، وأبو الوقت السجزي ، كما كان معظمًا لأبي الوفاء بن عقيل متابعا لأكثر ما يجده من كلامه .

الواعظ المحدِّث :

وقد اتجه ابن الجوزي منذ نشأته إلى الوعظ ، فوعظ من صغره وفاق فيه الأقران ونشأت له في ذلك ملكة عجيبة وبديهة حاضرة وتاب على يديه الآلاف وحضر مجالسه الخلفاء والوزراء .

قال : « ولقد تاب على يدي في مجالس الذِّكر أكثر من مائتي ألف ، وأسلم على يدي أكثر من مائتي نفس ، وكم سالت عين متجبر بوعظي ، لم تكن تسيل » .

(١) عبارات ابن الجوزي في الحديث عن نفسه منقولة من كتابه « صيد الخاطر » في مواضع متفرقة .

وقد كان مجلسه فى بعض الأحيان يقدر بمائة ألف ، وحضر مجلسه الخليفة المستضىء عدة مرات من وراء الستر .

وسيتضح هذا الجانب فى عرضنا لموضوع الكتاب .

كذلك اشتهر ابن الجوزى بمعرفة الحديث ولقب فيه الحافظ وصنف فيه الكثير ، وبلغ من وثوقه بنفسه فيه أن قال :

« ولا يكاد يُذكر لى حديث إلا ويمكننى أن أقول : صحيح أو حسن أو محال » .

وليس هذا غرورا ولا ادعاء ، ولكنه قول من يعرف قدر نفسه ويحيط بموهبته ، ولقد أخلص ابن الجوزى لعلم الحديث وبذل فى سبيل بلوغ المرتبة العالية فيه الكثير .

ومن ذلك ما يذكره عن نفسه : « كنت فى زمان الصبا آخذ معى أرغفة يابسة فأخرج فى طلب الحديث وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء ، فكلما أكلت لقمة شربت عليها ، وعينُ هِمّتى لا ترى إلا لذة تحصيل العلم ، فأثّر ذلك عندى أنى عُرفت بكثرة سماعى لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحواله وآدابه وأحوال الصحابة وتابعيهم ، فصرت فى معرفة طريقه كابنِ [بل] أجود » .

وقد ذكر ابن خلكان أنه جُمعت بُراية أقلامه التى كتب بها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فحصل منها شىء كثير ، وأوصى أن يسخن بها الماء الذى يغسل به بعد موته ففعل ذلك ، فكَفَتْ وفضل منها .

عالِم واسع :

ولم تكن شهرة ابن الجوزى فى الوعظ والحديث لتمنعه من التبحر فى غيرهما والمشاركة فى ألوان الثقافة الأخرى فبرع فى علوم مختلفة وحاز مكانة فى أكثر من ميدان ، وطلب من كل فن ما أطاق .

قال : « إنى رجل حُبّب إلىّ العلم من زمن الطفولة فتشاغلت به ، ثم لم يحبَّب إلىّ

فن واحـــد منه ، بل فنونه كلها ، ثم لا تقتصر همتى فى فن على بعضه ، بل أروم استقصاءه » .

وقد جنى من تحصيله الكثير ثمرة فائقة جعلت له منزلة عالية فى جوانب الثقافة الإسلامية وأحلّته مكانا مرموقا مما جعله يقول فى آخر عمره : « وما نِلته من معرفة العلم لا يقاوَم » .

وهو فى ذلك يمثل شمول الثقافة العربية وسعة آفاقها .

فهو إلى جانب تبحره فى علوم القرآن والسنة واشتهاره فى ميدان الوعظ يشارك فى علم التاريخ وكتبه فيه لا تقل درجة عن المصادر الموثوق بها، وأشهرها كتابه « المنتظم فى تاريخ الأمم » كما يثبت أصالته فى علوم اللغة بكتب متعددة منها : تذكرة الأريب فى اللغة ، والوجوه والنظائر ، وتقويم اللسان ، والمقيم المقعد فى دقائق العربية . وما كان لواعظ محدث أن يتسع اهتمامه باللغة إلى هذا الحد الذى يجعله يؤلف فيها ، ولكن ابن الجوزى كان كغيره من الأئمة الأقدمين ، يؤمن بوحدة الثقافة الإسلامية ويرى أن بعضها يخدم البعض وأن الاقتصار منها على جانب ضِيق فى الأفق وقصور عن المعرفة .

بل إنه نظر فى الطب والفراسة والتجارب وله فى ذلك آثار . إلى جانب أنه كانت له حاسة أدبية مرهفة تظهر فى أسلوبه الذى يتميز بالقدرة على اختيار الألفاظ فى مواطنها وبالتلوين فى الصور والمهارة فى الاقتباس ، كما يتجلى ذلك فى كتابه الذى نعرضه اليوم .

كما كان ابن الجوزى ينظم الشعر فى مناسبات مختلفة ، وقد ذكر له ابن خلكان بعض المختارات ، منها قوله يخاطب أهل بغداد :

عذيرىَ من فتية بالعراق ... قلوبهم بالجفا قُلَّبُ
يرون العجيبَ كلام الغريب ... وقولُ القريب فلا يُعجبُ
مَيازيبهم إن تندَّت بخيرٍ ... إلى غير جيرانهم تقلبُ
وعذرهمُ عند توبيخهم ... مغنِّية الحىّ لا تُطربُ

وهكذا كان الرجل عالما أديبا وفقيها محدثا وواعظا مفكرا ، وقف موقف النقد من عصره وفكره .

موقفه من عصره ومجتمعه :

كان لابن الجوزى موقف متميز فى صلته بعصره ومجتمعه . فلم يكن من وعاظ السلاطين أو حاشية الملوك الذين تستكمل بهم الزينة أو يملأون حيزا يحدد لهم فلا يتجاوزونه.

بل كان الرجل ذا شخصية فذة ، عرف مكانه من بيئته وعصره ، فانطلق يجاهد بسلاحه الذى يملك ، وهو البيان والتعليم ، وتجافى عن ظل السلطان ونجا من المداهنة فى قوله أو الرياء بعلمه ، فاستطاع أن يستعلن بكلمة الحق وأن يعرف الإصرار فى الرأى والقوة فى الحجة والإقناع .

وتلمح خطته فى الإصلاح ومنهجه فى الثورة على المفاسد والانحرافات فى كتابه « تلبيس إبليس » الذى حدد فيه موقفه من الفكر والسلوك فى عصره .

وفى هذا الكتاب يخص ابن الجوزى شذوذ أدعياء التصوف ومخالفاتهم للشريعة بجانب كبير ، وقد اشتهر بعدائه للبدع وإنكاره لكل ما يخرج عن الهدى الإسلامى الصحيح . .

وهو بهذا سُنّى سلفى ، لا يرتبط بمذهب يحمله التعصب على نصرته ، ولا يأوى إلى رأى يذود عنه أو يقنع به ، بل هو مجتهد فى فهم الكتاب والسنة متقبِّل لما ساير العقل من الأثر ، ولهذا لم يبال أن يخالف أحدا ممن سبقوه ما دام ضياء العقل وبهاء النقل فى يده !

ولذلك تراه يردُّ على الإمام الغزالى كل مالا يتسق مع المنهج الفقهى الذى ارتضاه الغزالى نفسه ، إذ كان الغزالى المتصوف يناقض فى بعض الأحيان الغزالىَّ الفقيه ! فكان ابن الجوزى يعجب من ذلك ويلفت إليه .

وقد كان ابن الجوزى حنبلىَّ المذهب ، إلا أنك لا تحس منه وقوفا عند رأى ، بل

إن سناء عقله جعله يقف من التراث الإسلامى كله مُشْرفا يتطلع إلى الحق أينما كان . .

ولهذا لم يرتض الحنابلة أنفسهم كثيرا من آراء ابن الجوزى ، بل إنهم نقموا عليه بعضها .

يقول عنه ابن رجب الحنبلى فى كتابه « طبقات الحنابلة » : « نقم عليه جماعة من مشايخ أصحابنا ميله إلى التأويل فى بعض كلامه ، واشتد نكيرهم عليه فى ذلك ، ولا ريب أن كلامه فى ذلك مضطرب مختلف ، وهو وإن كان مطّلعا على الأحاديث والآثار فلم يكن يحلُّ شُبَه المتكلمين وبيان فسادها » . ثم علل اضطرابه بأنه : « كان معظِّما لأبى الوفاء ابن عقيل متابعا لأكثر ما يجده من كلامه ، وإن كان قد ردَّ عليه فى بعض المسائل ، وكان ابن عقيل بارعاً فى الكلام ولم يكن تام الخبرة بالحديث والآثار فلهذا يضطرب فى هذا الباب وتتلون فيه آراؤه ، وأبو الفرج تابع له فى هذا التلوّن » .

ويقول عنه الشيخ موفق الدين المقدسى : « كان ابن الجوزى حافظا للحديث وصنف فيه ، إلا أننا لم نرض تصانيفه فى السُّنة ولا طريقته فيها » .

والحق أن تعظيم ابن الجوزى لأبى الوفاء ابن عقيل ليس تعصبا ولا جمودا ولا تعبّدا بفكر ، إذ أن ابن عقيل حسب نقوله التى يرويها عنه ابن الجوزى فى كتبه المختلفة : رجل طليق الفكر ناضج الرأى مشرق الفهم بصير فى اتجاهه ، فلعل إعجاب ابن الجوزى به إعجاب المشارب المتفقة والأذواق المتلائمة ، خاصة حين نذكر أن ابن الجوزى لم يلتق بابن عقيل ولم يتصل به ، فقد توفى ابن عقيل قبل أن يولد ابن الجوزى ، وكان ابن عقيل من رجال القرن الخامس الهجرى ، وكل ما هنالك أن ابن الجوزى التقى به بفكره وتلمّح فى آثاره سعة الأفق واستنارة البصيرة وحرارة الإخلاص .

ولم يكن بدٌّ أن يتعرض ابن الجوزى ـ فى صراحته وجهره بالحق ـ لعداوات كثيرة فكرية وسياسية ومذهبية ، جلبت عليه الكثير من الأذى والحرج ، وقد كانت الخصومات المذهبية تشتد حتى يصيبه لَفْحها ، وحتى تدبَّر له المكائد بسبب إعلانه لما يراه حقا دون خشية أو مواربة .

يروى الذهبي في «تذكرة الحفاظ» أنه « قام عليه الركن عبد السلام بن عبدالوهاب الحنبلي تجاه الوزير ابن القصاب ، وكان الركن سيئ النِّحْلة أُحرقت كتبه بإشارة ابن الجوزى، وأعطى مدرسة الحنبلي ، فحمل الركنُ عليه وقال لابن القصاب الشيعى : أين أنت من ابن الجوزى ؟ ! فإنه ناصِبىٌّ ـ أى يبغض عليًا رضى الله عنه ـ ومن أولاد أبى بكر .

فجاءه مَن شتمه وأهانه وختم على داره وشتت عياله ، ثم أُخذ فى سفينة إلى واسط ، فحبس بها فى بيت وبقى يغسل ثوبه ويطبخ ، ودام على ذلك خمس سنين وما دخل فيها حمّاما ! » .

وتلك مظالم العصبية والطائفية التى عانت منها الأمة الإسلامية الرزايا العِظام !

أما الخصومات العلمية فقد كان بعضها يصل إلى درجة الطعن عليه ، مثل وصف ابن الأثير له فى مقدمه كتابه « اللباب » بالتدليس ، فى صدد دفاعه عن السمعانى . وكان بعضها هينا من باب النقد الخفيف ، من أنه كان يقع السهو فى تصانيفه وأنه كان يتمّ الكتابَ فلا يراجعه ، وأن معظم ما كتبه ليس من ممارسة العلماء .

كتبه :

كان ابن الجوزى من المكثرين فى الكتابة الموفقين فى التأليف والتصنيف حتى شاعت له شهرة فى ذلك وأحاطت المبالغة بعدد كتبه .

فهذا ابن العماد الحنبلي يذكر أن ابن الجوزى سئل عن عدد تصانيفه فقال : « زيادة على ثلاثمائة وأربعين مصنفاً ، منها ما هو عشرون مجلدا وأقل » .

ويقول عنه الذهبي : « ما علمت أن أحدا من العلماء صنّف ما صنّف هذا الرجل» .

ويقول ابن خلكان : « وبالجملة فكتبه أكثر من أن تُعد ، وكتب بخطه شيئا كثيرا ، والناسُ يغالون فى ذلك » .

وقد كان الرجل عميق الثقافة متسع المدارك خاليا من الشواغل والآفات ، فأكثر

من الكتابة والتصنيف ، ولكن هذا العدد الذى يُذكر لكتبه محوط بالتهويل والمبالغة ، ولعلهم كانوا يعدون الأجزاء من الكتاب الواحد كتبا متعددة .

والذى يُذكر من كتبه فى التراجم التى كتبت له لا يكاد يبلغ المائة ، والمؤسف أن القدر الذى بقى من كتبه لايزال أكثره فى طوايا النسيان يحتاج إلى من يُعنى به ويصونه من الضياع ، وهو بحاجة إلى جامعة إسلامية أو هيئة علمية تنفض عنه غبار الدهر وتدفع عنه يد البلى ، وإن الأزهر الشريف لأولى بذلك وأحق . .

إن ابن الجوزى يجد من يهتم بكتبه وآثاره من المستشرقين، وكثير من كتبه المخطوطة فى موضع العناية فى المكتبات والجامعات الأوربية وحين أخرجت كتابه « ذم الهوى » لم أجد فى مكتباتنا العربية نسخة منه يعوَّل عليها ، على حين وجدت النسخة الأصلية التى قرئت على ابن الجوزى فى مكتبة جامعة توبنجن بألمانيا الغربية وأخرى صحيحة كتبت بعده بقرن فى مكتبة باريس الأهلية !

وإننى لأكرر الدعوة هنا إلى أن تصان آثار ابن الجوزى وتتبع كتبه المفقودة أو النائية عنا وتستردّ عن طريق نشرها من أيدى الأوربيين الذين عنوا بتراثنا وحازوا أصوله على حين غفلة منا واستهانة .

ولا بأس أن نذكر هنا بعض ما عرف من كتب ابن الجوزى فى الفنون المختلفة ونشير إلى المطبوع منها .

ا ـ فى علوم القرآن وتفسيره :

١ ـ المغنى فى علوم القرآن .
٢ ـ فنون الأفنان فى عجائب علوم القرآن
٣ ـ زاد المسير فى علم التفسير
٤ ـ المجتبى فى علوم تتعلق بالقرآن

٥ ـ التفسير الكبير فى عشرين مجلدا
٦ ـ إخبار أهل الرسوخ بمقدار الناسخ والمنسوخ [طبع سنة ١٣٢٢ هـ]

ب ـ علوم الحديث :

١ ـ الكشف فى أحاديث الصحيحين
٢ ـ تهذيب المسند . عشرون مجلدا
٣ ـ المختار من أخبار المختار
٤ ـ مشكل الصحاح ـ أربعة مجلدات
٥ ـ جامع المسانيد ـ سبع مجلدات
٦ ـ الموضوعات [طبع بالهند]
٧ ـ الواهيات
٨ ـ الضعفاء
٩ ـ تلقيح فهوم أهل الأثر [طبع بالهند]

ج ـ الوعظ :

١ ـ بستان الواعظين
٢ ـ نتيجة الإحياء . اختصر به إحياء علوم الدين للغزالى
٣ ـ تبصرة الأخيار
٤ ـ روح الأرواح [طبع]
٥ ـ الثبات عند الممات
٦ ـ المورد العذب
٧ ـ لفتة الكبد إلى نصيحة الولد [طبع]
٨ ـ القصاص والمذكرون

٩ ـ منهاج المريدين

١٠ ـ التبصرة [وهو الذى نقدمه اليوم]

١١ ـ المدهش [طبع]

١٢ ـ رءوس القوارير فى الخطب والمحاضرات والوعظ والتذكير . [طبع]

١٣ ـ تنبيه النائم الغمر على حفظ مواسم العمر

١٤ ـ الياقوتة فى الوعظ

د ـ التاريخ والتراجم :

١ ـ المنتظم [طبع]

٢ ـ مختصر المنتظم

٣ ـ مناقب عمر بن عبد العزيز [طبع]

٤ ـ شذور العقود فى تاريخ العهود

٥ ـ صفة الصفوة [طبع]

٦ ـ مناقب أحمد بن حنبل .

٧ ـ الذهب المسبوك فى سير الملوك

٨ ـ فضائل القدس .

١٠ ـ أخبار النساء

١١ ـ مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن

١٢ ـ مناقب عمر بن الخطاب [طبع]

١٣ ـ الوفا بأحوال المصطفى [طبع]

هـ — علم الكلام :

١ ـ التحقيق فى مسائل الخلاف
٢ ـ الإنصاف فى مسائل الخلاف
٣ ـ دفع شبهة التشبيه والرد على المجسمة [طبع]
٤ ـ تجريد التوحيد المفيد

و ـ اللغة والأدب :

١ ـ تقويم اللسان
٢ ـ المقيم المقعد فى دقائق العربية
٢ ـ تذكرة الأريب
٤ ـ الوجوه والنظائر فى اللغة
٥ ـ الأذكياء [طبع]
٦ ـ الحمقى والمغفلون
٧ ـ ذم الهوى [طبع]
٨ ـ المقامات
٩ ـ لقط المنافع فى الطب والفراسة عند العرب

ز ـ النقد الدينى والاجتماعى :

١ ـ صيد الخاطر [طبع]
٢ ـ تلبيس إبليس [طبع]

وهذا التراث الوفير قليل من كثير مما كتب ابن الجوزى ، وكم له من كتب شتى

منثورة فى المكتبات القاصية ، مما يجعل حقا علينا أن نصون هذا التراث حتى لا تحرم أمتنا من كنوز علمائها وهداتها ، وحتى لا يحتجب عنا هذا الضياء أشد ما نكون حاجة إلى سناه وهداه .

هـــذا الكتاب

والكتاب الذى نقدمه اليوم لابن الجوزى هو أجمع ما ترك ابن الجوزى فى علم الوعظ الذى اشتهر به وغلب عليه . فقد كان ابن الجوزى - كما قدمنا - صاحب مَلَكة فى الوعظ جعلته يؤثر فى الناس ويجمع حوله القلوب. وقد صاحبته هذه النزعة منذ نشأته .

وقد أراد ابن الجوزى أن يسجل ملامح هذه الموهبة فى كتاب التبصرة الذى أراد منه أن يكون كتابا فى « علم الوعظ » يغنى عن النظر فيما صنعه بعض الأعاجم من كتب فى هذا الموضوع ، كما يذكر ابن الجوزى فى مقدمة كتابه[1] .

ومن هنا أراد ابن الجوزى أن يجعل من كتابه مرجعا فى هذا العلم يُغْنى عن النظر فيما سواه فتوسع فيه ما شاء وتفنن ، وجمع فيه بين مواد من الثقافة الإسلامية ونَظَمها فى سياق لا اضطراب فيه ولا اختلاف .

وقد قسم ابن الجوزى كتابه إلى تسع طبقات تجمع أبوابا كثيرة من جوانب العقيدة والتشريع والأخلاق والقصص والسير ، وكلها تحوى مائة مجلس، معظم صدورها تقوم على خبر أو رواية وأعجازها تقوم على آيات مختارات مما يرقق القلوب ويهذب النفوس والأخلاق .

ولا يذكر لنا ابن الجوزى فى مقدمته شيئا عن كتب الوعظ التى ألفت من قبل ، وأظن أنه ما سبق ابن الجوزى أحدٌ فى هذا الباب إلا الإمام أبو حامد الغزالى فى كتبه المعروفة ، إلا أنه لم ينح بها منحى الصنعة والتفنن فى علم بعينه ، ولكنه جعلها كتب حقائق ومعارف .

---

(١) ص ١ من هذا الكتاب .

أما ابن الجوزى فإن كتابه هذا يمثل تطور صناعة الوعظ كفن مستقل له خصائصه الأسلوبية وملامحه البديعية التى أثرت فيه وميزته إلى عهد قريب .

إلا أن كتاب التبصرة لا يمكن اعتباره كتابا خالصا فى الوعظ ، رغم ما يجمعه من فنونه المتنوعة ، ففيه كما أشرت مواد من الثقافة العربية تجعل له قيمة علمية إلى جانب غايته الخلقية :

ا ـ ففيه مادة واسعة من التفسير ، تستعرض الأقوال وتحشد الروايات وتفصل الآراء ، إذ أن ابن الجوزى فى آياته المختارة وفى شرحه لما يبنى عليه مجالسه ، يعنى بإيراد أقوال المفسرين على نحو مفصل ، ويذكر لكل قول ما يؤيده من رواية ، مما نرى فيه نموذجا للتفسير بالنقل والأثر .

ب ـ وفيه مادة لغوية أصيلة ينقلها ابن الجوزى عن أئمة اللغة والنحو كسيبويه والزجاج والفراء وابن الأنبارى وأبو عبيدة ، كاستشهاده على أن أصل ملَك[1] مَلْأك . وكتفسيره اللغوى لقوله تعالى : « وضاق بهم ذرعا[2] » وتفسيره للرحيق المختوم[3] ، وكتخريجه لقراءات : « وحور عين[4] » وغير ذلك مما يشيع فى الكتاب من وجوه وقراءات .

جـ ـ وفيه مادة أدبية ، هى أوسع ما تضمنه الكتاب ، وهى ذلك الشعر الذى جعله ابن الجوزى وسيلته فى التأثير والإيحاء .

وهذا الشعر هو أهم مادة قدمها إلينا الكتاب ، من حيث إنه حفظ لنا تراثا أدبيا إسلاميا لم يعن به أصحاب المجموعات والمختارات الأدبية ، هو شعر الزهد والرقائق والتأمل والاعتبار ، وبعض هذا الشعر معروف النسبة ، وهو قليل ، وقد نسبته إلى أصحابه كأمية ابن أبى الصلت وسابق البربرى وأبو العتاهية وابن مناذر ، وكثير منه لا يعرف قائله ، ولم يرد فى المصادر الأدبية المتداولة .

---

(١) ص ١٢ . (٢) ص ١٥١ . (٣) ص ٢٣١ . (٤) ص ٢٤٥ .

ومما يزيد فى قيمة هذا الشعر الوارد فى كتاب التبصرة ، أنه ليس نظما سخيفا ولا تكلفا متمحّلا ، وإنما هو - فى أغلبه - شعر يجمع مقاييس الجودة فى شكله ومضمونه ويصدر عن عاطفة صادقة ونظرة حكيمة ، مما يبطل الوهم الذى كان يسود بين النقاد الأقدمين من أن أَعْذَبَ الشِّعر أَكْذَبه ! وأن الشعر نَكِد يَضْعف فى الخير ويَقْوى فى الشر !

والحق أن ابن الجوزى قد أَسْدَى إلى الأدب الإسلامى صنيعة لا تنكر حين جمع فى كتابه هذا الحشد الضخم من المختارات الشعرية التى تصور كيف تمثَّل الأدب العربى معانى الإسلام وكيف عبر عن الحقائق التى آمن بها الوجدان العربى، ولو أن ابن الجوزى عُنى بنسبة هذا الشعر إلى قائليه لتمت الفائدة ولاستطعنا أن نصدر حكمنا فى مواقف العصور الأدبية من قضية الأدب الإسلامى على نحو دقيق .

ويَقْوى فى ظنى أن ابن الجوزى قد أورد فى هذا الكتاب شيئا من أشعاره هو ، إذ كان ابن الجوزى ينظم الشعر ، كما ذكر ذلك ابن العماد وابن خلكان ، وما كان ليقصر عن النظم فى هذا الموضوع الذى ملَك عليه اهتمامه وجرى مع طبيعته .

ويمتاز ابن الجوزى فى استشهاده بالشعر بحاسة مرهفة تجعله يضع كل شاهد فى موضعه الذى يؤثر فيه غاية التأثير ، وذلك دليل على القدرة على الرواية والتذوق الأدبى الصحيح .

د — ويبقى بعد ذلك مادة الوعظ فى الكتاب ، وهى تلك المقالات الإنشائية المسجوعة فى الغالب ، التى ضمنها ابن الجوزى معانيه فى الحث على الزهادة والتذكير بالآخرة والتحذير من الذنوب ، وهى أغلب المعانى التى ترد فى هذه المقالات .

واختيار ابن الجوزى للسجع فى هذا الجانب دليل على ما كان للسجع من تأثير على الأسماع ، وقد أتى ابن الجوزى بسجعه طبيعيا غير مستكره ، مما يدل على تفننه فى

التعبير وامتلاكه لزمام أسلوبه . كما عنى ابن الجوزى فى هذه المقالات بالصور البيانية من استعارة وتشبيه وكناية ، قصدا إلى التأثير أو الإيضاح .

ولئن كان ذوقنا الأدبى فى العصر الحديث لا يرضى عن السجع ولا يؤثره فى التعبير ، إلا أنه لا يمكن تطبيق هذا المقياس على عصر ابن الجوزى الذى كان يرى فى السجع قدرة أسلوبية وخاصة فى مواطن التأثير والتحذير .

وابن الجوزى قد عرف فى أسلوبه كلا اللونين : المرسل والمسجوع ، ويمثل أسلوبه المرسل كتابه : صيد الخاطر الذى جعله تأملات طليقة فى جوانب الدين والفكر والحياة . فلم يكن يلتزم السجع فى كتبه ولكنه رأى ذلك اللون البديعى مناسبا لمجال الوعظ الذى يتطلب التفنن فى التأثير والإيحاء ، ونحن نعلم أن السجع ليس معيبا لذاته ، وإنما يعاب حين يستكره الأسلوب عليه وتضطرب المعانى من أجل الإتيان به ، أما حين يأتى مطاوعاً للفكرة موائما للسياق فهو محمود مرغوب .

***

وهكذا نرى فى كتاب التبصرة مجموعة من ألوان الثقافة الإسلامية والعربية الأصيلة إلى جانب لونه الأدبى الطريف ، وذلك ما جعلنى أرى فى نشره فائدة محققة إلى ما فيه من صَوْن لتراث ابن الجوزى وإحياء آثاره .

وقد التزم فيه ابن الجوزى الصحة فيما يذكره من روايات وأخبار ، إلا فى جانب قليل ، كحديث موضوع أشرت إلى وضعه نقلا عن ابن الجوزى نفسه ! وكأخبار وهب ابن منبه الواهية التى يتحدث فيها عن القدماء بغير حجة ولا أثَر ، وقد أشرت إلى ذلك فى مواطنه .

منهج التحقيق :

اعتمدت فى إخراج هذا الكتاب على أربع نسخ خطية :

١ ـ نسخة مكتبة طلعت ١٤٤٩ تصوف وقد كتبت فى القرن السابع الهجرى إلا أن بها خروما فى مواضع متفرقة . ورمزت إليها بحرف (ا)

٢ ـ نسخة مكتبة طلعت ١٤٤٨ تصوف وهى كاملة وبها زيادات عن النسخة السابقة وقد رمزت لها بحرف (ب) ويبدو أنها مكتوبة فى نحو القرن التاسع الهجرى .

٣ ـ نسخة دار الكتب ٢٦٠١ تصوف وأظنها منقولة عن النسخة السابقة إذ أن أخطاءهما واحدة . ورمزت لها بحرف (ج) .

٤ ـ نسخة مكتبة طلعت رقم ١٤٩٢ تصوف وهى مختصر لكتاب التبصرة اسمه : تذكرة الأيقاظ من تبصرة الوعاظ ، اختصره محمد بن ملا الحنفى فى القرن الثامن الهجرى.

وهذا المختصر دقيق جدا فى كتابته وتصحيحه ، وقد كنت أعتمد عليه فى تصويب أخطاء نسخ ب ، ج فى المواطن المفقودة من نسخة ا التى تعتبر النسخة الأم ، لولا أنها غير كاملة .

وقد أثبت أهم الفروق بين هذه النسخ ، وضبطت ما يحتاج إلى الضبط ، وعرفت ببعض الأعلام ، وخرجت كثيرا من أحاديث الصحيحين ، ونسبت ما أمكننى الاهتداء إليه من الشعر إلى أصحابه ، وشرحت الألفاظ اللغوية التى تحتاج إلى الشرح ، وراعيت فى ذلك كله الاختصار والاقتصار على المهم ، إذ أن الكتاب طويل يبلغ فى أصله ثلاثة أجزاء كبيرة ؛ فلم أر أن أزحم هذا الأصل الطويل بما يزيده طولا أو يخرج به عن مقصوده .

وقد وقعت فى هذا الجزء أخطاء يسيرة أشرت إلى أهمها ، وسوف أثبت ما يظهر لى بعد ذلك منها فى الجزء الثانى من الكتاب .

وحسبي فى هذا العمل ما فيه من نية صالحة وجهد مبذول ، وأن يكون فيه مشاركة فى حفظ تراث الإسلام وإبلاغ رسالته ، ولله الحمد فى الأولى والآخرة ومنه وحده المعونة والتوفيق ؟

ربيع الثانى سنة ١٣٩٠ هـ
يونية سنة ١٩٧٠ م

د . مصطفى عبد الواحد
بمجمع اللغة العربية ـ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله . قال الشيخ الإمام العالم جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى رحمة الله عليه :

الحمد لله الذى لا أوّل لوجوده ولا آخر لجوده ، وصلى الله على خير مبعوث بشرائعه وحدوده ، وعلى الصحابة وأزواجه وجنوده . وسلّم تسليما كثيراً .

أما بعد: فإن جماعةً من أصحابى أحبوا التشاغل بعلم الوعظ ولم يجدوا فيه كتاباً يجوز الاعتماد عليه ، وإنّ جماعةً من الأعاجم صنعوا كتباً فى ذلك ملأوها بالأحاديث الباطلة والمعانى الفاسدة ، ناظرين إلى حُسْن اللفظ غير باحثين عن الصِّحة ، فهمّتهم تكثير الجمع، ونَهْمَتهم تحريك الطَّبْع ، فربما ذكروا أشعارَ العشق والمحبة التى توجب انبساط المبتدى وتبعده عن الهيْبة والخوف ، أو تُميل قلبَه إلى حب الدنيا ، وربما ذكروا [من] أحاديث الرُّخَص الكذِب ما يُهَوِّن المعاصى . إلى غير ذلك ، وقد ذكرت عيوبهم فى كتاب القِصاص عن القُصَّاص .

فرغِب أصحابى فى إملاء كتاب يُغْنى عن النظَر فى تلك الكتب ، فأجبتهم لاجتنابهم عن الباطل واجتلابهم إلى الحق ، فأمليتُ فى هذا الكتاب مائةَ مجلس جعلت، مُعْظَم صدورها على روايات ، وجعلت أعجازَها على آيات ، وفيها ما صَدْرُه مبنىٌّ على أحاديث إلا أنى جعلتُ الصدورَ فى مجالس الصدور على تسع طبقات :

الطبقة الأولى تشتمل على قصص الأنبياء والقدماء ، وفضائل الصحابة والصحابيات.

الطبقة الثانية تشتمل على فضائل أيام السنة ولياليها المذكورات .

الطبقة الثالثة تشتمل على ذكر خَلْق ابن آدم والأرض والسماوات .

الطبقة الرابعة تشتمل على فضل العلم والمعاملات .

الطبقة الخامسة تشتمل على ذكر ذم المعاصى والمكروهات .

الطبقة السادسة تشتمل على ذكر الموت والقبر والقيامة والنار والجنات .

الطبقة السابعة تشتمل على وعظ أرباب الولايات .

الطبقة الثامنة تشتمل على التعازى عن الأموات .

الطبقة التاسعة تشتمل على مواعظ ومختصرات .

فأما أعجاز المجالس فعلى آيات مُطْلقات .

وقد جمع هذا الكتاب من فنون المتخيَّرات المنتخَبات ما يغنى المبتدِى ولا يستغنى عنه المنتهى . والله الموفق للخيرات .

* * *

وها أنا أذكر عدَد المجالس فى كل طبقة من الطبقات ، وما تحتوى عليه من الآيات ، ليتخيَّر المتكلِّم ما يتكلم به مما يليق بالأوقات .

الطبقة الأولى فيها أربعة وثلاثون مجلساً : الأول صَدْره فى ذكر آدم ، وعَجُزه « التائبون العابِدون » .

الثانى صَدْره قصة هابيل وقابيل وعجزه : « وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربكم » .

الثالث صدره ذكر إدريس وعجزه : « قل انظروا ماذا فى السماوات » .

الرابع صدره قصة نوح . وعجزه : « يومَ تجِدُ كلُّ نفسٍ ما عملتْ من خيرٍ مُحْضَرا »

الخامس صدره قصة عاد . وعجزه : « ولا تحْسَبَنَّ الله غافلا عمَّا يعملُ الظالمون » .

السادس صدره قصة ثمود وعجزه : « وَاستَمِع يومَ ينادِى المنادِى » .

السابع صدره قصة الخليل صلوات الله عليه ، وعجُزُه : « قلنا يانارُ كُونى بَرْداً وسلاماً على إبراهيم » .

الثامن صدره قصة بناء الكعبة وعجزه : « فى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أن تُرْفَعَ » .

التاسع صدره قصة الذَّبيح ، وعجزه : « ليسَ بأمانيِّكم ولا أمانىِّ أهلِ الكتاب »

العاشر صدره قصة لوط . وعجزه : « قُلْ للمؤمنينَ يَغُضُّوا من أبصارهم » .

الحادى عشر صدره قصة ذى القَرْنين . وعجزه : « فهل يَنْظرون إلا الساعَة » .

الثانى عشر صدره قصة يوسف صلى الله على محمد وعليه . وعجزه : « وقضى ربُّك ألا تَعْبدوا إلا إياه » .

الثالث عشر صدره قصة أيوب صلى الله على محمد وعليه وعجزه : « إنى جَزيتُهم اليومَ بما صَبروا » .

الرابع عشر صدره قصة شعيب صلى الله على محمد وعليه . وعجزه : « كلا إذا بلغت التراقى » .

الخامس عشر صدره قصة موسى صلى الله على محمد وعليه . وعجزه : « إن الأبرار لفى نعيم » .

السادس عشر صدره قصة الخِضر . وعجزه : « يَطُوف عليهم ولْدان مخلَّدون » .

السابع عشر صدره قصة قارون . وعجزه : «ذَرْهم يأكلوا ويتمتعوا » .

الثامن عشر صدره قصة بَلْعام وعجزه : « فاعتبروا ياأولى الأبصار » .

التاسع عشر صدره قصة داود . وعجزه: « أيحسَبُ الإنسانُ أنْ يُتْركَ سُدَى » .

العشرون صدره قصة سليمان . وعجزه : « القارعةُ ما القارعة » .

الحادى والعشرون صدره قصة : بلْقيس وعجزه « لا أقسمُ بيوم القيامة» .

الثانى والعشرون صدره قصة سَبأ وعجزه : « رفيعُ الدرجاتِ » .

الثالث والعشرون صدره قصة يونس . وعجزه : « أفرأيت إنْ متَّعناهم سنين »

الرابع والعشرون صدره قصة زكريا وعجزه : « يومَ يبعثُهم الله جميعا » .

الخامس والعشرون صدره قصة مريم وعيسى . وعجزه: « وتوبوا إلى الله جميعا » .

السادس والعشرون صدره قصة أهل الكهف وعجزه : « قد أفلحَ المؤمنون » .

السابع والعشرون صدره فضل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعجزه : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وَجلت قلوبهم »

الثامن والعشرون صدره فضائِل أبى بكر الصديق رضى الله عنه وعجزه : « يا أيها الذين آمنوا لا تُلْهِكم أموالكم ولا أولادكم عن ذِكر الله » .

التاسع والعشرون صدره فضائل عمر رضى الله عنه وعجزه : « وجوهٌ يومئذ ناعمة لسعيها راضية » .

الثلاثون صدره فضائل عثمان رضى الله عنه وعجزه : « والله يَدْعو إلى دار السلام »

الحادى والثلاثون صدره فضائل علىٍّ رضى الله عنه وعجزه : « إنّ الأبرارَ يَشْربون من كأسٍ » .

الثانى والثلاثون صدره فضائل عائشة رضى الله عنها وعجزه : « والذى تولَّى كِبره منهم » .

الثالث والثلاثون صدره فضائل الصحابة رضى الله عنهم وعجزه : « ولا تَطْرد الذين يَدْعون ربَّهم بالغداة والعَشِى » .

الرابع والثلاثون صدره فضائل أمة محمد صلى الله عليه وسلم وعجزه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

* * *

الطبقة الثانية فيها أحد عشر مجلساً :

الأول صدره فى ذكر عاشوراء والمحرَّم وعجزه : « ولا تَقْتُلوا النفسَ » .

الثانى صدره فى ذكر رجب وعجزه : « إنّ عِدةَ الشهور عندَ الله اثنا عشر شهرا » .

الثالث صدره فى ذِكر المعراج وعجزه : « سبحان الذى أسرَى بعبده ليلاً » .

الرابع صدره فضائل شعبان وعجزه : « أمْ حسِب الذين اجترحوا السيئاتِ » .

الخامس صدره فضائِل ليلة النصف من شعبان وعجزه : « حم والكتاب المبين » .

السادس صدره فضائل رمضان وعجزه : « كُتب عليكم الصيامُ » .

السابع صدره لانتصاف رمضان وعجزه: « شهرُ رمضان الذى أنزل فيه القرآن » .

الثامن صدره ذكر العَشْر وليلة القَدْر وعجزه : « إنّا أنزلناه فى ليلة القدر » .

التاسع صدره فى ذكر عيد الفطر وعَجُزه : « ألا إنّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون » .

العاشر صدره فضل عَشْر ذى الحجة وعجزه : « ألم تر كيف فعل ربك بعادٍ » .

الحادى عشر صدره ذكر يوم عَرفة وعجزه : « وأذِّن فى الناس بالحج » .

الطبقة الثالثة فيها ثلاثة مجالس :

الأول صَدْره ذكر خلق ابن آدم وعجزه : « ثم إنكم بعدَ ذلك لميّتون » .

الثانى صدره فى ذِكر خَلْق السموات وعجزه : « وترى كلّ أمةٍ جاثية » .

الثالث صدره فى ذكر الأرض وعجائبها وعجزه : « فإذا انشقّت السماء فكانت وَرْدة كالدِّهَان » .

* * *

الطبقة الرابعة فيها ثمانية وعشرون مجلسا :

الأول صدره فى فضل العِلْم وعجزه : « فاليوم لا تُظلم نفس شيئا » .

الثانى صدره فى ذكر الطهارة وعجزه : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء » .

الثالث صَدْره فى ذكر الصلوات وعجزه : « إنّ الذين سَبقت لهم منا الحسنَى » .

الرابع صدره فى ذكر الزكاة وعجزه : « لن تنالوا البرّ » .

الخامس صدره فى ذكر الصيام وعجزه : « ولقد خلقنا الإنسانَ ونَعْلم ما تُوَسْوس به نفسُه » .

السادس صدره فى ذكر الحج وعجزه : « إنّ الذين يتلون كتاب الله » .

السابع صدره فى حق الأخوّة والصداقة وعجزه : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا » .

الثامن صدره فى ذكر العُزْلة وعجزه : « تتجافَى جُنوبهم عن المضاجع » .

التاسع صدره فى الأمر بالمعروف وعجزه : « فإذا نُفخ فى الصُّورِ » .

العاشر صدره فى ذكر التوبة وعجزه : الأخلّاء يومئذٍ بعضهم لبعضٍ عدوّ إلا المتقين » .

الحادى عشر صدره فى ذكر الصبر وعجزه: « ولَنَبْلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » .

الثانى عشر صدره فى ذكر الشُّكْر وعجزه : « إنّ الذين كذَّبوا بآياتنا » .

الثالث عشر صدره فى ذكر الخوف وعجزه : « وبالحقّ أنزلناه وبالحق نَزَل » .

الرابع عشر صدره فى النية والإخلاص وعجزه : « أوَلم نعمِّركم مايتذكر فيه من تذكَّر وجاءكم النذير » .

الخامس عشر صدره فى اليقين وعجزه : « والصافات صفا » .

السادس عشر صدره فى الزُّهد وعجزُه : « ياأيها الناس اتقوا ربكم » .

السابع عشر صدره فى فضل الفقر الفقراء وعجزه : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآنَ » .

التاسع عشر صَدره فى محاسبة النفس وعجزه : « لقد تابَ الله على النبيّ » .

العشرون صَدره فى التقوى والمراقبة وعجزه : « يوم نَحْشر المتقين إلى الرحمن وَفْدا » .

الحادى والعشرون صدره فى ذكر الورَع وعجزه: « يا أيها الرسل كلوا من الطيباتِ»

الثانى والعشرون صدره فى ذكر القَلْب ، وعجزه : « أأنتم أشدُّ خَلْقا أم السماء بناَها » .

الثالث والعشرون صدره فى ذكر التفكّر ، وعجُزه: «كلاّ إنها تَذْكرة » .

الرابع والعشرون صَدْره فى ذكر التوكل وعَجُزه : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة » .

الخامس والعشرون صدره فى ذكر المحبة وعجزه « من يَرتدَّ منكم عن دِينه » .
السادس والعشرون صدره فى الرضا وعجزه : « والطُّور وكتابٍ مسطور » .
السابع والعشرون صدره فى فعل المعروف وعجزه : « وما قدَروا الله حق قَدْره »
الثامن والعشرون صدره فى الدعاء وعجزه : « إذا وقعت الواقعة » .

***

الطبقة الخامسة تشتمل على ذم المعاصى والمكروهات فيها أحد عشر مجلسا :
الأول صدره فى ذم الغيبة ومعاصى اللسان . وعجزه: « فوربِّك لنحشرنّهم والشياطينَ »
الثانى صدره كسر شهوة النفس وعجزه : « لا تأكلوا الرِّبا » .
الثالث صدره فى ذكر شهوة الفرج وعجزه: « والملَك على أرجائها » .
الرابع : صدره فى ذم الحسد وعجزه : « إذا الشمس كوّرت » .
الخامس صدره فى ذم الغضب وعجزه : « إن يومَ الفصل كان ميقاتا » .
السادس صدره فى ذم الكِبْر وعجزه : « وكذلك أَخْذ ربك » .
السابع صدره فى ذم الدنيا . وعجزه : « اعلموا أنَّمَا الحياة الدنيا لعب ولهو » .
الثامن صدره فى ذم البخل وعجزه : « الذين يُوفون بعَهْد الله » .
التاسع صدره فى ذم الأمَل وعجزه : « اقتربت الساعةُ ».
العاشر صدره فى ذكر مكائد الشيطان وعجزه : « كلا بل لا تُكرمون اليتيم » .
الحادى عشر فى التحذير من الغرور وعجزه : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا » .

***

الطبقة السادسة تشتمل على ذكر الموت والقبر والقيامة والنار والجنات فيها خمسُ مجالس :

الأول صدره فى ذكر الموت وعجزه : « قل إنّ الموت الذى تفِرّون منه فإنه مُلَاقيكم » .

الثانى صدره فى ذكر القبر ، وعجزه : « حتى إذا جاء أحدهم الموتُ قال ربِّ ارجعونى » .

الثالث صدره فى ذكر القيامة وعجزه : « ويسألونك عن الجبال » .

الرابع صدره فى ذكر الجنة وعجزه : « مَثَلُ الجنة التى وُعِد المتقون » .

الخامس صدره فى ذكر جهنم وعجزه : « قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً » .

الطبقة السابعة : فيها مجلسان :

الأول لوعظ السلطان .

الثانى لتذكير أرباب الولايات .

الطبقة الثامنة فيها مجلسان : الأول والثانى فى التعازِى .

الطبقة التاسعة فيها مواعظ مختصرات . وذلك تمام المائة .

والله المشكور والمحمود على كل حال .

الطَّبقةُ الأُولى

فيهَا أَربعَةٌ وثَلاثُونَ مجلسًا

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الأول فى ذكر[(١)] آدم عليه الصلاة والسلام

الحمد لله الذى سيَّر[(٢)] بقدرته الفلْك والفلَك ، ودبَّر بصنعته النور والحلك ، اختار آدم فحسده الشيطان وغبطه الملَك ، وافتخروا[(٣)] بالتسبيح والتقديس فأما إبليس فهلك[(٤)] « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » تعالى عن وزير ، وتنزه عن نظير ، قَبِل من خلقه اليسير ، وأعطى مِن رزقه الكثير ، أنشأ السحاب الغزير يحمل الماء النمير ليعم عباده بالخير ويَميِر ، فكلما قصر القَطْر فى الوقع صاح الرعد بصوت الأمير ، وكلما أظلمت مسالك الغيث لاح البرق يوضح وينير ، فقامت الوُرْق على الوَرق تصدح بالمدح[(٥)] على جنبات الغدير ، فالجماد ينطق بلسان حاله ، والنبات يتكلم بحركاته وبأشكاله ، والكل إلى التوحيد يُشِير ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

أحمده وهو بالحمد جدير وأقر بأنه مالك التصوير والتصيير .

وأصلى على محمد رسوله البشير النذير ، وعلى صاحبه أبى بكر الصديق وعلى عمر ذى العَدْل العزير[(٦)] ، وعلى عثمان مجهز جيش العسرة فى الزمان العسير ، وعلى علىّ المخصوص بالموالاة يوم الغدير ، وعلى عمه العباس المستسقَى به الماء النمير ، [جد سيدنا الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أدام الله أيامه إدامة رَضْوى وثَبير[(٧)]] .

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وألهمنا القيامَ بحقك وباركْ لنا فى الحلال مِن رِزْقك ، وعُدْ علينا فى كل حال بِرِفقك ، وانفعنى بما أقول والحاضرين من خَلْقك برحمتك يا أرحم الراحمين .

---

(١) ا : فى ذم آدم . وهو تحريف .   (٢) ج : تسير .   (٣) ا : فافتخر .

(٤) ج : فيها هلك .   (٥) ا : تصدح وتمدح .   (٦) العزير : الناصر المؤيد .

(٧) ليست فى ا .

قال الله تعالى : « وإذْ قال ربك للملائــكة إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة[١] » .

« إذ » كلمةٌ جُعلت لما مضى من الأوقات ، فــكأنه قال اذكر ذلك الوقت .

والملائــكة واحدهم مَلك والأصل مَلْأَك وأنشد سيبويه :

فلست بإنسىّ ولــكن لمَلْأَك تنزَّل من جوّ السماء يَصُوب[٢]

ومعنى مَلْأَك : صاحبُ رسالة . يقال مَأْلــكة ومَلْأَكة[٣] .

واختلف العلماء ما المقصود بإعلام الملائــكة بخَلْق آدم عليه السلام على تسعة أقوال:

أحدها : أنه أراد إظهار كِبْر إبليس ، وكان ذلك قد خَفِي على الملائكة لما يرَون من تعبّده . رواه الضحاك ، عن ابن عباس .

والثانى : ليَبْلو طاعةَ الملائــكة . قاله الحسن .

والثالث : أنه لمـا خلق الله تعالى النارَ جزِعت الملائكة ، فقال : هذه لمن عصانى فقالوا : أو يأتى علينا زمان نعصيك فيه ؟ فأخبرهم بخَلْق غيرهم . قاله ابن زيد .

والرابع : أنه أراد إظهار عَجْزهم عما يَعْلمه لأنهم قاسُوا على حالٍ من كان قبل آدم .

والخامس : أن الملائــكة التى طردت الجن[٤] من الأرض قبلَ آدم أقاموا فى الأرض يعبدون ، فأخبرهم أنى جاعل فى الأرض خليفة ليوطنوا[٥] أنفسَهم على العَزْل .

والسادس : أنهم ظنوا أن الله لا يخلق خَلْقا أكرمَ منهم ، فأخبرهم بما يخلق .

والسابع : أنه أعلمهم بما سيكون ليعلموا عِلْمه بالحادثات .

والثامن : أنه أراد تعظيمَ آدم بذِكْره قبلَ وجوده .

والتاسع : أنه أعلمهم أنه خلقَه ليُسْــكنه الأرضَ وإن كان ابتداء خلقه فى السّماء .

والخليفة : القائِم مقام غيره . يقال : خلَف الخليفةُ خلافةً وخِلِّيفَى[٦] ، وعلى وزن

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠ . (٢) الـكتاب ٢/٣٧٩ ط الأميرية . (٣) الـكتاب : « وقالوا مألــكة وملأكة وإنما يريد رسالة » ٢/٣٧٩ . (٤) ا : التى طردت المفسدين (٥) ا : ليوطئوا . (٦) ا : يقال : خلف خليفه خلافة وخلفا .

ذلك أحرف منها : خِطِّيبى من الخطبة ، ورِدِّيدَى من الرّدّ ، ودِلِّيلَى من الدّلالة ، وحِجِّيزى من حَجزتُ ، وهِزِّيمى من هزمتُ .

قال أبو بكر ابن الأنبارى : والأصل فى الخليفة : خليف فدخلت الهاء للمبالغة فى مدحه بهذا الوصف كما قالوا علامة ونسَّابة وراوية .

وفى معنى خلافته قولان : أحدهما : خليفة عن الله تعالى فى إقامة شرعه . روى عن ابن عباس ومجاهد .

والثانى : أنه خلَف من كان فى الأرض قَبْلَه . روى عن ابن عباس .

قوله تعالى : « أتجعل فيها من يُفسد فيها » الألف للاستفهام وفيها ثلاثة أقوال : أحدها أنه استفهام إنكار ، والتقدير : كيف تفعل هذا ، وهو لا يليق بالحكمة . وروى يحيى بن كثير عن أبيه قال : كان الذين قالوا هذا عشرة آلاف من الملائكة فأُرسلت عليهم نارٌ فأحرقتهم .

والثانى : أنه استفهام إيجاب ، تقديره : ستجعل كما قال جرير :

* ألستم خيرَ من ركِب المطَايَا * ، قاله أبو عبيدة .

والثالث أنه استفهام استعلام .

ثم فى مرادهم أربعة أقوال: أحدها أنهم استعلموا وجهَ الحكمةِ فى جعْل من يُفسِد .

والثانى : أنهم استعظموا معصية المستَخْلَفين فكأنهم قالوا : كيف يعصونك وقد استخلفتَهم ، وإنما ينبغى أن يسبِّحوا كما نسبِّح نحن .

والثالث : أنهم تعجَّبوا من استخلاف من يفسد .

والرابع : أنهم استفهموا عن حال أنفسهم ، فتقدير الكلام : أتجعل فيها من يفسد ونحن نسبِّح أم لا . ذكره ابن الأنبارى .

والمراد بالفساد العمل بالمعاصى، وسَفْكُ الدم: صَبُّه وإراقته. وشدَّد السينَ أبو نُهَيك . وقرأ طلحة بن مُصرِّف « يَسْفُك » بضم الفاء .

والتسبيح: التنزيه لله من كل سُوء. والتقديس: التطهير. والمعنى: ننزهك ونعظِّمك.

قوله تعالى: «إني أعلم ما لا تَعْلمون» أى أنه سيكون من ذريته أنبياء وصالحون.

وأما خَلْق آدم فأخبرنا هبة الله الشَّيبانى قال: أخبرنا الحسن بن على التميمى، قال: أخبرنا أحمد بن جعفر، قال أخبرنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثنى أبى، قال حدثنى محمد بن جعفر، عن عوف الأعرابى، عن قَسَامة بن زُهَير عن أبى موسى، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله تعالى خلَق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قَدْر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبَيْن ذلك، والخبيث والطيب والسَّهْل والحزْن، وبين ذلك».

واختلف العلماء فيمن جاء بالطين الذى خُلق منه آدم، على قولين: أحدهما: أنه إبليس. قاله ابن عباس وابن مسعود. والثانى: ملَك الموت قال السُّدى عن أشياخه: بعث الله ملَك الموت فجاء بالطين فَبُلّ ثم تُرك أربعين سنة حتى أنتن ثم نُفخ فيه الروح.

حدثنا عبد الله بن محمد القاضى ويحيى ابن على المدنى، قال أخبرنا أحمد بن يحيى النقُور، قال أخبرنا ابن حَبَابة، قال حدثنا البغوى، قال حدثنا هُدْبة، قال حدثنا حماد بن سلَمة عن ثابت، عن أنس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما نُفخ فى آدم الروح مارَتْ فطارت فصارت فى رأسه فعطس فقال الحمد لله. فقال له الله تعالى: رحمك الله.

قال العلماء: خُلِق آدم يومَ الجمعة وكان طوله ستون ذراعا وعرضه سبعة أذرع.

وفى تسميته آدم قولان: أحدهما لأنه خُلق من أديم الأرض. قاله سعيد بن جُبَير. وأديم الأرض وجهها.

والثانى: أنه مأخوذ من الأُدْمة وهى سُمْرة اللون. قاله الضحاك.

قوله تعالى: «وعلَّم آدم الأسماء كلَّها» والصحيح أن هذا على إطلاقه فإن قوما قالوا: علَّمه أسماء الملائكة.

قوله تعالى : « ثم عَرَضهم » يعنى المسمَّيات فقال للملائكة : « أنبئونى » أى أخبرونى بأسماء هؤلاء .

وفى قوله : « إن كنتم صادقين » ثلاثة أقوال : أحدها : إن كنتم صادقين أن بنى آدم يفسدون ويسفكون الدماء . قاله السُّدى عن أشياخه .

والثانى : إن كنتم صادقين أنى لا أخلق أعلمَ منكم وأفضل . قاله الحسن .

والثالث : أن المراد إبليس ، لأنه قال : إنْ فضلت عليه لأهلكنَّه فالتقدير إن كنت صادقا أنك تفعل ذلك فأنبئنى بأسماء هؤلاء .

«فلما أنبأهم بأسمائهم» أقرَّت الملائكة بالعَجْز «قالوا سُبْحانك لا عِلْم لنا إلا ما علَّمتنا» فقال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم . قال الله تعالى : « ألم أقل لكم إنى أَعْلَمَ غيبَ السموات والأرض » أى ما غاب فيها « وأعلم ما تُبْدون » من الطاعة « وما كنتم تكتمون » من أن الله لا يخلق أفضلَ منكم ، وقيل : ما كتم إبليسُ من الكِبْر .

ثم أمر الله تعالى الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس .

أنبانا محمد بن عمر الأُرْمَوىّ ، قال أنبانا أبو الحسين محمد بن على المهنَّدِى ، قال أنبانا ابن شاهين ، قال أنبأنا عبد الله بن سليمان ، قال حدثنا هارون بن زيد ابن الزرقاء ، قال حدثنا ضمرة بن ربيعة ، عن قادم بن مسور ، قال: قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : لما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم أولُ من سجد له إسرافيل فأثابه الله عز وجل أن كتب القرآنَ فى جبهته .

قوله تعالى « اسكن أنت وزوجك الجنة » زَوْجه حواء خُلقت من ضِلعه وهو فى الجنه . والرَّغَد : الرزق الواسع . وفى الشجرة المَنْهىّ عنها خمسة أقوال : الأول الحِنْطة . والثانى الكَرْم . روى ابن عباس . والثالث التين قاله عطاء وقتادة . والرابع شجرة الكافور روى عن على عليه السلام [1] . والخامس النخلة ، قاله أبو مالك .

---

(١) ا : رضى الله عنه .

قوله تعالى : « فأزلَّهما الشيطان عنها » أى حملهما على الزَّلل ، وقرأ الأعمش فأزالهما أى عن الجنة ، قال السُّدى : دخل الشيطان فى فم الحية فكلمهما . وقال الحسن : ناداهما من باب الجنة .

فإن قيل : إن كان آدم تعمد فمعصيته كبيرة والكبائر[٢] لا تجوز على الأنبياء وإن كان نسى فالنسيان معفوّ عنه .

فالجواب : أن العلماء اختلفوا ، فقال بعضهم : فعَل ذلك عن نسيان والأنبياء مطالبون بحقيقة التيقّظ وتجويد التحفظ أكثر من غيرهم ، والنسيان ينشأ من الذهول عن مراعاة الأمر ، فكانت المؤاخذة على سبب النسيان .

وقال بعضهم : تعمَّد [الأكل[١]] لكنه أكل متأوِّلا وفى تأويله[٢] قولان : أحدهما أنه تأول الكراهة[٣] دون التحريم . والثانى : أنه نُهى عن شجرة فأكل من جنسها ظنا أن المراد عَين تلك الشجرة .

قوله تعالى : « قلنا اهبِطوا منها جميعا » قال ابن عباس : أُهبط آدم وحواء وإبليس والحية . أما آدم فأهبط على جبل بالهند يقال له « واسم » وحواء بجدّة والحية بنصيبين ، وإبليسُ بالأبلة[٤] وكان مكث آدم فى الجنة نصف يوم من أيام الآخرة . وهو خمسمائة سنة . وأُنزل معه الحجَر الأسود وعصا موسى ، وكانت من آس الجنة فأمره الله تعالى أن يَذْبح كبشا من الضأن مما أنزل الله تعالى إليه ، فذبحه ثم جزّ صوفه ، فغزلته حوّاء ، فنسَج لنفسه جُبة ولحواء دِرْعا وخمارا ، وعلِّم الزراعة فزرع فنبت فى الحال فحصد وأكل ولم يزل فى البكاء .

قال وهب بن منبه : سجد آدم على جبل بالهند مائة عام يبكى حتى جرت دموعه فى وادى سَرَنْدِيب فأنبت الله تعالى فى ذلك الوادى من دموعه الدارصِينى والقرنفل ،

---

(١) ب : والكبيرة . (٢) ليست فى ا . (٣) ا : وفى تأوله . (٤) ا : الكراهية .
(٥) ا : بالأيلة .

وجعل طير ذلك الوادي الطواويس ثم جاءه جبريل عليه السلام فقال : ارفع رأسك فقد غُفر لك ، فرفع رأسه ، ثم أتى الكعبة فطاف أسبوعا ، فما أتمّه حتى خاض في دموعه [١] .

وأما الكلمات التي تلقّاها آدم فهي قوله تعالى : « رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ [٢] » .

قال العلماء : التقى آدم وحواء بعرفات فتعارفا ثم رجعا إلى الهند فاتخذا مغارة يأويان فيها وولدت حواء لآدم أربعين ولدا في عشرين بطنا ، وبعرفات مسح الله ظهر آدم فأخرج جميعَ ذريته فنشرهم بين يديه ، فرأى فيهم رجلا فأعجبه [٣] فقال : من هذا ؟ قال : داود . قال : كم عمره ؟ قال : ستون سنة . قال : فزده من عمري أربعين . فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال : أو لم يبق من عمري أربعون سنة ؟ قال : أو لم تعطها ابنك داود ؟قال : ما فعلتُ . فأتم الله عز وجل لآدم ألف سنة وأكمل لداود مائة .

وهذا الجحْد إنما يُنسب إلى النسيان .

* * *

ومرض آدم أحد عشر يوما وجاءته الملائكة بالأكفان والحنوط فقبض يوم الجمعة [وصلّى عليه] [٤] .

وفي حديث أُبيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الملائكة لما صلت على آدم كبّرت عليه أربعا [٥] .

وقال ابن عباس : مات [آدم] [٦] على نود وهو الجبل الذي أُهبط عليه فصلى عليه شيث وكبّر ثلاثين تكبيرة .

---

(١) ومن أين لوهب بن منبه هذا العلم الذي لا شاهد عليه ولا دليل ! لقد كان السلف يتسامحون في رواية مثل هذه الأساطير وليتهم لم يفعلوا ! . (٢) سورة الأعراف ٢٣ . (٣) ا : أعجبه (٤) ليست في ا .
(٥) ا : ان الملائكة صلت على آدم وكبرت عليه أربعا (٤) من ا .

ولما ركب نوح السفينة حمل آدم ودفنه ببيت المقدس ، ولم يمتْ حتى بلَغ ولدُه وولد ولده أربعين ألفا .

وقال عروة : لما مات آدم وضع عند باب الكعبة وصلى عليه جبريل ، ودفنته الملائكة فى مسجد الخَيف [والله أعلم[١]] .

فصـــــل

وقد حذَّرت قصةُ آدم من الذنوب وخوَّفت عواقبَها ، وكان بعض السَّلف يقول : غَرِقت السفينةُ ونحن نِيام ! آدمُ لم يُسَامَحْ بلُقْمة ولا داود بنظرة ، ونحن على ما نحن فيه !

الكلام على البسملة

يا ناظرًا يرْنو بعينىْ راقـدٍ ومُشاهدا للأمر غير مشاهِدِ
منَّيتَ نفسك ضَلة وأبحْتها طُرُقَ الرجاء وهن غير قواصِدِ
تَصِلُ الذنوبَ إلى الذنوب وترتجى دَرج الجنان بها وفوزَ العابدِ[٢]
ونسيت أن الله أخرج آدماً منها إلى الدنيا بذنب واحِدِ

روى الضحاك عن ابن عباس قال : بينما آدم يبكى إذ جاءه جبريل عليهما[٣] السلام ، فسلَّم عليه فبكى آدم فبكى جبريل لبكائه وقال : يا آدم ما هذا البكاء ؟ فقال[٤] : يا جبريل وكيف لا أبكى وقد حوَّلنى ربى من السماء إلى الأرض ومن دار النعمة إلى دار البؤس . فانطلق جبريل بمقالته فقال الله تعالى : يا جبريل انطلق إليه وقل له : يا آدم يقول لك ربك : ألم أَخلقك بيدى ؟ ألم أنفخ فيك من روحى ؟ ألم أُسْجِد لك ملائكتى ؟ ألم أُسْكنك جنتى ؟ ألم آمرك فعصيتنى ؟ وعزتى وجلالى لو أن ملء الأرض رجالا مثلك ثم عصَوْنى لأنزلتهم منازل العاصين غير أنه يا آدم سبقت رحمتى غضبى ، وقد سمعت تضرعك ورحمت بكاءك وأقلْت عَثْرتك .

---

(١) من ا . (٢) ج : بها يفوز العابد . (٣) ا : عليه السلام . (٤) ا : قال .

طُوبَى لمن قرَن ذنبه بالاعتذار ، وتلافاه باستغفاره آناء الليل [وأطراف[١]] النهار ، والويل كل الويل لمن أحْكَم عَقْد الإصرار ، أيها العاصى تفكر فى حال أبيك ، وتذكَّر ما جرى له ويكفيك ، أبْعد بَعْد القُرْب من ربه ، وأُهْبط من الجنة لشُؤم ذنبه ، وأسَره العدوّ بخديعته فى حَرْبه [ويسعى فى هلاكك فاعتبر به[٢]] فرحم[٣] الله امرأ تأهّب لمحاربة عدوّه فى رواحه وغدوّه ، فإنه مُرَاصده[٤] فى القول والعمل ، ويحسِّن له بالمكر والتسويف الأمل[٥] ، ويذكِّره الهوَى وينسيه الأجَل ،فليلبس أحصنَ الْجُنَن ، فالرامى يطلب الخلل .

اصــبر لمرّ حوادث الدهر ... فلتحمدنّ مَغَبَّة الصـبرِ
واجهد لنفسك قبــل ميتتها ... واذْخَر[٦] ليوم تفاضل الذخر
فكأنّ أهلَك قد دعَوْك فلم ... تسمع وأنت مُحشْرج الصدر
وكأنهم قد قلّبــوك على ... ظَهر السرير وأنت لا تدرى
وكأنهم قد زوّدوك بمـا ... يتزوّد الهلْكى من العطرِ
ياليت شعرىَ كيف أنت إذا ... غسِّلت بالكافور والسِّدر
أو ليت شعرى كيف أنت على ... نَبْش الضريح وظُلمة القــبر
ياليت شعرى ما أقول[٧] إذا ... وضِع الكتاب صبيحة الحشرِ
ما حُجّتى فيما أتيتُ على ... عِلْم ومعرفة وما عــذرِى
ياسَوْأتا مما اكتسبتُ ويا ... أسَفِى على ما فات من عمرى
ألّا أكون عقلت شأنى فاستقــبلتُ ما استدبرت من أمرى[٨]

يامضيع الزمان فيما يَنقُص الإيمان ، يا مُعْرضا عن الأرباح متعرِّضا للخسران ، متى تنتبه من رقادك أيها الوَسْنان ، متى تفيق لنفسك ؟ أمَا حَقَّ أما آنَ ؟ !

(١) من ب . (٢) سقطت من ا . (٣) ا : وهاهو عدوه فى رواحه وغدوه .
(٤) ا : مراصده . (٥) ب : ويحسن له بالمكر التسويف والأمل .
(٦) ا : وادخل . محرفة . (٧) ا : فياليت شعرى كيف أنت إذا . محرفة . (٨) سقط من ا .

رجوتَ خلوداً بعد ما مات آدم ... ونوح ومَن بعد النبيين من قَرنِ
وسوَّفتَ بالأعمال حتى تصرَّمتْ ... سِنُوك فلا مالٌ ولا ولد يُغْنِي
فشمرِّ لدار الخُـــلْد فاز مشمِّر ... إليها ونال الأمن فى منزل الأمن
لقد شغلتنا أمُّ دَفْرٍ[1] بزُخْرف ... شُغلنا به عن طاعة الله ذى المنِّ
عجبتُ لِدُنيا لا تَسرّ وإنما ... تَشُوب على تلك المسَرّة بالحزن
ونحن عليها عاكفون كأنمـــا ... ينا نبه[2] من فعلها حلم الجفن

إلامَ ترفض قول الناصح وقد أتاك بأمر واضح ، أترضى بالشَّيْن والقبائح ، كأنى بك قد نُقلت إلى بطون الصفائح وبقيت محبوسا إلى الحشر تحت تلك الضرائح ، وخُتم الـكتاب على آفاتٍ وقبائح .

إنّا على قلعة من هـــذه الدار ... نساق عنها[3] بإمساء وإبـكارِ
نبكى ونندبُ آثارَ الذين مضوا ... وسوف تَلْحق آثارٌ بآثارِ
طالتْ عِمارتنا الدنيا على غَرَرٍ ... ونحن نعـــلم أنّا غير عمّار
يا من يُحثّ بترْحال على عجَلٍ ... ليس المحلة غير الفوز من نار[4]
فاترك مفاخرةَ الدنيا وزينتها ... يومُ القيامة يومُ الفخرِ والعارِ

لقد أبانت الدنيا للنواظر عيوبهَا ، وكشفت للبصائر غيوبها ، وعدَّدت على المسامع ذنوبها ، وما مرَّت حتى أمرَّت مَشْرُوبها[5] ، فلذَّتها مثل لمَعان برْق ، ومُصيبتها واسعة الخرْق ، [سوَّت[6]] عواقبها بين سُلطان الغرب والشرق ، وبين عبد [قِنّ[6]] وحقير ولا فرق ، فما نجا منها ذو عَدَدٍ ولا سَلِم فيها[7] صاحب عُدَد ، مزَّقت والله الـكلَّ بكف البَدَد ثم ولَّت وما ألوت على أحد .

أخبرنا أحمد بن محمد المدادى[8] قال أنبأنا الحسن بن أحمد بن البنا ، قال حدثنـا

(١) أم دفر : الدنيا . (٢) كذا فى ب . والقطعة كلها ساقطة من ا ، والنبه بالتحريك : الضالة توجد عن غفلة . (٣) ب : نساق منها . (٤) ا : غير الفوز والنار . (٥) ب : شروبها. محرفة . وما أثبته من ا . (٦) سقطت من ب . (٧) ب : ولاسلم عليها . (٨) ا : بعدها بإسناده قال حدثني المحاربى .

الحسين بن بشران ، قال حدثنا ابن صفوان ، قال : حدثنا أبو بكر القرشي ، قال : حدثني أبو على الطائى ، قال حدثنى المحاربى ، عن ليث ، أن عيسى بن مريم عليه السلام رأى الدنيا فى صورة عجوز هَتْماء عليها من كل زينة فقال لها : كم تزوجتِ ؟ فقالت : لا أحصيهم . قال : أوَ كلهم مات عنك أوْ كلهم طلقك(١) ؟

قالت : بل كلهم قتلتُ(٢) .

فقال عيسى : بؤسًا لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين !

إلامَ تغُر بالأمـــل الطويل ... وليس إلى الإقامة من سبيلِ
فدَعْ عنك التعلل بالأمانى ... فما بَعْدَ المشيب سوى الرحيلِ
أتأمن أن تدوم على الليالى ... وكم أفنَيْن قبلك من خليل
وما زالت بناتُ الدهر تُفْنى(٣) ... بنى الأيام جيلاً بعـــد جيل

لله درّ أقوام تركوا الدنيا فأصابوا ، وسمعوا منادىَ « والله يدعو » فأجابوا ، وحضروا مَشَاهدَ التُّقَى فما غابوا ، واعتذروا مع التحقيق ثم تابوا ، وقصدوا بابَ مولاهم فما رُدُّوا ولا خابوا .

أخبرنا(٤) عبد الوهاب بن المبارك ، قال حدثنا أبو الحسين بن عبد الجبار ، قال : أخبرنا محمد بن على بن الفتح ، قال أنبأنا محمد بن عبد الله الدقّاق ، أنبأنا ابن صفوان حدثنا أبو بكر القرشي ، أخبرنا محمد بن الحسين ، قال حدثنى عبد الله بن عثمان ، قال حدثنى عمار بن عمرو البجلى ، قال سمعت عمر بن ذر(٥) يقول : لما رأى العابدون الليل قد هجَم عليهم ونظروا إلى أهل الغفلة قد سكنوا إلى فرشهم ورجعوا إلى ملاذّهم ، قاموا إلى الله سبحانه وتعالى فَرِحين مستبشرين بما قد وهب الله لهم من السهر وطول التهجّد ، فاستقبلوا الليل بأبدانهم ، وباشروا ظُلمته بصِفاح وجوههم ، فانقضى عنهم الليل وما انقضتْ لذتهم

(١) ب : قال : فكلهم طلقك أو كلهم مات عنك . (٢) ا : قالت : بل كلهم مات عنى .
(٣) ا : وما زالت خطوب الأرض تفنى . (٤) ا : أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك بإسناده إلى عمار ابن عمرو البجلى . (٥) ا : عمرو بن دينار .

من التلاوة ، ولا ملَّتْ أبدانهم من طول العبادة ، فأصبح الفريقان وقد ولَّى الليل بربح وغَبْن ، فاعملوا لأنفسكم فى هـذا الليل وسواده ، فإن المغبون من غُبن خير الدنيا والآخرة[(١)] ، كم من قائم لله تعالى فى هذا الليل قد اغتبط بقيامه فى ظلمة حُفْرته ، وكم من نائم قد ندِم على طول نومه عندما يرى من كرامة الله تعالى للعابدين غدا .

أخبرنا عمر بن ظُفر[(٢)] ، قال أنبأنا جعفر بن أحمد ، قال حدثنا عبد العزيز بن على ، قال حدثنا على بن عبد الله الصوفى ، قال حدثنى على بن العباس ، قال حدثنى على ابن سلمان ، قال : رأيت علىَّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى النوم فسمعته يقول :

لولا الذين لهم وِرْد يقومونا ... وآخرون لهم سَرْد يصومونا
لدُكْدِكت أرضُكم من تحتكم سَحرا ... لأنكم قومُ سوء ما تطيعونا

***

يا من أعماله كلها إذا تُؤملتْ سَقط[(٣)] ، كم أُثْبت له عمل فلما عدِم الإخلاص[(٤)] سَقَط ، ياحاضر الذهن فى الدنيا فإذا جاء الدِّين خَلط ، يجعل همَّه فى الحساب فإذا صلَّى اختلط ، يا ساكتاً عن الصواب فإذا تكلم لغط ، يا قريب الأجل وهو يجرى من الزَّلل على نمط ، يا متكاثف الدَّرَن لم يُغسَل ولم يُمَطْ ، يا من لا يَعِظُه وَهَن العظم ولا كلام الشَّمط أما خَطُّ الشَّيْب يضحك فى مَفْرِق الرأس إذا وخَط ، أما المُقَام للرَّحيل وعلى هذا شَرط ، يا من لا يرعوى ولا ينتهى[(٥)] بل على منهاج الخطيئة فقط ، يا مُثْبتا قبيح[(٦)] المعاصى لو تاب لا نكشط ، أما تميل إلى الصواب أما تترك الغلط[(٧)] ، يا من إذا قيل له : ويحك أَقْسِطْ قَسط[(٨)] ، إلى كم جَوْر وظُلْم إلى كم جَهْل وشطط ، ويحك بادر هذا الزمان [الخالى[(٩)]] الملتقَط ، فالصحة غنيمة والعافية لُقَط ، فكأنك بالموت قد سَلَّ سيفَه عليك واخترط ، أين العزيز فى الدنيا أين الغنىّ المغتبِط ، خيَّم بَيْن القبور وضرب فسطاطه

(١) ا : خير الليل والنهار . (٢) ب : أخبرنا مظفر . محرفة . (٣) ب : يامن أعماله إذا تأملت كلها سقط . (٤) ب : فلما طولب بالإخلاص سقط . (٥) ب : ولا يلتوى .
(٦) ا : قبح . (٧) ب : أما تؤثر إلا الغلط . (٨) ا : يا من كلما قيل له أقسط قسط .
(٩) ليست فى ا .

فى الوسَط ، وبات فى اللحد محبوسا كالأسير المرتبَط ، واستُلبت ذخائره ففُرِّغ الصندوق والسَّفَط[1] ، وتمزق[2] الجِلْد المستحسَن وتمَّط الشعر القَطَط[3] ، فكأنه ما رجَّله قط وكأنه ما امتشط ، وبُعد [عنه من يحبه إى والله وسَخط[4]] ورضى ورَّاثه[5] بما أصابوه وجعلوا نصبه السَّخَط ، وفرَّقوا[6] ما كان يجمعه بكف البخل والقنط ، ووقع فى قَفْر لا ماء فيه ولا حنَط[7] ، وكم حذَّر من وقوعه وكم أوقف[8] على النُّقَط ، وكم حدِّث أنَّ سعدَ بن مُعاذ فى القبر انضَغط ، ويحك اقبل نصحى ولا تتعرَّض للسخط ، واحذر من المعاصى فبلقمة زلَّ آدم وهبَط ، ويحك اغتنم[9] رخص السِّعْر فكأنْ قد قحط وبادر للسلامة[10] فكأن قبض من بَسط، وتفكر كيف كُفَّ بالعقوبة كَفٌّ من انبسط ، أتُرى تقبل [قولَ[11]] النذير أولا تصدِّق الفرَط .

---

(١) السفط : وعاء من جلد . (٢) ب : ومزق. (٣) تمعط : سقط . والقطط : الشعر القصير الجعد . (٤) ليست فى ا . (٥) ا : ورضى وارثه . (٦) وفرقوا ما جمعه .
(٧) ب : ولا خبط . (٨) ب : وكم أوقع . (٩) ا : واغتنم . (١٠) ا : وبادروا السلامة .
(١١) ليست فى ا .

الكلام على قوله تعالى :
« ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ [1] »

قد أمر الله سبحانه وتعالى بالتوبة فقال: « وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا [2] » ووعد القبولَ فقال : « [وهو الذي] يقبل التوبة عن عباده [3] » وفتح باب الرجاء فقال : لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ [4] » .

أخبرنا هِبَـة الله بن محمـد بن المُذْهَب ، أنبأنا أبو بكر بن مالك ، حدثنا عبد الله ابن أحمـد ، حدثني أبي ، أخبرنا يحيى بن سعيد ، حدثنا شعبة ، حدثنا عمرو بن مُرّة ، سمعت أبا بُرْدَة قال : سمعت الأغرّ يحدِّث عن ابن عمر [5] أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم ، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة .

انفرد بإخراجه مسلم .

وبالإسناد حدثنا أحمد ، حدثنا حسن بن محمـد ، حدثنا محمـد بن مطرف ، عن زيد ابن أَسْلم ، عن عبد الرحمن بن البَيْلماني [6] قال اجتمع أربعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهم : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله تبارك وتعالى يَقْبل توبةَ العبـد قبل أن يموت بيوم » . فقال الثـاني : أنت سمعتَ هـذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قال: وأنا سمعته يقول: « إن الله تبارك وتعالى يَقْبل توبة العَبْد قبل أن يموت بنصف يوم » . فقال الثالث : أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليـه وسلم : قال : نعم . قال وأنا سمعته يقول : « إن الله تبـارك وتعالى يَقْبل توبة العبد قبلَ أن يموت بضَحْوة » . فقال الرابع : أنت سمعتَ هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قال : وأنا سمعته يقول : « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِر بنفسه » .

---

(١) سورة التوبة ١١٢ . (٢) سورة النور ٣١ (٣) سورة الشورى . (٤) سورة الزمر ٥٣

(٥) الذى فى صحيح مسلم ج ٨ ص ٧٣ ط استنبول : باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه : « قال سمعت . الأغر ، وكان من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، يحدث ابن عمر قال : قال رسول الله (ص) الخ .

(٦) أ : ابن السماني .

وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل بأرض دَوِيّة [مهلكة[1]] معه راحلته، فطلبها حتى إذا أدركه الموت قال : أرجع إلى مكانى الذى أضلَلْتُها فيه فأموت فيه ، فأتى مكانه فغلبته عيناه ، فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه عليها طعامه وشرابه وزاده وما يُصْلحه ، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته وزاده[2] » .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ياداود لو يَعْلَم المدْبِرون عنّى كيف انتظارى لهم ورِفْقى بهم وشَوْقى إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إلىّ وتقطّعت أوصالهم من محبتى ، يا داود هذه إرادتى فى المدْبرين عنّى فكيف إرادتى بالمقْبلين علىّ !

***

إخوانى : الذنوبُ تغطّى على القلوب ، فإذ أظلمت مرآةُ القَلْب لم يبِنْ فيها وجهُ الهدَى ، ومن علم ضَرر الذنب استشعر الندَم .

قال أبو على الرُّوذبارِىّ رحمه الله : « مِن الاغترار أن تُسِىء فيحسن إليك فَتترك التوبة توهماً أنك تُسامَح فى الهفوات » ! .

فوا عجباً[3] لمن يَأْمن وكم قد أُخِذ آمن من مأْمن ، ومن تفكر فى الذنوب علم أن لَذّات الأوزارِ زالت والمعاصِى بالعاصى إلى النار آلَتْ ، ورُبَّ سَخط قارَن ذَنْبا فأوجَب بُعْدا وأطال عَتبا، وربما بُغت العاصِى بأجَله ولم يَبْلغ بعض[4] أمَله ، وكم خيرٍ فاته بآفاته، وكم بليّة فى طىّ جناياته .

قال لقمان لابنه : يا بنى لا تؤخِّر التوبة فإن الموت يأتى بغتةً .

قائدُ الغفـــلة الأمل   والهوى رائد الزَّلَلْ
قتلَ الجهـلُ أهـــلَه   ونجَا كل من عقلْ

---

(١) سقطت من ا . (٢) صحيح البخارى ٣/١٧٠ كتاب الدعوات باب التوبة وصحيح مسلم ٨/٩١ – ٩٣ من طرق متعددة . (٣) ا : ياعجبا ممن . (٤) ا : ببعض .

فاغتنم دَولة الشبيبـــة واستأنِف العملْ
أيهـا المُبتَغِي الحصو ن وقد شابَ واكتَهلْ
أخبر الشيب عنك أنـــك فى آخِرِ الأجَلْ
فعـلامَ الوقوف فى عَرْصة العَجْز والكسلْ
مـــنزلٌ لم يزَلْ يضيــــق ويَنبو بمن نَزَل
أنت فى منزلٍ إذا حــــلَّه نازلٌ رَحَلْ

***

طوبى لمن غسل درَن الذنوب بتوبة ، ورجع عن خطاياه قبل فَوْت الأوبة ، وبادرَ(١) الممكن قبل أن لا يمكن ، من رأيتَ مِن آفات دنياه سَلِم ، ومن شاهدته صحيحا وماسَقِم ، وأى حياة بالموت لم تنختم(٢) ، وأى عُمرٍ بالساعات لم يَنْصرم ، إن الدنيا لَغُرور حائل ، وسُرور إلى الشرور آيل ، تُردِى مُستزيدَها وتُؤذى مستفيدها ، بينما طالبُها يَضْحك أبكته ويفرح بسلامته أهلكَتْه ، فندِم على زَلّله(٣) إذ قدم على عمله ، وبقى رهينَ خوفه ووجَله ، ووَدَّ أنْ لو زِيدَ ساعةً فى أجَله ، فما هو إلا أسيرٌ فى حُفرته ، وخَسِير فى سَفْرته ، وهذه وإن كانت(٤) صفةَ من عنَّا(٥) نأى ، فكذا نكون [لو أن العاقل ارتأى(٦)] :

سَبيلُك فى الدنيا سبيلُ مسافرٍ ولا بدَّ من زادٍ لكل مسافرِ
ولا بُدَّ للإنسان من حَمْل عُدّة ولاسِيّما إن خاف سَطْوة قاهرِ
وطُرقكَ طُرْق ليس تُسلَكُ دائما وفيها عِقاب بعد صَعْب القناطرِ

أخبرنا المبارك بن على ، أنبأنا على بن محمد بن العلاَّف ، أنبأنا على بن أحمد الحمامى ، حدثنا جعفر بن محمد الخوَّاص ، حدثنى إبراهيم بن نصر ، قال حدثنى إبراهيم بن بَشَّار ، قال : كنت يوماً مارًّا مع إبراهيم بن أدهم فى صحراء ، إذ أتينا على قبرٍ مسنَّم ، فترحَّم عليه وبكى . فقلت : قبر من هذا ؟ فقال : هذا قبر حميد بن جابر أمير هذه المدن ، كان غريقا فى بحار هذه الدنيا ،

(١) ب : وبادل . محرفة . (٢) ا : لاتنختم . (٣) ب : إذا قدم . (٤) ا : إن كانت .
(٥) ا : من هو عنا . (٦) سقطت من ا .

ثم أخرجه الله منها ، لقد بلغني أنه سُرَّ ذات يوم بشيء من ملاهي دنياه ثم قام من مجلسه [ونام][1] مع من يخصه[2] من أهله ، فرأى رجلا واقفا على رأسه بيده كتاب ، فناوله إياه[3] [فقرأه][4] فإذا فيه : تُؤثرون فانيا على باق[5] ، ولا تغترّ بملكك وسلطانك وعبيدك وولَدك ، فإن الذى أنت فيه جَسِيم لولا أنه عَدِيم ، وهو مُلْك لولا أنّ بعده هُلْك ، وهو فَرَح وسرور لولا أنه لَهْو وغُرور ، وهو يومٌ لو كان يوثق فيه بغَدٍ ، فسارِعْ إلى أَمْر الله فإنه يقول : « وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ » .

فانتبهَ فزِعا [مرعوبا[6]] وقال : هذا تنبيهٌ من الله عز وجل وموعظة . فخرج من[7] مُلْكه لايَعْلم به أحد وقصَد هذا الجبل فتعبَّد فيه ، فلما بلغني أمره قصدتُه فسألته فحدَّثني ببدء أمره وحدثتُه ببدء أمرى فما زلت أقصده حتى مات ، وهــذا قبره رحمه الله تعالى[8] .

أخبرنا أبو بكر الصُّوفى ، أنبأنا أبو سعيد بن أبى صادق ، أنبأنا ابن باكُويَة ، حدثنا عمر بن محمد الأَرْدُبيلىّ ، حدثنا على بن محمد القرشى ، حدثنا علىّ بن الموفَّق ، قال حدثنا منصور بن عمَّار قال : خرجت ليلة وظننت أنى قد أصبحت وإذا علىّ ليل ، فقعدت عند باب صغير ، وإذا بصوت شاب[9] يبكى ويقول: وعزتك وجلالك ماأردتُ بمعصيتك مخالفتك ، وقد عصيتُك حينَ عصيتك وما أنا بنَكالك جاهل ، ولا لعقوبتك متعرِّض ولا بنظَرك مُستخفٌّ ، ولكنْ سوَّلتْ لى نفسى وغلبَتْ علىّ[10] شَقْوتى ، وغرّنى سِتْرك المرخَى علىّ ، والآن[11] فمِنْ عَذابك من ينقذنى ، وبحبْل مَن أتصل إنْ قَطعت حَبْلك عنى ، واسوأتاه مِن تصرُّم أيامى فى معصية ربى ، ياويلى ! كم أتوب وكم أَعُود ، قدحان [لى[12]] أن أستحى من ربى .

---

(١) سقطت من ا . (٢) ب : مع من حضره . (٣) ب : فتناوله .
(٤) سقطت من ا . (٥) ب : لاتؤثرن فان على باق. (٦) سقطت من ب. (٧) ب : عن ملـكه .
(٨) رحمة الله عليه . (٩) بصوت خاف يبكى. (١٠) ب : وغلبتنى شقوتى . (١١) ب : فالآن من عذابك من يستنقذنى . (١٢) من ب .

قال منصور : فلما سمعتُ كلامه قلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ [1] » الآية . فسمعت صوتاً واضطرابا شديدا ومضيتُ لحاجتى ، فلما أصبحتُ رجعت ، وإذا جِنازة [2] موضوعة على ذلك الباب ، وعجوز تذهب وتجىء فقلت لها : من هذا الميت [3] منك ؟ فقالت : إليكَ عنّى لا تجدِّد علىَّ أحزانى . قلت إنى رجل غريب ، قالت هذا ولدى ، مرَّ بنا [4] البارحةَ رجلٌ لا جزاه الله خيرا قرأ آيةً فيها ذِكر النار ، فلم يزَل ابنى يبكى ويضطرب حتى مات .

قال منصور : هكذا والله صفة الخائفين يا بن عمّار .

***

يا صاحب الخطايا أين الدموع الجارية ، يا أسير المعاصى ابكِ على الذنوب الماضية ، يا مبارزًا بالقبائح أتصبرُ على الهاوية ؟ ! يا ناسياً ذنوبه والصُّحف للمُنسَى حاوية ، أسفًا لك إذا جاءك الموتُ وما أنبْتَ ، واحسرةً لك إذا دُعيت إلى التوبة فما أجبْتَ كيف تصنع إذا نودِى بالرحيل وما تأهَّبْت ، ألست الذى بارَزْتَ بالكبائر وما راقَبْت :

قد مضَى فى اللهو عُمْرى ... وتناهَى فيه أمـــرِى
شَمَّر الأكياسُ وأنَا ... واقفٌ قد شِيبَ أمرى [5]
بانَ رِبْح الناسِ دونى ... ولحينى بانَ خُسْرى
ليتنى أقْبـــل وعظِى ... ليتنى أسْمـــع زَجْرِى
كلَّ يومٍ أنا رَهْنٌ ... بَيْنَ آثامِى ووزْرِى
ليت شِعرى هل أرى لى ... هِمَّـــةً فى فكِّ أَسْرِى
أو أرَى فى ثوب صِدْقٍ [6] ... قبل أن أنزل قبرِى

(١) سورة التحريم ٦ . (٢) ب : فإذا أنا بجنازة . (٣) من ب : من الميت ؟ (٤) ا : مر بى .
(٥) ب : شمر الأكياس أمرى * والتفريط قد شتت فكرى
ولعلها محرفة . (٦) ب : أو أرى توبة صدق .

وَنَحَ قلبي من تناسيه ‌ ‌ ‌ مُقَامِى يوم حَشْرى
واشتغالى عن خطايا ‌ ‌ ‌ أثقلَتْ والله ظَهرى[١]

***

كان لبعض العصاة أمّ تعظه ولا ينثنى[٢] ؛ فمرّ يوماً بالمقابر فرأى عَظْمًا نَخِرا ، فمسّه فانفتّ فى يده [فأنفتَ نفسُه[٣]] فقال لنفسه : أنا غدًا هكذا ! فعزم على التوبة فرفع رأسه إلى السماء وقال : يا إلهى اقبلنى وارحمنى[٤] . ثم رجــع إلى أمه حزينا فقال : يا أماه ما يُصنَع بالآبق[٥] إذا أخذه سيده ؟ فقالت . يَغلّ قدميه ويديه ويخشّن مَلبسه ومَطْعمه . قال: يا أماه أريد جبة من صوف وأقراصا من شعير وافعلى بى ما يُفْعل بالعبد الآبق من مولاه، لعل مولاى يرى ذلى فيرحمنى . ففعلت به ما طَلب . فكان إذا جَنّ عليه الليل أخذ فى البكاء والعَويل ، فقالت له أمه ليلةً : يا بنى ارفق بنفسك . فقال : يا أماه إن لى مَوْقفاً طويلاً بَيْن يَدَى ربٍّ جليل ، فلا أدرى أيؤمَر بى إلى ظلٍّ ظليل أو إلى شرٍّ مَقِيل ، إنى أخاف عناء لا راحةَ بعده [أبداً][٦] ، وتوبيخاً لا عَفْو معه . قالت . فاسترحْ قليلا . فقال : الراحةَ أطلبُ يا أماه، كأنك بالخلائقِ غداً يُساقون إلى الجنة وأنا أُساق إلى النار !

فمرّت به ليلةً فى تهجده هذه الآية : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ[٧] » فتفكّر فيها وبكى واضطرب وغُشِىَ عليه فجعلت أمه تناديه ولا يجيبها فقالت له : قرةَ عينى أين المُلْتقَى ؟ فقال بصوتٍ ضعيف : إن لم تجدينى فى عَرْصة القيامة فَسَلِى مالكاً عنى ! . ثم شهق شهقة فمات . رحمه الله . فخرجت أمه تنادى : أيها الناس هلموا إلى الصلاة على قتيل النار ! فلم يُرَ أكثرُ جمعا ولا أغزر دمعاً من ذلك اليوم .

هذه والله علامة[٨] المحبين وأمارات الصادقين وصفات المحزونين .

***

مأتمُ المذنبين ما تنقضى ‌ ‌ ‌ آخرَ الدهر أو يحلُّوا اللُّحودَا

---

(١) سقط من : ا . (٢) ب : ولا ينتهى. (٣) من ب. (٤) ب : أقلنى عثرتى واقبل توبتى .
(٥) مايفعل بالعبد الآبق. (٦) ليست فى ب. (٧) سورة الحجر ٩٢، ٩٣. (٨) هامش ا : علامات.

وحقيقٌ أن[1] ينوحوا ويبكوا قد عصَوْا ماجداً رءوفاً ودُودَا
كل ثَكْلَى أحزانُها لِنفَادٍ ولنا الحزنُ قد نراه جَديدَا
كيف تَفْنَى أحزان من عاهد اللـــهَ مِرَارا وخانَ منه العهودا [2]
وَيْحَ نفسى ما أقول إذا ما أحضَرَ الله رُسْله لى شُهودا
ثم قال اقرأ ماذا عملْتَ وجاوزْ تَ بما كان منك فيه الحدودا
ثم تُخْفِي لمـا استترتَ من الخلْـ ق وبارَزْتَنِى وكنتُ شهيدا

أيا كثير الشقاق ، يا قليل الوِفاق ، يا مرير المذاق ، [يا قبيح الأخلاق[3]] ياعظِيم التوانى قد سار الرِّفاق ، ياشديد التمادِي قدصَعُبَ اللَّحاق ، إخلاصُك مُعْدَم [4] وما للنِّفاق نَفَاق ، معاصيك فى إدراك والعمر فى إمْحاق[5] ، وساعِي الأجل مُجدّ كأنه فى سِبَاق ، لا الوعظُ يَزْجرك ، ولا الموت ينذرك ، ما تُطَاق .

سجع على قوله تعالى
« ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ »

سبحان من وفَّق [للتوبة][6] أقواما ، ثبَّت لهم على صراطها أقداما ، كفُّوا الأكفَّ عن المحارم احتراما ، وأتعبوا فى استدراك الفارط عِظَاما ، فكفَّر عنهم ذُنوباً وآثاما[7] ، ونشرلهم [بالثناء [6]] على ما عملوا أعلاما ، فهم على رياض المدائح بترك القبائح يتقلَّبون، التائبون العابدون .

كشف لهم سُجُف الدنيا فرأوا عيوبها ، [وألاح لهم الأخرى فتلمَّحوا غُيوبها، وبادَروا شمسَ الحياة يخافون غُيوبها[8]] وأسبلوا من دموع الأجفانِ على تلك الأشجان غُروبها ، واشتغلوا بالطاعات فحصَّلوا مَرْغوبها ، وحثَّهم الإيمانُ على الخوف فما يَأْمنون ، التائبون العابدون .

---

(١) ب : بأن . (٢) ا : كيف يفارق الأحزان من عاهد الله مراراً وخان العهود وفيه تحريف . (٣) ليست فى ب . (٤) ب : إخلاصك مذموم . (٥) ب : معاصيك فى ازدياد والعمر فى إلحاق . (٦) من : ب . (٧) ب : ذنوباً كانت عظاما . (٨) سقط من ا .

ندِموا على الذنوب فندُبوا (١) ، وسافروا إلى المطلوب فاغتربوا ، وسَقَوا غرس الخوف دَمْعَ (٢) الأسَف وشَرِبوا ، فإذا أقْلقهم الحذَرُ طاشُوا وهَربوا ، وإذا هبَّ عليهم نسيم الرجاء عاشوا وطَرِبوا ، فتأمَّل أرباحَهم وتلمَّح (٣) ما كَسبوا ، واعلم أن نَيْل النَّصيب بالنصَب يكون ، التائبون العابدون .

نظروا إلى الدنيا بعين الاعتبار ، فعلموا أنها لاتصلح للقَرار ، وتأملوا أسامَها فإذا هو على شَفاجُرف هار ، فنغَّصوا (٤) بالصيام لذة الهوى بالنهار ، وبالأسحارهم يستغفرون ، التائبون العابدون .

هجروا المنازلَ الأنيقة ، وفصموا عُرَى الهوى الوثيقة ، وباعوا الفانىَ بالباقى وكتبوا وثيقة ، وحمَّلوا نجائبَ الصبر فوقَ ماهى له مُطِيقة ، وطلبوا الآخرة واللهِ على الحقيقة ، هكذا يكون التائبون العابدون .

أبدانهم قَلِقَ من الجوع والضرر ، وأجفانهم قد حالَفت فى الليل السهر ، ودموعهم تجرى كمايجرى دائمة المطر ، والقومُ قد تأهَّبوا فهم على أقدام السفر ، عبروا عليكم ومَرُّوا لديكم وما عندكم خبر ، وتَرَنَّمتْ حُدَاتهم لو أنكم تسمعون ، التائبون العابدون .

يارَبِّ سِرْبنا فى سَرْب النَّجابة ، ووفقنا للتوبة والإنابة ، وافتح لأدعيتنا أبواب الإجابة ، يامن إذا سأله المضطَرُّ أجابه ، يامن يقول للشىء كن فيكون ، التائبون العابدون.

---

(١) ب : فقربوا . (٢) ب : دموع . (٣) ب وتامل ما اكتسبوا .
(٤) ب: فرفضوا .

المجلس الثانى

فى قصـــــة قابيل وهابيل

الحمد لله الذى نصَب من كلِّ كائن على وحدانيته بُرهانا ، وتشرَّف على خَلْقه كما شاء عزًّا وسلطانا [وتصرَّف فى خليقته كما شاء عزًّا وسلطانا(١)] واختار المتقين فوهب لهم [بنعمته(١)] أمناً وإيمانا ، عمَّ المذنبين برحمته عفواً وغفرانا ، ولم يقطع أرزاقَ أهلِ المعصية جُودا وامتنانا ، وأعاد شؤم الحسَد على الحاسد لأنه ارتكب عدوانا ، « وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا(٢) » .

روَّح أهلَ الإخلاص بنسيم قُرْبه ، وحذَّر يومَ القِصاص بجسيم كَرْبه ، وحفظ السالك نحو رضاه فى سَرْبه ، وأكرم المؤمنَ به إذ كتب الإيمانَ فى قلبه ، حكَم فى بَرِيّته فأمر ونهى ، وأقام بمعونته ما ضعف ووهى ، وأيقظ بموعظته من غفل وسهاَ ، ودعا المذنب إلى توبةٍ لغفران ذَنبه .

أرسل شَمالا ودَبُورا ، فأنشَر زرعاً لم يكن منشورا ، وجعل الشمس سِراجاً والقمر نورا ، بين شَرْقه وغَرْبه .

رَدَّ(٣) عيونَ العقولِ عن صفته وأغشاها ، وأنذر بيوم محاسبته من يخشاها ، وخلق لآدم حواء « فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ » .

ليس بجسمٍ فيشبه الأجسامَ ، ولا بمتجوِّف فيحتاج إلى الشراب والطعام ، ولا تُحْدَث له صفة فيتطرَّق(٤) عليها انعدام ، نَصِفه بالنَّقْل من غير كَيْف والسلام ، ولعنَ الله الجهميَّ والمشبِّه .

أحمدُه حمدَ عبدٍ لربه معتذر إليه من ذنبه ، وأقرّ بتوحيده إقرارَ مُخْلص من قلبه ، وأصلى على رسوله محمد وآله وصحبه ، أبى بكر الصديق ضجيعه فى تُرْبه ، وعمر الذى لا يسير

(١) ليست فى ا . (٢) سورة المائدة ٢٧ . (٣) ا : ورد . (٤) ا : يتطرق .

الشيطان فى سَرْبه ؛ وعثمان الشهيد لا فى صف حَرْبه ، وعلى عَلىٍّ معينه ومغيثه فى كَرْبه ، وعَمّه العباس المقدَّم على أهله وحِزْبه (١) .

[اللهم أصلح كلاًّ منا بإصلاح قلبه وأنْعم عليه بغفران ذَنْبه ، وانفعنى وكلَّ حاضر بجسده ولُبه (٢)] .

***

قال الله تعالى : « وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا (٣) » .

ولدت حوَّاء لآدم أربعين ولدا (٤) ، وكانت لا تلد إلا توأماً ذكراً وأنثى ، وأول الأولاد (٥) قابيل وتوأمته قليما ، وجاء هابيل وتوأمته لبودا .

وقابيل وهابيل هما المراد بقوله تعالى : « ٱبْنَىْ ءَادَمَ » .

وقد حكى ابن إسحق أنها حملت بقابيل فى الجنة . وفيه بُعْدٌ .

و « النَّبأ » : الخبر . ومعنى قوله « بالحق » : أى كما كان . والقُرْبان : فُعْلان من القُرْب ، قرَّباه لسبب (٦) .

روى السُّدى عن أشياخه أن آدم عليه السلام كان يزوِّج غلامَ هذا البطن جارية البطن الآخر ، وجارية هذا البطن غلام ذلك (٧) البطن . وكانت أخت قابيل أحسنَ من أخت هابيل ، فطلب هابيل أن ينكح أخت قابيل ، فأبَى عليه ، فقرَّبا قُرْباناً ليتقبَّل من أحقهما بالمستحْسَنة .

فقرَّب هابيلُ جَذَعة سمينة ، وقرَّب قابيل حُزْمة سُنْبُل ، فنزلت النار فأكلت قربانَ هابيل ، وتركت قُرْبان قابيل ، فغضب وقال : لأقتلنَّك .

وقوله : « لَئِن بَسَطتَ » اللام لام القسم ، تقديره : أقسم لئن بسطتَ . وجوابه :

(١) فى ب زيادة : « جد سيدنا ومولانا أمير المؤمنين الواجبة طاعته فى شرق العالم وغربه » . وقد التزمت « ب » بهذه الزيادة فى كل باب . ونحن نهملها دائما . فلعلها مقحمة . (٢) من ا .
(٣) سورة المائدة ٢٧ . (٤) هامش ب : بطنا . (٥) ب : وأول أولاده . (٦) ب : بسبب .
(٧) ب : ذاك .

« مَا أَنَا بِبَاسِطٍ » والمعنى : ما أنتصِرُ لنفسى « إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ » أن أبسط يدى للقتل[1] .

« إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ » أى ترجع بإثم قتلى وإثمك الذى منع من قبول قُرْبانك . والمعنى : إنما أريد هذا إن قتلتنى .

« فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ » أى زَيَّنت له قتلَه . وفى كيفية قتله ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه رماه بالحجارة حتى قتله . رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثانى : جاءه وهو نائم فضرب رأسه بصخرة ، رواه مجاهد عن ابن عباس . والثالث : رضخ رأسه بين حجرين . قاله ابن جُرَيج .

وفى موضع صَرْعه ثلاثة أقوال : أحدها جبل ثَوْر[2] قاله ابن عباس . والثانى : عند عقَبة حِرَاء . حكاه ابن جرير . والثالث : بالبصرة . قاله جعفر الصادق .

قوله تعالى : « فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ » أى صار منهم ، وخسرانه بمعصيته[3] ربَّه وبإسخاط والديه ، ومصيره إلى النار .

وروى مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه لما قتله حمله على عاتقه مائة سنة فإذا مشى تخط رجلاه الأرض ، وإذا قعد وضعه إلى جَنْبه ، إلى أن رأى غرابين اقتتلا فقتل أحدُهما الآخر ، ثم بحث الأرضَ فواراه ، فقال حينئذ : « يَٰوَيْلَتَىٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ » فأصبح من النادمين على حَمْله لا على قَتْله !

وكان عمر هابيل حينئذ عشرين سنة وعُمْر قابيل خمساً وعشرين سنة . فلما قتله هرب إلى اليمن .

وحزن آدمُ على هابيل فمكث مائةَ سنة لا يضحك ! وقال :

تغـيَّرت البلادُ ومن عليها — فوجـه الأرضِ مغبرٌّ قبيحُ
تغـيَّر كلُّ ذى طعمٍ ولَوْنٍ — وقلَّ بشاشةُ الوجـهِ المليح

(١) ا : إن بسطت يدى لتقتل . (٢) ا : نود . (٣) ب : بمجيئه بمعصية ربه .

وأوصى آدم بنى هابيل ألا يناكحوا بنى قابيل ، وشاعت المعاصى فى أولاد قابيل ، وهم الذين غرقوا فى زمن نوح ، وانقرض جميع نسل بنى آدم سوى نسل شيث ، وكان شيث وصىَّ آدم ، وأنزل الله عليه خمسين صحيفة . وأقام بمكة يحج ويعتمر ، وبنى الكعبة بالحجارة والطين ، فلما احتُضر أوصى إلى ابنه أنوش ، وأنوش أول من غرس النخلَ ، وعاش تسعمائة سنة وخمس سنين ، وولد له قِينان ، فأوصى إليه أنوش ، وولد لقينان مهلاييل فأوصى إليه ، وولد لمهلاييل يرد [1] فأوصى إليه ، وولد ليرْد إدريس عليه السلام .

وفى زمن يرد عُبدت الأصنام .

وسبب ذلك ما أنبأنا به عبد الوهاب بن المبارك ، أنبأنا الحسين بن عبد الجبار ، أنبأنا أبو جعفر بن المسْلمة ، أنبأنا محمد بن عمران المرزُبَانىّ ، أنبأنا أبو بكر أحمد بن محمد الجوهرى ، حدثنا الحسن بن خليل القتيرْىّ ، حدثنا أبو الحسن على بن الصباح ، أنبأنا هشام بن محمد بن السائب ، قال أخبرنى أبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : كان بنو شيث يأتون جسدَ آدم وهو فى مغارة فيعظمونه [2] ، فقال رجل من بنى قابيل : يابنى قابيل إن لبنى شيث دوَّاراً يدورون حوله ويعظمونه وليس لكم شىء ، فنحت [3] لهم صنما .

وأخبرنى أبى قال : كان ودّ وسُوَاع ويغوث ويَعُوق ونسر قوماً صالحين ، فماتوا فى شهر ، فجزع عليهم ذوو أقاربهم ، فقال رجل من بنى قابيل : هل لكم يا قوم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم ؟ [قالوا : نعم . فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم [4]] فكان الرجل يأتى أخاه وعمَّه وابن عمه ، فيعظّمه ويسعَى حوله حتى ذهب ذلك القَرْن ، وجاء قرنٌ آخر فعظَّموهم أشدَّ من تعظيم القرن الأول ، ثم جاء القرن الثالث ، فقالوا : ما عظَّم أوّلونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم ، فعبدوهم وعظَّموا أمرهم ، واشتدّ كفرهم ، فبعث الله عزّ وجل إليهم إدريس ، فدعاهم ، فلم يزل أمرهم

(١) ا : يزد . (٢) ب : يعظمونه . (٣) ا : نحت . (٤) سقطت من ب .

يشتد حتى أرسل الله تعالى نوحاً وجاء الطوفان .

***

فأما قابيل فإنه عذِّب بعد قتله أخاه .

فروى ابن جُرَيج عن مجاهد قال : علِّقت إحدى رجلى القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ إلى يوم القيامة ، ووجهه فى الشمس حيثما دارت دارت عليه ، عليه فى الصيف حصيرة من نار وفى الشتاء حصيرة من ثلج .

قال مجاهد : وقال عبد الله بن عمرو : إنا لنحدَّث أن ابن آدم القاتل يقاسِم أهل النار العذابَ قسمةً صحيحة ، عليه شَطْر عذابهم .

ويشهد لهـذا القول ما أخبرنا به هبة الله بن محمد بسنده عن مسروق ، عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تُقتل نفسٌ ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كِفْل من دمها ، لأنه كان أول من سنَّ القتل » .

أخرجه البخارى ومسلم فى الصحيحين .

وروى أهلُ السِّير أن إبليس أتى قابيلَ فقال له : إنما تُقُبِّل قربان أخيك لأنه كان يعبد النار . فبنى بيت نار وعبدها واتخذ أولاده المزامير والطبولَ والمعازف .

وقوله تعالى : « مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ » قال أبو الفتح النحوى : يقال فعلت ذلك من أَجْلك بفتح الهمزة ، ومن إِجْلك بكسرها ، ومن إجلالك[1] ، ومن جَلَلك ومن جَرّاك .

ومعنى كَتَبْنَا : فرضنا . « أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ » أى قتلها ظلما ولم تقتل نفساً ، « أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ » أى وبغير فسادٍ تستحق به القتل ، « فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعاً » لأن الناس كلهم من شخص ، فيُتصوَّر من المقتول أن يأتى بمثل ما أتى به آدم . « وَمَنْ أَحْيَاهَا » أى استنقذها من هلكة .

***

(١) ب : ومن إجلاك .

وقد حذَّرت[1] هذه القصة من الحسد ، فإنه أحوَج[2] قابيلَ إلى القتل ، كما أخرج إبليسَ إلى الكفر .

والقتلُ أمرٌ عظيم ، ففي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم : أنه قال : « أول ما يُقْضَى بين الناس يوم القيامة في الدماء[3] » .

أخبرنا أبو الحصَين ، أنبأنا ابن المذْهَب ، حدثني أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله ابن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا أبو النضر ، قال : أنبأنا إسحاق بن مسعود ، عن أبيه ، عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لن يزال المرء في فُسْحة من دِينه مالم يصب دماً حراماً » .

انفرد بإخراجه البخاري[4] .

وبالإسناد قال أحمد : حدثنا جعفر ، حدثنا شُعْبة ، قال سمعت يحيي المجبّر يحدث عن سالم بن أبي الجَعْد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ثَكلتْه أمُّه رجلٌ قتل رجلاً متعمِّدا يجيء يوم القيامة آخذا قاتلَه بيمينه أو شماله ، أوداجه تَشْخب دماً في قِبَل العَرْش يقول : يارب سَلْ عبدك فيم[5] قتلني » !

أخبرنا علي بن عبد الله أنبأنا ابن النَّقُور ، أنبأنا أبو حفص الكِتّاني ، حدثنا البغَوي ، حدثنا محمد بن عبَّاد المكّي ، حدثنا حاتم - يعني ابن إسماعيل - عن بشير يعني ابن مهاجر ، عن ابن بُرَيدة ، عن أبيه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَقتلُ المؤمن أعظمُ عند الله تعالى من زوال الدنيا» .

وفي حديث آخر : « من أعان على قتل امرئٍ مسلم ولو بشَطْر كلمة لقي الله عزّ وجلّ مكتوبا بين عينيه : آيسٌ من رحمة الله ! » .

---

(١) ب : وقد جرت . (٢) ب : فإنه أخرج . (٣) أخرجه البخاري في كتاب الديات ٢٤٦/٣ . ومسلم ١٠٧/٥ (٤) البخاري ج ٣ ص ٢٤٦ « كتاب الديات » (٥) ب : فيما .

فإن قيل ما معنى شطر[1] كلمة ؟ فالجواب : أن يقول « أُقْ » كما قال عليه السلام : « كفى بالسيف شاً » يعنى شاهدا .

فالحذر [الحذرَ][2] من الذنوب فى الجملة ، وأشدُّها ما يتعلق بالخلْق ، وأعظمها القتل ، والخطايا كلها قبيحة ، والدِّين النصيحة .

الكلام على البسملة

أستغفر المولى فقد ذهبتْ شِيَمَ[3] الملوكِ وربُّنا الملِكُ
لم يَحْمِهم مما ألمَّ بهم ما جمّعوا قِدْما وما مَلَكوا
لم ينفع المثْرين[4] ما جمعوا منها ولا الطاغين ما سفكُوا
فَلْيفرح الصُّلحاء[5] إذ صَلحُوا ولينْدم الفُتَّاكُ[6] إذ فتكُوا
مِيزَتْ جسومُهم حياتَهم وأتاهمُ المقدار فالتبكُوا
إنّ الملوك إذا هُم احتضِروا ودُّوا هنالك أنهم نَسَكُوا[7]
[فإذا أسائل عن لِدَاتِىَ فالأخبار تجْمع أنهم هَلكوا
وعلمتُ أين مضَى الخليط فما أنا بالمنادى أيةً سَلكوا
وعجبتُ من نفسِى إذا ضحكتْ ومن الأنام إذا همُ ضَحكوا
رحَل الأعزّةُ عن ديارهمُ أهْونْ بما أَخذوا وما تركُوا
والمالُ بَيْن الناس مُقْتَسَمٌ والحقُّ للأرواح مُشترَكُ
ونغرُّنا الدنيا المسيئة والآمالُ والآجالُ تَعتَرِكُ[8]]
ونفوسُنا كحمائم وقعتْ للصائدين ودُونَها الشَّبكُ
متبصِّرات فى حبائِلها ووهَى[9] جناحٌ ضمَّه الشَّرَكُ
لله سبَّحت الجواهر والأعْراضُ والأنوار والفَلكُ

(١) ا : بشطر . (٢) سقطت من ا . (٣) ب : شم الملوك . (٤) ا : المدثرين .
(٥) ا : الصالحون . (٦) ا : الفاتكون . (٧) ا : أنهم نسك . (٨) مابين القوسين ساقط من ا .
(٩) ا : وهى جناح .

وتقدّس الظلمـــاتُ خالقَها   والشُّهْب أفـــرادٌ ومُشْتَبِكُ
خَشعتْ لباريهـا البَسِيطةُ والـــأجبالُ[1] والقِيعان والنَّبَكُ[2]
وتحـــدَّثت عنه الطَّوالع والـــأبْراجُ والسُّكّانُ[3] والحرَكُ
والحوتُ مجَّد فى النجوم كما   فى الزاخِرات يمجِّد السَّمكُ
[والبيض والصُّفْر الفواقعُ والـــمُحْمَرُ والمسوَدُّ والحـــلَكُ
والطير والوحش الروائع والـــجِنِّى   والإنسىّ والملَكُ

***

أين آباؤك مرُّوا وسلَكوا ، أين أقرانك أمّا رحلوا وانصرفوا ؟ أين أرباب القصور أما أقاموا فى القبور وعكَفوا ، أين الأحباب هجرهم المحبون وصَدَفوا ، فانتبـــه لنفسك فالمتيقطون[4] قد عرفوا ، فستحملك الأهل إلى القبور وربمـا مروا فانحرفوا .

[نادت بوَشْك رَحيلك الأيامُ   أفأنت تسمع أم بك استصمامُ
تأتى الخطوبُ وأنت منتبهٌ لها   فإذا مضت فكأنها أحلامُ[5]]

يا غافلا ما يفيق ، يا حاملاً ما لا يطيق ، ألست الذى بارزتَ بالذنوب مولاك ، ألست الذى عصيته وهو يرعاك ، أسفاً لك ما الذى دَهاك حتى بِعْت هُداك بهَواك ، ياليت عينك أبصرَتْ ذل الخطايا قد علاك .

أتضحكُ أيها العاصى   ومثلكَ بالبُكا أحْرَى
وبالحزن الطويل على   الذى قدَّمتـــه أوْلَى
نسيتَ قبيح ما أسلفـ   ـتَ والرحمنُ لا يَنْسَى
فبادر أيهـــا المسكيـ   ـن قبلَ حـــلولِ ما تخشَى

---

(١) ب : والآجام .   (٢) النبك : جمع نبكة ، محركة وتسكن وهى أكمة محددة الرأس ، أو التل الصغير ، أو أرض فيها صعود وهبوط .   (٣) ب : والسكنات .   (٤) ا : فالمتفطنون .
(٥) سقط من ا .

بإقلاعٍ وإخــــلاص لعل الله أن يَرْضَى

كان محمد بن السَّمَّاك يقول : يابن آدم أنت فى حبسٍ منذ كنت ، أنت محبوس فى الصُّلْب ، ثم فى البطن ، ثم فى القمَاط ، ثم فى المكتب ، ثم تصير محبوسا فى الكدِّ على العيال ، فاطلب لنفسك الراحة بعد الموت ، لا تكون فى حَبْس أيضاً !

وكان أبو حازم يقول : اضمنوا لى اثنين ، أضمن لكم الجنة : عملاً بما تكرهون إذا أحبه الله ، وتَرْكاً لما تحبون إذا كرهه الله .

وقال : انظر كلَّ عمل كرهتَ الموتَ لأجله فاتركه ولا يضرك متى مِتَّ .

***

يا رضيع الهوى وقد آن فطامه ، يا طالب الدنيا وقد حان حِمامه ، أللدنيا خُلقْتَ أم بجمعها أُمِرْتَ ؟ !

أخى إنمــا الدنيا محلة نَغْصَةٍ ودار غُرور آذنت بفراقِ
تزوَّدْ أخى من قبل أن تَسْكُن الثَّرى وتلتفَّ ساقٌ للممــاتِ بساقِ

يا من لا يتعظ بأبيه ولا بابنه ، يا مُؤْثراً للفانى على جَوْدة ذهنه ، يا متعوِّضا عن فرح ساعة بطول حزنه ، يامُسْخطاً للخالق لأجل المخلوق ضلالاً لإفنه [١] ، أمالَك عبرةٌ فيمن ضُعْضِع مَشِيد رُكْنه ، أما رأيتَ راحلا عن الدنيا يوم ظَعْنه [٢] ، أما تصرفَتْ فى ما له أكفُّ [٣] غيره من غير إذنه ، أما انصرف الأحبابُ عن قبره حين دَفْنه ، أما خلا بمسكنه [٤] فى ضيق سجنه ، تنبه والله من وَسَنه لقَرْع سِنّه ، ولقى فى وطنه ما لم يخطر [٥] على ظنه ، يا ذلة مقتولِ هواه يا خسران عبد بطنه .

يا ليت شعرىَ ما ادخر تَ ليوم بُؤْســك وافتقارك
فلتنزلن بمــنزلٍ [٦] تحتاج فيه إلى ادخـــارك
أفنيتَ عمْــرك باغترارك ومُناك فيــه بانتظارك

(١) ا : لفتنه . (٢) الأصل : ضعنه . (٣) ب : كف . (٤) ب : أما تخلى بمكتسبه .
(٥) ا : مالم يجر . (٦) ا : ولتنزلن منزلا .

ونسيتَ ما لا بد منـه وكان أولى بادّكارك
ولو اعتبرت بمن مضى[1] لـكفاك علماً باعتبـارك
لك ساعةٌ تأتيـك مِنْ ساعاتِ ليلك أو نهـارك
فتصير مُحتضراً بهـا فَهِيَ من قبلِ احتضارك
من قبـل أن تُقْلَى وتُقْصى[2] ثم تُخْرَج من ديارك
من قبل أن تتشاغل[3] الزوار عنك وعن مَزارك[4]

أخبرنا عمر[5] بن ظفر ، أخبرنا جعفر بن أحمد ، حدثنا عبد العزيز بن على ، أنبأنا ابن جَهْضَم ، حدثنا الُخلْدى ، حدثنا ابن مسروق ، حدثنا محمد بن الحسين ، قال : حدثنى ابن عبد الوهاب ، قال : قال رجل لداود الطائىّ : أوصنى . فدمعت عيناه ، وقال : يا أخى إنما الليل والنهار مَراحل ينزلها الناس مرحلةً بعد مرحلةَ ، حتى ينتهى ذلك إلى آخر سفرهم ، فإن استطعت أن تقدِّم كل يوم زاداً لما بين يديك فافعل ، فإن انقطاع السفر عن قريب والأمر أعجل من ذلك ، فتزودِ لنفسك واقضِ ما أنت قاض ، فكأنك بالأمر قد بغتك ، إنى لأقول لك هذا وما أعلم أحداً أشدَّ تقصيرا منى ! ! ثم قام وتركه .

***

يا لاهياً بالمنايا قد غره الأملُ وأنت عمّا قليلٍ سوف ترتحلُ
تبغى اللحوقَ بلا زاد تقدِّمه إن المخفِّين لما شَمَّروا وصَلُوا
لا تَركَنَنَّ إلى الدنيا وزُخْرفها فأنت من عاجلِ الدنيا ستنتقلُ
أصبحت ترجو غداً يأتى وبعدَ غدٍ ورُبَّ ذى أملٍ قد خانه الأملُ
هذا شَبابُك قد ولَّت بشاشتُه ما بعد شَيْبك لا لهوٌ ولا جَدَلُ
ماذا التعللُّ بالدنيا وقد نشرَتْ لأهلها صِحَّةً فى طيّها عِلَلُ

---

(١) ا : لو اعتبرت بما ترى (٢) ا : من قبل أن تقضى وتلقى . (٣) ا : تتثاقل .
(٤) ب : عمران . محرفة . (٥) هذه القطعة فى ديوان أبى العتاهية باختلاف يسير ص ١٢٦ ط بيروت .

الكلام على قوله تعالى :

« وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ »

لقد دعاكم إلى البِدَار مَوْلاكم ، وفتح بابَ الإجابة ثم استدعاكم ، ودلّكم على منافعكم وهَدَاكم ، فالتفِتوا عن الهوى فقد آذاكم[١] ، وحُثُّوا حَزْمَ جَزْمكم ، وصُبُّوا ذَنُوبَ الُحزْن على ذَنْبكم ، وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ .

بابُه مفتوح للطالبين، وجَنابُه مَبْذول للراغبين؛ وفضله ينادى : يا غافلين ، وإحسانُه ينادِى الجاهلين، فاخرجوا من دائرة المذنبين، وبادروا مبادرة التائبين، وتعرّضوا لنَسَمات الرحمة تَخلَّصوا من كَرْبكم ، وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ .

كم شُغلتم[٢] بالمعاصى فذهب[٣] الفَرْض ، وبارَزْتم بالخطايا ونسيتم العَرْض ، وأعْرضْتم عن النذير وهو الشعر الُمبيَضّ ، وحضّكم[٤] على اكتساب حظكم فما[٥] نفع الحض ، وطالت آمالكم بعد أن[٦] ذهب الشباب الغَضّ ، ورأيتم سَلْب القُرَناء ولقد أُنذر البعضُ بالبعض[٧] ، ففِرّوا إلى الله من سجن الهوى فقد ضاق طُوله والعَرْض، وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ .

روى مسلم فى أفراده من حديث أنس بن مالك قال : انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى بَدْر حتى سبقوا المشركين ، وجاء المشركون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قوموا إلى جنةٍ عَرْضُها السمواتُ والأرض .

قال : يقول[٨] عُمَيْر بن الحمام الأنصارى : يا رسول الله جنةٍ عَرْضُها السمواتُ والأرض ؟ ! قال: نعم . قال: بَخٍ بَخٍ يا رسول الله . فقال: ما يحملك على قولك بَخٍ بَخٍ ؟ قال [لا[٩]] والله يا رسول الله إلا رجاءَ أن أكونَ من أهلها ، قال : فإنك من أهلها .

---

(١) ب : آذاكم ذاكم . (٢) ب : شغلكم . (٣) ب : وقد ذهب . (٤) ب : وحظكم .
(٥) ب : وما . (٦) ب : بعد إذ ذهب . (٧) ا : وقد أنذر البعض . (٨) ب : قال : فقال.
(٩) من ا .

قال : فأخرج تمرات من قَرْنه فجعل يأكلهن ثم قال : إنْ أنا حَيِيت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحَياةٌ طويلة[١] . فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتَل[٢] حتى قُتل .

وقد روينا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أيضا في يوم أُحد : قوموا إلى جنة عَرْضُها السمواتُ والأرض . فقام عَمْرو من الجَمُوح وهو أعرج فقال : والله لأَخْمزنّ بها[٣] في الجنة . فقاتل حتى قُتل .

قال : الواقدي : لما أراد عمرو بن الجَمُوح الخروج إلى أحد ، منعه[٤] بَنُوه ، وقالوا : قد[٥] عذرك الله . فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن بَنِيّ يريدون حَبْسِي عن الخروج معك وإني لأرجو أن أطأ بعَرْجتي [هذه[٦]] في الجنة ، فقال : « أمّا أنت فقد عذَرك الله » ثم قال لبنيه : لا عليكم أن لا تمنعوه لعل الله عز وجل يرزقه الشهادة . فخلّوا سبيله .

قالت امرأته هند بنت عمرو بن حُزَام : كأني أنظر إليه مولّياً[٧] ، قد أخذ دَرقته[٨] وهو يقول : اللهم لا تردّني إلى خَرْبي[٩] وهي منازل بني سلَمة .

قال أبو طلحة : فنظرتُ إليه حين انكشف المسلمون ثم ثابوا ، وهو في الرَّعيل الأوّل ، لكأني أنظر إلى ظَلَع[١٠] في رجله وهو يقول : أنا والله مشتاق إلى الجنة !

ثم أنظر إلى ابنه خَلّاد [وهو[١١]] يَعْدو [معه[١١]] في إثره حتى قتلا جميعا .

وفي الحديث[١٢] أنه دُفن عمرو بن الجَمُوح وعبدالله بن عُمَر وأبو جابر في قبر واحد ، فخرّب السيلُ قبرهم[١٣] ، فحفِر عنهم[١٣] بعد ست وأربعين سنة فوجدوا[١٣] لم يتغيروا[١٣] كأنهم[١٣] ماتوا بأمس[١٣] .

***

لله دَرّ قوم بادروا الأوقات ، واستدركوا الهفوات ، فالعين[١٤] مشغولة بالدَّمْع عن

---

(١) ب : إنما الحياة طويلة. (٢) ب : ثم قاتلهم. (٣) ب : بهما . (٤) ب : منعوه. (٥) ا : اقعد عذرك الله . (٦) من ب . (٧) ا : مليا (٨) الدرقة: الترس من جلد بلا خشب ولا عقب (٩) ا : إلى حرثي . (١٠) الأصل: إلى ضلم . (١١) من ب . (١٢) ب : وفي حديث آخر . (١٣) ب : قبرهما . عنهما ـ فوجدا ـ لم يتغيرا ـ فكأنهما ماتا بالأمس . (١٤) ا : فالعيون .

المحرَّمات ، واللسان محبوسٌ فى سِجْن الصَّمْت عن الهلَكات ، والكفُّ[1] قد كُفَّتْ بالخوف عن الشهوات[2] ، والقَدَم قد قُيِّدت بقيد المحاسَبات، والليل لديْهم[3] يجأرون فيه بالأصوات ، فإذا جاء النهار قطعوه[4] بمقاطعة اللذات ، فكم من شهوة ما بلغوها حتى الممات ، فتيقَّظْ لِلحاقهم من هذه الرقَدات ، ولا تطمعنّ فى الخلَاص مع عدم الإخلاص فى الطاعات ، ولا تُؤَمّلنّ النجاة وأنت مقيم على الموبقات « أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ » .

عجباً لأَمْنك والحياةُ قصيرةٌ ... وبفقد إلفٍ لا تزال تُرَوَّع[5]
أفقدْ رضِيتَ بأن تُعلَّل بالمنَى ... وإلى المنيةِ كلَّ يومٍ تُدْفَعُ
لا تَخْدَعنَّك بعد طولِ تجاربٍ ... دنيـــا تَغُرُّ بوَصْلها وستُقْطَع
أحلامُ نومٍ[6] أو كظلٍّ زائلٍ ... إن اللبيب بمثلها لا يُخْدَعُ
وتزوّدَنَّ ليوم فقرك دائبا[7] ... ألغير نفسك لا أبالك تَجْمَعُ

لمَّا عَلِم الصالحون قِصَر العُمْر ، وحَثَّهم حادِى « وَسَارِعُوٓاْ » طَوَوا مراحلَ الليلِ مع النهار انتهاباً للأوقات .

كان فى مسجد أبى مُسْلم الخَوْلانِىّ سَوْط يخوِّف به نفسه، فإذا فتَرَ ضربَها بالسوط.

وكان مصلَّى وهب بن منبِّــه فراشَه أربعين سنــة ، وبقى أربعين[8] سنــة يصلى الفجر بوضوء العِشَاء !

وكان أُوَيْس القرَنِىّ يقول : لأعبـدن الله تعالى عبادة الملائـكة . فيقطع ليلةً قائما وليلةً راكعا وليلةً ساجدا .

وكان علىّ بن عبد الله بن العباس يسجد كلَّ يوم ألفَ سجدة ، فسمِّى السَّجاد .

وكان كُرْز بن وَبرة يعصب رجليه بالخِرَق لـكثرة صلاته، فازدحم الناس على جِسْر ،

---

(١) ا : والأكف . (٢) ب : عن الشبهات . (٣) ب : والليل لذتهم . (٤) ب : قاطعوه .
(٥) ا : لا يزال يروع . (٦) ب : أحلام نور . (٧) ب : افقد يومك دائبا .
(٨) ب : عشرين .

فنزل يصلّى لئلا يبطل[١] .

ودخلوا على زُجْلة العابدة ، وكانت قد صامت حتى اسودَّت ، وبكت حتى عَمِيَتْ ، وصلَّت حتى أُقْعِدت ، فذاكروها شيئا من العفو ، فشهقت ثم قالت : عِلْمِى[٢] بنفسى قَرح فؤادى وكَلَمَ كَبِدِى ، والله لودِدْتُ أن الله تعالى لم يخلقنى . فقيل [لها[٣]] : ارفقى بنفسك . فقالت : إنما هى أيامٌ [قلائل[٤]] تسرع ، من[٥] فاته شىء اليوم لم يدركه غداً . ثم قالت : يا إخوتاه لأصلينَّ لله ما أقلَّتْنى جوارحى ، ولأصومَنَّ له أيامَ حياتى ، ولأبكينَّ ما حملَتْ الماءَ عيناى ، أيكم يحب أن يأمر عبدَه بأمرٍ فيقصِّر !

فهذه[٦] والله صفاتُ المجتهدين ، وهذه خصال[٧] المبادرين ، فانتبهوا يا غافلين .

***

دارِكْ فما عُمْرك[٨] بالوانى ولا تثِقْ بالعُمْرِ[٩] الفانى
يأتى لك اليومُ بما تشتهى فيه ولا يأتى لك الثانى
ويَأْمل البانِى بقاءَ الذى[١٠] يَبْنِي وقد يُخْتلَس البانى
تصْبح فى شأن بما تقتنى الآمالُ والأيام فى شان[١١]
فانظر بعين الحقِّ مُسْتبصرا إن كنتَ ذا عقلٍ وعرفان
هل نال من جمَّع أموالَه يوماً سِوىٍ قبرٍ وأكفانٍ[١٢]
أليس كِسْرى بعدما نالَه زُحْزِح عن قَصْرٍ وإيوانِ
[وعاد فى حُفْرته خالياً بتُرْبة يَبْلَى وديدان[١٣]]
كم تلْعبُ الدنيا بأبنائها تلاعب الخَمْر بنَشْوانِ
والناس فى صُحْبتها ضحكةٌ قد رفضوا الباقىَ بالفانِى
وهم نِيامٌ عن مُلِمَّاتها تُبصرهم فى زى يَقْظان

---

(١) ب : حتى لا يبطل . (٢) ا : على بنفسى . (٣) من ب . (٤) من ب .
(٥) ب : فمن . (٦) ا : هذه . (٧) ب : خصائل . (٨) ب : فما أمرك .
(٩) ب : بالعرى النائى . (١٠) ا : وتأمل الباق بقاءالذى . محرفة . (١١) ب :
يصبح فى شأن بما يقتضى الأيام والآمال فى شان
(١٢) ا : سوى قطن وأكفان . (١٣) من ب .

سَجْع على قوله تعالى :
« ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ »
أى فى العُسْر واليُسْر

صدَقوا فى المحبة والوَلاء ، وصبروا على نزول[(١)] البلاء ، وقاموا فى دَيَاجى الظَّلْماء ، يشكرون [على][(٢)] سوابغ النَّعماء ، تجرت دموع جفونهم جريان الماء ، فأربحهم فى المعاملة ربُّ السماء ، ينفقون فى السراء والضراء .

بذلوا المالَ ومالوا إلى السَّخاء ، وطرقوا بابَ الفضل بأنامل الرَّجاء ، وتلمَّحوا وعدَ الصادق بجزيل العطاء ، وتأهَّبوا للحضور يومَ اللقاء ، وقدَّموا الأموالَ ثقةً بالجزاء ، ينفقون فى السراء والضراء .

أناخوا بباب الطَّبيب طلباً للشفاء ، وصبروا رجاء العافية على شُرْب الدواء ، فإن ابتُلوا صبروا ، وإن أُعطُوا شكروا ، فالأمر على السواء .

تالله لقد شغلهم حبُّه عن الآباء والأبناء ، ولقد عاملوه[(٣)] بإيثار المساكين والفقراء [الذين[(٤)]] ينفقون فى السراء والضراء .

***

قوله تعالى : « وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ » الكظم : الإمساك على ما فى النفس .

أخبرنا أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا عبدالله بن يزيد ، حدثنا سعيد يعنى ابن أبى أيوب ، حدثنى أبو مرحوم ، عن ابن الحُصَيْن ، قال أنبأنا ابن المذْهَب ، قال ابن مالك ، حدثنا عبد الله بن سهل بن معاذ عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كظَم غيظاً وهو قادر على أن يُنْفذه دعاه الله تعالى [يوم القيامة[(٥)]] على رءوس الخلائق ثم يخيِّر أى الحور العين شاء[(٦)] » .

قال أحمد : حدثنا على بن عاصم ، عن يونس بن عُبَيْد ، عن الحسن ، عن ابن عُمَر ،

---

(١) ب : على نوال البلا . (٢) من ب . (٣) ب : وعاملوا . (٤) ليست فى ا . (٥) من ب .
(٦) ا : من الحور العين ما شاء .

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما تجرَّع عَبْدٌ جُرْعةً أفضل عند الله من جُرْعة غيظٍ يَكظمها ابتغاء وجه الله تعالى .

قوله تعالى : « وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ » .

روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا » .

وقال علىّ عليه السلام : إذا قدرتَ على عدّوك فاجعل العفو عنه شكراً للقُدْرة عليه.

وشتم رجلٌ عمرَ بن ذَرّ فقال : لا تفرطَنَّ فى شَتْمنا، ودَعْ للصلح موضعا ، فإنا لا نكافئ من عصى الله فينا إلا أن نطيع الله فيه . وشتم رجلٌ الشَّعْبىّ فجعل يقول : أنت كذا وأنت كذا ، فقال الشعبى : إن كنتَ صادقا فغفر الله لى ، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك .

وأُتِى عمرُ بن عبد العزيز برجل كان قد نذر إن أمكنه الله منه ليفعلن به وليفعلن . فقال له رجاء بن حَيْوَة : قد فعل الله ما تُحِب من الظَّفَر فافعل ما يُحِب من العفو .

وأغاظ رجل لعمر بن عبد العزيز ، فأطرق طويلا ثم قال : أردتَ أن يستفزَّنى الشيطان بعز[(١)] السلطان فأنالَ منك اليوم ماتناله[(٢)] منى غداً .

وقال له رجل وهو على المنبر : أشهد أنك من الفاسقين . فقال : لا أجيز[(٣)] شهادتك .

وقيل للفُضَيْل بن مروان : إن فلانا يشتمك فقال : لأغيظنَّ[(٤)] من أمره ، يغفر الله لنا وله . قيل له : ومن أمَره ؟ قال : الشيطان .

قوله تعالى « وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ » .

الفاحشة : القبيحة ، وهى الكبائر ، والاستغفار يمحو أثر الذنوب[(٥)] .

أسفاً لعبدٍ[(٦)] كلما كثرت أوزاره قلَّ استغفاره وكلما قرُب من القبور قوِى عنده الفتور .

---

(١) ا : بعزم . (٢) ب : ما تنال . (٣) ب : لا نجيز . (٤) ا : لا أغضب من أمره .
(٥) ب : الذنب . (٦) ب : للعبد .

يامُدْمنَ الذَّنب أما تستحى اللهُ فى الخلْوة ثانيكا
غرّكَ مِن ربِّك إمهالُه وسَتْرُه طُول مَساوِيكا

إخوانى : إنكم مخلوقون اقتدارا ، ومربوبون اقتسارا ، ومضمَّنون أجداثا ، وكائنون رُفَاتاً ومبعوثون أفراداً ، فاتقوا الله تقية من شمَّر تجريدا وجدَّ تشميرا ؛ ونظر فى المآل [1] وعاقبة المصير ، ومغبَّة المرجع ، وكفى بالجنة نَوالاً وبالنار نَكالا .

فرحم الله عبداً اقترف فاعترف ، ووجِل فعمل ، وحاذَر فبادَر ، وعُمِّر فاعتبرَ ، وأجابَ فأنابَ ، وراجَع فتابَ ، وتزوّد لرحيله وتأهّب لسبيله [2] .

فهل ينتظر أهلُ غضَاضة الشباب إلا الهرَم ، وأهل بضاعة الصحة إلا السَّقم ، وأهل طول البقاء إلا مفاجأة الفناء واقتراب الفَوْت ونزول الموت ، وأزف الانتقال وإشفاء الزوال ، وحَفْز الأنين ، وعرَق الجبين وامتداد العِرْنين ، وعِظَم القلَق وقبض الرمَق .

جعلنا الله وإياكم ممن أفاق لنفسه وفاق بالتحفظ أبناءَ جنْسه ، وأعدَّ عدةً تَصْلح لرَمْسه ، واستدرك فى يومه ما مضى من [3] أمسه ، قبْل ظهور العجائب ومشيب [4] الذوائب ، وقدوم الغائب وزم الركائب ، إنه سميع الدعاء .

---

(١) ب : ونظر فى كرة المؤمل . (٢) ا : وتزود للرحلة وتاهب للنقلة . (٣) ا : فى .
(٤) ب : وشيب .

المجلس الثالث

فى ذكر إدريس عليه السلام

الحمد لله الذى لم يزل عليما عظيما عليًا ، جبارا قهارا قادرا قويًّا ، رفع سقفَ السماء بصنعته فاستوى مبنيًّا ، وسطح المهادَ بقدرته وسقاه كلما عطش ريًّا ، وأخرج صنوفَ النبات فكسى كل نبْتٍ زِيًّا ، وقسم الخلائق سعيداً وشقيًّا ، و[قسم[(١)]] الرزق بينهم فترى فقيرا وغنيًّا ، والعقلَ فجعل [منهم[(١)]] ذكيًّا وغبيًّا ، ألهم إدريس الاحتيالَ على جنته فهو يتناول من لذاتها ويلبس حليًّا ، « وَاذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا » .

فهو الذى جادَ على أوليائه بإسعاده ، وبيَّن لهم مناهج الهدَى بفضله وإرشاده ، ورمى المخالفين [له[(١)]] بطرْده وإبعاده ، وأجرى البرايا على مشيئته ومراده ، واطّلع على سرّ العبد وقلبه وفؤاده ، وقدَّر صلاحَه وقضى عليه بفساده ، فهو الباطن الظاهر وهو القاهر فوق عباده .

أحمده على إصداره وإيراده ، حمدَ معترفٍ [له[(١)]] بإنشائه وإيجاده ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة تجْلو قلبَ قائلها من رَيْنِ سواده ، [وأشهد][(٢)] أن محمدا عبده ورسوله [المرسل[(٣)]] إلى [جميع[(٤)]] الناس فى جميع[(٥)] بلاده .

صلى الله عليه وعلى أبى بكر حارس الإسلام يومَ الردة عن ارتداده ، وعلى عمر الذى نطق القرآن بمراده ، وعلى عثمان مشترى سِلع السهر بنقْد رقاده ، وعلى علىٍّ قامع أعدائه ومهلك أضداده ، وعلى عمه العباس آخذ البيْعة ليلة العقبة على مراده .

اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام ، واحفظنا من الخطايا والآثام ، وارحمنا بفضلك ياذا الجلال والإكرام ، وانفعنى والحاضرين بما يجرى على لسانى من الكلام برحمتك يا عظيم يا علام .

---

(١) من ا . (٢) من ب . (٣) من ا . (٤) من ب . (٥) ب : فى كل .

قال الله تعالى : « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا » .

إدريس اسمه أخنوخ بن يَرْد بن مِهْلاييل ابن قيدار[1] بن أنوش بن شِيث ابن آدم عليه السلام .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو أولُ نبى بُعث بعد آدم ، وكان يصعد له فى اليوم من العمل مالا يصعد لبنى آدم فى السنة ، فحسده إبليس وعصاه قومه ، فرفعه الله مكاناً عليًّا ، وأدخله الجنة .

قال علماء السِّيَر : ولد إدريس فى حياة آدم ، وقد مضى من عمر آدم ستمائة سنة واثنتان وعشرون سنة ، وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة . فدعا قومَه ووعظهم ونهاهم ألَّا يُلابسوا[2] ولد قابيل ، فخالفوه فجاهدهم وسبىَ منهم واسترقّ[3] .

وهو أول من خطَّ بالقلم وخاط الثياب ، ورُفع وهو ابن ثلاثمائة وخمس ستين سنة. وعاش أبوه [آدم[4]] بعد ارتفاعه مائة وخمساً وثلاثين سنة .

وفى المكان الذى رفع إليه ثلاثة أقوال : أحدها أنه فى السماء الرابعة . وفى الصحيحين من حديث مالك بن صَعْصعة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث المعراج أنه رأى إدريس فى السماء الرابعة . وقد روينا أن الجنة فى السماء الرابعة .

والقول الثانى : أنه فى السماء السادسة . رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثالث : أنه فى السماء السابعة . حكاه أبو سليمان الدمشقى .

وفى سبب رفعه[5] إلى السماء ثلاثة أقوال : أحدها : أنه كان يصعد له من العمل مثل ما يصعد لجميع بنى آدم ، فأحبَّه ملَكُ الموت ، فاستأذن الله تعالى فى خُلَّته : فأذِن له ، فهبط إليه فى صورة آدمى ، وكان يَصْحبه ، فلما عرفه قال : إنى أسألك حاجة . قال : ماهى. قال : تذيقنى الموتَ فلعلِّى أعلم شِدّته فأكون أشدَّ له استعدادا . فأوحى الله تعالى إليه : أن اقبض روحه ساعةً ثم أرسِله . ففعل . ثم قال [له[6]] : كيف رأيت الموتَ ؟ قال :

---

(١) ا : ابن قينان . (٢) ا : أن لا يسبوا . محرفة . (٣) ا : واستغرق (٤) من ب .
(٥) ا : صعوده . (٦) من ب .

أشدَّ مما بلغنى عنه ، وإنى أحبُّ أن تريني النار . فحمله فأراه إياها فقال : إنى أحب أن تريني الجنة فأراه إياها فلما دخلها وطاف فيها قال له ملَكُ الموت : اخرج . فقال : والله لا أخرج حتى يكون الله عز وجل يخرجنى . فبعث الله عز وجل ملكا يحكم[١] بينهما ، فقال : ما تقول : يا ملك الموت . فقص عليه ما جرى . فقال : ما تقول يا إدريس ؟ قال : إن الله تعالى يقول[٢] : « كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ » وقد ذقتُه . وقال : « وإن مِنكم إلا وَارِدُها » وقد ورَدْتُ . وقال لأهل الجنة : « وَماهُم مِنها بمُخْرَجِينَ » فو الله لا أخرج حتى يكون الله يخرجنى ، فسمع هاتفا من فوقه يقول : بإذنى دخل وبأمرى فعلَ . فخلِّ سبيلَه .

وهذا معنى ما رواه زيد بن أَسْلَمَ مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] .

فإن قيل : من أَيْن لإدريس هذه الآيات ؟

فقد أجاب بعض العلماء فقال : كان الله تعالى قد أَعْلَمَ إدريس وجوبَ الورود وامتناع الخروج من الجنة فقال ذلك .

القول الثانى : أن ملكا من الملائكة استأذن ربَّه عز وجل أن يهبط إلى إدريس ، فأذِن له ، فلما عرفه إدريس قال : هل بينك وبين مَلَك الموت معرفة ؟ قال : ذاك أخى من الملائكة . قال : هل تستطيع أن تنفعنى عند ملَك الموت ؟ قال : [نعم][٤] [سأقول له فيك فيَرْفق بك . اركب بين جناحىّ . فركب إدريس فصعد به إلى السماء ، فلقى ملَك الموت][٥] [فعرفه أنه يريد أن يسأله كم بقى من عمره][٦] فقال الملك لملك الموت : إن لى إليك حاجة . قال أعلم ما حاجتك ، تكلمنى فى إدريس وقد محِى اسمه من الصحيفة ، ولم يبق من أجله إلا نِصْف طَرْفة عين ! فمات إدريس بين جناحى المَلَك .

---

(١) ب : فحكم. (٢) ب : قال. (٣) لا نستطيع الاطمئنان إلى هذه المرويات التى لا يؤيدها نص صحيح وحسبنا أن نرى فيها صورة لما كان يعجب الأقدمين من خيال. (٤) من ا. (٥) ليست فى ا. (٦) من : ا.

رواه عِكْرِمة عن ابن عباس .

والثالث : أنَّ إدريس مشى يوماً فى الشمس فأصابه وهَجها[1] ، فقال : اللهم خَفِّف ثِقَلها عمَّن يحملها . فأصبح المَلَك الموكَّل بالشمس وقد وجَد من خِفَّتها ما لم يعرف . فسأل الله تعالى عن ذلك ، فقال : إن عَبْدى إدريس سألنى أن أخفف عنك حِمْلها فأجبته . فقال : يارب اجمع بينى وبينه واجعل بيننا خُلَّة . فأذِن له فأتاه فكان فيما قال له إدريس : اشفع لى إلى ملَك الموت أن يؤخِّر أجلى . قال : إن الله تعالى لا يؤخِّر نفساً إذا جاء أجلها ، ولكن أُكلِّمه فيك ، فما استطاع أن يفعل فعل . ثم حمله الملك على جناحه فوضعه عند مَطْلَع الشمس ، ثم أتى ملَك الموت فأخبرَه ، فقال ليس ذاك إلىَّ ، ولكن إن أحببتَ أعلمته متى يموت . فنظر فى ديوانه فقال : إنك كلَّمتنى فى إنسان ما أجده يموت إلا عند مَطْلَع الشمس . قال : فإنه هناك قال : انطلق فما تجده إلا ميتا .

روى هذا عن ابن عباس وكعب رضى الله عنهما .

***

وقال علماء السِّير : وكان إدريس قد أوصَى قبلَ رفعه إلى ولده متوشلخ ، وكان ولداً صالحا . وولد لمتوشلخ لَمَك ، وولد لَمَك نوح عليه السلام .

وكان من الملوك فى زمن إدريس طَهْمورت ملك الأقاليمَ كلها ، ونفَى الأشرار ، وهو أول من كتَب بالفارسية واتخذ الخيلَ والبغال والحمير والكلاب لحفظ المواشى ، واستمرت أحواله على الصلاح : ثم ملَك أخوه « جَمْ شِيد[2] » وتفسير جم شيد : سيِّد الشُّعاع ، سمِّى بذلك لأنه كان وضيئاً جميلا ، فملك الأقاليمَ كلها وسار السيرةَ الجميلة ، وابتدع عَمَل[3] السيوف والسلاح وصنعة القزّ ، وجعَل الناسَ أربعَ طبقات : طبقة مُقاتلة ، وطبقة فقهاء ، وطبقة كُتَّابا وصناعا وحرَّاثين ، وطبقة خدَما . وعمل أربع خواتيم : خاتما للحرب والشُّرَط وكتب عليه : الأناة . وخاتما للخَراج وجباية

---

(١) ب : وجهها .
(٢) كذا بالأصل . وفى الطبرى ١ / ٨٨ : جم الشيذ . والشيذ معناه عندهم الشعاع .
(٣) ب : عمل السيوف .

الأموال ، وكتب عليه : العمارة . وخاتما للبريد وكتب عليه : الوحا [١] . وخاتما للمظالم وكتب عليه : العدل . فبقيت هذه الرسوم فى ملوك الفُرْس إلى أن جاء الإسلام .

وألزمَ من غلَبه من أهل الفساد بالأعمال الصَّعبة مِن قَطْع الصخور من الجبال والبناء وعمل الحمامات . وأخرج من البحار والمعادن ما ينتفع به الناس من الذهب والفضة والجواهر والأدوية . وأَحْدَث النيروزَ فجعله عيدا .

ثم إنه بَطِر فادَّعى الربوبية ، فسار إليه بيوراسِب [٢] ، وهو الضحاك بن الأَهْيُوب ، فظفِر به فنشره بمنشار .

وملك الضحاك الفُرسَ ألفَ سنة ، وكان يدِين بدين البراهِمة [٣] .

وبين [٤] إدريس ونوح [كانت] [٥] الجاهلية الأولى التى قال الله فيها : « ولا تبرَّجن تبرجَ الجاهلية الأولى » [٦] .

***

فتفكروا إخوانى فى أهل الفساد و [فى] [٥] أهل الصلاح ، وميِّزوا أهلَ الخسران من أرباب الأرباح ، [فياسرعان عمرٍ يُفْنيه المساء والصباح [٧]] فتأهبوا للرحيل فياقُرْب السَّراح ، وتفكروا فيمن غرَّته أفراحُ الراح ، كيف راح عن الدنيا فارغ الراح [٨] ، فالهوى ليلٌ مُظْلم ، والفكر مصباح .

الكلام على البسملة

اسم ما أحلاه لمسمًّى ما أعلاه ، قرَّب المحِبَّ وأَدْناه ، وبلغ المؤمِّل من فَضْله مُناه ، من لاذ بحِماه حَماه ، ومن استعطاه أعطاه ، أنِست به قلوبُ العارفين ، وولِهت من محبته

---

(١) الوحا : الإسراع . (٢) الأصل : بنوراسب . والتصويب من تاريخ الطبرى ١ / ٨٨ ط الحسينية المصرية . (٣) ا : الإبراهيمية . (٤) ا : ودين إدريس ونوح كانت للجاهلية . (٥) من ا . (٦) سورة الأحزاب . (٧) سقطت من ا . (٨) ا : وتفكروا فيمن غره إفراح الرواح ، كيف راح عن الدنيا فارغ المراح . محرفة .

أفئدة المشتاقين ، وخضعت لمحبته رقابُ المتكبرين ، وإنما يحبّ كلّ قلبٍ حزين[1]

ساكنٌ فى القلب يَعْمرهُ   لستُ أنساه فأذكرهُ
وهو مَوْلاىَ[2] رضيتُ به   ونَصِيبِى منــه أوْفَره
غابَ عن سَمعى وعن بَصرى   فسُوَيْدَا القلب يُبْصِره

لله دَرّ ألسنة بذكرى تجرى ، ويانحرهم وهِمَمُهم إلى بابى تَسْرى ويا راحة أبدانهم تعبت بين نَهْيِى وأمْرى ، طالما اطَّلعتُ عليهم وهم على باب شُكْرى ، رفضوا شهواتهم فالنفوس فى أَسْرِى ، قطعوا جوادَ الجِدِّ وأنت فى الغفلة ما تدرى[3] .

[اذكر[4]] اسم من إذا أطعتَه أفادك ، وإذا أتيتَه شاكراً زادَك وإذا خدمْتَه أصلح قلبك وفؤادك .

قال الشِّبلى : ليس للأعمى من الجوهر إلا لَمْسه ، وليس للجاهل من ذِكر الله عز وجل إلا النطقُ باللسان .

ذِكْرك لى مؤنس يعارضنى   يَعِدُنى عنك مِنْك بالظَّفَرِ
وكيف[5] أنساك يا مدَى هِمَمى   وأنت منى بموضع النظرِ

يامن يرجو الثوابَ بغير عمل ، ويُرْجِئُ التوبة بطول الأمل ، أتقول فى الدنيا قولَ الزاهدين وتعمل فيها عملَ الراغبين ، لا بقليل منها تَقْنع ، ولا بكثير منها تَشْبع ، تَكْره الموت لأجل ذنوبك وتقيم على ما تكره [الموت له[6]] تَغْنبك[7] نفسُك على ما تظن ولا تغلبها[8] على ما تستيقن ، لا تثِق من الرزق بما ضُمِن لك ولا تعمل من العمل ما فُرِض عليك ، تستكثر من معصية غيرك ما تحْقِره[9] من نفسك .

أَمَا تَعلم أن الدنيا كالحيّة، ليِّن لَمْسُها[10] والسم الناقع فى جَوفها ، يهوِى إليها الصبىُّ

---

(١) ب : وإنما يحب قلب كل قلب حزين . ولعلها محرفة .   (٢) ب : وهو ملاى . محرفة .
(٣) سقطت من ا .   (٤) من ا .   (٥) ب : فكيف أنساك .   (٦) سقطت من ا .
(٧) ب : تقلبك .   (٨) ب : ولا تقلبها .   (٩) ب : ما تحتقره .   (١٠) ا : مسها .

الجاهل ويحذرها ذو اللب العاقل ، كيف تقرّ بالدنيا عينُ من عرفها ، وما أبعد أن يُفطَم عنها من ألفها :

حقيقٌ بالتواضع من يموتُ ... وحَسْب المرء من دُنياه قوتُ
فما للمرء يُصْبح ذا اهتمامٍ ... وحُزنٍ لا تقوم به النعوتُ
فيا هذا ستَرْحل عن قريب ... إلى قومٍ كلامُهم السكوتُ

أخبرنا عمر بن ظُفر ، بسنده إلى محمد بن أحمد بن زياد قال : سمعت أبا بكر العطّار يقول : حضرت جُنَيدا عند موته أنا وجماعة من أصحابنا ، وكان قاعدا يصلى ويَثْنى رجليه إذا أراد أن يركع ويسجد ، فلم يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجليه ، فثقُل عليه تحريكهما ، وكانت رجلاه قد تورّمتا ، فقال له بعض أصحابه : ما هذا يا أبا القاسم ؟ قال : هذه نِعَم الله أكبر . فلما فرغ من صلاته قال له أبو محمد : يا أبا القاسم لو اضطجعتَ ؟ فقال : يا محمد هذا وقتٌ يؤخَذ منه . الله أكبر . فلم يزل كذلك حتى خرجت روحه .

طوبَى لمن تنبّه من رقاده ، وبكى على ماضى فساده وخرج من دائرة المعاصى إلى دائرة سَداده ، عساه يمحو بصحيح اعترافه قبيحَ اقترافه ، قبل أن يقول فلا يَنْفع ، ويعتذر فلا يُسْمع :

قد قلتُ للنفس وبالغتُ ... وزِدْت فى العَتْب وأكثرتُ
يا نفسُ قد قصّرتِ ما قد كفَى ... تيقّظِى قد قَرُب الوقتْ
جِدّى عسَى أن تُدْركى ما مضَى ... قد سبَق الناسُ وخُلِّفتُ
أنا الذى قد قلتُ دهرا غداً ... أتوب من ذَنْبى[1] فما تُبتُ
لو كنتُ ذا عقلٍ لماَ حلَّ بى ... نُحْت على نفسِىَ ما عِشْتُ
واحَسْرتِى يومَ حسابى إذَا ... وقفتُ للعرضِ وحُوسبتُ

(١) ب : من ذنوبى . محرفة . وما أثبته من ا .

واخَجْلتِي إنْ قيل لى قد مضَى وقتُك تفريطاً وولِّيتُ
ولى كتابٌ ناطقٌ بالذى قد كنت فى دنياىَ قدَّمتُ
تُميلنى الدنيـــا بأهوائها لولا شَقاء الحظِّ ما مِلْتُ
وقد تحيَّرت ولا عُذْر لى إنْ قلت إنى قد تحيَّرتُ

قال عيسى بن مريم عليـه السلام : لا ينتظر امرؤ بتوبته غداً ، فإن بَيْنك وبين غدٍ يوماً وليلة ، وأمر الله غادٍ ورائح .

بادر أيها الشاب قبل الهرم ، واغتنم أيها الشيخ الصحة قبل السَّقَم ، قبل أن يتمكن من بدنك الألم ، ويقول لسانُ العتاب : ألم [أقل لك ألم[1]] قال نبينا صلى الله عليه وسلم : « نعمتان مَغْبون فيهما كثير من الناس : الصحةُ والفراغ[2] » .

وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يصفرَّ ويخضَرَّ ، وحج ثمانين حجة .

وصام منصور بن المعتمِر أربعين سنة وقام ليلها ، وكان يبكى طولَ الليل ، فقالت له أمه : يابنى لعلك قتلتَ قتيلا ؟ فيقول : أنا أعلم بما صنعتْ نفسى[3] :

جنَحتْ شمسُ حياتى وتدنَّتْ للغـــروبِ
وتولَّى ليـــلُ رأسِى وبدا فجـــرُ المشيبِ
ربِّ خلِّصنى فقـــد لَجَّجْتُ[4] فى بحرِ الذنوب
وأنلْنى العفوَ يا أَوْ ربَّ من كلٍّ قريبِ

الكلام على قوله تعالى :
﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض[5] ﴾

سبحان من أظهر العجائب فى مصنوعاته ، ودلَّ على عظمتـه بمبتدَعاته ، وحثَّ على تصفح عِبَره وآياته، وأظهرَ قدرته فى البناء والنَّقْض، والهَشِيم والغَضّ، ﴿ قل انظروا ماذا فى السمواتِ والأرض ﴾ .

(١) سقطت من ب . (٢) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الرقاق. (٣) ا : بما صنعت لنفسى.
(٤) فى اللسان ٣/١٧٨ : لجج القوم إذا وقعوا فى اللجة . وهى معظم الماء. (٥) سورة يونس ١٠١ .

سعِدَ من تدبَّر ، وسلِم من تفكَّر ، وفاز من نظَر واستعبر[١] ، ونجا مِنْ بحر الهوى من تصبَّر[٢] وهلك كلَّ الهلاك وأدْبر ، من نسِيَ الموتَ مع الشَّعر المبيضّ « قل انظروا ماذا فى السموات ِ والأرض » .

يا أرباب الغفلة اذكروا، يا أهل الإعراض احضروا ، يا غافلين عن المنعِم اشكروا ، يا أهل الهوى خَلو الهوى واصبروا ، فالدنيا قَنطرة ُفجوزوا واعبُروا ، وتأمَّلوا هِلال الهُدَى فإنْ غُمَّ عليكم فاقْدِروا ، فقد نادَى منادِى الصلاح حىَّ على الفلاح ، فأَسْمَع أهلَ الطُّول والعَرْض « قل انظروا ماذا فى السموات ِ والأرض » .

***

إخوانى : ليس المراد بالنظر إلى ما فى السموات والأرض ملاحظته بالبصر ، وإنما هو التفكر فى قدرة الصانع .

أخبرنا محمد بن عبد الله ، قال حدثنا عبد الله بن على الدَّقاق ، أنبأنا أبو الحسين ابن بِشْران ، أنبأنا إسماعيل الصَّفار ، حدثنا سَعْدان ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن سالم بن أبى الجَعْد ، عن أم الدَّرداء رضى الله عنها أنها قالت : « تفكُّر لحظة خيرٌ من قيام ليلة » .

وقيل لها : ما كان أفضل عمل أبى الدرداء ؟ قالت : التفكر .

وقال ابن عباس : ركعتان مقتصِدتان فى تفكر خيرٌ من قيام ليلة .

وقال الحسَن: ما زال أهل العلم يَعُودون بالتفكّر على التذكر، وبالتذكر على التفكّر، ويناطقون القلوبَ حتى نطقت ، فإذا لها أسماع وأبصار ، فنطقت بالحكمة وضربت الأمثال ، فأورثت العِلمَ .

وقال : الفكر مرآة ٌ تُريك حسناتك وسيئاتك . وقال : من لم يكن كلامه حكمة[٣] فهو لَغْو ، ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سَهْو ، ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو .

---

(١) ا : وتعبر . (٢) ب : ونجا من عن الهوى تبصر . (٣) ا : من لم يكن علامة حكمه التفكر فهو لغو . محرفة .

وجاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ سأَصْرِف عن آياتيَ الذين يتكبَّرون[١] ﴾ قال : أمنع قلوبَهم من التفكر في أمري .

وكان لقمان يجلس وحده ويقول : طول الوحدة أَفْهم للتفكر ، وطول التفكر دليلٌ على طريق الجنة .

وقال وهب بن منبهٍ : ما طالت فكرةُ امرئٍ قط إلا عَلِم ، ولا عِلم إلا عمل .

وبينما أبو شُرَيح العابد يمشي جلس فتقنَّع بكسائه وجعل يبكي ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : تفكرتُ في ذَهاب عمري وقِلّة عملي واقتراب أجَلي !

وبينا داود الطائي في سطح داره في ليلة قَمْراء تفكر في ملكوت السموات والأرض فوقع إلى سطح جاره ، فلما أفاق قال : ما علمت بذلك[٢] .

***

واعلم أن التفكر ينقسم إلى[٣] قسمين : أحدهما يتعلق بالعبد . والثاني بالمعبود جل جلاله.

فأما المتعلّق بالعبد : فينبغي أن يتفكر : هل هو على معصية أم لا ؟ فإن رأى زَلَّة تَداركها بالتوبة والاستغفار ثم يتفكر في نَقْل الأعضاء ، من المعاصي إلى الطاعات ، فيجعل شُغل العينِ العِبْرة ، وشغل اللسان الذِّكر ، وكذلك سائر الأعضاء .

ثم يتفكر في الطاعات ليقوم بواجبها ويَجْبُر واهنَها ، ثم يتفكر في مبادرة الأوقات بالنوافل طلباً للأرباح ، ويتفكر في قِصَر العمر فينتبه حذراً أن يقول غداً : « ياحَسْرتا على ما فرطتُ في جَنْب الله » .

ثم يتفكر في خِصَال باطنِه فيَقْمع الخصالَ المذمومة ، كالكِبْر والعُجْب والبخل والحسد ، ويتولى[٤] الخصالَ المحمودة ، كالصدق والإخلاص والصبر والخوف .

وفي الجملة يتفكر في زوال الدنيا فيرفضها ، وفي بقاء الآخرة فيَعْمرها .

أخبرنا إسماعيل بن أبي بكر المقبُري[٥] ، أنبأنا عاصم بن الحسن ، أنبأنا بشران ابن صفوان ، أخبرنا أبو بكر بن عبيد ، قال قال محمد بن الحسين ، حدثني عمَّار بن

---

(١) سورة الأعراف ١٤٦ . (٢) سقط من ا . (٣) ب : على قسمين .
(٤) ب : ويولي . (٥) ا : المقرىء .

عثمان ، حدثنى سعيد بن ثعلبة ، قال : قال النَّضْر بن المنذر[1] لإخوانه : زوروا الآخرة فى كل يوم بقلوبكم ، وشاهدوا الموتَ بتوهّمكم ، وتوسَّدوا القبورَ بفكركم ، واعلموا أن ذلك كائن لا محالة ، فمختار[2] لنفسه ما أحبَّ من المنافع والضرر أيامَ حياته .

***

وأما المتعلق بالمعبود جل جلاله فقد منَع الشرع من التفكر فى ذات الله عز وجل وصفاته فقال عليه السلام : « تفكروا فى خَلْق الله ولا تتفكروا فى الله ، فإنكم لن تَقْدِروا قَدْره » .

فلم يبق إلا النظر فى الآثار التى تدل على المؤثِّر .

وجميع الموجودات من آثار قدرته .

وأعجب آثاره الآدمى ، فإنك إذا تفكرت فى نفسك كفَى ، وإذا نظرت فى خَلْقك شفَى . أليس قد فعل فى قطرة [من][3] ماء مالو انقضت الأعمارُ فى شرح حكمته ما وفَتْ !

كانت النقطة مغموسةً فى دم الحيض ، ومقياس القدرة[4] يشقّ السمعَ والبصر ، خلق منها ثلاثمائة وستين عَظْما وخمسمائة وتسعا وعشرين عضلة ، كل شىء من ذلك تحته حكمة ، فالعين سبع طبقات ، وأربعة وعشرون عضلة لتحريك حدَقة العين ، وأجفانها ، لو نقصَتْ منها واحدة لاختل الأمر ، وأظْهر فى سواد العين على صِغره صورة السماء مع اتساعها ، وخالَف بين أشكال الحناجر فى الأصوات ، وسخَّر[5] المعدة لإنضاج الغذاء ، والكبدَ لإحالته إلى الدم ، والطحال لجذب[6] السوداء والمرارة لتناول الصفراء [كلها][7] والعروق كالخدم للكبد تَنْفُذ منها الدماء إلى أطراف البدن .

فيا أيها الغافل ما عِندك خبَرٌ منك ، فما تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل

---

(١) ا : أبو المنذر . (٢) ا : فيختار . (٣) من ب . (٤) ا : ونقاش القدرة شق السمع والبصر . (٥) ب : وسخن . (٦) ب : يجذب . (٧) من ب .

وتشبع فتنام، وتغضب فتخاصم ، فبماذا تميَّزت على البهائم !

***

ارفع بصَر فِكْرك إلى عجائب السموات ، فتلمَّح الشمس فى كل يوم فى منزل ، فإذا انخفضت بَرَد الهواء وجاء الشتاء ، وإذا ارتفعت قوِى الحرّ ، وإذا كانت بين المَنْزلتين اعتدل الزمان ، والشمسُ مثل الأرض مائةً ونيّفاً وستين مرة وأصغر الكواكب مثل الأرض ثمانى مرات .

ثم اخفض بصَرك إلى الأرض ترى فِجَاجها مذلَّلةً للتسخير ، فامشوا فى مناكبها وتفكروا[1] فى شُرْبها بعد جَدْبها بكأس القَطْر ، وتلمَّح خروج النبات يرْفُل فى ألوان الحُلَل على اختلاف الصُّور والطعوم والأرابيح ، وانظر كيف نزل القَطْر إلى عِرْق الشجر ، ثم عاد ينجذب[2] إلى فروعها . ويجرى فى تجاويفها بعروق لا تفتقر إلى كُلْفة .

فلاحظَّ للغافل[3] فى ذلك إلا سماع الرعد بأذنه ورؤية النبات والمطر بعينيه .

كلاَّ ! لو فَتح بصرَ البصيرة لقرأ على كل قطرة ، ورقة[4] خطًّا بالقلم الإلهى ، [تعلم][5] أنها رِزْق فلان فى وقت كذا .

ثم انظر إلى المعادن لحاجات الفقير إلى المصالح ، فمنها مُودَع كالرصاص والحديد ، ومنها مصنوع بسبب غيره[6] كالأرض السبخة يجمع فيها ماء المطر فيصير ملحا .

وانظر إلى انقسام الحيوانات ما بين طائرٍ وماشٍ وإلهامها ما يُصْلحها .

وانظر إلى بُعْد ما بين السماء والأرض كيف ملأ ذلك الفراغ هواءً لتستنشق منه الأرواح وتَسْبح الطير فى تيَّاره إذا طارت .

وانظر بفكرك إلى سعة البحر وتسخير الفُلْك فيه ، وما فيه من دابة .

---

(١) ا : وتفكر . (٢) ا : ينجذب . (٤) ا : أفلا يلاحظ العاقل فى ذلك لاستماع الرعد بأذنه . ولعلها محرفة . وما أثبته من ب . (٣) ب : على كل قطرة ورقة . (٥) سقطت من ا .
(٦) ا : لسبب من غيره .

قال يحيى بن أبي كثير : خلق الله ألف أمّة ، فأسكن ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البرّ .

واعجباً لك لو رأيتَ خطًّا مستحسَن الرقم لأَدْركك[١] الدَّهشُ من حكمة الكاتب، وأنت ترى رُقومَ القُدْرة ولا تعرف الصانع ، فإن لم تعرفه بتلك الصنعة فتعجَّب كيف أعمَى بصيرتَك مع رؤية بصرك !

سجع على قوله تعالى

﴿ وما تُغْنى الآياتُ والنُّذُر عن قوم لا يؤمنون ﴾

كيف تصحُّ الفكرة لقلبٍ غافل ، وكيف تقع اليقظةُ لعقلٍ ذاهل ، وكيف يحصل الفهمُ للُبٍّ عاطل ، عجباً لمفرِّط والأيام قلائل ولمائل إلى ركنٍ مائل ، لقد خاب الغافلون وفاز المتقون « وما تُغْنى الآياتُ والنُّذُر عن قومٍ لا يؤمنون » .

من كُتِب عليه الشقاء كيف يَسْلَم ، ومن عَمِي قلبُه كيف يفهم ، ومن أمْرضه طبيبُه كيف لا يَسْقم ، ومن اعوجَّ فى أصل وضعه فبعيد أن يتقوَّم ، هيهات من خُلق للشقاء فللشقاء يكون ، « وما تُغْنى الآياتُ والنُّذُر عن قومٍ لا يؤمنون » .

كم عملٍ رُدَّ على عامله ، وكم أملٍ رجع بالخيبة على آمِله ، وكم عاملٍ بالغ فى إتعاب مَفَاصله فهبَّت[٢] ريحُ الشقاء لتبديد حاصله ، لقد نُودِيَ على المطرودين ولكنهم ما يسمعون « وما تُغْنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » .

عشتُ دهراً بالتظنِّي هائماً فى كل فنِّ
قانعاً من أمِّ دَفْرٍ[٣] بأباطيل التمنِّي
أبتغيها وهى تَضْمينى[٤] من تحتِ المِجَنِّ

---

(١) ا : لأورثك . (٢) ب : وهبت . (٣) أم دفر : الدنيا . (٤) تضمينى : تظلمنى . روى ثعلب عن ابن الأعرابى : ضمى إذا ظلم . قال أبو منصور : كأنه مقلوب من ضام . اللسان ١٩/٢٢١ .

فالمُنى تُدْنِي إليهـــا والمُدَى[1] فوق المِسَنّ
ثم لا آخـــذُ منها مثلَ ما تأخـــذ منِّى
أيها المعْجَل عنهـــا وهو شِبْه المتـــأنّى
ليس المـــزعَج بالسَّـــير ركوبُ المُطْمَأَنّ
ليت شِعـــرى والتى تُغْــرى بأنِّى ولو أَنِّى
أىّ شىء صـــحّ منها للحريص المتمـــنِّى
أنا إذْ أشـــكو فلا تَسْــمع شـــكْوَى المتجنِّى
كمحبٍّ ظَلَّ يبـكى للحمام المتغـــنِّى

***

سجع على قوله تعالى
﴿ فهل ينتظرون إلا مِثْل أيام ِ الذين خلَوْا من قبلهم ﴾[2]

قل للمقيمين على معاصيهم وجهلهم ، الناسين مَن سبقهم ، المصرِّين على قبيح فِعلهم ، كم لَعِب الردَى بمِثْلهم ، لقد بُولغ فى اجتثاث أصْلهم ، فتراهم ما يكفى فى توبيخهم ، « فهل ينتظرون إلا مثلَ أيام الذين خلَوا من قبلهم » .

قل للمذنبين تأمَّلوا العواقب ، الآثامُ تبقى وتَفْنَى الأطايب ، والذنوب تُحصَى وما يَغْفُل الـكاتب ، والسهم مُفوَّق والرامى صائب ، واللذات وإنْ نِيلتْ فبعدَها المصائب ، فليتدبر العاقل وليحضر الغائب ، قبل أن يؤخذ الجهال على جهلهم ، « فهل ينتظرون إلا مثلَ أيام ِ الذين خلَوا من قبلهم » .

إنْ كان غيرك قد أجابَ الداعِى فـكأننى بك قد نعاكَ الناعِى
قد طال باعُك والمنيةُ بعدَ ذا ليستْ إذا صالَتْ قصيرة باعِ
وملأتَ سَمْعك بالمواعظ ظاهراً حتى اشتهرتَ به ولستَ بواعى

---

(١) المدى : جمع مدية ، وهى النصل . (٢) سورة يونس ١٠٢ .

تسعَى بنفسك فى المتالف جاهداً [(١)] لا تفعلنْ وارفُقْ بها يا ساعِى
ولقد جمعتَ من القبائح باطناً مالا تَضمَّنُه جسومُ أفاعِى
كم قد غُررتَ بظاهرٍ متجمِّلٍ مثلَ السَّراب جرَى ببطن القاعِ
بِعْتَ الذى يَبْقَى بما يفنَى غداً يا من رضِى بغَبينة المُبتاعِ

أيها العبد انظر بعين فكرك وعقلك ، هل تجد سبيلا لخلاص مثلك مع إقامته على فعلك ، أين اعتبارك بانطلاق أسلافك ، أين فكرك فى فراق أُلَّافك ، متى تنتقل عن قبيح خِلافك .

قــل للمفرِّط يستعدّ ما من ورودِ الموت بُدُّ
قد أخلق الدهرُ الشبا بَ وما مضَى لا يُستردُّ
أوْ ما يخاف أخو المعا صِى من له البطشُ الأشدُّ
يوماً يُعاين موقفاً فيه خُطوبٌ لا تُحــدُّ
فإلامَ يشتغل الفَــتى فى لَهْوه والأمر جدُّ
أبداً مواعيدُ الزما نِ لأهلِه تعبٌ وكَدُّ
يا من يؤمِّل أن يقيــم به وحادِى الموتِ يَحْدو
وتَرُوح داعيــةُ المَنو نِ على مؤمِّلهــا وتَغْدُو
يَختــال فى ثوب النَّعيـ ـم ودونَه قــبرٌ ولَحْدُ
والعمر يَقْصر كلّ يَوْ مٍ ثم فى الآمــال مَدُّ

أيقظنا الله وإياكم من هذه الرقدة ، وذكَّرنا الموتَ وما يأتى بعدَه ، وألهمنا شُكره على النعم [(٢)] وحمده ، إنه كريم لا يَردّ عبدَه .

[وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل] [(٣)] .

(١) ب : جاهلا . وما أثبته من ا . (٢) ب : وألهمنا على الشكر وحمده . (٣) ليست فى ا .

المجلس الرابع
فى ذكر نوح عليه الصلاة والسلام

الحمد لله الذى تُسبِّحه البحار الطوافح ، والسُّحب السوافح ، والأبصار اللوامح ، والأفكار والقرائح ، العزيز فى سلطانه ، الكريم فى امتنانه ، ساتر المذنب فى عصيانه ، رازق الصالح والطالح ، تقدَّس عن مِثْل وشبيه ، وتنزَّه عن نقص يعتريه ، يعلم خافيةَ الصدر وما فيه من سِر أضمرته الجوانح ، لا يشغله شاغل ولا يُبْرِمه سائل ولا يُنْقِصه نائل ، تعالى عن النِّد المماثل والضد المكادِح [1] ، يسمع تغريد الورقاء على الغصن ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ويتكلم فكلامه مكتوب فى اللَّوح مسموع بالأذن بغير آلات ولا أدَوات ولا جوارح . أنزل القَطْر بقدرته وصبَغ لونَ النبات بحكمته ، وخالَف بين الطعوم بمشيئته ، وأرسل الرياحَ لواقح . موصوف بالسمع والبصر ، يُرَى فى الجنة كما يُرَى القمر ، من شبَّهه أو كيَّفه فقد كفَر . هذا مذهبُ أهل السنة والأثر ، ودليلهم جَلِيٌّ واضح . ينجِّى من شاء كما شاء ويهلك ، فهو المسلِّم للمسلَّم والمسلِّم للمهلَك ، لم ينتفع كنعان بالنسب يوم الغَرق لأنه مشرك ، « قال يانوحُ إنهُ ليسَ مِنْ أَهْلِكَ إنه عملٌ غير صالح »

أحمده على تسهيل المصالح ، وأشكره على ستر القبائح ، وأصلى على رسوله محمد أفضَل غادٍ وخير رائح ، وعلى صاحبه أبى بكر ذى الفضل الراجح ، وعلى عمر العادل فلم يراقِب ولم يسامح ، وعلى عثمان الذى بايع عنه الرسولُ فيالها صفقةُ رابح ، وعلى علىّ البحر الخِضَمّ الطافح ، وعلى عمه العبّاس الذى أخذ البيعة له ليلة العقبة وكلُّ الأهل نازح ، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ، وهَبْ طالحنا لصالحنا وسامحنا فأنت الحليم المسامح ، واغفر لنا ذنوبنا قبل أن تشهد علينا الجوارح ، ونبِّهنا من رقَدات الغفلات

---

(١) المكادح : المكافح . وأصل الكدح السعى والحرص والدؤوب فى العمل .

قبل أن يصيح الصائح ، وانفعنى بما أقول والحاضرين بمنّك ، فمنك الفضل والمنائح .

***

قال الله تعالى : « وقال اركبوا فيها[١] » .

ولِد نوحٌ عليه السلام بعد وفاة آدم بمائة وست وعشرين سنة . وهو نوح بن لمَك[٢] ابن متوشلخ بن إدريس .

ولما تمّ له خمسون سنة بعثه الله عز وجل ، وقيل إنه بعث بعد أربعمائة سنة من عمره ، وكان الكفر قد عمّ ، فكان يدعو قومه فيضربونه حتى يُغْشى عليه . فأمره الله تعالى أن يصنع سفينة . فغرس الساجَ فتكامل فى أربعين سنة ، ثم قطعه فصنعها وأعانه أولاده ، وفجّر الله له عين القار تَغْلى غليانا حتى طلّاها .

وجعل لها ثلاثَ بطون ، فحمل فى البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوامّ ، وفى الأوسط الدوابّ والأنعام ، وركب هو ومن معه فى البطن الأعلى .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلاثمائة وثلاثين ذراعا . وفى رواية عنه قال : كان طولها ألفا ومائتى ذراع ، وعرضها ستمائة ذراعا[٣]

ثم ابتدأ الماء بجنبات الأرض فدار حولها كالإكليل ، فجعلت الوحوش تطلب وسط الأرض هرباً من الماء ، حتى اجتمعت عند السفينة ، فحمل فيها من كلّ زوجين اثنين .

وقيل له إذا فار التنور فاركب .

وفى المراد بالتنور أربعة أقوال : أحدها : أنه اسم لوجه الأرض . قال ابن عباس قيل له إذا رأيتَ الماء قد علَا على وجه الأرض فاركب .

والثانى تنوّر الصبح . قاله على عليه السلام .

---

(١) سورة هود ٤١ .　　(٢) ا : ابن لامك .

(٣) راجع الروايات التى ذكرها الطبرى فى حجم سفينة نوح فى تاريخه ١/٩١ . ط المصرية .

والثالث : طلوع الشمس . روى عن على أيضا .

والرابع : تنُّور أهله انبجس منه الماء . قاله مجاهد .

وفى المكان الذى فار منه التنور ثلاثة أقوال : أحدها مسجد الكوفة . روى عن على . وقال زِرّ بن حُبَيش : فار التنور من زاوية مسجد الكوفة الأيمن . والثانى : بالهند . قاله ابن عباس . والثالث بالشام من عين وردة[1] . وهى منزل نوح قاله . مُقاتِل .

وفى الذين حَملهم فى السفينة ثمانية أقوال :

أحدها : كانوا ثمانين[2] رجلًا معهم أهلوهم . والثانى : كانوا ثمانين[2] وبنيه الثلاثة وثلاثة نسوة لبنيه وامرأة نوح . والثالث : كلهم كانوا ثمانين . قال مقاتِل : كانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة . والرابع : ثلاثين رجلا . والأقوال الأربعة عن ابن عباس . والخامس : كانوا ثمانية : نوح ، وامرأته ، وثلاثة بنين له ونِسْوانهم . وهذا قول الحكَم بن عُتَيبة والقُرَظى وابن جُرَيج[3] . والسادس : كانوا سبعة : نوح وبنيه وثلاث كنائن له قاله الأعمش . والسابع : كانوا ثلاثة عشر : نوح وبنوه ونساؤهم وستة ممن آمن به . قاله ابن إسحاق . والثامن : كانوا عشرة سوى نسائهم . روى عن إسحاق أيضا .

فركبوا لعشرٍ مضَيْن من رجب ، وخرجوا يوم عاشوراء .

***

قوله تعالى : « بِسْم الله مَجْرِيها ومُرْساها » .

قال الزّجاج : أمَرهم أن يُسمُّوا فى وقت جَرْيها ووقت استقرارها .

---

(١) قال ياقوت : عين الوردة — وهو رأس عين المدينة المشهورة بالجزيرة ، كانت فيها وقعة للعرب ويوم من أيامهم . معجم البلدان ٤/١٨٠ ط بيروت . (٢) الأصل : ثمانون . محرفة .

(٣) الأصل : خديج . محرفة .

قوله تعالى : « فى مَوْجٍ كالجبَال » قيل : إن الماء ارتفع على أطول جبل فى الأرض أربعين ذراعا .

« ونادَى نوحٌ ابنَه » واسمه كنعان ويقال يام ، « وكان فى مَعْزِل » أى فى مكان مُنقطع ، وقيل فى مَعْزِلٍ من دِين أبيه ، وكان ينافقه بإظهار الإيمان ، فدعاه إلى الركوب ظنًّا أنه مؤمن فقال : « سآوِى إلى جَبَل يَعْصِمنى » أى يمنعنى من الماء . «قال لا عاصِمَ » أى لا معصوم كقوله : « من ماء دافِق» أى مَدْفوق « إلا من رَحِم» الله فإنه معصوم .

« وحالَ بينهما الموجُ » فيه قولان : أحدهما : بَيْن كَنْعان والجبل الذى زعَم أنه يعصمه . قاله ابن عباس .

والثانى : بَيْن نوح وابنه . قاله مُقاتِل .

قوله تعالى : « وقيلَ يا أرضُ ابْلَعِى ماءَكِ » قال ابن عباس : ابتلعتْ ما ظَهر منها وبقى ماء السماء بحاراً وأنهاراً .

« ويا سماء أَقْلِعى » أى أمسِكى عن إنزال الماء . « وغِيضَ الماء » نقَص « وقُضِى الأمرُ » بغرق القوم « واستَوتْ » يعنى السفينة « على الجودِىِّ» ، وهو جبل بالموْصِل .

وإنما قال نوح : « ربِّ إن ابنى من أهلى » لأن الله تعالى وعدَه نجاةَ أهله . فقيل له : « إنه ليس من أهلِك » أى من أهل دِينك . وإنما قال تعالى فى وعده : « وأهْلكَ إلا مَنْ سَبق عليه القولُ » .

قوله تعالى : « إنه عَملٌ غير صالح » يعنى السؤال فيه . وقرأ الكِسائىّ : « عَمِل » بكسر الميم ، يشير إلى أنه مُشْرِك .

أخبرنا المحمدان ابن ناصر وابن عبد الباقى ، قالا أنبأنا أحمد بن أحمد ، حدثنا أبو نُعَيْم أحمد بن عبد الله ، حدثنا أبو بكر بن مالك ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا وهيب بن الورد ، قال : لما عاتبَ اللهُ تعالى نوحاً فى

ابنه وأنزل عليه : « إنِّى أَعِظك أن تـكونَ من الجاهلين » بكى ثمانمائة عام حتى صار تحت عينيه مثلُ الجدول من البكاء[١] !

قال علماء السِّيَر : لمـا خرجوا من السفينة بنَوْا قريةً سمَّوها « ثمانين » بعدَدهم ، ثم ماتوا ولم يبقَ لهم نَسْل .

وإنما الناسُ كلهم من أولاد نوح ، وكانوا ثلاثة : سام وحام ويافث .

فمن أولاد سام : فارس وطسم وعمليق ، وهو أبو العماليق كلهم ، وإرم وأرنخشذ ومن أولاد أرنخشذ : الأنبياء والرسل والعرب كلها ، والفراعنة بمصر .

ومن أولاد إرم عابَر وعوص ، ومن ولد عابر : ثمود وجَدِيس وكانوا عرباً ، وولد عوصُ عاداً ، وكانت طسم وعمليق وجاسم يتـكلمون بالعربية ، وكانت العرب تقول لهم العرب العاربة ، لأنه كان لسانهم الذى جُبلوا عليه وتقول لبنى إسماعيل : العرب المتعرِّبة . لأنهم تـكلموا بلسان الأمم الذين سكنوا بين أظهرهم .

وولد لعابَر فالغ ومعناه بالعربية قاسم ، لأنه قسم الأرضَ بين بنى نوح . وولد لفالغ أرغو ، ولأرغو ساروغ ، ولساروغ ناحور ، ولناحور تارخ أبو إبراهيم الخليل عليه السلام .

وولد لعابَر أيضا قحطان ، وقحطان أول من ملك اليمن ، وأول من سلِّم عليه بأَبَيْتَ اللَّعن . ومن أولاد حام كوش وولد لـكوش نمرود الجبار . ومن أولاد نمرود هذا نمرود الذى ابتُلى به الخليل .

ومن أولاد حام السُّودان والبربر والقِبْـط ومن أولاد يافث الترك ويأجوج ومأجوج والصَّقالبة .

ولمـا كثر أولاد نوح اقتسموا الأرض ، فنزل بنو سام سُرَّة الأرض ، فجعل

---

(١) هذه مبالغة لا يمكن قبولها ، إذ لا تتفق مع قوانين الحياة وقد كانوا يتسامحون فى رواية هذه الأخبار ترقيقا للقلوب ولـكنها بعيدة عن منهج الحقيقة .

فيهم النُّبوّة والكتاب والجمَال – ونزل بنو حام مَجْرى الجنوب والدَّبُور . ونزل بنو يافث مجرى الشَّمال والصَّبا ، فاشتدَّ بَرْدهم .

***

ولما قُصَّت قصة نوح على نبينا صلى الله عليه وسلم قيل له : « فاصبرْ إن العاقبة للمتقين » والمعنى : اصبر كما صبر نوح فإن الظَّفر والتمكين لمن اتقى . والمراد : ليحصل لك كما حصل لنوح عليه السلام والمؤمنين .

الكلام على البسملة

عجباً لعيني كيف يَطْرقها الكَرى ولحيلتِي وقد انجلَى عنِّي المِرَا
أَلْهو وأعلَمُ أنه قد فُوِّقَتْ نَحْوى سهامُ الحَتْف أَمْ حَيْنِي كَرَى[1]
وإذا هَمَمْتُ بتوبةٍ وإنابةٍ عرضَتْ لىَ الدنيا فعُدْتُ القَهْقرَى
كم قد سمعتُ وقد رأيت مَواعظاً لو كنت أَعقِل حين أسمع أو أرَى
أين الذين طَغَوْا وجارُوا واعتدَوْا وعتَوْا وطالُوا واستخفُّوا بالورَى
أو ليس أعطتْهم مقاليدُ العُلَا حتى لقد خَضعتْ لهم أُسْد الشَّرَى
وتمسَّكوا بحِبالها لكنَّها فَصمتْ لهم منها وَثيقات العُرَى
ما أخلدَتْهم بعد سالفِ رِفعةٍ بل أنزلتهم من شَماريخ الذُّرَى
وإلى البِلَى قد نقلوا[2] وتشوَّهتْ تلك المحاسنُ تحت أَطباق الثَّرى
لو أخبروك بحالِهم ومآلهم أبكاك دَهْرُكَ ما عليهم قد جرَى
أَفْناهُم مَن ليس يَفْنى مُلْكه ذو البَطْشةِ الكبْرَى إذا أَخذ القُرَى
فاصرفْ عن الدنيا طِماعك إنما ميعادها أبداً حديثٌ يُفترَى
وصِلِ السُّرَى عنها فما ينجيك مِنْ آفاتها إلا مُواصلةُ السُّرَى

***

(١) الأصل : أم حيو كرى . محرفة ، ولعل ما أثبته صواب ، والحين الهلاك . وكرى : أسرع . قال فى اللسان : وكرى الرجل : عدا عدوا شديدا . قال ابن دريد وليس باللغة العالية . وتكون « أم » هنا إضرابية بمعنى بل . (٢) الأصل : فقتلتهم .

ياحاملاً من الدنيا أثقالا ثِقالا ، يامطمئناً لا بدَّ أن تنتقل انتقالا ، يامُرْسِلا عِنَان لَهْوه في ميدان زَهْوه إرسالًا ؛ كأنك بجفنيك حين عُرض الكتابُ عليك قد سالَا .

أين المعترِف بما جَناه ، أين المعتذِر إلى مولاه ، أين التائب من خَطاياه ، أين الآيب مِن سَفَر هواه ، نيران الاعتراف تأكل خطايا الاقتراف ، مَجانيق الزَّفَرات تَهْدم حصونَ السيئات ، مياه الحَسَرات تغسل أنجاسَ الخطيئات .

ياطالبَ النجاة دُمْ على قَرْع الباب ، وزاحِمْ أهلَ التقَى أولى الألباب ، ولا تَبْرح وإنْ لم يُفتح فرب نجاح بعد الياس ، ورُبَّ غنًى بعد الإفلاس .

صبراً فما يَظْفر إلا من صَبَرْ　　إنّ الليالِي واعداتٌ بالظَّفَرْ
وربّمَا يَنْهض جَدُّ مَنْ عَثَرْ　　ورُبَّ عَظْم هِيضَ حِيناً وانجبرْ

إذا تبتَ من ذنوبك فاندم على عيوبك ، وامحُ بدموعك قبيحَ مكتوبك ، والبس جلبابَ الفرَق ، وتضرَّع على باب القلَق ، وقل بلسان المحترِق :

قد فعلتُ القبيحَ وهو شَبِيهى　　خَطَأً فافعل الجميلَ بعفوكْ
وَفَدَتْ رَغْبتِي إليك وما زِلْتَ تحيِّي بالنُّجْح أوجهَ وَفْدِكْ

قف وقوف المنكسرين ، وتبتلْ تبتّلَ المعتذرين ، واستشعر الخضوع ، واستجلب الدموع ، واحتَلْ واحذر سهم الغضب أن يصيب المَقْتَل .

ياسيدى ماهَفْوتى بغريبةٍ　　منِّى[(١)] ولاغُفْرانهابطريف
فإنْ تَقْبل العبدَ الضعيفَ تطوُّلًا　　فإنّ رجائى فيك غيرُ ضعيف[(٢)]

كم أتيتُ ذَنْباً فسترتَ ، وكم جنيتُ جنايةً فنظَرْت ، فبالحلم والكرَم إلّا غفرت .

فقدْ طالما أنقذَتْنى يداكَ　　وقد قَلْقلتنى حِبالُ الردَى
فوالله لا شِمْتُ غيثاً سِواكَ　　فإمّا نَداك وإمّا الصَّدَى

---

(١) الأصل : إليك وهو تحريف . ولعل ما أثبته هو الصواب . (٢) يظهر اختلاف الوزن بين البيتين ، فالأول من بحر الكامل والثانى من بحر الطويل ، ولعل الصواب : إن تقبل — إنى رجائى الخ فيتحد الوزن .

إخوانى : إنما مرضُ القلوب من الذنوب ، وأصل العافية أن تتوب، دوام التخايط يوقع فى صِعَاب العِلَل ، أسمعتَ يامريض الشَّرَه ، كم رأيتَ صريعا للهوى ! اقْرع بابَ الطبيب يصف لمرضك نسخة ، قبل أن تَسْرى سكتةُ التفريط إلى موت الهلاك .

تلاوةُ القرآن تعمل فى أمراض الفؤاد مايعمله العسل فى عِلَل الأجساد ، مواعظُ القرآن لأمراض القلوب شافية ، وأدِلّة القرآن لطلّاب الهُدَى كافية ، أين السالكون طريق السلامة والعافية ، مالى أرى السُّبلَ من القوم عافية .

إنّ السعيد لَمُدْرِك دَرَكاً   وأخو الشقاوةِ فهو فى الدَّرَكِ
وإلى الحول مآل ذى لَعبٍ   وإلى السُّكونِ مصير ذى حَرَكِ
طار الحَمَامُ وغاص مُقْتدِراً   فأماتَ حتى الطيرِ والسمكِ
إنّ الزمان إذا غدَا وعَدا   قَتلَ الملوكَ بكلّ مُعْتَرَكِ
والعين تُبْصر أين حَبّتُها   لكنها تَعْمَى عن الشَّرَكِ
أنكرتُ هذا الموتَ مارتبكت   نفسِى هناكَ أشدَّ مُرْتَبَكِ
ماضَرّ ذاكِره وناظِره   أن لا ينام على سِوَى الحَسَكِ

سجع على قوله تعالى

﴿ يوم تجد كلُّ نفسٍ ماعملتْ من خَيْرٍ مُحْضرا ﴾ (١)

يامن بَيْن يديه يومٌ لا شك فيه ولا مِرَا ، يقع فيه الفراق وتنفصم العُرَى ، تدَبَّر أمرك قبلَ أن تَحْضر فترَى ، وانظر لنفسك نظرَ من قد فهم ماجرى ، قبل أن يغضب الحاكم والحاكم رَبُّ الورَى ، « يومَ تجد كلُّ نفسٍ ماعملتْ من خيرٍ مُحضَرا ».

يومٌ تشيب فيه الأطفال ، يومٌ تسير فيه الجبال ، يوم يظهر فيه الوبال ، يوم تنطق فيه الأعضاء بالخِصال ، يوم لا تُقَال فيه الأعثار ، وكم من أعذار تقال فترى من قد افترى ، يقدِّم قَدَماً ويؤخِّر أخرى « يومَ تجد كلُّ نفسٍ ماعملتْ من خير مُحضرا » .

---

(١) سورة آل عمران : ٣٠

فيُنْصَب الصِّراط فناج وواقع ، ويوضع الميزان فتكثر الفظائع ، وتُنشر الكتب وتَسيل المدامع ، وتَظهر القبائح بين تلك المجامع ، ويُؤلم العقابُ وتملى المسامع ، ويخسر العاصى ويربح الطائع ، فكم غنيٍّ قد عاد من الخير مفتقِرا « يوم تجد كلُّ نفسٍ ماعملت من خير محضرا » .

أخبرنا هبة الله بن محمد ، أنبأنا الحسن بن على ، حدثنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبيدالله ابن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا سليمان بن حيَّان ، حدثنا ابن عَوْن ، عن نافع ، عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يوم يقوم الناسُ لرب العالمين » يقوم أحدهم فى رَشحه إلى أنصاف أذنيه .

قال أحمد : وحدثنا وَكِيع ، قال حدثنا الأعمش ، عن خَيْثمة ، عن عدىِّ بن حاتم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مامنكم من أحد إلا سيكلِّمه ربه عز وجل ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر عن أيمن منه فلا يرى شيئاً قدَّامه[1] وينظر عن أشأم منه فلا يرى شيئا قُدَّامه ، وينظر أمامه فتستقبله النار ، فمن استطاع منكم أن يتقى النار ولو بشقِّ تمرة فليفعل » .

هذان الحديثان فى الصحيحين .

روى عتبة بن عبيد ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : لو أن رجلا يُجَرُّ على وجهه من يوم ولِد إلى يوم يموت هَرِمًا فى مرضاة الله لحقره يوم القيامة .

ياله من يوم يقتصّ للمظلوم من الظالم ، وتحيط بالظالم المظَالم ، وتصعد القلوب إلى الغَلاصم[2] ، وليس لمن لا يرحمه الإله عاصم .

قال عليه السلام لَتؤدُّن الحقوق إلى أهلها يومَ القيامة حتى يُقَاد للشاة الجَمَّاء من الشاة القَرْناء[3] .

---

(١) الأصل : إلا شياء قدمه . محرفة . والتصويب من صحيح البخارى « كتاب الرقاق باب من نوقش الحساب عذب » . (٢) الغلاصم : جمع غلصمة وهى اللحم بين الرأس والعنق .
(٣) الجماء : التى لا قرن لها .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يُحبَس المؤمنون على قنطرة بين الجنة والنار فيُقتصُّ لبعضهم من بعض ، مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم فى دخول الجنة » .

كم من وعيد يخرق الآذانا كأنما يُعْنَى به سِــــوَانا
أصمَّنا الإهمالُ بَلْ أعمانا .

يا كثير السيئاتِ غداً ترى عملَك ، ياهاتِك الحرمات ، إلى متى تديم زللك .

تيقَّظ فإنكَ فى غفـــلةٍ يَميدُ بك السُّكْرُ فيمن يَميدْ
وأىّ مَنيع يَفُوت البـــلَى إذا كان يَبْلَى الصَّفَا والحديدْ
إذا الموتُ دبَّتْ له حِيـــلةٌ فتلك التى كنتَ منها تَحِيدْ
أراكَ تُؤمِّل والشيبُ قــد أتاك بنَعْيك منـــه بَرِيدْ
وتَنْقُص فى كل تَنْفيسة وعندكَ أنك(١) فيهـا تَزِيدْ

أما تعلم أن الموت يسعى فى تبديد شَمْلك ، أما تخاف أن تُؤخذ على قبيح فِعْلك ، واعجبًا لك من راحلٍ تركت الزاد فى غير رَحلك ، أين فِطنتك ويقظتك وتديرُ عقلك ، أمَا بارزت بالقبيح فأين الحزَن ، أمَا علمت أن الحق يَعْلم السرَّ والعلَن ، ستعرفُ خبرَك يوم تَرْحل عن الوطن ، وستنتبه من رقادك ويزول هذا الوسن .

إلى الله تُبْ قبل انقضاءِمن العُمْر أخى ولا تأمن مُسَاورة الدهرِ
فقد حدَّثتك الحادثاتُ نزولها ونادَتْك إلا أنّ سَمْعك ذو وقْر
تنوح وتبكى للأحبة إن مضَوا ونفسَك لا تبكى وأنت على الإثر

***

(١) الأصل : أنها . محرفة .

الكلام على قوله تعالى
﴿ ويحذِّركم الله نفسَه ﴾

يا مبارِزاً بالذنوب خُذ حِذرك ، وتوقَّ عِقابَه بالتُّقى فقد أنْذرك ، وخلِّ الهوى فإنه كما ترى صيَّرك ، قبل أن يغضب الإلهُ ويضيِّق حَبْسه ، « ويحذِّركم الله نَفْسَه » .

اجتهد فى تَقْوية يقينك قبل خُسْر موازينك ، وقُمْ بتضرعك وخِيفتك قبل نَشْر دواوينك ، وابذُل قُواكَ فى ضعفك ولينك ، قبل أن يدنوَ العذابُ فتجدَ مَسَّه ، « ويحذركم الله نفسه » .

لمَّا سَمِع المتيقظون هذا التحذير فتحوا أبواب القلوب لنزولِ الخوف ، فأحزنَ الأبدان وقَلْقَل الأرواح فماشت اليقظةُ بموت الهوى ، وارتفعت الغفلة بحلول الهَيْبة ، وانهزم الكسَل بجيش الحذَر ، فتهذَّبت الجوارح من الزَّلل والعزائم من الخلَل ، فلا سكون للخائف ولا قرار للعارف ، كلما ذكر العارف تقصيره ندِم على مُصابه ، وإذا تصوَّر مصيرَه حَذِر مما فى كتابه ، وإذا خَطر العِتاب بفِنائه فالموت من عتابه ، فهو رَهِين القَلق بمجموع أسبابه .

كان داود عليه السلام إذا خرج يومَ نياحته على ذَنْبه أقلَع مجلسُه عن ألوف قد ماتوا من الخوف عند ذِكر ربه .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يمرّ بالآية فى وِرْده فيبكى حتى يسقط ويبقى فى البيت مريضاً يُعاد .

وقرأ الحسن ليلةً عند إفطاره « إنّ لدَيْنا أنْكالا وجَحيما وطَعاماً ذا غُصَّةٍ[(١)] » فبقى ثلاثة أيام لا يَطْعم .

***

حقيق بمن عَلِم ما بين يديه ، وتيقَّن أن العمل يُحْصَى عليه ، وأنه لابد من الرحيل

(١) سورة الزمل : ١٢ ، ١٣ .

عمّا لديه ، إلى موقف صعبٍ يساق إليه ، يتجافى عن مُضْطَجَع البطالة بجنبيه .

قال حاتم الأصمّ : من خلاَ قلبُه من ذِكر أخطار أربعة فهو مُغترّ ، فلا يأمن الشقاء .

الأول : خطَر يوم الميثاق ، حين قال الله تعالى : هؤلاء فى الجنة ولا أبَالِى وهؤلاء فى النار ولا أبالِى ؛ ولا يَعْلم فى أىّ الفريقين كان ؟

والثانى : حين خُلق فى ظلماتٍ ثلاثٍ ، فنودِى المَلَك بالشقاء والسعادة ، ولا يَدرى أمن الأشقياء هو أم من السعداء ؟

والثالث : ذكر هَوْل المطّلَع ، ولا يدرى أيُبَشَّر برضا الله تعالى أو بسَخطه ؟

والرابع : يوم يَصْدر الناسُ أشْتاتاً ولا يدرى أىَّ الطريقين يُسْلَك به ؟

فمحْقوق لصاحب هذه الأخطار أن لا يفارق الحزنُ قلبه !

بكى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ليلةً فأطال ، فسئل عن بكائه ، فقال : ذكرتُ مصيرَ القوم بين يدى الله عز وجل « فريقٌ فى الجنة وفريق فى السَّعير » ثم صرخ وغشى عليه .

***

كم ذا أغالط أمرِى كأننى لستُ أدرى
أغْفلت ذا(١) الذى كا ن فى مُقدَّم عُمرِى
ولم أزلْ أتمادَى حتى تصرَّم دَهْرِى
مَن لى إذا صِرْت رهناً بالذنبِ فى رَمْسِ قَبْرِى
بأىِّ عذر ألاقِى ربِّى ليَقْبل عذرِى
فليت شعرى متى أدْ رِكُ المَنَى ليت شِعرى

يا من قد وهَى شَبابه ، وامتلأ بالزَّلل كِتابه ، أمَا بلغك أن الجلود إذا استُشْهِدت نَطقتْ ، أمَا علمت أن النار للعصاة خُلقتْ ، إنها لتحرق كلَّ ما يُلْقَى فيها ، فيصعب على خَزنتها كثرةُ تلاقيها ، التوبة تَحجب عنها ، والدَّمعة تُطْفيها ، قال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الأصل : ذى . محرفة .

« لو أن قطرةً من الزقوم قُطِرت فى الأرض لأمرَّتْ على أهل الدنيا معيشتهم » فكيف بمن هو طعامه لا طعام له غيره !

أسفاً لأهل النار لقد هلكوا وشَقُوا ، لا يَقْدر الواصفُ أن يصف ما قد لقُوا ، كلما عطشوا جىء بالحميم فسُقوا ، وهذا جزاؤهم إذ خرجوا عن الطاعة وفسقوا ، قُطِّعوا والله بالعذاب ومُزِّقوا ، وأُفْرِد كل منهم عن فريقه وفُرِّقوا ، فلو رأيتهم قد كُلِّبوا فى السلاسل وأُوثِقوا واشتد زفيرهم وتضرع أسيرهم وقَلِقوا ، وتمنَّوا أنْ لم يكونوا وتأسَّفوا كيف خُلقوا ، وندموا إذ أعرضوا عن النُّصْح وقد صُدِقوا ، فلا احتذارهم يُسمع ، ولا بكاؤهم يَنفع ولا أُعتِقوا .

لو أبصرتْ عيناك أهلَ الشقاَ فى النارِ قد غُلُّوا وقد طُوِّقوا
تقول أُولاَهم لأُخْراهمُ فى لُجَج المُهْلِ وقد أُغْرِقوا
قد كنتمُ حُذِّرْتُمُ حرَّها لكنْ مِن النيران لم تَفْرَقوا
وجىء بالنيران مَزْمومة شَرارها مِن حَوْلها مُحْدِق
وقيل للنيران أنْ أحرِقى وقيل للخُزَّان أَنْ أَطْبِقوا
وأوليـاء الله فى جَنـةٍ قد تُوِّجوا فيها وقد مُنْطِقوا
تدبَّروا كم بينهم إخوتِى ثم أَجِيلوا فِكْرَكم وانْتَقُوا

المجلس الخامس

فى قصة عاد

الحمد لله المنزَّه عن الأشباه فى الأسماء والأوصاف ، المقدَّس عن الجوارح والآلات والأطراف ، خضعت لعزته الأكوانُ وأقرَّت عن اعتراف ، وانقادت له القلوب وهى فى انقيادها تخاف ، أنزل القَطْر فمنه الدّر تحويه الأصداف ، ومنه قُوت البذور يربِّى الضعاف .

كشَف للمتقين اليقينَ فشهدوا ، وأقامهم فى الليل فسهروا وشهدوا[1] ، وأراهم عيبَ الدنيا فرفضوا وزهدوا ، وقالوا نحن أضياف .

وقضى على المخالفين بالبِعاد فأفاتهم التوفيق والإسعاد ، فكلُّهم هامَ فى الضلال وما عاد « واذْكُرْ أخا عادٍ إذ أنذر قَوْمَه بالأَحْقَافِ[2] » .

أحمده على ستر الخطايا والاقتراف ، وأصلى على رسوله محمد الذى أُنزل عليه قاف ، وعلى صاحبه أبى بكر الذى أُمن ببيعته الخلاف ، وعلى عمر صاحب العدل والإنصاف ، وعلى عثمان الصابر على الشهادة صَبْر النِّظاف[3] ، وعلى علىّ بن أبى طالب محبوب أهل السنة الظِّراف ، وعلى عمه العباس مقدَّم أهل البيت والأشراف .

[جد سيدنا ومولانا أميرالمؤمنين بلَّغه الله ما يرجو وأمَّنه مما يخاف][4] .

***

قال الله : « واذْكُرْ أخَا عادٍ إذْ أنْذَرَ قَوْمَه بالأَحْقَافِ .

الأخ فى القرآن على أربعة أوجه : أحدها الأخ من الأب والأم أو من أحدهما . ومنه : « فَطَوَّعتْ له نفسه قَتْلَ أخِيه[5] » والثانى : الأخ من القبيلة ومنه . « واذكر أخَا عادٍ » .

---

(١) كذا بالأصل ، ولعلها : وتهجدوا . (٢) سورة الأحقاف ٢١ (٣) الأصل : النطاف بالطاء المهملة ، ولا معنى لها . والنظاف جمع نظيف ، ككرام جمع كريم .

(٤) ليست فى ا . (٥) سورة المائدة : ٣٠

والثالث : الإخاء فى المتابَعة . ومنه : « كانوا إخوانَ الشَّياطين[1] » .

والرابع : الصاحب ومنه قوله تعالى : « إنّ هذا أخِى[2] » .

والإنذار : الإعلامُ مع التخويف . والأحقاف : الرِّمال العِظَام . واحدها حِقْف .

وفى مكان هذه الأحقاف ثلاثة أقوال : أحدها : بالشام . قاله ابن عباس . والثانى : بَيْن عُمَان ومهرة . قاله عطية . والثالث : أرض يقال لها الشَّحْر نحو البحر . قاله قَتادة .

وقال ابن إسحاق : كانت منازلهم فيما بين عُمَان إلى حضرموت باليمن كله ، وكانوا قد فسَدوا فى الأرض وقهروا أهلها بفضل قوّتهم ، وكانوا أصحاب أوثان فاتبعه ناسٌ يسير ، وكتموا إيمانَهم . قال مُقاتِل : كان طول كل رجل منهم اثنى عشر ذراعاً . وقال مجاهد : وكان الرجل منهم لا يحتلم حتى يبلغ مائتى سنة !

« وقد خَلَتْ النُّذُرُ » أى مضت من قبل هودٍ ومن بَعْده . وقوله : « لِتأفِكنَا عن آلهتِنَا » أى لتصْرفنا عن آلهتنا بالإفك .

« قال إنما العِلْمُ عند الله » أى هو يعلم متى يأتيكم العذاب « فلمَّا رأَوْه » يعنى ما يوعَدون « عارِضاً » أى سحَابا يعرض فى ناحية السماء .

***

وقوم عاد هؤلاء أولاد عوص بن إرم ابن سام بن نوح ، وهى عاد الأولى بعث الله تعالى إليهم هودَ بن عبد الله بن رباح ابن الخلود بن عاد بن شالخ بن أرنخشذ بن سام . كانوا يعبدون الأوثان فدعاهم إلى التوحيد ، فكلما أنذرهم زاد طغيانُهم . فحبس الله تعالى عنهم القَطر ثلاث سنين ، حتى جَهِدوا فبعثوا إلى مكة وفداً يَستسقى لهم ، وكانوا سبعين رجلا ، منهم قَيْل ونعيم وجُلْهمة ولقمان بن عاد ومَرْثد بن سعد ، وكان مرثد مؤمناً يكتم إيمانه وكان الناس مؤمنهم وكافرهم إذا جهدوا سألوا الله تعالى عند الكعبة ، فنزلوا على بكر بن معاوية ، وكان خارجا من الحرم فأكرمهم ، وكانوا أصهاره وأخواله ، وكان سكانُ مكة العماليقَ ، أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ،

(١) سورة الإسراء : ٢٧ (٢) سورة ص : ٢٣

فجعل بَكر يسقيهم الخمرَ وتغنِّيهم الجرادتان شهراً ، فلما رأى بكرٌ طولَ مُقامهم عنده قال : هلك أخوالى وأصهارى ، هؤلاء ضيفى ، فما أدرى ما أصنع ، وأستحى أن آمرهم بالخروج . فشكا ذلك إلى قَيْنتيه الجرادتين ، فقالتا : قل شِعراً نغنِّيهم به لا يدرون من قاله . فقال :ـ

أَلَا يا قَيْلُ وَيْحك قُمْ فهَيْنِمْ ... لعلَّ الله يَمْنحنا غَماماَ
فتسقِي أرضَ عادٍ إنّ عادًا ... قد أمْسَوا لا يُبِينون الكلاَمَا
من العطشِ الشديد فليس نرجو ... به الشيخَ الكبير ولا الغلاماَ
وقد كانت نساؤهم بخيرٍ ... وقد أمْستْ نساؤهم عَيامَى(١)
وإنّ الوحشَ تأتيهم نهارا ... ولا تخشى لِعادىّ سِهاماَ
وأنتم ها هنا فيما اشتهيتمْ ... نهاركم وليلكم التَّماماَ
فقبِّح وَفْدُكم من وفدِ قومٍ ... ولا لُقُّوا التحيةَ والسلاماَ

فلما سمعوا هذا قالوا : ويحكم ادخلوا الحرَم فاستسقُوا لقومكم . فقال مَرْثِد : إنكم والله لا تُسْقَون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيَّكم سُقيتم . فقال جلهمة : احبسوا عنا هذا ولا يَقْدَمنَّ معنا مكةَ ، فإنه قد اتبع دينَ هود . ثم خرجوا يَسْتسقون ، فنشأت ثلاثُ سحائب : بيضاء وحمراء وسوداء . ثم نودِى منها : يا قَيْل اخترْ . فقال : أختار السوداء لأنها أكثر ماءً . وقيل للوفد : اختاروا . فقال مَرْثد : ياربِّ أعطنى صِدْقا وبِرًا . فأُعْطِى . وقال لقمان بن عاد : أعطنى عُمْراً . فاختار عُمْر سَبعة أَنْسُر ، فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من البيضة ويأخذ الذّكر لقوّته ، حتى إذا مات أخذ غيره إلى أن ماتت السبعة . فمات .

وأما السحابة فساقها الله تعالى إلى عاد ، حتى خرجتْ عليهم من وادٍ لهم يقال له مُغِيث ، فلما رأوها استبشروا بها وقالوا : « هذا عارِضٌ مُمطِرُنَا » . فكان أولَ من

(١) عيامى : جمع عيمى وهى العطشى .

رأى ما فيها امرأةٌ منها فصاحت وصَعِقت ، فقيل لها : ما رأيتِ ؟ فقالت : ريحًا فيها كشُهب النار ، أمامها رجالٌ يقودونها .

فسخَّرها الله عليهم « سَبْعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حُسُومًا » أى متتابعة ابتدأت غُدْوة الأربعاء آخر أربعاء فى الشهر وسكنت فى اليوم الثامن .

واعتزل هود ومن معه من المؤمنين فى حظيرةٍ ما يصيبهم منها إلا ما يُلين الجلودَ وتلتذ عليه النفوسُ .

فكانت الريح تقلع الشجر وتهدم البيوت وترفع الرجالَ والنساءَ بين السماء والأرض فتدقّ رقابَهم فيَبِين الرأسُ عن الجسد . فذلك معنى قوله : « كَأَنَّهم أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيةٍ[1] » ثم تَدْمغهم بالحجارة . قال عمر بن ميمون : كانت الريح تحمل الظَّعينة[2] فترفعها حتى تُرى كأنها جرادة[3] .

أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك ، أنبأنا عاصم بن الحسن ، أنبأنا على بن محمد بن بشران ، حدثنا الحسن بن صَفْوان ، حدثنا أبو بكر القُرشى ، حدثنا ابن عبد الوهاب ، حدثنا محمد بن يزيد ، عن جُوَيْبر ، حدثنى أبو داود ، أنه سمع ابنَ عباس يقول : أولُ ما عرفوا أنه عذابٌ : رأوا ما كان خارجًا من رجالهم ومواشيهم يَطير بين السماء والأرض مثلَ الريش ، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم ، فجاءت الريح ففتحت أبوابهم وهالَتْ عليهم بالرَّمل ، فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين ، ثم قُبضت أرواحهم وطرحتهم الريح وأُلقوا فى البحر ، « فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلّا مَساكِنُهم[4] » .

وقال مُقاتِل : بعث الله طيرًا أسود فالتقطهم حتى ألقاهم فى البحر .

* * *

---

(١) سورة الحاقة : ٧ (٢) الظعينة فى الأصل : المرأة فى الهودج ثم قيل للمرأة وهى فى بيتها ظعينة انظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنبارى ص ٢٤٥ ، ٤٢١ . (٣) هذا الخبر مروى عن ابن إسحق ، وقد أورده ابن كثير باختلاف يسير ، انظر قسم قصص الأنبياء من البداية والنهاية بتحقيقنا ١/١٣٤ ـ ١٣٧ . (٤) سورة الأحقاف : ٢٥

فانظروا رحمكم الله كيف أَهْلك الخَلْقَ العظيم بالريح التى هى ألطف الأشياء ، ليبيِّن أثرَ القدرة ، جل جلاله ، وكذلك يميت الخَلْق عند نفخةٍ ويحييهم عند نفخة ، فسبحان من بانَتْ سَطوتُه للمعانِدين فقهرت ، وظهرت آثار قدرته للمتقين فبهَرتْ ، كم عذَّب مريض بريح فى حشاه يختلف إلى أن تلف .

الكلام على البسملة

سلطانُه فى خَلْقه قاهرٌ   وأمْرُه فى مُلْكه باهرُ
سَطْوته باطشةٌ بالورَى   فى ذَرّةٍ مُعْجزُها ظاهرُ
إذا تجلَّى فى جلالِ العُلَا   ذَلّ له الأولُ والآخِرُ
كن حاذِراً من بَطْشه إنه   فى أَمْرِه وقَهْره قادِرُ
ولطفُه فى عطْفه راحمٌ   وسيفُه فى خَلْقه باترُ

أيها النائم وهو منتبه ، المتحيِّر فى أمرٍ لا يَشْتبه ، يا من قد صاح به الموتُ فى سَلْب صاحِبه ، يا إخوان الغفلة تيقَّظوا ، يا أقران البطَالة تحفَّظوا ، يا أهل المخالَفة اقْبلوا ، يا مُعْرِضين عنا أقبلوا ، يا مبارزين بالذنوب لا تفعلوا .

***

أين(١) من كان قَبلنا أيْن أينا   مِن أناسٍ كانوا حِجَالًا(٢) وزَيْنَا
إنّ دهراً أتَى عليهمْ فأفْنَى   عدداً منهم(٣) سيأتِى علينا
خدعَتْنا الآمالُ حتى جَمعنا   وطَلَبْنا لغَيْرنا وسعَيْنا
وابتغينا من المعاش فضولاً   لو قنَعْنا بدونِها لاكتفينا
ولَعمرِى لنمضينّ ولا نمـ   ـضى بشىء منها إذا ما مَضينا

(١) الأبيات لأبى العتاهية انظر ديوانه ص٢٥٦ . (٢) كذا بالأصل . وفى ديوان أبى العتاهية : كانوا جمالا . والحجال : موضع يزين بالثياب والستور للعروس . ولعل ما فى الديوان أصح .
(٣) الديوان : فأفنى * منهم الجمع ..

كم رأينا(١) من ميتٍ كان حيًّا ... ووشيكاً يُرَى بنا ما رأينا
ما لنا نَأمن(٢) المنايا كأنّا ... لا نراهنّ يهتدين إلينا
عجباً لامرئٍ تيقن أن المـ ... ـوت حقٌّ فقرّ بالعيش عَيْنا

أسفاً لمن ضيّع الأوقات وقد عرفها، وسلك بنفسه طريقَ الهوى فأتلفها، أنِس بالدنيا فكأنه خُلق لها، وأمله لا ينتهى وأجله قد انتهى، سلّمت إليه بضائع العمر فلعب بها، لقد ركَن إلى ركنٍ ما لبث أنْ وَهَى، عجباً لِعَيْنٍ أمْست بالليل هاجعة، ونسيت أهوالَ يومِ الواقعة، ولأذنٍ تَقْرعها المواعظُ فتضحِى لها سامعة، ثم تعود الزواجر عندها ضائعة، ولنفوس أضحت فى كرم الكريم طامعة، وليست له فى حالٍ من الأحوال طائعة، ولأقدامٍ سعَتْ بالهوى فى طرق شاسعة، بعد أن وَضحت لها سُبُلٌ فسيحة واسعة، ولهممٍ أسرعت فى شوارع اللهو شارعة، لم تكن مواعظ العقول لها نافعة، ولقلوب تُضْمر التوبةَ عند الزواجر الرائعة، ثم يَخْتلُّ العزمُ بفعل مالا يَحِلّ مرارًا متتابعة، ثالثة بعد ثانية وخامسة بعد رابعة.

كم يومٍ غابتْ شمسُه وقلبك غائب، وكم ظلامٍ أُسبل سِتْره وأنت فى عجائب، وكم أسبغت عليك نعمه وأنت للمعاصى تُواثِب، وكم صحيفة قد ملأها بالذنوب الكاتب، وكم يُنْذِرك سَلْبُ رفيقك وأنت لاعب، يا من يأمن الإقامةَ قد زُمّت الركائب، أفِقْ من سَكْرتك قبل حسرتك على المعايب، وتذكّر نزولَ حُفْرتك وهجران الأقارب، وانهض عن بساط الرقاد وقل: أنا تائب، وبادر تحصيلَ الفضائل قبل فوت المطالب، فالسائق حثيث والحادى مُجِدٌّ والموت طالب.

***

لأَبكينَّ(٣) على نفسى وحَقَّ لِيَهْ ... يا عينُ لا تبخلى عنّى بِعَبْرتيهْ
لأبكينّ فقد بانَ الشبابُ وقد ... جَدَّ الرحيلُ عن الدنيا برحلتيه(٤)

(١) الأصل: كم رأيت. والتصويب من الديوان ص٢٥٦. (٢) الديوان: نأمل.
(٣) الأبيات لأبى العتاهية، انظر ديوانه ص ٣٠٣. (٤) الديوان:
لأبكين لفقدان الشباب وقد ... نادى المشيبُ عن الدنيا برحلتيه

يا نَأْيَ مُنتَجَعِى يا هَوْل مُطَّلَعِى ... يا ضِيقَ مُضطَجعِى يا بُعد شُقَّتِيَهْ

المــــالُ ما كان قُدَّامِى لآخرتى ... مالَا أُقدِّمْ(١) من مالِى فليس لِيَهْ

أسفًا لغافل لا ينيق بالتعريض حتى يرى التصريح ، ولا تبين له جَلِيَّة الحــال إلا فى الضَّريح ، كأنه وقد ذُكِّره الموت فأفاق ، فانتبه لنفسه وهو فى السِّيَاق ، واشتد به الـكرب والتفَّت الساقُ بالساق ، وتحيَّر فى أمره وضاق الخِناَق ، وصار أكبرُ شهواته توبةً من شِقاق ، هيهات مضَى بأوزاره الثقيلة ، وخلا بأعماله واستودع مَقِيله ، وغيِّب فى الثرى وقيل لا حيلة ، وبات الندم يَلزَمه وبئس اللاحِى(٢) له .

***

فتفــكَّروا إخوانى فى ذلك الغريب ، وتصوروا أسفَ النادم وقَلق المريب ، فلمثل حاله فليحذر اللبيب ، وهذا أمر تُبعِّده الآمالُ وهو والله قريب .

أبصرتَه مُلْقًى يجودُ بنفسه ... قد كَلَّل الرشْحُ الغَزِير جبينَهُ

لا يستطيع إجابتى مِن ضَعْفه ... طورًا يكفُّ شمالَه ويمينَهُ

وطبيبُه قد حار فيه وقد رأى ... أنفاسَه تعلو معًا وأنينَه

قد عافَ مشروباتِه وطعامَه ... وقَلَىَ لذاك صديقَه وَخدِينَه

إخوانى : سَلُوا القبورَ عن سُــكَّانهــا ، واستخبروا اللحودَ عن قُطَّانهــا ، تخبرْكم بخشونة المضَاجع ، وتُعلمــكم أن الحسرة قد ملأت المواضِــع ، فإن المسافر يودّ لو أنه راجع ، فليتعِظ الغافل وليراجع .

***

يا واقفاً يَسْأل القبورَ أفِقْ ... فأهلُها اليومَ عنك قد شُغِلوا

قد هالَهم مُنْكَرٌ وصاحِبه ... وخَوْفُ ما قدَّموا وما عَمِلوا

رَهائنٌ للثَّرَى على مَدَرٍ(٣) ... يُسْمع للدود بينهم زَجَلُ(٤)

---

(١) الديوان : مالم أقدمه ... (٢) اللاحى : العائب . (٣) المدر : الطين اليابس ، والحجارة .

(٤) الزجل : الجلبة ورفع الصوت والتطريب .

سرَى البِلَى فى جُسومهمْ فجرَتْ دماً وقيحاً وسالت المُقَلُ
سَكْرى ولم يشربوا الفِقَار ومن كؤوس المنون ما نَهِلُوا
ينتظرون النشور إذ يقف الـ أملاكُ والأنبياء والرسُلُ
يوماً ترى الصُّحُفُ فيه طائرةً وكلُّ قلْب من أجله وَجِلُ
قد دَنت الشمسُ من رءوسهمُ والنار قد أبرزتْ لها شُعَلُ
وأُزْلِفَتْ جنةُ النعيم فيا طُوبَى لقوم بربِّهما نزَلُوا
أكوابُهم عَسْجَدٌ يُطاف بها والخمر والسَّلْسبيل والعسَلُ
والحورُ تَلْقاهم وقد هُتكت عن وجهها الأستارُ والكِلَلُ[١]

الكلام على قوله تعالى

﴿ ولا تَحسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عما يَعمَلُ الظالمون[٢] ﴾

قال ابن عباس رضى الله عنهما : هذا وعيدٌ للظالم وتعزية للمظلوم .

أخبرنا هِبَة الله بن محمد ، أنبأنا الحسن بن على ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الرحمن بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا موسى بن داود ، حدثنا عبد العزيز بن سلَمة ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الظلمُ ظُلماتٌ يومَ القيامة » .

أخبرنا يحيي ابن على المُدير ، أنبأنا عبد الصمد بن المأمون ، حدثنا الدار قُطْنى ، أخبرنا يحيي بن صاعد ، حدثنا محمد بن هشام المروزىّ ، حدثنا أبو معاوية ، عن يزيد ، عن أبى بُرْدَة عن أبى موسى ، قال : قال النبىصلى الله عليه وسلم : « إنّ الله يُملِي للظالم فإذا أخذه لم يُفلته » . ثم قرأ : « وكذلك أَخْذُ ربك إذا أخذَ القُرَى وهى ظالمةٌ إنَّ أَخْذَه أليمٌ شَدِيد[٣] » .

الحديثان فى الصحيحين .

---

(١) الكلل : جمع كلة وهى الستر الرقيق . (٢) سورة إبراهيم : ٤٢ (٣) سورة : ١٠٢

أخبرنا عبدالخالق بن عبدالصمد ، أخبرنا ابن النَّقُور، أنبأنا المخلِّص، أنبأنا البغوىّ، حدثنا أبو رَوْح البلدى ، حدثنا ابن شهاب الخيّاط ، عن ابن عَون ، عن إبراهيم ، عن ابن شُرَيح ، قال : سيَعْلم الظالمون حَظَّ من نقصَوا ! إنّ الظالم ينتظر العقابَ والمظلوم ينتظر النَّصْر !

أخبرنا محمد بن ناصر ، أنبأنا على بن أيوب ، أنبأنا أبو على بن شاذَان ، أخبرنا الطومارِىّ ، حدثنا ابن البَرَاء ، حدثنا عبد المنعم ، عن أبيه ، عن وَهْب ، قال : بنَى جبارٌ قصرا وشيَّده فجاءت عجوز مُسْلمة فبنت إلىظهر قصره كوخاً تعبد الله فيه ، فركب الجبّارُ يوماً فطاف بفناء القصر ، فرأى الكوخ فقال : ما هذا ؟ فقيل له : امرأة ها هنا ثاوِية ، فأمر به فهدِم ولم تكن المرأة حاضرة ، فجاءت فرأته قد هُدِم ، فقالت : من فعل هذا ؟ فقيل لها : إن الملك ركب فرآه فأمر بهدمه فرفعت طَرْفها إلى السماء وقالت : يا رب أنا لم أكن ، فأنت أين كنت ! قال : فأمر الله عز وجل جبريل أن يَقْلب القصر على من فيه[1] !

لا تَظْلمنَّ إذا ما كنت مقتدِراً ... فالظلمُ آخره يأتيك بالندمِ
تنــام عيناك والمظلومُ منتصِب ... يدعو عليك وعينُ الله لم تَنَم

السجع على قوله تعالى :

﴿ إنما يؤخِّرهم ليوم تَشْخَصُ فيه الأبصار ﴾

المعنى : تَشْخص أبصار الخلائق لظهور الأهوال فلا تغمض .

الويلُ لأهل الظلم من ثِقل الأوزار ، ذِكْرهم بالقبائح قد ملأ الأقطار ، يكفيهم أنهم قد وُسِموا بالأشرار ، ذهبت لَذّاتهم بما ظَلموا وبقى العار ، وداروا إلى دار العقاب وملكَ الغيرُ الدار ، وخلَوا بالعذاب فى بطون تلك الأحجار ، فلا مُغيث ولا أنيس ولا رفيق ولا جار ، ولا راحة لهم ولا سكون ولا مَزار ، سالت دموعُ أسَفهم على

(١) هذه الرواية عن وهب بن منبه ، وهى تسير على نمط ما يرويه من المبالغة والتعجيب ، ولم يكن إثبات نصر الله للمظلوم بحاجة إلى هذا التهويل .

مَسْلَفهم كالأنهار ، شيَّدوا بنيانَ الأمل فإذا به قد انهار ، أمَا علموا أن الله جارُ المظلوم ممن جار ، فإذا قاموا فى القيامة زاد البلاء على المقدار « سَرا بِيلُهم من قَطِران وتَغْشى وُجوهَهم النار » ، لا يغرّنك صفاء عيشهم كلُّ الأخير أكدار « إنما يؤخِّرهم ليوم تَشْخَصُ فيه الأبصار » .

***

قوله تعالى : ﴿ مُهْطِعين ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الإهطاع النظر من غير أن يَطْرف الناظر . قاله ابن عباس .

والثانى أنه الإسراع. قاله الحسن وابن جُبَير.

قال ابن قُتَيبة : أهطَع البعيرُ فى سَيْره إذا أسرع .

وفيما أسرعوا إليه قولان : أحدهما الداعى . قاله قَتادة . والثانى النار قاله مقاتِل .

والثالث : أن المهطِع الذى لا يرفع رأسه . قاله ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ مُقْنِعى رءوسهمْ ﴾ فيه قولان : أحدهما : رافعى رءوسهم : قاله ابن عباس وابن جُبَير وقال ابن قتَيبة : المُقْنِع : الذى رفَع رأسه وأقبلَ بطرْفه إلى ما بَيْن يديه .

وقال الزَّجَّاج : رافعى رءوسهم ملتصقةً بأعناقهم .

والثانى : ناكِسِى رءوسهم . قاله المؤرِّج[1] .

قوله تعالى : ﴿ لا يرتدُّ إليهم طَرْفهم ﴾ والمعنى : أن نظَرهم إلى شىء واحد . قال الحسن : وجوهُ الناس يومَ القيامة إلى السماء لا ينظر أحدٌ إلى أحد .

قوله تعالى : ﴿ وأفئدتهم هَواء ﴾ فى معنى الكلام قولان : أحدهما : أن القلوب خرجت من مواضعها ، فصارت فى الحناجر . رواه عطاء عن ابن عباس . وقال قَتادة :

---

(١) الأصل : المؤرخ . محرفة . ولعله المؤرج السدوسى ، أبو فيد عالم بالعربية والأنساب ، من أصحاب الخليل بن أحمد توفى سنه ١٩٥ هـ . وفيات الأعيان ٢/١٣٠ .

خرجتْ من صــدورهم فنَشبت فى حُلوقهم « وأفئِـدتهم هَواء » . أى ليس فيهـا شىء .

والثانى : أنّ أفئدتهم متجوِّفة لا تُغنى شيئا من الخوف . قاله الزَّجّاج .

وقال أبو عبيدة : أفئدتهم جُوفٌ لا عقول لهـا . وقال ابن قتيبة : متجوِّفة من الخوف .

قوله تعالى : ﴿ وأَنذِرْ الناسَ ﴾ أى خوِّفهم « يومَ يَأْتيهم العذابُ » يعنى يومَ القيامة « فيقول الذين ظَلَمُوا ربَّنا أخِّرنا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ » أى أَمْهلنا مدةً يسيرة .

قال مقاتل : سألوا الرجوعَ إلى الدنيا « نُجِبْ دَعْوَتَك » يعنون التوحيد .

فقـال لهم : « أوَلَمْ تَـكُونوا أَقْسَمتُمْ مِنْ قَبْلُ » . أى حَلفتم بالدنيا أنـكم لا تُبْعثون .

﴿ وسَـكَنْتُمْ فى مَسَاكِنِ الَّذِين ظَلَمُوا أَنفُسَهم ﴾ أى نزلتم فى أماكنهم وقُرَاهم، كالحِجْر ومَدْين وغيرها من القرى التى عُرفت. ومعنى ظلموا أنفسهم : ضرُّوها بالـكفر والمعصية « وتَبَيَّن لـكم كيفَ فَعَلْنَا بهم » أى حَرَبْناهم[١]] . وكان ينبغى لـكم أن تَنْزجروا عن الخِلاَف « وضرَبْنا لـكم الأَمْثالَ » أى بيَّنا لـكم الأشباه .

﴿ وقد مَـكَرُوا مَـكْرَهم ﴾ فى المشار إليه أربعة أقوال : أحدها: أنه نَمْرود . قال[٢] علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : قال نمرود : لا أنتهى حتى أنظر إلى السماء . فأمر بأربعة من النسور فربِّيت واستُعجلت ، ثم أمر بتابوت فنُحت ، ثم جُعل فى وسطه خشبة ،وجعل [على][٣] رأسالخشبة لحماً شديدَ الحمرة ، ثم جوَّعها وربَطأرجلها بأوتار إلىقوائم التابوت ، ودخل هو وصاحبٌله فى التابوت ، وأغلقبابه ثم أرسلها ، فجعلت تريد اللحم ، فصعدت فى السماء ماشاء الله تعالى ، ثم قال لصاحبه : افتح فانظر ماذا ترى[٤] . ففتح فقال : أرى الأرض كأنها الدخَان . فقال : أغلقْ . فصعد ماشاء الله

(١) إلى هنا نهاية السقط فى ا . (٢) ب : قاله . (٣) سقطت من ب . (٤) ا : ما ترى .

تعالى ، ثم قال : افتح فقال : ما أرى إلا السماء وما تزداد منها إلا بعداً . فقال : صَوِّب خَشَبتك . فصوَّبها فانقضَّت النسور تريد اللحم ، فسمعت الجبالُ هَدَّتها فكادت تزول عن مواضعها .

والثانى : أنه بختنصَّر ، وأن هذه القصة له جرَتْ ، وأن النسور لما ارتفعت نودِى : ياأيها الطاغى أين تريد ؟ ففَرِق فنزل . فلما رأت الجبال ذلك ظنت أنه قيام الساعة ، فكادت تزول . وهذا قول مجاهد .

والثالث : أن الإشارة إلى الأمم المتقدمة ومَكْرُهم شِرْكهم . قاله ابن عباس .

والرابع : [أنهم][1] الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم حين همُّوا بقتله وأخرجوه[2] . ذكره بعض المفسرين .

قوله تعالى : « وعندَ الله مَكْرُهم » أى جزاؤه « وإن كان مَكْرُهم لِتزولَ منه الجبالُ » من كسَر اللام الأولى فإن المعنى[3] : وما كان مَكْرهم لتزول منه الجبال . أى هو أضعف وأهْوَن[4] ومن فتح [تلك][5] اللام أراد : قد كادتَ الجبالُ تزول مِن مكرهم .

وفى المراد بالجبال قولان : أحدهما : الجبال المعروفة . قاله الجمهور .

والثانى : أنها ضربت مثلاً لأمر النبى صلى الله عليه وسلم . وثبوت دينه كثبوت الجبال الراسية . والمعنى : لو بلَغ كيدهم إلى إزالة الجبال لَمَا زال أمر الإسلام . قاله الزَّجاج .

ويدل على هذا قول الله عز وجل : « فلا تَحْسبنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِه رُسُلَه » والمعنى أنه قد وعَدك بالنصر عليهم « إنّ الله عزيزٌ ذُو انتقامٍ » من الكافرين .

« يومَ تُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرض » وفى معنى تبديلها قولان : أحدهما : [أنه][6] تبدَّل بأرضٍ بيضاء كأنها فضة .

---

(١) من ا . (٢) ب : وإخراجه . (٣) ا : من مكر الأمم الأولى قال المعنى . وهو تحريف .
(٤) ا : وأوهن . (٥) من ا . (٦) ليست فى ا .

أخبرنا أبو القاسم الحريري، أنبأنا أبو طالب العُشَاري، أخبرنا أبو بكر محمد بن شاذان، أخبرنا محمد بن يعقوب الأصم، حدثنا العباس الدُّوري حدثنا أبو العتاب الدلّال. حدثنا جرير ابن أيوب البجلي، حدثنا أبو إسحاق، عن عمرو بن ميمون، قال: سمعت ابن مسعود يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل: « يومَ تُبدَّل الأرضُ » قال: « أرضٌ بيضاء كأنها فضة لم يُسْفَك فيها دمٌ حرام، ولم يُعمل عليها[1] خطيئة » وهذا قول ابن عباس.

والثاني: أنها تبدَّل بأرضٍ من فضة. قاله أنس بن مالك.

والثالث: أنها تبدل بخبزة بيضاء فيأكل المؤمن من تحت قدمه[2] ـ قاله أبو هريرة وابن جُبَير والقُرْطبي[3].

والرابع: أنها تبدل ناراً. قاله أُبيّ بن كعب.

والقول الثاني أن تبديلها: تغيير أحوالها. وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « يَبْسطها ويمدُّها مدَّ الأدِيم » وقال ابن عباس: يزاد فيها ويُنقص منها، وتذهب آكامُها وجبالها وأَوْديتها وشجرها وتمدّ.

وفي تبديل السماوات سبعة أقوال: أحدها أنها تجعل من ذهب قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه. والثاني: تصير جِنَانا. قاله أُبَيّ بن كعب. والثالث: أن تبديلها تكوير شمسِها وتناثر نجومها. قاله ابن عباس. والرابع: أنها تبدَّل بسماوات كأنها الفضة. قاله مجاهد. والخامس: [أن تبديلَها تغيير أحوالها، فمرةً تكون كالمُهْل، ومرةً كالدِّهان. قاله ابن الأنباري. والسادس[4]:] أن تبديلها أن تُطْوى كطيّ السِّجل للكِتاب. والسابع: أن تنشقّ فلا تُظِل. ذكرها الماوردِيّ.

قالت عائشة: قلت: يا رسول الله، يوم تبدَّل الأرض غير الأرض، فأين الناسُ يومئذ؟ قال: « على الجِسْر، فمنهم[5] من يمشي مُكِبًّا على وجهه ومنهم من يمشي سَوِيًّا ».

(١) ا: فيها. (٢) ا: قدميه. (٣) ب: والقرطبي. محرفة. (٤) سقط من ب.
(٥) ا: منهم.

قوله تعالى : « وترى المجرمين » يعنى الكفار « يومئذٍ مُقرَّنين » فيه[1] ثلاثة أقوال : أحدها يُقْرَنُون مع الشياطين . قاله ابن عباس . والثانى : تُقرَن أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم . قاله ابن زيد . والثالث : يُقْرَن بعضهم إلى بعض . قاله ابن قُتَيبة .

والأصفاد : الأغلال .

قوله تعالى : « سَرابيلُهم مِنْ قَطِران » وهى القُمُص ، واحدها سِرْبال ، والقَطِران : معروف ، وهو شىء يتحلَّب من شجر[2] تُهْنَا به الإبل .

قال الزَّجاج : إنما جُعل القَطِران لأنه يبالغ فى اشتعال النار فى الجلود ، فحذَّرهم ما يَعْرفون .

وقرأ ابن عباس والحسن « من قِطْرٍ » بكسر القاف وسكون الطاء والتنوين « وآنٍ » بقَطْع الهمزة وفَتْحها ومدِّها . والقِطْر : الصُّفْر والنحاس وآنٍ [قد][3] انتهى حَرُّه .

« وتغشَى وجوهَهُم النارُ » أى تَعْلوها .

« ليَجْزى اللهُ » اللام متعلقة بقوله تعالى : « وبرَزُوا » وفى سرعة حسابه قولان : أحدها : عجلة حضوره ومجيئه . والثانى : سرعة فراغه . قال ابن عباس : يَفْرغ الله عز وجل من حساب الخلق فى قَدْر نصفِ يوم من أيام الدنيا .

***

أين من لَعِب ولها ، أين من غفل وسَها ، دهاه أفظع مادَهَى ، وحُطَّ رُكْنه فوَهَى ، ذهبتْ لذةُ ذنوبه وحُبس بها ، نظر فى عاجله ونسِى المنتهَى .

نادِى[4] القُصورَ التى أقوتْ مَعالِمُها ... أين الجسُوم التى طابَتْ مَطَاعِمُها
أين الملوكُ وأبنــاء الملوك ومَن ... ألهاه ناضِرُ دنيـــاه وناعِمُها

---

(١) ب : وفيه . (٢) ب : من شجرة . (٣) ليست فى ا . (٤) ب : ياذا القصور.

أين الأسودُ التى كانت تحاذرهـا أُسْد العرين ومن[1] خوفٍ تُسالِمها
أين الجيوشُ التى كانت لو اعترضَتْ لها العُقَاب لخانَتْها قوادِمُهاَ[2]
أين الحِجَاب ومن كان الحجاب له[3] وأين رُتْبته الكبرَى وخادِمُها
أين الذين لَهَوْا عمَّا له خُلِقــوا كما لَهَتْ فى مراعيها سوائِمُهـا
أين البيوتُ التى من عَسْجدٍ نُسِجَتْ[4] هل الدنانير أغنَتْ أم[5] دراهمها
أين الأسِرَّة[6] تَعْلوها ضَراغِمها هل الأسِرَّة أغنَتْ أم ضراغمها[7]
هذِى المعاقِلُ كانت قبــلُ عاصمةً ولا يرَى عِصَم المغرور عاصِمُها
أين العيونُ التى نامتْ فما انتبهت واهاً لهــا نومةً ما هَبَّ نائِمُها

***

سجع على قوله تعالى
« هذا بَلاَغٌ للناسِ ولِيُنْذَرُوا به[8] »
يعنى القرآن

يا مشغولاً بذنوبه ، مغموراً بعيوبه ، غافلا عن مَطْلوبه ، أما نهاه القرآن عن حُوبِهِ هذا بلاغٌ للناس ولِيُنْذَرُوا به .

أنسِيَ العاصى قبيحَ مكتوبه ، لا بُدّ عن سؤاله[9] عن مطعومه ومشروبه ، وحركاته وخطواته[10] فى مرغوبه ، ألا يَذْكر فى زمان راحته أحيانَ كُروبه ، ألا يَحْذر من الأسد قبل وقت وثوبه ، ألا يتخذ تُقَاه تَقِيَّةً من شر هُبوبه ، ألا يدَّخر من خِصْبه لأيام[11] جُدُوبه ، ألا يتفكر[12] فى فراقه لمحبوبه ، ألا يتذكر النعش قبل

(١) ا : وعن خوف . (٢) ب : مقادمها . (٣) ب : لهم . (٤) ب : سحبت .
(٥) ب : أو . (٦) ا : أين الأشمة . (٧) ا : أم عزائمها . (٨) سورة إبراهيم .
(٩) ا : عن مساءلة . (١٠) ا : وخطراته . (١١) ا : لإتيان جدوبه .
(١٢) ا : ألا يتذكر .

ركوبه ، كيف يغفل من هو فى صَفّ حروبه ، رُبَّ إشراق لم يُدْرِكْ زمنُ غُروبه ، إلى متى فى حِرْصه على الفانى ودؤوبه ، متى يردُّ يوسفُ قلبَه على يعقوبه ، لقد وعظه الزمان بفنون ضروبه ، وحذّره استلابَه بأنواع خطوبه ، ولقد زجَره القرآن بتخويفه مع لَذَّة أسلوبه ، هذا بلاغٌ للناس وليُنْذَروا به .

أيقظنا الله وإياكم من رَقْدة الغفلة ، ووفقنا الله وإياكم للتزوّد قبل النقلة ، وألهمنا اغتنامَ الزمان ووقت[1] المهلة . إنه سميع قريب .

---

(١) ا : فى وقت المهلة .

المجلس السادس
في قصـــة ثمود

الحمد لله الذى مهّدَ لطالبيه سبيلاً واضحا ، وكم ابتَعثَ نبيًّا مرشدا[١] ناصحا ، فأرسل آدم غادياً على بَنيه بالتعليم ورائحا ، فخلَفَه[٢] شيث ثم إدريس ، وجاء نوحٌ نائحا ، وأمَر هوداً بهداية عادٍ فلم يزَلْ مُكادِحاً « وإلى ثمودَ أخاهم صالحًا » .

أحمده ما بدَا برْقٌ لائحًا ، وأصلّى على رسوله محمد ما دام الفَلكُ سابحا ، وعلىَ صاحبه أبى بكر الصِّديق ، وقُلْ فى الصِّديق مادِحاً ، وعلى عمر الفاروق الذى لم يزَلْ بنور الحق لامِحاً ، وعلى عثمان واعجبْ بمثل دمه طائحا ، وعلى علىّ وأعْلِن[٣] بفضائله صائحا ، وعلى عمه العباس وما زال عَرْف طِيبِه نافحاً[٤] .

***

قال الله تعالى : « وإلى ثمودَ أخاهم صالحا »[٥] .

ثمود : هو ابن عابر بن إرم بن سام بن نوح . أرسِل إلى أولاده وهو : صالحُ بن عبيد بن أنيف [بن ماشح بن عبيد بن جادر ابن ثمود[٦]] .

والثَّمَد : المـاء القليل الذى لا مادّة له ، وإنما قال « أخاهم » لأنه من قبيلتهم .

« قال يا قوم اعبدُوا الله » أى « وحِّدوه » فلم يزدهم دعاؤه إلا طغيانا ، فقالوا : ائتنا بآية فاقترحوا عليه ناقةً ، فأخرجهم إلى صخرة مَلْساء فتمخّضت تمخّض الحامِل ، ثم انفلقت عن ناقة على الصِّفة التى طلبوها ، ثم انفصل عنها فَصِيل فقال « ذَرُوها تأكلْ فى أرض الله » أى ليس عليكم مُؤنتها ولا عَلفها . وتأكلْ مجزومة على جواب الشرط المقدَّر ، والمعنى إن تذروها تأكل .

« ولا تمسُّوها بسوء » .

---

(١) ا : مرسلا وناصحا . (٢) ا : فخلف . (٣) ب : فأعلن . (٤) ب : وما زال طيب عرفه فائحا . (٥) سورة الأعراف : ٧٣ (٦) من ا ، وفى ب موضعها من أولاد ثمود أيضا .

والسوء فى القرآن على عشرة أوجه : أحدها الشدة « يَسومُونكم سُوءَ العذَاب[١] » والثانى : الزنا : « ما عَلِمْنا علَيْهِ مِنْ سُوءٍ[٢] » . والثالث : البرص « تخرجْ بيضاء من غير سُوءٍ[٣] » والرابع : العذاب « لا يمسّهم السُّوء[٤] » والخامس الشّرك : « ما كنّا نَعْمَلُ من سُوءٍ[٥] » والسادس السَّب « وألسِنَتهُمْ بالسُّوء[٦] » والسابع الضر « ويَكْشِفُ السُّوء[٧] » والثامن الذنب « يَعْملون السُّوء بجَهالة[٨] » والتاسع القتل والهزيمة « لم يَمْسَسْهم سُوءٌ[٩] » والعاشر العَقْر « ولا تمسُّوها بسُوءٍ[١٠] » .

فكانت تشرب ماء الوادى كلَّه [فى يوم[١١]] . وتسقيهم الدَّرَّ[١٢] مكانه .

قوله تعالى « وبوَّأكُمْ فى الأرضِ » أى أنْزلكم « تَتَّخِذُون مِنْ سُهُولِها قُصُوراً » السَّهل : ضد الحَزْن . والقصر : ما شِيدَ وعلاَ من المنازل .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : اتخذوا القصور فى[١٣] سهول الأرض للصيف ونقَّبوا فى الجبال للشتاء .

قال وهب بن منبِّه : كان الرجل منهم يبنى البنيان فيمرّ عليه مائة سنة ، فيَخْرب ، ثم يجدده فيمر عليه بمائة سنة فيخرب ، فأضْجرهم ذلك ، فاتخذوا من الجبال بيوتاً .

قال علماء السِّيَر : لم يلتفتوا إلى قول صالح واحتالوا على قتله ، فذلك قوله تعالى « لَنُبَيِّتَنَّهوأهْلَه » وقعدوا فى أصل جبل ينتظرونه ، فوقع الجبل عليهم فهلكوا ، ثم أقبل قومٌ منهم يريدون قتلَ الناقة فقال لهم صالح : « ناقةَ الله وسُقْياها » أى احذروا[١٤] ناقة الله وشِرْبها من الماء . فكَمَن لها قاتلُها وهو قُدَّار بن سالِف فى [أصل[١٥]] شجرة فرماها بسهم فانتظَم به عضَلةَ[١٦] ساقها ، ثم شَدَّ عليها بالسيف فكشف عُرْقوبَها[١٧] ، ثم نحرَها[١٨] .

---

(١) سورة البقرة : ٤٩ (٢) سورة يوسف : ٥١ (٣) سورة النمل : ١٢
(٤) سورة الزمر : ٦١ (٥) سورةالنحل : ٢٨ (٦) سورةالممتحنة : ٢ (٧) سورةالنمل : ٦٢
(٨) سورة النساء : ١٧ (٩) سورة آل عمران : ١٧٤ (١٠) سورة الأعراف : ٧٣
(١١) ا : وكانت . (١٢) سقطت من ا . (١٣) ا : اللبن . (١٤) ب : من .
(١٥) من ب . (١٦) ا : فى عضلة . (١٧) ب : فكسر عروقها . (١٨) ا : ثم يدها .

وقالوا : يا صالح ائتنا بما تعِدنا من العذاب. فقال لهم صالح: تمتّعوا فى داركم ثلاثة أيام.

قال [المفسرون[١]] : لما عقروها صعد فَصِيلها إلى الجبل فرغَا ثلاثَ مرات ، فقال صالح : لكل رَغْوة أجلُ يوم ، إلا أن اليوم الأول تصبح وجوهكم مُصفرّة ، واليوم الثانى محمرّة ، واليوم الثالث مسوَدَّة . فلما أصبحوا فى اليوم الأول إذا وجوههم مصفرّة ، فصاحوا وبكوا[٢] وعرفوا أنه العذاب . فلما أصبحوا فى اليوم الثانى إذا[٣] وجوههم محمرّة ، فضجُّوا وبكوا[٤] . فلما أصبحوا فى اليوم الثالث إذا وجوههم مسودّة ، كأنما طُلِيَتْ بالقار ، فصاحوا بأجمعهم : ألا قد حضَركم الموتُ[٥] . فتكفّنوا وألقَوا أنفسَهم[٦] بالأرض لا يدْرون من أين يأتيهم العذاب .

فلما أصبحوا فى اليوم الرابع أتتهم صيحةٌ من السماء فيها صوتُ كل صاعقة ، فتقطّعت قلوبُهم فى صدورهم .

وقال مقاتل : حفروا لأنفسهم قبوراً . فلما[٧] ارتفعت الشمس من اليوم الرابع [ولم يأتهم العذاب[٨]] ظنوا أن الله قد رحمهم ، فخرجوا من قبورهم يدعو بعضهم بعضا . فقام[٩] جبريل عليه السلام فوقَ المدينة فسدّ ضوء الشمس، فرجعوا[١٠] إلى قبورهم ، فصاح [بهم[١١]] صيحةً عظيمة : موتوا عليكم اللعنة . فماتوا وزُلْزِلت بيوتهم فوقعت عليهم[١٢] « فدَمْدَمَ عليهم ربُّهم » أى أَطْبق[١٣] عليهم العذاب .

ولما مرّ النبى صلى الله عليه وسلم على ديارهم قال : « لا تدْخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلا أن تكونوا باكين[١٤] » .

***

اعتبروا إخوانى بهؤلاء الهالكين ، وانظروا سوء[١٥] تدبيرِ الخاسرين ، لا بالناقة اعتبروا ، ولا لتعويضهم اللبَن شكروا ، وعتَوْا عن النِّعَمِ[١٦] وبطروا ، وعَموا عن الكرَم فما نَظروا ، وأُوعِدوا بالعذاب فما حَذِروا ، كلما رأوا آيةً من الآيات كفروا .

---

(١) سقطت من ب . (٢) ا : فصاحوا ويلكم . (٣) ب : فإذا . (٤) ا : ويلكم .
(٥) ا : العذاب . (٦) ا : أنفسكم . (٧) ب : لما . (٨) سقطت من ب . (٩) ب : ثم قاموا .
(١٠) ا : فدخلوا . (١١) من ا . (١٢) ا : على قبورهم . (١٣) ب : طابق .
(١٤) أخرجه الشيخان وأحمد . (١٥) ب : إلى تدبير الخاسرين . (١٦) ب : عن النعيم .

الطبع الخبيث لا يتغير ، والمقدَّر ضَلاَلُه لا يزال يتحيَّر ، خرجت إليهم ناقةٌ من أحسن النَّعَم ، ودرَّ لبنها لهم فتواترت(١) النِّعَم فكفروا وما شكروا ، فأقبلت النِّقَم .

أعاذنا الله وإياكم من الكفران ، وحفظنا من مُوجِبات(٢) الخسران ، إنه إذا لطف صان .

الكلام على البسملة

أيهـــا السكرانُ بالآ مال قد حان الرحيـــلُ
ومَشِيب الرأسِ والفوْ دَيْن للموتِ دليـــلُ(٣)
فانتبـــه من رقدة الغف لةِ فالعمر قليـــلُ
واطَّرِحْ سوف وحتى فهمـــا داءٌ دَخيـــلُ

يا من صُبْح شيبه بعد لَيْل شبابه قد تبلَّج ، ونذيره قد حامَ حولَ حِمَاه وعرَّج ، كأنك بالموتِ قد أتى سريعاً وأزْعج ، ونقَلك عن دارٍ أمِنْتَ مَكْرَها وأخرَج ، وحملك على خشونة النعش بعد لين الهَوْدج ، وأفصح بهلاكك وقد طال ما مَجْمَج(٤) ، وأفقرَك إلى قليل من الزاد وأحْوَج ، يا لاهياً فى دار البلاء ما أقبح فعلك وما أسْمَج ، ويا عالماً نظرَ الناقد وبضاعتُه كلُّها بَهْرَج ، ويا غافلاً عن رحيله سَلْبُ الأقران أُنْموذَج .

سيَقْطع رَيْبُ(٥) الدهر بَيْن الفريقينِ لكل اجتماعٍ فُرقةٌ من يدِ البَيْنِ
وكلٌّ يقضِّى ساعةً بعدَ ساعةٍ تخاتله عن نفسه ساعةُ الحَيْنِ
وما العيش إلا يومُ موتٌ له غَدٌ(٦) وما الموتُ إلا رَقْدةٌ بين يومينِ
وما الحشرُ إلا كالصبَاح إذا انجلَى يقومُ له اليَقْظانُ من رَقْدة العَيْنِ
فيا عجباً(٧) منِّى ويا طولَ غَفْلتى أؤمِّلُ أن أبقَى وأنَّى ومِنْ أينَ

***

(١) ب : فتوفرت . (٢) ا : من حوبات الخسران . (٣) ا : ومشيب الرأس * للموت دليل .
(٤) مجمج : فى خبره . لم يبنه وفى ا : تجمجم . (٥) ا : رين الدهر . ولعلها محرفة .
(٦) كذا فى ا . وفى ب : إلا موت يوم له غد . (٧) ا : أيا عجبا .

يا من يبارز مَوْلاه بمـا يَـكره ، ويخالفـه فى أمرِه آمناً مَـكْرَه ، ويُنْعِم عليـه وهو ينسى شُـكره ، والرحيل قد دنا وماله فيه فِـكْرة ، يامن قبائحه تُرْفع عَشِيًّا وبُـكْرة ، يا قليـلَ الزاد ما أَطْول[1] السَّفْرة ، والنُّقْـلَة[2] قد دنَتْ والمصير الحفْرة ، متى تعمل فى قلبك المواعظ ، متى تراقِب العواقبَ وتلاحِظ ، أمَا تحْذر من أَوْعد وهدَّد ، أمَا تخاف من أنذَر وشدَّد ، متى تَضْطرم نارُ الخوف فى قلبك وتتوقد ، إلى متى بين القُصور والتَّوانى تتردد ، متى تحذَر يوماً فيه الجلودُ تَشْهد ، متى تترك ما يَفْنَى رغبةً فيما لا يَنْفد ، متى تهبُّ بك ريحُ الخوف كأنك غصن[3] يتأوَّد ، البِدَار البِدَار إلى الفضائل ، والحذار الحذار من الرذائل ، فإنما هى أيامٌ قلائل :

اغتنِمْ فى الفراغِ فَضْلَ ركوعٍ ... فعسىَ أن يكون موتُك بَغْتة
كم صحيحٍ رأيتَ من غير سُقْمٍ ... ذهبَتْ[4] نفسُه السليمةُ فَلْتة

حجَّ مسروق فما نام إلا ساجدا ، وكان مجير[5] بن الربيع يصلى حتى ما يأتى فراشَه إلا حَبْواً .

اغتنم ركعتين زُلْفى إلى اللّـــه إذا كنت فارغاً مستريحاَ
وإذا ما هممت[6] أن تفعل البا ... طِلَ فاجعل مكانَه تسبيحاَ

يا سكران الهوى وإلى الآن ماصحاَ ، يامُفْنياً زمانَه الشريفَ لهواً ومرَحاً ، يا مُعْرِضا عن لوم من لامَ وعَتْب من لحاَ ، متى يعود هذا الفاسد مُصْلَحا ، متى يرجع هذا الهالكُ مُفلِحا.

لقد أتعبتَ النصحاءَ الفصحاء ، أما وعِظْت بما يكفِى ، أما رأيتَ من العبرة ما يشفى ، فانظر لنفسك قبل أن يعمَى الناظر ، وتفكر فى أمرك بالقلب الحاضِر ، ولا تساكن الفتورَ فإنك إلى [مسكن[7]] القبور صائِر ، فالحىُّ للممات ، والجمْع للشَّتَات [والأمر[8]] ظاهر .

عاصِ[9] الهوَى إنَّ الهوَى مَرْكبٌ ... يَصْعُبُ بعدَ اللِّين منه الذَّلولُ[10]

(١) ب: وما أطول. (٢) ب : والنقرة. محرفة. (٣) ب : متى تهب بك ريح الرجاء كغصن يتأود.
(٤) ب : فهبت . محرفة . (٥) ا : محين . محرفة . (٦) ا : فإذا هممت . (٧) سقطت من ا .
(٨) من ا . (٩) الأبيات لصالح بن عبد القدوس . انظر ذم الهوى لابن الجوزى ٣٤ .
(١٠) ا : الذليل وهى رواية ذم الهوى ، وما أثبته من ب .

إن يَجْلبِ اليومَ الهوى لذَّةً   فى غَدٍ منه البُكَا والعَوِيلُ
ما بين ما يُحْمَد فيه وما   يدعو إليه الذمّ إلا القليلُ

الكلام على قوله تعالى
﴿ وَاسْتَمِعْ يومَ ينادِى المنادِى[1] ﴾

والمعنى : استمع حديثَ ذلك اليوم . والمنادِى : إسرافيل ، يقف على صخرة بيت المقدس فينادى : ياأيها الناس هلمُّوا إلى الحساب . إن الله تعالى يأمركم أن تجتمعوا لِفَصْل القضاء .

وهذه الصيحة هى الأخيرة .

قوله تعالى : «من مكَانٍ قريبٍ» المكان القريب هو الصخرة . قال كعب ومقاتِل: هى أقربُ الأرضِ إلى السماء بثمانية عشر ميلاً . وقال ابن المسيَّب[2] : باثنى عشر ميلا. قال الزَّجاج : ويقال : إن تلك الصخرةَ فى وسط الأرض .

سجع

يامن يُدْعَى إلى نجاته فلا يجيب ، يا من قد رضِي أن يخسر ويَخِيب ، إنّ أمرك طريفٌ وحالك عجيب ، اذكر فى زمان راحتك ساعةَ الوَجِيب « واستمع يومَ ينادِى المنادى مِن مكَانٍ قريب » .

وَيْحك إنّ الحق حاضر ما يغيب ، تُحصى عليكُ أعمالُ الطُّلوع وأفعال المغيب ، ضاعت الرياضةُ فى غير نجيب [سِماك تدلُّ وما يخفَى المريب[3]] اسمع لابد لغِرْبان[4] الفِراق من نَعيب ، أنُساً كن الغفلةَ ولغيرنا نَعِيب ، يامن سِلَعه[5] كلها مَعِيب ، اذكر يوم الفزع والتأنيب « واستمع يومَ ينادِى المنادِى من مكان قريب » .

لابد والله من فراق العيش الرطيب ، والتحاف البِلَى مكانَ الطِّيب ،واعجباً لِلَّذات بعدَ

---

(١) سورة ق ٤١ .   (٢) ا : ابن السائب .   (٣) سقطت من ا .   (٤) ا : لغراب .
(٥) ا : يامن أشغاله .

هذا كيف تطيب ، ويحك أحضر قلبك لوعظ الخطيب « واستمع يومَ ينادِي المنادى من مكان قَريب » .

تذكَّر من قد[1] أصيب كيف نزل بهم يومٌ عصيب ، وانتبه لأحظِّ الحظِّ والنصيب [واحترزْ[2]] فعليك شهيدٌ ورقيب ، إذا حلَّ الموتُ حُلَّ التركيب، وتُقلّب مُقَلِّب القلوب فى قَلْب التقليب ، فتنزعج الروح انزعاج الصِّرْمة[3] [إذا[4]] أحسَّت بذِيب ، فالتفتْ يا محبَّ الهوى عن هذا الحبيب « واستمعْ يومَ ينادِي المنادِى من مكانٍ قريب » .

ستخرج والله من هذا الوادى الرحيب ، ولا ينفعك البكاء والنَّحيب ، لابدَّ من يوم يتحيَّر فيه الشبان والشِّيب ، ويَذْهل فيه الطفل للهول ويَشِيب ، يا من عمله كله رَدِىء فليته قد شِيب « واستمع يوم ينادِي المنادى من مكانٍ قريب » .

كيف بك إذا أُحضرت فى حالٍ كئيب ، وعليك ذنوب أكثر من رملٍ كثيبٍ ، والمهيمن الطالب والعظيمُ الحسِيب ، فحينئذ يبعد عنك الأهلُ والنَّسِيب ، النَّوح أولى بك يا مغرور من التَّشْبيب ، أتؤمن أم عندك تكذيب ، أم [ترَاك][5] تَصْبر على التعذيب كأنك بدمع العين وماءُها قد أُذيب ، اقبل نصْحى وأقبل على التهذيب « واستمعْ يوم ينادِي المنادِى من مكان قريب » .

يامطالبًا بأعماله ، يا مسئولا عن أفعاله ، يا مكتوبا [عليه[5]] جميعُ أقواله ، يامناقَشا على كل أحواله ، نِسْيانك لهذا أمرٌ عجيب ، أتسكن إلى العافية وتُساكن العيشةَ الصافية وتظن أيمانَ الغرور[6] واقية ، لابد من سهمٍ مصيب « واستمعْ يومَ ينادِي المنادِى من مكان قريب » .

لوأحسنتَ الخلاَص أحسنتَ، لو آمنتَ بالعرْض لتجمَّلْت وتزيَّنْت ، يامن قدانعجمت

(١) ا : من قد نزل به يوم عصيب . (٢) ا : لأخذ الحظ . (٣) ليست فى ا .
(٤) والصرمه القطعة من الإبل أو الغنم من العشرين إلى الثلاثين والأربعين . (٥) من ا .
(٦) ا : وتظن أن أعمال الغرور .

عليه الأمورُ لو سألتَ لتبيَّنت ، ويحك أحضر قلبك إنما أنت فى الدنيا غريب «واستمعْ يومَ ينادى المنادِى من مكانٍ قريب » .

إلى متى أنت مع أغراضك ، متى ينقضى زمانُ إعراضك ، يازمن البلى متى زمن إنهاضك ، تالله لقد كَعَّ من[1] أمراضك الطبيب .

***

قوله تعالى« يومَ يسمعون الصيحةَ » وهى النفخة الثانية « بالحق » أى بالبعث الذى لا شك فيه « ذلكَ يَوْم الْخروج » من القبور ، تنشق السماء ذات البروج انشقاق الثوب المنسوج ، بأعجب فُطور وأظرف فُروج ، ويُنْثر حَبُّ السماء ويسقط الدُّملوج[2] وتُقبل الملائكة إقبال الفيُوج[3] وتَميد الأرض فتُفْلق وتَمُوج ، وتعود جَرْداء بعد الرياض والمروج ، وتذِلّ العُتاة وتَنْكسر العُلوج ، وتستوى أقدامُ العرب والعجم والزنوج ، فأخسُّ الخلائق يومئذ يأجوج ومأجوج ، وأحْقر الناس على طوله عُوج[4] ، ويقرب الحساب وبروج ، ويُنْصَب الصراط والريح خَجُوج[5] ، أين حرارة القلوب أضُربت بالثُّلوج « يومَ يَسْمعون الصيحةَ بالحقِّ ذلك يومُ الخروج » .

***

قوله تعالى : « إنَّا نحنُ نحْيِي ونميتُ » أى نميت فى الدنيا ونحيي بالبعث « وإلينا المَصِيرُ » بعدَ البعث « يومَ تَشقَّقُ الأرض عنهم سِراعاً » المعنى : فيخرجون منها سراعا .

ياله من يوم لا تستطيع له دفاعا ، صاح بهم من لم يزل أمره مُطاعاً ، فنازلتهم الحسرات فأسرَتْهم فِزاعا ، واستسلموا للهلاك وما مَدَّ بعدُ باعاً ، سماعاً لما يجرى يومئذ سماعا « يومَ تشقَّقُ الأرضُ عَنْهم سِراعاً » .

مزَّقتهم اللُّحود تمزيقًا مُشاعًا ، وصيَّرت تلك الأبدان رفاتا شِياعاً ، ونفخ فى

---

(١) ا : فى أمراضك . وكع : ضعف . (٢) الدملوج : الحجر الأملس . (٣) الفيوج : الجماعات من الناس . (٤) يريد عوج بن عنق ، وهو شخصية أسطورية وردت فى بعض الآثار .
(٥) الخجوج : الريح الشديدة المر ، أو الملتوية فى هبوبها .

الصور فقاموا عِطاشًا جياعا ، وعلموا أن الهوى كان لهم خَدَّاعا ، فتداعَى بالويل من كان بالسرور تداعَى « يومَ تشقَّق الأرضُ عنهم سِراعا » .

حضروا من صحراء القيامة قاعا ، فوجدوه أصعبَ البِقَاع بقاعا ، وتناولوا بالأيمان والشمائل رِقاعا ، حُفِظت أعمالهم فما وجدوا شيئا مضاَعا ، وكِيلَ الجزاء بكفِّ الوكيلِ كما كالوا صاعا بصاعا[1] ، ذلك يوم لا يراعىَ فيه إلا من كان راعَى « يومَ تشقَّق الأرض عنهم سِراعا » .

***

قوله تعالى : « ذلكَ حشرٌ علينا يَسِير » أى هيِّن « نحنُ أعْلَمُ بما يَقولون » أى فى تكذيبك. وهذه تسليةٌ له « وما أنتَ عليْهم بجبَّار » أى بمسلَّط فتقهرهم على الإسلام ، وهذا منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : « فَذَكِّرْ بالقرآن » أى فعِظ به . قال بعض السلف : من لم يعظه القرآن ولا الشيب فلو تناطحت بين يديه الجبالُ ما اتعظ !

ياذا النفسِ اللاهية ، تقرأ القرآن وهى ساهية ، أمالك ناهيةٌ فى الآية الناهية ، كم خوَّفك القرآن من داهية ، أمَا أخبرك أنَّ أركانَ الحياة واهية ، أما أعلمك أن أيام العمر متناهية ، أمَا عرَّفك أسباب الغرور كما هيه ؟

***

قد يَرْعوى[2] المرء يوماً بعدَ هفوتِه ويُحْكِم الجاهلَ الأيامُ والعِــبَرُ
والعلمُ يَجْلِي العَمى عنْ قلبِ صاحبِه كما يجلِّى ســوادَ الظُّلْمة القمرُ
والذِّكْرُ فيه حيــاةٌ للقــلوب كما يحيِى البـــلادَ إذا ما ماتت المطرُ

---

(١) كذا بالأصل ، وهى ضرورة لمراعاة السجع . (٢) هذه القصيدة بكمالها لسابق البربرى وهو سابق بن عبدالله البربرى أبو سعيد ، شاعر من الزهاد ، له كلام فى الحكمة والرقائق ، وهو من موالى بنى أمية ، والبربرى لقب له ، ولم يكن من البربر ، سكن الرقة وكان يفد على عمر بن عبدالعزيز فيستنشده عمر فينشده من مواعظه . ترجمته فى تهذيب ابن عساكر ٦/٣٨ وخزانة البغدادى ٤/١٦٤ واللباب لابن الأثير ١/١٠٧ .

لا يَنْفع الذِّكْرُ قلباً قاسياً أبداً ... وهل[1] يَلِين لقولِ الواعظِ الحجرُ
والموتُ جسْرٌ لمن يمشِي على قدمٍ ... إلى الأمورِ التي تُخشَى وتُنتظرُ
فهم يَجُوزُون[2] أفواجاً وتجمعهم ... دارٌ إليها يصيرُ البَدْوُ والحضَرُ
لا يلبثُ الشيء أن يَبْلَى إذا اختلفت ... يوماً على نَقْصه الرَّوحاتُ والبكَرُ
وكلُّ بيتٍ خرابٌ بعد جِدَّتِه ... ومِن وراء الشباب الموتُ والكِبَرُ
بَيْنا يُرَى الغُصْن لَدْناً في أرومته[3] ... ريَّانَ صار حُطَاماً جوْفُه نَخِرُ
كم مِنْ جميع أشتَّ الدهرُ شَمْلَهم ... وكلُّ شملٍ جميع سوف يَنْتَشِرُ
أبَعْدَ آدم تَرْجون البقاء وهل ... تبقى فروعٌ لأصلٍ حين ينقعرُ
لكم[4] بيوتٌ بمُسْتَن السُّيول وهل ... يَبْقى على الماء[5] بيتٌ أُسُّه مَدَرُ
إلى الفَناء وإن طالتْ سلامتُهم ... مصيرُ كلِّ بني أمٍّ وإنْ كثُرُوا
والمرء ماعاش في الدنيا له أملٌ ... إذا انقضى سَفَر منها أتى سَفرُ
لها حلاوةُ عيشٍ غيرُ دائمةٍ ... وفي العواقب منها المرُّ والصبِرُ
إذا قضَتْ زُمرٌ آجالها نزلتْ ... على منازلها من بعدِها زمرُ
وليس يَزْجركم ماتُوعظَون به ... والبَهْمُ يَزْجرها الراعِي فتَنْزجرُ
مالِي أرى الناسَ والدنيا مُوَلِّيَة ... وكلُّ جيلٍ عليها سوف يَنْبترِ[6]
لا يَشْعرون بما في دِينِهم نَقصُوا ... جهلًا وإن نقصتْ دنياهُم شعروا

***

يامتحيِّرا في طريقه قد بان البيان، يابليدَ الاعتبارِ وقد أنذره الأقران، يامن تَقْرع قلبَه المواعظُ وهو قاسٍ مالان، لو حضرتَ بالذهن كفاكَ زَجْر القرآن.

(١) ب: فهل. (٢) ب: فهم يمرون. (٣) ا: في رواقته. والأرومة: الأصل.
(٤) ب: وكم. والمستن: موضع الجري. قال جرير:

ظللنا بمستن الحرور كأننا ... لدى فرسٍ مستقبلِ الريح صائمِ

اللسان ١٧/٩٠.

(٥) ب: على السيل. والمدر: الحجارة. (٦) ا: سوف ينتثر.

كتب زِرُّ بن حُبَيش إلى عبد الملك بن مَرْوان : لا يُطْمِعنك[1] فى طول الحياة ماترى من صحة بَدَنك[2] واذكر قول الأول :

إذا الرجالُ ولدَتْ أولادُها ... وبَلِيتْ من كِبَر أجسادُها
وجَعلتْ أسقامُهـا تَعْتادها ... تلك زُروعٌ قد دنا حَصادُها

فلما قرأ الكتابَ بكى حتى بُلَّ طرفُ ثوبه .

كان الربيع بن خُثَيْم يقول : أمّا بعدُ ، فأعدَّ زادكِ وجدَّ فى جهازك[3] ، وكُنْ وصِىَّ نفسِك .

وكان إذا جَنَّ عليه الليلُ لا ينام ، فتناديه أمه : ألا تنام ؟ فيقول : ياأماه من جَنَّ عليه الليل وهو يخاف البَيات حُقَّ له أن لا ينام !

فلما بلغ ورأت ما يَلْقَى من البكاء والسَّهر قالت : يابنى لعلك قتلت قتيلا ! فقال : نعم ياأماه . فقالت : ومن هذا القتيل ، فلو علم أهلُه ماتلقى من البكاء والسهر لرَحِموك . فقال : هى نفسى !

وقالت له ابنته : ياأبت ألا تنام ؟ فقال : يابنية إن جهنم لا تَدَعنى أنام !

***

أيها الغافل زاحمْ أهل العزم وبادر ، فكأنْ قد نزل بك ماتخاف وتحاذر ، فيختم الكتاب على الرذائل ، ويفوت تحصيل الفضائل [فالدنيا منزل قلعة كأنها يومٌ أو جمعة][4] .

كلُّ حىٍّ إلى فناء وما الدا ... رُ بِدَارٍ ولا المقام مُقَامُ
يستوى ساعةَ المنيّه فى الرُّ ... بة وَجْدُ الغنىّ والإعدامُ
والذى زال وانقضَى من نعيم ... أو شقاء كأنه أحلامُ

---

(١) ا : لا يعظمنك . محرفة .   (٢) ا : ما ترى فى بدنك .   (٣) ا : فأعد فى زادك وخذ فى جهازك .   (٤) سقطت من ا .

السجع على قوله تعالى :
« فذكِّرْ بالقرآنِ مَنْ يخافُ وعيد »[1]

لقد وعظ القرآنُ المجيد ، يُبْدى التذكارَ عليكم ويُعيد ، غير أن الفهم منكم بعيد ، ومع هذا فقد سبق العذابَ التهديد ، «فذكِّر بالقرآنِ من يخاف وعيد » .

إنّ فى القرآن مايُلين الجلاميد ، لو فهمه الصخر كأنّ الصخر يميد ، كم أخبرك بإهلاك الملوكِ الصِّيد ، وأعلمك أن الموت بالباب والوصيد[2] « فذكِّر بالقرآنِ من يخافُ وعيد » .

إن مواعظ القرآن تُذيب الحديد ، وللفهوم كلَّ لحظةٍ زَجْرٌ جديد ، وللقلوب النيِّرة كلَّ يوم به عيد ، غير أن الغافل يتلوه ولا يستفيد « فذكِّر بالقرآنِ من يخاف وعيد » .

أما الموت للخلائق مُبيد ، أما تراه قد مزَّقهم فى البيد ، أما داسهم بالهلاك دَوْس الحصيد ، لا بالبسيط ينتهون ولا بالتشديد[3] ، أين من كان لا يَنْظر بين يديه ، أين من أبصر العِبَر ولم ينتفع بعينيه ، أين من بارز بالذنوب المطَّلعَ عليه « ونحن أقربُ إليه من حَبْل الوريد» .

أين من كان يتحرك فى أغراضه ويَميد ، ويَغْرس الجنَان لها طَلْع نَضيد ، ويعجبه نغمات[4] الوُرْق على الوَرَق بتغريد ، كان قريباً منّا فهو اليومَ بعيد « فذكِّر بالقرآن من يخاف وعيد » .

أحضروا قلوبكم فإلى كم تقليد ، يامعشر الشيوخ فى عقل الوليد ، أما فيكم من يذكر أنه فى قبره وحيد ، أما فيكم من يتصور تمزيقه والتبديد[5] ، غداً يباع أثاثُ البيت فمن يَزيد ، غداً يتصرف الوارث كما يريد ، غداً يستوى فى بطون اللحود الفقيرُ والسعيد ، ياقوم ستَقُومون[6] للمبدئ المعيد ، ياقوم ستحاسَبون على القريب والبعيد ، ياقوم المقصود كله وبيت القصيد : « فمنهم شَقِيٌّ وسَعيد » .

ألهمنا الله وإياكم ماألهم الصالحين، وأيقظنا من رقاد الغافلين، إنه أكرم منعم وأعزّ معين .

---

(١) سورة ق ٤٥ . (٢) الوصيد : الفناء والعتبة . (٣) ا : ولا بالنشيد .
(٤) ا : هاتف الورق . (٥) ا : والتشريد . (٦) ا: ستقدمون .

المجلس الخامس

فى قصة إبراهيم الخليل عليه السلام

الحمد لله العلىّ القوى المتين ، القاهر الظاهر المبين ، لا يَعزُب عن سمعه أقلُّ الأنين ، ولا يخفَى على بصَره حركاتُ الجنين ، ذلَّ لكبريائه جبابرة السلاطين ، وقلَّ عند دفاعه كيدُ الشياطين ، قضَى قضاءه كما شاء على الخاطئين ، وسبق اختيارُه لمَّا اختارَ الماءَ والطّين ، فهؤلاء أهل الشِّمال وهؤلاء أهل اليمين ، جرى القدَر بذلك قبلَ عمَل العاملين « ولقد آتينا إبراهيم رُشْده من قبلُ وكنّا به عالمين » .

أحمده حمد الشاكرين ، وأسأله معونة الصابرين ، وأصلى على رسوله المقدَّم على النبيِّين ، وعلى صاحبه الصِّديق أوّل تابع له على[1] الدِّين ، وعلى الفاروق عمر القوىّ الأمين ، وعلى عثمان زوج ابنته ونعم القَرين ، وعلى علىّ بحر العلوم الأنْزع البَطِين[2] ، وعلى عمه العباس ذى الفخر القويم والنسب الصَّميم[3] .

***

قال الله تعالى : « ولقد آتَيْنا إبراهيم رُشْدَه مِنْ قبلُ وكُنَّا به عالمين »[4] .

إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ[5] بن أرغو[6] بن فالغ [ابن عابر][7] ابن شالخ[8] بن أرفخشذ بن سام بن نوح [بن لامك بن متوشالخ بن أهنخ بن يرد بن مهلاييل بن قاين بن أنوش . وأمه نونا بنت كرينا بن كوثا][9] [من بنى][10] أرفخشذ .

وكرينا هو الذى كرى[11] نهر كُوثى .

وكان بين الطوفان ومَوْلد إبراهيم ألف سنة وتسع وسبعون . وقيل ألف ومائتا سنة وثلاث وستون ، وذلك بعد خلق آدم عليه السلام بثلاثة آلاف سنة وثلاثمائة وسبع وثلاثين سنة .

---

(١) ا : فى الدين . (٢) الأنزع : الممتلىء . والبطين : البعيد العميق . (٣) ا : الرصيم .
(٤) سورة الأنبياء ٥١ . (٥) ا : أسرع وب : ساغوغ . وهو تحريف . (٦) كذا بالأصل . وفى مروج الذهب : رعو . (٧) سقطت من ا . (٨) ليست فى ا . (٩) سقطت من ب .
(١٠) ليست فى ا . (١١) كرى النهر : استحدث حفره .

ولما أراد الله عز وجل إيجادَ إبراهيم عليه السلام قال المنجمون لنمرود : إنّا نجد في عِلْمنا أن غلاما يولد في قريتك هذه يقال له إبراهيم ، يفارق دينكم ويكسر أوثانكم في شهر كذا وكذا من سنة كذا وكذا . فلما دخلت السنةُ المذكورة بعث نمرود إلى كل امرأة حامل بقريته فحبسها عنده ، ولم يعلم بحَبَل أم إبراهيم ، فجعل لا يولَد غلام في ذلك الشهر إلا ذبَحه ، فلما أَخذ أمَّ إبراهيم الطَّلْقُ خرجت ليلاً إلى مغارة فولدت فيها إبراهيمَ وأصلحت من شأنه ، ثم سدَّت عليه باب المغارة ثم رجعت إلى بيتها ، وذلك بمدينة[(١)] كوثى ، وكانت تتردد إليه فتراه يمص إبهامه قد جعل الله رزقه في ذلك ، وكان آزَر قد سألها عن حَمْلها فقالت : ولدتُ غلاماً فمات. فسكتَ عنها. وقيل: بل أخبرته فأتاه فحفر له سَرَباً وسدَّ عليه بصخرة ، وكانت أمه تختلف إلى رضاعه . فلما تكلّم قال لأمه : من ربِّي ؟ قالت : أنا . قال : فمن ربكِ ؟ قالت : أبوك . قال : فمن رب أبي ؟ قالت له : اسكت . فسكت . فرجعت إلى زوجها فقالت له : إنّ الغلام الذي كنا نتحدث أنه يغيِّر دينَ[(٢)] أهل الأرض هو ابنك . فأتاه فقال له مثل ذلك .

فدنا [إبراهيم عليه السلام[(٣)]] بالليل من باب السَّرَب فرأى كوكباً،قال ابن عباس: هو الزُّهَرة . قال : وكان له حينئذ سبع سنين . وقال مجاهد : هو المُشْتَرِي . فقال : هذا ربِّي [أي على زَعْمكم[(٤)]] فلما خرج كان أبوه يصنع الأصنام ويقول له بِعْها . فيأخذ الصنم ويخرج فيقول : من يشترى ما يضرّه ولا ينفعه !

فشاع بَيْن الناس استهزاؤه بالأصنام .

وجعل يقول لقومه : « ما هذه التماثيلُ التي أنتم لها عاكِفون[(٥)] » أي مقيمون على عبادتها « قالوا وجَدْنا آباءنا لها عابِدين » أي إنا نقتدي بهم ونقلّدهم .

فخرجوا يوماً[(٦)] إلى عيد لهم فخرج معهم، ثم ألقى نفسه في الطريق وقال: « إنِّي سَقِيم »

(١) ا : بقرية. (٢) ا : أنه يغير دين أهل الأرض ابنك . (٣) سقطت من ب . (٤) ليست في ا .
(٥) سورة الأنبياء ٥٢ . (٦) ا : يوم عيد لهم .

فلما مضوا قال: «تاللهِ لأَ كِيدَنَّ أَصْنامَكم» والـكَيْد: احتيال الـكائد فى ضر المـكيد[1] وأراد لأ كسرنّها . فسمع الـكلمةَ رجل منهم فأفشاها عليه .

فدخل بيتَ الأصنام ، وكانت اثنين وسبعين صنما من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب ، فـكسرها وجعلهم جُذَاذا أى فُتَاتا .

ثم وضَع الفأسَ فى عنق الصنم الـكبير « لعلَّهم إليه يَرْجِعون » . فى هاء الـكناية قولان : أحدها : أنها ترجع إلى الصنم فيظنون أنه فعل . والثانى : إلى إبراهيم ، والمراد الرجوع إلى دينه .

فلما رجعوا «قالوا : منَ فعل هذا بآلِهَتِنا» فنَمَّ عليه الذى سمع منه: « لَأَ كِيدَنَّ » فقالوا :« سَمِعْنا فَتًى يذكُرُهمْ يُقال له إبراهيم » أى يَعِيبهم .

« قالوا فَأْتُوا بهِ علَى أَعْيُنِ الناسِ » أى بمَرْأًى منهم «لعلَّهم يَشْهدون» فيه ثلاثة أقوال : أحدها يشهدون أنه قال لآلهتنا ما قال . قاله ابن عباس .

والثانى : أنه فعل ذلك . قاله السُّدى .

والثالث : يشهدون عقَابه . قاله ابن إسحاق .

« قالوا أأَنْتَ فعَلْتَ هذَا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال : « بل فعله كَبيرُهُمْ » والمعنى أنه غضب أن تُعْبَد معه الصِّغار فـكسرها .

وكان الـكسائِى يقف على قوله : « بل فَعله » ويقول معناه فعله من فعله ، ثم يبتدئ « كبيرُهم هذا » وقال ابن قُتَيبة : هذا من المَعَاريض ، فتقديره : « إنْ كانُوا ينطقون فقد فَعله كبيرهم هذا» .

« فرَجعوا إلى أَنْفُسِهم فقالوا : إنـكم أنتم الظالمون » حين عبدتم من لا يتـكلم « ثم نُـكِسُوا على رُءوسِهم » أى أدركَتْهم حيرةٌ .

فلما ألزمهم[2] الحجَّة حملوه إلى نمرود فقال له : ما إلهك الذى تَعْبد ؟ قال ربى الذى

---

(١) ب : المـكيدة . (٢) ا : فلما لزمتهم .

يُحيى ويميت . قال : أنا أحيي وأميت ، آخذ رَجُلين قد استوجَبا القتَل ، فأقتل أحدَهما فأكون قد أمَتُّه ، وأعفو عن الآخر ، فأكون قد أَحْيَيْته . قال : « فإنّ الله يَأْتِى بالشَّمسِ من المَشْرقِ فَأْتِ بها مِن المَغْرب[١] » .

فبهِت نمرود وحبَسه سبعَ سنين وجوَّع له أسدين ، وأرسلهما عليه فكانا يَلْحسانه ويسجدان له ثم أوقد له ناراً ورماه فيها فسَلِم . فكفَّ نمرودُ عنه .

فخرج مهاجراً إلى الشام فتزوج سارة وهى بنت ملك حرَّان ، وكانت قد خالفت دينَ قومها . ومضى فنزل أرضَ فلسطين فاتخذ مسجداً ، وبُسِط له الرزق ، وكان يُضِيف كلَّ من نزَل به ، وأنزل الله عليه صُحفاً .

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الباق ، أنبأنا أبو الحسين ابن المهتَدِى ، أنبأنا الحسن بن أحمد بن على الهُمَانِىّ ، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد الشِّمْشاطى ، حدثنا جعفر بن محمد الفِرْيابى ، حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيي الغَسَّانى ، حدثنا أبى ، عن جدى عن إدريس الخَوْلانىّ ،عن أبى ذَرّ رضىالله عنه، قال:قال رسولالله صلى الله عليه وسلم : «أنزلَ الله تعالى على إبراهيم عليه السلام عَشْرَ صحائف».قلت: ما كانت صحف إبراهيم؟ قال : « كانت أمثالًا كلها : أيها الملِكُ المسَلَّط المبتلَى المغرور ، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ، ولكن بعثتك لتردَّ عنى دعوةَ المظلوم ، فإنى لا أردُّها وإن كانت من كافر . وكان فيها : « وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن تكون له ساعات : ساعة يناجِى فيها ربَّه ، وساعة يتفكَّر فيها فى صنع الله ، وساعة يحاسِب فيها نفسَه ، وساعة يخلو فيها بحاجته من الحلال . وعلى العاقل أن لا يكون ظاعناً إلا فى ثلاث : تزوّدٌ لمعَاد ، ومرمَّة لمعاش ولذَّة فى غير محرَّم،وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مُقْبلا على شأنه ، حافظا للسانه . ومن حَسِب كلامَه من[٢] عمله قَلَّ كلامُه إلا فيما يَعْنيه» .

***

ثم إن الله تعالى اتخذه خليلاً ، وفى سبب ذلك ثلاثة أقوال .

---

(١) سورة البقرة ٢٥٨ . (٢) ب : فى عمله .

أحدها : لإطعامه الطعام ، وكان لا يأكل إلا مع ضيف . روَى عبد الله بن عمرو ابن العاص ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يا جبريل لمَ اتخذ الله إبراهيم خليلاً ؟ قال : لإطعامهِ الطعامَ .

والثاني : أن الناس أصابتهم سَنَة[١] فأقبلوا إلى باب إبراهيم يطلبون الطعام ، وكانت له مِيرَة[٢] من صَدِيق له بمصر فى كل سنة ، فبعث غلمانَه بالإبل إلى صديقه فلم يعطه شيئا ، فقالوا : لو احتملنا من هذه البَطْحاء ليرى الناسُ أنا قد جئنا بميرة . فملأُوا الغَرائرَ رملاً ، ثم أتوا إلى إبراهيم فأعلموه ، فاهتمَّ لأجل الخَلْق .

فنام ، وجاءت سارّة وهى لا تعلم ما كان ، ففتحت الغرائر فإذا دقيقٌ حُوَّارَى[٣] فأمرت الخبَّازين نخبزوا وأطعموا الناسَ ، فاستيقظ[٤] إبراهيم فقال : من أين هذا الطعام ؟ فقالت : من عند خَليلك المِصْرى . فقال : لا بل من عند خليلى الله ! فحينئذ اتخذه الله خليلا !

رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : اتخذه الله خليلا لكَسْره الأصنام وجداله قومَه .

قاله مقاتِل .

أخبرنا محمد بن أبى طاهر[٥] البزار ، أنبأنا أبو محمد الحريرى ، أنبأنا أبو عمر ابن حَيْوة ، أنبأنا أحمد بن معروف ، حدثنا الحارث بن أبى أسامة ، حدثنا محمد بن سعد ، حدثنا هشام بن محمد ، عن أبيه ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لمّا اتخذ الله إبراهيم خليلاً ونبَّأه وله يومئذ ثلاثمائة عَبدٍ أعتقهم لله وأسلموا ، فكانوا يقاتلون معه بالعصىّ .

وابتلاه الله عز وجل بالكلمات فأتمَّهنّ .

روى طاوس عن ابن عباس قال : ابتلاه الله بالطهارة ، خمسٌ فى الرأس : قص

---

(١) السنة : الشدة والجدب . (٢) الميرة : جلب الطعام . (٣) الحوارى : الدقيق الأبيض وهو لباب الدقيق . (٤) ا : فانتبه . (٥) ا : ابن أبى الظاهر .

الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسِّواك ، وفَرْق[١] الرأس . وخمسٌ فى الجسد : تَقْليم الأظفار ، وحلق العانة والخِتَان ونتف الإبط ، وغسل أثر الغائِط والبول وبالماء .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : اختتن إبراهيمُ بالقَدُوم . والقدوم مَوْضع ، وكان له يومَ اختتن ثمانون سنة . وقيل مائة وعشرون سنة ، وهو ختن نفسه .

***

وسأل ربَّه عز وجل أن يريه كيف يحيى الموتى . وفى سبب ذلك أربعة أقوال :

أحدها : أنه رأى ميتةً تمزّقها السباعُ والهوامُّ ، فسأل ذلك . قاله ابن عباس .

والثانى : أنه لما بُشِّر باتخاذه خليلاً سأل ليَعْلم بإجابته صحة البشارة . قاله السُّدِّى عن أشياخه .

والثالث : أنه أحب أن يزيل عوارضَ الوسواس . قاله عطَاء بن أبى رَباح .

والرابع : أنه لمّا قال لنمرود : ربى الذى يحيى ويميت . أحبَّ أن يرى ما أخبر به . قاله ابن إسحاق[٢] .

***

وأما نمرود فإنه بقى بعد إلقاء الخليل فى النار أربعمائة عام لا يزداد إلا عتوّا ، ثم حَلَف ليَطْلبنَّ إله إبراهيم . قال السُّدى عن أشياخه : أَخذ أربعة أفراخ من أفراخ النسور ، فربّاهن باللحم والخمر ، حتى إذا كَبِرْن واستَفْحلن قرنهن بتابوت ، وقعد فى ذلك التابوت ، ثم رفع لهن اللحم[٣] فطِرْن به ، حتى إذا ذهب[٤] فى السماء أشْرف ينظر إلى الأرض ، فرآها كأنها فُلْك[٥] فى ماء ، ثم صعد فوقع فى ظُلمة فلم ير ما فوقه ولا ما تحته ، ففزِع فنكَّس اللحَم فاتبعنه مُنْقَضَّات ، فلما نزل أخذ[٦] يَبْنى الصَّرْح فسقط الصرحُ .

---

(١) ا : وحلق . (٢) ب : قاله ابن عباس . (٣) ا : لحما . (٤) ا : ذهبن .
(٥) الأصل : فلكة . (٦) ا : أمر ببناء الصرح .

قال زيد بن أَسْلَم : بعث الله تعالى إلى نمرود ملَكا فقال له : آمِنْ بى وأتركك على مُلكك . فقال : وهل ربٌّ غيرى . فأتاه ثانيا وثالثا ، فأبَى . ففتح عليه باباً من البعوض فأكلت لحومَ قومه وشربت دماءهم . وبعث الله عز وجل عليه بعوضةً فدخلت فى منْخَره[١] فمكث أربعمائة عام يُضرب رأسه بالمطارق ، وأرحمُ الناس به من يجمع[٢] يديه ثم يضرب بهما رأسه ، فعذِّب بذلك إلى أن مات .

وقال مقاتل : عذِّب بالبعوضة أربعين يوما ثم مات .

الكلام على البسملة

إخوانى : السعيد من اعتبر ، وتفكَّر فى العواقب ونظر ، أضرّ[٣] الخليلَ ما عليه جَرى وهذه مدائحه كما تَرى ، من صابَر الهوى ربح واستفاد ، ومن غفل فاته المراد .

يا فـؤادى غلَبْتنى عِصْياناً فأطِعْنى فقد عصَيْتَ زماناَ
يا فـؤادى أمَا تحِنّ إلى طُو بَى إذا الريحُ حرَّكتْ أغْصانا[٤]
مثَلُ الأوليـاء فى جنة الخُلْـد إذا ما تقابلوا إخواناَ
قد تعـالَوْا على أسِرّة دُرٍّ لابسين الحريرَ والأرْجُوانا
وعليهم تِيجانهم والأكاليـل تُباهِى بحُسْنها التِّيجاناَ
ثم آوَوْا فاستقبلتهم[٥] حِسَانٌ من بنات النعيم فُقْن الحِسَانَا
بوجـوه مثل المصابيح نوراً ما عرفن الظِّلال والأكْنانَا[٦]

(١) ب : فى أنفه . (٢) ب : من جمع . (٣) ا : اعتبروا بالخليل .
(٤) ب : إذا الريح جرحت أعصانا . محرفة . وما أثبته من ا . (٥) ب : ثم أتوا واستقبلتهم .
(٦) ورد البيت محرفا فى الأصول ، ففى ا :

بوجوهٍ مثلِ المصابيحِ نوراً يعرفنّ الأطلالَ والأكنانا

وفى ب :

. . . . . ما عَرفْن الضَّلالَ والأكنانا

ولعل ما أثبته هو الصواب. والظلال : جمع ظل ، أو جمع ظلة وهى مايستظل به . والأكنان : البيوت .

فهمُ الدهرَ فى سرورٍ عجيب ويزورون ربَّهم أحيانَا

***

يا غافلين عما نالوا ، مِلْتم عن التقوى وما مالوا ، ما أطيب لياليهم فى المنـاجاة ، وما أقْربهم من طريق النجاة .

كان بِشْر الحافى طويلَ السَّهَر يقول : أخاف أن يأتى أمرُ الله وأنا نائم .

كم منع نفسه من شهوةٍ فما أنالها ، حتى سمِع : كلْ يا من لم يأ كل لمّا أتَى لها ، كم حمل عليها حِمْلاً ومارثَى لها ، كم همَّت بنَيْل غرض بَدا لها لمـا خافت عُقْبى مرضٍ ينالُها ، أصبح زاهدا وأَمسَى عفيفا ، ما أخذ من الدنيا إلا طَفِيفا ، وما خرج عنها إلا نظيفا ، هذا وكم وجد من الدنيا سِعةً ورِيفاً[1] ، تقلَّب فى ثياب الصبر نحيفا ، وتوغَّل فى طريق التقوى لطيفا ، تاالله لقد كان رأيه حَصِيفاً ، وما قدر حتى أعانه الرحمنُ « وخُلِق الإنسانُ ضَعيفا[2] » .

بكتْ عينُه رحمـــةً للبدَنْ فعنَّى البـكاء مكانَ الوسَنْ
وألبسَه الشوقُ ثوبَ السَّقامِ كأن السُّقَام عليـــه حسَنْ
وأُنْس مَدامعـــه بالدموع لم يَدع السرَّ حتى علَنْ
فيا طُولَ عِصْيانه للغـــرام[3] ويا حُسنْ طاعتِهِ للحـــزَنْ

***

إخوانى : من عرف قَدْرَ نفسه عليه هانت الدنيا كلها لدَيْه ، إنّ العقلاء نظروا إلى مشارع الدنيا فرأوها متوشحة[4] بأقذار الفِرَاط فاقتنعوا بثَغْب الغُدْران[5] .

لِلّهِ ســــاعٍ بلُغْتَه قدَمُهْ حيثُ تَعدَّت عالياتُ هِمَمِهْ
أو قاعـــدٍ مع العفاف قانعٍ بِبُلْغَةِ الزاد حَشـــاه وفَمُهْ
لم يَنتَقص طَلاوةً من وجهه ورِقَّه ذُلَّ ســؤالٍ يَصِمُهْ

---

(١) الريف : السعة فى المـأ كل والمشرب . (٢) سورة النساء . (٣) ا : للعزى .
(٤) ا : متوسخة . (٥) الفراط : الماء الذى يكون لمن سبق إليه من الأحياء . اللسان ٩/٢٤٢
وثغب الغدران : ما بقى فيها من الماء .

تلوّنت خلائقُ الدهرِ به   فحنّكته صُهْبه ودُهْمُه (١)
واختبرَ الناسَ فلو ساوَمْته   قُرْبَ أخيه عَلّه يحتشمه (٢)
والله ما عِفتُكِ يا دُنْيَا بلَى   وإنّ فيــكِ لمتاعًا أعلَمُهْ
لـكنّ أبناءكِ مَنْ لا صِبغتى   صِبْغتُه ولا وَفائى شِيَمُهْ
أُخرج من حِكْمة الصَّدْرِ وما   فيهم بسِحْرى (٣) من يَصِحّ سقمُهْ
كم باسمٍ لى من وراء سِرِّه   والليثُ لا يَغُــرّنى تبسُّمُهْ
وحاطِبٍ على اتخاذى صُحْبتى   والبَدْر مولودٌ بغــير توْأمِهْ

***

سبحان من كشَف لأحبابه ما غطَّى عن الغَيْر ، وأعطاهم من جُوده كلَّ خير ومَيْر ، فقطَعوا مَفاوزَ الدنيـا بالصَّبر ولا ضَيْر ، وكابَدوا المجـاعةَ حتى استحيا راهبُ الدَّيْر ، أفى أحوال هذه الدنيا تمارَى ، أما ترى زيّها مُسْتردًّا مُستعاراً ، وسَلْبَ القَرن يكفى وعظًا واعتباراً . أمَّا اللَّذاتُ فقد فنيت (٤) وأبقَت عاراً ، وأما العُمر فمنتَهبٌ جِهارا . إياكَ وإيّا الدنيا فراراً فرارا ، لقد قرّت عيونُ الزاهدين وماتوا أحرارا ، قتلت أقرانَهم فانتهضوا (٥) يأخذون ثارًا ، وباعوها بما يَبْقَى لا كُرْهًا بل اختيارا ، قطَعوا بالقيام ليلاً وبالصيامِ نهارا ، واتخذوا الجدَّ لحـافًا والصبر شِعارا ، وركبوا من العزم أمْضَى من العربان المهارَى (٦) ، واهتدوا إلى نجاتهم والناس فى الجهل حيارَى .

رَبِح القومُ وخسِرْتَ ، وساروا إلى المحبوب وما سِرْتَ ، وأُجيروا من اللوم وما أُجِرْتَ ، واستزيدوا إلى القُرْب وما استَزِدت ، ذُنوبك طَردَتْك عنهم ، وخطاياك أبعدتك منهم ، قم فى الليل ترى تلك الرُّفقة ، واسلك طريقهم وإن بعدت الشُّقة ، وابْكِ على تأخرك واحذر الفُرْقة .

---

(١) حنكته : أحكمت تجاربه . والصهب : الحمر . والدهم : السود. (٢) العجز بالأصل محرف وغير منقوط ولعل ماأثبته هو الصواب . (٣) السحر: كل مالطف مأخذه ورق ، ويريد به هنا المهارة فى الطب.
(٤) ا : قد فنيت . وب : فأفنت . (٥) ا : فنهضوا . (٦) المهارى : الإبل المنسوبة إلى مهرة بن حيدان ، حى من العرب . والعربان : كذا بالأصل ، ولعلها : العراب وهى الخالصة النسب من الخيل والإبل .

شمِّر عسَى أنْ ينفعَ التشميرُ   وانظر بفِكْرك ما إليه تصيرُ
طوَّلت آمالًا تكنَّفَها الهوَى   ونسِيتَ أن العُمر منكَ قصيرُ
قد أفصحتْ دُنياك عن غَدَراتِها   وأتى مَشِيبك والمشيب نَذِيرُ
دارٌ لهَوْتَ بزَهْوِها[1] متمتعا   ترجو المقامَ بهـا وأنت تَسِيرُ
واعلم[2] بأنك راحلٌ عنها ولو   عُمِّرتَ فيهـا ما أقام ثَبِيرُ
ليس الغِنَى فى العيش إلا بُلْغَةً   ويَسِيرُ ما يكفيك منه كثيرُ
لا يَشْغلنك عاجلٌ[3] عن آجل   أبداً فمُلْتَمِس الحقـير حقيرُ
ولقد تساوَى بين أطْباق الثَّرَى   فى الأرضِ مأمورٌ بها وأميرُ

الكلام على قوله تعالى

« قلنا يانارُ كونى بَرْداً وسلاماً على إبراهيم[4] »

لمّا كسَر الخليلُ الأصنامَ حملوه إلى نمرود ، فعزم على إهلاكه[5] ، فقال رجل : حرِّقوه . قال شعيب الجُبّانِيّ : خسِفت الأرض بالذى قال حرِّقوه ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

وأُلقِي الخليل فى النار وهو ابن ست عشرة سنة . قال علماء السِّير : حبسه[6] نمرود ، ثم بنَوا له حوالى سفح جبل مُنيف طول جداره ستون ذراعا ، ونادى منادى نمرود : أيها الناس احتِطبوا لإبراهيم ، ولا يتخلفَنَّ عن ذلك صغير ولا كبير ، فمن تخلَّف أُلقِى فى تلك النار .

ففعلوا ذلك أربعين ليلة حتى إنْ كانت المرأة لتقول : إن ظفرت بكذا لأحتطبنّ لنار إبراهيم . حتى إذا كان الحطب يساوى رأس الجدار[7] قذفوا فيه النار فارتفع لهيبا ، حتى كان الطائر يمر بها فيحترق . ثم بنَوْا بنيانا شامخا وبنوا فوقه مِنْجنيقا .

---

(١) ا : بلهوها . (٢) ا : اعلم . (٣) ب : من آجل . (٤) سورة الأنبياء ٦٩ .
(٥) ا : هلاكه . (٦) ب . حفره . محرفة . (٧) ب : الجبال .

ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان ، فرفع إبراهيم رأسه إلى السماء فقال : اللهم أنت الواحد في السماء [وأنا الواحد في الأرض] (١) ليس في الأرض أحدٌ يَعْبدك غيري ، حَسْبيَ الله ونعم الوكيل .

ثم رُمِي به فاستقبله جبريل فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ فقال له أمّا إليك فلا . فقال جبريل : سَلْ ربَّـك . فقال حَسْبي من سؤالى علمُه بحالى !

أخبرنا محمد بن أبي منصور ، حدثنا جعفر بن أحمد ، أنبأنا الحسن بن على التميمى ، أنبأنا أبو بكر بن أحمد بن جعفر ، أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا شَيْبان ، حدثنا أبو هلال : قال حدثنا بكر ، قال لما أُلقى إبراهيم فى النار جَأَرَتْ عامةُ الخليقة (٢) إلى ربها عز وجل فقالوا : يارب خَليلُك يُلْقَى فى النار ، فَأْذن لنا أن نطفئ عنه . فقال : هو خليلي ، وليس لى فى الأرض خليل غيره ، وأنا ربُّه ليس له ربّ غيرى ، فإن استغاث بكم فأغيثوه ، وإلا فدَعُوه !

قال : فجاء ملَكُ القَطْر فقال : يارب خليلُك يُلْقَى فى النار ، فَأْذن لى أطفئ عنه بالقَطْر . فقال : هو خليلي ليس لى فى الأرض خليل غيره وأنا ربه ليس له رب غيرى ، فإن استغاث بك فأَغِثْه وإلا فدَعه !

فلما أُلقى فى النار دعا ربَّه فقال الله تعالى : « يانار كُونِى بَرْداً وسلاماً على إبراهيم » فبردتْ يومئذ على أهل المشرق والمغرب فلم يَنْضج بها كُرَاع .

قال ابن عباس : لم يبقَ فى الأرض يومئذ نار إلا طفئت ، ظنَّت أنها هى التى تُعنَى ، ولو لم يُتْبِع بَرْدَها سلاماً لمات إبراهيم من بَرْدها .

أخبرنا أبو بكر ابن حبيب ، أنبأنا على بن صادق ، أنبانا أبو عبد الله الشِّيرازى ، حدثنا أبو العباس محمد بن الحسن الخشاب ، حدثنا أبو القاسم بن موسى ، حدثنا يعقوب ابن إسحاق ، قال سمعت أحمد بن حنبل رضى الله عنه وقد سئل عن التوكُّل قال : هو

---

(١) من ا . (٢) ب : عامة الملائكة .

قَطْع الاستشراف باليأس من الخَلْق . قيل له : فما الحجة فيه ؟ قال : قصة الخليل ، لمّا وضع في المنجنيق مع جبريل عليهما السلام ، لما قال[١] : أمّا إليك فلا . فقال له : فَسَلْ من لك إليه الحاجة . قال : أحبُّ الأمْرين إليّ أحبُّهما إليه .

قال علماء السِّيَر : لما أُلقى في النار أخذت الملائكة بضَبْعَيْه وأجلسوه على الأرض ، فإذا عينٌ من ماء عَذْب وورد أحمر ولم تَحْرق النار إلا وَثاقه . ونزل جبريل بقميص من الجنة وطِنْفِسة من الجنة فألبسه القميصَ وأجلسه على الطِّنْفِسة وقعد معه يحدِّثه ، فأقام هناكَ أربعين يوما . فجاء آزرُ إلى نمرود فقال : ائذن لى أن أُخرج عظام إبراهيم وأدفنها فخرج نمرود ومعه الناس ، فأمر بالحائط فنقِب ، فإذا إبراهيم فى رَوْضة تهتزّ ونباتها[٢] يَنْدَى وعليه القميص وتحته الطِّنْفِسة ، والملَك إلى جنبه [والماء يجرى فى جبينه[٣]] فناداه نمرود : يا إبراهيم إنّ إلهك الذى بلغَتْ قدرته هذا[٤] لكبير : هل تستطيع أن تَخْرج ؟ قال : نعم . فقام إبراهيم يمشى حتى خرج . فقال : من هذا الذى رأيتُ معك ؟ قال ملَك أرسله الله تعالى ليؤنسنى . فقال نمرود : إنى مقرِّب إلى إلهك قُرْباناً لما رأيتُ من قدرته فقال : إذاً لا يُقبلُ منك ما كنتَ على دينك . فقال : ياإبراهيم لا أستطيع أن أترك مُلكى ولكن سوف أذبح له . فذبح أربعة آلاف بقرة وكَفَّ عن إبراهيم .

سجع على قوله تعالى
﴿ قُلْنا يا نارُ كُونِى بَرْداً وسلاماً على إبراهيم[٥] ﴾

سبحان من أخرج هذا السيِّدَ من آزر ، ثم أعانه بالتوفيق فقصد وآزر ، ثم بعث إليه البيان[٦] فأعانَ ووازَر ، فلما رأيناه قد رحَل عن المنجنيق وسافر ولم يتزوّد إلا التسليم ، « قلنا يا نارُ كُونِى بَرْداً وسلاماً على إبراهيم » .

عبدٌ بذَل نفسه لنا فبلَّغْناه منّا المنَى ، وعرفناه المَناسك عند البيت ومِنًى ، ولما رُمِى

---

(١) ا : قال له . (٢) ب : وثيابه تندى . (٣) سقطت من ا . (٤) ب : إلى هذا .
(٥) سورة الأنبياء ٦٩ . (٦) ا : الثبات .

فى النار لأجلنا قلنا له بلسان التفهيم : « كُونى بَرْداً وسلاماً على إبراهيم » .

قدَّم ماله إلى الضِّيفان[١] ، وسلَّم ولده إلى القُرْبان ، واستسلَم للرَّمْى[٢] فى النيران ، فلما رأينا مُحِبًّا فى بَيْداء الوَجْد يَهيم « قلنا يا نار كونى بَرْداً وسلاماً على إبراهيم » .

ابتليناه بكلمات فأتمَّهن ، وأريناه قُدْرتنا يومَ « فَصُرْهُنَّ »[٣] وكسَر الأصنام غَيْرَةً لنا منهن ، فلما أُجِّجت النيران ذهبت بلطفنا[٤] حرارتُهن ، وغرَسْنا شجرَ الجنة فى سَواء الجحيم « قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم » .

بنَوْا له بنيانا[٥] إلى سفح جبل ، واحتطب من أجْله مَن شرِب وأكل ، وألقوه فيها وقالوا قداشتعل ، فخرج نمرود ينظر ماذا فعل ، وقد خرج توقيعُ القِدَم من[٦] القَديم : « يانارُ كونى بَرْداً وسلاماً على إبراهيم » .

اعترضه وتعرَّض لحوائجه المَلَكُ ، حين قَطع بيداء الهوى وسَلك ، فقال له بلسان الحال : مَعِى مَن مَلَك ، إيَّاك والتعريضَ بما ليس لك ، فلما لم يتعلَّق بخَلْقٍ دُونِى إذ أُضيم « قلنا يا نارُ كونى بَرْداً وسلاماً على إبراهيم » .

تعرَّضَتْ له الأملاك فكفَّها كفًّا ، فلما رأيناه لا يمدّ إلى غيرنا كَفًّا ، مدحناه ويكفى فى مَدْحناه [له[٧] :] « الذى وَفَّى » واجتمع الخلائق صفًّا ينظرون من صفا ، فلما أتانا فى وقت القَلْب بقلبٍ سليم[٨] : « قلنا يا نار كونى بَرْداً وسلاماً على إبراهيم » .

تنحَّ ياجبريل فماذا مَوْضع زحمة ، وخلِّنى وخليلى فإليه الرحمة ، وهل بَذاتُ له إلا لَحمة تَبلَى أو شَحْمة ، فلما وطَّن نفسه على أن يصير فحمة ، وحُوشِى من ذاك الكريم « قلنا يانار كونى بَرْداً وسلاماً على إبراهيم » .

كانت الملائكة تدَّعى الفناءَ بالطاعة[٩] ، فخرج هاروت وماروت فخسِرت البضاعة ،

---

(١) ا : للضيفان . (٢) ا . إلى الرمى . (٣) يشير إلى قوله تعالى : « فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم » سورة البقرة (٤) ب : بلطفه . (٥) ا : بيتا . (٦) ب : عن القديم . (٧) من ا . (٨) ا : فلما أتانا ورأينا القلب قلب سليم . (٩) ا : تدعى الطاعة .

وشاهدوا يومَ الخليل ما ليس لهم به استطاعة ، رأى ما رأى وما أزعجه ولا راعه ، فلما رأيناه ساكناً والأملاك فى مُقْعِد مُقِيم « قلنا يا نار كونى بَرْداً وسلاماً على إبراهيم » .

[قابل القومُ رسولنا بأقبح تـكذيب ، وقصدوا خليلَنا بأشدِّ تعذيب ، ونسوا يومَ الفزَعَ والتأنيب ، والخليلُ سِرّه صافٍ والحالُ مستقيم « قلنا يا نار كونى بَرْداً وسلاماً على إبراهيم »[1]] .

اللهم إنّا نتوسل إليك بالخليل فى مَنْزلته ، والحبيب فى رُتْبته ، وكلٌّ مخلص فى طاعته ، أن تغفر لـكلٍّ منا زَلَّته يا كريم برحمتك يا أرحم الراحمين .

(١) سقطت من ب .

المجلس الثامن

فى قصة بناء الكعبة

الحمد لله الملك الجليل ، المنزَّه عن النَّظِير والعَدِيل المنعِم بقبول القليل ، المتكرِّم بإعطاء الجزيل ، تقدَّس عما يقول أهلُ التعطيل ، وتعالى عما يعتقد أهل التمثيل ، نصَب للعقل على وجوده أوضحَ دليل ، وهدَى إلى وجوده أَبْين سبيل ، وجعل للحَسَن حظًّا إلى مِثْله يميل ، فأمر ببناء بيتٍ وَجلَّ عن السُّكنى الجليل « وإذْ يَرْفعُ إبراهيمُ القواعِدَ من البيتِ وإسماعيل (١) » .

ثم حمَاه لما قصده أصحاب الفيل ، فأرسل عليهم حجارةً من سِجِّيل .

أحمده كلَّما نُطِق بحمده وقيل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المنزه عن ما عنه قيل ، وأصلى على نبيه محمد النبي النبيل ، وعلى أبى بكر الصديق الذى لا يُبْغضه إلا ثقيل ، وعلى عمر وفضلُ عمر فضلٌ طويل ، وعلى عثمان وكم لعثمان من فعل جميل ، وعلى علىٍّ وجَحْد قَدْر علىّ تفغيل ، وعلى عمه العباس المستسقَى بشَيْبته فإذا السحب تسيل .

***

قال الله تعالى : « وإذ يَرْفع إبراهيم القواعدَ مِن البيتِ وإسماعيل » .

اختلف العلماء فى المبتدِئ ببناء البيت على ثلاثة أقوال : أحدها : أن الله تعالى وضَعه لا ببناء أحد . ثم فى زمن وَضْعه إياه قولان : أحدهما : قبلَ خَلْق الدنيا . قال أبو هريرة : كانت الكعبة حشَفَةً على الماء ، عليها ملَكان يُسَبّحان الليلَ والنهار قبل خَلْق الأرض بألفى عام . الحشَفَة : الأكَمَة الحمراء (٢) .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لما كان العرش على الماء قبل خلق السموات بعث الله تعالى ريحاً فصفقت الماء فأبرزت عن حشفة فى موضع البيت كأنها قبة ، فدحا الأرضَ من تحتها .

---

(١) سورة البقرة .   (٢) فى القاموس: الحشفة : صخرة تنبت فى البحر .

وقال مجاهد : لقد خلق الله تعالى موضعَ هذا البيت قبل أن يخلق شيئا من الأرض بألفى سنة ، وإنّ قواعده لفى الأرض السابعة السفلى .

وقال كعب : كانت الكعبة غُثَاء على الماء قبلَ أن يخلق الله السموات والأرض . بأربعين سنة .

وقد روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : كان البيت قبل هبوط آدم ياقوتة من يواقيت الجنة ، وفيه قناديل من الجنة فلما أهبط الله تعالى آدم أنزل عليه الحجر الأسودَ فأخذه فضمَّه إليه استئناساً به ، وحج آدم فقالت له الملائكة بَرَّ حجُّك ، لقد حجَجْنا هذا البيت قبلك بألفى عام . فقال : يارب اجعل له عُمَّارا من ذريتى . فأوحى الله تعالى : إنى مُعمِّره بأبناء نبىّ من ذريتك اسمه إبراهيم [(١)] .

القول الثانى : أن الملائكة بنَتْه . قال أبو جعفر الباقر : لماقالت الملائكة :« أتجعل فيها مَن يُفسد فيها » غضب عليهم ، فعاذوا بالعرش يطوفون حوله يسترضون ربهم ، فرضِى عنهم وقال : ابنوا فى الأرض بيتاً يعوذُ به كل من سخطتُ عليه ويطوفون حَوْله ، كما فعلتم بعرشى . فبنَوْا هذا البيت .

والثالث : أن آدم لما أُهبط أوحى الله إليه : ابنِ لى بيتا واصنع حوله كما رأيتَ الملائكةَ تصنع حول عرشى . رواه أبو صالح عن ابن عباس رضىالله عنهما . وروى عنه عطاء أنه بناه آدم من خمسة أَجْبُل : لبنان وطور سيناء وطور زيتا والجودِىّ وحِرَاء .

قال وهب : فلما مات آدم بناه بنوه بالطين والحجارة ، فنسفَه الغرَقُ . قال مجاهد : وكان موضعه بعد الغرق أكمة حمراء لا تعلوها السيولُ وكان يأتيها المظلوم ويدعو عندها المكروب .

***

قال علماء السِّيَر : لما سَلِم الخليل من النار خرج بمن معه من المؤمنين مهاجراً ، فتزوج سارَة بحرّان ، وقدِم مصر وبها فرعونٌ من الفراعنة ، فوصِف له حُسْنُها فبعث

(١) هذه الروايات التى ساقها ابن الجوزى فى أولية البيت الحرم ليس لها سند صحيح .

فأخذها ، فلما دخلت قام إليها فقامت تصلّي وتقول : اللهم إني آمنت بك وبرسولك وأحصنتُ فرجي إلا على زوجي ، فلا تسلِّط على الكافر . فغطّ حتى ركض الأرض برجله فقالت : اللهم إنْ يمتْ يقال هي التي قتلتْه . فأُرسِل . ثم قام إليها فدعت فغَطّ حتى ركض الأرضَ برجله ، ثم أرسل فقال : ردّوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجَر .

فوهبتْها لإبراهيم وقالت : لعله يأتيك منها ولد ، وكانت سارة قد مُنِعت الولد ، فولدت له إسماعيل فهو بِكْر أبيه ، ولد له وهو ابن تسعين سنة . فلما ولدت غارت سارة وأخرجتْها ، وحلفت لتَقْطعن منها بِضْعة . فخفضتْها ثم قالت : لا تُساكِنني في بلَدى .

فأوحى الله تعالى إليه أن يأتي مكة، فذهب بها وبابنها ، والبيت يومئذ رَبْوة حمراء فقال : يا جبريل أهنا أُمِرتُ أن أضعهما؟ قال:نعم . فأنزلهما موضع الحِجْر وأمر هاجر أن تتخذ فيه عَرِيشا .

أخبرنا عبد الأوّل، قال أنبأنا أبو الحسن الداودِيّ، قال أنبأنا ابن أَعْين السَّرَخْسِي، حدثنا أبو عبدالله العزيزى، حدثنا البخارى،حدثنا عبدالله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا مَعْمَر ، عن أيوب السَّخْتيانى ، وكثير بن كثير عن المطَّلب بن أبي ودَاعة ، يزيد أحدهما على الآخر ، عن سعيد بن جُبَير ، قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما : أولُ ما اتخذ النساء المِنْطَقة من قِبَل أمّ إسماعيل ، اتخذت منطقا لتعفّي أثرها على سارة . ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هناك ، ووضع عندهما جِرَابا فيه تمر وسِقَاء فيه ماء ، ثم قفّى إبراهيم منطلِقا ، فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها . فقالت له : الله أمَرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت إذاً لا يُضيعنا الله !

ثم رجعت .

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثَّنِيَّة حيث لا يَرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : ربِّ « إني أسكنتُ من ذريتي بوادٍ غير ذي زَرْع عند بيتِك المحرَّم(١) » حتى بلغ : يشكرون .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السِّقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوَّى من العطش ، أو قال يتلبَّط ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصَّفا أقرب جبل في الأرض يَليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا ، فلم تر أحد . فهبطت من الصَّفا ، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف دِرْعها ، ثم سعت سَعْيَ الإنسان المجهود ، حتى جاوزت الوادي فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : فلذلك سعَى الناسُ بينهما . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه . تريد نفسها ثم تسمَّعت أيضا فقالت : قد أسمعتَ إن كان عندك غَوَاث ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم . فبحثَ بعَقِبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء . فجعلت تُحَوِّضه(٢) وتقول بيدها وجعلت تَغْرِف من الماء في سقائها ، وهو يَفُور بعدَما تغرف . قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : يرحم الله أمَّ إسماعيل لو تركتْ زمزمَ أو قال : لو لم تَغْرِف من الماء لكانت زمزمُ عيناً مَعِينا .

قال : فشربت وأرضعت ولدَها فقال لها الملك : لا تخافي الضَّيعة ، فإنّ هذا بيتُ الله يبنيه هذا الغلامُ وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهلَه .

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرَّابية تأتيه السيولُ فتأخذ عن يمينه وعن شماله . فكانت كذلك حتى مرَّت بهم رُفْقة من جُرْهم مقبلين من طريق كُدًى(٣) فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفاً فقالوا إنّ هذا الطائر لَيدُور على ماء لَعهدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء . فأرسلوا جَرِيًّا(٤) أو جَرِيَّيْن فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا .

---

(١) سورة إبراهيم ٣٦ ، ٣٧ . (٢) تحوضه : تجعل له حوضاً ، أو تدور حوله . (٣) كدى ، كقرى ، جبل مسفلة مكة على طريق اليمن . وكدى كسمى ، جبل بقرب عرفة . (٤) الجرى : الأجير والرسول .

قال وأمُّ إسماعيل عند الماء قالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟قالت : نعم،ولـكن لا حقَّ لـكم فى الماء . قالوا : نعم .

قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليـه وسلم : فألفَى ذلك أمَّ إسماعيل وهى تحب الأُنس فنزلوا . وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم . حتى إذا كان بهـا أهلُ أبيات منهم وشبَّ الغلام وتعلَّم العربية منهم وأنفَسَهم(١) وأعجَبهم حين شبَّ . فلمـا أدركَ زوَّجوه امرأةً منهم وماتت أمُّ إسماعيل .

فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيلُ يطالع ترِكته، فلم يجد إسماعيلَ فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغى لنا . ثم سألها عن عِيشتهم وهيأتهم فقالت:نحن بشرٍّ ، نحن فى ضيق وشدة وشـكت إليه . قال:إذا جاء زوجُك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغيِّر عتبةَ بابه . فلمـا جاء إسماعيلُ كأنه آنسَ شيئا فقال : هل جاءكم من أحدٍ ؟ قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرتُه، وسألنى كيف عَيْشنا فأخبرته أنَّا فى جَهْد وشدة . قال: فهل أوصاكِ بشىء ؟ قالت : نعم ، أمرنى أن أقرأ عليك السلام ويقول: غيِّر عتبةَ بابك . قال : ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك . الحقى بأهلِك . فطلَّقهـا وتزوج منهم أخرى . فلبث عنهم إبراهيمُ ما شاء الله ، ثم أتاهم بعدُ فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغى لنا . فسألها عن عيشتهمْ وهَيْأتهم فقالت : نحن بخير وسعة وأثنت على الله عز وجل . فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم . قال : فما شرابكم ؟ قالت : المـاء . قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ ، ولو كان لهم دعا لهم فيـه . قال : فهما(٢) لا يخلو عليهمـا أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه . قال : فإذا جاء زوجُك فاقرئى عليـه السلام ومُريه يثبِّت عتبـة بابه . فلمـا جاء إسماعيلُ ، قال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم جاءنا شيخٌ حسن الوجه ، وأثنت عليه ، فسألنى عنك فأخبرته ، فسألنى كيف عَيْشنا فأخبرته أنَّا بخير . قال :

(١) أنفسهم : أعجبهم . (٢) يريد اللحم والماء .

فأوصاكِ بشيء ؟ قالت : نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبِّت عتبة بابك . قال : ذاك أبى وأنت العتبة ، أمرنى أن أُمسككِ .

ثم جاء بعد ذلك وإسماعيلُ يَبْرِى نَبْلاً له تحت دَوْحة قريبا من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يفعل الوالدُ بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : يا إسماعيل إنّ الله قد أمرنى بأمرٍ . قال : فاصنع ما أمرك ربك . قال : وتُعينني ؟ قال : وأعينك . قال : فإن الله تعالى قد أمرنى أن أبنى ها هنا بيتاً . وأشار إلى أَكَمة[1] مرتفعة على ما حَوْلها .

فعند ذلك رفع القواعدَ من البيت .

فجعل إسماعيلُ يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : « ربَّنا تقبَّلْ منَّا إنك أنتَ السميعُ العليم » .

انفرد بإخراجه البخارى[2] .

***

قال علماء السِّيَر : لما أُمر الخليل عليه السلام ببناء البيت قال : يا رب بيِّن لى صفتَه فأرسل الله تعالى سحابةً على قَدْر الكعبة ، فسارت معه حتى قدِم مكةَ ، حتى وقفت فى موضع البيت ونودِى : ابنِ على ظِلِّها لا تَزِد ولا تنقص .

وكان جبريلُ حينَ الغرق قد استودَع أبا قُبَيس الحجَر الأسودَ ، فلما بَنَى إبراهيمُ البيتَ أخرجه إليه فوضعه .

أخبرنا الكَرُوخِيّ ، أنبأنا الغُورَجِيّ ، أنبأنا الجرّاحِى ، حدثنا المحبوبى ، حدثنا الترمذى ، حدثنا قتيبة ، حدثنا جرير ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نزل الحجر الأسودُ من الجنة وهو أشدُّ بياضاً من اللَّبَن فسوَّدته خطايا بنى آدم .

***

(١) الأكمة : التل . (٢) صحيح البخارى ٢/١٠٨ « كتاب بدء الخلق » .

قالوا : وولد لإسماعيل اثنا عشر ولدا واتخذه الله نبيًا ، وبعثه إلى العماليق وجُرْهم وقبائل اليمن ، فنهاهم عن عبادة الأوثان وتوفيت هاجرَ وهى بنت تسعين سنة ولإسماعيل عشرون سنة ، فدفنها فى الحِجْر وعاش مائة وسبعا وثلاثين سنة ، وكان قد شكا إلى ربه حرَّ مكة ، فأوحى الله تعالى إليه أنى أفتح لك بابا من الجنة فى الحِجْر يجرى عليك منه الرَّوْح إلى يوم القيامة . وفى الحجر قبره .

ولما توفى دبَّر أهلُ الحرم بعدَه ابنَه نابت ، ويقال نَبْت ، ثم غلبت جُرْهُم على البيت وانهدم ، فبنتْه العمالقة ، ثم بنته جرهم .

***

وقصَده أصحابُ الفيل .

وكان السبب أنّ أبرهة بنى كنيسةً وأراد أن يَصْرف إليها الحجَّ ، فسمع بذلك رجلٌ من العرب فأحدثَ فيها ، فغضب أبرهةُ وقصَد الكعبةَ ، فلما دنا من مكة أغار أصحابُه على نَعم الناس فأصابوا إبلاً لعبد المطلب ، ثم قال لبعض أصحابه : سَلْ عن شريف مكة . فأُتى بعبد المطلب ، فقال له : ما حاجتُك ؟ قال : حاجتى أن تردَّ علىَّ إبلى . قال : أوَلا تسألنى عن بيتٍ هو دِينك ودين آبائك ؟ فقال : أنا ربُّ هذه الإبل ، ولهذا البيت ربٌّ يمنعه !

فأمَر قريشا أن يتفرقوا فى الشِّعاب وأخذ بحَلْقة باب الكعبة وقال :

يا ربِّ لا أرجو لهم سِوَاكا ... يارب فامنَعْ منهمُ حِمَاكا
إنّ عدوَّ البيتِ من عادَاكَا ... امنعهمُ أنْ يُخْرِبوا قُرَاكا

ثم قال :

لاهُمَّ إنّ المرء يَمْنع رَحْـلَه ... وحِلَاله فامنع رِحَالكْ(١)
لا يَغْلِبنَّ صَلِيبُهم ... ومِحَالُهم غَـدْواً مِحَالكْ(٢)
جرُّوا جمـوعَ بلادهم ... والفيلَ كى يَسْبُوا عِيَالكْ

(١) فى سيرة ابن هشام : .. يمنع رحله فامنع رحالك . (٢) غدوا : غدا ، استعمل تاما فى هذا الوضع .

عَمــــدوا حِماكَ بكيدهمْ   جهــــلاً وما رَقَبُوا جَلالكْ
إن كنتَ تاركَهم وكعبتَنا   فأمْـــــرٌ ما بدَا لك

فبعث الله تعالى عليهم طيورا رءوسها كرءوس السِّباع ، وقيل كأمثال الخطَاطيف مع كل طير ثلاثة أحجار : حجران فى رجليه وحجر فى منقاره ، وكانت كأمثال الحِمّص ، وقيل كرأس الجمل ، فكانت تقع على الرجل فتَخْرج من دُبره .

والأبَابيل : جماعات متفرقة ، والسِّجِّيل : الشديد الصلب ، والعَصْف : تِبْن[1] الزرع وورَقه .

ثم بنته قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ شاب ، ثم بناه ابنُ الزُّبير ، ثم نقضَه الحجاجُ وبناه .

سبحان من اختص من عباده الأخيار ، فجعل منهم الأنبياء والأبرار ، وأبعَد العصاة والفجار « وربُّك يَخْلقُ ما يشاء ويختار »[2] .

الكلام على البسملة

تُزيِّن أعمــــالًا خَواتيمُها   فانسكْ وزيِّن عَملاً بالخِتامْ
أفْضلُ ما زُوِّدت زادُ التُّقَى   وشَرُّ ما تحمــل زادُ الأثامْ
والجسم يُنْسيه البِلَى فى الثَّرى   ما كان عانَى من خطوبٍ جِسَامْ
أخاصِم القلبَ لإعراضــــه   عن الهدى وهو ألدُّ الخصامْ
ويَحْطِم السِّنُّ أخا كثرةٍ   وهمُّه مُتصــــلٌ بالحُطامْ
كأن عُمْرى مَرْكب سار بى   حتى إذا بلـــغ الحينْ قام
سهِّد هــــذا الخلقُ فى شأنهم   تمَّتْ لأقوام أناموا الأنام

* * *

ليأتينك من الموت ما لا يقبل رِشْوة ومالاً ، إذا مالَ على القوم والقُويم مالًا ،

---

(١) فى القاموس : وكعصف مأكول: أى كزرع أكل حبه وبقى تبنه ، أو كورق أخذ ما كان فيه وبقى هو لاحب فيه ، أو كورق أكلته البهائم .   (٢) سورة القصص ٦٨ .

يا مختار الهوى جهلاً وضلالا ، لقد حمّلت أزْرك أوزارا ثقالا ، إياك والمنَى فكم وعَد المنَى مُحالّا ، كم قال الطالب نعم نعم سأعطَى نوالا ثم نوالا ، كم سقاَ من الحسرات كئوسا ، وفرّغ رَبْعا بعد أن كان مأنوسا ، وطمس بهَوْله بُدورا وشموسا ، وأغمض عيونا ونكّس رءوسا ، وأَبْدل الترابَ عن الثياب ملبوسا :

إذا كان ما فيه الفتى عنه زائلا ... فسيّان فيه أدرك الحظَّ أو أخطَا
وليس يَفِي يوماً سرورٍ وغِبْطةٍ ... بحزنٍ إذا المعطِى استردَّ الذى أعطَى

لقد وعظ الزمنُ بالآفات والمحن ، لقد حدَّث من لم يظعن بالظَّعن ، وخوَّف المطلَق بالمرتَهن ، تالله لو صفَتْ الفِطنُ لأبصرتْ ما بطَن ، إخوانى : أمر الموت قد علَن ، كم طَحْطَح الردَى وكم طحن ، يا بائعا لليقين مشتريا للظّن ، يا مُؤْثراً الرذائل فى اختيار الفتن ، إن السرور والشرور فى قرَن .

***

أجلُّ هِباتِ الدهرِ تركُ المواهبِ ... تمدُّ لما أعطاك راحةَ ناهبِ
وأفضلُ من عيش الغِنِى عيشُ فاقة ... ومن زِيِّ مَلْكٍ رائقٍ زيُّ راهبِ
ولى مَذْهب فى مجرَى الإنسَ نافعٌ ... إذا القومُ خاضُوا فى اختيار المذاهبِ
أرانا على الساعاتِ فُرْسانَ غارةٍ ... وهُنَّ بنا يجرين جرْىَ السَّلاهبِ
ومما يزيد العيشَ إخْلاق مَلْبَس ... تأسُّف نفسٍ لم تُطِقْ ردَّ ذاهبِ

لقد تكاثفت ذنوبُك يركب بعضها بعضا ، وتعاظمت عيوبك فملأت الأرض طُولا وعرضا ، وهذا الموت يركض نحو روحك ركضاً ، وعندك من الدنيا فوق ما يكفِى وما ترضَى ، أأمنت على مبسوط الأمل بَسْطاً وقَبْضا ، كم حصر الردى إذا أتى غُصنا غَضًّا ، كم بَلْبَل بالّا وما بالَى هَدْماً ونقضا ، اسمع منى قولّا نَفُوعا ونصحا مَحْضاً ، كم قد جَنيْتَ طويلا فكن من اليوم ذليلا أرضا .

قال ذو النون المصرى رحمه الله عليه : لقيتُ جارية سوداء قد استلبها الولَه من

حُبّ الرحمن شاخصةً ببصرها نحو السماء فقلت : علّميني شيئا مما علمك الله . فقالت : يا أبا الفيض ، ضع على جوارحك نيران القِسْط حتى يذوب كلُّ ما كان لغير الله ، فيبقى القلبُ مُصفًّى ليس فيه غير الرب عز وجل ، فعند ذلك يقيمك على الباب ويولّيك ولايةً جديدة ويأمر الخُزّانَ لك بالطاعة . فقلت : زِيدبني رحمك الله ! فقالت : خذ من نفسك لنفسك وأطْع الله إذا خلوتَ بحبك إذا دعوت .

ثم ولّتْ عنى وتركتنى .

***

إخوانى : من النفوس نفوس خُلقت طاهرةً ، ونفوس خلقت كَدِرة . وإنما تصلح الرياضة فى نجيب . الجلودُ الطاهرة إذا وردت عليها النجاسةُ يطهّرها الدّبّاغ لأن الأصل طاهر ، بخلاف جلد الخنزير !

للنفوس الخيّرة علامات : الجِدُّ فى الغالب ، والحذَر من الزلل ، والاحتقار للعمل ، والقلق من خوف السابقة ، والجزَع من حَذر الخاتمة ، فترى أحدهم يستغيث استغاثة الغريق ، ويلجأ لَجْأ الأسير ، الذلُّ لباسه وسهَر الليل فراشه ، وذِكر الموت حديثه ، والبكاء دأبه .

بات عُتْبة الغُلَام ليلةً على ساحل البحر ، فجعل يقول : إنْ تعذّبنى فإنى لك مُحِبّ ، وإن ترحمنى فإنى لك محب . فلم يزل يرددها ويبكى إلى الصباح .

وكان عابد يقول : يا إخوتاه ابكوا على خوف فوات الآخرة حيث لا رجعة ولا حيلة . لما أسرَ النومُ سار القومُ ، فقطّع نفسَك باللوم اليوم :

يا مقلةً راقدة لم تَدْر بالساهِدَة
كأنها سهّرت نجومَها الراكدَة
بدا سُهَيلٌ لها فانحرفت عائدَة
كأنه درهمٌ رمتْ به الناقدَة

يا نفسُ لا تجزعِى ... قد تجدُ الفاقدة
أىُّ الورَى خالدٌ ... أنفسهم واحدَة
والموتُ حوضٌ لها ... وهى له واردَة
حائدة جُهْدَها ... إنْ سلمت حائدة
فى كل فَجٍّ لها ... منيَّة راصدة
تفِرُّ من حَتْفها ... وهى له قاصدة
لا تُخْدَعنَّ بالمنَى ... قد تَكْذِب الرائدة
هانَ على ميِّت ... ما تجد الواجدة

الكلام على قوله تعالى

﴿ فى بيوتٍ أذِنَ الله أن تُرْفَع ويُذْكر فيها اسمه[١] ﴾

البيوت هاهنا : المساجد و« أذِنَ » بمعنى أمَر . و « تُرْفَع » بمعنى تُعظَّم و «اسمهُ» توحيده وكتابه .

وفى أفراد مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أحبُّ البلادِ إلى الله تعالى مساجدها وأبغَض البلاد إلى الله تعالى أسواقها » .

وفى الصحيحين من حديث عثمان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من بنَى لله عز وجل مسجداً بنَى الله له مثلَه فى الجنة » . وفيهما من حديث أبى هريرة قال : «من غدَا إلى المسجد وراح أعدَّ الله له فى الجنة نزُلا[٢] كلّما غدا أو راح».

أخبرنا يحيى بن على ، أنبأنا أبو جعفر بن المسلِمة ، وأنبأنا سعيد بن أحمد ، حدثنا على ابن أحمد بن البُسْرى ، قالا أخبرنا المخلِّص ، حدثنا البغَوى ، حدثنا عبد الجبار بن عاصم ، حدثنى عبيد الله بن عمرو ، عن زيد بن أنيسة ، عن عَدِى بن ثابت ، عن أبى حازم الأشجعى ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تطهَّر فى بيته

(١) سورة النور ٣٦ . (٢) صحيح البخارى ١/٩٥ : « أعد الله له نزله فى الجنة » .

ثم مشى إلى بيتٍ من بيوت الله ليقضى فريضةً من فرائض الله كانت خُطْوتاه إحداها تحُطّ خطيئةً والأخرى تَرْفع درجة » .

أخبرنا هِبَة الله بن محمد ، أنبأنا الحسن بن على ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبدالله ابن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا هاشم، حدثنا ليث ، حدثنى سعيد ، يعنى المقبُرى ، عن أبى عبيدة ، عن سعيد بن يسار ، أنه سمع أبا هريرة يقول : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لايتوضأ أحدٌ فيحسن وضوءه ويُسْبغه ثم يأتى المسجدَ لا يريد إلا اللهَ فيه إلا تبَشْبَش (١) الله به كما تبشبش أهلُ الغائِب بطلعته » .

***

قوله تعالى : « يسبِّح له فيها بالغُدوِّ والآصَالِ » : قال الزَّجاج لا خِلاَف (٢) بين أهل اللغة أن التسبيح هو التنزيه لله عز وجل عن كل سُوء . والغُدوّ جمع غُدْوَة . والآصال جمع أُصُل ، وأُصل جمع أصِيل ، فالآصال جَمْع الجمع . والآصال : العشيات .

وللمفسرين فى المراد بهذا التسبيح قولان : أحدهما أنه الصلاة . ثم فى صلاة الغدوّ قولان : أحدهما أنها الفجر ؛ رواه ابن أبى طلحة عن ابن عباس . والثانى : صلاة الضحى وروى ابن أبى مُلَيْكة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إن صلاة الضحى لَفِى كتاب الله وما يغوص عليهما غوّاص ثم قرأ : « يسبِّحُ له فيها بالغدوِّ والآصَالِ » .

وفى صلاة الآصال قولان : أحدهما : أنها الظهر والعصر والمغرب والعشاء . قاله ابن السائب . والثانى : صلاة العصر . قاله أبو سليمان الدمشقى .

قوله تعالى : « رجالٌ لا تُلْهِيهم تِجارَة ولا بَيْعٌ عن ذِكْر الله » أى لا تَشْغلهم .

قال ابن السائِب : التجار الجلّابون والباعة المقيمون .

وفى المراد بذكر الله ثلاثة أقوال : أحدها : الصلاة المكتوبة . قاله ابن عباس . وروى سالم عن ابن عمر أنه كان فى السوق فأقيمت الصلاة فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا

---

(١) تبشبش به : آنسه وواصله . وهو من الله تعالى : الرضا والإكرام. (٢) ب : الاختلاف محرفة.

المسجد فقال ابن عمر : فيهم . نزلت : « رجالٌ لا تُلْهيهم تِجَارةٌ ولا بَيْعٌ عن ذِكْر الله » .
والثانى : أنه القيام بحق الله تعالى. قاله قتادة . والثالث : ذكر الله تعالى باللسان . قاله أبو سليمان الدمشقى .

قوله تعالى : « وإقَامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاة » أى أداؤها لوقتها وإتمامها .
قال سعيد بن المسيِّب رضى الله عنه : ما أذَّن المؤذِّن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا فى المسجد . وقال سُفيان بن عُيَيْنة : لا تكن مثلَ عبد السوء لايأتى حتى يُدْعَى ، ايتِ الصلاة قبل النداء .

أخبرنا المبارك بن أحمد الأنصارى ، أخبرنا الحسين بن عبد الجبار ، أخبرنا محمد ابن على بن الفتح ، أنبأنا على بن الحسين بن سكينة ، أنبأنا محمد بن القاسم ، حدثنا أبو بكر ابن عبيد ، أنبأنا أبو الحسين ابن أبى قيس ، أنبأنا سُوَيد بن سعيد ، أنبأنا على بن مُسْهِر ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن شَهْر بن حَوْشَب ، عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا جَمع الله الأوَّلين والآخِرين يومَ القيامة جاء منادٍ ينادى بصوت يُسْمع الخلائق : سيعلم الخلائقُ اليومَ من أوْلَى بالكرم . ثم يرجع فينادى: فليقم الذين كانوا لا تُلْهيهم تجارةٌ ولا بيْع عن ذِكر الله . فيقومون وهم قليل . ثم ينادى : ليقم الذين كانوا يحمدون الله عز وجل فى السَّرّاء والضرّاء . فيقومون وهم قليل . ثم يرجع فينادى : أين الذين كانت تتجافى جنوبُهم عن المضاجع [فيقومون [1]] وهم قليلون . ثم يحاسب الناس .

قال بعض الزهاد : رأيت رجلا قد أقبل من بعض جبال الشام فسلّمت عليه فردَّ ووقف ينظر كالحيران ، فقلت له : من أين أقبلتَ ؟ فقال : من عند قوم ٍ لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . فقلت : وأين تريد ؟ قال : إلى قوم تتجافى جُنوبهم عن المضَاجع . ثم قال : واأسفا ! قلت : على ماذا ؟ قال : على ما هم فيه إذ كانوا بأعمالهم على طريق نجاتهم .

---

(١) سقطت من ب .

النا سكون يحاذرو ن وما بسيئةٍ ألمُّوا
كانوا إذا رامُو كلا مًا مُطْلقا خَطَمُوا وزَمُّوا
إنْ قِيلت الفحشاء أو ظهرت عَمُوا عنها وصَمُّوا
فمضَوا وجاء مَعاَ شِرٌ بالمنكَرات طَمُوا وطمُّوا(١)
فَفَمٌ لطُعمٍ فاغِـــــرٌ ويدٌ على مالٍ تُضَمُّ
عدلوا عن الحسَن الجميـ ل وللخَنَا عَمَدوا وأمُّوا
وإذا همُ أعيتْهـــمُ شَنْعاهمُ(٢) كذبوا ونمُّوا
فالصدرُ يَغْلى بالهـــوا جس مثلَ ما يَغْلى المُحَمُّ(٣)

***

قوله تعالى : « يخافون يوماً تتقلَّبُ فيه القلوبُ والأبصار » تصعد القلوب إلى الحناجر وتنقلب الأبصار إلى الزرق عن الـكَحَل ، والعمَى بعد النظر .

أخبرنا ابن الحصَيْن ، قال أنبأنا ابن المذهب ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، أخبرنا عبد الله ابن أحمـد ، حدثنى أبى ، حدثنا سليمان بن حيان ، أخبرنا ابن عون ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «يقوم أحدهم فى رَشْحه إلى أنصاف أذنيه» .

أخبرنا عبد الأول ، حدثنا الداوودِى ، حدثنا ابن أَعْيَن ، حدثنا الفَرَبْرِىّ(٤) حدثنا البخارىّ ، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنى سليمان ، عن ثور بن زيد ، عن أبى الغيث ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « يعرق الناسُ يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين ذراعا ويُلْجِمهم حتى يبلغ آذانهم » .

الحديثان فى الصحيحين . وفى لفظٍ : « سبعين باعا » قال . مغيث بن سمىّ : تركز

---

(١) طموا امتلأوا . يقال: طمى الماء يطمى طميا : علا . والنبت طال، والبحر امتلأ . وطموا : طفوا ، يقال : طم الماء : غمر . (٢) شنعاهم : شنعاؤهم . والشنعاء : الصفة الشنيعة القبيحة .

(٣) المحم : الساخن . (٤) الفربرى : أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح الفربرى ، راوية صحيح البخارى عنه ، ينسب إلى فربر ، وهى بلدة على طرف جيحون مما يلى بخارى ، ولد سنة ٢٣١ ومات سنة ٣٢٠ هـ اللباب ٢/٢٠٢ .

الشمس فوق رءوسهم على سبعة أذرع وتُفْتح أبواب جهنم فيهب عليهم من رِياحها وسَمومها ويخرج عليهم من نُفاحها(١) حتى تجرى الأنهار من عرقهم. والصائمون فى ظل العرش.

***

يا من لا يَرْدعه ما يسمعه، يا من لا يُقنعه ما يجمعه، أما القبرُ عن قريب موضِعه، أما اللحدُ عن قريب مَضْجَعه، أما يرجع عنه من يشيّعه ويأخذ ماجمعه أجمَعَه، كم يَخْرق خَرْقًا بالخطأ ثم لا يَرْقعه، كم يحطُّه القبيح والنصح يرفعه، كم يَعْلم غرورَ الهوى وهو يَتْبعه:

لا تَعْذِلَنْه فإنّ العذل يُولِعه قد قلتَ حقًّا ولكن ليس يَسْمعه(٢)

أشرف راهبٌ من الرهبان من صومعته فإذا رجل جالس فقال: يا هذا ما جلوسك هاهنا؟ فقال له: اسكت يا فارغ القلب ودع التشاغل بغيره فإنه منك قريب! فصرخ الراهب وخرّ مغشيًا عليه، فلما أفاق قال: سيدى لك العُتْبَى لا أعود فيما يقطعنى عنك. فصمت عن الكلام حتى مات.

كم غرّ الغرور غِرًّا، أمدّ له أطْناب الطمع على أوتاد الهوى، وسامَره فى خَيْمة المُنَى يمْلى عليه أمالِى الآمال، وما أجال فيما جال سَهْو ذِكْر الآجال، ثم وجّه إلى جهة الجهل والغفلة، فسلَّما إليه منشورَ التسويف، فلما ضُرب بُوق الرحلة وقرِّبتْ نوق النقْلة سَلّ ما سلّما إليه، فأُلقِى كالْلَّقَى على باب الندم!

إلامَ أُمَنِّى النفسَ مالا تناله وأذكر عيشًا لم يَعُدْ مذ تصرّمَا
وقد قالت السِّتون لِلَّهو والصِّبا دعا لِى أسيرى واذهبا حيث شئتما

أخبرنا محمد بن عبدالملك، أنبأنا أحمد بن الحسين الشاهد، حدثنى عبد العزيز بن على،

---

(١) نفاحها: ريحها وحرها (٢) كذا بالأصل. والبيت لأبى نواس ونصه:

لا تعذليه فإنّ العذلَ يولعه قد قلتِ حقًّا ولكن ليس يسمعه

حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد الحافظ، أخبرنا إبراهيم بن نصر ، حدثنى إبراهيم بن بشّار ، قال سمعت إبراهيم بن أدهم يقول لرجل رآه يضحك : لا تَطْمعن فى بقائك وأنت تعلم أن مصيرك إلى الموت ، فلِمَ يضحك من يموت ولا يدرى أين مصيره : إلى الجنة أم إلى النار ، ولا يدرى أىَّ وقتٍ يكون الموت : صباحاً أو مساء ، بليلٍ أو نهار . ثم قال : أوه وسقط مغشيا عليه .

سجع على قوله تعالى

﴿ يخافون يوماً تتقلَّب فيه القلوبُ والأبصار ﴾

لو رأيتَ أرباب القلوب والأسرار ، وقد أخذوا أُهْبة التعبّد فى الأسحار ، وقاموا فى مقام الخوف على قدم الاعتذار « يخافون يوماً تتقلبُ فيه القلوبُ والأبصار » .

عقدوا عزم الصيام وما جاء النهـار ، وسجنوا الألسنة فليس فيهم مِهْذار ، وغضُّوا أبصارهم ولازِمٌ غضُّ الأبصار ، فانظر مدحهم إلى أين انتهى وصار ، أحزانهم أحزان ثَكْلَى مالها اصطبار ، ودموعهم لولا التحرِّى لقلت كالأنهار ، ووجوههم من الخوف قد علاها الصفار ، والقلق قد أحاط بهم ودار ، « يخافون يوماً تتقلبُ فيه القلوب والأبصار » .

جَدُّوا فى انطلاقهم إلى خَلاَّقهم ، وراضوا أنفسهم بتحسين أخلاقهم ، فإذا بهم قد أذابَهم كَرْبُ اشتياقهم ، أتدرى ما الذى حبسك عن لحاقهم : حبُّ الدرهم والدينار .

أيقظنا الله وإياكم من هذه السِّنَة ، ورزقنـا اتباع النفوس المحسِنة ، وآتانا فى الدنيا حسَنة وفى الآخرة حسنة ، ووقانا عذابَ النار .

المجلس التاسع

فى ذكر إسحاق وقصة الذبح

الحمد لله الذى أنشأ وبرا ، وخلق الماء والثرى ، وأبدع كل شىء ذرا ، لا يغيب عن بصره دبيبُ النمل فى الليل إذا سرى ، ولا يَعْزب عن علمه ما عنَّ وما طرا ، اصطفى آدم ثم عفا عما جرى ، وابتعث نوحاً فبنى الفُلْك وسرى ، ونجَّى الخليل من النار فصار حرُّها ثرى ، ثم ابتلاه بذَبح الولد فأدهشَ بصبْره الورى « يا بُنَىَّ إنِّى أرى فى المنامِ أنى أذبحك فانْظر ماذا ترَى » .

أحمده ما قُطع نهارٌ بسَيْر وليلٌ بسُرَى ، وأصلى على رسوله محمد المبعوث فى أم القُرى ، وعلى أبى بكر صاحبه فى الدار والغار بلا مِرا ، وعلى عمر المحدِّث عن سِرّه فهو بنور الله يَرى ، وعلى عثمان زوج ابنته ما كان حديثا يُفْترى ، وعلى علىٍّ بحر العلوم وأَسَد الشَّرى ، وعلى عمه العباس الرفيع القَدْر الشامخ الذُّرى .

قال الله : « فَلَمَّا بلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يا بُنَىَّ إنِّى أرَى فى المنَامِ أنِّى أَذْبَحُكَ فانظر ماذا ترَى[1] » .

المراد بالسعى : مشيه معه وتصرّفه ، وكان حينئذ ابنَ ثلاث عشرة سنة ، وهذا الزمان أحبُّ ما يكون الولَد إلى والده ، لأنه وقتٌ يستغنى فيه عن مشقة الحضانة والتربية ، ولم يبلغ به وقت الأذَى والعقوق ، فكانت البلوى أشد .

***

وللعلماء فى الذبيح قولان : أحدهما : أنه إسماعيل . قاله ابن عمر وعبد الله بن سلام ، والحسن البصرى وسعيد بن المسيّب والشَّعْبى ومجاهد ويوسف بن مهران والقُرَظى ، فى آخرين .

والثانى : أنه إسحاق .

أخبرنا على بن عبيد الله ، وأحمد بن الحسين وعبد الرحمن بن محمد . قالوا أنبأنا

---

(١) سورة الصافات ١٠٢ .

عبد الصمد المأمون ، أنبأنا على بن عمر الحَرْبىّ ، حدثنا أحمد بن كعب ، حدثنا عبد الله ابن عبدالمؤمن ، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ، عن المبارك بن فضالة ، عن الحسن ، عن الأحنف بن قيس ، عن العباس بن عبد المطلب ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : الذبيح إسحاق

وهذا قول عمر وعلى والعباس وابن مسعود وأبى موسى وأبى هريرة وأنس وكعب ووهب ومسروق ، فى خَلْق كثير . وهو الصحيح[١] .

أخبرنا الحسين ، أنبأنا أبو طالب بن غَيْلَان ، أنبأنا أبو بكر الشافعى ، حدثنا الهيثم ابن خلف ، حدثنا أبو كريت ، حدثنا زيد بن الُحبَاب ، عن الحسن بن دينار ، عن على ابن زيد بن جُدْعان ، عن الحسن[٢] ، عن الأحنف بن قيس ، عن العباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سأل داود عليه السلام ربه فقال : إلهى أسمع الناسَ يقولون : إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب . فاجعلنى رابعاً . فقال[٣] : لستَ هناكَ ، إن إبراهيم لم يَعْدِل بى شيئاً إلا اختارنى عليه، وإنّ إسحاق جاد لى بنفسه ، وإن يعقوب فى طول ما كان لم يَيْأس من يوسف » .

***

وأما سبب أمره بذبحه : فروى السُّدِّى عن أشياخه ، أن جبريل لما بشَّر سارة بإسحاق قالت : ما آية ذلك ؟ قال : فأخذ عوداً يابسا فى يده فلوَاه بين أصابعه فاهتزَّ خَضِرا[٤] ، فقال إبراهيم : هو[٥] لله إذًا ذَبِيح. فلما كَبِر إسحاق أُتِىَ إبراهيمُ فى النوم

(١) هذا الذى ذهب إليه ابن الجوزى من أن الصحيح أن الذبيح هو إسحق : غير صحيح . قال ابن كثير: « الظاهر من القرآن أن الذبيح هو إسماعيل ، بل كأنه نص عليه ، لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده : «وبشرناه بإسحاق نبيامن الصالحين» ومن جعله حالا فقد تكلف . ومستند أنه إسحق إنما هو إسرائيليات. وكتابهم فيه تحريف ولا سيما ها هنا قطعا لا محيد عنه ، فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده وفى نسخة من المعربة : بكره إسحق . فلفظة إسحق هاهنا مقحمة مكذوبة مفتراة ، لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر إنما ذاك إسماعيل . وإنما حملهم على هذا حسد العرب ، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإسحق والد يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ الذى ينتسبون إليه ، فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم ، فحرفوا كلام الله وزادوا فيه ، وهم قوم بهت ، ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » وانظر قصص الأنبياء لابن كثير بتحقيق ١ / ٢١٤ ـ ٢١٧. وتفسير ابن كثير أيضا . (٢) ا : ابن الحصين . (٣) ا : قال . (٤) ا : أخضر .
(٥) ا : فهو .

فقيل له : أَوْفِ بنَذْرِكَ . فقال لإسحاق : انطلق نقرِّب قرباناً إلى الله . وأخذ سكيناً وحبلاً ، ثم انطلق معه حتى إذا ذهب بين الجبال فقال له الغلام : يا أبت أين قُرْبانك ؟ قال:«يا بنيَّ إنِّى أرَى فى المنام أنِّى أذْبَحك»فقال إسحاق:اُشْدد رباطى كى لا أضطَرب[١]، واكفف ثيابك لا ينتضح عليهـا من دمى فتراه سارة فتحْزن ، وأَسْرِع مَرَّ السكين على حَلْقى ليـكون أهونَ للموت علىَّ ، وإذا أتيت سارة فاقرأ عليها السلام منى .

فأقبل عليه إبراهيم يقبّله ويبكى،وربطه وجرَّ السكين على حلقه فلم تَذْبح[٢] السكين. وقال غيره : انقلبَتْ . فنودِى : « يا إبراهيمُ قَدْ صدَّقْتَ الرؤيَا » فإذا بكبشٍ فأخذه وخلَّى عن ابنه وأكبَّ عليه يقبِّله[٣] ويقول : يا بنىَّ اليوم وُهِبْت لى . ورجع إلى سارة فأخبرها الخبر فقالت : أردت أن تَذْبح ابنى ولا تُعْلمنى ؟ !

قال شُعَيب الجبَّائِىّ : لما علمتْ بذلك ماتت فى اليوم الثالث .

وإنما قال : « فانظُرْ ماذا تَرَى » أى ما عندكَ من الرأى ، ولم يقل ذلك على وجه المؤامرة فى أمر الله سبحانه « قال يا أبتِ افعلْ ما تُؤمر » أى ما أُمِرتَ .

« فلَمَّا أَسْلَمَا » أى استسلما لأمر الله سبحانه ورضيا[٤] وفى جواب هذا قولان : أحدهما أن جوابه « ناديناه » والواو زائدة . قاله الفرَّاء . والثانى : أنه محذوف تقديره سَعِد[٥] وأُثيبَ .

قوله تعالى : «وتَلَّهُ لِلْجَبِينِ» قال ابن قتيبة : صرَعه على جبينه فصار أحد جَبِينَيْه[٦] على الأرض وهما جبينان والجبهة بينهما . « ونادَيْنَاه » قال المفسرون : نودى من الجبل: « يا إبراهيمُ قَدْ صَدَّقتَ الرؤيَا » وفيه قولان : أحدهما قد عَمِلتَ بما أُمرت به . وذلك أنه قصَد الذبحَ بما أمكنه ، فطاوعه الابنُ بالتمـكين[٧] من الذبح ، إلا أن الله صرَف ذلك كما شاء ، فصار كأنه ذَبح ، وإن لم يقـع الذبح . والثانى : أنه رأى فى المنـام معالجة الذبح

---

(١) ا : كى لا أضرب : محرفة . (٢) ا : فلم تحك . (٣) ا : بقلبه . محرفة .
(٤) ا : ورضينا . محرفة . (٥) ب : أسعد . (٦) ا : أحد جنبيه . (٧) ب : وطاوعه . الابن من التمـكين .

ولم يرَ إراقة الدم ، فلما فَعل فى اليقظة ما رأى فى المنـام قيل له : « قد صدَّقْتَ الرُّؤيَا » وقرأ أبو المتوكِّل وأبو الجوزاء وأبو عمران والجَحْدَرِىّ : « قد صَدَقْتَ الرؤيا » بتخفيف الدال .

« إنّا كذلكَ » أى كما ذكرنا من العفو عن ذَبْح ولده ، كذلك « نجزى المحسنين » .

« إنَّ هذا لَهُوَ البَلاء المبينُ » وفيه قولان : أحدهما : النعمة البيِّنة وهو العفو عن الذبح . والثانى : الاختبـار العظيم ، وهو امتحانه بالذَّبْح « وفدَيْناه بذِبْح » وهو بكسر الدال اسم ما ذُبح وبفتحها مصدر ذبحت . والمعنى : خلَّصناه من الذبح بأن جعلنا الذِّبْح فداء له . وفى هذا الذبح ثلاثة أقوال: أحدها : أنه كان كبشا أقْرَن قد رَعَى فى الجنة قبل ذلك أربعين عاما . قاله ابن عباس فى رواية مجاهد . و [قال][1] فى رواية سعيد بن جُبَير : هو الكبش الذى قرّبه ابنُ آدم فتُقبِّل منه ، كان فى الجنة حتى فُدِى به . والثانى : أن إبراهيم فدى ابنَه بكبشين أبيضين أعْينين أقْرنين . رواه الطفيل عن ابن عباس . والثالث : أنه كان ذكرا من الأَرْوَى[2] أُهبط عليه من ثَبِير[3] قاله الحسن .

وفى قوله « عظيم » قولان : أحدهما : لأنه قد رعَى فى الجنة . قاله ابن عباس . والثـانى : أنه مُتقبَّل . قاله مجـاهد . قال وهب بن منبه : كان ذلك بإيلياء من أرض الشام .

***

سبحان المفاوت بين الخَلْق ! يقال للخليل : اذبح ولدك . فيأخذ المُدْيَة ويُضْجعه للذَّبح ، ويقال لقوم موسى : « اذبحوا بقرةً » فذبحوها وما كادوا يفعلون !

ويخرج أبو بكر من جميع ماله ، ويبخل ثعلبةُ بالزكاة ! ويجود حاتم بقُوته ، ويبخل بضَوْء ناره الحُباحِب[4] .

---

(١) ليست فى ا . (٢) الأروى : الوعول . (٣) ثبير : جبل بظاهر مكة .

(٤) ا : ويخل الحاجب بضوء ناره . محرفة . وفى القاموس : كان أبو حباحب من محارب ، وكان لايوقد ناره إلا بالحطب الشخت لئلا ترى .

وكذلك فاوَت بين الفُهوم فسَحْبانُ أنطق متكلِّم ، وباقِل أقبح مِن أخْرس .

وفاوَت بين الأماكن فزَرُود[١] تشكو العطش والبطائح[٢] تصيح : الغرق .

***

قال علماء السير : لم يمت إبراهيمُ حتى نُبِّئ إسحاق وبُعث إلى أرض الشام . وكان إبراهيم قد زوج إسحاقَ أروقة بنت بتاويل[٣] ، فولدت له العِيص ويعقوب ، وهو ابن ستين سنة . فأما العيص فتزوج بنت عمه إسماعيل ، فولدت له الرومَ ، فكل بنى الأصفر من ولده وكثُر أولاده حتى غلبوا الكنعانيين بالشام وصاروا إلى البحر والسواحل وصار[٤] المُلْكُ من ولده وهم اليونانية .

وأما يعقوب فتزوج ليا فولدت أكثرَ أولاده ، ثم تزوج راحيل فولدت له يوسف وبنيامين . وعاش إسحاق مائة وستين سنة ، وتوفى بفلسطين ودفن عند أبيه إبراهيم .

***

إخوانى : تأملوا عواقبَ الصَّبر ، وتخايلوا فى البلاء نورَ[٥] الأجر ، فمن تصوَّر زوالَ المِحَن وبقاء الثناء هان الابتلاء عليه ، ومن تفكَّر فى زوال اللذاتِ وبقاء العار هانَ تَرْكُها عنده ، وما يلاحظ العواقبَ إلا بَصَرٌ ثاقِب .

الكلام على البسملة

فَرَاكَ[٦] من الأيام نابٌ ومِخْلَب ... وخانَك لونُ الرأسِ والرأس أشيبُ
فحتَّام لا تَنفكُّ جامحَ هِمَّةٍ[٧] ... بعيدَ مَرامِى[٨] النفسِ والموتُ أقربُ
تُسَرُّ بعيشٍ أنت فيه مُنغَّصٌ ... وتستعذبُ الدنيا وأنتَ مُعذَّبُ
تُغَذِّيك والأوقاتُ جِسْمَك تغتدى[٩] ... وتَسْقِيك والساعاتُ روحَك[١٠] تَشْرَبُ

(١) زورد : موضع (٢) والبطائح : مسايل الماء مفردها بطيحة . (٣) ا : بنت تناويل .
(٤) ا : فصار . (٥) فى ا ، ب : وتخايلوا فى البلاء وفوز الأجر . وما أثبته من تذكرة الأيقاظ وهو مختصر التبصرة . ورقة ٣٧ ب . ونرمز له بالحرف : ت . (٦) فى ت : فراك .
(٧) ب : جامع همه . (٨) بعيد مرام . (٩) ا : والآفات نحوك تغتدى . (١٠) ا : جسمك.

وتَعْجبُ من آفاتِهــا متلفِّتاً إليها، لَعَمْرُ[1] الله فعلُك أعجبُ
وتَحْسبُها بالبِشْر تُبْطِن[2] خُـلَّةً فيَظْهر منها غــيْرُ ما تتحسَّبُ
إذا رضِيتَ أعمتْك عن طُرق الهدى فما ظنُّ ذى لُبٍّ بها حِين تَغْضَبُ
وفى سَلْبِهـا ثوبَ الشبابِ دلالةٌ على أنهــا تُعطِى خِداعا وتَسْلبُ
أترضَى بأن ينهاكَ شيبُك والحِجَا وأنتَ مع الأيــامِ تلهو وتلعبُ
أجِدَّك[3] لا تَسْمع لدنياك مَوعِدا ولا تترجَّ الرِّىَّ والبرقُ خُلَّبُ[4]
ودونك دِرْياقُ الترجِّى من الورَى فكلٌّ على التجريبِ صِلٌّ وعقربُ[5]

***

إخوانى: الأيام لـكم مَطايا[6]، فأين العُدَّة قبلَ المنايا، أين الأنَفة من دار الأذايا، أين[7] العزائم؟ أترضَون الدنايا، إنّ بَلِيّة الهوى لا تُشْبه البلايا، وإن خطيئة الإصرار لا كالخطايا، وسَرِيّةُ الموت لا تشبه السَّرايا، وقضية الأيام[8] لا كالقضايا، راعِى السلامةِ يَقْتل[9] الرعايا [رامِى التلَف يُصْمِى الرمايا][10]، ملَكُ الموت لا يقْبل الهدايا، يا مستورين ستظهر الخبَايا[11].

استغفروا [الله][12] خجلاً من العثرات، ثم اسكبوا حزَنا لها العبَرات، عجباً لمؤثر الفانية على الباقية، ولبائـع البحر الخِضَمّ بساقية، ولمختار دار الـكدَر على الصافية، ولمقدّم حبَّ الأمراض على العافية، أيها المستوطِن بيتَ غُروره تأهَّبْ لإزعاجك، أيها المسرور بقصوره تهيَّأ لإخراجك، خذ عُدَّتك وقم فى قضاء حاجتك[13] قبل فراق أولادك وأزواجك، ما الدنيا دار مقامك، بل حلبة إدلاجك[14]:

أيها النا كبُ عن نهج الهدَى وهو بادٍ واضح للسالـكينْ

---

(١) ا: فعمر الله. وفى ت: نعم والله. (٢) ا. تنظر.
(٣) ب: أحدثك. (٤) الخلب: الذى لا ماء فيه. (٥) الصل: الحية (٦) ا: كالمطايا.
(٧) ا: أهل العزائم لايرضون الدنايا. (٨) ب: وقضية الموت. وفى ت: وقضية الزمان.
(٩) ا ب: يقتل. وهو خطأ صوابه من ت. (١٠) سقطت من ب. (١١) ب: الخطايا.
(١٢) من: ا (١٣) ا: حاجاتك (١٤) ا: بل حيلة لإدراجك.

إلهَ عن ذِكْرِ التصابى إنّه سرَفٌ بعد بلوغ الأربعينْ
واجعلِ التقوى معاذًا تحتمى بحماه إنه حِصْن حَصِينْ
واسأل الله تعالى عفوَه واستعِنْه إنّه خَيْر مُعينْ

أتأمن بطشَ ذى البطش ، وتُبارزه عالماً برؤيته ولم تخش ، يا من إذا وزَن طفَّف وإذا باع غشّ ، أنسيتَ النزول فى بيداء الديبب والوحش ، أنسيتَ الحلول فى لَحدٍ خشن الفَرْش ، يا مغترًّا بزخرف الهوى قد ألهاه النقش ، إذا جنَيْتَ على نفسك فعلَى مَن الأَرْش[1] ، يا من إذا جاء الفرض التوى وإذا حانَ اللّهو هَشّ ، يا من لا يَصْبر للقضاء ولو على خَدْش ، كن مستيقظا فإنك بعين ذى العرش : ـ

تَعلَّلُ بالآمالِ والموتُ أسرعُ وتَغتَرّ بالأيامِ والوعظُ أنفعُ
وما المرء إمّا[2] لم يمتْ فهو ذائق فراقَ الأخلاء الذى هو أوجعُ
فودِّعْ خليلَ النفسِ قبلَ فراقه فما الناسُ إلا ظاعنٌ أو مودِّع

يا حزينا على فراق مولاه ، كئيبا لمطلوبٍ ما واتاه ، كأنه بالموت قد أتاه ، فألحقه ما أباه[3] أباه ، ووافاه ما أطبق [فاه][4] فما فاه : ـ

يا كثير الحرص مشغو لاً بدُنيا ليس تبقَى
ما رأينا الحِرْص أدْنَى من حريص قط رزقَا
لا ولكن فى قضاء الله أن نَغنَى ونشقى
قد رأينا الموت أفنى قبلنا خَلقا فخلقا
درجوا قَرْنًا فقَرْنا وبقى من ليس يَبْقى

قدم على محمد بن واسع ابنُ عم له فقال له : من أين أقبلتَ ؟ فقال : من طاب الدنيا . فقال : هل أدركتَها ؟ قال : لا . قال : واعجبا ! أنت تطلب شيئا لم تدركه ، فكيف تدرك شيئاً لم تطلبه !

---

(١) الأرش : الدية . (٢) ا ، ت : إما إن يمت .
(٣) ا : فألحقه بأمه وأباه . وفى ت : فألحقه بما أباه أباه . (٤) من : ت

ياهـذا عليك بالجد والاجتهاد ، وخَلِّ [هذا][1] الـكسلَ والرقاد ، فطريقك لا بد لها من زاد .

انهضْ إلى المعـــالِي واقبـــل[2] ولا تُبَالِي
وخُذْ من الزمــانِ حظًّا فأنت فانى
الهِمَمُ العَلِيّـــة والمَهـــجُ الأبيّة
تقرِّبُ المنيّـــة منكَ أو الامْنيّة
الجِـــدُّ بالمخاطَرة والنصـــرُ بالمصابَرة
كم راحـــةٍ فى العُزْلة وعملٍ فى العطـــلة
ليس يدومُ حـــالُ شحمُ المنَى هُزالُ
ما للورَى فى غفـــلة قد خُدِعوا بالمهـــلة
ألَا لبيبٌ يعقـــلُ ألَا جَهـــولٌ يسألُ
أأنتمُ فى ريبـــة ما أعظم المصيبـــة
دُنْيا كُمُ حبيبـــة لحسنها[3] والطِّيبة
لـكنها غَـــدَّارة خَدَّاعـــة غَرَّارة
ليس لهـــا حبيبُ زوالُهـــا قريبُ
كالمومـــس البَغىِّ تلبس كلَّ زىِّ
خَلوبة[4] خوّانـــة ليس لهـــا أمانة
عزيزُها ذليـــلُ كثيرها قليـــلُ
تفرِّق الأحبـــابَا تشتِّت الأترابا[5]
حَرْبٌ لمن سالَمها تَمَلُّ من لازمهـــا
لقاؤهـــا فراقُ وعُرْسها طـــلاقُ

(١) سقطت من : ب (٢) ا : واطلب . (٣) ا : بحسنها . (٤) ا : ملولة .
(٥) ا : الأصحابا .

وِصالها صــدودُ ووَعْدُها وعيــدُ
وِصالُها عَنــاَ صُــدودُها بَلاَ
عقــودُها منقوضــة عهــودُها مَرْفوضــة
شرَابُهــا سرابُ نعيمُهــا عذابُ
إنْ أقبلتْ ففتنــة أو أدبرتْ فمحنــة
أخلاقهــا مذمومة لَذَّاتُهــا مسمومة
يحظَى بهــا الجهَّالُ ويَنْعــم الأنذالُ
يشقى بهــا اللبيبُ ويتعب الأريبُ
خلِّ عنهــا يا فتى إلى متَى إلى متى !

الكلام على قوله تعالى :

﴿ ليس بأَمَانِيِّكم ولا أمانِيِّ أهلِ الكتاب مَنْ يَعْمل سُوءًا يُجْزَ به[1] ﴾

فى سبب نزولها ثلاثة أقوال :

أحدها : أن أهل الأديان اختصموا . فقال أهلُ التوراة : كتابنا خير الكتب ، ونبينا خيرُ الأنبياء . وقال أهلُ الإنجيل : مثل ذلك . وقال المسلمون : كتابنا نسَخ كلّ كتاب . ونبينا خاتم الأنبياء . فنزلت هذه الآية . رواه العَوْفى عن ابن عباس رضى الله عنهما .

والثانى : أن العرب قالت لا نُبعْث ولا نحاسَب ولا نعذَّب . فنزلت قاله مجاهد .

والثالث : أن اليهود والنصارى قالوا : لا يدخل الجنة غيرنا . وقالت قريش : لا نُبعث . فنزلت هذه الآية قاله عكرمة .

وقال الزجَّاج : اسم ليس مضمر . والمعنى ليس ثوابُ الله بأمانيّكم . وقد جاء ما يدل على الثواب وهو قوله تعالى : « سندخلهم جنَّاتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ » وانسوا المعاصى والجزاء واقع بالعاصى .

---

(١) سورة النساء ١٢٣ .

أخبرنا ابن الحصَين ، قال أنبأنا ابن المذْهَب ، أنبأنا أبو بكر بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنى أبى، حدثنا وكيع ، حدثنا ابن أبى خالد ، عن أبى بكر بن زهير الثَّقفى ، قال لمّا نزلت : « ليس بأمانيكم ولا أمانىِّ أهلِ الكتاب مَن يعملْ سوءا يُجْزَ به » قال أبو بكر : يا رسول الله إنا لنجازَى بكل سوء نعمله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يرحمك الله ألست تَنْصَبُ ألست تحزن، أليس تصيبك اللَّأْوَاء[1] ؟ فهذا ما تجزون به .

وأخرج مسلم فى أفراده من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت : « من يعمل سُوءا يُجْزَ به » بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قاربوا وسَدِّدوا ، ففى كل ما يصاب به المسلم كفَّارة ، حتى النكبة يُنْكَبها والشوكة يُشَاكها » .

واعلم أن المؤمن إذا جُوزِى بذنب عجِّل له جزاؤه فى الدنيا .

أخبرنا محمد بن عبد الله ابن نصر، أنبأنا طَرَّاد ، أخبرنا على بن عبد الله بن إبراهيم الهاشمى، أخبرنا محمد بن عمر، أخبرنا أحمد بن مُلاَعب ، حدثنا عفان ، عن حماد بن سلمة ، حدثنا يونس ، عن الحسن ، عن عبد اللهْ بن مغفل ، أنّ رجلاً أتى امرأة كانت فى الجاهلية بغيًا فجعل يلاعبها حتى بسط يدَه إليها ، فقالت المرأة : مه إن الله تعالى ذهب بالشِّرك وجاء بالإسلام . فولّى الرجل فأصابَ وجهه جدار فأدماه ، فأتى النبىَّ صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : « أنت عبدٌ أراد الله بك خيرا ، إن الله إذا أراد بعبد خيرا عجَّل له عقوبةَ ذنبه ، وإذا أراد بعبدٍ شرا أمسك عنه حتى يوافِى به يوم القيامة كأنه َبعِير» .

واعلم أنّ من تفكَّر فى ذنبه وجدَ الزمانَ الذى عصى فيه قد خلا عن طاعة وامتلأ بخطيئة ، ثم يحتاج إلى زمان يتشاغل فيه بالتوبة ، ثم يتأسف على ما سبق . ويكفى هذا .

وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليهم وسلم أنه قال :

---

(١) ا : الألواء . واللأواء : الشدة والبأس .

« قال ربكم عز وجل : لو أن عبادى أطاعونى لأسقيتُهم المطرَ بالليل وأطلعتُ عليهم الشمس بالنهار ، ولماَ أسمعتُهم صوتَ الرعد » .

أنبأنا أحمد بن على المحلّى ، أنبأنا أبو بكر الخطيب ، أنبأنا الحسين بن بشران ، أنبأنا أبو على البردَعى ، حدثنا أبو بكر القرشى ، حدثنا الزبير بن أبى بكر ، حدثنى أبو ضَمْرة ، عن نافع بن عبدالله ، عن فروة بن قيس ، عن عطاء عن ابن عمر رضى الله عنهما، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما ظهرت الفاحشةُ فى قومٍ حتى أعلنوها إلا ابتلوا بالطَّوَاعين والأوجاع التى لم تـكن فى أسلافهم الذين مضوا ، ولا نقَصوا المـكيالَ والميزان إلا ابتُلوا بالسِّنين وشدة المؤنة وجَوْر السلطان ، وما منع قومٌ زكاةَ أموالهم إلا مُنعوا القَطْر من السماء ولولا البهائم لم يُمْطَرُوا ، ولا خفر قومٌ العهدَ إلا سلط الله عليهم عدوَّهم من غيرهم فأخذ بعض ما فى أيديهم .

قال القرشى : وحدثنى إبراهيم بن سعيد ، قال حدثنا إبراهيم بن مهدى ، قال حدثنا أبو حفص الأبَّار ، عن أشعث بن سوار ، عن كردوس التغلبى ، قال : حدثنى رجل من أهل المسجدِ مسجد الـكوفةِ ،وكان أبوه ممن شهد بدرا قال : مررت على قرية تتزلزل فوقفتُ قريبا أنظر ، فخرج علىَّ رجل فقلت : ما وراءك ؟ فقال : تركتها تتزلزل وإن الحائطان(١) ليصطـكان ويُرْمَى بعضها ببعض(٢) ، فقلت : وما كانوا يعملون ؟ قال : كانوا يأكلون الربا .

وقال رجل للحسن : أعيانى قيامُ الليل ؟ قال : قيَّدتْك خطاياك !

أنبأنا محمد بن أبى منصور ، عن عبد القادر بن محمد الجوهرى ، أنبأنا أبو الفضل الزهرى ، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن الذهبى ، حدثنا أحمد بن منصور الرمادى، حدثنا أحمد بن المثنى ، حدثنا عبد القدوس الحوارَى ، عن هشام قال : اغتمّ ابن سيرين مرة فقيل له : يا أبا بكر ما هذا الغم ؟ قال : هذا بذنب أصبتُه منذ أربعين سنة .

(١) ا : وإن الحيطان .   (٢) ا : بعضها على بعض .

أخبرنا أبو بكر بن حبيب ، قال حدثنا أبو سعيد بن أبى صادق ، قال أنبأنا أبو عبد الله الشيرازى ، قال سمعت محمد بن فارس يقول : أنبأنا على بن قَرِين قال : سمعت الجُنَيْد يقول : من همَّ بذنب لم يعمله عوقب بذنب لم (١) يعرفه .

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد ، أنبأنا أبو الغنائم الدجاجى ، أنبأنا على بن معروف ، حدثنا محمد بن الهيثم ، حدثنا إبراهيم بن سعد الجوهرى ، حدثنا هاشم بن القاسم عن صالح المرِّى ، عن أبى عمران الجونِىّ قال : مكتوبٌ فى الإنجيل : تعملون الخطايا وتُنْكرون العقوبة !

***

يا من معاصيه جَمّة مشهورة ونفسه بما يجنى عليها مسرورة ، أفى العين كَمَهٌ أم عشَى ، أإليك الأمر كما تشاء ، أعلَى القلب حجاب أم غشا ، يا كثير المعاصى قعد أو مشَى ، عَظُمت ذنوبك فمتى تقضى ، يامقيما وهو فى المعنى يمضِى ، أفنيتَ الزمانَ فى الخطايا ضياعاً ، وسا كنْتَ غرورا من الأمل وأطماعا ، وصِرت فى تحصيل الدنيا مُحْترفاً صنَاعا ، تصبح جامِعاً وتُمسى مَنَّاعاَ ، فَتِّش على قلبك ولُبّك قد ضاعا ، تفكر فى عمرك مضى نَهباً مشاعا ، لا فى الشباب أصلحت ولا فى الكهولة أفلحت ، كم حمّلت أزرك وِزْرا ثقيلا ، واجترحت يا بُعْد صلاح ما جرحت ، ياسيئْ السريرة كم عليك جريرة ، ويحك أتنسى الحفيرة ، أم هى عندك حقيرة ، أيام عمرك قصيرة وتضيعها على بصيرة ، لقد قطع الأجلُ مَسيره ، ولكن على أقبح سِيرة ، ذنوبك جَمّة كثيرة ، وعينك بها قريرة ، ما نُظلم بها مقدار شعيرة .

قال محمد بن كعب القُرَظى : إنما الدنيا سوقٌ خرج الناس منها بما يضرّهم وبما ينفعهم ، وكم اغترَّ ناسٌ فخرجوا ملومين واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم ، وصاروا إلى من لا يعذرهم ، فيحق لنا أن ننظر إلى ما نغبطهم به من الأعمال فنعملها وإلى ما نتخوّف فنجتنبها .

---

(١) ب : لا يعرفه .

وقال يحيى بن معاذ : المغبُون من عطّل أيامَه بالبطالات وسلّط جوراحه على الهَلَكات، ومات قبل إفاقته من الجنايات :

بدَتْ دَهْيـاء تُنذِر بالخطوبِ   نُلاَحظها بأبصـار القلوبِ
وقد دلّ المجىء على ذهابٍ   كما دلّ الطـلوعُ على الغروب
ولـكنّ القلوبَ محجَّباتٌ   وسُوء حجابها[1] كَسْب الذنوبِ

يا هذا الطالب حييت فبادر ، والفضائل معرّضةَ فثابر ، اترك الهوى محمودا ، قبل أن يتركك مذموما ، إنْ فاتتك قصَباتُ السَّبْق فى الولاية ، فلا تفوتنك ساعاتُ الندم فى الإنابة ، آه للسانٍ نطَق بإثم كيف غفل عن قوله تعالى : « اليومَ نَختِم على أفواههم » آه لِيَدٍ امتدَّت للحرام كيف نسيت : « وتـكلمنا أيديهم » آه لِقدمٍ سعتْ فى الآثام كيف لم تتدبّر : « وتشهدُ أرجُلهم » آه لجسدٍ ربا على الرِّبَا ، أما سمع منادِى التحذير على رُبَى : « فلا يَرْبُو عندَ الله » آه لِذِى فمٍ فغَره لتفريغ كأسِ الخمر ، أمَا بلَغـه زَجْر : « فاجتنبوه » .

قد كان عُمرك مِيلًا   فأصبحَ[2] الميلُ شِبْرَا
وأصبح الشبر عقداً   فاحفر لنفسك قَبرَا

يا من راح فى المعاصِى وغدَا ، ويقول : سأتوب اليومَ أو غدَا ، كيف تجمع قلباً قد صار فى الهوى مبدَّدا ، كيف تُلينه وقد أمسَى بالجهـل جَلْمدا ، كيف تحثّه وقد راح بالشهوات مقيَّدا ، لقـد ضاع قلبك فاطلب له ناشدا ، تفـكَّر بأىّ وجهٍ تتلقى الردَى ، تذكَّر ليلةَ تبيت فى القبر منفرداً : ــ

أيّها المشغوفُ بالدنـ   ـيا صَبُوًّا وغَراماَ
أبدًا هى أبدا تُبْـ   ـطِن فى الشَّهْدِ سِمَاماَ[3]
تُخْضع الراضعَ[4] بالدَّرْ   رِ وتُنْسيه الفِطَاما

---

(١) ا : وشر حجابها عمل الذنوب . (٢) ا : قد أصبح الميل شبرا (٣) كذا فى ب . وفى ا : هى أم تبطن فى الشهد سماما والسمام : جمع سم . (٤) ب : تخضع الواضع بالذر . وهو تحريف صوابه من ا .

فإذا هُزَّ بوعظٍ صَمَّ عنـــه وتعامَى
فهو كالشاكِى الذى يزْ داد بالطبِّ سَقامـــاَ
وكمِثْلِ الطفل فى المهـــد إذا حُرِّكَ ناماَ

سجع على قوله تعالى
﴿ من يعملْ سوءاً يُجْزَ به ﴾

يامعرِضاً عن الهدى لا يسعى فى طلبه ، يامشغولاً بلهوه مفتوناً بلعبه ، يامن قدصاح به الموتُ عند أخْذ صاحبِه « من يعمل سوءاً يُجْزَ به » .

جُزْ على قبر الصَّديق ، وتلَمَّح آثار الرفيق ، يخبرك عن حسنه الأنيق ، أنه استُلب بكفِّ التمزيق ، هذا لحدُه وأنت غداً به[(١)] « من يعملْ سوءاً يُجْزَ به » .

كم نُهِىَ عن الخطايا وما انتهى ، وكم زجرتْه الدنيا وهو يسعى لها ، هذا ركنه القويم قد وهَى ، وها أنت فى سَلْبه « من يعملْ سوءاً يُجْزَ به » .

أين من عتا وظَلم ، ولقى الناسُ منه الألم ، اقتطعه الردَى اقتطاعَ الجَلم[(٢)] ، فما نفعه ماجمعه ، لا والله ولم يدفع عنه عِز منصبه « من يعمل سوءاً يُجْزَ به » .

بات فى لحده أسيرا ، لايملك من الدنيا نَقِيرا ، بل عاد بوِزْر ذنبه عَقيرا[(٣)] ، وأصبح مِن ماله فقيرا على عِزّ نَسبه وكثرة نشَبه « من يعمل سُوءاً يجز به » .

اللذات تَفنى عن قليلٍ وتَمُرّ ، وآخر الهوى[(٤)] الحلوِ مُرّ ، وليس فى الدنيا شىء يسرّ إلا يغرّ ويُضرّ ، ثم يخلو ذو الزَّلل بمكتَسبه « من يعمل سوءاً يُجْزَ به » .

الـكتاب يحوى حتى النَّظرة ، والحساب يأتِى على الذرَّة ، وخاتمة كأس اللذات

---

(١) ا : وغدا تبيت به . (٢) الجـلم : المقراض الذى يجز به . قال سالم بن وابصة :

داويتُ صدراً طويلًا غِمْره حَقِداً منه وقلَّمتُ أظفارا بلا جَلَمِ

اللسان مادة « جلم » .

(٣) ا : بل عاد بالخيبة عقيرا. (٤) ا : وآخر الدنيا .

مرّة ، والأمر جَلِيّ للفهوم ما يشتبه « من يعمل سوءاً يُجْزَ به » .

تقوم فى حَشْرك ذليلا ، وتبكى على الذنوب طويلا ، وتحمل على ظهرك (١) وِزْرا ثقيلا ، والويلُ للعاصى من قبيح مُنْقَلبه « من يعمل سوءاً يُجْزَ به » .

يُجمع الناس كلهم فى صعيـد ، وينقسمون إلى شقىّ وسعيد ، فقومٌ قد حَلَّ بهم الوعيد ، وقومٌ قيامتهم نزهة وعِيد ، وكل عامل يغترف من مَشْرَبه (٢) . « من يعملْ سوءاً يُجْزَ به » .

إنما يقع الجزاء على أعمالك ، وإنما تلقى غداً غِبَّ أفعالك وقد قصدْنا إصلاح حالك ، فإن كنت متيقظا فاعمل لذلك وإن كنت نائما فانتبه « من يعملْ سوءاً يُجْزَ به » .

---

(١) ب : على أزرك .　(٢) ب : من شربه .

المجلس العاشر

فى قصة لوط عليه السلام

الحمد لله الذى أحكم الأشياء كلَّها صُنعا ، وتصرَّف كما شاء إعطاء ومنعا ، أنشأ الآدمىَّ من قَطرة فإذا هو يسعى ، وخلق له عينين ليبصر المسعَى ، ووالى لديه النعم وِتْرا وشَفْعا ، وضمَّ إليه زوجةً تدبِّر أمرَ البيت وترعى ، وأباحه محلَّ الحرْث وقد فهم مقصودَ المرعى ، فتعدَّى قومٌ إلى الفاحشة الشَّنْعا ، وعدُّوا سِتّا سَبعا ، فرُجموا بالحجارة فلو رأيتهم صرعَى « ولَمَّا جاءتْ رُسُلنا لُوطا سِىء بِهِمْ وضاقَ بهم ذَرْعاً [1] » .

أحمده ما أرسل سحاباً وأنبت زرعاً ، وأصلى على رسوله محمد أفضل نبىّ علَّم أمتَه شَرعا ، وعلى أبى بكر الذى كانت نفقتُه للإسلام نَفْعا ، وعلى عمر ضيف الإسلام بدعوة الرسول المستدعَى ، وعلى عثمان الذى ارتكب منه الفُجَّار بِدْعاً ، وعلى علىّ الذى يحبه أهل السنة طبعا ، وعلى العباس أبى الخلفاء أئمة المسلمين قطعا .

***

قال الله عز وجل : « ولَمَّا جاءتْ رسُلُنا لُوطاً سِىء بِهمْ وضَاقَ بهم ذَرْعاً » .

هو[2] لوط بن هاران بن تارخ ، فهو ابن أخى إبراهيم الخليل عليه السلام ، وقد آمن به وهاجَر معه إلى الشام بعد نجاته من النار ، واختتن لوط مع إبراهيم وهو ابن ثلاث وخمسين سنة ، فنزل إبراهيم فلسطين ونزل لوطٌ الأردُنَّ .

فأرسل الله تعالى لوطاً إلى أهل سَدُوم ، وكانوا مع كفرهم بالله عز وجل يرتكبون الفاحشة ، فدعاهم إلى عبادة الله ونهاهم عن الفاحشة ، فلم يزدهم ذلك إلا عتوّا . فدعا الله أن ينصره عليهم ، فبعث الله عز وجل جبريل وميكائيل وإسرافيل فأقبلوا مشاةً فى صورة رجال شباب ، فنزلوا على إبراهيم فقام يخدمهم ، وقدَّم إليهم الطعام فلم يأكلوا ، فقالوا : لا نأكل طعاما إلا بثمنه . قال : فإن له ثمنا. قالوا : ما هو ؟ قال: تذكرون اسم الله تعالى

---

(١) سورة هود ٧٧ .   (٢) ا : كان لوط .

على أوّله وتحمدونه على آخره . فنظر جبريلُ إلى ميكائيل وقال : حُقَّ لهذا أن يتخذه الله خليلا !

فلما رأى امتناعهم خاف أن يكونوا لصوصا ، فقالوا : « لا تخَفْ إنّا أُرْسِلْنا إلى قوم لُوطٍ » فضحكت سارةُ تعجُّبًا وقالت : نخدمهم بأنفسنا ولا يأكلون طعامنا ! فقال جبريل : أيتها الضاحكة أبشِرى بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، وكانت بنت تسعين سنة وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة .

فلما سكَن رُوعُ إبراهيم وعلم أنهم ملائكة أخذ يُناظرهم ، فقال : أتهلكون قريةً فيها أربعمائة مؤمن ؟ قالوا : لا . قال : ثلاثمائة ؟ قالوا : لا . قال : مائتان ؟ قالوا : لا . قال : أربعون ؟ قالوا : لا . قال : أربعة عشر ؟ قالوا : لا . وكان يعدّهم أربعة عشر مع امرأة لوط . فقال: إن فيها لوطا . قالوا : نحن أعلمُ بمن فيها . فسكت واطمأنت نفسه. ثم خرجوا من عنده فجاءوا إلى لوط وهو فى أرضٍ له يعمل ، فقالوا : إنا متضيِّفون الليلة بك[1] . فانطلق بهم والتفت إليهم فى بعض الطريق فقال : أمَا تعلمون ما يعمل أهلُ هذه القرية ؟ والله ما أعلَم على ظهر[2] الأرض أخبثَ منهم !

فلما دخلوا منزله انطلقت امرأته فأخبرت قومها .

***

قوله تعالى : « سِيءَ بِهِمْ » أى ساءه مجىء الرسل ، لأنه لم يعرفهم وخاف عليهم من قومه « وضاقَ بهم ذَرْعاً » قال الزَّجّاج : يقال ضاق بفلان أمرُه ذرعاً إذا لم يجد من المكروه مَخْلَصا . وقال ابن الأَنبارى : ضاق بهم وُسْعُه[3] ، فناب الذَّرْع عن الوسع[4] « وقالَ هذَا يومٌ عَصِيبٌ » يقال هذا يومٌ عصيب [وعَصَبْصَبٌ][5] إذا كان شديدا .

«وجاءه قومُه يُهْرَعُون إليه» قال الكسائى والفراء : لا يكون الإهراع إلا إسراعا مع رِعْدَة . قال ابن الأنبارى : الإهراع فعل واقع بالقوم ، وهو لهم[6] فى المعنى ،

(١) ا : إنا مضيفوك الليلة . (٢) ب : على وجه الأرض . (٣) كذا فى ب . وفى ا : وسعة .
(٤) ب : فناب الذرع والذراع عن الوسع . ولعل فيها إقحاما . (٥) سقطت من ب .
(٦) ا : وهو أهم . محرفة .

كما قالت العرب : قد أُولِـع الرجل بالأمر فجعلوه مفعولا وهو صاحب الفعل ، ومثله : « أُرْعِدَ زيد » و « سُهِي عمرو » من السهو . كل واحد من هذه الأفاعيل خرج الاسم معه مقدَّرا تقديرَ المفعول ، وهو صاحب الفعل لا يُعرف له فاعل غيره .

قوله تعالى « ومِنْ قبلُ » أى مجىء[1] الأضياف « كانوا يَعْملونَ السَّيِّئاتِ » فقال لوط : «هؤلَاءِ بنَاتِى» يعنى النساء ولكونهن من أمته صار كالأب لهن « أَطْهَرُ لكم » أى أحلُّ « فاتقوا اللهَ » أى احذروا عقوبته « ولا تُخْزُونِ فى ضَيْفِى » أى لا تفعلوا بهم فعلا يوجب حيائى «أليسَ مِنكمْ رجُلٌ رَشِيدٌ» فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر « قالوا : لقد عَلِمْتَ مالنا فى بَنَاتك مِنْ حَقٍّ » أى من حاجة « وإنك لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ »أى إنما نريد الرجال لا النساء .قال: « لو أَنَّ لِى بكُمْ قُوَّةً » أى جماعة أقوَى بهم عليكم « أَوْ آوِى إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ » أى إلى عشيرة مَنِيعة . وإنما قال هذا لأنه كان قد أغلق بابه وهم يعالجون الباب ويرومون تسوّرَ الجدار ، فلما رأت الملائكةُ ما يلقَى من الكَرْب « قالوا : يا لُوطُ إنّا رُسُل ربِّكَ » فافتح الباب ودعنا وإياهم . ففتح الباب ودخلوا . واستأذن جبريل ربه عز وجل فى عقوبتهم فأذِن [لهم] [2] فضرب بجناحه وجوهَهم فأعماهم فانصرفوا يقولون النَّجاء النجاء إنّ فى دار لوط أَسْحرَ قوم فى الأرض . وجعلوا يقولون : يا لوط كما أنت حتى تصبح . [يوعدونه] [3] . فقال لهم لوط : متى موعدُ هلاكهم ؟ قالوا : الصبح . قال لو أهلكتموهم الآن ؟ فقالوا : أليس الصُّبْح بقريب !

ثم قالت له الملائكة : «فأَسْرِ بأهلِكَ» . فخرج بامرأته وابنتيه وأهله وبقره وغنمه « بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ » أى ببقية تبقى من آخره .

وأوحى الله تعالى إلى جبريل : تولَّ هَلاكهم . فلما طلع الفجر[4] غدَا عليهم جبريل عليه السلام فاحتمل بلادهم على جناحه ، وكانت خمس قرى أعظمها سَدُوم ، فى[5] كل قريه مائة ألف ، فلم ينكسر فى وقت رَفْعِهم[6] إناء ، ثم صعد بهم[7]

---

(١) ا : أى من مجىء . (٢) ليست فى ا . ولعلها : فأذن له . (٣) سقطت من ب .
(٤) ا : فلما طلع الصبح عدا عليهم . (٥) ب : وفى . (٦) ب : رفقهم . (٧) ب : بها .

حتى خرج الطير فى الهواء لا يدرى أين يذهب وسمعت الملائكةُ نباح كلابهم ، ثم كفأها عليهم وسمعوا وَجْبة شديدة ، فالتفتت امرأة لوط فرماها جبريل بحجر فقتلها ، ثم صعد حتى أشرف على الأرض ثم جعل يتبع مُسَافرهم ورُعَاتهم ومن تحوّل عن القرية ، فرماهم بالحجارة حتى قتلهم . وكانت الحجارة من سِجِّيل . قال أبو عبيدة : هو الشديد الصُّلْب من الحجارة «مُسَوَّمَةً» . أى مُعلَّمة قال ابن عباس : كان الحجر أسود وفيه نقطة بيضاء . وقال الربيع : كان على كل حجر منها اسم صاحبه . وحكِى عن من[1] رآها قال : كانت مثل رءوس الإبل ومثل قبضة[2] الرجل .

« وما هِيَ مِنَ الظالمينَ بِبَعيدٍ » تخويف للمخالفين .

أخبرنا ابن الحصَين ، أنبأنا ابن المذْهَب ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله ابن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا محمد بن سلمَة ، عن محمد بن إسحاق ، عن عمرو بن أبى عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ملعونٌ من عمِل عملَ قوم ِ لوط » .

وروى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من مات من أمتى يعمل عمل قوم لوط نقله الله إليهم حتى يحشره معهم » .

فلتُحذَر مَغَبّة الخطايا والذنوب فإنها بصاحبها إلى الغضب تؤُوب ، الحذر الحذر من عَلام الغيوب .

الكلام على البسملة

يا عامراً لخرابِ الدهرِ مجتهداً ... تاللهِ ما لخرابِ الدهرِ عُمْرانُ
وكلُّ وُجْدانِ حَظٍّ لا ثباتَ له ... فإن معناه فى التحقيق فُقْدانُ
صُنِ الفؤادَ عن الدنيا وزخرفها ... فصَفْوها كدَرٌ والوصْلُ هِجرانُ[3]

ياهذا ، الأيامُ ثلاثة : أمس قد مضى بما فيه ، وغداً لعلك لا تدركه ، وإنما هو

(١) ب : وحكى من رآها . (٢) ا : ومثل بيضة الرجل . (٣) الأبيات من قصيدة لأبى الفتح البستى انظر حياة الحيوان للدميرى ١/٢١٨

يومك هذا فاجتهد فيه . لله دَرّ من تنبَّه لنفسه وتزوَّد لرَمْسه ، واستدرك ما مضى من أمسه قبل طول حبسه .

فيا جامعَ الدنيا لغــير بلاغةٍ   ستتْركها[١]،فانظر لمن أنت جامعُ
لو أن ذوى الأبصارِ يُوعون كلّ ما   يَرون لمـا جَفَّتْ لعينٍ مَدامعُ
ومن كانت الدنيا مُناه وهَمّـــه   سباَه المُنَى واستعبدَتْه المطامعُ

يا نائماً فى لهوه وما نام الحافظ ، لاحظْ نور الهدَى فلاحظّ إلا للمُلاَحظ ، وحافظْ على التقَى فقد فاز الحافظ ، وخذ حَذرك فقد أنذرك العاتبان الغلائظ[٢] ، ولا تغترّ ببَرْد العيش فزمانُ الحساب قائظ ، وتذكَّر وقت الرحلة حَمْل الثقيل الباهظ ، ولا تلتفت إلى المادح فـكم قد ضَرّ مدحٌ قارِظ ، وتيقَّظ للخلاص فمـا ينجو إلا متياقظ ، يامدبِّرا أمر دنياه ونَسِى[٣] أخراه نخفِّف النداء اللافظ[٤] ، عجائب الدهر تُغْنى عن وعظ كلٌّ واعظ : ـ

ألِلعُمْرِ فى الدنيا تجِدّ وتَعْمُر   وأنت غداً فيها تموتُ وتقْـبَرُ
تلقّح آمالًا وترجو نِتاَجها   وعمرك مما قد ترجِّيه أقصرُ
وهذا صباحُ اليوم ينعاك ضوؤه   وليلته تنعاك إن كنت تشعُرُ
تَحُوم على إدراك ما قد كُفيتَه   وتُقْبل بالآمالِ[٥] فيه وتُدْبِرُ
ورزقُك[٦] لا يَعْدوك إمّا مُعجَّلٌ   على حالِه يوماً وإما مُؤَخَّـــر
فلا تأمن الدنيا إذا هى أقبلتْ   عليك فما زالت تخُون وتَغْدرُ[٧]
فما تمّ فيها الصفوُ يوماً لأهـلِه   ولا الرفق[٨] إلا ريثما يتغيّرُ
تذكَّر وفكِّر فى الذى أنت صائرٌ   إليه غداً إن كنت ممن يفـكّرُ
فلا بد يوماً أن تصــير لحفرةٍ   بأَثْنائها[٩] تُطْوَى إلى يوم تُحْشَر

***

(١) ا : ستدركها . (٢) كذا فى ب . وفى ا : فقد أدرك العانبيان الغايظ .
(٣) ا : مسىء أخراه . (٤) ا : باللافظ . (٥) ا : بالأيام . (٦) ب : ووزرك .
محرفة والتصويب من ا ت . (٧) ا : فما زالت تجىء وتدبر . (٨) ا، ت : ولا الرزق .
وما أثبته من ب . (٩) ا : بإتيانها . وت : بأتائها . وما أثبته من ب . والأبتان .

إخوانى : تدبروا الأمور تدبّر ناظر ، وأصغُوا إلى ناصحكم والقلب حاضر ، واحذروا غضب الحليم وهَتْك الساتر ، وتأهّبوا للحِمَام فسيوفه بواتر ، وهاجِروا إلى دار الإنابة بهِجْران الجرائر ، وصابِرُوا عدوّكم مصابرة صابر ، وتهيّأوا للرحيل إلى عسكر المقابر ، قبل أن يبُلّ وابلُ الدموع ثرى المحاجر ، ويندم العاصى ويخسر الفاجر ، ويتكاثف العرَق وتقوى الهواجر ، وتصعد القلوب إلى أعلى الحناجر ، ويعزّ الأمنُ ويُعرض الناصر ، ويفرح الكامل ويحزن القاصر ، ويفُوت اكتساب الفضائل وتحصيل المفَاخر ، فتأمّلوا عواقب مصيركم فاللبيب يرى الآخِر .

وقائـــلةٍ لو كنتَ تلتمسُ الغِنَى رشدْتَ ، وما أوصت بما كان راشِدَا
أبَى الناسُ إلا حبَّ دنيـــا ذميمةٍ تقضَّى ويأبى الموتُ إلا التزودَا
فقلت سلِي عن ذى الثراء تُخَبَّرى وذى المُلْك بعد المُلْك ماذا توسَّدَا
يمرُّون أرسالاً ونُضْحِى كأننـــا لِمَا نالهم بالأمسِ لم نكُ شُهَّدَا[1]
فهـــل ينفعنّا ما نرى أو يرُوعنا وهل نَذْكرنَّ اليومَ منْزلَنا غَدَا

***

أخبرنا يحيى بن على ، حدثنا القاضى أبو الحسين السِّمنانى ، حدثنـا أبو الحسن ابن الصامت ، حدثنا القاضى أبو عبد الله المحَامِلىّ ، حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا الُجنْيد بن أبى العلاء ، عن محمد بن سعيد ، عن إسماعيل بن عبيدالله ، عن أم الدرداء ، عن على الدّقاق ، عن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « تفرّغوا من الدنيا ما استطعتم ، فإنه من كانت الدنيا أكبر همِّه أفشى الله ضَيْعته وجعل فَقْره بين عينيه ، ومن كانت الآخرةُ أكبر همّه جمع الله له أمورَه وجعل غِنَاه فى قلبه ، وماأقبلَ عبدٌ بقلبه إلى الله عز وجل إلاجعل الله قلوبَ المؤمنين تقْبل إليه بالودّ والرحمة ، وكان الله عز وجل إليه بكل خَيْرأسرع » .

أخبرنا إسماعيل بن أحمد ، أنبأنا رزق الله ، أنبأنا ابن شاذَان ، أنبأنا أبو جعفر

(١) الأصل : نشهدا . محرفة .

ابن يزيد ، أنبأنا أبو بكر القرشي ، أنبأنا يعقوب بن عبيد الله ، حدثنا يزيد بن هرون ، حدثنا سُفيان الثَّورى ، عن زيدالشامى ، عن مهاجر العامرى ، قال قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : إن أخوفَ ما أخاف عليكم اثنتان : اتباعُ الهوى وطولالأمل . فأما اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة ، ألَا وإن الآخرة قد ارتحلتْ مُقبلةً ألا وإن الدنيا قد ولَّت مُدْبِرة ، ولكل واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرةولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عملولا حساب ، وغداً حسابٌ ولا عمل .

يا صِحَاح الأجسادِ كيف بَطِلْتُمْ ... لا لعُذْر عن صالحِ الأعمالِ
لو علمتم أن البطالة تُجْدِي ... حسرةً فى مَعادكم والمآلِ
لتبادرتُمُ إلى ما يقيكمْ ... من جحيمٍ فى بَعْثكم ونَكَالِ
إنما هذه الحياة غُرورٌ ... أبداً تُطْمع الورَى فى المُحالِ
كيف يَهْنيكم القَرارُ وأنتم ... بعدَ تمهيدكم على الارتحالِ
الهُدَى واضح فلا تعدلوا عنه ... ولا تسلكوا سبيل الضلالِ
وأنيبوا قبلَ الممات وتُوبوا ... تَسْلَموا فى غدٍ من الأهوالِ

الكلام على قوله تعالى
﴿ قُلْ للمؤمنين يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِم(١) ﴾

اعلموا أن إطلاق البصر سبب لأعظم الفتن ، وهذا القرآن يأمرك باستعمال الحِمْيَة عن ما هو سبب الضرر ، فإذا تعرضت بالتخليط فوقعتَ(٢) إذًا فى أذًى ، فلم تَضِجُّ من أليم الألم(٣) .

أخبرنا إسماعيل ابن أحمد المقرى ، وعبيدالله بن محمد القاضى، ويحيى ابن على المدبّر ، قالوا أنبأنا أبو الحسين بن النَّقُور ، أنبأنا ابن حَبَّابة ، حدثنا البغَوى ، حدثنا هُدْبَة ،

(١) سورة النور ٣٠ . (٢) كذا فى ا وفى ذم الهوى لابن الجوزى . وفى ب ، ت : وقعت .
(٣) العبارة لابن الجوزى فى ذم الهوى ص ٨٢ .

حدثنا حمّاد بن سلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن محمد بن إبراهيم التَّيمى ، عن سَلمة ابن أبى الطُّفيل ، عن علىّ عليه السلام أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « يا علىّ إن لك فى الجنة كنزاً وإنك ذُو قرنَيْها ، فلا تُتْبِع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة [١] » .

فى هذا الحديث إشكال من أربعة وجوه : أحدها : من حيث إسناده ، فربما خيِّل إلى السامع أنه قد سقط منه رجل ، لأنه إذا سمع سلمة بن أبى الطفيل [٢] عن على ، وقد عرف أن أبا الطفيل [٣] يروى عن على يظن [٤] ذلك بل هو صحيح . وسلَمة يروى عن على أيضا .

والثانى : الكناية فى قوله : « وإنك ذو [٥] قَرْنيها » وفيه وجهان : أحدهما : أنها كناية عن هذه الأمة ، كنى عنها من غير ذِكرٍ تقدَّم لها كما قال الله عز وجل : حتَّى تَوَارَتْ بالحِجَاب » [٦] يعنى الشمس ، ولم يتقدم لها ذِكر . والثانى : عن الجنة .

والثالث : يعنى تسميته بذى القرنين وفيه وجهان : أحدهما : إن قلنا إن الكناية عن الأمة فإن عليّاً عليه السلام ضُرِب على رأسه فى الله عز وجل ضربتين الأولى ضربة عمرو بن وُدّ [٧] والثانية ابن مُلْجَم ، كما ضرب ذو القرنين على رأسه ضربةً بعد ضربة . وإنْ قلنا : الكناية عن الجنة فقَرْناها : جانباها . ذكره ابن الأنبارى .

والرابع قوله : « فلا تُتْبِع النظرة النظرة » ربما تخايَل أحدٌ جوازَ القصدِ للأُولى ، وليس كذلك وإنما الأُولى التى لم تُقصد .

وفى أفراد مسلم من حديث جرير بن عبد الله قال : سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفَجْأة فقال : « اصرف بصرَكَ » .

---

(١) ا : الأخرى . (٢) ا : سلمة بن الطفيل . (٣) ا : أن الطفيل . (٤) ا : ظن .
(٥) ا : لذو قرنيها . (٦) سورة ص ٣٢ . (٧) ا : بن عبدود .

وهذا لأنّ النظرة الأولى لم يحضرها القلب فلا يتأمل بها[١] المحاسن ولا يقع الالتذاذ ، فمتى استدامها بمقدار حضور الذهن كانت كالثانية فى الإثم .

وفى حديث النعمان بن سعد ، عن على عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا علىّ اتق النظرة بعد النظرة ، فإنها سهمٌ مسموم تورِث شهوةً فى القلب » .

وروى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نظرُ الرجلِ إلى مَحاسن المرأة سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس ، من تركه ابتغاء وجه الله أعطاه اللهُ عز وجل عبادةً يجد طَعم لَذَّتها » .

وكان عيسى عليه السلام يقول : النظرةُ تَزْرع فى القلب الشهوةَ وكفى بها خطيئة[٢] .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ما كان من نظرة فإن للشيطان فيها مَطْمعا ، والإثم خَزّاز[٣] القلوب . وقال : من أطلق طرْفه كان كثيراً أسفُه .

وقد كان السلف رضى الله تعالى عنهم يبالغون فى الاحتراز من النظر . وكان فى دار مجاهد عُلِّية قد بُنيت ، فبقى ثلاثين سنة ولم يشعر بها[٤] .

وخرج حسان بن أبى سِنَان يومَ عيد ، فلما عاد قالت له امرأته : كم من امرأةٍ حسناء قد رأيتَ ؟ فقال : والله ما نظرتُ إلا فى إبهامى منذ خرجت من عندك إلى أن رجعت إليك[٥] !

وإنما بالغَ[٦] السلفُ فى الغضّ حذرا من فتنة النظر وخوفاً من عقوبته .

فأما فتنته فكم من عابد خرج عن صومعته بسبب نظرة ، وكم استغاث مَن وقع فى تلك الفتنة .

---

(١) ا : فيها . (٢) ذم الهوى ص ٩١ . (٣) كذا فى ا . وفى ب : حزار .
(٤) ذم الهوى ص ٨٧ . والعلية : الحجرة . (٥) المصدر السابق ص ٨٨ . (٦) ب : ولما بلغ . محرفة . والتصويب من ا . وفى ت : وإنما بادر السلف فى التحصن .

قال إبراهيم بن صول (١) :

مِن كان يُؤْتَى من عدوٍّ وحاسدٍ ... فإنِّى مِن عَيْنى أُتيتُ ومن قلبى
هما اعتوَرانى نظرةً بعدَ نظرةٍ (٢) ... فما أَبْقَيا لى من رُقادٍ ولا لُبِّ

وقال آخر :

وأنا الذى اجتلب المنيةَ طَرْفُه ... فمنِ المطالَبُ والقتيلُ القاتلُ (٣)

وقال آخر :

عاتَبْتُ قلبىَ لمّا ... رأيتُ جسمِى نحيلاَ
أجاب قلبىَ طرفِى ... وقال كنتَ الرسولاَ
فألزم القلبُ طرفى ... بل كنتَ أنت الدليلا (٤)
فقلت كُفا جميعاً ... تركتمانى قتيلاَ

وقال آخر :

يا من يرى سُقْمى يَزِيـ ... ـدُ وعِلّتى تُعْيِى طبيبِى
لا تَعْجَبنَّ فهكذا ... تجْنِى العيونُ على القلوبِ (٥)

وقال آخر :

لَواحظُنا تَجْنِى ولا علمَ عندها ... وأنفُسنا مأخوذةٌ بالجرائرِ
ولم أرَ أَغْبىَ من نفوسٍ عفائفٍ ... تصدِّق أخبارَ العيونِ الفواجر
ومَن كانت الأجفانُ حُجَّابَ قلبهِ ... أذِنَّ على أحشائه بالفَواقِرِ (٦)

وقال آخر :

إذا أنت لم تَرْعَ البروق اللوائحَا ... ونِمْتَ جرَى مِن تحتِك الماء سائحًا (٧)

---

(١) ا : ابن صوف . وب : بن صور . وكلاهما تحريف . وهو إبراهيم بن العباس بن صول الكاتب .
(٢) ذم الهوى ص ٩٥ : نظرة بعد فكرة .   (٣) البيت للمتنبي . انظر شرح ديوانه للعكبرى ٣/ ٢٥٠ .
(٤) ذم الهوى ص ٩٨ :

فقال طرفى لقلبى ... بلْ أنتَ كنتَ الوكيلا

(٥) الذم ص ٩٩ . وقد نسبها فيه لأبي عبد الله بن الحجاج .   (٦) ذم الهوى ص ٩٩ . ونسبها فيه لأبي منصور بن الفضل .   (٧) الذم : السيل سائحا .

غرسْتَ الهوَى باللحظ حتى احتقرْته ... فأمْهَلْتـــه مستأنساً متسامحـــاً

ولم تدرِ حتى أينعتْ شجراتُه ... وهبّت رياح الهَجْر فيـــه لواقحاً

وأمسيتَ تَسْتدعِي[1] من الصبرِ عازباً ... عليك وتَسْتَدْنِى من النومِ نازِحاً[2]

وقال آخر :—

والمرء مادامَ ذا عَينٍ يقلّبهــــا ... فى أعْين العِين[3] موقوفٌ على الخطَرِ

يسرُّ مُقلتـــه ما ضرَّ مُهجَته ... لا مرحباً بسرورٍ جاء بالضررِ[4]

وقال آخر :—

لَاعَذّبنَّ العين غير مفـكّرٍ ... فيها جرَتْ بالدمعِ أو فاضتْ دمَا

ولأهجرنَّ من الرقادِ لذيذَه ... حتى يصير على الجفون محرَّمَا

سفـكَتْ دمِى فلأسفـكَنَّ دموعَها ... وهى التى بدأت فكانت أظلَمَا

هى أوقعتْنى فى حبائل فتنة ... لولم تكن نَظرتْ لكنتُ مسلَّماَ[5]

وقال آخر :

وسهامُ اللَّحظ يُنتَخَـلْنَ فى وقتِ الوقوعِ

ثم يُصْرَفن فلا يُقْـلِعْنَ إلا عن صَرِيعِ[6]

وقال آخر :

إن كان[7] طَرْفى أصل سُقْمى فى الهوى ... لا أذاق الله عيـــنى[8] الوسنَا

لو تحرَّى فى مَرامِى لَحْظـــه ... يومَ سَلْعٍ ما عنَانِى ما عنـــاَ[9]

غيره :

يا عينُ أنتِ قتلتِنى ... وجعلتِ ذنبك مِن ذنوبى

---

(١) الأصل : تستدنى . وما أثبته من ذم الهـوى ص ١٠٠ (٢) الذم : بارحاً . وقد نسب فيه الأبيات لعبد المحسن بن غالب الصورى . (٣) ت : الغيـد . (٤) الذم ص ١٠١ وهى لعبد المحسن بن غالب أيضا. (٥) الذم ص ١٠٠ وهى للوزير أبى شجاع . (٦) الذم ص ١٠٢ . ونسبها لشيخه أبى عبد الله البارع . (٧) كذا بالأصول . وفى ذم الهوى : كان طرفى . (٨) الذم : طرفى . (٩) الذم ص ١٠٢ .

وأراكِ تَهْوَيْن الدُّمو ... عَ كأنها ريق الحبيبِ
تالله أحلفُ صادقاً ... والصدقُ من شِيَمِ الأريبِ
لو مُيِّزت نُوَب الزما ... نِ من البعيدِ إلى القريبِ
ما كُنَّ إلا دونَ ما ... جَنتِ العيونُ على القلوبِ (١)

***

وأما عقوبة النظر فقد روى ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يتشَلْشل (٢) دماً ، فقال له مالَكَ ؟ فقال : مرَّت بى امرأة فنظرتُ إليها فلم أزل أتبعها بصَرى فاستقبلنى جِدار فضربنى فصنع بى ماترى . فقال :« إنَّ الله عز وجل إذا أراد بعبدٍ (٣) خيرا عجَّل له عقوبته فى الدنيا » .

أخبرنا أبو بكر بن حبيب ، أنبأنا أبو سعيد الحِيرِىّ ، أنبأنا ابن باكُوَية ، أنبأنا أبو عبد الله الرازى ، عن أبى يعقوب النهرجُورِىّ ، قال : رأيت فى الطواف رجلاً بفَرْد عينٍ وهو يقول فى طوافه : أعوذبك منك . فقلت له : ماهذا الدعاء ؟ فقال : إنى كنت مجاوراً منذ خمسين سنة فنظرتُ إلى شخصٍ يوماً فاستحسنْتُهُ ، فإذا بلطمةٍ وقعتْ على عينى فسالتْ على خدِّى ، فقلت : آه . فوقعت أخرى ، وقائل يقول : لو زدتَ لزدناك (٤) .

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزَّاز ، أنبأنا أحمد بن على الحافظ ، قال كتب لى أبو حاتم أحمد بن الحسين الرازى ، يذكر أنه سمع محمد بن أحمد بن عبد الوهاب الحافظ يقول : قال أبو سعيد أحمد بن محمد الصوفى : حدثنا عبد الرحمن بن أحمد بن عيسى ، عن أبى الأديان (٥) قال كنت مع أستاذى أبى بكر الدقَّاق فمرَّ حدَث فنظرتُ إليه ، فرآنى أستاذى وأنا أنظر إليه فقال . يابنى لَتجِدَنَّ غِبَّها ولو بعدَ حِين . فبقيتُ عشرين سنة وأنا أراعى الغِبَّ ، فنمت ليلةً وأنا متفكر فيه فأصبحت وقد نسيتُ القرآن كله (٦) .

أخبرنا أبو بكر الصوفى ، أنبأنا أبو سعد بن أبى صادق ، حدثنا أبو عبدالله الشِّيرازى ،

(١) ذم الهوى ص ١٠٢ . (٢) يتشلشل : يقطر متتابعا . (٣) ب : بعبده . والحديث فى ذم الهوى ١٢٦ . قال الترمذى : وهو حديث حسن . (٤) ذم الهوى ص ١٢٨ . (٥) كذا بالأصول وذم الهوى . (٦) ذم الهوى ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

أنبأنا محمد بن أحمد النجار ، أخبرنى أبو بكر الكِتّانى ، قال : رأيت بعض أصحابى فى المنام فقلت له ما فعل الله بك ؟ فقال : عرَض علىَّ سيئاتى وقال : فعلتَ كذا وكذا ؟ فقلت : نعم . قال : وفعلت كذا ؟ فقلت : نعم . قال : وفعلتَ كذا وكذا فاستحييتُ أن أُقِرّ ، فقلت له : ما كان ذلك الذنب ؟ فقال : مرّ بى غلامٌ حسن الوجه فنظرت إليه (١) .

وقد روى عن أبى عبد الله الزرّاد أنه رُئى فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى كلَّ ذنب أقررتُ به إلا واحدا استحييت أن أقرّ به ، فأوقفنى فى العرق حتى سقط لحمُ وجهى . قيل : ما كان الذنب ؟ قال : نظرت إلى شخص جميل (٢) .

وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «كلُّ عينٍ باكية يومَ القيامة إلا عينٌ (٣) غضّتْ عن محارم الله ، وعينٌ سهرتْ فى سبيل الله ، وعين يخرج منها مثلُ رأس الذباب — يعنى الدموع — من خشية الله (٤) » .

***

إخوانى : تذكّروا مصير الصُّوَر ، وتفكروا فى نزول بيت المدَر ، وتلمّحوا بعين الفكر فى حال الصفا والكدَر ، واعلموا أنكم فى دار البلاء فالحذَرَ الحذر .

أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمى ، حدثنا أبو بكر الخطيب ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد النيسابورى ، أنبأنا محمد بن عبد الله بن شاذان ؛ قال : سمعت أبا عبد الله القُرَشى يقول : كان لى جار شاب وكان أديبا ، وكان يهوى غلاما أديبا ، فنظر يوماً إلى طاقاتِ شَعرٍ بيض فى عارضَيْه فوقع له شىء مِن الفكر (٥) فهجرَ الغلامَ ، فكتب إليه الغلام :

مالى جُفيتُ وكنت لا أُجْفَى ودَلائِلُ الهجْرانِ لاتَخْفَى
وأراك تَمْزِجنى وتَشْربنى ولقد عهدُتك شاربِى صِرْفَا

---

(١) ذم الهوى ص ١٢٩ . (٢) ذم الهوى ص ١٢٩ . (٣) كذا فى الأصول ، وذم الهوى لابن الجوزى والرواية فى « إلا عينان» . (٤) أخرجه أبو نعيم فى الحلية . وهو فى ذم الهوى ص ١٤١ . (٥) ذم الهوى : شىء من الحق .

فقلب الرقعة وكتب فى ظهرها : ـ

التَّصَابِى مع الشَّمَط سُمْتَنِى خطّـــةً شَطَطْ
لاتلُمْنِى على جَفَـــا ىَ لَخَسْبِى الذى (١) فرَطْ
أنا رَهْنٌ بمـا جَنَيْـــتُ فذَرْنِى من الغلطْ
قد رأينـــا أبا الخلا ئق فى زَلّة هبَطْ (٢)

***

إخوانى : الدنيا سُموم قاتـلة ، والنفوس عن مكائِدها غافلة ، كم من نظرةٍ تحلو فى العاجلة ، مرارتُها لا تُطاق فى الآجلة ، يابن آدم قلبُك قلبٌ ضعيف ، ورأيك فى إطلاق الطَّرْف رأىٌ سخيف ، ياطفل الهوى متى يُؤْنَس منك رُشْد ، عينك مُطْلقة فى الحرام ، ولسانك مُهمَل فى الآثام ، وجسدك يتعب فى كسب (٣) الحطَام ، كم نظرة محتقَرة (٤) زلَّت بها الأقدام .

فتَبَصَّرْ ولا تَشِمْ كلَّ بَرْقٍ رُبَّ بَرْقٍ فيه صَواعقُ حَيْنِ
واغضُضِ الطَّرْف تَسْترح من غرام تــكتبِى فيه ثوبَ ذلٍّ وشَيْنِ
فبلاء الهوَى (٥) موافقةُ النفـــس وبدْء الهوى طموحُ العَيْنِ (٦)

سجع على قوله تعالى

﴿ قُلْ للمؤمنين يَغُضُّوا من أبصارِهم ﴾

يا عجبا للمشغولين بأوطارهم عن ذكر أخطـارهم ، لو تفكّروا فى حال صفائهم فى أكدارهم ، لمَا سلكوا طريق اغترارهم ، أمَا يكفى فى وعظهم وازدجارهم : «قل للمؤمنين يغضُّوا من أبصارهم» .

الدنيا دار الآفات والفتن ، كم غرَّت غِرًّا وما فطن ، أَرتْه ظاهرَها والظاهر حسَن ،

---

(١) الذم : لحسبى بما فرط . (٢) ذم الهوى ص ٢٦٩ . (٣) ا : بكسب . (٤) ب : محترقة . محرفة . والتصويب من ا . (٥) ا : فبـلاء الفتى اتباع هوى النفس . ورواية ذم الهوى :

* فبلاء الفتى مُوافَقَةُ النَّفْس .. *

(٦) الأبيات نسبها ابن الجوزى فى ذم الهوى ص ١٠٣ لابن الحريرى .

فلما فتح عين الفكر من الوسَن قال ربِّ ارجعونِ ولن ، وَيْح المقتولين بسيف اغترارهم ، والشّرْع ينهاهم عن أوزارهم « قل للمؤمنين يغضُّوا من أبصارهم » .

أين أربابُ الهوى والشهوات ، ذهبت والله اللذاتُ دون [١] التبعات ، وندموا إذْ قدِموا على مافات ، وتمنوا بعد يُبْس العُود العَوْدَ وهَيْهات ، فتلمَّحْ فى الآثار سوءَ أذكارهم « قل للمؤمنين يغضُّوا من أبصارهم » .

نازلهم الموتُ على الذنوب ، فأُسِروا فى قيود الجهل والعيوب ، فرحلتْ لذاتٌ خلَتْ عن الأفواه والقلوب ، وحزنوا على الفائِت ولا حُزْن يعقوب ، حين خرجوا من ديارهم فى ثياب إدبارهم [وعِصِىّ التوبيخ فى أدبارهم] [٢] « قل للمؤمنين يغضُّوا من أبصارهم » .

قل للناظرين إلى المشتهَى فى ديارهم ، هذا أنموذج من دار قَرارهم ، فإن استعجل أطفالُ الهوَى فدارِهم ، وعِدْهم قُرْبَ الرحيلِ إلى دارهم « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » .

احذروا نظرةً تفسد القلوب ، وتجنى عليكم الذمّ [٣] والعيوب ، تُسْخط مولاكم عالم الغيُوب ، لقد وصف الطبيب حِمْيةً للمطبوب ، فلو استعملوا الحِمْيَة لم تتعرض الحمَّى بأبشارهم « قل للمؤمنين يغضُّوا من أبصارهم » .

وفقنا الله وإياكم للهدى ، وعصمنا من أسباب الجهل والردَى ، وسلَّمنا من شر النفوس فإنها شرّ العِدَى ، وجعلنا من المنتفعين بوعظ أخيارهم « قل للمؤمنين يغضُّوا من أبصارهم » .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه .

---

(١) ا : وبقيت التبعات . وماأثبته من ب ، ت . (٢) سقطت من ب . (٣) ب : الذنب .

المجلس الحادى عشر

فى قصة ذى القرنين

الحمد لله الذى أَسْرَى لطفه ففك الأسرى ، وأجرى بإنعامه للعاملين أجرا ، وأسبل بكرَمه على العاصين سِتْرا ، وقسَم بنى آدم عبداً وحُرّا ، ودبَّر أحوالهم غِنًى وفقراً [كما رتَّبَ البسيطة عامراً وقَفْراً [١]] وقوَّى بعض عباده [على السِّياحة] [٢] فقطعها شِبْرا شبرا « وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً » .

أحمده حمدا يكون لى عنده ذُخرا ، وأصلّى على رسوله مقدَّم الأنبياء فى الدنيا والأخرى ، وعلى أبى بكر الذى أنفق المالَ على الإسلام حتى مال الكفُّ صِفْرا ، وعلى عمر الذى كسَرت هَيْبتُه كِسْرى ، وعلى عثمان المقتول من غير جُرْم صَبْرا ، وعلى علىّ الذى كان الرسول يعزّه بالعلم عِزّا [٣] ، وعلى عمه العباس أعلاهم فى النسب قَدْرا .

***

قوله تعالى : « وَيَسْأَلُونك عن ذِى القَرْنَيْن » [٤] .

الذين سألوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم هم اليهود . وفى اسم ذى القرنين أربعة أقوال : أحدها : عبد الله . قاله علىّ عليه السلام . والثانى : الإسكندر . قاله وهب . والثالث : عياش . قاله محمد بن على بن الحسين . والرابع الصَّعْب بن جابر . ذكره ابن أبى خيثمة .

وفى تسميته بذى القرنين عشرة أقوال : أحدها : أنه دعا قومه إلى الله عز وجل فضربوه على قرنه فهلك فغبرَ [٥] زماناً ثم بعثه الله تعالى ، فدعاهم إلى الله فضربوه على قرنه الآخر فهلك ، فذانك قرناه . قاله على عليه السلام . والثانى : أنه سمّى بذى القرنين لأنه سار من مغرب الشمس إلى مَطْلعها . رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثالث : لأن صفحتى رأسه كانتا من نحاس . والرابع : لأنه رأى فى النوم كأنه امتد من السماء إلى

---

(١) سقطت من ب . (٢) من ا . (٣) غرا . (٤) سورة الكهف . (٥) غبر : بقى . وفى ا : زمان .

الأرض فأخذ بقَرْنَى الشمس ، فقصَّ ذلك على قومه فسمى بذى القرنين . والخامس : لأنه ملَك الرومَ وفارس . والسادس : لأنه كان فى رأسه شِبْهالقرنين . رويت هذهالأقوال الأربعة عنوهب بن منبه رضى الله عنه. والسابع : لأنه كانت له غديرتان من شعر . قاله الحسن . قال ابن الأنبارى : والعرب تسمِّى الضَفيرتين من الشعر غديرتين وقرنين (١) .

[قال : ومن قال سمى بذلك لأنه ملك فارس والروم قال لأنهما عاليان على جانبين من الأرض يقال لهما قرنان (٢)] والثامن : لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت ذى شرف . والتاسع : لأنه انقرض فى زمانه قرنان من الناس وهو حىّ . والعاشر : لأنه ملَك الظُلمة والنور . ذكر هذه الأقوال الثلاثة أبو إسحاق الثَّعلبى .

***

واختلفوا : هل كان نبيًّا أم لا على قولين : أحدهما : أنه كان نبيًّا . قاله عبد الله ابن عمرو والضحاك . والثانى : أنه كانعبداً صالحا ولم يكن نبيًّا ولاملِكا ، قالهعلى عليه السلام . وقال وهب : كان ملِكا ولم يوحَ إليه .

وفى زمان كونه ثلاثة أقوال : أحدها : أنه كانمنالقرون الأولى من ولد يافث بن نوح. قاله علىّ عليه السلام . والثانى : أنه كان بعد ثمود . قالهالحسن . والثالث : كان فى الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام . قاله وهب وفيه بُعْد .

***

قوله تعالى : « سأتلو عليكُمْ مِنه ذِكْراً » أى خبرا يتضمن ذِكْره «إنَّا مكَّنَّا له فى الأرْض » أى سهَّلنا عليه السير فيها . قال على عليه السلام : إنه أطاع الله فسخّر له السحاب ، فحمله عليه ومدّ له فى الأسباب وبسط له النور ، فكان الليل والنهار عليه سواء . قال مجاهد : ملَك الأرض مؤمنان وكافران . فالمؤمنان : سليمان بن داود وذو القرنين . والكافران : نمرود وبختنصَّر .

قوله تعالى : « وآتيْنَاه مِنْ كُلِّ شىء سَبَباً » قال ابن عباس : عِلْم ما يتسبب به إلى

---

(١) العبارة محرفة فى ا ب . وما أثبته من ت . (٢) سقطت من ا .

ما يريد . وقيل : هو العلم بالطرق والمسالك « فأُتبِّع سَبَبًا » أى قفا الأثر . وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى : « فأتبع » فى المواضع الثلاثة . قال أبو على : التقدير فأتبع سبباً سبباً . والسبب : الطريق .

قوله تعالى « فى عَيْنٍ حَمِئة » أى ذات حمأة . وقرأ ابن عامر وحمزة : « حامية » أى حارة . قال الحسن : وجدها تغرب فى ماء يغلى كغليان القِدْر ويفيض من الماء تلك العين الحارة حتى يفيض حولها مسيرة ثلاثة أيام فلا يأتى على شىء إلا احترق ووجد عندها قوماً لباسهم جلود السباع وليس لهم طعام إلا ما أحرقت الشمس من الدواب إذا غربت نحوها وما لفظت العَيْن من الحيتان .

« قُلْنَا يَاذَا القَرْنَيْنِ » من قال هو نبىّ قال : هذا وَحْى ، ومن قال ليس بنبى قال : إلهام « إمّا أنْ تُعذِّبَ » أى تقتلهم إن أبوا ما تدعوهم إليه ، وإما أن تأسرهم فتبصّرهم الرشد . « قال أمَّا مَنْ ظَلَمَ » أى أشرك «فسوفَ نُعذِّبُه» بالقتل إذا لم يرجع عن الشِّرك « ثم يُرَدّ إلَى رَبِّه » فيعذبه بالنار .

قوله تعالى : « فَلَه جَزاءً الحُسْنَى » قال الفراء : الحسنى الجنة وأضيف الجزاء إليها . وهى الجزاء كقوله تعالى : « وإنه لَحَقُّ اليقين (١) » « ولَدَارُ الآخِرَة (٢) » قال أبو على الفارسىّ : المعنى فله جزاء الخلال الحسنى . وقرأ حمزة والكسائىّ : « فله جَزاءً » بالنصب والتنوين . قال الزّجّاج : وهو مصدر منصوب على الحال . والمعنى : فله الحسَنَى مجزيًّا بها جزاء . « وسنقولُ له مِنْ أَمْرِنا يُسْراً » أى قولاً جميلا .

« ثم أَتْبَعَ سَبَبًا » أى طريقا آخر توصله إلى المشرق . قال قتادة : مضى يفتح المدائن ويجمع الكنوز ويقتل من لم يؤمن حتى أتى مطلَع الشمس ، فوجد أقواما عراة فى أسراب لهم ليس لهم طعام إلا ما أحرقت الشمس إذا طلعت ، فإذا توسطت السماء خرجوا من أسرابهم فى طلب معايشهم مما أحرقته ، وبلغنا أنهم كانوا فى مكان لا يثبت عليه بنيان .

---

(١) سورة الحاقة ٥١ . (٢) سورة الرعد ١٠٩ .

قال الحسن : إنهم كانوا إذا غربت الشمس خرجوا يرعَون كما يرعى الوحش .

قوله تعالى : « كَذلكَ » أى كما بلغ مغربَ الشمس بلغ مطلعها « وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيه » أى بما عنده ومعه من الجيوش « خُبْرا . ثم أَتْبَعَ سَبَباً » أى طريقا ثالثا بين المشرق والمغرب « حتى إذا بَلَغَ بَيْن السَّدَّيْن » قال وهب بن منبه : هما جبلان مُنِيفان فى السماء من ورائهما البحر . وقرأ نافع بضم السين . قال ثعلب : هما لغتان . وقال أبو عبيدة : ما هو مِن فِعْل الله تعالى فهو مضموم . وما هو مِن فعل الآدميين فمفتوح .

قوله تعالى « لا يَكَادُون يَفْقهون قَوْلاً » أى لا يفهمونه إلا بعد إبطاء .

***

وأما يأجوج ومأجوج فهما رجلان من أولاد يافث بن نوح قال على عليه السلام : منهم من طُوله شِبْر ومنهم من هو مُفْرط [1] فى الطول ، ولهم شعر يواريهم من الحر والبرد ، وكان فسادهم قتلَ الناس « فهل نَجْعَلُ لكَ خَرْجاً » وقرأ حمزه : خَراجاً . قال الليث : هما لغتان . وقال أبو عمرو بن العلاء : الخَرْجُ ما تبرعْتَ به ، والخَراج : ما لزمك أداؤه . « قال ما مَكَّنِّى فيه ربِّى خَيْرٌ » مما تبذلون « فأعِينُونى بقُوَّة » قال مجاهد : بالرجال وقال ابن السائب : بالآلة . والرَّدْم : الحاجز [2] . والزُّبَر : القطع والصَّدَفان : جانبا الجبل .

قال علماء السِّير : لمّا وصل إلى مدنٍ خَرِبَة قد بقى فيها بقايا سألوه أن يسدَّ ما بينهم وبين يأجوج ومأجوج ، فأمر الصُّناع فضربوا اللَّبِن من الحديد ، طولُ كل لَبِنة ذراع ونصف وسُمْكها شبر .

وروى سَلاَّم الترجمان قال : بعثنى الواثق إلى السَّد وضم إلَّى خمسين رجلا ، وأعطانا مالا ، فما زلنا نتنقَّل البلادَ وتبعث الملوكُ معنا الأدِلَّاء إلى أن صرنا إلى أرض سوداء منتنة الريح ، فسرنا فيها عشرة أيام ، ثم صرنا إلى مدنٍ خراب فسرنا فيها خمسة وعشرين يوما ، وهى التى كانت يأجوج ومأجوج يَطْرقونها ، ثم صرنا إلى حصون بالقرب

---

(١) ا : ومنهم من طوله مفرط . (٢) ب : والحاجز .

من السد وفيها قومٌ يتكلمون بالعربية والفارسية مسلمون يقرأون القرآن ، فسألونا : من أين أقبلتم ؟ قلنا : نحن رسل أمير المؤمنين . قالوا : ما سمعنا بهذا قط . ثم صرنا إلى جبل أملس وفيه السَّد ، وهناك باب حديد له مصراعان مُغْلقان[١] ، عرضُ كل مصراع خمسون ذراعا فى ارتفاع خمسين فى ثخن خمسة أذرع ، وقائمتاهما فى دَوَّارة ، وعلى الباب قِفْل طوله سبعة أذرع فى غلظ ذراع ، وارتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعا ، وفوق القفل بقدر خمسة أذرع غَلَق[٢] طوله أكثر من طول القفل وقفيز[٣] ، وعلى الغلق مفتاح معلق فى سلسلة طولها ثمان أذرع فى استدارة أربعة أشبار ، وعتبة الباب عشرة أذرع ، ورئيس تلك الحصون يركب فى كل جمعة فى عشرة فوارس ، مع كل فارس مِرْزَبّة حديد ، فيضرب القفل بتلك المرزبات مرات ليسمعوا الصوت فيعلموا أن هناك حفَظة .

وقد روينا أن يأجوج ومأجوج يحفرون السد كل يوم . أخبرنا ابن الحصين ، أنبأنا ابن المذهَب ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا رَوْح ، حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادة ، حدثنا أبو رافع ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إنّ يأجوج ومأجوج ليَحفرون السد كلَّ يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً . فيعودون إليه فيرونه كأشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتُهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس ؛ [حفروا[٤]] حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله . فيعودون إليه وهو على هيئته التى تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون المياه ويتحصَّن الناسُ منهم فى حصونهم ، فيَرْمون بسهامٍ إلى السماء ، فترجع وعليها كهيئة الدم فيقولون . قهرنا أهلَ الأرض وعلَوْنا أهلَ السماء ، فيبعث الله عليهم نغفا[٥] فى أقفائهم فيقتلهم بها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده

(١) ا : معلقان . (٢) الغلق : ما يغلق به الباب . (٣) القفيز : مائة وأربع وأربعون ذراعاً .
(٤) سقطت من ب . (٥) النغف : كذا بالأصل . والنغف : دود فى أنوف الإبل والغنم .

إن دوابَّ الأرض لتسمن [وتَشْكر (١)] من لحومهم ودمائهم .

***

ثم إن ذا القرنين لما عاد بلَغ بابِل ، فنزل به الموتُ فكتب إلى أمه يعزّيها عن نفسه ، وكان فى كتابه : اصنعى طعاماً واجمعى من قدرتِ عليه من أبناء المملكة ، ولا يأكل من طعامك من أصيب بمصيبة . ففعلت فلم يأكل أحد ، فعلمت ما أراد .

فلما وصل تابوتُه إليها قالت : ياذا الذى بلغت السماءَ حكمتُه وجاز أقطارَ الأرض مُلْكه ، مالك اليومَ نائمٌ لاتستيقظ ، وساكت لا تتكلم ، من يُبلغك عنِّى أنك وعظتَنى فاتعظْتُ وعزَّيْتنى فتعزيت ، فعليك السلام حيًّا وميتا !

الكلام على القبر

أتُنْكر أمر الموتِ أم أنتَ عارفٌ	بمنزلةٍ تفنى وفيها المتآلِفُ
كأنك قد غُيِّبت فى اللحد والثَّرَى	كما لقِىَ الموتَ القرونُ السوالفُ
أرى الموتَ قد أفنَى القرونَ التى مضتْ	فلم يبقَ مألوفٌ ولم يبقَ آلِفُ
كأنَّ الفتَى لم يَصْحب الناسَ ليلةً	إذا عُصِبت يوماً عليه اللفائفُ
وقامت عليه عُصْبةٌ يَدْفنونه	فمستدْرِكٌ يبكى حزيناً وهاتفُ (٢)
وغيِّب فى لحدٍ كريهٍ فِناؤه	ونُضِّدَ من لَبْن عليه السَّقائفُ
وما صاحبُ البحر القَطِيع مكانُه	إذا هاج آذِى (٣) من عليه وقاصِفُ
أحقَّ بطُول الحُزْن من ضَيْف غُرْبة	تصدَّع عنه أهلُه والمعارفُ

أين من ربح فى متاجر الدنيا واكتسب ، أين من أُعطى وأُولِى ثم والَى ووهَب ، أمَا رحل عن قصره الذهبُ فذهب ، أما حلَّ به فى الحرب المصْطَلِم الحرب ، أما نازَله التلفُ وأسَره العطَب ، أما نابتْه نائبة لاتُشْبه النُّوَب ، أنفعه بكاء من بكى أو نَدْب من ندب ، أما ندِم على كل ما جنَى وارتكب ، أمَا توقنون أن طالبه لكم فى الطَّلَب ، تدبَّروا قولَ ناصحكم صَدق أو كذب .

---

(١) ا : وتسكر . محرفة . وتشكر : تسمن . والكلمة ساقطة من ت . (٢) ا : فمستدرك يبكى عليه وهاتف . وفى ت : وتالف . (٢) كذا فى ب ، ت . وفى ا : أغرق من عليه .

قال ميمون بن مهران : خرجتُ مع عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى المقبرة ، فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل عليّ فقال : ياأبا أيوب : هذه قبور آبائى كأنهم لم يشاركوا أهلَ الدنيا فى لذتهم(١) وعيشهم ، أمَا تراهم صَرْعَى قد حلَّت بهم المَثُلاَت واستحكم فيهم البلاء ، وأصاب الهوامُّ فى أبدانهم مَقِيلا ! ثم بكى حتى غشى عليه ثم أفاق فقال : انطلقْ بنا فوالله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمِن مِن عذاب الله عز وجل .

صُوَرٌ طواها الموتُ طَيًّا ... كانت محبَّبــةً إليًّا
تبــلَى ويأكلهــا الترا ... بُ وذِكْرها غَضٌّ إليًّا
صرعَى بأنواع الحتو ... فِ كأنهم شَرِبوا الْحُمَيَّا(٢)
لَهْفِى على تلك الوجــو ... هِ وهلْ يردُّ اللَّهفُ شَيَّا
أبــكى عليهــم ثم أرْ ... جع بعــدَهم أبــكِى عَليَّا
أنا ميِّتٌ بعــدَ الحيا ... ةِ وميِّت للحُزْن حَيَّا
بَيْــتِى الثرَى ولو أننى ... نِلْتُ السماء أو الثُّريَّا
ولو اعتبرت لعــادلى(٣) ... غَيْلانُ وهو يذمّ ميًّا(٤)
مَنْ للسماء بأن تدو ... مَ وأنهــا تُدْعى سُمَيَّا
هيهات لا ترجو البقــا ... ءَ وابكِ نفسَك يا أُخَيَّا(٥)

***

كأنك بالموت وقد فصَم العُرَى التى بهــا قد تمــكنتَ ، ونقلَك إلى قبرٍ ترى فيــه ما أسأت وما أحسنت ، ثم تقوم للجزاء على ما أسررت وما أعلنت ، فتزيَّن بالتقوى فطوبى لك إن تزيّنت ، واعمل اليومَ ما ينفعك غداً وإلا فمن أنت .

كم طوَى الموتُ من نعيمٍ وعزٍّ ... وديارٍ من أهلِهــا أخلاَهَا

---

(١) ا : فى لذاتهم . (٢) الحميا : الخمر . (٣) كذا فى ب . وفى ا : لعاذلى .
(٤) غيلان: هو ذو الرمة غيلان بن عقبة . ومى : هى محبوبته مية بنت عاصم المنقرى. يريد أن ذا الرمة ذم ميا بعد أن كان يحبها . (٥) ا :

.. لا يُرْجىَ البقاء ... وابــكى لنفسك

وجنودٍ أحالهـا[١] وجُدود ووجوهٍ أحالَ منهـا حِلاَهَا
أين من كان ناعما فى قصور بعلا المكرماتِ شِيدتْ عُلَاهَا[٢]
قد جفَاها من كان يرتاح حيناً[٣] نحوَها بعـد إلْفـه وقِلاَها

***

يا من فى حُلَل جهله يرفل ويَمِيس ، يا مؤثرا الرذائلَ على أنفس نفيس ، يا طويل الأمل ماذا صنع الجليس ، يا كثير الخطايا أشمتَّ إبليس ، من لك إذا فاجأك مُذِل الرئيس ، واحتوشَتْك أعوانُ ملَك الموت وحَمِى الوطيس ، ونُقلتَ إلى لحدٍ مالك فيه إلا العمل أنيس ، أين أَمْسُك يا من أمسَك عُرَى أمله ، أمَا ذهب عن كل عبد ببعضِ أجله ، أين لذاتُ شهواتك فيما مضى من عمرك ، أما تصرَّمَتْ والوزر على ظهرك ، أمَا الدنيا تَخْدع مريدَها ، أمَا العِبَر تجاذِب[٤] مستفيدها ، أمَا زياداتُ الأيام تَنْقص الأجَل ، أمَا كمالُ الأمْن قَرِينُ الوجَل .

[ومَنْ لِكسرى لو فدَى نفسَه بكل ما أحرزَه من بدَرْ
أنْصبتِ العُمَّارَ ساحاتُهم ثم تخلَّى عامرٌ مِن عُمَر
فاسْمُ بذِكْر الله لا غـيره فإنّ ذكر الله خـير السَّمَر
وشمِّر الذيلَ إلى عفوه فكل مَسْعودٍ إليه انشمر[٥]]

كان الحسن يقول : الثَّواء هاهنا قليل ، وأنتم آخر أمتكم ، وأمتكم آخر الأمم ، وقد أُسرع بخياركم[٦] ، فماذا تنظرون إلا المعايَنة ، فكأنها والله قد كانت ، ما بعدَ نبيكم نبيّ ولا بعد كتابكم كتابٌ ، ولا بعد أمتكم أمّة ، تسوقون الناسَ والساعة تَسُوقكم ، وما ينتظر أوَّلكم إلا أن يلحق آخرُكم ، فيا لهـا موعظـة لو وافقت من القلوب حياة .

---

(١) ا : أحلها . (٢) فى ب محرفة : بعلا المكرمات شديد علاها . والتصويب من ا، ت .
(٣) ا ، ت : حبا . (٤) ا ، ب : تحادث . (٥) سقطت من ا .
(٦) ب : وقد أسرع محببا بكم . وفى ا : بحياتكم . وما أثبته من ت .

رضِيَ الفتى بعَنائه وشقائه   لو أن ظـل بقائه ممـدودُ
ويحٌ له ما إن يعـدّ لنفسه   ويُبيده نفَسٌ له معـدودُ
يُغـذَى بأسقيةٍ له وألِذَّة   لو كان ينفع فى الحياة لدودُ(١)
ملِكٌ يشيِّد ما بنَى ويَشِيد أَزْ   كان البِناء وركُنه مهـدودُ
ويرى طريقَ الحق كلُّ أخِي حِجًا   وكأنه عن فعله(٢) مَصْـدودُ
جسَدٌ بكِدٌ لأن يفوز بقُوتهِ   فإن استراح فقلبُـه المكدودُ

الكلام على قوله تعالى

«فهَلْ يَنظُرونَ إلاّ الساعَةَ أنْ تأتِيَهم بَغتَةً»

«فهل يَنظُرون» بمعنى ينتظرون . والساعة : القيامة . سميت ساعةً لأنها تكون فى ساعة . والبَغْتة : الفَجْأة . والأشراطُ : العلامات .

أخبرنا أبو نصر الطُّوسى وأبو القاسم السَّمَرْقندِىّ وأبو عبد الله بنْ البنَّاء ، وأبو الفضل بن العالة وأبو الحسن الخياط ، قالوا أنبانا أبو الحسين بن النَّقُور ، أنبأنا ابن حَبَّابة ، حدثنا البغَوى ، حدثنا طالوت بن عباد ، حدثنا فضَال بن جُبَير ، عن أبى أمامة قال : سمعتُ النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : «إن أولَ الآيات طلوعُ الشمسِ مِن مَغْربها» .

أخبرنا أبو القاسم الكاتب ، حدثنا الحسن بن على ، أنبأنا أبو بكر بن مالك ، حدثنا عبدالله بن أحمد ، حدثنا أبى ، حدثنا عبدالرحمن بن مهدى ، عن مالك بن أبى الزِّناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «لا تقومُ الساعة حتى يمرّ الرجلُ بقبر الرجل فيقول : يا ليتنى مكانك» .

أخرجاه فى الصحيحين .

---

(١) ا :
يُغذَى بأسقية له وأكدة   لو كان ينفع فى الحياة كدود

(٢) ا : من فعله .

وفى لفظ : وما به إلا البلاء .

وفى الصحيحين من حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن من أشراط الساعة أن يُرْفع العِلْم ويظهر الجهل وتُشْرب الخمرُ ويظهر الزنا ، ويقلّ الرجالُ ويَكْثر النساء حتى يكون قَيِّم خمسين امرأة رجلٌ واحد .

وفى أفراد البخارى من حديث أنس أن عبدالله بن سلاَم[١] أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ما أولُ أشراط الساعة ؟ قال : أول أشراط الساعة نار تخرج من المشْرق فتحشر الناس إلى المغرب .

وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا تقوم الساعة حتى يُقْبَض العِلْم وتكثر الزلازلُ وتظهر الفتن ويتطاول الناسُ فى البنيان ولتقومنّ[٢] الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما[٣] فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجلُ بلبن لِقْحَته[٤] فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وقد رفع الرجل أكلته إلى فيه فلا يَطْعمها .

وفى حديث أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى تكلِّم السباعُ الإنسَ ويكلِّم الرجلَ عَذبةُ[٥] سَوْطه وشِراك نعله وتخبره فخذه بما أحدَث أهلُه بعدَه » .

أخبرنا عبد الملك بن أبى القاسم الكَرُوخى ، حدثنا أبو عامر الأَزْدى وأبو بكر الغُورَجىّ ،قالا أنبأنا الجرّاحى،حدثنا المحبوبى،حدثنا الترمذى، حدثنا صالح بن عبيدالله ، حدثنا الفرَج بن فضَالة ، عن يحيى بن سعيد ، عن محمد بن عمر ، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا فعلتْ أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء . قيل: وما هى يا رسول الله ؟ قال: إذا كان المَغْنم دُولًا ، والأمانة مَغْنما ، والزكاة مَغرما ، وأطاع الرجل زوجتَه وعقّ أمه ، وبرّ صديقه وجفا أباه ، وارتفعت

---

(١) ا : من حديث أنس وعبد الله بن سلام أن رجلا أتى . (٢) ب : ولتقوم .
(٣) ا : ثوبيهما . (٤) اللقحة : اللقوح ، وهى الناقة الحلوب . (٥) العذبة : الطرف .

الأصوات فى المساجد ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأُكرم الرجلُ مخافة شره ، وشُربت الخمور ، ولُبس الحرير ، واتُّخذت القِيَان والمعازف ،ولعن آخر هذه الأمة أولَها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء أو خسفاً أو مَسْخاً » .

***

اعلم أنك إن لم تدرك أشراطَ القيامة فقيامتُك العاجلة مَوْتك ، فإذا حانت ساعةُ الوفاة فات زمنُ الاستدراك وخرج ربيع البدَار ، فسُدَّ باب الإجابة عن دعاء الإنابة ، كما قال عز وجل فى القيامة : «فأنَّى لَهُمْ إذا جاءتْهم ذِكْراهم» أى فمن أين لهم إذا جاءتهم الساعة أن يتذكروا ويتوبوا إذا جاءت ، فكذلك عند صَرْعة الموت لا عَثْرة تُقَال ولا توبة تُنال .

روى مروان بن سالم عن البُرْجُمِىّ رفَعه ، قال : احضروا موتاكم ولقِّنوهم لا إله إلا الله وبشروهم بالجنة ، فإن الحليم العليم يتحيّر عند ذلك المصرَع ، وإن إبليس أقرب مايكون من العبد فى ذلك الموطِن عند فراق الدنيا وتَرْك الأحبة .

خُذْ لا أبالك للمنيـــةِ عُدّةً   واحتَل لنفسك إن أردْت صَلاحَها
لا تَغْـــترر فكأننى بعُقَاب رَيْـ   ـب الدهرِ قد نشَرتْ عليك جَناحَها

ويحك[1] ! أمن الأخرى عِوض ؟ أنتم فى الدنيا عرَض ، يا من كلما بنَى نقض ، يا من كلما رفع انخفض ، يا عجيب الداء والمرض ، كم شاهدتَ مسلوباً ، كم عاينت مغلوبا ، كم مخفوض بعد الرفع ، كم مضرور بعد النفع ، كم مدفوع عن أغراضه أقبح الدفع ، بينما هو فى ثياب أوجاعه ومُنَى السلامةِ تخطر فى أطماعه ، أسرعَ الموتُ ونادى بإسراعه ، فعجز عن مقاومته أو عن دفاعه ، فخارت مِن حاله قلوبُ أتباعه ، واشتغل بضَياع أمره عن ضِياَعه ، وأقبلتْ قبائِلُه على تقبيله ووداعه ، وبكى لميله إلى الهوى عند نَزْعه[2] ونِزَاعه ، وهذا مصيرك فانتبه له وراءِه .

تردَّ بالنُّسْك وأفعاله   يامن إذا حان منك الرَدّ[3]

(١) ا : ويحكم . (٢) ا : ميله . (٣) ب : التزد .

وردْتَ دنياكَ على غِرَّةٍ   فويحَ مغرورٍ عليها وردْ
إن مَرَّ ذا الفاتك(١) فى جهله   فليخش يوماً ماله مِن مرَدّ

[إخوانى(٢)] ما بالُ النفوس تعرف حقائق المصير ، ولا تَعرف عوائق التقصير ، وكيف رضيت بالزاد اليسير ، وقد علمتْ طولَ المسير ، أم كيف أقبلت على التبذير وقد حذِّرت غاية التحذير ، أما تخاف زلل التعثير إذا حوسبت على القليل والكثير .

كان خُلَيْد البصرى يقول : كلنا قد أيقن بالموت وما نرى له مستعدًّا ، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملا ، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفا ، فعلام تعرِّجون وماذا عسيتم تنتظرون ، فهذا الموت أول واردٍ عليكم من الله بخير أو بشر . فيا إخوتاه سيروا إلى ربكم سيراً جميلا .

سيكفِي(٣) بَعْضُ ما فاتك   فلا تأسَ لما فاتكْ
ولا ترْكن إلى الدنيا   أمَا تذْكر أمواتَكْ

دخل بعض العباد على بعض الأمراء فقال له الأمير : ما أزْهدك وأصبرك . فقال : إنّ صبرى جزَعٌ من النار وزهدى رغبة فى الجنة .

يا غافلا فى بطالته ، يا من لا يفيق من سَكْرته ، أين ندَمك على ذنوبك ، أين حسرتك على عيوبك ، إلى متى تؤذى بالذنب نفسَك وتضيع يومَك تضييعَك أمسَك ، لا مع الصادقين لك قدَم ، ولا مع التائبين لك ندَم ، هلاَّ بسَطْت فى الدجى يداً سائلة ، وأجريت فى السحَرَ(٤) دموعاً سائلة .

خدعَتْنا زخارفُ الآمالِ   فلهَوْنا بها عن الآجالِ
عجَبِى من مؤمِّل أمِنَ السِّرْ   بَ بها وهى خُطّة الأوْجالِ
نحن سَفْرٌ وإنما أمهلتْنا   ريثما نستعِدّ للترْحالِ

أسفاً لمن إذا ربح العاملون خسر ، وإذا أُطلق المقيَّدون أُسر ، من له إذا خوصم فلم ينتصر ، ونُسِى يومَ الرحمة فما ذُكِر ، فالجدَّ الجد أيها الغافل فأيام العمر كلها قلائل .

(١) ا : إن مرد القائل .   (٢) من : ت .   (٣) ت : ستلقى .   (٤) ا : فى السجود .

سجع على قوله تعالى

﴿ فأَنَّى لَهُمْ إذا جاءتْهم ذِكْراهم ﴾

[لو رأيتَ العصاة والكَرْب يغشاهم ، والندم قد أحاط بهم وكفاهم ، والأسف على مافاتهم قد أضناهم ، يتمنون العافية وهيهات مُناهم ، «فأنَّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم[1]» .]

نزل بهم المرض فألقاهم كالحرَض ، فانفكَّ أملُهم وانقبض ، وانعكس عليهم الغرض ، ورحمهم فى صَرْعتهم مَن عاداهم « فأنَّى لهم إذا جاءتْهم ذكراهم » .

يتمنَّون عند الموت راحة ، ويشتهون من الكرب استراحة ، ويناقَشون على الخطايا ولا سماحة ، فهم كطائرٍ قصّر الصائِد جناحه ، فى حبس النزع والكَرب يغشاهم « فأنَّى لهم إذا جاءتهم ذِكراهم » .

يتأسفون وأسفُهم أشدُّ ما فى العلة ، ويتحسرون وتحسرهم على ما مضى من زلّة ، وجبل ندمهم قد شُقّ كأنه ظُلَّة ، فلو رأيتهم بعد الكِبْر قد صاروا أذلة ، وتملَّك أموالهمَ بعدَهم سِواهم « فأنَّى لهم إذا جاءتهم ذِكراهم » .

ما نفعهم ما تعبوا لتحصيله وجالوا ، ولا ردَّ عنهم ما جمعوا واحتالوا ، جاء المرض فأذلَّهم بعد أن صالوا ، فإذا قال العائدُ لأهليهم : كيف باتوا ؟ قالوا : إن السقم قد وهَّاهم وهاهُمْ « فأنَّى لهم إذا جاءتهم ذِكراهم » .

نزلوا بطونَ الفَلا فلا يُقْبل عذرهم ، ولا ذو وُدّ ينفعهم ، قد أضناهم بلاء البِلَى ، فلو رأيتهم فى بَلاهم وهم فى بِلَاهم « فأنَّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم » .

فالبدار البدار قبل الفوات ، والحذار الحذار من يوم الغفلات ، قبل أن يقول المذنب رب ارجعون فيقال فات ، ويح الغافلين عن عُقْباهم ما أعماهم « فأنَّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم » .

نبهنا الله وإياكم من هذه الرقدة وذكَّرنا وإياكم الموت وما بعده إنه قريب مجيب .

---

(١) سقطت من ب .

المجلس الثانى عشر

فى قصة يوسف عليه السلام

الحمد لله أحسن الخالقين وأكرم الرازقين ، مكرم الموفقين ومعظِّم الصادقين ، ومُجِل المتقين ، ومذِل المنافقين ، حفِظ يوسف لعلمه بعلم اليقين ، فألبسه عند الهمِّ دروعاً[١] يقين ، وملّكه إذ ملَك عنان الهوى ميدان السابقين ، فذلّ له إخوته يوم : « وما كُنّا سارِقين » « قالوا تالله لقد آثَرَكَ اللهُ علينا وإنْ كُنّا لَخاطِئين » .

أحمده حمدَ الشاكرين وأصلى على رسوله محمد أشرف الذاكرين ، وعلى أبى بكر سابق المبكرين ، وعلى عمر سيد الآمرين بالمعروف والمنكرين ، وعلى عثمان الشهيد بأيدى الماكرين ، وعلى علىّ إمام العباد المتفكرين ، وعلى عمه العباس أبى الخلفاء الراشدين .

***

قال الله عز وجل : « تاللهِ لقدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنا[٢] » .

كان يعقوب قد ولد فى زمن إبراهيم ونُبِّئَ فى زمانه أيضا . وكان هو والعيص تو أمين[٣] فاختصما فخرج هاربا إلى خاله لابان فزوجه ابنته ليا ، فولدت له روبيل ثم شمعون ولاوى ويشجب[٤] ويهوذا وزبالون . ثم توفيت فتزوج أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين ، ومعناه ابن الوجع لأنهـا ماتت فى نفاسه ، وولد له من غيرها أربعة فكان أولاده اثنى عشر ، وهم الأسباط .

وكان أحب الخلق إليه يوسف ، فحسده إخوته فاحتالوا عليه ، فقالوا يا يوسف أمَا تشتاق أن تخرج معنا فتلعب وتتصيّد ؟ فقال : بلى . قالوا : فسل أباك أن يرسلك معنا ، فاستأذنه فأذن له ، فلما أصحروا أظهروا له ما فى أنفسهم من العداوة ، فجعل كلما التجأ إلى شخص منهم آذاه وضربه ، فلما فطن لما عزموا عليه قال : يا أبتاه يايعقوب لو رأيتَ يوسف وما نزل به من إخوته لأحزنك ذلك وأبكاك ، يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك وضيعوا وصيتك . فأخذه روبيل فضرب به الأرض وجثم على صدره ليقتله وقال :

---

(١) ا : درعا . (٢) سورة يوسف . (٣) ب : توأما . (٤) كذا بالأصل وفى تاريخ ابن كثير : إيساخر .

يابن راحيل قل لرؤياك تخلّصك ، وكان قد رأى وهو ابن سبع سنين الشمسَ والقمر والنجوم ساجدين له . فصاح : يا يهوذا حُلْ بينى وبين من يريد قتلى . فقال يهوذا : ألقوه فى غيابة الجبّ . فنزعوا قميصه لإلقائه ، فقال ردّوه علىّ أستر به عورتى ويكون كفناً لى فى مماتى .

فلما ألقوه أخرج الله له حجرا مرتفعا من الماء فاستقرت عليه قدماه ، وكان يعقوب عليه السلام قد أدرج قميصَ إبراهيم عليه السلام الذى كُسِيه يومَ أُلقى فى النار فى قصَبة وجعلها فى عنق يوسف ، فبعث الله عز وجل ملَكا فاستخرج القميص فألبسه إياه وأضاء له الجبّ وعَذُب ماؤه وجاءه جبريل يؤنسه ، فلما أمسى نهض جبريل ليذهب ، فقال له يوسف: إنك إذا خرجتَ عنى استوحشتُ فقال إذا رَهِبْت شيئا فقل: يا صريخ المستصرخِين ويا غياث[1] المستغيثين ، ويا مفرّج كرب المكروبين ، قد ترى مكانى وتعلم حالى ولا يخفَى عليك شىء من أمرى . فلما قالها حفَّت به الملائكة فاستأنس بهم .

وذبح إخوتُه جَدْياً فلطخوا به القميص ، وقالوا أكله الذئب ، ومكث فى الجبّ ثلاثة أيام وإخوته يرعَوْن حوله ، ويهوذا يأتيه بالقوت .

فلما جاءت السيارة تسقى من الجب تعَلَّق بالحبْل فأخرجوه ، فجاء إخوة يوسف فقالوا : هذا عبدٌ أبقَ منا . فباعوه منهم بعشرين درهما وحُلّة ونعلين .

فحملوه إلى مصر فوقَفوه للبيع ، فتزايد الناس فى ثمنه ،حتى بلَغ وزنَه مِسْكا ووزنَه وَرِقًا ووزنه حريرا ، واشتراه بذلك قطفير ، وكان أمين مُلْكهم وخازنه ، وقال لامرأته زُلَيْخا : أكرمى مثواه . فراودَتْه فعَصِم منها ، فسجنتْه إذ لم يوافقها ، فبقى مسجونا إلى حين منام المِلك ، فلما أخرجه من السجن فوّض إليه أمر مصر ، فجمَع الأقواتَ فى زمن الرخاء وباع فى زمن القحط ، فروى أنه باع مَكُّوكَ[2] بُرّ بمكوك دُرّ ، وباع أهلَ مصر بأموالهم وحليّهم ومواشيهم وعقارهم وعبيدهم،ثم بأولادهم ثم برِقابهم ، ثم قال : إنى قد أعتقهم ورددت عليهم أموالهم .

(١) ا : ويا غوث . (٢) المكوك : مكيال يسع صاعا ونصفا

وكان يوسف عليه السلام لا يشبع فى تلك الأيام ويقول : أخاف أن أنسى الجائع !
وبلغ القحط إلى كنعان فأرسل يعقوب ولده للميرة ، وقال : يا بنى قد بلغنى أن بمصر ملكا صالحا فانطلقوا إليه فأقرئوه منى السلام . فمضوا فدخلوا عليه فعرفهم وأنكروه ، فقال من أين أتيتم ؟ فقالوا : من أرض كنعان ، ولنا شيخ يقال له يعقوب ، وهو يقرئك السلام . فبكى وعصر عينيه وقال : لعلكم جواسيس . فقالوا : لا والله . قال : فكم أنتم ؟ قالوا : أحد عشر ، وكنا اثنى عشر ، فأكل أحدَنا الذئبُ . فقال ائتونى بأخيكم الذى من أبيكم . ثم درج بضاعتهم فى رحالهم . فعادوا إلى أبيهم ، فقالوا : إنا مُنع منا الكيلُ فأرسلْ معنا أخانا نَكْتَل . فقال يعقوب : هل آمنكم عليه إلا كما أمِنْتكم على أخيه من قبل ؟ ! ثم حمله احتياجُه إلى الطعام إلى أن أرسله معهم .

فلما دخلوا على يوسف أجلسَ كلَّ اثنين على مائدة ، فبقى بنيامين وحيدا يبكى ، وقال : لو كان أخى حيًّا لأجلسنى معه! فضمه يوسف إليه وقال: أتحب أن أكون أخاك ؟ فقال : أيها الملك ومن يجد أخاً مثلك ، ولكن لم يلدْك يعقوب ولا راحيل . فبكى يوسف وقام إليه فاعتنقه وقال أنا أخوك . ثم احتال عليه فوضع الصاعَ فى رَحْله ، فلما لم يقدروا على خلاصه أقام يهوذا ورجعوا إلى يعقوب يقولون إن ابنك سرَق . فتلقاهم بصبرٍ جميل وانفرد بحزنه .

قال الحسن : ما فارقه الحزنُ ثمانين سنة ، وما جفَّت عيناه ، وما أحد أكرم على الله منه .

ثم إن ملَك الموت لقى يعقوب فسأله : هل قبضتَ روح يوسف ؟ قال : لا . فأصبح يقول لبنيه : « اذهبوا فتحسَّسُوا من يوسف وأخيه » فلما عادوا إليه ببضاعة مُزْجاة وهى القليلة ، وقفوا موقف الذل ، وقالوا : تصدَّق علينا . فقال : « هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتم بيوسف » وكشف الحجاب عن نفسه ، فعرفوه فقالوا : « أئنَّكَ لَأَنْتَ يوسف » فحينئذ قالوا : « تاللهِ لقد آثَرَك اللهُ علَيْنا » . قال الزجَّاج : تالله بمعنى : والله . إلا أن التاء لا يُقْسَم بها إلا فى الله عز وجل . ولا يجوز : تالرحمن ولا تربِّى . والتاء تُبْدَل

من الواو كما قالوا فى وُرَاث : تراث . وقالوا : يَتَّزن . وأصله يَوْتزن ، من الوزن . ومعنى « آثَرَكَ اللهُ » اختارك وفضَّلك ، وكان قد فضَّل عليهم بالحُسْن والعقل والحِلم والصبر وغير ذلك « وإنْ كُنَّا لَخَاطئين » أى لمذنبين آثمين فى أمرك .

« قال : لا تَثْرِيبَ عليكم اليومَ » أى لا أعيِّركم بما صنعتم . ثم سألهم عن أبيه فقالوا : ذهبت عيناه . فأعطاهم قميصه وقال : « اذهبوا بقميصى هذا فألقُوه علَى وَجْهِ أبِى يَأْتِ بَصِيراً » وهو قميص الخليل الذى كان فى عنق يوسف ، وكان من الجنة ، فلما خرجوا من مصر حمل القميصَ يهوذا وقال : أنا حملتُ قميص الدم وها أنا أحمل قميص البشارة . فخرج حافيا حاسرا يعدو ومعه سبعة أرغفة لم يستوف أكْلها ، فقال يعقوب : لمن حضر من أهله وولدِ ولده : « إنِّى لَأجدُ رِيحَ يوسفُ لولَا أنْ تُفَنِّدُونِ » أى تنكرون علىَّ لأخبرتكم أنه حىّ .

« فلمَّا أنْ جاء البشيرُ ألقاه على وَجْهِه فارتدَّ بَصِيرا » . ثم خرج فى نحو من سبعين من أهله ، وخرج يوسف لتلقيه، فلما التقيا قال يعقوب: السلام عليك يا مُذْهب الأحزان. فقال يوسف : بكيتَ يا أبتى حتى ذهب بصرُك ، أمَا علمت أنّ القيامة تجمعنى وإياك ! فقال : يا بنى خشيتُ أن يُستلَب دِينك فلا نجتمع !

وكان يوسف عليه السلام يركب فى كل شهر ركبة فى ثمانمائة ألف ، ومعه ألف لواء وألفا سيف ، فيدور فى عمله فينصف المظلوم من الظالم .

وكانت زليخا تلبس جبة صوف وتشدّ وسطها بحَبْل من لِيف وتقف على قارعة الطريق فتناديه فلا يسمع ، فنادته يوماً : أيها العزيز سبحان من جعل العبيد بالطاعة ملوكاً وجعل الملوكَ بالمعصية عبيدا ! فسمعها فبكى وقال لفتاه : انطلق بهذه العجوز إلى الدار واقض لها كل حاجة . فقال لها الغلام : ما حاجاتك يا عجوز ؟ فقالت : حاجتى محرَّمة أن يقضيها غير يوسف . فلما جاء يوسف قال : من أنت ياعجوز ؟ فقالت : أنا زليخا . قال : مافعل حُسنك وجمالك ؟ قالت ذهب به الذى أذهب ذُلَّك ومَسْكنتك . فقال : يا زليخا عندى قضاء ثلاث حوائج فسَلِى ، فوحق شيبة إبراهيم لأقضينها . فقالت : حاجتى الأولى

أن تدعو الله لى أن يردّ علىَّ بصرى وشبابى . فدعا لها ، فردَّ الله عليها بصرَها وشبابها . ثم قالت : ادع الله أن يردّ علىَّ حُسنى كما كان . فدعا لها ، فردّ عليها حسنها وزيد فيه . فصارت كأنها بنت ثمانية عشرة سنة وكان لهـا من العمر مائة وعشرون سنة . فقالت وحاجتى الثانية أن تسأل الله تعالى أن يغفر لى ما كان منى . وحاجتى الثالثة أن تتزوج بى . فتزوج بهـا فأصابها بكرا وأولدها اثنى عشر ولدا . ذكر هذا أبو الحسين بن المنادى وغيره عن وهب (١) .

وأقام يعقوب عند يوسف أربعاً وعشرين سنة فى أهنأ عيش ، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى يوسف أن يحمله إلى الشام حتى يدفنه عند أبيه إسحاق ، ففعل .

ثم إن يوسف عليه السلام رأى أن أمره قد تم فقال : « توفَّنى مُسْلماً » وأوصى إلى يهوذا .

***

فتلمَّحوا علوَّ قدر يعقوب ببلائه وعزَّ يوسف فى صبره ، وليكن حظكم من هذه القصة : « إنه من يَتَّق ويَصْبِرْ فإنَّ الله لا يُضيع أَجْرَ المحسنين » .

وليتفكر العاصى فى لذاتٍ فنيت وتبعاتٍ بَقِيت ، وليتدبر الصابر لذةً مَديحه ثَبتَتْ ومرارةَ مصابرةٍ خَلَتْ (٢) ، والأمر بآخره وللعواقب يعمل المتيقظ .

رزقنا الله وإياكم صبرا يَزِينُنا ، وعصمةً من هوًى يشيننا ، إنه إن فعل سلمت دنيانا وديننا ، إنه قريب مجيب .

الكلام على البسملة

إلى أى حينٍ أنت فى صَبْوَةٍ لاهِى　　　أمالكَ من شىء وعِظتَ به ناهى

---

(١) كان وهب بن منبه يتزيد فى أخباره ولا يتحرى الدقة فيما يرويه ، وكان عنده أن حكاية الرقائق والعجائب يتسامح فيهـا ، ما دامت لا تحوى أحكاماً أو شرائع . لكن منهج الإسلام يضيق بالأساطير وينفر من حكاية الأخبار غير الموثقة .

(٢) كذا فى ت . وفى ب : لذة مربحة ثبتت ومرارة مصابرة ذحلت .

ويا مُذْنِباً يرجو من الله عفوَه   أترضى بسَبْق المتقين إلى الله

يامبارزا بالعظائم كيف أمنت فنمت ، يا مصرًّا على الجرائِم عجبا لك إن سلمت ، يا مبذرًا مُنْذَرا كأنه ما يسمع ، إن فاجأك(١) العذاب فماذا تصنع، تدبَّر عقبى أبى الآباء إلى ما آب(٢)، وتفكَّر فى حال المذنبين فبئس المآب ، بَيْناهم فى أمنٍ قد فرَّق بينهم ونَعق بينهم للبَيْن غُرَاب ، فترا كَمَ رُكام الهوامّ عليهم فى الهواء واللُّعَاب ، ومَرَّ مَرِيرِ الرِّيق فمَشَى فى المشَارِع العِذَاب ، وامتد ساعِد البلاء إلى إغلاق باب العتاب ، وسئلوا عن جَوْرِهم فقوى قلق الجوَى فى الجواب ، وذاقوا بعدَ حلاوة الخِلاَف من أخلاف الأوصاب الصاب ، وانتقى الانتقام نَقِيَّ لَذَّاتهم فخلَتْ مما لذّ أو طاب ، ونشَبتْ فى شِيبهم وشبابهم شَبَاَ سيوف الذم وعتاَ العتَاب ، ودخلوا إلى نار تُهَاب أوصافها قبل أن يُنْتَهى إلى الالتهاب ، فلما سالت العيون دماً قَرَعوا بالأنامل ندماً لِماَ ناب الناب وحطَّ من رباَ منهم على الرِّبا فاستبدل صوت الأسَى عن الرَّبَاب ، فاحذروا أن يصيبكم من نصيبكم مثل حصصهم ، فلقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب .

ولقــد رأيتُ معاشراً جمحتْ بهم   تلك الطبيعةُ نحــو كل تيــارِ
تهوَى نفوسُهم هوَى أجسامهم(٣)   شُغــلاً بــكل دناءةٍ وصغَارِ
تَبعوا الهوى فهوَى بهموكذا الهوَى   منـــه الهـــوانُ بأهلِه فحذارِ
فانظر بعين الحقّ لا عينِ الهـــوى   فالحـــقُّ للعين الجليّـــة عارِ
قادَ الهـــوى الفجّار فانقادوا له   وأبَتْ عليـــه مقـــادَةُ الأبرارِ

إخوانى : من فعل مايحب لقى مايكره ، ومن صبر على مايكره نال مايحب ،لاتقطع مشاورة العقل قبل مشاورة الهوى ، فإن المستبد برأيه واقف على مَداحض الزلل ، لم تزل أكفُّ العقل ضابطةً أعنة النفوس غير أن العَزْم ينقلب ، ركوب الأخطار يسوق الأقدار ، من قرأ والناس نيام تـكلَّم والناس سكوت .

وهبَ بعضُ الملوك جاريةً يحبها . فقال الموهوب له : لا أُفرِّق بينك وبين من

(١) فى ب : ناجاه ، محرفة .   (٢) كذا فى ت . وفى ب : أنا الآن . محرفة .
(٣) الأصل : جسومهم محرفة .

تهواه . فقال : خذها وإن كنت أحبها ليعلم هوايَ أنى غير طائع له[١] .

وقيل للمرتعش : إنّ فلانا يمشى على الماء . فقال : إن من مكّنه الله عز وجل من مخالفة هواه أعظم مِن المشى على الماء[٢] !

فإن المُرّ حين يَسُرّ حُلْو   وإنّ الحلوَ حين يَضُرّ مُرُّ
فخذ مُرًّا تصادِف منه نفعاً[٣]   ولا تَعْدل إلى حُلوٍ يضرّ

صابرْ ليل البلا فقد دنا الفجر ، واثبت لعمل نهارِ العمر تَستوف الأجر ، واحبس نفسك عن هواها فسينفعك الحجْر ، وارجزْ لها فإن لم تسِرْ بالرّجز فبالزّجْر ، مانال من نال مانال إلا بالصبر ، وبه علا ذِكر كل عابد وحبْر ، وهو وإن مرّت مذاقتُه بانت حلاوته فى القبر ، أيها النائم وهو منتبه ، المتحير فى أمرٍ لا يشتبه ، يامن قد صاح به الموت فى سَلْب صاحبه وهو مغرور بجهله مفتون بلعبه ، ياواقفاً مع الهوى والطبع ، أأمنت شَيْن القلب بالختم والطبع .

[ياعظيمَ الشّقاق ياقليلَ الوفاق يامَرِير المذاق ، ياقبيح الأخلاق ، يا كثير التوانِى قد سار الرّفاق ، ياشديد التمادى قد صعب اللّحاق ، إخلاصك معدوم وما للنفاق نَفاق ، ومعاصيك فى ازدياد والعمر فى انمحاق ، وساعى أجلك مجِدّ كأنه فى سباق ، لا الوعظ ينذرك ولا الموت يزجرك ، ماتطاق][٤] .

اترك الشرَّ ولا تأنسْ بِشَرْ   وتَواضعْ إنمــا أنت بَشَرْ
هذه الأجسامُ تُرْب هامــدٌ   فمن الجهــلِ افتخارٌ وأَشَرْ
جسَدٌ من أربع تلحظهــا   سبعة من فوقها فى اثنى عشر
فعجيب فرَحُ النفس إذا   شاع فى الأرض ثناها وانتشرْ
مستشارٌ خائن فى نصحــه   وأمينٌ ناصــح لم يُستشَرْ
فافعـل الخير وأمّل غِبّــه   فهـو الذُّخْر إذا الله حَشَرْ

(١) ذم الهوى ص ٢٦ .   (٢) ذم الهوى ص ٣٠ .   (٣) ب : حلوا .
(٤) ما بين القوسين مكرر ، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى ص ...

أَضْمر الخيفـة واُظْهر ندماً قلَّ ماأحرزَ الطرفُ المدَى حين ضُمِرْ
وهى الدنيـا إذاها أبدا زُمَراً واردةً بعـد[١] زُمَرْ
فى حيـاةٍ كخيـالٍ طـارقٍ شغـل الفـكر وخَـلَّاك ومَرّ

الـكلام على قوله تعالى

﴿ وقضى رَبُّك ألَّا تعبدوا إلا إيَّاه ﴾

أصل القضاء الحَتْم . وهو فى القرآن على ثلاثة عشر وجها : أحدها الفراغ : « فإذا قضِيت الصلاةُ[٢] » والثانى الفعل : « فاقضِ ما أنت قاضٍ[٣] » والثالث : الإعـلام : « وقَضَيْنَا إلى بنى إسرائيل »[٤] والرابع : الموت : « ليَقْضِ علينا ربك[٥] » والخامس وجوب العذاب : « وقُضِى الأمرُ[٦] » والسادس التمام : « مِنْ قَبْلِ أن يُقْضَى إليك وَحْيه[٧] » والسابع الفصل : « وقضِى بينهم بالحقِّ[٨] » والثامن الخلق : « فقضاهُنَّ سَبْعَ سمَواتٍ[٩] » والتاسع الحتْم : « وكانَ أمْراً مَقْضِيّاً[١٠] » والعاشر : ذبح الموت « إذ قُضِىَ الأمرُ[١١] » والحـادى عشر : إغلاق أبواب جهنم « وقال الشَّيطانُ لمـا قضِىَ الأمْرُ[١٢] » والثانى عشر الحـكم : « حَرَجًا ممَّا قضَيْتَ[١٣] » والثالث عشر : الأمر : «وقَضَى ربُّك ألَّا تعبدُوا إلا إيّاه[١٤] » .

قوله تعالى : « وبالوالدَيْنِ إحساناً » وهو البرّ والإكرام « إمّا يَبْلُغَنَّ » قال الفَرَّاء : جعلت يَبْلغن فعلاً لأحدها ، وكرر عليه « كِلاَهما » وقرأ حمزة والـكسائى : « يَبْلغانِّ » على التثنية ، لأنهما قد ذُكرا قبلَ ذلك . ثم قال : « أحدُهما أو كلاهما » على الاستئناف كقوله « فعَمُوا وصَمُّوا » ثم استأنف فقال . « كثيرٌ منهم » .

« فلَا تقُلْ لهما أفّ » أى لا تقل لهما كلاماً تتبرم فيه بهما إذا كَبِرا ؛ قال أبو منصور

---

(١) إثر زمر . (٢) سورة الجمعة . (٣) سورة طه ٧٢ . (٤) سورة الإسراء ٤ .
(٥) سورة الزخرف ٧٧ . (٦) سورة هود ٤٤ . (٧) سورة طه ١١٤ . (٨) سورة الزمر ٧٥ .
(٩) سورة فصلت ١٢ . (١٠) سورة مريم ٢١ . (١١) سورة الزمر ٦٩ .
(١٢) سورة إبراهيم ٢٢ . (١٣) سورة النساء ٦٥ . (١٤) سورة الإسراء ٢٣ .

اللغوى : أصل أف نفخك الشىء يسقط عليك من تراب أو نحوه ، وللمكان تريد إماطة الأذى عنه ، فقيلت لكل مُسْتَقَلّ .

قوله تعالى . « ولا تَنْهرهما » أى لا تكلمهما ضَجِراً صائحا فى وجوههما . قال عطاء بن أبى ربَاح : لا تنفض يدك عليهما . قال العلماء : إنما نهى عن الأذى لهما فى حالة الكِبَر وإنْ كان منهيًّا عنه فى كل حال ، لأن حال الكبر يظهر فيها منهما ما يُضجر ويؤذِى ، وتكثر خدمتهما .

« وقُلْ لهما قولًا كريماً » أى ليِّنا لطيفا أحسن ما تجد . وقال سعيد بن المسيب : قول العبد المتذلل للسيد الفظّ .

« واخفِضْ لهما جَناحَ الذُّلِّ » أى أَلِنْ لهما جانبك متذللاً لهما من رحمتك إياها . وخفض الجناح عبارة عن السكون وترك التصعب والإيذاء « وقل ربِّ ارحمهما كما ربَّيَانى صغيراً » أى مثل رحمتهما إياى فى صغرى حين ربيانى .

أخبرنا هبة الله بن محمد ، أنبأنا الحسن بن على ، أنبأنا أبو بكر بن مالك ، أنبأنا عبد الله بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا وكيع ، حدثنا مِسْعَر وسفيان ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن أبى العباس المكِّى ، عن عبد الله بن عمر ، قال : جاء رجل يستأذن النبىَّ صلى الله عليه وسلم فى الجهاد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحَىٌّ والدك ؟ قال : نعم .قال: ففيهما فجاهد » .

أخرجاه فى الصحيحين .

وبالإسناد حدثنا وَكِيع ، قال حدثنا سفيان ، عن سهيل بن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يجزى ولدٌ والده إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه » .

أخبرنا على بن عبد الله بن أحمد بن الحسن ، وعبد الرحمن بن محمد ، قالوا حدثنا عبد الصمد بن المأمون ، أنبأنا على بن عمر السكَّرى ، حدثنا محمد بن على بن حرب ،

حدثنا سليمان بن عمر ، حدثنا عيسى بن يونس . ح . وأنبأنا على بن عبد الله ، ومحمد ابن عبد الباقى ، أنبأنا أبو محمد الصَّرِيفِينِىّ ، أنبأنا أبو حفص الكِنَانى ، أنبأنا أبو عبدالله ابن مخلد ، حدثنا يونس بن يعقوب ، حدثنا على بن عاصم . ح . وأنبأنا محمد بن عبد الباقى ، أنبأنا أبو إسحاق البرمكى ، حدثنا أبو محمد بن ماسِىّ ، أنبأنا أبو مسلم الكَجِّى ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى ، عن بَهْز بن حكيم بن معونة بن حَيدة القشيرى ، عن أبيه عن جده ، قال قلت : يا رسول الله من أبَرّ ؟ قال : أمك . قلت : ثم من ؟ قال : أمك . قلت : ثم من ؟ قال : أمك . ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب » .

أخبرنا عمر بن ظُفَر ، أنبأنا أبو غالب الباقلاوى ، أخبرنا القاضى أبو العلاء الواسطى ، أنبأنا أبو نصر النيازكى ، أنبأنا أبو الخير الكرمانى ، حدثنا البخارى ، حدثنا سعيد بن أبى مريم ، أنبأنا محمد بن أبى جعفر بن أبى كثير ، أخبرنى زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسَار ، عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه أتاه رجل فقال : إنى خطبت امرأة فأبَتْ أن تَنْكحنى ، وخطبها غيرى فأحبَّت أن تنكحه فغِرْت عليها فقتلتُها ، فهل من توبة ؟ قال : أمك حية ؟ قال : لا . قال : تب إلى الله عز وجل وتقرَّب إليه ما استطعتَ . فسألتُ ابن عباس : لم سألته عن حياة أمه ؟ قال : إنى لا أعلم عملاً أقرب إلى الله عز وجل من بِرّ الوالدة .

وكان أبو هريرة رضى الله عنه إذا أراد أن يخرج من بيته وقف على باب أمه فقال : السلام عليك يا أماه ورحمة الله وبركاته . فتقول : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . فيقول : رحمكِ الله كما ربيتينى صغيرا . فتقول : رحمك الله كما بَرَرْتنى كبيرا . وإذا أراد أن يدخل صنع مثل ذلك .

وقالت عائشة رضى الله عنها : كان رجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبرّ من كان فى هذه الأمة بأمهما : عثمان بن عفان وحارثة بن النعمان رضى الله عنهما . أمّا عثمان فإنه قال : ما قدرت أتأمل وجه أمى منذ أسلمتُ . وأما حارثة فكان يطعمها

بيده ولم يستفهمها كلاما قط تأمره به حتى يسأل مَن عندها بعد أن يخرج : ماذا قالت أمى ؟

وكان حُجْر بن عدى[1] بن الأَدْبَر يلتمس فراش أمه بيده فيتهم غِلَظ يده ، فينقلب عليه على ظهره ، فإذا أَمِن أن يكون عليه شىء أضجعها .

وكان ظَبْيان بن على من أبرِّ الناس بأمه ، فباتت ليلةً وفى صدرها عليه شىء فقام على رجليه قائما يكره أن يوقظها ويكره أن يقعد ، حتى إذا ضعف جاء غلامان من غلمانه فما زال معتمداً عليهما حتى استيقظت من قِبَل نفسها .

وكان محمد بن سيرين لا يكلم أمه بلسانه كلمة تخشّعاً لها .

وكان محمد بن المنكدر يضع خده على الأرض ثم يقول لأمه : ضعى قدمك عليه ! وقال ابن المنكدر : بت أغمز رجل أمى وبات أخى عمر يصلى ، وما يسرّنى أنّ ليلتى بليلته !

وروينا عن ابن عون أن أمه نادته فأجابها ، فعلا صوتُه على صوتها ، فأعتق رقبتين .

وقال بِشْر الحافِى : الولدُ يَقْرب من أمه بحيث يُسْمع أمه أفضل من الذى يضرب بسيفه فى سبيل الله ، والنظر إليها أفضل من كل شىء !

وفى الصحيحين من حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ذكر فى الكبائر عقوق الوالدين . وفيهما من حديث جبير بن مطعم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يدخل الجنة قاطع » قال سفيان : قاطع رَحِم .

وفى حديث عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يدخل الجنة عاقّ .

وقال محمد بن مُحَيْريز : من مشى بين يدى أبيه فقد عقّه إلا أن يمشى فيميط الأذى عن طريقه ، ومن دعا أباه باسمه أو بكنيته فقد عقّه إلا أن يقول يا أبت .

---

(١) ب : ابن على .

وفى حديث أبى أسيد أن رجلا قال : يا رسول الله هل بقى من برّ أبوىّ شىء بعد موتهما ؟ قال : « نعم خصال أربع : الدعاء والاستغفار لهما وإيفاء عهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التى لا رحم لك إلا من قِبلهما » .

وروى ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : أبرُّ البرِّ صلة المرء أهلَ ودّ أبيه بعد أن توفى .

أخبرنا ابن الحصين ، أنبأنا ابن المذهَب ، أنبأنا أبو بكر بن مالك ، أنبأنا عبد الله ابن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا يحيى بن غَيْلان ، حدثنا رِشْدين ، عن زبان ، عن سهل ابن معاذ بن أنس الجهنى ، عن أبيه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن لله تعالى عبادا لا يكلمهم يومَ القيامة ولا يزكّيهم ولا ينظر إليهم . قيل له : من أولئك يا رسول الله ؟ قال متبرِّئٌ من والديه راغب عنهما ، ومتبرئٌ من ولده ، ورجل أَنعم عليه قومٌ فكفر نعمتهم وتبرأ منهم » .

وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه . قيل : يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يسب الرجل أبا الرجل ، فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه » .

سجع على قوله تعالى

﴿ وقل ربِّ ارحمهما كما ربَّيانى صغيرا ﴾

الويل كل الويل لعاقّ والديه ، والخزى كل الخزى لمن ماتا غِضَابا(١) عليه ، أفّ له هل جزاء المحسن(٢) إلا الإحسان إليه ، أَتْبِع(٣) الآن تَفْرِيطَك فى حقهما أنيناً وزَفيرا « وقُل ربِّ ارحمهما كما ربَّيانى صَغِيرا » .

---

(١) ت : غضبانين . (٢) ب : الإحسان . (٣) ب : ابتع الآن . محرفة .

كم آثراك بالشهوات على النفس ، ولو غبتَ ساعة صارا فى حبْس ، حياتهما عندك بقايا شمس ، لقد راعياك طويلا فارْعهما قصيرا ، « وقل ربِّ ارحمهما كما ربَّيانى صَغِيرا » .

كم ليـلةٍ سهرا معك إلى الفجر ، يداريانك مداراة العاشق فى الهجر ، فإن مرضت أجريا دمعاً لم يَجْرِ ، تالله لم يرضيا لتربيتك غير الـكف والحِجْر سريرا « وقل ربِّ ارحمهما كما ربَّيانى صغيرا » .

يعالجان [1] أنجاسك ويحبان [2] بقاءك ، ولو لقيت منهما أذًى شـكوت شقاءك ، ما تشتاق لهما إذا غابا ويشتاقان لقاءك ، كم جرَّعاك حُلوا وجرَّعتهما مريرا « وقل ربِّ ارحمهما كما ربَّيانى صغيرا » .

أتَحْسُن الإساءة فى مقابـلة الإحسان ، أوَ ما تأنف [3] الإنسانيةُ للإنسان ، كيف تعارِض حُسْن فضلهما بقبح العصيان ، ثم ترفع عليهما صوتاً جَهِيراً « وقل ربِّ ارحمهما كما ربَّيانِى صَغِيرا » .

تحب أولادَك طَبْعا ، فأحبِبْ والديك شَرْعا ، وارع أصلاً أثمَرلك فرعا ، واذكر لطفهما بك وطِيب المرعى أولاً وأخيراً « وقل ربِّ ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

تصدَّق عنهما إن كانا ميتين ، وصلِّ لهما واقض عنهما الدَّين ، واستغفر لهما واستدم هاتين الـكلمتين، وما تُـكَلَّف إلا أمراً يسيرا « وقل ربِّ ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

---

(١) ب : يعالجون . (٢) ت : ويختاران . (٣) ب : أو تانف .

المجلس الثالث عشر

فى قصة أيوب عليه السلام

الحمد لله الذى ابتعث بلطفه السحاب ، فروّى الأودية والهضاب ، وأنبت الحدائق وأخرج الأعناب ، وألبس الأرض نباتاً أحسن من ثياب[١] العُنّاب ، يبتلى ليُدْعَى وإذا دُعِى أجاب ، قضَى على آدم بالذنب ثم قضى أنْ تاب ، ورفع إدريسَ بلطفه إلى أكرم جَناب ، وأرسل الطوفان وكانت السفينة من العُجاب ، ونجّى الخليلَ من نار شديدة الالتهاب ، وكانت سلامة يوسف عِبرةً لأولى الألباب ، وشدّد البلاء على أيوب ففارقه الأهل والأصحاب ، وعضه البلاء إلى أن كَلَّ الظُّفْر والناب ، فنادَى مستغيثا بالمولَى فجاء الجواب « اركُضْ برِجْلِكَ هذا مُغْتَسلٌ باردٌ وشَراب » .

أحمده حمدَ من أخلص وأناب ، وأصلى على رسوله أفضل نبىّ نزل عليه أفضل كتاب ، وعلى صاحبه أبى بكر مقدَّم الأصحاب ، وعلى الفاروق عمر بن الخطاب ، وعلى عثمان شهيد الدار وقتيل المحراب ، وعلى علىٍّ المهيب وما سلّ سيفا بعدُ مِن قراب ، وعلى عمه العباس المقدم نسبه على الأنساب .

***

قال الله عز وجل : « واذكُرْ عَبْدَنا أيوبَ إذ نادَى ربَّهُ أنِّى مَسَّنِىَ الشَّيطانُ بنُصْبٍ وعذاب »[٢] أيوب اسم أعجمى ، وهو أيوب بن أموص بن رزاح[٣] بن العيص ابن إسحاق بن إبراهيم . وأبوه ممن آمن بالخليل يوم أُحرق ، وأمه بنت لوط النبى عليه السلام . وكان أيوب فى زمن يعقوب عليه السلام ، فتزوج ابنة يعقوب وكان غزيرَ المال كثير الضيافة ، وكان إبليس لا يُحجَب يومئذ من السموات ، فسمع تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب فحسده فقال : يارب لوصدمتَ أيوب بالبلاء لكفر ، فسلِّطنى عليه . فقال : قد سلطتُك على ماله وولده . فجمع إبليس جنوده فأرسل بعضهم إلى دوابه وبعضهم إلى زرعه وبعضهم إلى أولاده ، وكان له ثلاثة عشر ولدا . وقال إبليس لأصحابه

---

(١) ب : من نبات الغياب . ولعلها محرفة . (٢) سورة الأنبياء . (٣) ت : ابن رازح .

تابعوه المصائب (١) بعضها إثر بعض . فجاء صاحبُ الزرع فقال : ياأيوب ألم تر إلى ربك أرسَل إلى زرعك ناراً فأحرقته . وقال . راعى الإبل ألم تر إلى ربك أرسل غَدَداً (٢) فذهبت بالإبل . وقال كذلك صاحب البقر والغنم . فقال : الحمد لله الذى رزقنى وقَبِله منِّى . وتفرد إبليس لبنيه فجمع أركانَ البيت فهدَّمه عليهم وجاء فقال: يا أيوب إن البيت وقع على بنيك ، فلو رأيت كيف اختلطت دماؤهم ولحومهم بطعامهم وشرابهم . فقال : لو كان فيك خير لقبضك معهم فانصرفْ خائبا . فقال : يارب سلِّطنى على جسده فسُلط فنفخ تحت قدميه نفخة فقرِح بدنُه . قال مجاهد : أول من أصابه الجدرى أيوب . وقال وهب : كان يخرج عليه مثل ثدايا النساء ثم يتفقَّأ . قال العلماء : لم يبق منه إلا اللسان للذكر والقلب للمعرفة ، وكان يرى مِعاه وعروقه وعظامه ، ووقعت به حِكَّة لا يملكها ، فحك بأظفاره فسقطت ، ثم بالمسوح ثم بالحجارة وأنتن جسمهُ وتقطَّع ، وأخرجه أهلُ القرية فجعلوا له عَرِيشا على كناسة ، ورفضه الخلقُ سوى زوجته رحمة بنت أفرايم بن يوسف ابن يعقوب ، فكانت تختلف إليه بما يصلحه .

وفى مدة لبثه فى البلاء أربعة أقوال : أحدها : ثمانى عشرة سنة . رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم . والثانى : سبع سنين . قاله ابن عباس وكعب . والثالث : سبع سنين وأشهر قاله الحسن . والرابع : ثلاث سنين . قاله وهب .

وفى سبب سؤاله العافية ستة أقوال : أحدها أنه اشتهى أدْماً فلم تصبه امرأته حتى باعت قرنا من شعرها ، فلما علم ذلك قال : مسَّنى الضُر . رواه الضحاك عن ابن عباس . والثانى : أن الله تعالى أنساه الدعاء مع كثرة ذكره لله تعالى ، فلما انتهى زمان البلاء ألهمه الله تعالى الدعاء. رواه العَوْفى عن ابن عباس . والثالث : أن نفرا من بنى إسرائيل مرّوا به فقال بعضهم : ماأصابه هذا إلا بذنب عظيم . فعندها دعا . قاله نَوْف البكالى . وقال عبد الله بن عبيد بن عمر : كان له أخوان فأتياه يوماً فوجدا ريحا فقالا : لوكان الله علم منه خيرا مابلغ به هذا . فما سمع شيئا أشد عليه من ذلك ، فقال : اللهم إن كنت تعلم أنى

(١) ت : ايتوه بالمصائب بعضها على إثر بعض . (٢) ت : عدوا فذهب ، والغدد : طاعون الإبل .

لم أبت ليلةً شبعان وأنا أعلم مكانَ جائع فصدِّقنى . فصُدِّق وهما يسمعان . ثم قال : اللهم إن كنت تعلم أنى لم ألبس قميصا وأنا أعلم مكان عارٍ فصدِّقنى . فصدق ، وهما يسمعان . فخر ساجدا ثم قال : اللهم لا أرفع رأسى حتى تكشف ما بى . فكشف مابه . والرابع : أن إبليس جاء إلى زوجته بسَخْلة[1] فقال : ليذبح أيوب هذه لى وقد برأ . فجاءت فأخبرته فقال : إن شفانى الله لأجلدنّك مائة جلدة ، أمرتنى أن أذبح لغير الله . ثم طردها عنه وذهبت فلما رأى أنه لا طعام ولا شراب ولا صَديق خر ساجدا وقال : مَسَّنى الضر . قاله الحسن. والخامس أن الله أوحىَ إليه فى عنفوان شبابه : إنى مبتليك . فقال : يارب وأين يكون قلبى . قال : عندى فصب عليه من البلاء حتى إذا بلغ البلاء منتهاه أوحى الله : إنى معافيك قال : يارب وأين يكون قلبى . قال : عندك . قال : مَسَّنى الضر . قاله إبراهيم ابن شيبان . والسادس : أن الوحى انقطع عنه أربعين يوما ، فخاف هجران ربه فقال : مسنى الضر ذكره الماوردىّ .

ومعنى : « نادَى ربَّه » دعا وإنما أضاف الأمر إلى الشيطان لأن الشيطان سلّط عليه .

قوله تعالى : « بنُصْبٍ » قرأ الحسن : « بنَصَب » بفتح النون والصاد . قال الفراء : هما كالرشْد والرَّشَد. وقال أبو عبيدة : النُّصْب بتسكين الصاد : الشر . وبتحريكها الإعياء. والمراد : بالعذاب الأليم .

قوله تعالى : « اركُضْ برجلك » . قال المفسرون : جاءه جبريل فأخذه بيده فقال : قم . فقام فقال : اركض برجلك . فركض فنبعت عينٌ ، فقال : اغتسل . فاغتسل . ثم نحاه قال اركض برجلك فركض . فنبعت عين فقال اشرب فشرب . قال «هذا مُغْتَسلٌ » قال ابن قتيبة : المغتسل : الماء ، وهو المغسول أيضا. ثم ألبسه جبريل حلةً من الجنة . وجاءت امرأته فقالت : ياعبدالله أين المبتلَى الذى كان هاهنا لعل الذئاب ذهبت به . فقال : ويحك أنا أيوب . فقالت : اتق الله ولا تسخر بى . قال ابن مسعود ردَّ الله عليه أهله بأعيانهم وآتاه مثلَهم معهم فى الدنيا . قال ابن عباس : كانت قد ولدت له سبع بنين وسبع بنات. فنُشِروا له وولدت

(١) السخلة : ولد الشاة .

له تسعة بنين وسبع بنات . وقال مجاهد : آتاه الله أجور أهله فى الآخرة وآتاه مثلهم فى الدنيا .

قوله تعالى : « وخُذْ بيدِكَ ضِغْثاً » كان قد حلف ليجلدن زوجته مائة جلدة .

وفى سبب هذه اليمين ثلاثة أقوال : أحدها : حديث السخلة الذى سبق . والثانى : أن إبليس جلس فى طريق زوجته كأنه طبيب ، فقالت له : عبد الله هاهنا رجل مبتلًى ، فهل لك أن تداويه ؟ قال : نعم إنى شافيه على أن يقول لى إذا برأ أنت شفيتنى . فجاءت فأخبرته فقال : ذاك الشيطان ، لله علىّ إنْ شفانى الله أن أجلدك مائة . قاله ابن عباس . والثالث : أن إبليس لقيها فقال : أنا الذى فعلت بزوجك وأنا إله الأرض ، وما أخذته منه فهو بيدى فانطلقى فأريك . فمشى غير بعيد ثم سحر بصرها فأراها واديا عميقا فيه أهلها ومالها وولدها ، ، فأتت أيوب عليه السلام فأخبرته فقال : ذاك الشيطان ، ويحك كيف وعى سمعُك قولَه ، والله لئن شفانى الله لأجلدنك مِائة . قاله وهب .

وأما الضغْث فقال ابن قتيبة هو الحزمة من الخِلاَل والعيدان . قال المفسرون : جزى الله زوجته بحسن صبرها أن أفتاه فى ضربها ، فسهَّل الأمر ، فجمع لها مِائة عود وقيل مائة سنبلة ، وقيل كانت أَسَلا ، وقيل كانت شَماريخ ، فضربها ضربة واحدة .

وهل ذلك خاص له أم عام ؟ فيه مذهبان : أحدهما أنه عام . قاله ابن عباس وعطاء والثانى : خاص له . قاله مجاهد . وقد اختلف الفقهاء فيمن حلف أن يضرب عبده عشرة أسواط فجمعها وضربه بها ضربة واحدة ، فقال مالك والليث بن سعد : لا يبرّ . وهو قول أصحابنا . وقال أبو حنيفة والشافعى إذا أصابه فى الضربة الواحدة كلُّ واحد منها فقد برّ ، واحتجوا بعموم قصة أيوب .

قوله تعالى : « إنا وجدناه صابراً » قال مجاهد يجاء بالمريض يوم القيامة فيقال : ما منعك أن تعبدنى ؟ فيقول : يارب ابتليتنى . فيجاء بأيوب فى ضُرّه فيقول : أنت كنت أشد ضُرّا أم هذا ؟ فيقول بل هذا . فيقول : هذا لم يمنعه ذلك أن عبَدنى !

ما ضَرّ أيوبَ ماجرى ، كأنه سِنَة كَرى ، ثم شاعت مدائحه بين الورى ، وإنما يصبر من فهم العواقب ودرَى .

الكلام على البسملة

منافسة الهوى فيما يزول على نقصان همته دليلُ
ومختارُ القليل أقلُّ منه وكلُّ فوائدِ الدنيا قليلُ

ياقليل الصبر عن اللهو والعبث ، يامن كلما عاهد غدر ونكث، يامفترا بساحر الهوى كلما نفث ، تالله لقد بولغ فى توبيخه وما اكترث ، وبعث إليه النذير ولا يدرى من العبث من بعث ، سيندم من للقبيح حرث ، سيبكى زمانَ الهوى حين الظمأ عند اللهث ، سيعرف خبره العاصى إذا حل الحدث ، سيرى سيره إذا ناقش المسائل وبحث ، سيقرع سِنَّ الندم إذا نادى ولم يغث ، عجباً لجاهل باع تعذيب النفوس براحات الجثث .

كان الشِّبلى يقول : لا تغترر بدار لا بد من الرحيل عنها ، ولا تخرب داراً لا بد من الخلود [فيها](١) .

أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمى، أنبأنا أبو بكر الخطيب ، أنبأنا الحسن بن أحمد الدَّورقى ، حدثنا جعفر بن محمد بن أحمد المؤدب ، حدثنا محمد بن يونس ، حدثنا شداد بن على الهَرَّابى ، حدثنا عبد الواحد بن زيد ، قال . مررت براهب فناديته : ياراهب من (٢) تعبد ؟ قال : الذى خلقَنى وخلقَك . قلت عظيمٌ هو ؟ قال : قد جاوزتْ عظمتُه كلَّ شىء . قلت : فمتى يذوق العبد حلاوةَ الأنس بالله ؟ قال : إذا صفا الودُّ وخلصت المعاملة . قلت : فمتى يصفو الود ؟ قال : إذا اجتمع الهمُّ فى الطاعة . قلت : فمتى تخلص المعاملة ؟ قال : إذا كان الهم همًّا واحدا . قلت فكيف تخليت بالوحدة ؟ قال : لوذقت حلاوة الوحدة لا ستوحشت إليها من نفسك . قلت : فما أكثر ما يجد العبد من الوحدة . قال : الراحة من مداركة الناس والسلامة من شرهم . قلت : بماذا يستعان على قِلة المطعم ؟ قال : بالتحرِّى فى المكسب . قلت : زِدْنى خِلالا . قال كل حَلالا وارقد حيث شئت . قلت : فأين طريق الراحة ؟ قال : خلاف الهوى . قلت : لم تعلقت فى هذه الصومعة ؟ قال : من مشى على

---

(١) سقطت من ب . (٢) ب : لمن تعبد .

الأرض عثر ، فتحصنت بمن فى السماء من فتنة أهل الأرض لأنهم سُرّاق العقول ، وذلك أن القلب إذا صفا ضاقت عليه الأرضُ فأَحَبَّ قرب السماء . قلت : يا راهب من أين تأكل ؟ قال : من زرع لم أبذره . قلت : من يأتيك به ؟ قال : الذى نصب الرحا يأتيها بالطحين . قلت : كيف ترى حالك ؟ قال : كيف يكون حال من أراد سفراً بلا أهبة ، ويسكن قبراً بلا مؤنس ، ويقف بين يدى حكَم عدل . ثم أرسل عينه وبكى . قلت : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت أياما مضت من أجَلى لم أحقق فيها عملى ، وفكرت فى قلة الزاد وفى عقبة هبوط إلى الجنة أو إلى النار . قلت يا راهب : بم يُستجلب الحزن ؟ قال : بطول الغُربة ، وليس الغريب من مشى من بلد إلى بلد ، ولكنّ الغريب صالحٌ بين فُسّاق .

ثم قال : إنّ سرعة الاستغفار توبةُ الكذابين ، لو علم اللسان مما يَسْتغفر لجفَّ فى الحنَك ، إن الدنيا منذ ساكنها الموتُ ما قرَّت بها عينٌ ، كلما تزوجت الدنيا زوجا طلّقه الموت ، فمثلها كمثل الحيّة ليّن مسُّها (١) والسُّم فى جوفها .

ثم قال : عند تصحيح الضمائر يغفر الله الكبائر ، وإذا عزم العبدُ على ترك الآثام أتته من السماء الفتوح ، والدعاء المستجاب الذى تحرِّكه الأحزان .

قلت : فأكون معك يا راهب ؟ قال : ما أصنع بك ومعى معطى الأرزاق وقابض الأرواح ، يسوق إلىَّ الرزق فى كل وقت ، لم يكلّفنى جمعه ولم يقْدر على ذلك أحدٌ غيره .

***

اسمع يا خائن الذمم يا مُضيع الحُرَم ، يا من على التوبة عزَم زعم ، غير أنه كلما بنى أن يَلُوذ بنا هدم ، يسعى إلى الهدَى فإذا رأى جيفةَ الهوى جَثَم ، ويحك إطلاقُ البصر فى سُور الحذَر ثَلم ، عجبا لأمنك وأنت بين فكَّى جَلَم ، كأنك بك تتمنى العدم ، وتبكى

---

(١) ب : لمسها لين . وما أثبته من ب .

على تفريطك بندم ، إلى كم هـذا التوانى كم كم وكم ، إياك والدنيا فما تَشْفى من قَرَم[(١)] ، لمن تحدث لقد نفخنا من غير ضرم .

كم أسيرٍ لشهوةٍ وقتيـــلٍ أُفّ لمشْتَرٍ[(٢)] خلافَ الجميلِ
شهواتُ الإنسانِ تُورثه الذلَّ وتُلْقيه فى البلاءِ الطويلِ[(٣)]

يا حائراً لم يؤثر إلا خلافا ، يا واعدا بالتوبة ولم نَرَ إلا إخلافا ، متى ستعمل عدْلاً وتورث إنصافا ، أتصافِى الهوى من اليوم إن صافَى ، أمَا ترى الناس بهذه الدار أضيافا ، أتوقن بالحساب وترمى الفعل جُزَافا ، أتنسى الموت وكم قد أقام سَيَّافا ، أما بقى القليل ثم تلحق أسلافا ، متى تعاملنا باليسير فنضاعفه أضعافا .

إذا كثُرتْ منك الذنوبُ فداوِها برفْع يدٍ فى الليلِ والليلُ مظلمُ
ولا تَقْنطَنْ من رحمةِ الله إنما قُنوطك منها مِن خطاياك أعظمُ
فرحمتُه للمحسنين كرامـــةٌ ورحمته للمسرفين تـكرُّمُ

قال بَنان : دخلت على ابن العرْجى وهو فى بيت مملوء كتبا ، فقلت له : اختصر لى من هذه الـكتب كلمتين أنتفع بهما . قال : ليـكن همُّك مجموعاً فيما يُرْضِى الله عز وجل فإن اعترض عليك شىء فتُبْ من وقتك .

الـكلام على قوله تعالى
﴿ إنى جزَيـْتُهم اليومَ بما صَبَرُوا[(٤)] ﴾

كان كفار قريش كأبى جهل وعتبة والوليد قد اتخـذوا فقراء الصحابة كعمَّار وبِلاَل وخَبَّاب وصُهَيْب سِخْريًّا يستهزئون بهم ويضحكون منهم ، فإذا كان يوم القيامة قيل لهم : « إنِّى جزيتهم اليومَ بما صَبروا » على أذاكم واستهزائـكم .

(١) القرم : شدة شهوة اللحم . (٢) كذا بالأصل . وفى ذم الهوى : أف لمشتهى .
(٣) ذم الهوى ص ٣٣ عن الحسن بن سلمان الأبلى . (٤) سورة المؤمنون ١١١ .

لمّا علم الصالحون أن الدنيا دار رحلة دافعوا زمان البلاء وأدْلجوا في ليل الصبر علماً منهم بقرب فجر الأجر ، فما كانت إلا رقدة حتى صَبَّحوا منزلَ السلامة (١) ، نفذت أبصارُ بصائرهم بنور الغيب إلى مشاهدة موصوف الوعد ، فتعلقت يد الآمال بما عاينتْ بواطِن (٢) القلوب ، وأَخْمَصوا عن الحرام البطون ، وغضّوا عن الآثام الجفون ، وسكبوا في ظلام الليل الدموع ، وتَمَلْمَلوا تململَ الملسُوع ، استقاد قلوبَهم زمانُ التطلّف ، ثم جنَّبها سائقُ التعسف ، فكلما ألاح لهم الرجاء نورَ الوصال طبَّق ظلامُ الخوف سماء الأعمال ، فهم في بيداء التحيّر يَسْرحون ، ومن باب التضرع لا يَبْرحون ، وحُزْنهم أولى (٣) مما يفرحون ، فإذا عمَّهم الغمُّ فبالذِّكر يتروَّحون ، رفضوا الدنيا فسلِموا وطلبوا الأخرى فما ندموا ، يا بشراهم إذا قدِموا وغنموا .

أخبرنا أبو بكر الصوفي ، أنبأنا أبو سعد الحِيرىّ ، أنبأنا أبو عبد الله الشِّيرازِيّ ، حدثنا أبو زُرْعة الطبرى ، حدثنى يحيى بن عبد الله بن الحارث ، حدثنا محمد بن يزيد بن عبد الصمد ، حدثنا سعيد بن نصر ، حدثنى محمد بن يحيى بن عبد الكريم ، عن الوليد ابن مسلم ، عن الأوزاعى ، قال حدثنى حكيم من الحكماء قال مررت بعريش مصر وأنا أريد الرِّباط ، فإذا أنا برجل في مظلة قد ذهبت عيناه ويداه ورجلاه وبه أنواع البلاء وهو يقول : الحمد لله حمدا يوافى شكرك بما أنعمتَ علىّ وفضَّلتنى على كثير من خلقك تفضيلا . فقلت : لأنظرن أشىء عُلمه أو أُلهمه إلهاما . فقلت : على أى نعمة تحمده ، فو الله ما أرى شيئا من البلاء إلا وهو بك ! فقال : ألا ترى ما قد صنع بى ؟ فوالله لو أرسل السماء علىّ ناراً فأحرقتنى وأمرَ الجبال فدَكَّتْنى وأمر البحار فغرَّقتنى ما ازددتُ له إلا حمدا وشكرا ، ولكن لى إليك حاجة ، بُنَيّة لى كانت تخدمنى وتتعاهدنى عند إفطارى فانظر هل تحس بها ؟ فقلت : والله إنى لأرجو أن يكون لى فى قضاء حاجة هذا العبد الصالح قُربة إلى الله عز وجل . فخرجت أطلبها بين تلك الرمال فإذا السبع قد أكلها فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ! من أين آتى هذا العبد الصالح فأخبره بموت ابنته ، فأتيته

(١) ت : حتى أصبحوا بمنزل السلامة . (٢) ت : نواظر . (٣) ت : أوفى .

فقلت : أنت أعظمُ عند الله منزلةً أم أيوب ؟ ابتلاه الله تعالى فى ماله وأهله وولده وبدنه حتى صار غرضاً للناس ؟ فقال : لا بل أيوب . فقلت : إن ابنتك التى أمرتنى أن أطلبها أصبتُها فإذا السبع قد أكلها . فقال : الحمد لله الذى لم يخرجنى من الدنيا وفى قلبى شىء . ثم شهق شهقة فمات . فصليتُ عليه أنا وجماعة معى ثم دفنته . ثم بتّ ليلتى حتى إذا مضى من الليل قدر ثلثه وإذا به فى روضة خضراء وإذا عليه حُلّتان خضراوان وهو قائم يتلو القرآن ، فقلت : ألستَ صاحبى بالأمس ؟ فقال : بلى . فقلت : ما صيَّرك إلى ما أرى ؟ فلقد زدتَ على العابدين درجة لم ينالوها . قال : بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء .

أخبرنا محمد بن أبى منصور ، أنبأنا أبو طالب اليوسفى ، أنبأنا يوسف بن محمد المهرانى ، أنبأنا أحمد بن محمد بن حسنون ، حدثنا جعفر الخوَّاص ، حدثنا ابن مسروق ، حدثنا محمد بن الحسين ، حدثنى يحيى بن بسطام الأصغر ، حدثنى حريث بن طرفة قال كان حسان بن أبى سِنَان يصوم الدهر ويفطر على قُرص ويتسحر بآخر ، فنحل وسقم جسمه حتى صار كهيئة الخيال ، فلما مات وأُدخل مغتسله ليغسل كشف الثوب عنه فإذا هو كالخيط(١) الأسود قال : وأصحابه يبكون حوله . قال حُرَيث : فحدثنى يحيى البكَّاء وإبراهيم ابن محمد العُرنىّ(٢) قالا : لما نظرنا إلى حسان على مغتسله وما قد أبْلاه الدءوب استدمع أهل البيت وعلت أصواتهم ، فسمعنا قائلا يقول من ناحية البيت :

تجــوَّعَ للإله لكى يراه نحيلَ الجسمِ من طول الصيامِ

فو الله ما رأينا فى البيت إلا باكيا ونظرنا فلم نرَ أحدا . قال حُرَيْث : فكانوا يرون أن بعض الجن قد بكاه .

قال بعض أصحاب بشر بن الحارث : جئت إلى بابه فإذا هو فى الدهليز وبين يديه بطيخة وهو يقول لنفسه : أكلتيها فكان ماذا(٣) ؟ فطرقت عليه الباب ودخلت وقلت أى شىء هذه تعاتب نفسك فيها . فقال :

---

(١) ت : كهيئة الخيط . (٢) ت : الغربى . (٣) ت : فكان إيش .

صـبرتُ على الأيامِ حتى تولَّتِ　　وألزمتُ نفسى صبرها فاستمرَّتِ
وما النفسُ إلا حيث يَجْعلها الفتى　　فإن أُطمعتْ تاقتْ وإلا تسلَّتِ [١]

ثم رمى بالبطيخة إلىّ وأنشأ يقول :

وإنَّ كَدِّى لشَبْع بطنى　　يبيع دِينى بلا مُحـــالِ
من نالَ دُنيا بغير دينٍ　　نالَ وبالاً على وبالِ

أخبرنا يحيى بن على ، أنبأنا أبو بكر الخياط ، أنبأنا الحسن بن الحسين بن حمكان ، حدثنا أبو بكر النقاش ، عن محمد بن إسحاق السرَّاج ، قال سمعت أحمد بن الفتح يقول : رأيت بشرَ بن الحـارث فى منامى وهو قاعد فى بستان وبين يديه مائدة وهو يأكل منها فقلت له : يا أبا نصر ما فعل الله بك ؟ قال رحمنى وغفر لى وأباحنى الجنة بأَسْرها وقال لى : كل من جميـع ثمارها واشرب من أنهارها وتمتع بجميع ما فيها ، كما كنتَ تحرِّم على نفسك الشهوات فى دار الدنيا .

أخبرنا عبد الوهاب الحافظ ، أنبأنا أبو الحسين بن عبد الجبار ، أنبأنا الحسين بن على الطَّنَاجِيرى [٢] أنبأنا عبيد الله بن عثمان ، أخبرنا على بن محمد العنبرى ، أخبرنا عبد الرحمن ابن معاوية القُرَشى ، حدثنا محمد بن الفرج الصدفى ، حدثنا جعفر بن هرون ، عن مَسْلمة ابن جعفر ، عن الحسن قال : إن لله تعالى عبـاداً كمن رأى أهلَ الجنة فى الجنة مخلَّدين وكمن رأى أهلَ النـار فى النار معذَّبين ، قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة وأنفسهم عفيفة ، وحوائجهم خفيفة ، صبروا أياماً قِصارًا تُعْقب راحة طويلة ، أما الليل فصافَّة أقدامهم تسيل دموعهم على خدودهم ، يَجْأرون إلى ربهم عز وجل ربَّنا ربنا . وأما النهار فعلماء حُلَماء بَرَرَة أتقياء ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضَى أو قد خُولطوا ، وما بهم مرض ولـكن خالط القومَ أمرٌ عظيم .

---

(١) البيتان فى ذم الهوى ص٣٥٣ .　(٢) أبو الفرج الحسين بن على بن عبدالله بن أحمد بن ثابت الطناجيرى البغدادى ، نسبة إلى الطناجير ، وهو جمع طنجير ولعـل بعض أجداده كان يعملها . كان ثقة صدوقا . اللباب ٢/٨٩ .

أخبرنا أبو بكر الصوفى ، أنبأنا أبو سعد الحِيرِىّ ، حدثنا أبو عبد الله الشيرازى ، حدثنا محمد بن الحسين الزَّنْجَانى ، حدثنا عيسى بن هرون ، حدثنا إبراهيم بن الجُنَيْد ، حدثنى محمد بن صالح بن يحيى ، عن شعيب بن حرب ، قال : كان قوم من الحواريين على شاطىء البحر يتحدثون فى ملـكوت السماء وفى خدعة الدنيا لمن فيها ، فسمعوا هاتفا من البحر يقول : إن لله عبـادا أخلصَتْهم الخشيةُ وأذابهم الحزن ، فلم تجف دَمْعتهم ولم يشغلهم عن ربهم شاغل ، تفرَّغوا له ونصَبوه بين أعينهم ، أولئك على كراسىّ من نور عند قائمة العرش يضحك الله إليهم ويضحكون إليـه فصُعِقوا وسقط بعضُهم[(١)] فى البحر ومات باقيهم .

أخبرنا ابن ناصر ، أنبأنا محمـد بن على القرشى ، حدثنا أبو عبد الله محمد بن على الحسينى ، حدثنا أبو حازم محمد بن على الوشَّاء ، حدثنا زيد بن محمد بن جعفر ، حدثنا داود بن يحيى الدهْقان ، حدثنا محمد بن حماد بن عمرو ، حدثنا حسين بن حسين بن محمد ابن بكر ، عن أبى الجارود ، عن عطية ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه ليَبلغ من كرامة العبد على الله عز وجل يوم القيامة أنه ليـكون له فى الجنة ألف باب ، ما منها باب إلا عليه خدَم من خدمه ، فتقبل الملائـكة حتى ينتهوا إلى تلك الأبواب فيقولون هل على سيدكم من إذن ؟ فيقولون : ماندرى . فيأتونه فيقولون إن ملائكة من ملائكة الله على الأبواب يقولون : هل على سيدكم من إذن ؟ فيقولون[(٢)] : نعم . فيدخلون عليه بالتحية » .

***

ياقليل الصبر إنما هى مَراحل ، فصابر لُجَّةَ البلاء فالموت ساحِل ، تأمَّل تحت سُجف ليلِ الصبر صُبحَ الأجر ، واحبس لسانك عن الشـكوى فى سجن الصبر ، واقطع نهار اللَّأْوَاء بحديث الفِـكْر ، وأوقد فى دَيَاجِى الآلام مصباح الشـكر ، وقلِّب قلبك بين

---

(١) ب : وسقطوا فى البحر . وما أثبته من ت .   (٢) كذا . ولعلها : فيقول .

ذكر الثواب وتمحيص الوزر ، وتعلم أن البلاء يمزق ركام الذنوب تمزيق الشباك[1] ، ويرفع درجات الفضائل إلى كاهل السماك ، ومن تفكر فى سر : « إنّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِين » أنس بجليسه ، ومن تذكر « إنما يُوَفَّى الصابِرونَ أجرَهم بغيرِ حِسَاب » فرح بامتلاء كيسه.

إذا أنت لم ترحلْ بزادٍ من التُّقَى ولاقيتَ بعدَ الموتِ من قد تزوّدَا
ندمتَ على أنْ لا تكون كمِثْلِه وأنك لم تُرْصد كما كان أرصدا[2]

سجع على قوله تعالى
﴿ إنِّى جزيتُهمُ اليومَ بما صبروا ﴾

لله أقوام امتثلوا ما أُمروا ، وزُجروا عن الزلل فانزجروا ، فإذا لاحت الدنيا غابوا وإذا بانت الأخرى حَضروا ، فلو رأيتهم فى القيامة إذا حشروا « إنِّى جزيتهم اليومَ بما صَبروا » .

جنَّ عليهم الليل فسهروا ، وطالعوا صحفَ الذنوب فانكسروا ، وطرقوا باب المحبوب واعتذروا ، وبالغوا فى المطلوب ثم حذروا ، فانظر بماذا وعِدوا فى الذكر وذُكروا « إنى جزيتهم اليومَ بما صبروا » .

ربحوا والله وما خسروا ، وعاهدوا على الزهد فما غَدِروا ، واحتالوا على نفوسهم فملكوا وأَسَروا ، وتفقَّدوا أَنْعُمَ المولَى فاعترفوا وشكروا « إنى جزيتُهم اليومَ بما صَبروا » .

بيوتهم فى خُلُوها كالصوامع ، وعيونهم تنظر بالتُّقَى من طرف [خاشع[3]] والأجفان[4] قد سحَّت سحب المدامع تسقى بذْرَ الفكر الذى بَذروا « إنى جزيتُهم اليومَ بما صَبروا » .

استوحشوا من كل جليس ، شُغلا بالمعنى النفيس ، وزَمُّوا مطايا الجِدّ فسارت العِيس ، وبادروا الفُرْصَة ففاتوا إبليس ، لا وقفوا ولا فتروا « إنى جزيتهم اليوم بما صبروا » .

---

(١) ت : تمزيق الشمال والجنوب . (٢) من قصيدة الأعشى فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم انظر سيرة ابن هشام ٢ / ٢٧ . باختلاف . (٣) سقطت من ت . (٤) ت : والأحزان .

قلوبٌ فى الخدمة حضرتْ، أسرارٌ بالصدق عَمرت ، كم شهوة فى صدورهم انكسرت، أخبارهم تحيي القلوب إذا نُشرت ، ويقال عن القوم إذا نُشِروا « إنِّى جزَيْتهم اليومَ بما صَبروا » .

جَدُّوا فليس فيهم من يلعب ، ورفَضوا الدنيا فتركوها تَخْرب[1] ، وأذابوا قلوبهم بقِلّة المطعم والمشرب، فغداً يقال : كُلْ يا من لم يأكل واشرب يا من لم يشرب ، أذكارهم فى الحياة وإن كانوا قُبروا « إنى جزيتُهم اليوم بما صبروا » .

علموا أن الدنيا لعب ولهو وزينـة ، وأن من وافق مرادها فارق دِينـه ، فحذروا من غُرُور يُجْدى غَبِينـة ، فركبوا من التقى فى سفينة أشحنوها[2] بالزاد وعبَروا « إنى جزيتُهم اليومَ بما صَبروا » .

طوبَى لهم والأملاكُ تتلقَّاهم ، كشَف الحجابَ عن عيونهم فأراهم ، هذا أقصى آمالهم وقد ظَفِروا « إنِّى جزيتُهم اليومَ بما صَبروا » .

بلَّغنا الله ذلك المبْلَغ،وأسمَعنا زَجْرَ الناصح فقد أَبْلغ ، وسَترنا من العقاب فإنه إن عفا أسبغ ، ولولا عونه ما قَدروا « إنِّى جزيتُهم اليومَ بما صَبروا » .

(١) هذا مذهب الزاهدين ، ولكنه ليس منهج الإسلام الذى يأمر بعمارة الدنيا . ولعلهم كانوا يريدون ترك التكالب عليها والتنافس فيها . (٢) كذا فى ت . وفى ب : أعينوها . محرفة .

المجلس الرابع عشر

فى ذكر قصة شعيب عليه السلام

الحمد لله القديم فلا يقال متى كان ، العظيم فلا يَحْويه مكان ، أنشأ آدم وأخرج ذريته بنعمان ، ورفع إدريس إلى أعالى الجِنَان ، ونجَّى نوحاً وأهلَكَ كَنْعان ، وسلَّم الخليل بلُطْفه يومَ النيران ، ويوسفَ من الفاحشة حين البرهان ، وبعثَ شعيبا إلى مَدْين ينهى عن البَخْس والعدوان ، ويناديهم فى ناديهم ولكن صمَّت الآذان « قد جاءتْكم بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكم فأَوْفُوا الكَيْلَ والمِيزانَ » .

أحمده حمداً يملأُ الميزان ، وأصلى على رسوله محمد الذى فاق دينُه الأديان ، وعلى صاحبه أبى بكر أول من جمع القرآن، وعلى عمر الفاروق الذى كان يَفْرَق منه الشيطان ، وعلى زوج الابنتين عثمان بن عفان ، وعلى علىٍّ بحر العلوم وسيد الشجعان ، وعلى عمه المستسقَى بشيبته فأقبل السَّحُّ الهتَّان .

***

قال الله عز وجل : « وإلَى مَدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً [(١)] » .

قال قتادة : مَدْين ماء كان عليه قوم شعيب . وقال مقاتل : مَدْين هذا هو ابن إبراهيم الخليل لصُلْبه . وقال أبو سليمان الدمشقى : هو مدين بن مديان بن إبراهيم .

والمعنى : أَرْسلنا إلى ولد مدين . فعلى هذا هو اسم قبيلة .

وشُعَيب هو ابن عيفا بن نُوَيب بن مدين بن إبراهيم ، أرسل إلى مدين وهو ابن عشرين[(٢)] سنة ، وكانوا مع كفرهم يبخسون المكاييل والموازين ، فدعاهم إلى التوحيد ونهاهم عن التطفيف ، وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومَه .

***

قوله تعالى : «قد جاءتْكم بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكم» ولم يذكر معجزته . « ولا تَبْخَسُوا

---

(١) سورة هود ٨٤ . (٢) كذا بالأصول . وهو لا يتفق مع ما عرف فى تاريخ النبوات من أنه لم يبعث نبى إلا فى سن الأربعين . وانظر الخلاف فى نسب شعيب فى قصص الأنبياء لابن كثير ١/٢٧٥ .

المِكْيَالَ والمِيزانَ » أى لا تنقصوا « ولا تفسدوا فى الأرض » أى لا تعملوا فيها المعاصى بعد أن أصلحها بالأمر بالعدل « ولا تَقْعُدوا بكلِّ صراط » أى بكل طريق « تُوعِدُون » وإنما لم يقل بكذا لأن العرب إذا أَخْلَت الفعلَ من المفعول لا يدل إلا على شرّ ، يقولون: أَوْعدتُ فلاناً . وكذلك إذا أفردُوا « وعَدْت » من مفعول فإنه لا يدل إلا على خير . قال الفرَّاء : يقولون : وعدتُه خيرا ووعدته شرا ، فإذا أسقطوا الخير والشر قالوا : وعدته فى الخير . وأوعدته فى الشر .

وللمفسرين فى المراد بهذا الإيعاد ثلاثة أقوال : أحدها : أنهم كانوا يوعِدون من آمن بشعيب . قاله ابن عباس . والثانى : أنهم كانوا عَشَّارين[1] قاله السُّدّى . والثالث: أنهم كانوا يقطعون الطريق . قاله ابن زيد .

قوله تعالى : « وتَصُدُّون عَنْ سبيلِ الله » أى تصرفون عن دِينه « من آمنَ به وتبغُونها عِوَجاً » أى تطلبون للسبيل عِوَجاً أى زيفا « واذكُروا إذ كُنتم قليلاً فكَثَّركم » يحتمل ثلاثة أشياء : أحدها : كنتم فقراء فأغناكم ، وقليلاً عددُكم فكَثَّركم، وغير ذى مَقْدرة فأَقْدَركم . وكانوا مع كثرة أموالهم قد أُغْرُوا بالتطفيف .

وكان[2] من جملة ما ردُّوا عليه : « أصلاتُكَ تأمرك » أى دينك وقراءتك . «أن نَتْركَ ما يَعْبُد آباؤنا أو أَنْ نَفْعَلَ فى أموالنا» المعنى : [أو[3]] أن نترك أن نفعل . وقرأ الضحاك بن قيس الفِهْرى : «ما تشاء» فاستغنى عن الإضمار . وقال سفيان الثَّورى: أمَرهم بالزكاة فامتنعوا . وقالوا : « إنَّك لأنتَ الحَليمُ الرَّشِيدُ » استهزاء به .

خوَّفهم أَخذاتِ الأمم وقال : « لا يَجْرِمَنَّكم شِقَاقِى » أى لا تَحْملنكم عداوتكم إياى أن تعذَّبوا . وكان أقرب الإهلاكات إليهم قوم لوط فقال[4] : « وما قومُ لُوطٍ منكم ببعيد » .

فقالوا : «ما نَفْقَه كثيراً مما تقول» أى ما نعرف صحة ذلك «وإنّا لَنَراكَ فينا ضَعِيفاً»

---

(١) عشارين : يأخذون العشور ممن يمر بهم .

(٢) كذا فى ت . وفى ب : فكانوا .

(٣) من ت .

(٤) ت : فلهذا قال .

وكان قد ذهب بصره . كذا يقول سعيد بن جُبَيْر . وقال[1] ابن المنادِى : وهذا إن ثبت كان فى آخر عمره لأنه لا يبعث نبىّ أعمى . قال أبو رَوْق : لم يبعث الله نبيًّا أعمى ولا من به زَمانة . قال ابن المنادى: وهذا القول أَلْيَطُ[2] بالقلوب من قول سعيد بن جبير.

« ولَوْلَا رَهْطُكَ » يعنى عشيرتك « لَرَجَمْناكَ » أى لقتلناك بالرجم . فقال لهم : «أَرَهْطِى أعزُّ عليكم من اللهِ» أى تراعون رهطى فىّ ولا تراعون الله فىّ « واتَّخَذْتُموه وراءَكُمْ ظِهْرِيًّا » أى رميتم أمر الله وراء ظهوركم .

ثم كان آخر أمره أن قال : « فارتَقِبُوا إنِّى معكم رقيب » قال ابن عباس رضى الله عنهما : ارتقبوا العذاب فإنى أرتقب الثواب . قال محمد بن كعب عذِّب أهل مدين بثلاثة أصناف : أخذَتْهم رَجْفة فى ديارهم حتى خافوا أن تسقط عليهم ، فخرجوا منها فأصابهم حرّ شديد ، فبعث الله تعالى الظُّلَّة فنادوا : هلموا إلى الظل . فدخلوا فيه فصيح بهم صَيْحة واحدة فماتوا كلهم .

وهذا القول على أن أهل مدين أصحاب الظُّلّة ، وإليه ذهب جماعة من العلماء فعلى هذا إنما حذف ذِكْر الأخ من سورة الشعراء تخفيفا .

وذهب مقاتل إلى أن أهل مدين لما هلكوا بُعِث شعيب إلى أصحاب الأيْكة فأُهلكوا بالظُّلة .

قال أبو الحسين بن المنادى : وكان أبو جاد وهواز وحطّى وكَلَمُون وسَعفص وقريشات بن الأمحض بن جندل بن يعصب بن مدين بن إبراهيم ملوكا ، وكان أبو جاد ملك مكة وما والاها من تهامة ، وكان هواز وحطى ملكى وَجّ وهو الطائف، وكان سعفص وقريشات ملكى مدين ، ثم خلَفهم كلمون فكان عذاب يوم الظلة فى مُلْكه . فقالت حالفة بنت كلمون ترثيه :

كلمون هدّ ركنى هُلْكه وَسْط المحلّه
سيد القوم أتاه الحَتْف نار وَسْط ظُلّه

---

[1]) ت : قال . (٢) أليط : أقرب وألصق .

كونت نارا فأضحت دارهم كالمضمحِلة [1]

قال ابن المنادى : ثم إن شعيبا مكث فى أصحاب الأيكة باقى عمره يدعوهم إلى الله تعالى فما ازدادوا إلا عتوا فسلط عليهم الحر . فجائز أن تكون الأمتان اتفقتا فى التعذيب .

وقد قال قتادة : أمّا أهل مدين فأخذتهم الصيحة والرجفة ، وأما أصحاب الأيكة فسلّط عليهم الحر سبعة أيام ، ثم إن الله تعالى أرسل عليهم نارا فأكلتهم ، فذلك عذابُ يوم ِالظُّلّة .

ثم إن شعيبا زوَّج موسى ابنته ، ثم خرج إلى مكة فمات بها وكان عمره مائة وأربعين سنة ، ودفن فى المسجد الحرام حيال الحجر الأسود .

***

واعلم أن الله تعالى عظَّم ذكر البَخْس فى قصتهم وشدَّد فيه وأطنب فى ذكره وأشار إلى التوحيد ، لينبهنا على ما نرتكبه، فإذ [2] قد عرفنا قُبح الشرك لم نحتج إلى الإطناب فى ذكره ، وكذلك عابَ قومَ لوط بالفاحشة وبالغ فى ذكرها ، وكل ذلك لتخويفنا .

قال ابن عباس : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله تعالى : « وَيْلٌ للمطففين » .

واعلم أنه خوَّف المطففين بذكر الويل لهم ثم قال : «ألا يظُنُّ أولئك أنهم مَبْعُوثون» والمعنى : لو ظنوا البعث ما بَخَسوا « يومَ يقومُ الناس لِربِّ العالمين » أى لأمر الجزاء .

وفى الصحيحين من حديث ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقوم أحدهم فى رَشْحه إلى أنصاف أذنيه » وقال كعب : يقفون ثلاثمائة عام .

أخبرنا ابن الحصين ، أنبأنا ابن المُذْهَب ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله ابن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا سفيان ، عن العلاء ، عن أبيه عن أبى هريرة ، رضى الله عنه

---

(١) هذه أسطورة لا تصدق ، ولا يثبت ما فيها من الشعر ، وهى من وضع القصاصين .

(٢) ت : فإنا قد عرفنا قبح الشرك فلم نحتج .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ برجل يبيع طعاما فسأله : كيف تبيع ؟ فأخبره ، فأوحى الله تعالى إليه : أدخل يدك فيه . فأدخلَ يده فإذا هو مبلول ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من غَشَّ » .

وقد روينا عن محمد بن واسع أنه رئى يعرض حمارا له على البيع فقال له رجل : أترضاه لى ؟ فقال : لو رضيتُه لم أبعه .

وفى أفراد البخارى من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليأتين على الناس زمانٌ لا يبالى المرء بما أخذ المالَ من حلال أم حرام » .

وفى الصحيحين من حديث حذيفة رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رَفْع الأمانة فقال : « ينام الرجلُ النومةَ فتُقْبَض الأمانة مِن قلبه » .

الكلام على البسملة

يا أخى كُنْ على حذَر قبلَ أن تحْدُثَ الغيَرْ
لا تكن جاهلا كأنك لا تعرف الخبرْ
نشَر العيشُ صَفْوه فطوَى الموتُ ما نَشَرْ
فإذا ما صفا لك الدهرُ فاعمل على الحذَرْ
أين من طال عُمْرُه أين من كان ذا قِصَرْ
لا الرُّقَى أخَّرتهمُ من طبيب ولا البَشَرْ
رحم الله من تفكَّر فى الموت واعتبرْ
قبل أن تخرج النفو سُ ولا تمكن الفِكَرْ
فكأنَّا بيوْمنا قد أتانا به القدَرْ
واستوى عنده الموا صِل فيه ومْن هَجَرْ
وعَدِمْنا النهار والليـ لَ والحر والمطَرْ
وانقضى العدُّ بالنجو م وبالشمسِ والقَمَرْ

ما انتظاري وكل حَيّ له الموتُ يُنتَظرْ
رقّ جِلدِي ودَقّ عظ مِي وقلبي فمن حَجَرْ
كلمـــا تُبْتَ من ذُنو بٍ تقحّمْتُ في أُخَرْ

***

يا غريقاً فى لُجج لجَـاجه ، يا راحلا عن قليل عن أهله وماله وأزواجه ، يا مسئولا ماله جوابٌ فى احتجاجه ، متى يأتى الهدَى من طُرقه وفِجاجه ، متى تنير القلوبُ بإيقاد سراجه ، متى يُـكْتَم هذا الجرح بانتساجه ،متى يفتح بابٌ يا طُول ارتياجه ، متى يُستدركُ عمرٌ قد مرّ باندماجه ، متى يرجع سَفر النـدَم بقضاء حاجِه ، إلى متى يقال فلا تقبل ، أمَا الموت نحوك قد أقبل ،أمَا العمر أيام تُنهب ، أما الساعات أحلامٌ تذهب ، أما المعاصى تضر الـكاسب ، أمَا الخطايا شَرّ المـكاسب ، أبعد احتجاج الشيب ما ترعوِى ، أبعدَ اعوجاج الصُّلْب ما تستوى .

إلى كم يكون العَتْبُ فى كلّ لحظةٍ ولِمْ لا تَملُّون القَطيعة والهجْرَا
رُوَيْدك إنّ الدهر فيـــه كفايةٌ لتفريق ذاتِ البين فانتظر الدهرَا

لله در أقوام نظروا إلى الأشيـاء بعينها ، فـكشفت لهم العواقبُ عن غيبهـا ، وأخبرتهم الدنيا بكل عيبها ، فشمَّروا للجِدّ عن سُوق العزائم وأنت فى الغفلة نائم .

***

أخبرنا يحيى بن على، أنبأنا أبو الحسين بن المهتدِى، حدثنا محمد بن يوسف العلاّف، حدثنا عبد الله بن محمـد البغوى ، حدثنا عبد الله بن عَون ، حدثنا يوسف بن عطية ، عن ثابت البُنَانى[١] ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال بينما رسول الله صلى الله عليـه وسلم يمشى استقبله رجل من الأنصار فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف أصبحتَ يا حارثة ؟ قال : أصبحتُ مؤمنـا بالله حقّا . قال : انظر ما تقول ، فإن لـكل قول حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : يا رسول الله عرفتْ نفسى الدنيا فأسهرتُ[٢] ليلِى وأظمأتُ نهـارى ، وكأنى بعرش ربِّى بارزاً ، وكأنى أنظر إلى أهل

(١) أبو محمد ثابت بن أسلم البنانى من تابعى البصرة ، صحب أنس بن مالك أربعين سنة ، توفى سنة ١٢٧ اللباب ١/١٤٥ . (٢) ب : فأسهر .

الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتعاوَوْن فيها . قال : أبصَرْتَ فالزم . عبدٌ نوَّر الله الإيمانَ فى قلبه فقال : يا رسول الله صلى الله عليك وسلَّم ، ادعُ الله لى بالشهادة ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنودى يوماً فى الخيل ، فكان أولَ فارس ركب وأول فارس استُشهد قال : فبلغ ذلك أمَّه فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن يكن فى الجنة لم أبكِ عليه ، ولكن أحزن ، وإن يكن فى النار بكَيتُ عليه ما عشتُ فى دار الدنيا . فقال : « يا أم حارثة إنها ليست بجنة ولكن جنات ، والحارث[1] فى الفردوس الأعلى » . فرجعتْ وهى تضحك وتقول : بَخٍ بَخٍ لك يا حارثة !

***

يا هذا سبقَك أهلُ العزائم وأنت فى الغفلة نائم ، لقد بِعْت المعالى بالكسل ، وآثرت البطالة على العمل ، أزعج ذِكرُ القيامة قلوبَ الخائفين ، وقَلْقَل خوفُ العتاب أفئدةَ العارفين ، فاشتغلوا عن طعام الطَّغَام[2] ، ومال بهم حذَر الباس عن تَنوُّق[3] اللِّباس .

كان أُوَيْس القَرَنى[4] يلتقط الرِّقاع من المزابل ويغسلها فى الفرات ويضع بعضها على بعض :

أطماره رَثَّةٌ فقد ضاعَ   لا ضاعَ ، وضاعَ الثمينُ فى بَلَدِهْ
ليس له ناقد فيَعْرفه   وآفةُ التِّبْر ضَعْفُ مُنْتَقِدهْ

يا مفرِّطا فى ساعاته بالليل والنهار ، لو علمت ما فات شابهتْ دموعُك الأنهار ، يا طويل النوم عَدِمْت خيراتِ الأسحار ، لو رأى طرفك ما نال الأبرارُ حار ، يا مَخدوعا بالهوى ساكنا فى دار ، قد حام حول ساكنها طارقُ الفناء ودار ، سار الصالحون فاجتهدْ فى اتباع الآثار ، واذكر بظلام الليل ظلامَ القبر وخُلوَّ الديار ، وحاربْ عدوّا قد قتلك بالهوى واطلب الثار ، فقد أريتُك طريقاً إنْ سلكتها أمِنْت العثار ، فإن فزت بالمراد فالصيد لمن أثار .

---

(١) كذا . ورواية البخارى فى الصحيح : « وإنه فى جنة الفردوس » .
(٢) الطغام : أوغاد الناس. (٣) التنوق : المبالغة والتجويد فى الملبس. (٤) هو أويس بن عامر ، ويقال ابن عمرو ، القرنى ، نسبة إلى قرن بفتح القاف والراء ، بطن من مراد . كان من جلة التابعين يلزم المسجد مع جماعة من أصحابه ، يقال إنه مات مع على بن أبى طالب مقاتلا بين يديه فى صفين . اللباب ٢/٢٥٦ ، وميزان الاعتدال ١/١٢٩ .

من لنفسٍ أبَتِ * ناصحاً إذ صبَتِ ... كم جديدٍ من صِباً * فى جديد أبلتِ[1]

وأطاعت من هوًى * فهوَتْ إذ هفتِ ... عَدِمَتْ[2] يقظتها * فيه حتى قضَتِ

وَيْكِ[3] يانفس ألَا * حَذَرٌ من غفلةِ ... إنما الدنيا أسًى * كم دموعٍ أذْرَتِ

إن بنَتْ ما شيدَّت * هدمَتْ ما بنَتِ ... أوجبَتْ[4] سائلها * رجعَتْ فى الهبةِ

أو صفَتْ عندَ فتى * كدَّرتْ ما أصفَتِ ... كم صريعٍ نَقَّلتْ * إذ قلَتْ فى قُلَّةٍ[5]

كم غبيٍّ غافلٍ * أسمعتْ إذ نعَتِ ... غادرَتْه جثةً * لرفاتٍ عِلةِ[6]

لم يكن ينفعه * كل عين بكتِ ... آه يوماً حسرةً * لأمورٍ جرَتِ

الكلام على قوله تعالى

﴿ كَلاَّ إذا بلغَت التَّراقِيَ ﴾

كَلاَّ رَدْع وزَجْر . والمعنى : ارتدعوا عن ما يؤدى إلى العذاب « إذا بلغَتْ » يعنى النفس . وهذه كناية عن غير مذكور . والتراقى : العِظَام المكتنفة لثُغرة النَّحر عن يمين وشمال ، وواحدالتراقى تَرْقُوة . ويُكنى ببلوغ النفس إلى التراقى عن الإشفاء على الموت . « وقيلَ مَنْ راقٍ » فيه قولان : أحدهما أنه قول الملائكة بعضهم لبعض : من يرقى روحه؟ ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب . والثانى : أنه من قول أهله : من يرقيه بالرُّقى . والقولان عن ابن عباس .

قوله تعالى : « وظَنَّ » أى أيقن الذى بلغت روحُه إلى التراقى « أنه الفِراقُ » للدنيا . « والتفَّت الساقُ بالساقِ » فيه خمسة أقوال : أحدها : أمر الدنيا بأمر الآخرة . قاله ابن عباس . والثانى : اجتمع فيه الحياة والموت . قاله الحسن . والثالث : التفَّت ساقاه عند الموت . قاله الشعْبى . والرابع : التفت ساقاه فى الكفن . قاله سعيد بن المسيِّب . والخامس : التفت الشدةُ بالشدة . قاله قتادة . قال الزّجاج : آخرُ شدة الدنيا بأول شدة الآخرة .

***

(١) ورد هذا الشطر فى ب محرفاً : * كم من صبى فى جديد أبلت * وما أثبته من ت .
(٢) ب : علمت . (٣) ب : ويحك . (٤) ب : أوهب . محرفة . وما أثبته من ت .
(٥) ب : مقلته . وقلت : جفت وكرهت . والقلة ـ بكسر القاف ـ ضد الكثرة . وبضمها : أعلى الجبل . ولعلها من قلة . (٦) ت : غادرته جنة لرقاب علات . ولعله محرف فى الأصل .

يالها من ساعة لا تشبهها ساعة ، يندَم فيها أهلُ التُّقى فكيف أهلُ الإضاعة ، يجتمع فيها شدة الموت إلى حسرة الفَوْت .

لما احتُضر أبو بكر الصديق رضى الله عنه قالت عائشة :

لَعمرك ما يُغنِي الثراء عن الفتى ... إذا حَشْرجَتْ يوماً وضاق بها الصدرُ

فقال : ليس كذلك ولكن قولى : « وجاءت سكرةُ الموتِ بالحقِّ ذلك ما كنتَ منه تَحيد » ولذلك كان يقولها أبو بكر .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند الموت : ويلى وويل أمى إن لم يرحمنى ربى!

ولما دخلوا على عثمان رضى الله عنه جعل يتمثل :

أرى الموتَ لا يُبْقى حَزِيناً ولا يدَعْ ... لعادٍ مَلاَذاً فى البلادِ ومُرْتقَى

يبيِّت أهلَ الحصنِ والحصنُ مُغْلَق ... ويأتِى الجبالَ من شَماريخها العُلَى

ولما جُرح على بن أبى طالب رضى الله عنه جعل يقول :

شُدَّ حيازيمك للموت ... فإنّ الموتَ لاقِيكَ

ولا تجزع من الموت ... إذا حَلَّ بوادِيكَ

ولما احتُضر معاوية جعل يقول :

إنْ تُناقِشْ يكن نقاشك ياربْ ... بِ عذاباً لا طَوْقَ لى بالعذابِ

أو تجاوَزْ فأنت ربٌّ عَفُوٌّ ... عن مُسىء ذنوبه (١) كالترابِ

ولما احتضر معاذ جعل يقول : أعوذ بالله من ليلة صباحها النار ، مرحبا بالموت مرحبا زائر مُغِبّ حبيب جاء على فاقة ، اللهم إنى قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك ، اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطولَ البقاء فيها لكَرْى (٢) الأنهار ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالرُّكب عند حِلَق الذِّكر .

ولما احتضر أبو الدرداء جعل يقول : ألا رجل يعمل لمثل مَصْرعى هذا ؟ ألا رجل

(١) ب : ذنبه . (٢) كرى الأنهار : شقها .

يعمل لمثل ساعتي هذه ، ألا رجل يعمل لمثل يومي هذا ! وبكى . فقالت له امرأته : تبكي وقد صاحبتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ومالي لا أبكي ولا أدرى علامَ أهجم من ذنوبي .

ولما احتُضر أبو هريرة بكى ، فقيل له : وما يبكيك ؟ فقال : بُعْد المفازة وقلة الزاد وعقبة كئود ، المهبِط منها إلى الجنة أو إلى النار .

وقيل لحذيفة في مرضه : ما تشتهي ؟ قال الجنة . قيل : فما تشتكي ؟ قال : الذنوب.

ولما احتضر عمرو بن العاص قيل له : كيف تجدك ؟ فقال : والله لكأنَّ جنبي في تَخْت [1] ، وكأني أتنفس من سَمّ الخياط ، وكأن غصن شَوْك يُجَرّ به من قدمي إلى هامتي . ثم قال :

ليتني كنتُ قبلَ ما قد بدَا لي ... في قِلاَل الجبالِ أرعَى الوعُولا [2]

ليتني كنت حَمْضا [3] عَرَكتني الإماء بذَرِير الإذخر . ونظر إلى صناديق فيها مال فقال لبنيه : من يأخذها بما فيها ؟ ياليته كان بَعْراً !

وكان عبد الملك بن مروان يقول في مرضه : ودِدْت أني عبدٌ لرجل من تهامة أرعى غُنَيمات في جبالها وأنّي لم ألِ من هذا الأمر شيئاً .

ولما احتضر عمر بن عبد العزيز قال : إلهي أمرتني فلم أئتمر وزجرْتني فلم أزدجر . غير أني أقول : لا إله إلا الله .

ولما احتضر الرشيد أمر بحفر قبره ثم حُمل إليه فاطّلع فيه فبكى حتى رُحِمَ ثم قال : يا من لا يزول مُلْكه ارحم من قد زال مُلكه .

وكان المعتصم يقول عند موته : ذهبت الحِيَل فلا حيلة .

وبكى عامر بن عبد قيس لما احتضر وقال : إنما أبكي على ظَمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء .

---

(١) التخت : وعاء تصان فيه الثياب . (٢) البيت لأمية بن أبي الصلت . ديوانه ص ٤٥ .

(٣) الحمض : ما ملح وأمر من النبات ، وهي كفاكهة للإبل . وفي الأصل : حبضا ، ولعلها محرفة .

وبكى أبو الشَّعْثاء عند موته فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال ؛ لم أشتفِ من قيام الليل .

وبكى يزيد الرقاشيّ عندموته فقيل : ما يبكيك ؟ فقال : أبكى على ما يفوتنى من قيام الليل وصيام النهار . ثم جعل يقول : يا يزيد من يصلى لك ومن يصوم عنك ، ومن يتقرب إلى الله عز وجل بالأعمال بعدك ، ويحكم : يا إخوانى ، لا تغترّوا بشبابكم ، فكأنْ قد حلّ بكم مثلُ ما قد حل بى .

وقال المزَنيّ (١) : دخلت على الشافعى فى علته التى مات فيها فقلت له : أبا عبد الله كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلًا ولإخوانى مفارقًا وبكأْس المنية شاربا ، وعلى الله تعالى وارداً ، ولا أدرى نفسى تصير إلى الجنة فأهنّها أم إلى النار فأعزيها . ثم بكى وقال :

ولمّا قسا قلبى وضاقتْ مذاهبى   جعلتُ رجائى نحو عَفْوكَ سُلّمَا

تعاظَمنى ذنبى فلما قَرَنْته   بعفوك ربى كان عَفْوك أعظمَا

ومازلتَ ذا عفوعن الذنب سيدى   تجودُ وتعفو مِنَّةً وتكرُّمَا

ولولاكَ لم يَغْوِ ىَ (٢) بإبليس عابدٌ   فكيف وقد أغوىَ صَفِيَّك آدمَا

وقال إبراهيم بن أدهم : مرض بعض العُبّاد فدخلنا نعوده ، فجعل يتنفس ويتأسف فقلت له : على ماذا تتأسف ؟ قال : على ليلة نِمْتها ويوم ٍ أَفطرته وساعة غَفلت فيها عن ذكر الله عز وجل .

وبكى بعض العُبّاد عند موته فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أن يصوم الصائمون ولستُ فيهم ، ويذكر الذاكرون ولست فيهم ، ويصلى المصلون ولست فيهم .

وقال أبو محمد العِجْلى : دخلت على رجل وهو فى الموت فقال لى : سَخِرتْ بى الدنيا حتى ذهبت أيامى .

ولما احتضر عَضُد الدولة تمثل :

---

(١) ت : وقال المزنى .   (٢) كذا ، لضرورة الشعر .

قتلتُ صَناديدَ الرجالِ فلم أدع عدوًّا ولم أُمْهل على ظِنَّة خَلْقَا
وأخْليتُ دورَ المُلك من كل نازلٍ فشرَّدتهم غرْبا وبدَّدْتهم شَرْقَا
فلما بلغتُ المجدَ عزًّا ورفعةً وصارت رِقابُ الخلقِ أجمعَ لى رِقَّا
رمانى الردَى سَهْما فأَخْمد جَمْرتى فها أناذا فى حَفْوتى عاطلاً مَلْقَا(١)
فأذهبتُ دنيايَ ودِينى سفاهةً فمن ذا الذى منِّى بمَصْرعه أشقَى

ثم جعل يقول : « ما أغنَى عنى ماليه ، هلَكَ عنِّى سُلْطانيه . » فرددها إلى أن مات.

***

رَ كِب الأمانُ من الزمانِ مَطيّة ليستْ كما اعتاد الركائب تَبْرُكُ
والمرء مِثْل الخوف بين سُهادِه وكَراه يَسْكن تارةً ويُحرَّكُ

يامشغولا قلبه بُلبْنَى وسُعدى ، يامستلذَّ الرقاد وهذى الركائب تُحْدَى ، يا عظيم المعاصى يا مخطئًا جدا ، يا طالما طال ما عتَا وتعدَّى ، كم جاوز حَدًّا وكم أتى ذنبا عَمْدا ، يا أسير الهوى قد أصبح له عبْدا ، ياناظما خَرزات الأمل فى سِلْك المُنَى عقْدا ، يامعرضا عما قد حَلَ كم حَلَّ عقْدا ، كم عاهد مرةً وكم قد نقض عهدا ، من لك إذا سُقيت كأسا لا تجد من شُربها بُدًّا مُزِجت أو صابًا وصَابا صار المصاب عندها شَهدا ، من لك إذا لحقتَ أبًا وأما وأخا وعما وجدًّا ، وتوسَّدْتَ بعد اللِّين حَجَرا صَلْبا صَلْدا ، وسافرت سفرا ياله من سفرٍ بُعْدا ، واحتوشَك عملُك هَزْلا كان أو جِدًّا ، ولقيت مُنْكرا ونكيرا فهل لقيت أسدا ، فبادر قبل الموت فما تستطيع للفوت رَدًّا .

نهاكَ عن البطالةِ والتصابِى نُحولُ الجسم والرأسُ الخضيبُ
إذا ما مات بَعضُك فابكِ بعضًا فبعضُ الشىءِ من بعضٍ قريبُ

***

أخبرنا محمد بن أبى منصور ، أنبأنا على بن الحسين ، أنبأنا أبو على بن شاذان ، سمعت

---

(١) كذا فى ب ، والملق كـكتف : الضعيف . وسكنت اللام للوزن . والرواية فى ت :

* فها أنَا دانى حُفْرَتى عاجلاً مُلقى *

أبا صالح كاتب الليث يذكر عن الفضل بن زياد ، عن الأَوْزاعِى ، أنه وعَظ فقال فى موعظته:

أيها الناس تقوَّوْا بهذه النعم التى أصبحتم فيها على الهرب من النار الموقَدة التى تطَّلع على الأفئِدة ، فإنكم فى دارِ الثَّواء فيها قليل ، وأنتم فيها مؤجَّلون وخلائف من بعد القرون ، الذين استقبلوا من الدنيا زخرفها (١) وزَهْرتها ، فهم كانوا أطولَ منكم أعمارا وأمدَّ أجساماً وأعظم آثارا ، نحدّدوا (٢) الجبال وجابُوا الصخور ، ونقَّبوا فى البلاد مؤيَّدين ببطش شديد وأجسام كالعِمَاد ، فما لبثت الأيامُ والليالى أنْ طوت مُدَّتهم ، وعفَّت آثارهم ، وأَخْوت منازلهم ، وأَنْست ذِكْرهم ، فما تُحسُّ منهم من أحد ولا تسمع لهم رِكْزاً . كانوا بلَهْو الأمل آمنين كبيَات قومٍ غافلين أو كصباح قومٍ نادمين ، ثم إنكم قد علمتم الذى قد نزل بساحتهم بَياتاً فأصبح كثير منهم فى ديارهم جاثمين ، وأصبح الباقون ينظرون فى آثار نقمة وزوال نعمة ومساكن خاوية ، فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم وعِبْرة لمن يخشى ، وأصبحتم من بعدهم فى أجل منقوص ودنيا مقبوضة ، فى زمان قد ولَّى عفوه وذهب رجاؤه ، فلم يبق منه إلا جمّة (٣) شرّ وصُبَابة كدَر وأهاويل عِبَر [وعقوبات غبر (٤)] وأرسال فتن ورُذَالة خَلَف ، بهم ظهر (٥) الفساد فى البرّ والبحر ، فلا تكونوا أشباهاً لمن خدعه الأمل وغرّه طولُ الأجَل ، نسأل الله عز وجل أن يجعلنا ممن وعَى نُذره وعقَل بُشْراه فمهَّد لنفسه .

تزوّج دنياه (٦) الغبىُّ بجهله ... فقد نَشَزتْ من بَعد ما قُبض المهرُ
تطهَّرْ ببُعْدٍ من أذاها وكيدِها ... فتلك بَغِىٌّ لا يصح لها طُهرُ
ونحن كرَكْب الموج ما بين بعضهم ... وبين الردَى إلا الذراعُ أو الشِّبْرُ

الكلام على قوله تعالى

﴿ ما عندكم ينفَدُ وما عند الله باقٍ ﴾

يا كثير الخِلاف يا عظيم الشقاق ، ياسيِّئ الآداب ، يا قبيح الأخلاق ، ياقليل الصبر

(١) ت : أنفها . (٢) خددوا : شقوا . (٣) الجمة : المجتمع من الشىء . والصبابة : البقية.
(٤) من ت . والغبر : الشديدة . (٥) فى ب : ورزالة خلوبهم وظهر الفساد . محرفة والتصويب من ت . (٤) الأصل : دنياك .

يا عديم الوِفَاق ، يا من سيبكى كثيرا إذا انتبه وفاق ، والتفَّت الساق بالساق . أين من أنس بالدنيا ونَسى الزوال ، أين من عَمَر القصور و جَمَع المال ، تقلَّبت بالقوم أحوالُ الأهوال ، كم أراك عبرة وقد قال « سَنُريهم آياتنا فى الآفاق » .

أين صديقك المؤانس ، أين رفيقك المجالس ، أين الماشى فقيرا وأين الفارس ، امتدت إلى السكل كفُّ المخالِس ، فنزلوا تحت الأطباق .

وكأنْ قد رحلتَ كما رحلوا ، ونزلتَ وشيكا حيث نزلوا ، وحملت إلى القبر كما حُملوا ، إلى ربك يومئذ المساق .

من لك إذا ألمّ الألم ، وسكت الصوت وتمكن الندم ، ووقع بك الفوت ، وأقبل لأخذ الروح ملَك الموت ، وجاءت جنوده وقيل من راق .

ونزلتَ منزلاً ليس بمسكون ، وتعوّضْتَ بعدَ الحركات السكون ، فيا أسفاً لك كيف تسكون ، وأهوال القبر لا تطاق ، وفُرّق مالك وسُكنت الدار ، ودار البلاء فما دار إذ دار ، وشغلك الوزر عمن هجر وزار ، ولم ينفعك ندم الرفاق .

أمَا أكثر عمرك قد مضى ، أما أعظم زمانك قد انقضى ، أفى أفعالك ما يصلح للرضا ، إذا التقينا يوم التلاق . ياساعياً فى هواه تصوَّر رَمْسك ، يا موسعا إلى خطاه تذكَّر حَبْسك ، يا مأسوراً فى سجن الشهوات خلِّص نفسك قبل أن تعزّ السلامة و تُعْتاق الأعناق ، وينصب الصراط ويوضع الميزان ، وينشر السكتاب يحوى ما قد كان ، ويشهد الجلْد والملَك والمسكان ، والنار الحبس والحاكم الخلاّق ، فحينئذ يشيب المولود ، وتخرس الألسن وتنطق الجلود ، وتظهر الوجوه بين بيض وسود ، يوم يكشف عن ساق . فبادر قبل أن لا يمكن ، وحاذر قبل أن يفوت الممكن ، وأحسِن قبل أن لا تحسن ، فاليوم البرهان وغدا السباق .

فانتهبْ عُمراً يَفْنى بالمساء والصباح ، وعامل مولًى يُجزل العطايا والأرباح ، ولاتبخل فقد حث على السماح « ما عندكم ينفدُ وما عند الله باق » .

المجلس الخامس عشر

فى قصة سيدنا موسى عليه السلام

الحمد لله الذى لا نِدَّ له فيبارَى ، ولا ضد له فيجارَى ، ولا شريك له فيدارَى ، ولا معترض له فيمارَى ، بسط الأرض قرارا وأجرى فيها أنهارا ، وأخرج زرعا وثمارا ، وأنشأ ليلاً ونهارا ، خلق آدم وأسكنه الجنة دارا ، فغفل عن النهى وما دارَى ، أمر أن يأخذ يمينا فأخذ يسارا ، وأهبط فقيرا قد عَدِم يسارا غير أنه جبرَ منه بقبول توبته انكسارا ، وأقامه خليفةً ويكفيه افتخارا ، ثم ابتعث الأنبياء من ذريته ونصَب لهم من أدلته منارا ، وجعل إدريس ونوحا والخليل رءوسا « وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا » .

أحمده سِرّا وجِهَارا ، وأصلى على رسوله محمد الذى أصبح وادِى النبوة برسالته مِمْطارا ، وعلى صاحبه أبى بكر المنفِق سرا وجهارا ، وعلى عمر الفاروق الذى لاث عن وجهه الإسلامُ خِمَارا ، وعلى عثمان الذى صرف عن جيش العسرة بإنفاقه إعسارا ، وعلى علىّ أخيه وابن عمه الذى لا يمارى ، وعلى عمه العباس أبى الخلفاء ويكفيهم افتخارا .

***

قال الله عز وجل : «وَهَلْ أتاكَ حديثُ موسى[1]» هل بمعنى قد . كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم هل بلغت .

وموسى : هو ابن عمران بن قاهث ابن لاوى بن يعقوب ، واسم أمه يوخابذ[2] . وبين موسى وإبراهيم ألف سنة ، وكانت الكهنة قد قالوا لفرعون : يولد مولود من بنى إسرائيل يكون هلاكك على يده فأمر بذبح أبنائهم ثم شكت القبط إلى فرعون فقالوا إن دُمْتَ على الذبح لم يبق لنا من بنى إسرائيل من يخدمنا . فصار يذبح سَنةً ويترك سنة . فذبح سبعين ألف مولود . وولد هرون فى السنة التى لا يُذبح فيها ، وولد موسى فى السنة

---

(١) سورة طه ٩ . (٢) كذا فى الأصل والطبرى ، وقد قال السهيلى : واسم أم موسى : « أيا رخا » ، وقيل : أيا ذخت . قصص الأنبياء لابن كثير ٢/١٧.

التى يذبح فيها.فولدته أمه وكتمت أمره فدخل الطَّلَبُ إلى بيتها فرمته فى التنّور ، فسلِم ، فخافت عليه فصنعت له تابوتا وألقته فى اليم ، فحمله الماء إلى أن ألقاه إلى فرعون ، فلما فتح التابوت نظر إليه فقال : عِبْرا نِىّ من الأعداء كيف أخطأه الذَّبْح ؟ فقالت آسية : دعه يكون قُرّة عين لى ولك ، وكان لا يولد لفرعون إلا البنات . فتركه .

ولما رمته أمه أدركها الجزع فقالت لأخته مريم : قُصِّيه . فدخلت دار فرعون ، وقد عُرضت عليه المرضعات فلم يقبل ثدياً ، فقالت : « هل أدلكم على أهلِ بَيْتٍ يَكْفلونه لكم » فجاءوا بأمه فشرب منها ، فلما تم رضاعه ردته إلى فرعون فأخذه يوماً فى حجره فمد يده للحيته فقال:على بالذبّاح فقالت آسية : إنما هو صبى لا يعقل. وأخرجت له ياقوتا وجمرا فأخذ جمرة فطرحها فى فيه فأحرقت لسانه فذلك قوله : « واحْلُلْ عُقْدةً من لسانى » .

فلما كبر كان يركب مراكب فرعون ويلبس ملابس فرعون ، فلما جرى القدَر بقتل القبطى وعلموا أنه هو القاتل خرج عنهم فهداه الله إلى مدين ، فسقى لبنتى شعيب واسمهما صفورا وليا ، فاستدعاه شعيب وزوّجه صفورا ، ثم خرج بزوجته يقصِد أرض مصر فولدت له فى الطريق فقال لأهله : « امكثوا » أى أقيموا « إنى آنَسْتُ نارا » أى أبصرتُ . وإنما رأى نورا ، ولكن وقع الإخبار بما كان فى ظنه . والقَبَس : ما أخذْتَه من النار فى رأس عود أو فتيلة « أو أجِدُ على النار هُدًى » وكان قد ضَلّ الطريق فعلم أن النار لا تخلو من واقد .

أخبرنا محمد بن أبى منصور ، أنبأنا جعفر بن أحمد ، أنبأنا أبو على التميمى ، أنبأنا أبو بكر أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، حدثنا عبد الصمد بن معقل ، عن وهب بن منبه ، قال : لما رأى موسى النار انطلق يسير حتى وقف منها قريبا فإذا هو بنار عظيمة تفور من فروع شجرة خضراء شديدة الخضرة لا تزداد النار فيما يرى إلا عِظَما وتضرّما ، ولا تزداد الشجرة على شدة الحريق إلا خضرة وحُسْنا ، فوقف ينظر لا يدرى ما يصنع أمرُها ، إلا أنه قد ظن أنها شجرة

تحرق أوقد إليها موقد فنالها فاحترقت ، وأنه إنما يمنع النار شدة خضرتها وكثرة ما بها ، فوقف وهو يطمع أن يسقط منها شيء فيقتبسه ، فلما طال ذلك عليه أهوى إليها بضِغْث فى يده ليقتبس فمالت نحوه كأنها تريده ، فاستأخر ثم عاد ، فلم يزل كذلك فما كان بأوشك من خمودها فتعجب وقال إن لهذه النار لشأنا ، فوقف متحيّرا فإذا بخضرتها قد صارت نورا عمودا ما بين السماء والأرض ، فاشتد خوفه وكاد يخالَط فى عقله من شدة الخوف ، فنودى من الشجرة : « يا موسى » فأجاب سريعا وما يدرى من دعاه فقال : لبَّيك من أنت ، أسمع صوتك ولا أرى مكانك ، فأين أنت ؟ قال : أنا فوقك ومعك وأمامك وأقرب إليك منك. فلما سمع هذا موسى علم أنه لا ينبغى ذلك إلا لربه تعالى فأمِن به فقال : كذلك أنت يا إلهى ، فكلامك أسمع أم كلام رسولك فقال : بل أنا الذى أ كلِّمك فادْنُ منّى . فجمع موسى يديه فى العصا ثم تحامل حتى استقلَّ قائما فارتعدتْ فرائصه حتى اختلفت واضطربت رجلاه ولم يبق منه عَظْم يحمل الآخَر ، وهو بمنزلة الميّت إلا أن روح الحياة تجرى فيه ، ثم زحف على ذلك وهو مرعوب حتى وقف قريبا من الشجرة فقال له الرب تعالى : « وما تِلْكَ بيَمِينك يا موسى ؟ قال : هى عَصَاىَ » قال : وما تصنع بها ؟ قال : «أتوكأُ عليها وأهشُّ بها على غَنَمِى ولى فيها مآربُ أخرى» وكانت لها شُعْبتان ومِحْجَن (١) تحت الشعبتين « قال أَلْقِها ياموسى » فظن أنه يقول له ارفضها فألقاها على وجه الرفض، ثم حانت منه نظرة فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظر يدبّ يلتمس كأنه يبتغى شيئا يريد أَخْذه ، يمرّ بالصخرة مثل الخَلِفة (٢) من الإبل فيقتلعها ، ويطعن بالناب من أنيابه فى أصل الشجرة العظيمة فيجذبها (٣) ، وعيناه توقدان ناراً وقد عاد المِحْجَن عُرْفاً فيه شَعر مثل النَّيَازك ، وعادت الشعبتان فماً مثل القَلِيب الواسع فيه أضراس وأنياب لها (٤) صَرِيف ، فلما عايَن موسى ذلك ولَّى مُدْبِرا ، فذهب حتى أمعن ورأى أنه قد أعجز الحيّة ، ثم ذكر ربه عز وجل فوقف استحياءً منه .

---

(١) المحجن : العصا المعوجة . (٢) الخلفة : الحامل من النوق . (٣) ت : فيجتثها .
(٤) ب : لهم . محرفة .

ثم نودى : يا موسى إلىّ فارجع حيث كنت . فرجع وهو شديد الخوف فقال : « خُذْها ولا تخَفْ سَنُعِيدها سِيرتَها الأولى » وعلى موسى حينئذ مِدْرَعة من صوف قد خلَّلها بخِلاَل من عِيدان ، فلما أمره بأخذها ثنَى طرفَ المدرعة على يده فقال له ملَك : أرأيت يا موسى لو أذِن الله عز وجل لِمَا تُحاذِر أكانت المِدْرعة تُغْنى عنك شيئا ؟ قال : لا ولكنى ضعيف(١) ومن ضَعْفٍ خُلقت . فكشف عن يده ثم وضعها فى فِى الحية حتى سمع حسَّ الأضراس والأنياب ، ثم قبض فإذا هى عصاه التى عَهِدها وإذا يداه فى الموضع الذى كان يضعها فيه إذا توكَّأ بين الشُّعْبتين ، فقال الله عز وجل : ادْنُ فلم يزل يدنيه حتى أسند ظهره بجذع الشجرة ، فاستقر وذهبت عنه الرِّعْدَة ، ثم جمع يديه فى العصا وخشع برأسه وعنقه ثم قال له : إنى قد أقمتك اليومَ مُقَاما لا ينبغى لبشرٍ بعدك أن يقوم مقامك ، أدْنيتُك وقرَّبتك حتى سمعتَ كلامى وكنت بأقرب الأمكنة منى ، فانطلق برسالتى ، فإنك بعَيْنى وسَمْعى وإن معك يدى وبصرى ، فأنت جندٌ عظيم من جُندى بعثْتك إلى خَلْقٍ ضعيف من خلقى ، بطَر نعمتى وأمِن مَكْرى وغرَّته الدنيا عنى حتى جحَد حقى وأنكر ربوبيّتى وعَبِد دونى وزعم أنه لا يعرفنى ، وإنى أقسم بعزتى لولا العُذْر والحجة اللذان وضعتُ بينى وبين خَلْقى لبطشت به بطشةَ جبَّار يغضب لغضبه السموات والأرض والجبال والبحار ، فإن أمرتُ السماء حصبَتْه وإن أمرتُ الأرض ابتلعته ، وإن أمرت الجبال دمَّرته وإن أمرت البحار غرَّقته ، ولكن هان علىّ وسقَط من عينى ووسِعه حِلْمى واستغنيت بما عندى ، وحُقَّ لى ، إنى أنا الله الغنىّ لا غَنِىَ غيرى ، فبلِّغه رسالاتى وادعه إلى عبادتى وتوحيدى والإخلاص باسمى ، وذكِّره بأيامى وحَذِّره نقمتى وبأسِى ، وأخبره أنى أنا الغفور والمغفرة أسرع منّى إلى الغضب والعقوبة ، ولا يرُعْك ما أُلبِسَه(٢) من لباس الدنيا فإنّ ناصيته بيدى ، ليس يَطْرف ولا ينطق ولا يتكلم ولا يتنفس إلا بإذنى ، قل له : أجب ربك عز وجل فإنه واسع المغفرة ، وإنه قد أمهلك أربعمائة سنة وفى كلِّها أنت مبارِز بمحاربته(٣) تشبَّه وتمثَّل به ، وتصدُّ عباده عن سبيله ،

(١) ت : ولكن أنا ضعيف . (٢) ت : ما ابسته . (٣) ت : أنت بارز له محاربته .

وهو يُمْطر عليك السماء وينبت لك الأرض ، لم تَسْقَم ولم تَهْرَم ولم تفتقر ولم تُغْلَب ، ولو شاء أن يعجّل ذلك لك أو يسلبكه[١] فعَل ، ولكنه ذو أناة وحِلم . وجاهِدْه بنفسك وأخيك وأنتما محتَسِبان[٢] بجهاده ، فإنى لو شئت أن آتيه بجنودٍ لا قِبَل له بها لفعلتُ ، ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذى قد أعجبتْه نفسه وجُموعه أن الفئة القليلة ولا قليل منّى ، تغلب الفئة الكثيرة بإذنى ، ولا تعْجبكما زينته وما مُتِّع به ولا تمدّان إلى ذلك أعينكما ، فإنها زَهْرة الحياة الدنيا وزينة المترَفين ، فإنى لو شئت أن أزيّنكما[٣] من الدنيا بزينة يعلم فرعون حين ينظر إليها أن مَقْدرته تعجز عن مثل ما آتيتكما فعلت ، ولكن أرْغَب بكما عن ذلك وأَزْويه عنكما وكذلك أفعل بأوليائى ، وقديما ما خِرْتُ لهم فى ذلك فإنى أَذُودهم عن نعيمها ورخائها كما يذود الراعى الشفيق إبلَه عن مراتع[٤] الهلَكة ، وإنى لأجنّبهم سكونَها وعَيْشها كما يجنّب الراعى الشفيق إبلَه عن مبارك الغُرّة[٥] ، وما ذلك لهوانهم علىّ ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى موفَّرا لم تكلمه الدنيا ولم يُطْفه الهوى ، واعلم أنه لم يتزيّن العِبَاد بزينة أبلغَ من الزهد فى الدنيا ، وإنها زينة المتقين ، عليهم منها لباس يُعرفون به من السكينة والخشوع ، سِيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، أولئك أوليائى حقا[٦] ، فإذا لقيتَهم فاخفض لهم جَناحك وذلِّل لهم قلبَك ولسانك ، واعلم أن من أهان لى وليًّا أو أخافه فقد بارزَنى بالمحاربة وبادأنى وعرَّض نفسه ودعانى إليها ، وأنا أسرع شىء إلى نصرة أوليائى ، أفيظن[٧] الذى يحاربنى أن يقوم بى ؟ أو يظن الذى يعادينى أن يُعجزنى ؟ أم يظن الذى يبارزنى أن يسبقنى أو يفوتنى ؟ فكيف وأنا الثائر لهم فى الدنيا والآخرة لا أَكِل نُصْرتهم إلى غيرى .

قال : فأقبل موسى إلى فرعون فى مدينة قد جعل حولها الأُسْد فى غَيْضة[٨] قد غرَسها والأسد فيها مع ساستها إذا أسّدَتْها[٩] على أحد أُكِل ، وللمدينة أربعة أبواب

---

(١) ت : أو يسلبه . (٢) ب : فأنتما محسان . والتصويب من ت . (٣) ت : أن آتيكما .
(٤) ب : عن مواقع . (٥) الغرة : الجرب . (٦) ب : أولياء حقا حقا . (٧) ب : أيظن .
(٨) الغيضة : الأجمة ، ومجتمع الشجر فى مغيض ماء . (٩) كذا فى ت . وفى ب : إذا أسندتها إلى أحد .

فى الغَيْضة ، فأقبل موسى من الطريق الأعظم الذى يراه فرعون ، فلما رأته الأسد صاحت صياحَ الثعالب ، فأنكر ذلك الساسة وفَرِقوا من فرعون ، فأقبل موسى حتى انتهى إلى الباب فقرّعه بعصاه وعليه جبة صوف وسراويل، فلما رآه البواب عجب من جرأته ، فتركه ولم يأذن له وقال : هل تدرى باب من أنت تضرب ! إنما تضرب باب سيّدك ! فقال : أنا وأنت وفرعون عبيد الله[1] عز وجل وأنا ناصره . فأخبر البواب الذى يليه حتى بلغ ذلك أدناهم ، ودونهم سبعون حاجبا كل حاجب منهم تحت يده من الجنود ما شاء الله عز وجل كأعظم أميرِ اليومَ إمارة ، حتى خَلص الخبر إلى فرعون فقال أدخلوه علىّ ، فأدخل فقال له فرعون : أعرفك . قال : نعم . قال : ألم نربّك فينا وَلِيداً . فردد موسى عليه السلام الذى ذكره الله عز وجل فى القرآن ، فقال خذوه .

فبادَرهم موسى فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، فحملَتْ على الناس فانهزموا فمات منهم خمسة وعشرون ألفا ، قَتل بعضُهم بعضا ، وقام فرعون منهزما حتى دخل البيت وقال لموسى : اجعل بينى وبينك أجَلاً ننظر فيه . فقال موسى : لم أومر بذلك وإنما أُمرت بمناجزتك ، فإن أنت لم تخرج إلىّ دخلتُ عليك .

فأوحى الله تعالى إلى موسى : أن اجعل بينك وبينه أجَلا ، وقل له يجعله هو . فقال فرعون : اجعله إلى أربعين يوماً . ففعل. وكان فرعون لا يأتى الخلاء إلا فى أربعين يوما مرة ، فاختلف ذلك اليوم أربعين مرة . قال: وخرج موسى فلما مر بالأسد مضغت بأذنابها وسارت مع موسى تشيّعه ولا تهيجه[2] .

قال علماء السِّيَر : قال له فرعون « إن كنتَ جِئْتَ بآيَة فَأْتِ بها » فألقى العصا ثم أخرج يده وهى بيضاء لها نور كالشمس ، فبعث فرعون فجمع السحرة وكانوا سبعين ألفا ، وكان رءوسهم سابور وعازور وحطحط ومصفى ، وهم الذين آمنوا ، فجمعوا حبالهم وعِصيّهم وتواعدوا يوم الزينة وكان عيداً لهم فألقوا يومئذ ما معهم ، فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى فألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا ، فسجدت السَّحرة فقتلهم فرعون.

(١) ت : عبيد لربى عز وجل .　　(٢) ب : ولا تفتجه .

ثم جاء الطوفان وهو مطَر أغرق كل شيء لهم ، ثم الجراد فأكل زرعهم ، والقُمَّل وهو الدَّبَا[1] ، والضفادع فملأت البيوت والأوانى ، والدم فكان الإسرائيلى يستقى ماء ويستقى القبطى من ذلك الموضع دماً ، فمكث موسى يريهم هذه الآيات عشرين سنة.

ثم أمره الله تعالى أن يخرج ببنى إسرائيل، فخرج ومعه ستمائة ألف وعشرون ألفا ، ودعا عليهم حين خرج فقال : « ربَّنا اطمسْ على أموالهم » فجعلت دراهمهم ودنانيرهم حجارة حتى الحمص والعدس ، وألقى الموت عليهم ليلةَ خروج موسى ، فشَغلوا بدفن موتاهم ، ثم تبعهم فرعون على مقدمته هامان فى ألف ألف وسبعمائة ألف حصان « فلما تراءى الجَمْعان قال أصحابُ موسى إنّا لَمُدْرَكون » هذا البحر بَيْن أيدينا وهذا فرعون مِن خَلْفنا « قال» موسى « كَلاَّ إنَّ مَعِىَ ربِّى سيهدينِ » فأوحى الله تعالى إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق اثنى عشر طريقا ، على عدد الأسباط . فسار موسى وأصحابه على طريق يَبَس والماء قائم بين كل فرقتين ، فلما دخل[2] بنو إسرائيل ولم يبق منهم أحد أقبل فرعون على حصان له حتى وقف على شَفِير[3] البحر ، فهاب الحصان أن يتقدم فعرض له جبريل عليه السلام على فرس أنثى فتقدم [فدخل][4] فرعون وقومه وجبريل أمامهم وميكائيل على فرس خلف القوم يستحثّهم ، فلما أراد أوّلهم أن يصعد وتكامل نزول آخرهم انطبق البحر عليهم ، فنادى فرعون : آمنتُ . قال جبريل : يا محمد لو رأيتنى وأنا آخذ من حمأة البحر فأدسّه فى فِى فرعون مخافة أن تدركه الرحمة !

ثم إن بنى إسرائيل طلبوا من موسى أن يأتيهم بكتاب من عند الله ، فوعده الله ثلاثين ليلة وأتمها بعشر ، فعبَدوا العجل فى غَيْبته،فلما جاءهم بالتوراة وما فيها من التثقيل أبَوْها فنُتِق[5] عليهم الجبل ، فلما سكنوا خرج يعتذر عن من عبد العجل فأُمروا بقتل أنفسهم ، فبعث عليهم ظُلمة فاقتتلوا فيها فانكشفت عن سبعين ألف قتيل ، فجعل القتل للمقتول شهادة وللحى توبة ، ولم يزل يلقى من أصحابه الشدائد إلى أن توفى بأرض التِّيه وهو ابن مائة وعشرين سنة .

---

(١) ت : وهو الذباب.والدبا : أصغر الجراد . (٢) ت : فلما دخلوا . (٣) الشفير : الشاطىء .
(٤) من ت . (٥) نتق : رفع وزعزع .

الكلام على البسملة

يا نفسُ أنَّى تُؤفَكِينـا   حتى متى لا تَرْعَوِينـا
حتى متى لا تَعقلين وتَسْمعين وتُبصرينا
يا نفس إن لم تَصْلُحى   فتشبَّهى بالصالحينا
وتفكرى فيما أقو   لُ لعل رُشْدَك أن يَحِينا
فلَيأتينَّ عليك ما   أفنَى القرونَ الأولينا
أين الأُولى جَمعوا وكا   نوا للحوادثِ آمِنينا
أفنـاهم الموتُ المطِلُّ على الخلائقِ أجمعينا
فإذا مَساكنهم وما   جَمعوا لقومٍ آخَرينا

يا من يُؤمر بما يصلحه فلا يَقْبل ، أمَا الشيبُ نذير بالموت قد أقبل ، أمَا أنت الذى عن أفعاله تُسأل ، أما أنت تخلو فى اللحد بما تعمل ، ستعلم يوم الحساب عند العتاب من يخجل ، يا مبادرا بالخطايا توقَّف لا تَعجل ، يا مفسدا مابيننا وبينه لا تفعل .

[تَرى الدنيا وزينتَها فتصبو   وما يخلو من الشهوات قلبُ [(١)]]
فضولُ العيش أكثرها هومٌ   وأكثر ما يضرّك ما تحبُّ
فلا يَغررك زخرفُ ما تراه   وعيشٌ ليِّن الأطراف رَطْبُ
إذا ما بُلْغةٌ جاءتك عفواً   فخُذْها فالغِنَى مَرْعَى وشُربُ
إذا اتفقَ القليلُ وفيه سِلْم   فلا تَرِد الكثيرَ وفيه حَرْبُ

إخوانى : أيامكم قلائل ، وآثامكم غوائل ، ومواعظكم قوائل ، وأهواؤكم قواتل ، فليعتبر الأواخر بالأوائل . يا من يوقن أنه لاشك راحل ، وماله زادٌ ولا رواحل ، يا من لَجّ فى لُجّة الهوى متى يرتقى إلى الساحل ، هل لا تنبهت من رقاد شامل ، وحضرتَ المواعظ بقلب قابل ، وقمت فى الدجَى قيامَ عاقل ، وكتبتَ بالدموع سطور الرسائل ، تحفّ بها

(١) من ت .

زفراتُ الندم كالوسائِل ، وبعثتها فى سفينة دمعٍ سائل ، لعلها تُرْسَى بساحلِ « هل مِنْ سائل [1] » وا أسفا لمغرور غَفُول جاهل قد أثقل بعد الكهولة بالذّنب الكاهل ، وضيع فى البضاعة وبذر الحاصل ، وركن إلى ركن لو رآه مائل ، يبنى الحصون ويشيد المعاقل ، وهو عن شهيد قبره متثاقل ، ثم يدّعى بعد هذا أنه عاقل ، تالله لقد سبقه الأبطال إلى أعلى المنازل ، وهو يؤمل فى بَطَالته فوزَ العامل ، هيهات ما علق بَطّال بطائل .

***

إذا بكيتُ ما مضى من زمنٍ ... فحُقَّ لى أبكى ومَنْ لى بالبكا

من أبصرَ الدنيا بعينِ عقْله ... أدركَ أنّ الدار ليست للبقا

مطيةٌ واردة إلى الردَى ... وإن تراخَى العُمر وامتد المدَى

إنْ هى أعطَتْ كان همًّا حاضرا ... أو مَنعت كان عذاباً وأذَى

والمرء رهنُ أملٍ ماينتهى ... حتى يوافى أجلا قد انتهى

كان بِشر الحافى إذا ذُكر عنده الموت يقول : ينبغى لمن يعلم أنه يموت أن يكون بمنزلة من جَمع زاده فوضعه على رحله لم يدع شيئاً مما يحتاج إليه إلا وضعه عليه .

أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمى ، أنبأنا أبو بكر الخطيب ، أنبأنا محمد بن الحسن الأهوازى ، سمعت أبا بكر الدّنِف الصُّوفى يحدّث عن جامع بن أحمد قال : سمعت يحيى ابن معاذ يقول : ليكن بيتك الخَلْوة وطعامك الجوع وحديثك المناجاة ، فإما أن تموت بدائك أو تصل إلى دوائك .

أخبرنا عمر بن ظفر ، أنبأنا جعفر بن أحمد ، حدثنا عبد العزيز بن على ، أنبأنا ابن جَهْضَم ، حدثنا محمد جعفر الوراق ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن عبد الله المكى ، قال قال رجل للفضيل بن عِيَاض : رأيتُ البارحة فى النوم كذا وكذا . فقال له الفضيل : ألست حاملَ القرآن ؟ قال : بلى . قال فتنام بالليل وأنت حامل القرآن ! أما تخاف أن يأخذك وأنت نائم .

***

(١) يشير إلى ما جاء فى الحديث من أنه إذا كان آخر الليل نادى مناد عن الله عز وجل : هل من سائل فأعطيه هل من مستغفر فأغفر له .

ياغافلا طول دهره عن ممر يومه وشهره ، يا موعوظا فى سره وجهره بجفاف النبات وزهره ، يا منبهـا فى أمره بأشره على جبْنه وأشره ، يا مذكورا فى عسره ويسره ، سل حادثات الزمان عن يُسْره ، يا عصفورا لابد من ذبحه وتخريب وَكْره ، ثم لا يجُول ذلك على فكره ، متى يفيق سكران الهوى من سُكره فيستبدّ العُرْف بنكْره ، ألا يتنبه هذا المبذر ابذره ، ألا يتيقظ الجانى لإقامة عذره ، والله لو سكن قلبه خوف حشره لخرج فى أعمال الجد من قشره ، بل لو تفكر حق التفكر فى نَشْره لم يبع ثوبا ولم[1] يَشْره ، مضى الزمان فى مَدّ اللهـو وجزْره ، وما حَظِى المفرّط بغير وِزْره ، تالله لقد اغتبط المحسنُ فى قبره وندِم المسىء على قِلة صبره ، ياحُسْن ما أطاع بترتيل القرآن أبو عمرو[2] ويا خسر ما أضاع أبو نُوَاس فى خَمْره .

حياةٌ وموت وانتظار قيامةٍ	ثلاثٌ أفادتْنا ألوفَ مَعانِى
فلا تَمْهُر الدنيـــا الدنيّة إنها	تفارق أهليها فراق لِعَانِ
ولا تطلبوها من سنانٍ وصارم	بيوم ضراب أو بيوم طعانِ
فإن شئتما أن تخلُصا من أذاتها	فحُطَّا بها الأثقالَ واتّبعانِى
عجبتُ من الصبح المنير وضدّه	على أهل هذا الضـد يطّلعانِ
وقد أخرجانى بالكراهة منهما	كأنهمـــا للضيف ما وَسِعانى
دَعانِى إلى هذا التفرّد إننى	خبيرٌ فجِدَّا فى السُّرَى ودعانِى

سجع على قوله تعالى

﴿ إنّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعيم ﴾

ما أشرف من أكرمه المولى العظيم ، وما أعلى من مدحه فى الكلام القديم ، وما أسعد من خصّه بالتشريف والتعظيم ، وما أقرب من أهّله للفوز والتقديم ، وما أجّل من أثنَى عليه العزيز الرحيم « إنّ الأبرارَ لفِى نعيم » .

---

(١) الأصل : ولا . محرفة . (٢) أبو عمرو أحد القراء السبعة .

نعموا فى الدنيا بالإخلاص فى الطاعة ، وفازوا يوم القيامة بالربح فى البضاعة ، وتنزهوا عن التقصير والغفلة والإضاعة ، ولبسوا ثياب التقى وارتدوا بالقناعة ، وداموا فى الدنيا على السهر والمجاعة ، فيا فخرهم إذا قامت الساعة ، وقد قرِّبت إليهم مطايا التكريم « إن الأبرار لَفِى نعيم » .

نعموا فى الدنيا بالوحدة والخلوة ، واعتذروا فى الأسحار من زلة وهفوة ، وحذروا من موجبات الإبعاد والجفوة ، فأولئك هم المختارون الصفوة ، الصدقُ قرينهم والصبر نديم « إنّ الأبرار لَفِى نعيم » .

حرسَهم مولاهم من موجبات الشَّيْن ، وحفظهم من جهل وعيب ومَيْن ، وأراهم محجة الهدَى رَأْى العين ، وأزال فى وصالهم قاطع الجفاء وعارض البَيْن ، وكمل لهم جميع المآثر كمال الزَّيْن ، وكشف عن قلوبهم أغطية الهوى وحُجب الغَيْن ، فقاموا بالأوامر على غاية الوفا فى قضاء [1] الدين ، واعتذروا بعدَ الأذى وقَبِل الغريم « إن الأبرار لفى نعيم » .

طال ماتعبت أجسامهم من الجوع والسهر ، وكفت جوارحهم عن اللهو والأشَر ، وحبسوا أعراضهم عن الكلام والنظر ، وانتهوا عما نهاهم وامتثلوا ما أمر ، وتقبلوا مفروضاته بالسمع والبصر ، وتغنَّوا بكلامه والقلبُ قد حضر ، واستعدوا من الزاد مايصلح للسفر ، فالخوف يقلقهم فيمنعهم قضاء الوطر ، والعَبْرة تجرى والقلب قداعتبر ، فياحسنهم فى جوف الليل ووقت السحر ، السرُّ صافٍ والحالُ مستقيم « إن الأبرار لفى نعيم » .

جنَّ الظلام فزمّت مطاياهم ، وجاء السحر فتوفرت عطاياهم ، وكثر الاستغفار فحُطَّت خطاياهم ، وكلما طلبوا من فضل سيدهم أعطاهم ، فسبحان من اختارهم من الكل واصطفاهم ، وخلَّصهم بالإخلاص من شوائب الكدَر وصفَّاهم ، فليس المقصود من الخلق بالمحبة سِواهم ، أزعجتهم عواصف المخافة فتداركهم من الرجاء نسيم « إنّ الأبرار لفى نعيم » .

---

(١) ب : على قضاء .

قصورهم فى الجنان عالية ، وعيشتهم فى القصور صافية ، وهم فى عفو ممزوج بعافية ، وقطوف الأشجار من القوم دانية ، وأقدامهم على أرض من المسك ساعية ، وأبدانهم من السندس والإستبرق كاسية ، والعيش لذيذ والملك عظيم « إن الأبرار لفى نعيم » .

رضى عنهم جبّارُهم ، وأشرقت برضاه دارهم ، وصفت ببلوغ المنى أسرارهم ، فارتفعت من كل وجهأ كدارهم ، ووردّت فى الجنان أشجارهم ، واطردت تحت القصور أنهارهم ، وترنمت على الورَق أطيارهم ، والملائكة تحفهم وتخصّهم بالتسليم ، والعيون تجرى من رحيق وتسنيم ، والملِك قد وصفهم فى الكلام القديم « إن الأبرار لفى نعيم ».

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل : أنا ربكم الذى صَدَقتكم وعدى وأتممت عليكم نعمتى فهذا محل كرامتى ، فاسألونى ما شِئتم . فيقولون : نسألك رضوانك. فيقول : رضوانى أحلّكم دارى وأدناكم من جِوارى » .

وروينا أن الله تعالى يقول لأوليائه فى القيامة : « أوليائى طال ماالحتُكم فى الدنيا وقد غارت أعينكم وقلَصتْ شِفاهكم عن الأشربة وخفقت بطونكم ، فتعاطَوا الكأسَ فيما بينكم وكلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية » .

***

وقوله تعالى : « على الأرائك ينظرون » الأرائك : السرر فى الحِجَال(١) . قال ثعلب : لاتكون الأريكة إلا سريرا فى قُبة عليه شواره ومتاعه . والشوار متاع البيت .

وفى قوله « ينظرون » قولان : أحدهما : ينظرون إلى ما أعطاهم الله عز وجل من الكرامة . والثانى : إلى أعدائهم حين يعذبون .

سجع

كانوا فى الدنيا على المجاهدة يصرون ، وفى دياجى الليل يسهرون ، ويصومون وهم على الطعام يقدرون ، ويسارعون إلى مايرضى مولاهم ويبادرون ، فشُكِر من راح منهم وغدا فهم غداً على الأرائك ينظرون .

---

(١) الحجال : جمع حجلة ، كالقبة أو موضع يزين بالثياب والستور للعروس.

كانوا يحملون أعباء الجهد والعنا ، ويفرحون بالليل إذا أقبل ودنا ، ويرفضون الدنيا لعلمهم أنها تصير إلى الفنا ، ويُخْلصون الأعمال من شوائِب الآفات لنا ، ويحاربون الشيطان بسلاح من التقى أقطعَ من السيف وأصلَب من القنا ، فغداً يتكئون على الأرائِك وقطوفهم دانية المجتنَى ، وأعظم من هذا النعيم أن أتجلَّى لهم أنا ، كفى فخرا أنهم عندى غدا يحضرون « على الأرائِك ينظرون » .

كانت جنوبهم تتجافَى عن مضاجعها ، ولا تسكن لأجلِي إلى مواضعها ، وتطلب منى نفوسهم جزيلَ منافعها ، وتستجيرنى من موانعها وتستعيذُ بجلالى من قواطعها ، وتصولُ بعزتى على مخادعها[1] ، فقد أبدلتُهم بتعب تلك المجاهدة لذة السكون ، فهم « على الأرائك ينظرون » .

ياحسنهم والولدان بهم يحفّون ، والملائكة لهم يزفّون ، والخدام بين أيديهم يقفون ، وقد أمنوا ما كانوا يخافون ، وبالحور العين الحسان فى خيام اللؤلؤ يتنعمون ، وعلى أسِرّة الذهب والفضة يتزاورون ، وبالوجوه النضِرة يتقابلون ، ويقولون بفضلى عليهم ونعمتى للشىء كن فيكون « على الأرائك ينظرون » .

سجع على قوله تعالى
﴿ تَعرِفُ فى وجوههم نَضْرَةَ النعيم ﴾

قال الفرّاء : بريق النعيم .

وجوهٌ طال ما غسلتها دموع الأحزان ، وجوه طال ما غبَّرتْها حُرقات الأشجان ، وجوه تُخْبر عن القلوب إخبارَ العنوان ، حرسوا الوقتَ باليقظة وحفظوا الزمان ، وشغلوا العيون بالبكاء والألسن بالقرآن ، فإذا رأيتهم يوم الجزاء رأيتَ الفوز العظيم « تَعرِفُ فى وجوههم نَضْرَةَ النَّعِيم » .

وجوهٌ ما توجَّهت لغيْرى ولا استدارت ، وأقدامٌ إلى غير ما يرضينى ما سارت ،

---

(١) كذا فى ت . وفى ب : وتقوى بعونى على مخادعها .

وعزوم لغير مرضاتى ما ثارت ، وقلوب بغيرى قط ما استجارت ، وأفئدة بغير ذكرى ما استنارت ، ولو رأت عيونُ الغافلين ما أعددتُ لهم لحارَتْ من فضل عظيم ومُلْك جسيم « تعرف فى وجوههم نَضْرة النعيم » .

أشرقت وجوههم فى الدنيا بحسن المجاهدة ، وتشرق وجوههم يوم القيامة بالقرب والمشاهدة ، أشرقت وجوههم فى الليل بنور السهر ، وتشرق غداً بمشاهدة الحق إذا ظهر ، أشرقت وجوههم فى الدنيا بجرَيان الدموع على الخدود ، وتُشْرق غداً فى جِنَان الخلود ، فإذا رأيتهم فى سرورٍ ما فيه ما يَضِيم « تعرف فى وجوههم نَضْرَة النعيم » .

***

قوله تعالى : « يُسْقَوْن مِن رَحيقٍ مختوم » فى الرحيق ثلاثة أقوال ، أحدها : أنه الخمر . قاله ابن عباس . وفى صفة الخمر المسمَّاة بالرحيق أربعة أقوال : أحدها : أنها أجود الخمر . قاله الخليل بن أحمد . والثانى : الخالصة من الغِشّ . قاله الأخفش . والثالث : الخمر البيضاء . قاله مُقاتِل . والرابع : الخمر العتيقة . قاله ابن قُتَيْبة .

والقول الثانى : أنه عَيْن فى الجنة مَشُوبة بالمسك . قاله الحسن . والثالث : الشراب الذى لا غش فيه . قاله ابن قتيبة والزَّجاج .

وفى قوله « مختوم » ثلاثة أقوال، أحدها : ممزوج . قاله ابن مسعود . والثانى : مختوم على إنائه وهو مُذْهَب . قاله مجاهد . والثالث : له ختام أى عاقبته رِيح .

سجع على قوله تعالى

﴿ يُسقَوْن من رحيقٍ مَختوم ﴾

يالَه من كأسٍ مَصُون تقرُّ به العيون ، يقول له الملِك كن فيكون ، يوجِده بين الكاف والنون ، إذا شربوه لا يَحزنون ، إذا استوعبوه لا يَسْكرون ، نعيمهم لا كدَر فيه ولا هموم « يُسْقَوْن من رحيقٍ مختوم » .

شراب قد حلاَ وطاب ، كأسٌ يصلح للأحباب ، نعيم من فضل الوهاب ، لذَّتْ لذةُ

الدارِ ودارَ الشراب ، كَمل الصفا وزال العتاب ، طاب الوقت ورفِع الحِجاب ، صفَت الحال وفُتحت الأبواب ، زار المحب وسمع الخطاب ، تَمّ فرح القوم بقُرب القيّوم « يُسْقَون من رحيق مختوم » .

زال العنا عنهم وأقبل الرَّوح والفرَح ، وارتفعت الهموم عن الصدور فانفسحَ الصدر وانشرح ، ورضِي الرب فأعطَى المنَى وأوْلَى ومدَح ، وطاف عليهم الولدان بالأكواب فيا لذة الشراب ويا حُسْن القدَح ، واستراح من التعب من كان يسهر ويصوم « يُسْقونَ من رحيق مختوم » .

***

قوله تعالى : « خِتَامه مِسْك » فيه قولان : أحدهما : خَلْطه مِسْك . قاله ابن مسعود ومجاهد . والثانى : أن الذى يُخْتَم به طعم الإناء مسك . قاله ابن عباس .

قوله تعالى : « وفى ذلك فَلْيتنافَسِ المُتَنافِسُون » أى فليجدُّوا فى طلَبه وليحرصُوا عليه بطاعة الله تعالى ، والتنافس كالتشاحِّ على الشىء والتنازع فيه .

سجع

أيها الغافل رَبِح القومُ وخسِرت، وساروا إلى الحبيب وما سِرْت،وقاموا بالأوامر وضيَّعت ما به أُمرت ، وسلِموا من رِقّ الهوى واغتررت فأُسِرْت ، فالدنيا تخدمهم والسعادة تَقْدُمهم حين يُحشرون « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » .

لقد شُوِّقتم إلى الفضائِل فما اشتقتم ، وزُجرتم عن الرذائل وأنتم فى سُكر الهوى ما أفَقْتم ، فلو حاسبتم أنفسكم وحَقَّقتم ، علمتم أنكم بغير وَثِيق توَثَّقْتم ، فاطلبوا الخلَاص من أَسْر الهوى فقد جَدَّ الطالبون « وفى ذلك فلْيتنافس المتنافسون » .

أيقظنا الله وإياكم لمصالحنا ، وعصمنا من ذنوبنا وقبائحنا ، واستعمل فى طاعته جميع جوارحنا ، ولا جعلَنا ممن يرضى بدُونٍ ، « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » .

المجلس السادس عشر

فى قصة موسى والخضر عليهما السلام

الحمد لله جعل العِلْم للعلماء نسَبا،وأغناهم به وإن عَدِموا مالاً ونشَبا ، ولأجله سجدت الملائكةُ إلا إبليس أبَى، وبحيلة العلم اتَّكأ إدريس فى الجنةواحتبَى،ولطلبه قام الكليم ويوشع وانتصبا ، فسارا إلى أن لَقِيا من سفرهما نصَبا : « وإذ قال موسَى لفتاه لا أبْرَح حتى أبْلُغ مَجْمَع البحرين أو أمْضِى حُقُباً » .

أحمده حمداً يدوم ما هبَّتْ جَنُوبٌ وصباً ، وأصلى على رسوله محمد أشرف الخلائق عجما وعربا ، وعلى أبى بكر الذى أنفق المال وما قلّل حتى تخلَّل بالعبَا[1] ، وعلى عمر الذى من هيبته ولّى الشيطان وهرَبا ، وعلى عثمان الذى حيَّتْه الشهادة فقال مرحبا ، وعلى على بن أبى طالب الذى ما فُلَّ سيفُ شجاعته قط [ولا][2]نَبا ، وعلى عمه العباس العالى نسَبه على جبال الشرف والرُّبَى .

***

قال الله تعالى : « وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبْلُغ مَجْمَع البَحْرين أو أمضِىَ حُقُبا[3] » .

معنى الكلام : اذكر يامحمد « إذ قال موسى » وهو موسى بن عمران ، « لفتاه » وهو يوشَع بن نُون، وإنما سمِّى فتاه لأنه كان يلازمه ويأخذ عنه العلم ويخدمه : «لا أبْرَح» أى لا أزال ، أى لا أنفك . وليس المراد به لا أزول لأنه إذا لم يَزُلْ لم يقطع أرضاً . قال الشاعر :

إذا أنت لم تَبْرَحْ تؤدِّى أمانة   وتحمل أخرى أفْرحتْك الودائعُ[4]

أى أثقلتْك . ومعنى الآية لا أزال أسير حتى أبلغ مَجْمَع البحرين أى ملتقاهما ،

---

(١) قال فى القاموس : وذو الخلال : أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، لأنه تصدق بجميع ماله وخل كساءه بخلال. والعباء : كساء ، كالعباءة . (٢) سقطت من الأصل . (٣) سورة الكهف ٦٠ .
(٤) من شعر ابيهس العذرى ، وقد استشهد به ابن هشام فى سيرته ٢/١٤٨ .

وهو الذى وعده الله تعالى بلقاء الخضر فيه . قال قتادة : بحر فارس وبحر الروم فبحر الروم نحو المغرب وبحر فارس نحو المشرق .

وفى اسم البلد الذى بمجمع البحرين قولان : أحدهما : إفريقية . قاله أبىّ بن كعب . والثانى : طَنْجة . قاله محمد بن كعب القُرَظى .

قوله تعالى : « أو أمضِىَ حُقُباً » وقرأ الحسن وقتادة « حُقْبا » بإسكان القاف وهما لغتان . قال ابن قتيبة : الحقْب : الدهر . يقال حُقُب وحُقْب ، كما يقال قفُل وقفْل ، وأُكُل وأُكْل ، وعُمُر وعُمْر . ومعنى الآية : لا أزال أسير ولو احتجت أن أسير حُقبا .

« فلمَّا بلَغَا » يعنى موسى وفتاه « مَجْمَع بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا » وكانا قد تزوّدا حوتاً مالحاً فى مِكْتل ، فكانا يصيبان منه عند الغداء والعشاء ، فلما بلَغا هناك وضع يوشعُ المكتلَ فأصاب الحوتَ بللُ البحر فعاش واسْترب فى البحر ، وقد كان قيل لموسى تزوَّدْ حوتا مالحاً فإذا فقدْتَه وجدت الرجُلَ .

وكان موسى حين ذهب الحوتُ قد مضى لحاجة ، فعزم يوشعُ أن يخبره بما جرى فنسى ، وإنما قيل «نَسِيَا» توسُّعاً فى الكلام ، لأنهما جميعا تزوَّداه . ومثله : « يَخْرُجُ منهما اللؤلؤُ والمَرْجَانُ[1] » وإنما يخرج من المالح لا من العَذْب .

« فاتَّخَذَ سَبِيلَه فى البَحْرِ سَرَباً » أى مَسْلَكا . قال ابن عباس : جعل الحوتُ لا يمسّ شيئا من البحر إلا يبس حتى يكونَ صخرةً . وفى حديث أُبَىٍّ بن كعب أن الماء صار مثل الطاق[2] على الحوت .

«فلمَّا جاوَزَا » ذلك المكان أدركهما النصَبُ فدَعا موسى بالطعام فقال يوشع : « أرأيتَ إذْ أَوَيْنا إلى الصَّخْرةِ فإنِّى نَسِيتُ الحوتَ » فيه قولان : أحدهما : نسيت أن أخبرك خبرَ الحوت . والثانى : نسيت حَمْل الحوت .

« واتخذَ سبيلَه » فى هاء الكناية قولان : أحدهما أنها ترجع إلى الحوت . والثانى :

(١) سورة الرحمن ٢٢ . (٢) الطاق : ما عطف من الأبنية .

إلى موسى، اتخذ سبيلَ الحوت فى البحر، أى دخل فى مَدْخله فرأى الخضِرَ . فعلى الأول: المخبِر يوشع وعلى الثانى المخبر الله عز وجل .

قال موسى : « ذلك ما كنا نَبْغِ » أى الذى كنا نطلب من العلامة الدالة على مطلوبنا ، لأنه كان قد قيل له : حيثُ تَفْقد الحوتَ تجدُ الرجُلَ .

« فارتدَّا » أى رجعا فى الطريق التى سلَكاها يقُصَّان الأثَر . « فوجَدَا عَبْداً مِنْ عِبادِنا » وهو الخَضِر . قال وهب : اسمه اليسع . وقال ابن المنادى : أرميا .

وفى تسميته بالخَضِر قولان : أحدهما : أنه جلس على فروة بيضاء فاهتز ما تحته خضرا. رواه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . والفروة : الأرض اليابسة . والثانى : أنه كان إذا جلس اخضَرَّ ما حولَه . قاله عكرمة . وقال مجاهد : كان إذا صلى اخضَرَّ ما حولَه .

وهل كان نبيًّا ؟ فيه قولان .

قوله تعالى : « آتيناه رَحْمةً من عِنْدنا » أى نعمة « وعَلَّمْناه مِنْ لَدُنَّا » أى من عندنا « عِلْما » قال ابن عباس : أُعطى من علم الغيب .

« قال له موسى : هل أَتَّبِعك » وهذا تحريض على طلب العلم وحثٌّ على الأدب والتواضع للمصحوب ، وإنما قال الخضر : «إنك لن تستطيع مَعِىَ صَبْرا» لأنه كان يعمل بعلم الغيب . والخُبْر : العلم بالشىء . والمعنى : أنت تنكر ظاهر ما ترى ولا تعلم باطنه . فلما ركبا السفينة قلَع الخضرُ منها لوحاً فحشَاها موسى بثوبه وأنكر عليه بقوله : « أخَرَقْتَها » والإمْر : العجب .

ثم اعتذر بقوله : « لا تؤَاخِذْنى بما نَسِيتُ » وفيه ثلاثة أقوال : أحدها : أنه نسى حقيقةً . والثانى : أنه من مَعَاريض الكلام ، تقديره : لا تؤاخذنى بنسيانى الذى نسيت فى عُمْرى ، فأوهمه بنسيان هذا الأمر . والثالث : أنه بمعنى التَّرك . والمعنى: لا تؤاخذنى بتركى ما عاهدتك عليه . وترهقنى بمعنى تعجلنى. والمعنى: عامِلْنى باليُسْر .

فلما لقيا الغلامَ قتله[1] الخضر ، وهل كان بالغاً أم لا ؟ فيـه قولان . وفى صفة قتله إياه ثلاثة أقوال : أحدها : أنه اقتلع رأسه ، وهو فى حديث أُبىّ عن النبى صلى الله عليه وسلم . والثانى : كسَر عنقـه . قاله ابن عباس . والثالث : أنه أَضْجَعه وذبحه بسكين . قاله سعيد بن جُبَير .

«قال أقتلْتَ نَفساً زاكيةً» وقرأ ابن عامر : زَكِيَّةً . قال الكسائى: فيها وجهان كالقاسيةوالقَسِيَّة . وقال أبو عمرو بن العلاء : الزاكية التىلم تُذْنب. والزكِيّة التىأذنبتْ ثم تابت . وقال أبو عبيدة : الزاكيةُ فى البدَن والزكية فى الدِّين .

قوله تعالى : « بغَيْرِ نَفْسٍ » أى بغير قتل نفس . والنُّكْر : المنكَر .

« قال ألم أقُلْ لكَ » إن قيل : لمَ ذكر لفظة «لك» ها هنا ولم يذكرها فى الأولى ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما أنه ذكرها للتوكيد وتركها لوضوح المعنى، والعرب تقول: قد قلت لك اتق الله . وقد قلت لك يا فلان اتق الله . يا هذا أطعنى وانطلق .

والثانى : أن المواجهة بكاف الخطاب نوع حَطٍّ من قَدْر التعظيم، فلما كانت الأولى منه نسيانا فخَّم خطابَه بترك كاف الخطاب [ولما كانت الثانية عمدا جازاه][2] بالمواجهة بكاف الخطاب .

قوله تعـالى : « فلا تُصاحِبْنى » وقرأ أبو المتوكل : فلا تصاحبنىّ بتشديد النون . وقرأ ابن عبلة : « تَصْحَبنى » بفتح التاء من غير ألف ، وقرأ ابن مسعود كذلك؛ إلا أنه شدَّد النون . وقرأ النَّخَعى والجحْدَرى « تُصْحِبْنى » بضم التاء وكسر الحاء وسكون الصاد والباء . قال الزَّجَّاج : وفيها وجهان : أحدهما لا تتابعنى فى شىء ألتمسه منك ، يقال أَصْحَب المُهر إذا انقاد[3] . والثانى : لا تُصْحبنى عِلماً من عِلمك « قد بلَغْتَ من لدُنِّى » قرأ نافع : « مِن لَدُنى » بضم الدال مع تخفيف النون .

فلما انطلقا إلى القرية وفيها ثلاثة أقوال : أحدها : أنها أنطاكية . قاله ابن عباس .

---

(١) ب : فقتله . وما أثبته من ت . (٢) زيادة عوضا عما سقط فى الأصل . (٣) فى القاموس : والمصحب كمحسن : الذليل المنقاد بعد صعوبة .

والثانى: الأُبُلَّة . قاله ابن سيرين. والثالث : باجَرْوَان[1] . قاله مقاتِل. «استَطْعَما أهلَها» أى سألوهما الضيافةَ « فأَبَوْا أن يُضَيِّفُوهُمَا » وكانوا بخلاء « فوَجَدا فِيها جِدَاراً » أى حائطا « يُرِيدُ أن يَنقَضَّ » وقرأ أُبَى بن كعب : « يَنقَاضّ » بألف ممدودة وضاد معجمة . وقال ابن مسعود مثلَه بالصاد غير معجمة . قال الزجاج : يَنْقضّ:يسقط بسرعة، وينقاصّ غير معجمة : ينشق طُولا ، يقال انقاصَّتْ سِنُّه إذا انشقت . ونِسْبة الإرادة إلى الحائط تجوّز . وأنشد :

ضَحِكوا والدهرُ عنهم ساكتٌ ثم أبكاهم دَماً حينَ نطَقْ

وفى قوله « فأقامه » قولان : أحدهما : أنه دفعه بيده فقام . والثانى : هدَمه ثم قعد يبنيه . والقولان عن ابن عباس .

فلما أنكر عليه «قال : هذا فِرَاقُ بَيْنِى وبَيْنِك»أى إنكارك هو المفارِق بيننا . ثم بيَّن له أنَّ خَرْقه السفينةَ لتَسْلَمَ من الملك الغاصِب ، وقَتْله الغلامَ ليَسْلَمَ دِينُ أبويه قال نبينا صلى الله عليه وسلم : إن الغلام الذى قتله الخضر طُبِع كافرا ، ولو عاش لأرْهَق أبويه طُغيانا وكفرا . والزكاة : الدِّين . وقيل العمل . قاله ابن عباس . قوله تعالى : « خيراً مِنه » وأوصلَ للرحم .

وإقامتهللجدار لأنه كان ليتيمين فى المدينة . وفى الكنز الذى كان تحته ثلاثة أقوال: أحدها : أنه كان ذهبا وفضة . رواه أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم . والثانى : أنه كان لَوْحاً من ذهب فيه مكتوب : عَجباً لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، عجباً لمن أيقن بالقَدر ثم هو ينَصَب ، عجباً لمن أيقن بالنار ثم يضحك ، عجبا لمن أيقن بالرزق كيف يتعب، عجبا لمن أيقن بالحساب كيف يَغْفل ، عجبا لمن رأى الدنيا وتقلُّبَها بأهلها كيف يطمئن إليها. أنا الله لا إله إلا أنا ، محمد عبدى ورسولى . وفى الشق الثانى : أنا الله لا إله إلا أنا

---

(١) فى معجم البلدان ٢/٣٥٣ ط أوربا : وباجروان أيضا : مدينة من نواحى باب الأبواب قرب شروان، عندها عين الحياة التى وجدها الخضر . وقيل هى القرية التى استطعم موسى والخضر عليهما السلام أهلها .

وَحْدى لاشريك لى ، خلقتُ الخيرَ والشر ، فطُوبَى لمن خلقتُه للخير وأجريته على يديه ، والويل لمن خلقته للشر وأجريتهُ على يديه .

رواه عطاء عن ابن عباس .

والثالث : أنه كَنْزُ عِلم . رواه العَوْفى عن ابن عباس ، وقال مجاهد : صحف فيهاعلم. ثم أخبره أنى مأمور فيما فعلت . والسبب فى أمر الله عز وجل موسى بهذا السفر أنه قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسئل : أىّ الناس أعْلَم ؟ فقال : أنا . فعتب الله عليه إذلم يردّ العلم إليه ، فأوحى الله تعالى إليه : إن لى عبداً بمَجْمَع البحرين هو أعلم منك ، قال: فكيف لى به ؟ قال : تأخذ معك حوتا مالحاً فتجعله فى مِكْتَل فحيثُما فقدتَ الحوتَ فهو ثَمَّ . فانطلق حتى لقيه .

الكلام على البسملة

مَنْ على هذه الدار قاماً ... أو صفاً مَلْبَس عليه فداماً
عُجْ بنا نَنْدب الذين تولَّوا ... باقتيادِ المَنُون عاماً فعاماً
فارقوا كهلا وشيخا وهِمًّا (١) ... ووليدا مؤمَّلاً وغُلاماً
وشَحيحاً جَعْد اليدين بخيلاً ... وجَواداً مُخَوَّلا مِطْعاماً
سكنوا كلَّ ذروةٍ من أشمّ ... يَحْسِر الطَّرْفَ ثم حلُّوا الرَّغَاماَ (٢)
يالَحَا اللهُ مُهمِلا حَسِب الدهرَ نَؤُومَ الجفُون عَنْه فناماً
عَلِقاً (٣) فى يد المُنَى كلما نال ... هوًى يبتغيه رامَ منه مَرَاماً (٤)
هل لَنَا ، بالغِنىَ كلَّ مُرادٍ ... غَيْرُ ما يَمْلأُ الضلوعَ طعاماً
فإذا أعوزَ الحلالُ فشَلَّ اللـه كَفًّا جرَّتْ إليها الحراماَ
ومالِسِغَاب البطونِ أحْظَى لذِى الجِدِ من القوم يأكلون الحُطَاماَ

(١) الهم : الشيخ الفانى . (٢) الرغام : التراب . (٣) علقا : متعلقا . وفى الأصل : علفا. محرفة.
(٤) الأصل : رام من راما . محرفة .

دَعْ على أَرْبُعِ الرَّخاءِ رِجالاً ... سكَنوا فى رُبَى الرخاءِ خِيَاماَ
كلّما أقحطوا استمارُوا من العا ... رِ وإمّا صَدَوْا تَرَوَّوْا أثَاماَ
وقمِ الليل ناجِياً خِدَعَ الدهـ ... ـرِ وإن لم تجدْ رِجَالا قِيَاماَ
واخْشَ ما قيـل فيه قدتَمَّ ... فالجِلْدُ الذى لا يخاف إلا التماماَ
أيّها الموتُ كم حطَطْت عَلِيّاً ... سامِىَ الطَّرْفِ أو جَذَذْت سَنَاماَ
وإذا ما حُذِرْت خَلْفاً وظنُّوا ... نجاةً من يدَيْك كنتَ أماماَ

***

إخوانى : كأن القلوب ليست منّا ، وكأن الحديث يُعْنى به غيرنا .

كم مِن وَعيدٍ يَخرِق الآذانَا ... كأنما يُعْنَى به سِوَانَا
أصمَّنا الإهمالُ بل أعمانَا

إخوانى : غاب الهدهد عن سليمان فتوعَّدَه بلفظ « لَأُعَذِّبَنَّهُ » فيا من يغيب طول عُمره عن طاعتنا ، أمَا تخاف من غضبنا ؟ ! خالَف موسى الخِضر فى طريق الصُّحبة ثلاث مرات فحلَّ عقْدة الوِصَال بكَفّ : « هذا فِرَاقُ بَيْنِي وبَيْنِك » أمَا تخاف يا من لم يَفِ لمولاه أبدا أن يقول فى بعض خطاياك : هذا فراق بينى وبينك .

كان الحسَن شديد الخوف والبكاء فعوتِب على ذلك فقال : وما يؤْمننى أن يكون اطّلع علىّ فى بعض زَلّاتى فقال : اذهب فلا غفرتُ[1] لك !

لعلك غضبانٌ وقلبِىَ غافلٌ ... سلامٌ على الدارَيْن إن كنت راضياَ

أخبرنا ابن حبيب ، أنبأنا أبو سعيد بن أبى صادق ، أنبأنا ابن باكويه ، حدثنا أبو الفرج الشريحى ، سمعت على بن عبد الله التميمى ، عن محمد بن يحيى ، حدثنا ابن موسى الزاهد ، عن عبد الله بن المبارك ، قال : بَيْنا أنا ذات ليلة فى الجبّان إذ سمعت حزينا يناجى مولاه ويشكو إليه ما يلقاه يقول :

---

(١) ت : لا غفرت .

سيدى ! قصدَك عبدٌ روحه لديك ، وقِيَاده بيديك ، واشتياقه إليك ، وحسَراته عليك ، ليله أرَق ، ونهاره قَلَق ، وأحشاؤه تحترق ، ودموعه تَسْتَبِق شوقا إلى رؤيتك ، وحنيناً إلى لقائك ، ليس له راحة دُونك ، ولا أملٌ غيرك .

ثم بكى ورفع طرفه إلى السماء وقال : سيدى ؟ عَظُم البلاء وقَلَّ العزاء ، فإن أكُ صادقا فأمِتْنى . وشهق شهقة تحرَّكْتُه فإذا هو ميت ، فبَيْنا أنا أُراعيه وإذا بجماعة قد قصدوه فغسّلوه وحنطوه وكفنوه وصلوا عليهودفنوه وارتفعوا نحو السماء فأخذنى فِكْر وغَشِيَتْنى غَشْية فلم أُفق إلا بعد حين .

***

ياسالـكاً طريقَ الجاهلين ، راضياً بلعب الغافلين ، متى نرى هذا القلب القاسى يَلِين ، متى تبيع الدنيا وتشترى الدين ، واعجبا لمن آثر الفانى على ما يدوم ، وتعجَّل الهوى واختار المذموم ، ودنَت[1] هِمّته فهو حول الوسَخ يحوم ، وأقبل على القبيح ناسيا يوم القُدوم ، فأصبح شرَّ خاسرٍ وأبعدَ مَلوم .

أتغُرُّنى آماليَـــه ... بعدَ القرونِ الخاليَهْ
أهلُ المراتب والمنَاصِـ ... ـبِ والقصورِ العاليَهْ
عادتْ لهم دنيـــاهمُ ... بعـــدَ المودة قاليَهْ
نادت منازلهم قِفُوا ... وتأمَّلوا أطلالِيَـهْ
فغموض باطنِ حالهم ... يُبْديه ظاهرُ حاليَهْ
كانوا عقوداً عُطِّلتْ ... منها النُّحور الحاليَهْ
إنّى لأذكر مَعْشَرا ... ماالنفسُ عنهم ساليَهْ
فأقول والَهْفِى على ... تلك الوجوه الباليَهْ

أفق من سَـكْرتك أيها الغافل ، وتحقق أنك عن قريب راحل ، فإنما هى أيام قلائل ، فخذ نصيبك من ظل زائل ، واقضِ ما أنت قاضٍ وافعل ما أنت فاعل .

---

(١) ب : ودانت . وما أثبته من ت .

أنسيتَ يا مغرورُ أنك ميتٌ أيقِنْ بأنك . فى المقابر نازلُ
تفنَى وتَبلى والخلائقُ لِلْبِلَى أبمِثْلِ هذا العيشِ يَفرح عاقلُ

***

يالاحقاً بآبائه وأمهاته ، لابد أن يصير الطَّلَا إلى مَهاته (١) ، يا من جُلّ هِمّته جل خِياطِه وطُهاته (٢) ، يقلّبه الهوى وهو غالبُ دُهاته ، إن كان لك فى تفريطك عذر فهاتِه، يا متيَّماً بالدنيا فى ثياب صَبّ ، يا من أتى المعاصى ونسى الرب يا مُذْنبا بالخطايا وما استطَبّ، يا أسير فخِّ الأمانى وما نالَ الحَبَّ .

إخوانى : ذهبت الشَّبيبةُ الحبيبة ، ونبَال المصيبة بها مصيبة ، كانت أوقات الشباب كفصل الربيع ، وساعاته كأيام التشريق ، والعيش فيها كنَوْر الرياض ، فقبل الشَّيْب يَعِد بالفَناء ويوعد بصُفْر الإناء ، كَخلّ البِرَّة وأحلّ المريرة .

لِأمواهِ (٣) الشَّبيبةِ كيف غُضْنَه ورَوْضاتُ الصِّبَا فى اليُبْس أضْنَه (٤)
وآمالُ النفـوسِ مُعَلَّـلاتٌ ولكن الحوادث يَعترضْنَهْ
فلا الأيام تَرضَى من أذاةٍ ولا المُهجاتُ من عيشٍ عَرَضْنَه (٥)
هى الأشبـاحُ كالأسماء يَجرى الـقَضاء فيرتفِعْن ويَختفِضْنَه

الكلام على قوله تعالى
﴿ يطوفُ عليهم وِلْدان مُخَلَّدون ﴾

الولدان : الغلمان . وفى المراد بقوله « مُخَلَّدون » قولان : أحدهما : أنه من الخُلْد ، والمعنى . أنهم مخلوقون للبقاء لا يتغيرون ، وهم على سِنٍّ واحد . والثانى : أنهم المقرّطون ويقال المسوَّرون .

---

(١) الطلا : ولد الظبى ساعة يولد . والصغير من كل شىء . والمهاة : البقرة الوحشية .
(٢) كذا . والخياط : ما خيط به الثوب ، والإبرة . (٣) يظهر أن اللام متعلقة بمحذوف تقديره أعجب . أو عجبا . (٤) غاض الماء : جف . وآض : رجع . والهاء مزيدة فى القافية كلها .
(٥) عرضنه : كذا ، ولعل ضمير الرفع راجع إلى الأيام .

سجع

هذه صفات أقوام كانوا فى مَرَاضينا يجتهدون ، ولأعدائنا بصِدْقٍ ولائنا يجاهدون ، وفى جادة الجد والاجتهاد يجِدّون ، وبين الخوف منا والطمع فينا يترددون ، فهم عند شقاء العصاة بالخلاف يَسْعدون ، وفى جِنَان الخلود على حياض السعود يَرِدون « يطوف عليهم وِلْدان مخلَّدون » .

وضحت لهم مَحجَّة النجاة فساروا ، ولاحت لهم أنوار الهدى فاستناروا ، وعرفوا دارَ الكريم فطافوا حولها وداروا ، وصانوا مطلوبهم عن الأغيار وغاروا ، ولم يرضوا فى حال من الأحوال بالدُّون « يطوف عليهم وِلْدان مُخَلَّدون » .

أعددنا لهم القصور والأرائك ، وأخدَمناهم الولدان والملائك وأبحناهم الجنَان والممالك ، وسلَّم عليهم فى قصورهم المالِك ، وإنما وهبنالهم جميع ذلك لأنهم كانوا فى خدمتنا يجتهدون « يطوفُ عليهم ولدان مخلَّدون » .

استنارت بالتحقيق طريقهم ، وتمَّ إسعادهم وتوفيقهم ، وتحقَّق بالجد والاجتهاد تحقيقهم ، وساروا صادقين فوَضحت طريقهم ، وشَرُف بهم مُصَاحبهم ورفيقهم ، لأنهم أخلصوا فى طلب ما يَقْصدون « يطوفُ عليهم وِلْدان مخلَّدون » .

يا من سبقوه إلى الخيرات وتخلَّف ، وأذهب عُمره فى البطالة وتسوَّف ، وعرَف المصيرَ فما عرَف النجاة ولا تعرَّف ، وكَلِف بالدنيا فإذا طلَب الأخرى تكلَّف ، يا من مرضه قد تمكَّن من جملته وتصرَّف ، اطلب الشِّفاء يامن على شَفَا هَلَكة قد أشرف ، وابكِ على ضلالك فى الهوى فالقوم مهتدون « يطوف عليهم وِلْدان مخلدون » .

***

قوله تعالى : « بأكواب وأباريق » الكوب إناء لا عروة له ولا خرطوم . والأباريق : آنية لها عُرًى[1] وخراطيم .

---

(١) ب : عروة . والتصويب من ت .

سجع

تركوا لأجلنا لذيذ الطعام ، وساروا يطلبون جزيل الإنعام ، وقاموا فى المجاهدة على الأقدام ، وتدرَّعوا ملابس الأتقياء الكرام ، نُشرت لهم بصدقهم الأعلام ، وحُلوا حِلْية الرضا وأُحِلّوا محل التوفيق « يطوف عليهم وِلْدان مخلَّدون بأكوابٍ وأباريق » .

طال ما عطشوا فى دنياهم وجاعوا ، وذَلُّوا لسيدهم صادقين وأطاعوا ، وخافوا من عظمته وارتاعوا ، وبأخراهم ما يَفْنى من دنياهم باعوا ، وحرسوا بضائعَ التقى فما فرَّطوا ولا أضاعوا ، وجانَبُوا مايَشِين وصاحَبوا ما يليق ، فطاف الولدان على شفاه يَبِسِت بالصيام وأتى الرِّيق[1] « يطوف عليهم وِلْدان مخلَّدون بأكوابٍ وأباريق » .

تحمَّلوا أثقال التكليف ، ورفضوا التمادِى والتسويف ، وقطعوا طريقَ الفوز للتشريف ، وجانبوا موجِب العتاب والتعنيف ، فتولاَّهم مولاهم وحَماهم فى الطريق ، وأقاموا الولدانُ تسقيهم من الرحيق « بأكواب وأباريق » .

قوله تعالى : « وكأسٍ مِنْ مَعِينٍ » الكأس : الإناء بما فيه والمعين : الماء الطاهر الجارى . قال الزجَّاج : المعين هاهنا : الخمر يجرى كما يجرى الماء على وجه الأرض من العيون .

سجع

طال ماظمِئت لأجلنا هواجرهم ، طال مايبست بالصيام لنا حناجرهم ، طال ما غرقت بالدموع محاجرهم ، طال ما أزعجتهم مواعظهم وزواجرهم ، طال ما صدَقت معاملتهم ومتاجرهم ، فغدا يطوف عليهم الولدان والحور العين « بأكوابٍ وأباريق وكأسٍ مِن مَعِين » .

نظر إليهم مولاهم فارتضاهم ، وأنعم عليهم فاختارهم واصطفاهم وأعطاهم من فضله وإحسانه مُناهم ، ومنحهم مالا يحصى من الخير وحبَاهم ، فإذا قدِموا عليه أطعمهم وسقاهم وأجلسهم على موائِد الفوائد من زوائِد التمكين « بأكوابٍ وأباريق وكأسٍ من معين » .

---

(١) ت : وأتى الريق بأكواب وأباريق . وفى ب : وأبى الريق .

لقد لَذَّ نعيمهم وطاب ، وصين حريمهم يومَ [1] الثواب ، ودام تكريمهم وزال العتَاب ، وتوفَّر تعظيمهم بين الأحباب ، ونجا غريمهم من ورطاتِ [2] الحساب ، فأشرقت ديارُهم وفُتحت الأبواب ، وطاف عليهم الوِلْدان فى المقام الأمين « بأكواب وأباريق وكأسٍ من مَعِين » .

***

قوله تعالى : « لا يُصَدَّعُون عنها » أى لا يلحقهم الصداع الذى يلحق شاربى خمر الدنيا . وعنها : كناية عن الكأس المذكورة ، والمراد بها الخمر « ولا يُنْزَفُون » قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر بفتح الزاى . وقرأ حمزة والكسائى بكسرها . قال الفراء : فمن فَتح فالمعنى : لاتذهب عقولهم بشربها : يقال للسكران نَزِيف ومنزوف . ومن كسَر ففيه وجهان : أحدها : لا يُنفدون شرابهم أى هو دائم أبدا . والثانى : لا يسكرون . قال الشاعر :

لَعمْرى لئن أُنْزِفْتم أو صحَوْتم لبئس النَّدامَى كنتمُ آلَ أَبْجَرا

فإن قال قائل : المقصود من الخمر السكر . فالجواب : أن السُّكْر إنما يراد ليزيل الهَمّ ، وليس فى الجنة هَمّ ، فلا فائدة فى إزالة العقل ، ألا ترى أن النوم لمّا أُريد للراحة ولم يكن فى الجنة تعب لم يكن نوم .

سجع

دار ليس فيها ما يَشِينها ، دار لا يفنى منها ما يَزِينها ، دار لا يزول عِزّها وتمكينها ، دار لا تَهْرَم فيها عِينُها ، لذةُ خمرهم تفوق ما كانوا يعرفون « لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنْزَفون » .

دار أشرقت حِلاَها ، دار عزت عُلاَها ، دار جَلَّ مَن بنَاها ، دار طاب للأبرار سُكْناها ، دار تبلغ النفوسُ فيها مُنَاها ، أين خاطِبوها فقد وصَفْناها ، سُكّانها قد أَمِنوا ما كانوا يخافون « لا يُصَدَّعون عنها ولا ينزفون » .

---

(١) العبارة محرفة فى ب ، والتصويب من ت . (٢) ب : وطرات : محرفة والتصويب من ت .

ما أتمَّ نعيمهم ، ما أعزَّ[1] تكريمهم ، ما أظرَف[2] حديثهم وقديمَهم ، ما أصوَن حريمهم ، ما أكرم كريمهم ، قد مُنحوا الخُلودَ[3] فما يبرحون « لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنزَفون »

***

قوله تعالى : « وفاكهةٍ مِمَّا يتخيَّرون » أى يختارون تقول : تخيَّرت الشىء إذا أخذت خيره .

قوله تعالى : « ولحمِ طَيْرٍ مما يَشْتهون » قال ابن عباس : يخطر على قلب أحدهم الطير فيصير متمثلا بين يديه على ما اشتهى . وقال مغيث ابن سمىّ : يقع على أغصان شجرة طوبى طير كأمثال البُخْت فإذا اشتهى الرجل طيراً دعاه فيجىء فيقع على خِوَانه فيأكل من أحد جانبيه قَدِيدا ومن الآخر[4] شِواء ، ثم يعود طيرا فيطير ، فيذهب .

سجع

ثمارهم فى أشجارهم وافرة ، وفواكههم من العيوب طاهرة ، ووجوههم بأنوار القَبُول ناضرة ، وعيونهم إلى مولاهم ناظِرة ، وقد حازوا شرفَ الدنيا وفوزَ الآخرة[5] ، وأَجَلُّ النعيم أنهم لا يتغيرون « وفاكهة مما يتخيرون » .

كانوا فى أوقات الأسحار يَنتبهون ، وبالأسارَى فى الاعتذار يتشبهون ، وقد تركوا النفاق فما يُمَوِّهون[6] ، والتزموا الصدق فيما به يتفوهون ، وإذا أمُّوا فضيلةً فما ينتهون[7] عنها حتى يَنْتهون[8] ، فقد فازوا يومَ القيامة بما كانوا يطلبون « وفاكهة مما كانوا يتخيرون » .

***

قوله تعالى : « وحُورٍ عين » قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم : « وحورٌ عينٌ » بالرفع فيهما . وقرأ حمزة والكسائى بالخفض فيهما . وقرأ أُبَىّ بن كعب وعائشة : « وحورًا عينا » بالنصب فيهما . قال الزجاج : الذين رَفعوا كرهوا الخفضَ

(١) ب : ما أعمر . (٢) ب : ما أطرف . (٣) ب . بالخلود . وما أثبته من ت .
(٤) ب : والآخر وما أثبته من ت . (٦) ت : شرف الدنيا والآخرة . (٥) ب : فما يتوهمون . (٧) ت : فما يتنبهون . (٨) كذا ولعلها ضرورة السجع .

لأنه معطوف على قوله : « يطوف عليهم » قالوا : والحور ليس مما يطاف به . ولكنه محفوظ على غير ما ذهب إليه هؤلاء ، لأن المعنى : يطوف عليهم ولدان بأكواب ينعمون بها ، وكذلك ينعمون بحور عين والرفع أحسن . والمعنى : ولهم حور عين ومن نصَب حمَلَه على المعنى ، لأن المعنى يُعْطَون هذه الأشياء ويُعْطَون حُورًا عينا . ويقال : عَيْن حَوْراء إذا اشتد بياضها وخلص واشتد سوادها ، ولا يقال : امرأة حَوْراء إلا أن تكون مع حَوَر عينها بيضاء . والعِين : كبار العيون حِسَانها . قال : ومعنى كأمثال اللؤلؤ : أى صفاؤهن وتلألؤهن كصفاء اللؤلؤ وتلألئه . والمكنون : الذى يخرج من صدفه فلم يغيره الزمان واختلاف أحوال الاستعمال[1] .

« جَزاء » منصوب مفعول له ، والمعنى : يفعل بهم ذلك جزاء بأعمالهم . قال : ويجوز أن يكون منصوبا على أنه مصدر ، لأن المعنى : يطوف عليهم ولدان يُجَازون جزاء بأعمالهم مخلدون .

سجع

على قوله تعالى : ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾

منحهم من الخير ما ليس بممْنون ، وأمَّنهم فى الجنة حوادثَ المنون ، وجعلهم على حفظ سره يؤتمنون ، إذ كانوا بأسمائه وصفاته يؤمنون ، فلهم [من] فَضْله فوق ما يشاءون « وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون » .

خلقهم لخدمته وأرادهم ، وأربحهم فى معاملته وأفادهم ، وجعل الرضا بقضائه زادَهم ، وأعطاهم من جزيل رِفْده وزادهم ؛ وأتاهم ما لم يخطر على الظنون « جزاء بما كانوا يعملون » .

كانوا يَصْدقون فى الأقوال ويُخْلصون فى الأعمال ، ولا يرضون بالدنىء من الحال ، ولا يأنسون بما ينتهى إلى زوال ، فجزاهم على أفعالهم ذو الجلال ، إذ أسكنهم فى جنته فى ظلال على الأرائك متكئون « جزاء بما كانوا يعملون » .

***

(١) ب : الأعمال .

قوله تعالى : « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما » اللغو [ما][1] لا يفيد . والمعنى : أن خمر الجنة لا تذهب بعقولهم فيلغوا ويأثموا كما يكون فى خمر الدنيا .

فإن قال : التأثيم لا يُسْمع فكيف ذُكِر مع المسموع ؟ فالجواب : أن العرب تُتْبِع آخرَ الكلام أوله وإن لم يحسن فى أحدهما ما يحسُن فى الآخر ، فيقولون أكلتُ خبزا ولبنا . قال الشاعر : ـ

إذا ما الغانياتُ بَرَزْنَ يوما وزَجَّجْنَ الحواجبَ والعيونَا

والعين لا تُزَجّج ، فردّها على الحاجبَ . وقال آخر :

ولقد لَقِيتُك فى الوغَى متقلداً سيفاً ورُمحاَ

وقال آخر :

* علَفْتها تِبْناً وماء بارداً *

سجع على قوله تعالى
« لا يَسْمعون فيها لغواً ولا تأثيماً »

أعرضوا فى الدنيا عن اللَّغو ، وتركوا رائق الشهوات واللهو ، وآثروا الذلَّ على الغنى والزَّهْو ، وتيقظوا للأوامر معرِضين عن السهو ، فأسكنهم فى جنته يوم زيارته حريما « لا يَسْمعون فيها لغواً ولا تأثيما » .

أجْزَلْنا لهم الثوابَ ، وسمَّيناهم بالأحباب ،وأمَّناهم من العذاب ، واصطفيناهم للمخاطبة والجواب ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، ببشارات توجب تقديما «لا يَسْمعون فيها لغواً ولا تأثيما » .

تبدؤهم بالسلام ، وتخصهم بالتحايا والإعظام ، وتأتيهم بأنواع التحف والإكرام ، وتبشِّرهم بالخلودفىدار السلام،وقد أمنوا أن يسمعوامناللغو كلاماً إلا قليلاً سلاَماًسلاما.

***

(١) سقطت من : ب .

قوله تعـالى : « وأصحابُ اليمين ما أصحابُ اليمين » فى أصحاب اليمين سبعة أقوال : أحدها : أنهم الذين كانوا على يمين آدم حين خرجت ذريته من صُلبه . قاله ابن عباس . والثانى : أنهم الذين يُعطَون كُتُبَهم بأيمانهم . قاله الضحاك والقُرَظى . والثالث : أنهم كانوا مَيامين على أنفسهم مباركين . قاله الحسن والربيع . والرابع : أنهم الذين أُخذوا من شِقّ آدم الأيمن . قاله زيد بن أسْلم . والخامس : أنهم الذين منزلتهم عن اليمين . قاله ميمون ابن مهران . والسادس : أنهم أهل الجنة . قاله السُّدّى . والسابع : أنهم أصحاب المنزلة الرفيعة . قاله الزجاج .

وقوله : « ما أصحابُ اليمين » تعظيم لشأنهم . تقول : زيد ما زيد .

***

سمع على قوله تعالى

﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴾

أصحاب فهم ويقين ، أصحاب جد(١) وتمكين ، أصحاب عزٍّ مكين(٢) ، أصحاب خوف ودين ، يتنزهون عن من يَمِين ، « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين » .

أصحاب مُلْك لا يزول ، أصحاب فخر لا يَحُول ، أصحاب تقديم ووصول ، أصحاب شرف بالقبول ، أصحاب تمكن فى مقام أمين « ما أصحاب اليمين » .

أصحاب قرب وحضور ، أصحاب عز ونور ، أصحاب جِنَان وقصور ، فيها حِسَان من من الحور ، أصحاب مُكْنة ليس فيها قصور ، أصحاب مُثَمَّن ثمين « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين » .

***

قوله تعالى «فى سِدْر مَخضودٍ» السِّدر : شجر النَّبْق . والمخضود : الذى لا شوك فيه . والطَّلْح : الموز . قاله ابن عباس والحسن وعطاء ومُجَاهد .

---

(١) ب : عذر . وما أثبته من ت .　　(٢) ب : ومكين . محرفة .

فإن قيل : غير الطَّلْح أحسن منـه ؟ فالجواب : أنّ الصحابة رضى الله عنهم مروا بِوَجّ وهو واد بالطائف فأعجبهم سِدْره فقالوا : يا ليت لنـا مثل هذا . فنزلت هذه الآية ووعَدَهم ما يعرفون ويميلون إليه .

والمنضود : قال ابن قتيبة : هو الذى قد نُضّد بالحِمْل أو بالورق والحِمْل من أوله إلى آخره ، فليس له ساق بارزة .

سجع

عباد طاعوا المعبود ، وأوصلوا الركوع والسجود ، وسألوا من يتفضل ويجود ، فوفّر نصيبهم من الرِّفْد المرفود « فى سِدْر مَخْضود » .

ورَدوا إليـه أكرم ورود ، وأمنوا فى وصالهم عائق الصدود ، وأتعبوا الأعضاء فى خدمته والجلود ، فمنحهم طيبَ العيش فى جنات الخلود « فى سدر مخضود » .

تصافَوْا فاصطَفّوا فى خدمته كالجنود ، واستلوا سيوف الجهاد من الغُمود ، وقمعوا بالصدق العدوّ الـكَنُود ، وأرغموا بسَبْقهم أنفَ الحسود ، فخصّهم مولاهم بالفضل والسُّعود « فى سِدْر مخضود » .

طلبوا بالصِّدق الصادقَ الوَدُود ، وسعوا إليـه يسألون إنجـاز الوعود ، وطمعوا فى كرَمه أن يتفضل ويعود ، وأسْبَلوا دموعهم من خشيته على الخدود ، فيـا لَنعيمهم وأطيبُ منه الُخلود « فى سِدْر مَخْضود » .

شـكروا مَن أخرجهم من العـدم إلى الوجود ، وتفضَّل عليهم بكل خير وجُود ، وعلموا أن الإخلاص هو المقصود ، فاستعَدوا وأوعدوا لليوم المشهود «فى سدر مخضود».

تمسكنوا بالـكتاب القديم، وطلبوا من المنعم الـكريم أن يعمهم بالفضل والتـكريم، فمنَّ عليهم بالخير العميم ، فهم فى الجنان فى أحْلَى نعيم ، عند مَلِك كبير عظيم ، ليس بوالد ولا مولود « فى سدر مخضود وطَلْح منضود » .

أعدَّ لهم أَوْفَى الذخائر ، وهذَّب منهم البواطن والظواهر[1] ، وجعلهم بين عباده كالنجوم الزواهِر ، وبنى لهم الغُرفَ باللؤلؤ والجواهر ، فهم فى مَجْد كريم وسعد غير محدود « فى سدر مخضود وطلح منضود » .

استزارَهم إلى جنتـه ، وخصَّهم بكرامته ، وأنعم عليهم برؤيته وجعلهم فى حصنٍ حصين من رعايته ، فى ظل نعيم دائم ممدود « فى سِدْر مخضود وطَلْح منضود » .

طالَ ما حملوا تـكليفه واستقلّوا ، وسعوا إلى مراضيـه فمـا ضلّوا ، وتفيّأوا ظلالَ التوكل عليه واستظلوا ، ورضوا بقضائه صابرين فما مَلّوا ، وائتمنهم على الإيمان فما خانوا ولا غَلُّوا ، وكَفُّوا أكفَّهم عن غيره ثقةً به وغَلُّوا ، فعَزوا بخدمته إذ لخدمته ذَلّوا ، فأثابهم نعيما ليس بمَجْدُود ولا محدود « فى سِدْر مخضود وطلح منضود » .

مالُوا إليه وتركوا المال ، وعلَّقوا بالطمع فى فضله الآمال ، وأعرضوا عن الدنيا شغلا بالمآل ، وأَلِفوا خدمته وهجروا المَلَال ، وراضوا أنفسهم بالفقر ورضوا بالإقلال ، وأَنسوا بمناجاته ونسوا الآل ، فإذا تلقَّاهم مَوْلاهم قال مرحبا بالوفود « فى سدر مخضود وطلح منضود » .

اللهم فاجعلنا من المتقين الأبرار ، وأسكنّا معهم فى دار القرار ، ولا تجعلْنا من المخالِفين الفُجّار ، وآتنا فى الدنيا حسنةً وفى الآخرة حسنة وقِنا عذابَ النار ، يا من لم يزل يُنْعِم ويجود . برحمتك يا أرحم الراحمين . والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله وصحبه .

---

(١) الأصل : والظاهر .

المجلس السابع عشر

فى قصة قارون

الحمد لله الذى يمحو الزللَ ويصفح ، ويغفر الخطَل ويسمح ، كلُّ من لاذَ به أنجح ، وكل من عامله َ يربح ، تشبيهه بخلقه قبيح وجَحْده أقبح ، رفع السماء بغير عمَد فتأمَّل والمح ، وأنزَل القَطْر فإذا الزرع فى الماء يسبح ، والمواشى بعد الجَدْب [1] فى الخِصْب تسرح ، وأقام الوُرْق على الورَق تشكر وتمدح ، ويندب هديلُها ولا نَدْب ابن الملوَّح ، أغنَى وأفقَر والفقرُ فى الأغلب أصلح ، كم من غنىّ طرَحه البطَرُ والأشر أقبحَ مَطْرح ، هذا قارون ملَكَ الكثير وبالقليل لم يسمح ، يتجشأ شِبَعاً وينسى الطَّلَنْفح [2] ، نُبِّه فلم يزُل نَوْمه وليمَ فلم ينفع لَوْمُه « إذ قال له قومُه لا تَفْرح » .

أحمده ما أمسَى المساء وما أصبح ، وأصلِّى على رسوله محمد الذى أُنزل عليه : « ألم نَشْرَح » ، وعلى أبى بكر صاحبه فى الدار والغار لم يَبْرح ، وعلى عمر الذى لم يزل فى إعزاز الدين يَكْدح ، وعلى عثمان ولا أذكر ما جرى ولا أشرح ، وعلى علىّ الذى كان يغسل قدميه فى الوضوء ولا يمسح ، وعلى عمه العباس أقرب الكل نسباً وأرْجح .

***

قال الله تعالى : « إنّ قارونَ كان مِنْ قوم موسى [3] » قارون بن يصهر بن قاهث. وفى نسبه إلى موسى ثلاثة أقوال : أحدها أنه كان ابنَ عمه . رواه سعيد بن جُبَير عن ابن عباس ، وبه قال النَّخَعِىّ وابن جُرَيْج . والثانى : ابن خالته . رواه عطاء عن ابن عباس والثالث : كان عمَّ موسى . قاله ابن إسحاق .

قوله تعالى : « فبغَى عليهم » وفيه خمسة أقوال : أحدها : أنه جعل لبغيّة جُعْلاً على أن تقذِف موسى بنفسها ، ففعلت فاستَحْلفها موسى على ما قالت فأخبرته بقصتها . فهذا بَغْيه . قاله ابن عباس . والثانى : أنه بغَى بالكفر . قاله الضحاك . والثالث : بالكِبْر.

---

(١) الأصل : الجدوب وهى المكان الجدب . (٢) الطلنفح : الجائع ، والمعيي التعب . (٣) سورة القصص ٧٦

قاله قَتَادة . والرابع : أنه زاد فى طول ثيابه شِبْرا . قاله عطاء الخراسانى وشَهْر بن حَوْشَب. والخامس : أنه كان يخدم فرعون ويتعدّى على بنى إسرائيل ويظلمهم . حكاه الماوردى.

وفى المراد . بمفاتحه قولان : أحدهما : أنها مفاتيح الخزائن التى تُفتح بها الأبواب . قاله مجاهد وقَتادة . قال خَيْثَمة : كانت المفاتيح التى تفتح بها الأبواب وِقْر[1] ستين بغلاً ، وكانت من جلود ، كلٌّ مفتاح مثل الإصبع . والثانى : أن المراد بالمفاتيح الخزائن ، قاله السُّدى وأبو صالح والضحاك . قال الزّجاج : وهذا الأشبه وإلى نحو هذا ذهب ابن قُتَيبة. قال أبو صالح : كانت خزائنه تُحمل على أربعين بغلا .

قوله تعالى : « لَتَنوُء بالعُصْبة » أى تُثْقلهم وتُميلهم. والعُصْبة : الجماعة. وفى المراد بها هاهنا ستة أقوال : أحدها : أربعون رجلا. رواه عكرمة عن ابن عباس . والثانى : مابين الثلاثة إلى العشرة رواه الضحاك عن ابن عباس . والثالث : خمسة عشر . قاله مجاهد . والرابع : فوق العشرة إلى الأربعين . قاله قتادة . والخامس : سبعون رجلا . قاله أبو صالح . والسادس : مابين الخمسة عشر إلى الأربعين . حكاه الزّجاج .

قوله تعالى : « إذ قال له قومُه » يعنى المؤمنين « لا تَفْرَح » أى لا تَبْطر « وابْتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخِرةَ » يعنى الجنة بإنفاقه فى طاعته . « ولا تنسَ نَصِيبَك مِنَ الدُّنْيَا » وهو أن تعمل فيها للآخرة « وأَحْسِنْ » بإعطاء فضل مالك « كما أَحْسَنَ اللهُ إلَيْكَ » بأن زادك على قدر حاجتك « ولا تَبْغِ الفسادَ » بأن تعمل بالمعاصى .

« قال إنّما أُوتِيتهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِى » فيه خمسة أقوال : أحدها : على علم عندى بصَنْعة الذهب . رواه أبو صالح عن ابن عباس . قال الزّجاج : وهذا لا أَصْل له ، لأن الكيمياء باطل لا حقيقة له . والثانى : رضا الله عنّى . قاله ابن زيد . والثالث : على خيرٍ عَلِمه الله منّى . قاله مقاتل . والرابع . إنما أُعطيتهُ بفَضْل عِلْمى . قاله الفراء . والخامس : على علم عندى بوجوه المكاسب . ذكره الماوردى .

---

(١) الوقر : الحمل الثقيل ، أو أعم .

قوله تعالى : « ولا يُسْأَلُ عَنْ ذُنوبِهِم المجْرِمُون » قال قتادة : يدخلون النار بغير حساب .

« فَخرجَ على قَوْمِه في زِينَتِه » في ثياب حُمْرٍ وصُفْر . قال عكرمة : في ثياب مُعَصْفرة . قال وهب بن منبه : خرج على بغلة شهباء عليها سرج أحمر من أرجوان ، ومعه أربعة آلاف مقاتل وثلاثمائة وصيفة عليهن الحلَى والزينة ، على بغال بيض . قال الزجاج : الأرجوان : صِبْغ أحمر .

قوله تعالى : « ولا يُلقَّاها » يعني الكلمة التي قالها المؤمنون وهي : « ثوابُ اللهِ خَيْرٌ » .

قال ابن عباس : لمّا نزلت الزكاة أتى موسى وهرونُ قارونَ فصالحه على كل ألف دينار ديناراً ، وعلى كل ألف درهم درهماً وعلى كل ألف شاةٍ شاةً . فوجد ذلك مالا كثيرا فجمع بني إسرائيل وقال : إن موسى يريد أموالكم . قالوا : فماذا تأمرنا ؟ قال : نجعل لفلانة البغيّة جُعلا فتقذفه بنفسها . ففعلوا . ثم أتاه قارون فقال : إن قومك قد اجتمعوا لتأمرهم وتنهاهم . فخرج فقال : يابني إسرائيل من سرَق قطَعْنا يده ، ومن افترى جلَدْناه ثمانين ، ومن زنى وليست له امرأةٌ جلَدْناه مائة فإن كانت له امرأة جلدناه حتى يموت . فقال له قارون : وإن كنتَ أنت ؟ قال : وإن كنتُ أنا . قال : فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فَجَرْتَ بفلانة . قال : ادعوها فلما جاءت قال موسى : يا فلانة أنا فعلتُ مايقول هؤلاء ؟ قالت : لا كذَبوا ، وإنما جعلوا لي جُعلاً على أن أقذفك . فسجد فأوحى الله عز وجل إليه : مُرِ الأرضَ بما شئت . فقال : يا أرض خذيه . فأخذته حتى غيَّبت سريره فلما رأى ذلك ناشَده بالرحم فقال : خذيه فأخذته حتى غيبت قدميه ، فما زال يقول : خذيه . حتى غيَّبته فأوحى الله تعالى إليه : ياموسى ما أفظَّك ! وعزتي وجلالي لو استغاث بي لأغَثْتُه !

قال سَمُرة بن جُنْدَب : يُخْسف به كلَّ يومٍ قامة ، فيبلغ به إلى الأرض السفلى يوم القيامة .

فلما هلك قال بنو إسرائيل : إنما أهلكه موسى ليأخذ ماله وداره . فخسف الله بداره وبماله بعد ثلاثة أيام .

« فما كان له مِنْ فِئَةٍ يَنصرونه مِنْ دُونِ الله » أى يمنعونه من الله .

فأصبح المتمنُّون مكانَه قد ندموا على تمنيهم ، فجعلوا يقولون : « لولا أن مَنَّ اللهُ علينا لَخَسفَ بنا وَيْكأنّه » قال ابن الأنبارى : إن شئتَ قلت : « ويك » حرف « وأنه » حرف . والمعنى : ألم ترأنه قال الشاعر (١) :

تسألانى(٢) الطلاقَ أن ترَيَانى قلَّ مالى قد جئتما بِهُجْرِ
ويك أنّ من يكن له نشَبٌ(٣) يُحْبَبْ ومن يفتقر يَعِشْ عيشَ ضُرِّ

وإن شئت جعلت « وَىْ » حرفاً ويكون معنى « وَىْ » التعجب كما تقول : وى ! لِمَ فعلت كذا ؟ ويكون معنى « كأنه » أظنه وأعلمه ، كما تقول : كأنك بالفرَج قد أقبل . والمعنى أظنه مقبلا . وإنما وصَلُوا الياء بالكاف لأن الكلام بهما كَثُر .

وذكر الزجّاج عن الخليل أنه : قال « وَىْ » مفصولة من « كأن » وذلك أن القوم ندموا فقالوا : وى . متندمين على ما سلف منهم .

« تِلكَ الدارُ الآخِرة » يعنى الجنة « نجعَلُها للذين لا يُريدون عُلوًّا فى الأَرْضِ » وهو البغى « ولا فساداً » وهو العمل بالمعاصى « والعاقبةُ » المحمودة « لِلمتّقين » .

الكلام على البسملة

أيا والِىَ المِصْرِ لا تَظْلِمَنَّ فكم جاء مثلُك ثم انصرَفْ
وقد أبرَ النخلَ مُلاَّكُه فنُقِّص عِزّهمُ واحترف
فلا تُرْسِلَنّ حِبَال المُنَى وأَمْسِكْ بكفِّك منها طَرف
تقارف مستكثِراتِ الذنوب وتغفلُ عن ذنبك المقترَفْ

أين من جمع الأموال وتموَّلها، وطاف البلادَ وجوَّلها ، وشق أنهار الأرض وجدْوَلها، رأت والله كلُّ عاملة عملَها ، ونزلَتْ بعد سفَرِها مَنْزِلها ، عنَت الوجوه على جسور المنايا

(١) ورد البيت الثانى فى اللسان ونسبه لزيد بن عمرو بن نفيل، ويقال لنبيه بن الحجاج. اللسان ٢٠ / ٣٠١ .
(٢) الأصل : سألتى . محرفة . (٣) الرواية فى الأصل : ويك أن من لم يكن له نشب . والتصويب من اللسان .

الحوابس ، وأذلّ قبرُ الموتِ الشوامس ، وصيرَّ الفصحاء فى مقام الهوامِس ، ياللّيالى المرض إنها ليالٍ دوامس ، يا لَساعةِ اللَّحد حين تحثو الروامس ، كم لقيت وجوهٌ نواعم من أكفّ طَوامس ، كم ترحّلت من دار السلامة إلى عَسْكر[1] البِلَى فوارس .

ستُقْفِر الأمصارُ من أهلِها بحادثاتٍ تَعْمر السَّبْسَبا[2]
يؤشِّب الحافظ أقفالَه وتَفْتح الآفاتُ ما أشَّبا[3]

لقد هلكت فى الزمان جَدِيسه وطَسْمُه ، ولقد ذهب من كان وكان اسمه ، فلا عَيْنه تُرى ولا رَسْمه ، ولا جوهره يُحسّ ولا جسمه ، تبدَّدَ والله بالممات نَظْمه ، ولحق بالرفات عَظْمه.

كم طوّفوا بالبلاد وجوّلوا ، كم أوعدوا أعداءهم وهوّلوا ، كم جمعوا وكم تخوّلوا ، كم اقْتنَوا وكم تموّلوا ، كم طالُوا وما تطوّلوا ، والمحنة أنهم على الأمل عوّلوا ، فما كان إلا القليل وتغولوا ، وجملة الأمر أنهم تحوّلوا ، واستطالت على الورى عُصَب ما تطوّلوا ، ظهروا فى البلاد عصراً وطافُوا وجوّلوا ، خُوِّلوا نعمةً فلم يشكروا ماتخولوا ، فانظر الآن فيهم أىَّ غولٍ تغوّلوا ، وأقاموا فما قيل[4] فازوا ولكن تحوّلوا .

كم ملأ وأهلاً وجبلاً شاء وإبلاً ، فلما سَلكوا إلى الموت سُبلا ، وعاينوه يوم الرحيل قُبلا ، وتهيأوا للنزول فى دار البِلىَ علموا أن ما كانوا[5] فيه عين البَلاَ .

أطاعوا ذا الخداعِ[6] وصدّقوه وكم نصَح النصيحُ فكذّبوهُ
ولم يرضَوا بما سكنوا مَشِيدٍ إلى أن فَضَّضُوه وذهَّبُوهُ
أظلوا[7] بالقبيح فتابعوه ولو أُمِروا به لَتجنّبوهُ
نهاهم عن طِلاَب المالِ زُهْد فنادَى الحِرصُ ويلكم اطلبوه
فألقاها إلى أسماع غُثْرٍ[8] إذا عرفوا الطريقَ تنكّبُوهُ
وحَبْل العيس مُنْتكث ضعيف ونِعْم الرأى أن لا يَجْذبوهُ

---

(١) ت : إلى دار البلى . (٢) السبسب : المفازة . (٣) تأشب الشجر : التف . وأشبته تأشيبا . والمعنى : يغلق ويبالغ . (٤) الأصل لفيل . محرفة . (٥) الأصل : مانوا . محرفة . (٦) الأصل : للخداع . محرفة . (٧) كذا .. (٨) الغثر : سفلة الناس .

حَسبتم يا بـــنى حَوّا شقاء   نجاؤكم الذى لم تَحْسِبوه
أُدِينَ[1] الشرُّ منكم فاحذروه   ومات الخير فيـكم فاندبوهُ

كان الحسن يقول : أسمع أصواتا[2] ولا أرى أنيساً ، إنما دِينِ أحدهم لعقة على لسانه ، ولو سألته : أتعرف يوم الحساب ؟ قال : نعم . وكذَب وما لكِ يوم الدِّين .

يا من كتابه يَحْوى حتى حبة خردلة ، وعليه شاهدان كلاهُما مُعدَّل ، وسيلتحف التراب ويتوسد الجَنْدل ، وهو يمشى مُعجَبا بنفسه مشية الشَّمَرْدل[3] .

لَعمرك[4] ما الدنيا بدار إقامةٍ   ولا الحىُّ فى دار السلامة آمِنُ
تحاربنا أيامُنا ولنــا رضًى   بذلك لو أن المنايا تهادِنُ
أرى الحِيرةَ البيضاء عادت[5] قصورُها   خَلاء ولم تثبت لكسرى المدائنُ
رَكِبْنا من الآمالِ فى الدهر لُجةً   فما صبرتْ للموجِ تلك السفائنُ
تجىء الرزايا بالمنــايا كأنما   نفـوسُ البرايا للحِمَام رهائنُ

الكلام على قوله تعالى

﴿ ذَرْهمْ يأكلوا ويتمتَّعوا ويُلهِهم الأمل ﴾

إخوانى : اعتبروا بمن مضى من الأقران ، وتفكروا فى من بَنَى كيف بان ، تقلبت والله بهم الأحوال ولعبت بهم أيدى البلبال ، ونسيهم أحبابُهم بعد ليال ، وعانقوا التراب وفارقوا المال ، فلو أُذِن لصامتهم لقال :

من رآنا فليحدِّث نفسَه   أنه مُوفٍ على قُرْب[6] زوالْ
وصروفُ الدهرِ لا يَبْقَى لهــا   ولِمَا تأتِى به صُمُّ الجبالْ
رُبَّ رَكْبٍ قد أناخوا حَوْلَنا   يشربون الخمرَ بالماء الزُّلالْ
والأباريق عليهـا قِدم   وعِتَاق الخيل تَرْدِى فى الجِلالْ[7]

---

(١) الأصل: أديك . محرفة . (٢) ت : صوتا . (٣) الشمردل :الطويل (٤) ت : وعيشك .
(٥) ت : جارت . (٦) ت : على قرن . (٧) ب : عليهم وتردى : تسرع . والجلال : جمع جل وهو ما تلبسه الدابة لتصان به .

عمروا دهرا بعيشٍ حسَنٍ   آمِنِي[دَهْرِهِمُ غـــير عِجَالِ

ثم أضْحَوا لَعِبَ الدهر بهم   وكذاكَ الدهرُ حالٌ بعد حالِ(١)

يا مشغولا بالأمل والمنَى ، تأهَّبْ لمصرعٍ قد قارب ودنا ، وتزود للقبر من الصبر كفنا ، وتهيأ لحرب الهوى فإذا عزمت فألق القنا ، فاللُّحُودُ المقيل وبيت الموتى لا يُبْتَنى ، وحاكم العدل يجازى كُلاًّ بما جنَى .

لا بُدَّ للإنسان من ضَجْعةٍ   لا تقلب المضجعَ عن جنبهِ

ينسَى بها ما كان من عُجْبه   بما أذاق الموتُ من كَرْبهِ

نحن بنو الموتى فما بالُنا   نعافُ مالا بُدّ من شُرْبهِ

يموت راعِي الضأن فى جَهْلِهِ   موتةَ جالينوس فى طبِّه

وربمـــا زاد على عُمْره   وزاد فى الأمنِ على سِرْبهِ

وغاية المفْرط فى سِلْمــه   كفاية المفرط فى حَرْبهِ(٢)

***

كأنك بك وقد مدَّ كفَّه إليــك الخالِس ، وافترسك أجلٌ كم(٣) قد فَرَى فى الفرائِس ، وحلَلْت بقاع البِلَى نخلَتْ منك المجالس ، ونفر وبَعُد عنك الصديق الصدوق والودود المجانِس ، وترك زيارتك من كان لك فى الوحدة يؤانس ، وحُبست فى ضنك ضيِّق من المحابس ، وأصبح رَبْعك بعد بُعدك وهو خالٍ دارس ، ونزلتَ لحدك وحدك فى ظُلَم الحنَادس ، وبكى الأهل ساعةً والرءوس للنَّوى نواكس ، ثم عادوا إلى الحالة وكل فى حِلِّه آيس(٤) ، وانطلقوا فأطلقوا أموالَكَ الحبائس ، وأنت تتمنى العَوْد كَلاَّ والعُود يابس ، ولقيت قِرْنا من الردى فياشدة المتشاوِس ، وتعوَّضت الرَّغَام على الرَّغْم والثَّرَى بالثرى بعد الملابس ، فيابؤس هذا الملبوس ويأذل هذا اللابس ، فلو اطُّلِـع عليك بعد يوم خامس

(١) ب : حالا بعد حال .   (٢) الأبيات للمتنبى ديوانه ص ٥٧٢ تحقيق عزام . .

(٣) الأصل : أحد . محرفة .   (٤) كذا بالأصل وآيس : لان وذل .

أو سادس لرئى أثر بعد عين قد غيرته الطوامس ، وجاءك منكر ونكير نخبر عن حرب البسوس وداحس ، وبقيت حديثا يجرى على مر المدى فى المدارس ، فاغتنم حياتك قبل الممات فأنفاس النفوس نفائس ، ياذا الأمل الطويل كم آذى حديث الوساوس ، يا مُناغِي المُنَى ودع هذه الهواجس ، أين أرباب القصور ، هذه طولها تمنطق [1] بالخراب سورها فنطق محيلها ، سحبت على جيوبها من جنوبها ذيولها ، قل لها أين عامرها أم أين نزيلها ، يا كثير الأسئلة لها كم تطيلها ، كانت فيها جيرة ثم أتى رحيلها ، فاليوم تندب أطلالهم والغربان رسيلها ، ماردت شواجرُ الرماح ولادفع صقيلها ، ولا منعت تلك الظُّبا كالرعد صليلها ، أمرٌ لا مردَّ له [2] مرّت به مُردها وكهولها ، وتتابعت به آسادُها فى بحر الهلاك وشبولها ، وعقرت فى جواد النوى بسيف الثواء خيولها ، وتساوى فى جرير الآفات صَعْبُها وذَلُولها ، أمَا يكفى القلوب الغافلة وعظاً دليلُها ، يالنفوس أمرضها الهوى ما يُشفى عليلها ، أمَا هذه طريقها أمَا هذه سبيلها ، يالها من موعظة كم تسمعها وكم تقولها .

خلج والله البَيْنُ من القوم مَن خلَج ، وأمَّ الموتُ آمِلَهم فلا تسأل كيف انزعج ، واستنزلَ عاليهم من أعالى الدَّرَج فدَرج ، وساروا فى عسكر البلى فأتلفهم الوهَج ، وزفرت [3] أبدانهم بعد طِيب الأرَج ، ونسج لهم البِلَى ثوبا فيابئس ما نسج ، وعامُوا فى بحر الأسى فلجَّج بهم فى اللُّجَج ، ولقيهم من البلايا ما ضوعف وازدوج ، واستغاثوا ولكن فى غير أوان الفرَج ، وطلبوا راحةً ولكنه زمان الحرَج ، وسئلوا فعدموا تصحيح الجواب وتحقيق الحُجَج ، فيا أسفا لمسئولهم لا فاز ولا فَلَج:

إنَّ قومى صَدَّ عنهم توبةً ... شُقَق البُرْد [4] اليمانى يُعطّ

قُلْ لأحداثٍ رمى الدهر بهم ... فهم فى رُقَع الدهرِ نُقَطْ

ذاقَهم مُسْتحلِياً أرواحهم ... ورأى المضغَ طويلا فاسْتَرَطْ

---

(١) تمنطق : لبس المنطقة . وفى الأصل : تمطق . محرفة . (٢) الأصل : لما مردها . محرفة .

(٣) زفرت : تغير ريحها . (٤) ب : البرق . محرفة . والشقق : جمع شقة ، وهى ما شق من الثوب مستطيلا . ويُعط : يشق .

وتَواقٍ غـــير باقين وكم يلبث القاربُ من بعد الفَرطْ[1]
وإذا كشَّفتُ ما يُرْمِضنى[2] من مضيض الداء قال الحِلْمُ غَطّ

أخبرنا محمد بن عبد الله بن حبيب ، أنبأنا على بن عبد الله بن أبى صادق ، أنبأنا أبو عبد الله بن باكُوية ، حدثنا عبد الواحد بن بكر الرُّويانى ، حدثنا محمد بن أحمد المارستانى ، حدثنا الحسن بن إسماعيل الربعى ، عن عبد الرحمن بن إبراهيم الفهرى ، عن أبيه أن فتى كان على عهد الحسن ، وكان مفرطا فى حق الله عز وجل فبينا هو كذلك فى تفريطه أخذه الله بالمرض أخذة شديدة ، فلما آلمه الوجع نادى بصوت منكسر محزون : إلهى وسيدى أقِلْ عَثْرتى وأقمنى من صَرْعتى ، فإنى لا أعود . فأقامه الله من صرعته فرجع إلى أشد مما كان فيه ، فأخذه الله أخذة ثالثة فقال إلهى أقِلْنى عَثْرتى وأقمنى من صَرْعتى فإنى لا أعود أبدا . فأقامه الله من صرعته فرجع إلى أشد مما كان ، فبينا هو مار فى بعض أيامه إذ نظر إليه الحسن يضرِب بأردَانه وينظر فى أعطافه فقال : يافتى خَفِ الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . فقال : إليك عنى يا أبا سعيد فإنا أحداث نريد أن نذوق[3] الدنيا . فقال الحسن : كأنكم بالموت قد نزل بساحة هذا الشاب فرضّه رضا . فبينما الحسن فى مجلسه إذ أقبل أخو الفتى إليه فقال : يا أبا سعيد إن الفتى الذى كنت تعظِه هو أخى ، وقد وقع فى سكرات الموت وغُصَصه . فقال الحسن لأصحابه : قوموا ننظر ما فعل الله به . فلما أقبل الحسَن قرع البابَ فقالت أمه من بالباب ؟ فقال : الحسن . فقالت : يا أبا سعيد مثلك يأتى إلى مثل ولدى ! أى شىء تعمل على باب ولدى وولدى لم يترك ذنبا إلا ركِبه ولا محرّماً إلا انتهكه . فقال : استأذنى لنا عليه فإن ربنا سبحانه يُقيل العثرات . فقالت : يا بنى هذا الحسن بالباب فقال : يا أماه أتُرى جاءنى الحسن عائدا أو موبّخا ؟ افتحى له الباب . ففتحت له فدخل فلما نظر إليه يعالج سكرات الموت قال له : يا فتى استقِل الله يُقلْك . فقال : يا أبا سعيد إنه لا يفعل . قال : أو تصف الله بالبخل

---

(١) الفرط : السابق . (٢) فى الأصل : يرضمنى . محرفة . (٣) ب : ندق . محرفة .

وهو الجواد الكريم ! فقال : ياأبا سعيد إنى عصيته فاستقلْتُه فأقالنى ، فعصيته فأمْرضنى، فاستقلته فأقالنى ، وهذه الخامسة ، فلما استقلته نادى منادٍ من زاوية البيت ، أسمع الصوت ولا أرى الشخص : لا لَبَّيك ولا سعديك قد جرَّبناك مِرارا فوجدناك غَدَّاراً . فقال الحسن لأصحابه : قوموا بنا . فلما أن خرج الحسن قال لأمه : هذا الحسن قد أيَّسنى من سيدى وسيدى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، يا أمّاه إذا رأيتينى وقد تحول السواد بياضا ورشح للموت جبينى وغارت العينان واصفرَّ البنَان وانقطع اللسان ، فخذى المِدْرعة من تحت رأسى وضعى خدِّى على الثرى واستوهبينى من سيدى ، فإن سيدى يقبل التوبة. فلما نظرت إليه يعالج سكرات الموت أخذت المِدْرعة من تحت رأسه ووضعت خده على التراب وشدت وسطها بحبل من ليف ونشرت شعرها ورفعت رأسها نحو السماء ثم نادت: إلهى وسيدى أسألك بالرحمة التى رحمت بها يعقوبَ فجمعت بينه وبين ولده ، وأسألك بالرحمة التى رحمت بها أيوب فكشفت عنه البلاء إلا ما رحمتَ ولدى ووهبت لى ذَنبه. وسمع الحسن هاتفا يقول : إن الله تعالى قد رَحِم الفتى وهو من أهل الجنة . فحضر الحسن وجميع أصحابه جنازته .

***

يا أهل الذنوب لا يغرنّكم الإمهالُ فإنما هى أيام ولَيَال ، رُبَّ مشغول بلذّاته عن ذكر تخريب ذاتِه ، يلهو بأمله عن تجويد عمله ، يتقلب فى أغراضه ناسياً قُرْب إمراضه ، بغتَه الفاجع بباسِه فأخذه عن أهله وجُلّاسه .

سجع على قوله تعالى

﴿ ذَرْهُم يأكلوا ويتمتعوا ويُلْهِهِمُ الأَمَلُ ﴾

كم مأخوذٍ على الزلل خُتم له بسوء العمل ، نزل به الموت ، فياهَوْلَ ما نزل ، فأسكنه القبرَ فكأن لم يزل ، وهذا مصير الغافل لو غفل « ذَرْهُم يأكلوا ويتمتعوا ويُلْهِهِمُ الأملُ » .

كم نائم على فراش التقصير ، مغتر بعمرٍ قصير ، صاح به فلم يبال النذير ، فاستلبه الخطأ والتبذير ، فلما أحسَّ الباس ثارت من نيران الندم شُعَل « ذَرْهُم يأكلوا ويَتَمَتَّعُوا و يُلْهِهُمُ الأمل » .

كم مستحْلٍ شرابَ الهوى شرب من كأسه حتى ارتوى ، بَيْنا هو على جادة إعراضه هوَى ، فما نفعه عند الموت ما حوَى ، ولا ما شرب ولا ما أكل « ذَرْهم يأكلوا ويتمتَّعُوا و يُلْهِهمُ الأمل » .

لا تَغْتَرِرْ بنعيم القوم ، فإن غداً بعد اليوم ، دَعْهم فما يؤثر فيهم اللَّوم ، وهل ينفع التحريك ميتاً وهل « ذَرْهم يأكلوا ويتمتَّعُوا و يُلْهِهم الأمل » .

يجمعون الحطام بكسب الحرام ، ويتفكرون فى نَصْب شَرَكِ الآثام والناسُ نيام ، يرقدون فى الليل وفِكْرهم فى الويل طويل لا ينام ، والأقدام فيما لا يحل إقدام تسعى فى هواها سعى الرَّمَل « ذَرْهم يأكلوا ويَتَمَتَّعُوا و يُلْهِهِمُ الأمل » .

ما عندهم خبر من الساعة ، والعمر يمضى ساعة فساعة ، خسروا فى أشرف تجارة وأغلى بضاعة ، يتثاقلون تثاقل عُطارِد فى الطاعة ، فإذا لاح الذنب فزُحَل « ذَرْهم يأكلوا ويتمتَّعُوا و يُلْهِهمُ الأمل » .

كيف بكف يعيا ويعيث ، كيف نحذِّرها شر الخطايا وكلٌّ فعلها خبيث .

كيف نخوفها قليل الذنب ولسان الحال يستغيث ، أنا الغَريق فما خوفى من البَلَل « ذَرْهم يأكلوا ويَتَمَتَّعوا و يُلْهِهم الأمل » .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

المجلس الثامن عشر
فى قصة بلعام

الحمد لله الذى إذا لطف أعان ، وإذا عطف صان ، أكرمَ من شاء كما شاء وأهان ، أخرج الخليل من آزر ومن نوح كنعان ، يميت ويحيى ويغنى ويُشقى كل يوم هو فى شان ، يزَيّن بموهبة العلم فإذا لم يُعْمل به شان ، خلع خلعة العلم على بلعام فلم يَصُنها ومال بهواه إلى ما عنه يُنهى « وَاْتلُ عليهم نبأَ الذى آتيناهُ آياتِنَا فانْسَلَخَ منها فأتْبَعَهُ الشيطان » .

أحمده فى السرِّ والإعلان ، وأصلى على رسوله محمد الذى انشقّ ليلة ولادته الإيوان، وعلى أبى بكر أوّل مَن جمع القرآن ، وعلى الفاروق الموصوف بالعدل وكذلك كان ، وعلى التقىّ الحِيىّ عثمان ، وعلى علىّ سيد العلماء والشجعان ، وعلى عمه العباس المستسقى به فسال التهتان .

قال الله تعالى : « واْتلُ عليهم نبأَ الذى آتيناه آياتنا فانْسَلخ منها »(١) .

فى المشار إليه ستة أقوال : أحدها : أنه أُمَيَّة بن أبى الصَّلْت . قاله عبد الله بن عمرو ابن العاص ، وسعيد بن المسيّب ، وزيد بن أسلم ، وكان قد قرأ الكتب وعَلِم أنه سيأتى رسولٌ ، ورجا أن يكون هو ، فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حسَده وكفر .

والثانى : أبو عامر الراهب . قال ابن عباس : الأنصار تقول : إنه أبو عامر .

والثالث : أنه كان رجلٌ من بنى إسرائيل ، أُعطى ثلاث دعوات مستجابات ، وكانت له امرأة دَميمة ، فقالت له : ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فدعا لها فرغبت عن زوجها ، فدعا عليها أن يجعلها كلبةً نبّاحة ، فجاء بنوها وقالوا : لا صبرَ لنا على تَعْيير الناس لنا بأمنا ، فدعا أن تكون كما كانت ، فذهبت الثلاث دعوات . رواه عكرمة عن ابن عباس .

---

(١) سورة الأعراف .

والرابع : أنه كل مَن انسلخ من الحق بعد أن أُعطيه من اليهود والنصارى والحنفاء . قاله عكرمة .

والخامس : أنه المنافق . قاله الحسن .

والسادس : أنه بِلْعام ، قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة والسُّدى وهو المشهور والأثبَت .

وفى الآيات التى أوتيها أربعة أقوال : أحدها اسم الله الأعظم . رواه ابن أبى طلحة عن ابن عباس ، وبه قال ابن جرير . والثانى : أنها كتاب من كتب الله . روى عن ابن عباس . والثالث : أنها حُجَج التوحيد وفَهْم أدلته . والرابع : أنها العلم بكتب الله تعالى .

وكان من خبر بلعام : أن موسى عليه السلام غزا البلد الذى هو فيه وكانوا كفاراً ، وكان هو مجابَ الدعوة ، فأتاه قومه فقالوا : هذا موسى قد جاء يُخْرجنا من بلادنا ويقتلنا ويُحلّها بنى إسرائيل ، ونحن قومك فادع الله عليهم . فقال : ويلكم نبى الله ومعه الملائكة والمؤمنون ، فكيف أدعو عليهم ؟ فقالوا : ما لنا من مترك . فلم يزالوا يرقّقونه ويتضرعون إليه حتى افتتن ، فركب حمارة له متوجهاً إلى عسكر موسى ، فما سار إلا القليل حتى ربضت دابته به فنزل عنها فقرّبها ، فقالت : ويحك يابلعام أين تذهب ! ألا ترى الملائكة أمامى تردنى عن وجهى هذا ، أتذهب إلى نبى الله والمؤمنين تدعو عليهم ؟ فلم ينزع عنها وضربها ، فانطلقت به حتى إذا أشرف على عسكر موسى جعل لا يدعو عليهم بشىء إلا صرف الله به لسانه إلى بنى إسرائيل ، فقال له قومه : إنما تدعو علينا . فقال : هذا شىء لا أملكه . إلا أنه دعا ألّا يدخل موسى المدينة فوقعوا فى التِّيه ، فقال موسى : اللهم كما سمعت دعاءه علىّ فاسمع دعائى عليه ، فدعا اللهَ أن ينزع منه الاسم الأعظم ، فنُزِع منه واندلع لسانه فوقع على صدره . فقال لقومه : قد ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة ، فلم يبق إلا المكر والحيلة ، جمّلوا النساء وأعطوهن السلع

وأرسلوهن فى العسكر يبعنها ، ومُروهن أن لا تمنع امرأة نفسها ممن أرادها ، فإنه إن زنى رجلٌ منهم كُفِيتموهم ! ففعلوا ذلك فوقع رجل منهم على امرأة فأرسل الله تعالى الطاعون على بنى إسرائيل حينئذ ، فهلك منهم سبعون ألفاً فى ساعة واحدة !

وروى السُّدى عن أشياخه أن بلعام قال لقومه : لا تَرْهبوا بنى إسرائيل فإنكم إذا خرجتم لقتالهم دعوتُ عليهم . وكان رغَبه فيما عندهم من الدنيا . وقال غيره : خوَّفه مَلِكهم فنحت له خشبة ليَصْلبه عليها ، فدعا عليهم .

وقوله : « فانسلخ منها » أى خرج من العلم بها « فأتبعه الشيطانُ » أى أدركه « فكان من الغاوين » يعنى الضالين .

قوله تعالى : « ولو شئنا لرفعناه بها » فى هاء الكناية قولان : أحدهما أنها تعود إلى الإنسان المذكور . قاله الجمهور . والثانى : إلى الكفر بالآيات ، فيكون المعنى : ولو شئنا لرفعنا عنه الكفر بآياتنا . روى عن مجاهد . « ولكنه أَخْلَد إلى الأَرْض » أى ركن إلى الدنيا وسكن « واتبع هواه » أى انقاد إلى ما دعاه إليه الهوى .

وهذه الآية من أشدّ الآيات على العلماء إذا مالوا عن العلم إلى الهوى .

« فمثلُه كمَثَل الكَلْب إن تحْمل عليه يَلْهثْ أو تتركْه يلهث» المعنى : أن الكافر إن زجرته لم ينزجر ، وإن تركته لم يهتد ، كالكلب إن طُرِد كان لاهثاً وإن ترك كان لاهثاً .

قال ابن قتيبة : كل لاهث إنما يكون من إعياء أو عطش إلا الكلب ، فإنه يلهث فى حال راحته وحال كَلاله ؛ وفى حال الرى وحال العطش .

قال المفسرون : زجر فى منامه عن الدعاء على بنى إسرائيل فلم ينزجر ، وخاطبه أتانه فلم ينته .

***

وهذا رجل لم ينفعه علمه بل ضَرّه . قال سفيان بن عُيَيْنة : العلم يضرّك إذا لم ينفعك . وقال منصور بن زاذان : نبئت أن بعض من يُلقى فى النار يتأذى أهل النار بريحه فيقال له : ويحك ما كنت تعمل؟ أما يكفينا ما نحن فيه من الشر حتى ابتلينا بك وبنتن ريحك ! فيقول : كنت عالماً ولم أنتفع بعلمى .

وكتب حكيم إلى حكيم : يا أخى قد أوتيتَ عِلْما فلا تدنّس علمك بظُلْمة الذنوب فتبقى فى الظلمة يوم يسعى أهلُ العلم بنور علمهم !

وكان عيسى بن مريم يقول : يا معاشر العلماء مثلكم مثل الدِّفْلَى(١) يعجب وردُه من نظر إليه ويقتل طعمه من أكله ، كلامكم دواء يبرئ الداء وأعمالكم داء لا يقبل الدواء ، والحكمة تخرج من أفواهكم وليس بينها وبين آذانكم إلا أربع أصابع ثم لا تعيها قلوبكم ! معشر العلماء كيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به ولا يطلبه ليعمل به ، العلم فوق رءوسكم والعمل تحت أقدامكم ، فلا أحرار كِرام ولا عبيد أتقياء .

الكلام على البسمة

جِدُّوا فإن الأمر جِدّ ... وله أعِدُّوا واستعِدوا
لا يستقال اليومُ إن ... وَلَّى ولا للأمر رَدُّ
لا تَغفُلُنّ فإنما ... آجالكم نَفَس يُعَدُّ
وحوادث الدنيا ترو ... ح عليكم طَوْرًا وتَغْدو
أين الأولى كنا نرى ... ماتوا ونحنُ نموت بَعْدُ
مالى كأن مناى يُبْسَط ... لى وآمالى تُمَدُّ
ما غفلتى عن يوم يُجْـ ... ـمع شِرّتى كفنٌ ولَحْدُ
ضيعت ما لا بدلى ... منه بمالى منه بُدُّ
ما نحن فيه متاع أيـ ... ـام يُعار ويُسْتردُّ
إن كان لا يغنيك ما ... يكفى فما يغنيك جَدُّ
هون عليك فليس كـ ... ـل الناسِ يُعطَى ما يودّ
وتوقَّ نفسك فى هوا ... ك فإنها لك فيه ضِدّ
من كان مُتّبعا هوا ... ه فإنه لهواه عَبْدُ

***

---

(١) الدفلى : نبت مر قتال زهره كالورد الأحمر .

إخوانى : متى أصبح الهوى أميرا أمسَى العقلُ أسيرا ، التقوى دِرع والدرع مجموع حلَق ، فغضٌّ البصر حلْقة ، وحَبْس اللسان حَلْقــة ، وعلى هذا سائر ما يُتوقّى ، فإياك أن تترك خَلَلا فى دِرعك فإن الرامى يَقْصد الخلَل ، متى فسَحْت لنفسك فى تفريط وإن قَلّ انخرق حِرْزُ احترازك !

كان بعض المتعبدين يمشى فى وسط الوحل و يَتّقيه ويشمّر عن ساقيه ، إلى أن زلقت رِجْله ، فجعل يمشى فى وسط الوحل ويبكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : هذا مثَل العبد لايزال يتوقى الذنوب حتى يقع فى ذنب وذنبين فعندها يخوض الذنوب خوضا .

قيل لعُبَيْدة بنت أبى كلاب : ما تشتهين ؟ فقالت : الموت . فقيل : ولم ؟ قالت : لأنى والله فى كل يوم أُصبح أخشى أن أجنِى على نفسى جنايةً يكون فيها عَطبى أيامَ الآخرة .

يا مَستورا على الذنب انظر فى سِتْر من أنت ، لو عرفتنى أعرضتَ عن غيرى ، لو أحببتنى أبْغَضت ما سِواى ، لو لاحظت لُطْفى لتوكلتَ ضرورةً علىّ ، خاصمتُ عنك قبلَ وجودك « إنّى أعْلَمُ ما لا تَعلَمُون[1] » واستكثرتُ قليل عملك : « والذاكرين اللهَ كثيراً والذاكراتِ[2] » واعتذرتُ لك فى زَلَلك : « فدَلّاهما بغُرورٍ[3] » وغطّيت قبيحَ فعلك « يا أيها الذين آمنوا تُوبوا إلى اللهِ[4] » ولقّنْتك عُذْرك عند زللك : « ما غَرّك بربِّك الكريم[5] » وأربحتك معاملتك : « فله عَشْرُ أمثالِها[6] » ، من خاصم عنك وأنت مفقود لا يُسْلمك وأنت موجود ، فاعرف عليك حقّى ولا تكن من شِرار خَلْقى ، فكم أرى زَلّةً فأحْلَمَ وأُبقِى .

يا قائما فى مقام الجهالة قد رسَخ ، يا متكبرا على إخوانه قد علاَ وشَمَخ ، يا خارجاً عن الحد شُغْلا باللهو والمطبخ ، يا من فى بصره كَمَه وفى سمعه صَمَخ ، يا طامعا فى السلامة مع ترك الاستقامة ، ألقيتَ البذر فى السبخ ، متى ينقى قلبك من هذا الدرَن والوسخ ، متى تتصور نفخة إسرافيل فى الصور إذا نفخ .

---

(١) سورة البقرة ٣٠ .
(٢) سورة الأحزاب ٣٥ .
(٣) سورة الأعراف ٢٢ .
(٤) سورة التحريم ٨ .
(٥) سورة الانفطار ٦ .
(٦) سورة الأنعام ١٦٠ .

ياذا الأمل الطويل العريض، أمَا أنذرتك الشَّعَرات البيض، أمَا الموتُ بَرْقٌ والشَّيْب وَميض ، عجبا لتأميل الكسير المهيض ، لقد فات الفوز قِدْح المغيض ، يا دائم الخطأ وكم عُلِّم وريض ، يا معجبا بالسلامة وهو فى الحقيقة مريض ، لا اللسان محفوظ ولا الجفن غَضِيض ، لا بالنثر ترجع إلينا ولا بالقريض ، لقد نزلت بك المعاصى إلى أسفل حضيض.

ليت شِعْرى بعدَ الموت إلى أين تذهب ، لقد تعمَّى والله عليك[1] المذهب ، لا بد مرةً من كأس الحِمَام تشرب ، ولهذه الأجساد المبنيّة أن تخرب ، ولولا فراخ الحياة ما كانت فِخَاخ الموت تُنْصَب .

ما لِى بما بَعْد الردَى مُخْبِره ... قد أَدْمَت الأنفَ هذه البُرَه[2]
الليـــل والإصباح واليقظ ... والإبراد والمنزل والمَقْــبَرة
عِشْنا وجسر الموت قُدّامنا ... فشمِّروا الآن لكى نعبُره
عيس تبارى بالفلا خُدْلُها[3] ... نُجِدُّهَـــا يارب بالمغفرة
أَقْفَر بالمطعم ركّابُهــا ... والقـــوم بالدوِّيه المُقْفِرة
كم جاوزوا من حِنْدس مظلمٍ ... ليبلغوا رحمتـــه المُسْفِره

الكلام على قوله تعالى

﴿ فاعتبروا يا أُولى الأبصار ﴾

الاعتبار : النظر فى الأمور ليُعْرَف بها شيء آخر من غير[4] جنسها . والأبصار : العقول . والمعنى : تدَبَّروا .

إخوانى : الدنيا دار عِبْرة ، ماوقعت فيها حَبْره إلاوردِ فتها عَبْرة ، أين من عاشرناه كثيرا وألِفْنا ، أين من مِلْنا إليــه [بالوداد][5] وانعطفنا ، أين من ذكرناه بالمحاسن ووصَفْنا ، ما نعرفهم لو عنهم كشفنا ، ما ينطقون لو سألناهم وألْحفنا ، وستصير كما صاروا فليتنا أنْصفنا ، كم أغمضنا من أحبابنا على كُرْههم جَفْنا ، كم ذكَّرتنا[6] مصارعُ من

(١) ت : علينا . (٢) البرة : حلقة تجعل فى أنف البعير . (٣) العيس : الإبل البيض يخالط بياضها شقرة . والخدل : العظام الممتلئة . (٤) ت : من جنسها . (٥) من ت .
(٦) ت : أذكرتنا .

فنى من يفنى ، كم عزيزٍ أحببنا دفنّاه وانصرفنا ، كم مؤانس أضجعناه فى اللحد وما وقفنا ، كم كريم علينا إذا جُزْنا عليه انحرفنا ، مالنا نتحقّق الحق فإذا أيقنّا صدَفْنا ، أما ضرّ أهلَه التسويف وها نحن قد سوّفْنا ، أمَا التراب مَصِيرنا فلماذا منه أنِفْنا ، إلام تغُرّنا السلامة وكأنْ قد تَلِفْنا .

أين حبيبنا الذى كان وانتقل ، أمَا غَمَسه التلفُ فى بحره ومَقَل[١] ، أين الكثير المال الطويل الأمل ، أمَا خلاَ فى لَحْده وحدَه بالعمل ، أين من جرّ ذيلَ الخيلاء غافلاً ورفَل ، أما سافرعنّا وإلى الآن ما قفل ، أين من تنعّم فى قصره وفى قبره قد نزل ، فكأنه فى الدار ما كان وفى اللحد لم يزل ، أين الجبابرة الأكاسرة العتاة الاوَل ، ملَكَ أموالهم سِواهم والدنيا دُوَل .

خلا والله منهم النادِى الرحيب ، ولم ينفعهم طول البكاء والنحيب ، وعاينوا من هَوْل المطّلع كلّ عجيب ، وسئل عاصيهم فلم يدر كيف يجيب .

مضى والله الكلُّ على منهاج ، وساروا بين غَوارب وأحداج[٢] ، ورحلوا إلى البِلَى أفواجا بعد أفواج . ولقوا لَغَب الطريق على تعب الإدلاج ، وتوسطوا بَحْرَ الجزاء المدْلهَمّ العَجّاج ، وظنوا سلامتهم فهاجت أمواجٌ بعد أمواج ، ونُشرت صحائفهم فإذا بها كالليل الداج ، وباشر واخشِن التراب بعد لِين الديباج ، وتعوّضوا لحداً غامرا عن عامر الأبراج ، وحُلوا إذ خلَوا فيه حِلْية المدَر بعد التاج ، فمحاَ محاسنَهم بعد بهاء الإبهاج[٣] ، وسئلوا عما ثَمّ فتمّ اللسان اللَّجْلاَج ، وعادت نساؤهم أيامَى بعد الأزواج :

إنى سألت التراب مافعلتْ ... بعدُ وجوهٌ فيك منعفره
فأجابنى صيّرتُ ريحهم ... يؤذيك بعدَ روائحِ عَطِره
وأكلتُ أجساداً منعمّةً ... كان النعيم يهزّها نَضِره

(١) مقل : ألقى . يقال : مقل القلة : ألقاها فى الإناء وصبها عليها ما يغمرها من الماء .
(٢) الغوارب : جمع غارب وهو مابين السنام إلى الكاهل . والأحداج : مراكب للنساء مفردها حدج ، كالمحفة .
(٣) الأصل : ابهاء ابهاج . محرفة .

لم يَبْق غيرُ جماجِمٍ عَرِيتْ بيضٍ تَلُوح وأعظمٍ نَخِره

تذكَّر يا من جنَى ركوب الجنازة، وتصوَّر يامن ما وفَى[١] طولَ المفازة، ودِّع الدنيا مودِّعا للحلاوة والمزازة، وارقُمْ مِنْ قلْبك ذِكرَ الموت على جزازة[٢]، وخلِّص نفسك من غُلّ الغِلّ وحَزّ الحزازة، وذكِّرها يوم تُمسِى فى التراب منحازه.

***

سَلْ بغمْدانَ أين ساكنه سَيْفٌ وقل لنُعْمانَ أين السَّديرُ[٣]

أيهــا الظاعنون لا زال لِلْعِيـ س رَواحٌ عليــكم وبُكورُ

قد رأينا ديارَ كمْ وعليهـــا أثَرٌ من عَفائِكم مهجورُ

وسألْنا أطلالهـــا فأجابت ومن الصمتِ واعظٌ ونذيرُ

بانَ ذُلّ الأسَى عليهـــا فلا غيثِ بكاء وللنسيم زَفِـيرُ

ذكَّرَتْنا عهودَكم بعـــدما طا لت ليالٍ من بَعدِها وشهورُ

عجـــباً كيف لم نمت فى معا نيها أسًى ما القلوبُ إلا صخورُ

يا ديارَ الأحباب غيّرك الده رُ وكانت بعــدَ الأمورِ أمورُ

أخبرنا سعيد بن أحمد بن البنّاء، أنبأنا عاصم بن الحسن، أنبأنا على بن محمد المعدِّل، أنبأنا أبو على البرذعى، حدثنا أبو بكر القرشى، حدثنى محمد بن الحسين، قال حدثنى الصلت بن حكيم، قال حدثنى محبوب العابد، قال: مررت بدار من دور الكوفة فسمعت جاريةً تغنى من داخل الدار:

ألا يا دار لا يَدْخُلكِ حُزنٌ ولا يَغْدر بصاحبك الزمانُ

قال: ثم مررت بالدار فإذا الباب مسدود وقد علته وحشة، فقلت ما شأنهم؟ قالوا: مات سيدهم، مات رب الدار، فقلت إنى سمعت من هاهنا صوت جارية تقول:

ألا يا دار لا يَدْخلك حزنٌ. فقالت امرأة من الدار وبكت: يا عبد الله إن الله يغيّر

---

(١) ت: يامن سار (٢) الجزازة: القطعة. (٣) غمدان: قبة سيف بن ذى يزن، وقيل قصر معروف باليمن. والسدير قصر النعمان بن المنذر.

ولا يتغير ، والموت غاية كل مخلوق . فرجعت من عندهم[1] باكيا [حزينا][2] .

قال القرشي : وحدّثنا أبو سعيد المدائني قال : حدثنا أحمد بن محمد المهدى ، قال حدثنى رجل من عبد قيس ، قال : دخلت ابنةُ النعمان بن المنذر على معاوية فقال لها : أخبريني عن حالكم كيف كان ؟ قالت : أطيل أم أُقصر . قال : لا بل أقصرى . قالت : أمسينا مساء وليس فى العرب أحد إلا وهو يَرْغب إلينا ويرهب منا ، فأصبحنا صباحاً وليس فى العرب أحدٌ إلا ونحن نرغب إليه ونرهب منه . ثم قالت :

بَيْنا نَسُوس الناسَ والأمرُ أمْرُنا ... إذا نحن فيهم[3] سُوقةٌ ليس نُنْصف

فأفٍّ لدُنْيا لا يَدُوم نعيمها ... تَقلَّبُ تاراتٍ بنا وتصَرَّفُ

قال القرشي : وحدثنى محمد بن الحسين ، قال حدثنى دواد بن المحبِّر ، قال حدثنا كثير ابن سعيد السلمى ، عن أبيه قال : أعْرَس رجلٌ من الحى على ابنة عمه فاتخذوا لذلك لهوا ، وكانت منازلهم إلى جانب المقابر ، فبيناهم فى لهوهم ذلك ليلاً إذ سمعوا صوتا أفزعهم فأصغوا إليه فإذا بهاتف يهتف من بين القبور :

ياأهل لذةِ دنيا لا تَدُوم لهم ... إن المنايا تُبيد اللهوَ واللعبا

كم مَن رأيناه مسرورا بلذته ... أمسى فريدا من الأهلين مُغْترِبا

قال : فوالله مالبثنا بعد ذلك إلا أياما حتى مات الفتى المتزوج .

قال القرشي : وقال علىّ بن محمد القرشي ، عن المنهال بن عبد الملك ، قال : حبس هشامُ بن عبد الملك عياضَ بن مُسلم ، وكان كاتباً للوليد بن يزيد وضربه وألبسه المُسوح ، فلما ثَقل هشام أرسل عياض إلى الخُزَّان : احفظوا ما فى أيديكم . فمات هشام وخرج عياض ، فختم الأبواب والخزائن ومنع أن يكفَّن هشام من الخزائن واستعاروا له قمقماً فأسخنوا فيه الماء ، فقال الناس : إن فى هذا لَعبرة لمن اعتبر !

قال القرشي : وقال الحسن بن عثمان : سمعت الوليد يقول عن عبد الرحمن بن يزيد

---

(١) ت : من عندها . (٢) من ت . (٣) ت : فيها .

ابن جابر ، قال : كان عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية خِلاً لعبد الملك بن مروان ، فلما مات عبد الملك وتصدَّع الناسُ عن قبره وقف عليه فقال له : أنت عبدُ الملك الذى كنت تَعِدنى فأرجوك ، وتوعدنى فأخافك ، وليس معك من مُلْكك غير ثوبيك ، وليس لك منه غير أربع أذرعٍ فى عَرض ذراعين !

ثم انكفأ إلى أهله واجتهد فى العبادة حتى صار كأنه شَنٌّ[(١)] ، فدخل عليه بعضُ أهله فعاتبه فى نفسه وإضراره بها ، فقال للقائل : أسألك عن شىء تَصْدُقنى عنه ؟ قال : نعم . قال : أخبرنى عن حالك التى أنت عليها أترضاها للموت ؟ قال : اللهم لا . قال : فهل عزمتَ على انتقالٍ منها إلى غيرها ؟ قال : ما أنصحت رأيى فى ذلك . قال : أفتأمن أن يأتيك الموت على حالك التى أنت عليها ؟ قال : اللهم لا . قال : حالٌ ما أقام عليها عاقل . ثم انكفأ إلى مُصلّاه .

وَرَدَ المهالكَ قبلَنا أممٌ فلَنَتْبعَنَّ معاشراً ورَدُوا
حَمَلتهُم جُرْدٌ مُقرِّبةٌ[(٢)] ثم انطوَوْا بالموتِ وانجردُوا

أخبرنا محمد بن أبى منصور ، أنبأنا المبارك بن عبد الجبار ، أنبأنا أبو الحسين محمد ابن عبد الواحد ، أنبأنا محمد بن عبد الرحيم المازنى ، حدثنى أبو القاسم الكوكبى ، حدثنا أبو بكر الضرير ، حدثنى غسان بن عمر ، عن محمد بن عبد الرحمن الهاشمى ، قال: دخلت على أمى فى يوم أضحى وعندها امرأة بَرْزَة فى أثواب رثة . فقالت لى : أتعرفُ هذه ؟ قلت : لا . قالت : هذه عبّادة أم جعفر بن يحيى بن خالد . فسلّمت عليها ورحّبتُ بها ، وقلتُ : ياخالة ، حدثينى ببعض أمركم . قالت : أذكر جملةً فيها اعتبار وموعظة لمن فكّر ، هجم علىَّ مثل هذا العيد وعلى رأسى أربعمائة وصيفة وأنا أزعم أن ابنى جعفر عاقٌّ لى وقد دفع إلىَّ خمسمائة دينار ، وقال أنفقى هذه فى عيدكم ، وأنا الآن قد أتيتكم والذى يُقنعنى جِلد شاتين أجعل أحدهما شعاراً والآخر دثاراً .

***

---

(١) الشن : القربة البالية .   (٢) الجرد : الخيل المسرعة .

أىّ مطمئنّ لم يُزْعَج ، أىّ قاطن لم يُخرج ، إخوانى قد عُرف المنهج ، زال الشكُّ والحق أبْلَج ، إخوانى فرَسُ الرحيل مُسْرَج ، وإلى بَوادى القبور المَخرَج ، والنعشُ المركوبُ بعد الهودج ، والعرَق يكون صِرْفاً لا يُمزَج ، ما هتف الموت بمقيم إلا أدْلج ، ولا استدعى نُطْقَ فصيح إلا لَجْلَج . إخوانى : ما جرى على الإخوان[1] أنموذج .

ركَنوا إلى الدنيا الدنيّه وتبوّأوا الرتَب السَّنِيّه
حتى إذا اغترّوا بهـا صَرَعتْهُمُ أيدِى المنِيّه

سلوا عن الجيران المنازل ، وقولوا لها أين النازل ، لا والله ما تجيب السائل ، بلى إن البِلى ينطق بالبَلابل . إخوانى : الدنيا ظل زائل وحالٌ حائل ، وركن مائل ورفيق خاذل ، ومسئول باخل ، وغولٌ غائل ، وسمٌّ قاتل ، كم تَعِد الدينا وتماطل ، كل وعودها غرور باطل . والله ما فرح بها عاقل ، مَكْرُها لا يمرُّ على لقمان بل على باقل[2] .

خليلىَ كم ميِّت قد حضَرْته ولـكننى لم أنتفع بحضورى
وكم من خطوبٍ قد طوتْنِى كثيرة وكم من أُمورٍ قد جرت وأمور
ومَن لم يزِدْه الدهرُ ما عاش عِبْرَةً فذاك الذى لا يستنيرُ بنورِ

سجع على قوله تعالى
﴿ فاعتبروا يا أُولى الأبصار ﴾

كم من ظالمٍ تعدّى وجار ، فما راعى الأهل ولا الجار ، بَيْنَا هو يعقد عقْد الإصرار حَلّ به الموت فحَلّ من حُلاته الأزرار « فاعتبروا يا أُولى الأبصار » .

ما صحبه سوى الـكفن إلى بيت البِلى والعفن ، لو رأيته وقد حلّت به المِحَن ، وشِين ذلك الوجه الحسن ، فلا تسأل كيف صار « فاعتبروا يا أُولِي الأبْصَار » .

---

(١) ت : على الأقران . (٢) يريد أن مكر الدنيا لا يخدع حكيما مثل لقمان ، وإنمـا يخدع أحمق مثل باقل ، وهو ضرب به المثل فى العى وعدم الإفصاح .

سال فى اللحد صَدِيده ، و بَلِىَ فى القبر جَدِيده ، وهجَره نَسِيبه ووَدِيده ، وتفرق حشَمه وعبيده والأنصار « فاعتبروا ياأُولى الأبصار » .

أين مجالسه العالية ، أين عيشته الصافية ، أين لَذَّاته الحالية ، كم كم تَسْفى على قبره سافِية ، ذهبت العَيْن وأُخفيت الآثار « فاعتبروا ياأولى الأبصار » .

تقطَّعت به جميعُ الأسباب ، وهجَره القرناء والأتراب ، وصار فراشه الجندل والتراب ، وربما فتح له فى اللحد باب النار « فاعتبروا يا أولى الأبصار » .

خلا والله بما كان صَنع ، واحتوشه الندمُ وما نفع ، وتمنَّى الخلَاص وهيهات قد وقع ، وخلَّاه الخليلُ المصافِى وانقطع ، واشتغل الأهل بما كان جمع ، وتملك الضِدُّ المالَ والدار « فاعتبروا ياأولى الأبصار » .

نادمٌ بلا شك ولا خفَا ، باكٍ على مازَلَّ وهفَا ، يودّ أنّ صافِى اللذات ماصفا ، وعلم أنه كان يَبْنى على شَفا جُرُف هار « فاعتبروا ياأولى الأبصار » .

قارنَه عمله من ساعة الحَيْن ، فهو يتمنى القرار وهيهات أين ، ويقول ياليت بينى وبينك بُعْد المَشْرِقين ، فهو على فراش الوحدة وحدَه والعمل ثانى اثنين ، ولكن لا فى الغار « فاعتبروا ياأُولى الأبصار » .

وهذه وإن كانت حالة من غدَا ، فلكل منكم مثلُها غداً ، فانتبهوا من رقادكم قبل الردَى «أيَحسَب الإنسان أن يُترك سُدًى » إنما هى جنة أو نار «فاعتبروا ياأولى الأبصار» والحمد لله وحده .

المجلس التاسع عشر
فى قصة داود عليـــه السلام

الحمد لله رب الأرباب ومسبّب الأسباب ومُنْزِل الكتاب ، حفِظ الأرض بالجبال من الاضطراب[1] ، وقهر الجبَّارين وأذلَّ الصعاب ، وسمع خفىَّ النُّطْق ومهموسَ الخطاب ، وأبصر فلم يستر نظَره حِجَاب ، أنزل القرآن يحث فيه على اكتساب الثواب ، وزجَر عن أسباب العقاب « كتابٌ أنزلناه إليك مبارك ليدَّبرُوا آياته وليتذكر أولوا الألباب » ابتلى المصطفَيْن بالذنوب ليُعلِم أنه توَّاب ، أمَا سمعت بزَلّة آدم وما جرى من عتاب « وهل أتاك نَبَأُ الخَصْم إذ تسوَّرُوا المحراب » .

أحمده على رفع الشك والارتياب ، وأشكره على ستر الخطايا والعاب ، وأُقِرّ له بالتوحيد إقرارا نافعا يوم الحساب ، وأعترف لنبيه محمد أنه لُبَاب اللباب ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبى بكر خير الأصحاب ، وعلى عمر الذى إذا ذكر فى مجلس طاب ، وعلى عثمان المقتول ظلما وما تعدى الصواب ، وعلى علىٍّ البدر يوم بَدْر والصدر يوم الأحزاب ، وعلى عمه العباس الذى نَسَبه أشرف الأنساب .

اللهم يامن ذلَّت له جميعُ الرقاب وجرَتْ بأمره عَزالى السحاب ، احفظنا فى الحال والمآب ، وألهمنا التزود قبل حلول التراب ، وارزقنا الاعتبار بسالفى الأتراب ، وأرشدنا عند السؤال إلى صحيح الجواب ، وهَبْ لشيبنا معاصى الشباب ، وارزقنى والحاضرين عمارة القلوب الخَراب ، برحمتك يا كريم ياوهاب .

***

قال الله عز وجل : « وهل أتاك نبأُ الخَصْم إذا تسوَّرُوا المحراب » المعنى : قد أتاك فاستمع له نَقْصُصْه عليك .

والخصم يصلح للواحد والاثنين والجماعة والذَّكر والأنثى و « تسوَّروا » يدل

---

(١) ب : من الاضراب .

على علوّ والمحراب هاهنا كالغرفة[1] . قال الشاعر .

رَبَّةُ محراب إذا جئتها   لم ألقها أو أرتقى سُلَّمَا[2]

« إذ دخلوا على داود » وهو داود بن إيشا بن عويد من نسل يهوذا بن يعقوب .

وكان مبدأ أمره أن الله تعالى لما بعث طالوت ملكا خرج من بنى إسرائيل معه ثمانون ألفا لقتال جالوت ، فقالوا لا طاقة لنا اليومَ بجالوت وجنوده ، فلم يثبت معه غير ثلاثمائة وثلاثة عشر ، وكان فيهم أبو داود وثلاثة عشر ابنا له ، وداود أصغرهم ، وإنه مرّ بثلاثة أحجار فكلَّمْنه وقلن : ياداود خذنا معك تقتل بنا جالوت . فأخذهن ومشى إلى جالوت فوضعهن فى قذّافته فصارت حجرا واحدا ثم أرسله فصَكَّ به بين عينَىْ جالوت فقتله ، ثم هلك طالوتُ فملك داود وجعله الله نبيا ، وأنزل عليه الزبور وعلّمه صنعة الحديد وألانه له ، وأمر الجبال والطير أن يُسَبِّحْن معه ، وكان إذا قرأ الزبور خضع له الوحش حتى تؤخذ بأعناقها .

وكان كثير التعبد ، فتذاكر بنو إسرائيل يوماً عنده : هل يأتى على الإنسان يومٌ لا يصيب فيه ذنباً ؟ فأضمر أنه يطيق ذلك ، فابتلى يومَ عبادته بالنظر ، وذلك أنه رأى طائرا فى محرابه فمديده إليه فتنحَّى فأتبعه بصره فإذا بامرأة فخطبها ، مع علمه أن أوريا قد خطبها ، فتزوجها ، فاغتمّ أوريا ، فعوتب إذ لم يتركها لخاطبها الأول .

هذا أجود ماقيل فى فتنته ويدل عليه قوله تعالى : وعَزَّنى فى الخطاب » .

فأمّا ما يُنقل أن زوجها بُعث[3] فى الغزوات حتى قُتل ، فلا يجوز أن يكون صحيحا .

فجاءه الملكان فتسوّرا عليه من سُورداره ففزع منهم لأنهما أتياه على غير صفة مجىء الخصوم وفى غير وقت الحكومة وتسوروا من غير إذن و « خَصْمان » مرفوع بإضمار نحن .

---

(١) ت : غرفة .   (٢) ورد البيت فى اللسان (مادة حرب) . ونسبه إلى وضاح اليمن .

(٣) ت : أنه بعث زوجها .

وهذا مَثلٌ ضرباه له والتقدير : ماتقول إن جاءك خصمان ؟ وقال ابن الأنباري : نحن كخصمين ومِثْل خصمين فسقطت الكاف وقام الخصمان مقامهما ، تقول العرب : عبد الله القمرُ حُسْناً. أي مثل القمر ، قالت هند بنت عتبة :

من حَسَّ لي الأخوين كالـ ... غصنين أو من راهما
أسَدْين في غِيلٍ يَحِيـ ... د القومُ عن عُرواهما(٢)
صقرين لا يتذللا ... ن ولا يُباح حِماهما
رُمحين خَطِّيَّيْن في ... كَبِدِ السماء تراهما

أرادت مثل أسدين ومثل صقرين ، ثم صرف الله النون والألف في « بعضنا » إلى نحن المضمر ، كما تقول العرب : نحن قوم شرفٌ أبونا ، ونحن قوم شرف أبوهم والمعنى واحد .

قوله تعالى : « ولا تُشْطِط » ، أي لا تَجُرْ يقال شَطَّ وأشَطَّ إذا جار « واهْدِنا إلى سواءِ الصِّراط » أي إلى قَصْد الطريق . والمعنى : احملنا إلى الحق .

فقال داود : تكلَّما . فقال أحدهما : « إن هذا أخي له تِسعٌ وتِسْعون نعجة ولي نعجة واحدة » قال الزجّاج : كَنَى عن المرأة بالنعجة . قال المفسرون : إنما ذكر هذا العدد لأنه عدد نساء داود « فقال : أكْفِلْنيها » أي انزل أنت عنها واجعلني أنا أكفلها « وعَزَّني في الخطاب » أي غلبني في القول . وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن أبي عبلة : « وعازَّني » أي غالَبني قال ابن عباس : إن دعاَ ودعوتُ كان أكثر مني وإن بطش وبطشتُ كان أشدَّ مني .

« قال لقد ظلمك بسؤال نَعجتك إلى نعاجه » فإن قيل : كيف حكَم ولم يسمع كلام الآخر ؟ فالجواب : أن الآخر اعترف فحكم عليه باعترافه ، وحذف ذكر ذلك اكتفاء بفهم السامع ، والعرب تقول : أمرتُك بالتجارة فكسبت الأموال . أي فتجرت فكسبت .

(١) حس : قتل . (٢) العرواء : الرعدة .

والخلطاء الشركاء وظَنّ أى أيقن وعلم «أنّما فتنّاه» أى ابتليناه بما جرى[1] له فى حق المرأة .

وفى سبب تنبهه لذلك ثلاثة أقوال : أحدها : أن الملكين أفصحا له بذلك. قال السُّدى: قال داود للخصم الآخر : ماتقول ؟ قال : نعم أريد أن آخذها منه وأكمل بها نعاجى وهو كاره . قال : إذاً لا ندعك ، وإن رُمْتَ هذا ضربنا منك هذا وهذا . يشير إلى أنفه وجبهته . فقال له : أنت ياداود أحق أن يُضرب هذا منك ، حيث لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا واحدة . فنظر داود فلم ير أحدا فعرف ماوقع .

والثانى : أنهما عَرجا وهما يقولان : قضى الرجل على نفسه ، فعلم أنه عُنِى بذلك[2] قاله وهب .

والثالث : أنه لما حكم بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه وهو يضحك ثم صعد إلى السماء وهو ينظر ، فعلم أن الله ابتلاه بذلك . قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ وخَرَّ راكعاً ﴾ . قال ابن عباس : أى ساجدا فعبّر بالركوع عن السجود ، لأنه بمعنى الانحناء . قال المفسرون : بقى فى سجوده أربعين ليلة لا يرفع رأسه إلا لوقت صلاة مكتوبة أو حاجة لا بد منها ، ولا يأكل ولا يشرب ، فأكلت الأرض من جبهته ونبت العشب من دموعه[3] ، وهو يقول فى سجوده : رَبِّ زَلَّ داود زلةً أبعَد مابين المشرق والمغرب .

أخبرنا على بن عبيد الله ، أنبأنا ابن النقُور ، أنبأنا عمر بن إبراهيم الكنانى ، حدثنا البغوى ، حدثنا داود بن رشيد . حدثنا أبو حفص الأبّار ، عن ليث عن مجاهد ، قال كانت خطيئته فى كفه مكتوبة ، قال فسجد حتى نبَت من البقل ماوارى أذنيه أو قال رأسه ، ثم نادى : أىْ ربِّ قَرِح الجبين وجَمدت العين وداود لم يرجع إليه من ذنبه شىء . قال فنودى : أجائع فتُطعَم أم عارٍ فتكْسَى ، أم مظلوم فينتصر لك ؟ فلما رأى أنه

---

(١) ب : أى ابتلينا ماجرى له . (٢) فى ب زيادة : إليه . ولا معنى لها .

(٣) هذه مبالغة تجرى على مذهب الزهاد والأخباريين .

لم يرجع إليه فى ذنبه شيء نحب نحبةً فهاج ما ثمَّ .

أخبرنا عبد الوهاب ، أنبأنا ابن المبارك ، أنبأنا أبو الحسين بن عبد الجبار ، أنبأنا أبو بكر الخياط ، أنبأنا أبو عبدالله أحمد بن يوسف العلاّف ، حدثنا أبو على بن صفوان ، حدثنا أبو بكر القرشى ، حدثنى محمد بن الحسين ، حدثنا عمرو بن جرير ، حدثنا عامر بن يسَاف ، عن يحيى بن أبى كثير ، قال : بلغنا أنه كان داود مكث قبل ذلك سبعاً لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يَقْرب النساء فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له منبرا إلى البَرّية وأمر سليمان منادياً يستقرئ البلاد وما حولها من الغياض والآكام والجبال والبرارى والديارات والصوامع والبيع فينادى فيها : ألا من أحبَّ أن يسمع نَوْح داود فليأت . فتأتى الوحوش من البرارِى والآكام وتأتى السِّبَاع من الغِياَض وتأتى الهوامّ من الجبال ، وتأتى الطير من الأوكار ، وتأتى الرهبان من الصوامع والديارات ، وتأتى العذارى من خدورها ، ويجتمع الناس لذلك اليوم ، ويأتى داود عليه السلام حتى يرْقى على المنبر ويحيط به بنو إسرائيل كلُّ صنفٍ على حِدَته . قال : وسليمان قائم على رأسه . قال : فيأخذ فى الثناء على ربه فيضجّون بالبكاء والصراخ ، ثم يأخذ فى ذكر الجنة والنار فيموت طائفة من الناس وطائفة من السباع والهوام والوحوش وطائفة من الرهبان والعذارى المتعبدات ، ثم يأخذ فى ذكر الموت وأهوال القيامة ثم يأخذ فى النياحة فيموت من كل صنف طائفة ، فإذا رأى سليمان ماقد كثر من الموت ناداه : يا أبتاه قد مزّقت المستمعين كلَّ ممزّق وماتت طوائف من بنى إسرائيل ومن الرهبان ومن الوحوش . فيقطع النياحة ويأخذ فى الدعاء ويُغشى عليه ، فيحمل على سرير فإذا أفاق قال : سليمان ما فعل فلان وفلان ؟ فيقول : ماتوا . فيقوم فيدخل بيت عبادته ويغلق عليه بابه وينادى : أغضبان أنت على داود إلهَ داود ؟ أم كيف قصّرت به أن يموت خوفاً منك !

قال علماء السِّير : كان داود عليه السلام قد اتخذ سبع حشَايا من شعر وحشاهن بالرماد ، ثم بكى حتى أنفذها دموعا ، ولم يشرب شرابا إلا ممزوجا بدموع عينيه ، وكان

له جاريتان قد أعدهما فكان إذا أتاه الخوف سقط واضطرب فقعدتا على صدره ورجليه مخافة أن تتفرق أعضاؤه، وكان قد نقش خطيئته فى كفه لئلا ينساها ، وكان إذا رآها اضطربت يداه .

ويقال : لو وزِنت دموعُه عدَلتْ دموعَ الخلائق ، ولم يرفع رأسه إلى السماء حتى مات حياء .

***

إخوانى : تأمَّلوا عواقبَ الذنوب ، تَفْنَى اللذةُ وتبقى العيوب ، احذروا المعاصى فبئس المطلوب ، ما أقبح آثارها فى الوجوه والقلوب .

الكلام على البسملة

ابكِ من جُرْمكَ خوفاً(١) ... فحقيقٌ بك تَبْكِى
كم ركبت الذَّنب مغرو ... راً وكم أسرعت فى الفَتْكِ
وتبرَّجْت بعصيانك قد غَـرَّك إمهالى وتَرْكِى(٢)
من إذا ألبستُك الذلَّ يراعيك ويُشْكِى
من ترى يسترك اليو ... مَ إذا عمَّك(٣) هَتْكِى
كم تجرَّدْت لعصيا ... نِى(٤) وكم خالفتَ نُسْكِى
أتُرَى تجهل عِزِّى ... أم تُرَى تَصْغِر مُلْكِى

يا بن آدم : فرحُ الخطيئة اليومَ قليل وحزنها فى غدٍ طويل ، مادام المؤمن فى نور التقوى فهو يبصر طريق الهدى ، فإذا طبَّق ظلامُ الهوى عدم النور .

كان داود يسجد ويقول فى سجوده : سبحان خالق النور ! إلهى : خلَّيتَ بينى وبين عدوّى [إبليس](٥) فلم أقم لفِتْنته إذ نزلت بى ، سبحان خالق النور ، إلهى :

(١) ت : حزنا . (٢) ت : قد عزك تركى . (٣) ت : غمك (٤) ت : لإغضابى .
(٥) من ت .

يُغسل الثوب فيذهب دَرَنه ووسخه ، والخطيئة لازمةٌ لى لا تذهب عنى ، سبحان خالق النور ! إلهى : تبكى الثَّكْلَى على ولدها إذا فقدَتْه وداود يبكى على خطيئته ! سبحان خالق النور ! إلهى : الويل لداود إذا كُشف عنه الغطاء قيل هذا داود الخاطئُ سبحان خالق النور ! إلهى : بأى عينٍ أنظر إليك يوم القيامة وإنما ينظر الظالمون من طَرْف خَفِىّ ، سبحان خالق النور ! إلهى : بأى قَدَم أقوم ببابك يوم تَزِلّ أقدام الخاطئين ، سبحان خالق النور ! إلهى من أين يطلب العبد المغفرة إلا من عند سيده ، سبحان خالق النور ! إلهى : أنا الذى لا أطيق صوت الرعد فكيف أطيق صوتَ جهنم ! سبحان خالق النور ! إلهى : كيف يستقر الخاطئون بخطاياهم دونك وأنت شاهدهم حيث كانوا ، سبحان خالق النور ! إلهى قَرِح الجبين وجَمدت العينان من مخافة الحريق على جسدى ، سبحان خالق النور ! إلهى ! أنت المغيث وأنا المستغيث ، فمن يدعو المستغيثُ إلا المغيثَ ؟ سبحان خالق النور ! إلهى : فَرَرْت إليك بذنوبى فاعترفتُ بخطيئتى فلا تجعلنى من القانطين ولا تخزنى يوم الدين ، سبحان خالق النور ! إلهى إذا ذَكرت ذنوبى أيست من كل خير ، وإذا ذكرتُ رحمتَك رجَوْتُها ، سبحان خالق النور ! إلهى أَمْدد عينى بالدموع وقلبى بالخشية وضعفى بالقوة حتى أبلغ رضاك عنى ، سبحان خالق النور !

***

ياسكران الهوى متى تصحو ، يا كثير الذنوب متى تمحو إلى كم تهفو وتَغفو ، وتتكدر ونِعَمنا تصفو ، ابك لما بك ، واندب فى شيبتك على شبابك ، وتأهَّب لسيف المنون فقد عَلِق الشَّبَا بِكَ .

انتبه الحسن ليلة فبكى ، فضجَّ أهلُ الدار بالبكاء ، فسألوه عن حاله فقال : ذكرتُ ذنباً لى فبكيت !

يامريض الذنوب مالك دواء كالبكاء .

روى ابن عباس عن النبى صلى عليه وسلم قال : « عينان لا تمَسُّهما النار : عينٌ

بكت في جوف الليل من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله » .

وروى عنه أبو أمامة أنه قال : « ليس شيء أحبَّ إلى الله عز وجل من قطرة دمع من خشية الله تعالى وقطرة دم تُهْرَاق في سبيل الله » .

لا تحسبَنْ ماء الجفون فإنه ... لك يالَدِيغَ هوامِّ دِرْياقُ[(1)]
شنُّوا الإغارةَ في القلوب بأسهمٍ ... لا يُرْتجى لأسيرها إطلاقُ
واستعذبوا ماءَ الجفون فعذَّبوا الْ ... أَسرَاء حتى دَرَّتِ الآماقُ[(2)]

قال محمد بن علي الحسين : ما اغرورقت عينٌ بمائها إلا حَرَّم الله وجهَ صاحبها على النار ، فإن سالت على الخدَّين لم يَرْهق وجهه قَتَرٌ ولا ذِلة يوم القيامة .

يامن أفعاله حتى الخطى خَطا ، ياحاملا على الأَزْر الوِزْر أنعبت المطا ، يامن إذا قَدر ظَلم وإذا خاصم شطا ، يامسرعا في الشر فإذا لاح الخير ُجا البَطا .

جُزْتَ الثلاثين خَطًا ... فاعذِرْ[(3)] مَشِيباً وخَطا
وابكِ زمانا لم تزَلْ ... لله فيه مُسْخِطاً
واندُب على آثاره ... مستدرِكاً ذا الغلطا .
واعدد صواب العيش ما ... فارقه التقوى خَطاً

يا كثير الذنوب متى تُفضِي ، يامقيما وهو في المعنى يمضى ، أفنيت الزمان في الهوى ضياعا ، وسا كُنْت غروراً من الأمل وأطماعا ، وصرت في طلب الدنيا خبيرا صَناعا ، تصبح جامعا وتمسي مَنَّاعا ، فتِّش على قلبك ولُبِّك فقد ضاعا ، تفكر في عُمرك فقد ذهب نَهْبا مُشاعا ، اترك الهوى محمودا قبل أن يتركك مذموما ، إن فاتتك قصبات السَّبق في الزهد فلا تفوتنك ساعات الندم في التوبة .

الكلام على قوله تعالى

﴿ أيحسبُ الإنسانُ أن يُتْرَكَ سُدًى ﴾

عبادَ الله : من استحضر قلبه أخبره أنه مسئول عن فعله ، وأمره بالتزود ليوم

(١) الدرياق : الدواء . (٢) الأسرى الأصل : وبتعين مد الأسرى للوزن . والآماق : جمع موق وهو طرف العين . (٣) ت : فاعدد .

رحيله ، ومن وافق الهوى هوَى إلى محل الإضاعة وأصبح من الخاسرين .

قال بعض المعتبرين : لما خلوتُ بالعقل فى بيت الفكر علمت أنى مخلوق للتكليف معاقَب على التحريف ، لست بمُهْمَل فأسهو ، ولا بمتروك فألهو ، يُحْصَى علىّ قليل العمل وكثيره ، ويكرّ علىّ الزمانُ فيبين لى تأثيره . ورأيت الليلَ والنهار يقودانى إلى قَبْرى ويُفْنيان فى سيرهما عُمرى ، ويُريانى من العِبَر ما يصلح به طريق الْهُدَى ، فيبين سَلْب الكبير والصغير ، والرفيق والقرين ، فعلمت أن الهلاك آخر السلامة ، وأن عاقبة التفريط الندامة ، وأنّ وهَن البدَن أَبْـيَن دليل على الموت وأقوى علامة ، وعرفت بدليل السمع الجزاء يوم القيامة .

فلما تيقنت أنى مُكلَّف محاسَب ومحفوظ علىّ عملى مراقَب ، مثاب على الفعل ومعاقب ، مأخوذ بالتفريط ومطالَب ، هممت أن أنهض نهضةَ عازم صدوق إلى أداء التكليف وقضاء الحقوق ، فقيّدَتْنى نفسى بقيود الهوى وأفسدتْ من حالى ما استقام واستوى .

فبقيت أتفكر فيما جرى وأمسح عينى من سِنَة الكرى وأقول : ماذا منعنى من مقصودى ، وأى شغلٍ شَغلنى عن معبودى ؟ ومالى أقصر فى سَيْرى وكيف سبقنى إلى الفضائل غيرى ؟ فتعجبت مما نابنى وحزنت لما أصابنى ، ولم أزل أنظر فى الموانع حتى فهمتُها وأتدبر طريق الهدى حتى علمتها .

وذلك : أن الله تعالى جبَل النفسَ على حب الشهوة ، وجعلها فى حَبْس الغفلة ، وخلق لها من رائق مقصودها مايشغلها وجوده عن وجودها ، فهى تميل إلى مشتهاها وإنْ أدَّى إلى المهالك ، لِمَا وضع فى طبعها من حب ذلك ، وتنهمك على تحصيل غَرضها وإن أعقبها طولَ مرَضها ، فينسيها عاجلُ مايسُرّ آجلَ مايضر .

فلما وضعها الحق على هذا وألَّفها ، خاطبها بمخالفة هواها وكلَّفها ، وبين لها طريق الهدى وعرَّفها ، ولطَف بها فى أحوالها وتألَّفها ، وذكَّرها من النِّعم ماسلفها ، وأقامها على

مَحَجة التعليم ووقفها ، وحذرها من الزلل وخوّفها ، وضمن لها أنها إن جاهدت أسعفها ، وإن تركت أغراضَها أخْلَفها ، وماوعدَها وعداً قطّ فأخلفها ، وأوضح لها عيوبَ العاجلة وكشفها ، ورغبها فى لذة جَنة وصفَها ، فذكر لها منازلها وغُرفها وأنهارها وطُرَفها ، وحذَّرها جهنم وأسَفها ، وغَيَّظها على العصاة ولَهفها ، وأعلمها أنّ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ولقد أنصفها .

فمذَلْتُها وقرَّعْتها وأوعدتها وأسمعتها ، فلم ترتدع عن هواها ولم تنزع عما آذاها ، ورأت مصارع القرناء وما كفاها ، ولم تأنف من ذنوبها وذُلّ المعاصى قد علاَها ، وكأن الخطاب الذى أتى ممن سَوَّاها إلى سِوَاها .

فعلمتُ حينئذ أنها تحتاج إلى من يحاسبها وتفتقر إلى من يطالبها ، ولا تستغنى عن موبخ يعاتبها ، ولا بد من رائض إن وَنَتْ يعاقبها .

فالعجَب ممن عرَف نفسَه كيف أهملها ، والله لقد ضرَّها وقتلها .

***

أخبرنا محمد بن الملك ، أنبأنا أحمد بن الحسين ابن خيرون ، أنبأنا أحمد بن عبد الله المحاملى ، أنبأنا أبو بكر ابن عبدوية ، حدثنا الحسين بن داود البَلْخى ، حدثنا شقيق ابن إبراهيم ، حدثنى أبو هاشم الأيلى ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يابن آدم لا تزول قدماك يوم القيامة من بين يدى الله عزوجل حتى تُسأل عن أربع : عمرك فيما أفنيته ، وجسدك فيما أبليته ، ومالك من أين اكتسبته وأين أنفقته » .

أخبرنا ابن أبى منصور ، أنبأنا على بن محمد العلاف ، أنبأنا أبو الحسين الحمامى ، أنبأنا جعفر بن محمد الخوّاص ، حدثنى إبراهيم بن نصر ، قال حدثنى إبراهيم بن يَسار ، قال حدثنى يوسف بن أسباط ، قال كتب إلىّ محمد بن سمرة السائح : ياأخى [1] إياك وتأمير

(١) ت : أى أخى

التسويف على نفسك وإمكانه من قلبك ، فإنه محل الكلال ومَوْئل التلَف وبه تُقْطع الآمال ، وفيه تنقطع الآجال ، فإنك إن فعلت ذلك أَدَلْتَه من عَزْمك فاجتمع وهواك عليك فغلَبا واسترجعا من بدنك من السلامة ماقد ولى عليك[١] ، فعند مراجعته إياك لا تنتفع نفسك من بدنك بنافعة ، وبادر ياأخى فإنه مبادَر بك ، وأسرع فإنه مُسرَع بك وجدَّ فإن الأمر جِدّ ، وتيقظ من رقدتك ، وانتبه من غفلتك ، وتذكَّر ما أسلفت وقصَّرت وفرَّطت وجنَيْت ، فإنه مُثْبَت مُحْصَى ، وكأنك بالأمر قد بغَتك فاغتبطْت بما قدَّمت وندِمت على ما فرطت ، فعليك بالحياء والمراقبة والعُزْلة فإن السلامة فى ذلك موجودة . وفقنا الله وإياك لأرشد الأمور ، ولا قوة بنا وبك إلا بالله .

إن عُمْر الفتــا مرازة دهر راشِفـــاها الغدوُّ والآصالُ
فتذكّرْ كم قد صَحِبْت عزيزا ثم أمسَى وأرضــه صَلْصالُ
غَفل الناسُ والقريبُ بعيــد من ردَى الموت واليقينُ مُحالُ
كم لبيب يهدى سِوَاه لرُشْـدٍ وهو فى عيش نفسه ليس يالو[٢]
يطلب المرء أن ينال رِضَـاه ورضاه فى غايةٍ لا تُنــالُ
كلما زادَه الزمانُ ثراءً أحرمتــه لذةُ الآمال

إخوانى :الأيام سفَر ومراحل ، وما يحسّ بسيرها الراحل حتى يبلغ البلد أو الساحل ، فليبادر المستدرك ، وما أظنه يدرك ، ماهذه الغفلة والفتور أمَا المآل إلى اللحود والقبور ، أما علمتم منتهى السرور ، أما الأجداث المنازل إلى النشور ، أيها الشاب ضيعت الشباب فى جهلك ، أيها الكهل بعضُ فِعلك يُهلك ، أيها الشيخ آن الرحيل عن أهلك ، أيها المغتر بالأمل قد نقضتْ كفُّ الأجل مجدولَ حَبْلك ، أيها الغافل أمَا أنذرك من كان من قبلك .

مات الأبُ الأعلى وتابعــه أبنــاؤه ففنوا ونحن[٣] نَسَقْ
فى الترْب من أبنائنا رِمَمٌ كانوا لنا سلفاً ونحن لَحَقْ[٤]

(١) ت : ماولى عنك. (٢) يالو : يألو : فخففت الهمزة للوزن . ومعناها يقصر (٣) ب : بفناء .
(٤) ب : فناء نسق ولعلها محرفة . والنسق من كل شيء : ما كان على طريقة نظام واحد .

لقد نطقت العِبَرفأين سامعها ، واستنارت طريق الهدى فأين تا بعها ، وتجلّت الحقائق فأين مُطَالعها ، أما المنية قد دنت واقتربت فمابال النفوس قد غفلت ولعبت ، أمن المفرّط أن يؤخذ بكَظْمه ويجازَى من تفريطه على أعظَمه ، ويأتيه الموت فيذهله بعِظَمه ، ويفاجئه بغتةً بشَتات مُنْتَظَمه ، يامن على مايضره قد استمر ، يا من أعلن المعاصي وأسرّ ، يامؤثرا ما شانَ وماضر ، يامحبا ماقد قتل غيره وغَرّ ، يا من إذا دعِي إلى نفعه تولّى وفرّ ، أما تعتبر بمن رحل من القرناء ومَرّ ، أما تعلم أن من حالف الذنوب استضر ، أما تعلم أن الموت إذا أتى حَمَل وكَرّ ، كأنى بك إذا برق البصر تطلب المفَرّ ، إلى متى تؤثر الفساد على السداد ، وتسرع فى جواد الهوى أسرع من الجواد ، متى يتيقظ القلب ويصحو الفؤاد ، كيف بك إذا حشرت نخسرت يوم المعاد .

يسرك أن تكون رفيق قومٍ　　لهم زاد وأنت بغـــير زادِ

أسمع قولا بلا عمل ، وأرى خِلَالاً خِلَالها الخلل ، إذا دعيت إلى الخير جاء الكسل وقلت لو شاء أن يوفقنى فعل ، وإذا لاحت المعاصى كَرّ البطَل ، ويقول : خلق الإنسانُ من عجلٍ . ويحك هذا الشَّيْب قد نزل يخبرك بقرب الأجل ، خلت الديار وناح الطَّلل ، أيحتاج المهم إلى اعتدل ، ياقبيح الخصال إلى كم زلل ، ما لكبير فى العذل لاناقة ولاجمل.

عليك بما يفيدك فى المعادِ　　وما تنجو به يوم التَّنَادِ
فمالك ليس ينفع فيك وعظٌ　　ولا زَجْر كأنك من جمادِ
ستندم إنْ رحلت بغير زادِ　　وتشقَى إذ يناديك المنادِى
فلا تفرح بمـــالٍ تَقْتنيه　　فإنك فيه معكوس المرادِ
وتُبْ مما جنيت وأنت حىٌّ　　وكن متنبهاً من ذا الرقادِ

سجع

أيها الضال عن طريق الهدى ، أمَاتسمع صوت الحادى وقد حدَا ، من لك إذا ظهر الجزاء وبَدا ، وربما كان فيه أن تشقى أبدا « أيحسَبُ الإنسان أن يُترك سُدًى » .

يا من تسكتب لحظاته ، وتجمع لفظاته ، وتُعلَم عَزماته ، وتُحسَب عليه حركاته إن راح أو غدًا « أيحسب الإنسانُ أن يُترك سُدى » .

ويحك إن الرقيب حاضر ، يرعى عليك اللسان والناظر ، وهو إلى جميع أفعالك ناظر ، إنما الدنيا مراحل إلى المقابر ، وسينقضى هذا المدى « أيحسب الإنسان أن يُترك سُدى » .

مالى أراك فى الذنوب تعجل ، وإذا زجرت عنها لا تقبل ، ويحك انتبه لقبح ماتفعل ، لأن الأيام فى الآجال تعمل مثل عمل المُدَى « أيحسب الإنسانُ أن يُترك سُدى » .

سترحل عن دنياك فقيرا ، لا تملك مما جمعت نَقِيرا ، بلى قد صرت بالذنوب عَقِيرا بعد أن رَدَّاك التلف رداء الردَى « أيحسب الإنسانُ أن يُترك سُدى » .

كأنك بالموت قد قطع وبتّ ، وبدَّد الشمل المجتمع وأشَتّ ، وأثَّر فيك الندم حينئذ وفَتّ ، انتبه لنفسك فقد أشْمَتّ والله العِدا « أيحسب الإنسان أن يُترك سُدى » .

كأنك ببساط العمر قد انطوى ، وبعُود الصحة قد ذَوى ، وبسِلْك الإمهال قدقُطِع فهوى ، اسمع يا من قتله الهوى وما ودَى « أيحسب الإنسان أن يُترك سُدى » .

تالله ما تُقَال وما تُعْذر ، فإن كنت عاقلا فانتبه واحذر ، كم وعظك أَخْذُ غيرك وكم أعذر ، ومن أنذر قبل مجيئه فما اعتدى « أيحسَب الإنسان أن يُترك سُدى » .

فبادر نفسك واحذر قبل الفوت ، وأصغِ للزواجر فقد رفعت الصوت ، وتنبه فطال ماقد سبوت ، واعلم قطعا ويقينا أن الموت لا يقبل الفِدا « أيحسب الإنسانُ أن يترك سُدَى » .

انهض إلى التقوى بقريحة ، وابك الذنوب بعين قريحة ، وأزعج للجدّ أعضاءك المستريحة ، تالله لئن لم تقبل هذه النصيحة لتندمنّ غدا « أيحسب الإنسان أن يترك سُدى » .

المجلس العشرون

فى قصة سليمان عليه السلام

الحمد لله المتعالى عن الأنداد ، المقدس عن الأضداد ، المنزه عن الأولاد ، الباقى على الآباد ، رافع السبع الشداد عالية بغير عماد ، مزيَّنة بكل كوكب منير وقَّاد ، وواضع الأرض للمهاد مثبتة بالراسيات الأطواد ، خالق المائع والجماد ، ومبتدع المطلوب المراد ، المطَّلع على سر القلب وضمير الفؤاد ، مقدِّر ما كان وما يكون من الضلال والرشاد ، والصلاح والفساد ، والغىّ والإرشاد(١) ، والوفاق والعناد ، والبغض والوداد ، فى بحار لُطْفه تجرى مراكب العباد ، وعلى عتبة بابه مناخ العُبَّاد ، وفى ميدان حُبّه تجول خيلُ الزهاد ، وعنده مبتغَى الطالبين وآمال القُصَّاد ، وبعينه ما يتحملون من ثقل الاجتهاد ، رأى حتى دبيب النمل السُّود فى السواد ، وسمع صوت المذْنِب المجهودِ غاية الإجهاد ، وعلم ما فى سويداء السّر وباطن الاعتقاد ، وجاد على الآملين فزادهم من الزاد ، وأعطى فلم يخف من العَوَز والنفاد ، وألف الأجساد وليس يشبه الأجساد ، وخلق من كل شىء زوجين وتوحَّد بالانفراد ، وعاد بالإتلاف على الموجودات ثم أعاد ، يباهى بهاجر الوِسَاد إذا نام فى السجود أوماد ، ابتلى بالغفلة أهلَ اليقظة والاجتهاد لينكسروا بالزلل وانكسارُ العبد هو المراد ، بسَط لسليمان بساط النَّيْل فوقع المَيْلُ إلى الخَيْل عن بعض الأوراد « إذ عُرِض عليه بالعشىِّ الصافناتُ الجيَاد » .

أحمده حمداً يفوت الأعداد ، وأشهد أنه الواحد لا كالآحاد ، وأصلى على رسوله المبعوث إلى جميع الخلق فى كل البلاد ، وعلى صاحبه أبى بكر الذى بذل نفسه وماله وجاد ، وعلى الفاروق الذى بالَغ فى نصر الإسلام وأجاد ، وعلى عثمان الشهيد فيا فخره يوم يقوم الأشهاد ، وعلى علىّ الذى يفنى البحر وما لعلومه الزواخر نفاد ، وعلى عمه العباس أبى الخلفاء الأمجاد .

***

(١) ت : والسداد .

قال الله تعالى : « ووهبنا لداود سليمانَ[1] » .

داود : اسم أعجمى وسليمان اسم عِبْرانى ، وكان لسليمان من الفطنة ما بان بها الصواب فى حكمه دون حكم أبيه فى قصة الحرث وغيره . قال الله عز وجل : « فَفَهَّمْناها سليمانَ » فلما مات داود ملك سليمان وله من العمر ثلاث عشرة سنة ، فزاده الله تعالى على ملك داود ، وسخَّر له الجن والإنس والطير وكان عسكره مائة فرسخ ، خمسة وعشرون للإنس وخمسة وعشرون للجن ، وخمسة وعشرون للوحش وخمسة وعشرون للطير ، وكان له ألف بيت من قوارير فيها ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سُرّية ، ولا يتكلم أحد بشىء إلا جاءت به الريح إلى سمعه ، وكان إذا جلس على البساط جلس أشرافُ الإنس مما يليه وأشراف الجن وراءهم ، ثم يدعو الطير فتُظلّهم ، ثم يدعو الريح فتحملهم ، والطباخون فى أعمالهم لا يتغير عليهم عمل فيسير فى الغداة الواحدة مسيرةَ شهر ، وكان يطعم كلَّ يوم مائة ألف ، فإن أقلّ أطعم ستين ألفا ، وكان يذبح كلَّ يوم مائة ألف شاة وثلاثين ألف بقرة ، ويطعم الناس النقىّ ويطعم أهله الخشكار[2] ويأكل هو الشعير .

وروى سَيَّار عن جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال : خرج نبى الله سليمان والجنُّ والإنس عن يمينه ويساره ، فأمر الريحَ فحملتهم حتى سمعوا زجَل[3] الملائكة فى السموات بالتقديس ، ثم أمرها فخفضتهم حتى مسَّت أقدامُهم البحرَ ، فسمعوا صوتا من السماء يقول : لو كان فى قلب صاحبكم من الكبر مثقال ذرة لخسَفْت به أبعد مما رفعت !

قوله تعالى : « نعم العبدُ إنه أوَّاب » هذا نهاية فى المدح « أوّاب » : أى رَجَّاع بالتوبة إلى الله مما يقع من سهو وغفلة .

« إذ عُرِض عليه بالعَشِىِّ » وهو ما بعد الزوال « الصافِناتُ » وهى الخيل وفيها قولان : أحدهما القائمة على ثلاثة قوائم وقد أقامت الأخرى على طرف الحافر من يد أو رجل . وهذا قول مجاهد وابن زيد ، واختاره الزجاج واحتج بقول للشاعر :

---

(١) سورة ص ٣٠ . (٢) الخشكار : الخبز غير النقى ، فارسية (٣) الزجل : الصوت

ألف الصُّفونَ فما يزال كأنه ... مما يقومُ على الثلاث كَسِيرا

والثانى : أنها القائمة سواء كانت على ثلاث أو غير ثلاث. قال الفراء : على هذا رأيت العرب ، وأشعارهم تدل على أنها القائم خاصة . واحتج ابن قتيبة لهذا بقول النبى صلى الله عليه وسلم : من سره أن يقوم له الرجال صُفونا فليتبوأ مقعده من النار .

وأما الجياد فهى السِّراع فى الجرى. وفى سبب عرضها عليه أربعة أقوال : أحدها أنه عرضها لأنه أراد جهادَ عدو . قاله على بن أبى طالب .

والثانى : أنها أخرجت له من البحر . قال الحسن : خرجت من البحر وكانت لها أجنحة .

والثالث : أنها كانت لأبيه فعرضت عليه . قاله ابن السائب . وفى عددها أربعة أقوال : أحدها : ثلاثة عشر ألفا . قاله وهب . والثانى : ألف فرس. قاله ابن السائب . والثالث : عشرون ألفا . قاله سعيد بن جُبَير ومسروق . والرابع : عشرون . قاله إبراهيم التَّيمى .

قال المفسرون : لم تزل تُعرض عليه إلى أن غابت الشمس ففاتته صلاة العصر ، ولم يذكِّروه لأنه كان مَهيبا لا يبتدئه أحدٌ بشىء ، فلما غابت ذكر فقال : « إنِّى أحببتُ حُبَّ الخير » يعنى الخيلَ والمعنى آثرتُ ذلك على ذِكْر ربى .

قال الزجَّاج : عن : بمعنى على . « حتى توارَتْ » يعنى الشمس . قال : وأهل اللغة يقولون لم يَجْرِ للشمس ذِكْر ، ولا أحسبهم أعطَوا فى هذا الفكرَ حقَّه ، لأنه فى الآية دليل على الشمس وهو قوله « بالعَشِىِّ » والمعنى : عُرِض عليه بعدَ زوال الشمس ، ولا يجوز الإضمار إلا أن يَجْرى ذِكر أو دليل ذكر .

قوله تعالى : « رُدُّوها علىَّ » أى أعيدوا الخيل « فطَفِق » أى أقبل « مسحاً بالسوق » وهى جمع ساق . وفى المراد بالمسح قولان : أحدها : أنه ضربها بالسيف . رواه أُبَىّ بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس . مسح أعناقها

وسوقها بالسيف . وهو اختيار الجمهور .

والثانى : أنه كوَى سُوقها وأعناقها وحبسها فى سبيل الله . حكاه الثعلبى . والعلماء على الأول .

فإن قيل كيف نختار القول الأول وهو عقوبة لمن لم يذنب على وجه التشفِّى ، وهذا بفعل الجبارين أشْبه منه بفعْل الأنبياء ؟

فالجواب : أنه نبىّ معصوم ، فلم يكن ليفعل إلا ماقد أُجيز له فعله ، وجائز أن يباح له ما يُمنع منه فى شرعنا . على أنه إذا ذبحها كانت قُرْبانا ، وأكْل لحمها جائز ، فما وقع تفريط .

قال وهب : لما فعل ذلك شكر الله تعالى له فِعْله ، فسخَّر له الريح مكانها .

***

قوله تعالى : « ولقد فتَنَّا سليمانَ » أى ابتليناه بسَلْب مُلكه «وألقينا على كُرْسيِّه». أى على سريره « جسداً » ، وهو شيطان يقال له صخر ولم يكن ممن سخّر له «ثم أناب» أى رجع عن ذَنْبه ، وقيل إلى ملكه .

وفى سبب ابتلائه ثلاثة أقوال : أحدها : أنه كانت له امرأة ، وكانت بين بعض أهلها وبين قومٍ خصومة ، فقضى بينهم بالحق ، إلا أنه ودّ أن لو كان الحقُّ لأهلها . فعوقب إذ لم يكن هواه فيهم واحداً . قاله ابن عباس .

والثانى : أن هذه الزوجة كانت آثرَ النساء عنده ، فقالت له يوماً : إن بين أخى وبين فلانة خصومة ، وإنى أحب أن تقضى له . فقال : نعم . ولم يفعل فابتلى لأجل ماقال [نعم] (١) . قاله السُّدى .

والثالث : أن هذه الزوجة كانت قد سبَاها فأسلمت ، وكانت تبكى الليل والنهار وتقول : أذكر أبى وما كنت فيه ، فلو أمرتَ الشياطين أن يصوروا صورته فى دارى أتسلَّى بها . ففعل . وكان إذا خرج تسجد له هى وولائدها ، فلما علم سليمان كسر تلك

---

(١) من ت

الصـورةَ وعاقب المرأة وولائدها واستغفر ، فسلَّط الشيطـان عليـه بذلك . هـذا قول وهب .

وفى كيفيةذهاب الخاتم قولان : أحدهما : أنه كان جالسا على شاطئ البحر فوقع منه . قاله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه والثانى : أن شيطانا أخذه .

ثم فى كيفية أخذه له أربعة أقوال : أحدها : أنه وضعه تحت فراشه ودخل الحمَّام فأخذه الشيطان فألقاه فى البحر . قاله سعيد بن المسيَّب . والثانى : أن سليمان قال للشيطان[١] : كيف تفتنون الناس ؟ قال : أرنى خاتمك أخبرك . فأعطاه إياه فنبذه فى البحر . قاله مجاهد . والثالث : أنه وضعه عند أوثق نسائه فى نفسه، فتمثل لها الشيطان فى صورته فأخذه منها . قاله سعيد بن جُبَير. والرابع : أنه سلَّمه إلى الشيطان فألقاه فى البحر . قاله قتادة .

وأما الشيطان فإنه ألقى عليه شَبَه سليمان فجلس على كرسيه وحكَم فى سلطانه ، إلا أنه كان لا يَقْدر على نسائه ، وكان يحكم بما لا يجوز ، فأنكره بنو إسرائيل ، فأحدَقوا به ونشروا [له][٢] التوراة فقرأوا فطار من بين أيديهم حتى ذهب إلى البحر .

وأما سليمان فإنه لمّا ذهب مُلكه انطلق هارباً فى الأرض ، فكان يستطعم فلا يُطعَم فيقول : لو عرفتمونى أطعمتمونى . فيطردونه ، حتى إذا أعطته امرأة حوتا شقه فوجد الخاتم فى بطن الحوت بعد أربعين ليلة ، فى قول الحسن . وقال سعيد بن جبير : بعد خمسين ليلة . فلما لبسه ردَّ الله عليه ملكه وبهاءه وأظلَّه الطيرُ ، فأقبل لا يستقبله إنسىّ ولا جنى ولا طائر ولا حجر ولا شجر إلا سجد له ، حتى انتهى إلى منزله . ثم أرسل إلى الشيطان فجىء به فجعله فى صندوق من حديد وأقفل عليه وختم عليه بخاتمه ؛ ثم أمر

(١) الأصل : قاله عرفة . (٢) من ت .

به فألقى فى البحر فهو فيه إلى أن تقوم الساعة[(١)] .

***

قوله تعالى : « لا ينبغى لأحدٍ من بَعْدِى » إنما طلب هذا الملك ليعلم أنه قد غفر له ويعرف منزلته بإجابة دعائه ، ولم يكن حينئذ فى مُلكه الريح ولا الشياطين . « والرُّخَاء » اللَّينة ، مأخوذة من الرخاوَة و« أصاب » . بمعنى قصد .

فإن قيل قد وصفت فى سورة الأنبياء بأنها عاصفة ؟

فالجواب : أنها كانت تشتدّ إذا أراد وتَلِين إذا أراد .

وكانت الشياطين تغوص فى البحر فتستخرج له الدُرّ وتعمل له الصُّوَر .

والجِفان : القِصَع الكبار ، يجتمع على القصعة الواحدة ألف رجل يأكلون منها ، ويأكل من كل قِدْر ألف رجل ، وكانت لا تنزل من مكانها .

***

فتأملوا إخوانى هذا السلطان العظيم كيف تزَلْزل بالزلَل ، واختلت أموره إذ دخل عليه الخلل، فخطؤه أوجب خروجَه من الملكة ، ولقمة آدم كادت توقعه فى المهلكة[(٢)] ، فعليكم بالتقوى فإنها سبيل السلامة ، فمن أخطأها أخطأته الكرامة .

الكلام على البسملة

عُمر ينقضِى وذَنْبٌ يزيدُ ورَقيب يُحصِى علىَّ شهيدُ
واقترابٌ من الحِمَام وتأميـــلٌ لطولِ البقاء عندى[(٣)] جديدُ
أنا لاهٍ ولِلْمنيــــةِ حَتْم حيث يَمَّمْتُ مَنْهَلٌ مورودُ
كلُّ يومٍ يميت منِّىَ جزءاً وحياتى تنفُّس معـــدودُ

---

(١) هذه الروايات لا ترجع إلى أصول صحيحة ، وإنما مرجعها الإسرائيليات التى كان يذيعها من أسلم من أهل الكتاب ، أو يتكلفها بعض التابعين وقد أمرنا أن لا نصدق أهل الكتاب ولا نكذبهم ، وحسبنا ما فى كتاب ربنا وسنة رسولنا . (٢) ب : فى الهلكة .
(٣) ب : عندي . وما أثبته من ت .

كم أخٍ قد رُزئته فهو وإن أَضْ ... حى قريبَ المحلِّ منى بعيـدُ
خلسَتْه المنونُ منِّى فمـــا لى ... خَلَف منه فى الورَى موجودُ
هل لنفسى بواعظات الجديـ ... ـدَيْن عن منزلٍ سيبيـــدُ

ألَا متيقظ لِمـاَ بين يديه، ألا متأهِّب للقادم عليه، ألا عامر للقبر قبل الوصول إليه، ياواقفاً مع هواه وأغراضه، يامعرِضا عن ذِكر عوارضه إلى أعراضه، ياغافلا عن حكم الموت وقد بُتَّ بمقراضه، سيعرف خبره إذا اشتد أشدُّ أمراضه، وأورده حوضا مريرا من أصعب حِياضه، ونزل به مايمنعه من اغتماضه، واستبدل بانبساط كفِّه كفَّه عن انقباضه، وأخذت يدُ التلف بعد إحكامه فى انتقاضه، وأُخرج عن خضر الرُّبَى وروضه وغِياضه، وألقى فى لَحد وَعْر يخلو برَضْراضِه[1]، وعلم أنه باع عمره بأَرْدأ أعواضه.

يامن الهوى كلامُه وحديثُه، يامن فى المعاصى قديمه وحديثه، يامن عمره فى المعاصى خَفِيفه وأَثِيثه[2]، من له إذا لم يجد فى كَرْبه من يغيثه، آه من قهرٍ لا يرفُق بطَّاشُه، ومن حريق لا يُرحم عِطَاشه، ومن نزول لحدٍ لا يُرفع خَشَاشُه[3]، عملُ المقبول فيه لِحَافه وفراشه، آه من سحاب عِقَاب رذَاذُه يُرْدِى ورِشَاشه[4]، من يخلِّصه اليومَ من هوى قد أُشربه مُشَاشُه[5].

كأنــكم بالسماء قد انشقت وأذِنت لربها وحُقّت، وبأقدام الصالحين قد ترقَّت، وبأيمـانهم للصحائف قـد تلقَّت، صــبَرَ القوم على حَصْر الحَبْس فخرجوا إلى رَوْح السَّعة.

***

قال أحمد بن [أبى] الحوارى: قلت لزوجتى رابعة: أصائمة أنتِ اليوم؟ فقالت: ومثلى من يَفطر فى الدنيا!

وكانت إذا طبخت قِدْرا قالت: كُلْها ياسيدى فما نضجت إلا بالتسبيح والتقديس!

---

(١) الرضراض: الحصا، أو صغارها (٢) الأثيث: الكثير العظيم.
(٣) الخشاش: حشرات الأرض. (٤) الرذاذ: المطر الضعيف، أو الساكن الدائم، والرشاش: جمع رش وهو القليل من المطر (٥) المشاش: رءوس العظام.

وكانت تقول : ماسمعت الأذانَ إلا ذكرتُ منادِي القيامة ، ولا رأيت الثلج إلا تذكرت تطايرَ الصحف ، ولا رأيت جراداً إلا ذكرت الحشر ، وربما رأيت الجنَّ يذهبون ويجيئون ، وربما رأيت الحورَ يستترن منّي بأكامهنّ .

قال : ودعوتُها مرةً فلم تُجبني ، فلما كان بعدَ ساعة أجابتني وقالت : إنّ قلبي كان قد امتلأ فرحاً بالله فلم أقدر أن أجيبك .

قال : وكانت لها أحوال شتى ، فمرة يغلب عليها الحبُّ فتقول :

حبيبٌ ليس يَعْدِله حبيب ولا لِسواه فى قلبى نصيبُ
حبيبٌ غاب عن بَصَرى وسَمْعى ولكنْ عن فؤادِى مايغيبُ

وتارة يغلب عليها الأُنْس فتقول :

ولقد جعلتُكَ فى الفؤاد محدِّثى وأبحتُ جسمى من أراد جلوسى
فالجسمُ منّى للجليس مؤانسٌ وحبيبُ قلبى فى الفؤاد أنيسى

وتارة يغلب عليها الخوف فتقول :

وزادِى قليل ما أراه مُبَلِّغى ألِلزّاد أبكى أم لطول مسافتى
أتحرقنى بالنار ياغاية المنَى فأين رجائى فيك أين محبَّتِى

***

ويح قلبك ! ماهذه القسوة ، أتغلبك وأنت رجل نسوة !

كانت أم هارون من العابدات تقول : إنى لأغتم بالنهار حتى يجىء الليل ، فإذا جاء الليل قمت ، فإذا جاء السَّحَر دخل الرَّوْح قلبى .

وخرجتْ إلى بيت المقدس فعارضها سبع فقالت : تعال إن كان لك رزق فكُلْ . فأقعى السبع ثم عاد .

وكانت ثُوَيبة بنت بهلول تقول : قرةَ عينى ! ماطابت الدنيا والآخرة إلا بك ، فلا تجمع علىّ فَقْدَكَ والعذابَ !

قال خُشَيْش الموصلي : جاءنى كتاب من حَمَّادة العابدة فإذا فيه : أبلغْ كلَّ محزون بالشام عنى السلام .

أخبرنا عمر بن ظَفَر ، أنبأنا جعفر بن أحمد ، أنبأنا عبد العزيز بن على ، أنبأنا على ، ابن عبد الله بن جَهْضَم ، حدثنا محمد بن داود الدينورى ، عن أبى زكريا الشيرازى ، قال : تهت فى البادية بالعراق أياما كثيرة لم أجد شيئا أرتفق به ، فلما كان بعد أيام رأيت فى الفلاة خِباء شَعر مضروبا ، فقصدته فإذا فيه بيت وعليه ستر مُسْبَل ، فسلمت فردت علىَّ عجوزٌ من داخل الخباء وقالت : ياإنسان من أين أقبلت ؟ قلت : من مكة . قالت : وأين تريد ؟ قلت : الشام . قالت : أرى شَبَحك شبح إنسان بَطَّال ، هَلاَّ لزمت زاويةً تجلس فيها إلى أن يأتيك اليقين ، ثم تنظر هذه الكسرة من أين تأكلها ؟!

ثم قالت : تقرأ شيئا من القرآن ؟ قلت : نعم . فقالت : اقرأ علىّ آخر سورة الفرقان . فقرأتها فشهقت وأغمى عليها . فلما أفاقت قرأتْهى الآيات ، فأخذت منى قراءتُها أخذاً شديدا ، ثم قالت : ياإنسان اقرأها ثانية . فقرأتها ، فلحقها مثلُ ما لَحقها فى الأول فصبرت أكثر من ذلك فلم تفق ، فقلت كيف أستكشف حالها هل ماتت أم لا ؟ فتركتُ البيت على حاله ومشيت أقلَّ من نصف ميل ، فأشرفتُ على وادٍ فيه أعراب ، فأقبل إلىّ غلامان معهما جارية ، فقال أحد الغلامين : ياإنسان أتيت البيتَ فى الفَلاة ؟ قلت : نعم . قال : وتقرأ القرآن ؟ قلت : نعم . قال : قتلتَ العجوز ورب الكعبة !

فمشيت مع الغلامين والجارية حتى أتينا البيت ، فدخلت الجارية فكشفت عن وجهها فإذا هى ميتة ، فأعجبنى خاطر الغلام ، فقلت للجارية : من هذان الغلامان ؟ فقالت : هذه أختهم ، منذ ثلاثين سنة لم تأنس بكلام الناس ، وإذا نزلنا بواد تُوارى بيتَها بالفلاة لئلا تسمع كلام أحد ، وكانت تأكل فى كل ثلاثة أيام أكلةً وتشرب شربة .

ثَوْرُها[1] الحادِى على فَرْط الرَّجاَ تأمل مع ضَوْء الصبـــاح الفَرَجاَ

(١) الثور : الهيجان والوثب والسطوع .

تَقْطع فى البِيد سَبيلاً حَرجاً   باسطةً عُـقَّالها جُنْـحَ الدُّجَا(١)

غيره :

حثّ عليها فى السُّرَى حادِيها   فلا تقُلْ فَشَوْقُهـــا يكفيهَا

غيره :

ياسائقها على وَحَاها(٢) مهـلاً   ارتَدْ لمسيرها طريقاً سهـــلا
وانشُدْ قلبى إن جُزْتَ باب المعَلّى(٣)   مابين قبورِ العاشقين القتـلى

غيره :

ياساكِنى بطنَ وَجْرة(٤) من نجد   هل عنـدكم لسائل مايُجْدِى
مقتولُ هوًى بِهِ رَسِيسُ(٦) الوجْدِ   ماحالَ عن العهدِ لطول العهد

الكلام على قوله تعالى

﴿ القارعةُ ماالقارعة ﴾

القارعة القيامة ، سميت قارعة لأنها تَقْرع بالأهوال .

وقوله : « ماالقارعة ؟ » استفهام معناه التفخيم لشأنها ، كما تقول : زيد مازيد .

« وما أدراك ما القارعة » أى لأنك لم تعاينها ولم تر مافيها لشدة الأهوال « يومَ يكون الناس كالفراش المَبْثُوث » قال الفرّاء الفراش : غَوْغاء الجراد ، وهو صِغاره .

وقال ابن قتيبة : ماتهافَت فى النار من البعوض . شبّه الناس بذلك لأنهم إذا بُعثوا ماجَ بعضُهم فى بعض . والمبثوث: المنتشر المتفرق .

« وتـكونُ الجبالُ كالعِهْن » أى كالصوف ، شبَّهها فى ضعفها ولينها بالصوف .

---

(١) العقال : داء فى رجل الدابة ، إذا مشى ظلع ساعة ثم انبسط .
(٢) الوحى : العجلة والإسراع .   (٣) باب المعلى : موضع ببغداد .
(٤) ت : بطن مكة .

وقيـل شبهها فى خِفّتها وسَيْرها . وقال ابن قتيبـة : العهن : الصوف المصبوغ . والمنفوش : المندوف . فإذا رأيت الجبل قلت هذا جبل . فإذا مسّسته لم تر شيئا ، وذلك من شدة الهول .

***

يامن عمله بالنفّاق مغشوش ، تتزين للناس كما يزيّن المنقوش ، إنمـا يُنظر إلى الباطن لا إلى النقوش ، إذا هممت بالمعاصى فاذكر يوم النعوشَ ، وكيف تُحمل إلى قبر بالجندل مفروش ، من لك إذا جُمع الإنس والجن والوحوش ، وقام العاصى من من قبره حيران مدهوش ، وجىء بالجبار العظيم وهو مَغْلول مَخْشوش(١) ، فحينئذ يتضاءل المتـكبر وتذل الرءوس ، ويومئذ يبصر الأكمه ويسمع الأطروش ، ويُنصب الصراط فـكم واقع وكم مخدوش ، ليس بجادّةٍ يقطعها قِصْلٌ ولا مرعوش(٢) ، ولا تقبـل فى ذلك اليوم فِدْية ولا تؤخـذ الأُروش ، والمتعوس حينئـذ ليس بمنعوش ، وينقلب أهل النار فى الأقذار والريح كالُحشوش(٣) ، لحافهم جَمْر وكذلك الفروش ، « وتـكون الجبال كالعهن المنفوش » .

***

قوله تعالى : « فأما من ثَقُلَتْ موازينُه » أى رجحت بالحسنات . قال الفراء : والمراد بموازينه وَزْنه . والعرب تقول : هل لك فى درهم بميزان درهمك ووزن درهمك . وأراد بالموازين : الوزنات « فهو فى عيشةٍ راضيةٍ » أى مَرْضية .

« وأمّا مَنْ خَفَّتْ موازينُه فأُمُّه هاوية » فيه قولان . أحدها : أنه يهوى فى النار على أُمّ رأسه هاوية . والمعنى أنه هاوٍ فى النار على رأسه . قاله عكرمة . والثـانى معناه : فمسكنه النـار ، فالنار له كالأم لأنه يأوى إليها . قاله ابن زيد والفراء وابن قتيبة .

أنبأنا محمد بن عبد الملك بن خيرون ، قال أنبأنا إسماعيل بن مسعدة ، قال أنبأنا

---

(١) المخشوش : المنقاد الذليل . (٢) الجادة . معظم الطريق . والقصل : الفسل الضعيف والأحمق لاخير فيه (٣) الحشوش : جمع حش وهو مكان قضاء الحاجة .

عمرو بن يوسف ، قال أنبأنا أبو أحمد بن عدى ، حدثنا أحمد بن عمير بن يوسف ، حدثنا إسماعيل بن إسرائيل ، قال حدثنا أسد بن موسى ، قال حدثنا سلام التميمى ، عن ثور ابن زيد ، عن خالد بن معدان ، عن أبى رُهْم ، عن أبى أيوب الأنصارى ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن إذا مات تلقّتْه البشرى من الملائكة ومن عباد الله كما يتلقى البشرى فى دار الدنيا ، فيقبلون عليه ويسألونه فيقول بعضهم لبعض : رَوِّحوه ساعة فقد خرج من كرب عظيم . ثم يقبلون عليه فيسألونه فيقولون : مافعل فلان ؟ مافعل فلان ؟ هل تزوجت فلانة . فإن سألوه عن إنسان قد مات قال : هيهات مات ذاك قَبْلى . فيقولون : إنا لله وإنا إليه راجعون ، سُلِك به إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المربِّية .

قال . وتعرض على الموتى أعمالكم ، فإن رأوا خيرا استبشروا وقالوا : اللهم إن هذه نعمتك فأتمّها على عبدك ، وإن رأوا سيئة قالوا : اللهم راجع بعبدك . فلا تُخزنوا[1] موتاكم بأعمال السوء فإن أعمالكم تُعرض عليهم » .

وقد روى هذا الحديث موقوفا على أبى أيوب وقد روى من كلام عُبَيْد بن عُمَيْر . والموقوف أصح .

***

ألاك عملٌ إذا وضع فى الميزان زان ، عملك قِشْر لا لب ، واللب يُثقل الكفة لا القشر .

سجع

يا من أغصان إخلاصه ذاوية ، وصحيفته من الطاعات خاوية ، لكنها لكبار الذنوب حاوية ، يامن هِمّته أن يملأ الحاوية ، كم بينك وبين البطون الطاوية ، كم بين طائفة الهُدَى

(١) ب فلا تحزوا .

والغاوية ، اعلم أن أعضاءك فى التراب ثاوية ، لعلها تنفرد بالجد فى زاوية ، قبل أن تعجز عند الموت القوة المقاوية ، وترى عنق الميزان لقلة الخير لاوية « وأما من خَفَّتْ موازينُه فأمه هاوية » .

ذِكْر الحساب أطار عن أعين المتقين النعاس ، ولتثقيل الميزان فرغت أكياس الـكُيَّاس .

قالت مولاة أبى أمامة : كان أبو أمامة لا يردّ سائلا ولو بتمرة ، فأتاه سائل ذات يوم وليس عنده إلا ثلاثة دنانير فأعطاه دينارا ، ثم أتاه سائل فأعطاه دينارا ، ثم أتاه سائل فأعطاه دينارا ، قالت : فغضبت وقلت : لم تترك لنا شيئا ؟ فوضع رأسه للقائلة فلما نودى للظهر أيقظتُه فتوضأ ثم راح إلى المسجد . قالت : فرققت عليه وكان صائما ، فاقترضت ما جعلت له عَشاء وأسْرجت له سراجا ، وجئت إلى فراشه لأمهده له ، فإذا صُرّة ذهب فعَددتها فإذا هى ثلاثمائة دينار ، فقلت : رحمك الله ! ماصنع الذى[1] صنع إلا وقد وثق بما عنده . فأقبل بعد العشاء فلما رأى المائدة والسراج تبسم وقال : هذا خير من غيره . فقمت على رأسه حتى تعشَّى ، فقلت : رحمـك الله ! خلَّفت هذه النفقة فى سبيل الله مضيَّعة ولم تخبرنى فأدفعها ؟ قال : وأى نفقة ؟ ما خلفتُ شيئا . قالت : فرفعت الفراش ، فلما رآه فرح واشتد تعجبه . قالت : فقمت فقطعت زُنَّارِى[2] وأسلمتُ على يده . وكانت تعلِّم النساء القرآن والفرائض والسنن .

انظروا ثمرة المعاملات : هذا نَقْد فـكيف الوعد .

أخبرنا ابن ناصر وعبـد الله بن على ، قالا أنبأنا طَرّاد ، قالا أنبأنا أبو الحسين ابن بشران ، أنبأنا ابن صفوان ، حدثنا أبو بكر ، عن محمد بن الحسين ، قال حدثنى أحمد ابن سهيل ، قال حدثنى خالد بن الغور ، قال كان حَيْوة بن شُرَيح من البكائين ، وكان ضيق الحال جدا ، فجلست إليه يوماً وهو وحده فقلت له : لو دعوتَ الله يوسع عليك ؟

---

(١) ب : ما صنع إليك صنع .　　(٢) الزنار : مايشد على أوساط النصارى والمجوس .

فالتفت يمينا وشمالا فلم ير أحدا فأخذ حصاةً من الأرض فقال : اللهم اجعلها ذهبا . فإذا هى والله تِبْرة فى كفه ما رأيت أحسن منها . فرمى بها إلىّ فقلت : ما أصنع بها قال استنفِقْها . فهِبْته والله أن أردّه (١) .

أخبرنا ابن ناصر ، أنبأنا الحسين بن أحمد ، أنبأنا هلال بن محمد ، أنبأنا جعفر الخُلْدى، حدثنا ابن مسروق ، حدثنا محمد بن الحسين ، عن محمد بن عبد العزيز بن سليمان ، قال سمعت دَهْثَماً وكان من العابدين يقول : اليوم الذى لا آتى فيه عبد العزيز كنت مغبونا. فأبطأت عليه يوما أتيته فقال : ماالذى أبطأبك ؟ قلت : خير . قال : على أى حال . قلت: شغلنا العيـال ، كنت ألتمس لهم شيئا . قال : فوجدته ؟ قلت : لا . قال : فهلم فَلْندْع . فدعا وأمَّنت ودعوت وأمّن . ثم نهضنا لنقوم فإذا والله الدراهم والدنانير تتناثر فى حجورنا . فقال : دونـكها . ومضى (٢) .

ما خسِر معنا مُعَامِل ، ولا قاطَعنا مواصِل .

***

قوله تعالى : « وما أَدْرَاكَ ما هِيَـهْ » يعنى الهاوية « نار حامية » أى حارة قد انتهى حرها .

كان عطاء السُّلَمى إذا عوتِبَ فى كثرة بكائه يقول : إنى إذا ذكرتُ أهل النـار مثَّلت نفسى بينهم ، فـكيف بنفس تُغَلّ وتسحب أن لا تبكى (٣) .

رحم الله أَعْظُما نَصبت فى الطاعة وانتصبت ، جنَّ عليها الليل فلما تمـكّن وَثَبَتْ ، كلما ذكرت جهنم رهبت وهربت ، وكلما تصورت ذنوبها ناحت عليها وندَبت .

كان ابن مسعود يبكى حتى أخذ بكفيه من دموعه فرمى بها . وكان عبد الله بن عمر

---

(١) ت : أن أراده . (٢) لاتنقض هذه الروايات التى كان الصوفية ، رضوان الله عليهم ، يتناقلونها، القاعدة المقررة فى الإسلام للـكسب وابتغاء الرزق « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » وإنما كانوا يريدون ترقيق القلوب للتـوكل على الله والاطمئنان إلى قدره .

(٣) ت : ولا تبكى ، فـكيف لا أبـكى .

يبكي حتى نشفت دموعه وقلصت عيناه . وبكى هشام الدستوائي حتى فسدت عينه ، وكانت مفتوحة لا يبصر لها . وكان الفُضَيْل قد ألِف البكاء فربما بكى في نومه فيسمعه أهل الدار .

بكى الباكون للرحمنِ ليلاً   وباتوا دَمْعهم لا يَسْأمونــا
بِقَاع الأرض من شوق إليهم   تحنُّ متى عليها يَسْجُدونا

***

إذا لانت القلوب للخوف ورقَّتْ ، رفعت دموعها إلى العين ورقَتْ ، فأعتقت رقاباً للخطايا رَقَّت ، يا قاسي القلب ابك على قسوتك ، ياذاهلَ الفهم بالهوى نُحْ على غفلتك ، ياداأم المعاصي خَفْ غِبَّ معصيتك أمَا علمت أن النار أُعِدَّت لعقوبتك .

ومَجلسُنــا مأتمٌ للذنوبِ   فابكوا فقد حان منا[1] البكا
ويومُ القيامةِ ميعادنا   لـكَشْف السُّتور وهَتْك الغطاَ

جات امرأة في ليلة مطيرة إلى راهب وقصدت أن تفتنه ، فقالت : هذا المطر ولا مأوَى لي فآوني . ففتح لها الباب فدخلت واضطجعت وجعلت تريه محاسنها ، فدعته نفسه إليها فقال لنفسه : لا حتى أنظر صبرَكِ على النار . فأتى المصباحَ فوضع إصبعه فيه حتى احترقت، ثم عاد إلى صلاته فعاودته نفسُه فأتى المصباح فوضع إصبعه فيه فاحترقت ، ثم أتى صلاته فعاودته نفسه فلم يزل كذلك حتى احترقت الأصابع الخمس . فلما رأت المرأة فعله بنفسه ذلك صعقت فماتت .

وكان الأحنف بن قيس يقدم إصبعه إلى المصباح فإذا وجد حرارة النار قال لنفسه : ماحَملك على ما صنعتِ يوم كذا .

قال بعض السلف : دخلت على عابد وقد أوقد نارا بين يديه وهو يعاتب نفسه وينظر إلى النار فلم يزل كذلك حتى خر ميتا .

---

(١) ت منى .

دخل ابن وَهْب إلى الحَمَّام فسمع قارئا يقرأ : « وإذْ يتَحاجُّون فى النارِ » فسقط مغشيًّا عليه فحُمِل .

سجع

يا من أركان إخلاصه واهية ، أما لك من عَقْلك ناهية ، إلى متى نفسُك ساهية ، مُعْجَبة بالدنيا زاهية ، مفاخِرةللإخوان مضاهيةالنارُ بين يديك وتكفِى داهية «وما أدراك ماهية نارٌ حامية » .

تقوم مِنْ قبرك ضعيفَ الجأش ، وقد جار قلبك فى بدنك وجاش ، ووابلُ الدمع يسبق الرَّشَاش ، أتدرى ما يلاقى العِطاش الظامئة « نارٌ حامية » .

أين من عتى وتجبَّر ، أين من علا وتكبَّر ، أين من لِلدُّول بالظلم دبَّر ، ماذا أعدّ للحضرة السامية ، نار [حامية] (1) .

لو رأيت العاصِى وقد شقى ، يصيح فى الموقف واقَلَقِى ، اشتد عطشه وما سُقى ، وشرر النار إليه يرتقى ، فمن يتقى تلك الرامية « نار حامية » .

لو رأيته يقاسِى حرَّها ويعانى ضرها ، جَحيمها وقرَّها (2) ، والله لا يدفع اليوم شرَّها إلا عينٌ هامية « نار حامية » .

يفر الولد من أبيه ، والأخ من أخيه ؛ وكلُّ قريب من ذَوِيه (3) ، أسمعتَ يامن معاصيه ناميه « نار حامية » .

لهذا كان المتقون يَقْلقون ويخافون ربهم ويشفقون (4) ، وكم جرَتْ من عيون القوم عيون (5) ، كانت جفونهم دائِمة دامية [من خوفهم من نار حامية .

أجارنا الله بكرمه منها ووفقنا لما ينجّى عنها ، وجعلنا بفضله ممن قام بما يؤمَر واجتنب ما عنه يُنهى ، فكم له من نعم سامية « نار حامية »] (6) .

---

(1) سقطت من ب . (2) القر : شدة البرد . (3) ب : وكل قرين بين ذويه . وما أثبته من ب .
(4) ت : ويخافون ويتقون . (5) ت : من عيونهم عيون . (6) مابين القوسين ساقط من د

المجلس الحادى والعشرون

فى قصة بلقيس

الحمد لله الذى يخضع لقدرته من يعبد، ولعظمته يخشع من يركع ويسجد، ولطيب مناجاته يسهر العابد ولا يرقد، ولطلب ثوابه يقوم المصلى ويقعد، إذا دخل الدَّخَل[1] فى العمل له يفسد، وإذا قُصدت به سوقُ الخلق يَكسد، يجلّ كلامه عن أن يقال مخلوق ويبعد، جَدَّد التسليم لصفاته مستقيمُ الجُدْجُد[2]، وكرمه سَيّاح [فلا يحتاج][3] أن يقال جُدْ جُدْ، من شبَّه أو عطَّل لم يرشد، ما جاء فى القرآن قَبِلْنا أو فى السُّنة لم نَرْدد، فأما أن تقول فى الخالق برأيك فإنك تَبرُد، أليس هذا اعتقادكم يا أهل الخير، وكيف لا أتفقَّد العقائد خوفاً من الضَّيْر، فإن سليمان تفقَّد الطير «فقال: مالى لا أرى الهدهد».

أحمده حمدَ من يرشد بالوقوف على بابه ولا يشرد، وأصلى على رسوله محمد الذى قيل لحاسده: « فَلْيَمْدُد »، وعلى الصِّديق الذى فى قلوب محبِّيه فرحاتٌ وفى صدور مبغضيه قرحات لا تَنْفَد، وعلى عمر الذى لم يزل يقوِّى الإسلام ويَعْضد، وعلى عثمان الذى جاءته الشهادة فلم يَرْدد، وعلى علىٍّ الذى كان ينسف زرع الكفر بسيفه ويحصد، أتحبه وتبغض أبا بكر تبرد، وعلى عمّه العباس الذى يعلو نسبه الأنساب ويمجد.

***

قال الله عز وجل: « وتفقَّد الطيرَ فقال ما لِىَ لا أرَى الهدهد[4] ».

كان سليمان عليه السلام إذا أراد سفراً قعد على سريره ووضعت الكراسى يميناً وشمالا، فتجلس الإنس والجن وتظلُّهم الطير، ويأمر الريحَ فتحملهم.

فنزل فى بعض أسفاره مَفازةً فسأل عن بُعد الماء هناك، فقالوا: لا نعلم. فقالت الشياطين: إن يكُ من يَعْلم فالهدهدُ. فقال: علىَّ بالهدهد. فلم يوجد « فقال: ما لى

(١) ب: الداخل. والدخل: الرياء. (٢) الجدجد: الأرض الصلبة المستوية.
(٣) سقطت من ب. (٤) سورة النمل ٢٠.

أرى الهدهد » والمعنى : ما للهدهد لا أراه « أم كان » أى بل كان « من الغائبين . لَأعذِّبنه عذاباً شديدا » قال ابن عباس : [كان[1]] ينتف ريشه . وقال الضحاك : يشد رجليه ويشمسه . «أو لَيأْتِيَنِّى بسُلْطان» أى حجة . وكان الهدهد حين نزل سليمانُ قد ارتفع فى السماء يتأمل الأرض فرأى بستانا لبلقيس فمال إلى الخضرة ، فإذا هو بهدهد لها فقال : من أين أقبلتَ ؟ قال : من الشام مع صاحبى سليمان . فمن أين أنت ؟ قال : من هذه البلاد وملكتها بلقيس . فانطلق معه فرأى بلقيس ومُلْكها . وبلقيس لقب واسمها بلقمة بنت ذى مسرح . وقيل بنت الشَّيْصبان ملك سبأ ، فلما احتضر استخلفها لمَا عرف من رأيها وتدبيرها ، فملكت وكانت ساكنةً فى أرض سبأ وهى مَأْرِب ، وكانت تحت يدها الملوك .

فلما رآها الهدهد وجاء قال له سليمان : ما الذى غيَّبك ؟ «قال أَحَطْتُ بما لم تُحِطْ به وجئتك من سَبأ » وسبأ هى القبيلة التى هى من أولاد سبأ بن يَشْجب بن يَعْرب بن قَحْطان. وهو اسم رجل .

أخبرنا ابن الحُصَيْن ، قال أنبأنا ابن المُذْهَب ، قال أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبدالله بن أحمد ، حدثنى أبى، حدثنا أبو عبدالرحمن بن لَهِيعة ، عن عبدالله بن هُبَيْرة ، عن عبد الرحمن بن وعلة ، عن ابن عباس ، قال : سأل رجلٌ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن سبأ أرجل أم امرأة أم أرض ؟ فقال : بل هو رجل ولد له عشرة أولاد فسكن اليمن منهم ستة ومنهم بالشام أربعة . فأما اليمانيون فمَذْحِج وكِنْدة والأزد والأشعريون وأنمار وحِمْير . وأما الشامية فلَخْم وجُذَام وعاملة وغَسَّان » .

« إنِّى وجدتُ امرأةً تملكهم » يعنى بلقيس « وأوتيتْ من كل شىء » يعطاه الملوك « ولها عَرْشٌ عَظِيم » وهو السرير . وكان من ذهب وقوائمه من جوهر مكلَّل باللؤلؤ .

قوله تعالى : « أَلَّا يَسْجدوا لله » والمعنى : وزيَّن لهم الشيطان أَلَّا يسجدوا لله « الذى يُخْرِج الخَبْء » أى المستتر .

---

(١) من ت .

فقال سليمان : « سننظر أصَدَقْتَ » وإنما شك فى خبره لأنه أنكر أن يكون لغيره فى الأرض سلطان .

ثم كتب كتابا وختمه بخاتمه ودفعه إلى الهدهد وقال : « اذهَبْ بكتابى هذا فألقِه إليهم ثم تولَّ عنهم » أى استتر « فانظر ماذا يَرْجعون » من الجواب فحمله فى منقاره حتى وقف على رأس المرأة فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه فرفعت رأسها فألقى الكتاب فى حجرها ، فلما رأت الخاتم أُرْعِدت وخضعت وقالت : « إنِّى أُلقِيَ إلىَّ كتابٌ كريم » لكونه مختوما .

فاستشارت قومها فقالت : « يا أيها الملأ » تعنى الأشراف ، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر قائدا مع كل قائد منهم عشرة آلاف ، وقيل كان معها مائة ألف «أَفْتُونى فى أَمْرِى» أى بيِّنوا لى ما أفعل وأشيروا علىَّ « ما كنتُ قاطعةً أمراً حتى تَشْهَدون » أى تَحْضُرون وأقطعَ بمشورتكم .

«قالوا نحن أولوا قُوَّةٍ» والمعنى نَقْدر على القتال «والأمْرُ إليكِ» فى القتال وتركه .

« قالت : إنَّ الملوكَ إذا دَخَلوا قَرْيةً » أى عَنْوةً « أَفْسَدُوها » أى خرّبوها وأذلوا أهلها . فصدَّقها الله تعالى فقال : « وكذلك يَفْعلون » « وإنِّى مُرْسِلةٌ إليهم بهدية » وذلك أنها أرادت أن تعلم : هل هو نبىّ فلا يريد الدنيا ، أو مِلكٌ فيُسْترضى[1] بالحمل . فبعثت ثلاث لَبِنات من ذهب ، فى كل لبنة مائة رطل وياقوتة حمراء طولها شبر مثقوبة ، وثلاثين وصيفة وألبستهم لباسا واحدا فلا يعرف الذكر من الأنثى . ثم كتبت إليه : قد بعثت كذا وكذا فأدخل فى الياقوتة خيطا واختم على طرفيه بخاتمك ، وميِّز بين الجوارى والغلمان . فأخبره أميرُ الشياطين بما بعثت به قبل القدوم فقال : انطلق فافرش على طريق القوم من باب مجلسى ثمانية أميال فى ثمانية أميال لَبِناتٍ من ذهب . فبعث الشياطينَ فقطعوا اللَّبِن من الجبال وطلَوه بالذهب وفرشوه ، ونصبوا فى الطريق أساطين

(١) ت : فيرضى .

الياقوت الأحمر . فلما جاءت الرسل قال بعضهم لبعض : كيف تدخلون على هذا الرجل بثلاث لبنات وعنده ما رأيتم ؟ فقالوا : إنما نحن رسل .

فلما دخلوا عليه « قال : أَتُمِدُّونَنِ بمال » ثم دعا دودة فربط فيها خيطاً وأدخلها فى ثقب الياقوتة حتى خرجت من طرفها الآخر ، ثم جمع طرفى الخيط فختم عليه ، ثم ميَّز بين الغلمان والجوارى بأن أمرهم بالوضوء ، فبدأ الغلامُ من مِرْفقه إلى كفه وبدأت الجارية من كفها إلى مرفقها . هذا قول سعيد بن جُبَير . وقال قتادة : بدأ الغلام يغسل ظواهر السواعد قبل بطونها ، والجوارى على عكس ذلك .

ثم قال للرسول : « ارجعْ إليهم فلَنَأْتينهم بجنودٍ لا قِبَل لهم بها » فلما عادت الرسل وأخبرت بلقيس بعثت إليه : إنى قادمة إليك لأنظر ما تدعو إليه ، ثم أمرت بعرشها فجعل وراء سبعة أبواب ، ووكلت به حرساً يحفظونه ، وشخصت إلى سليمان فى اثنى عشر ألف ملِك ، تحت يدى كلّ ملك ألوف . فجلس سليمان عليه السلام على سرير مُلكه ، فرأى رَهجاً[1] فقال : ما هذا ؟ قالوا : بلقيس قد نزلت بهذا المكان . فقال : « أيُّكم يأتينى بعَرْشها » « قال عفريت » وهو القوىّ الشديد : « أنا آتيك به قبل أن تقومَ مِنْ مَقَامك » أى مجلسك . فقال : أريد أسرعَ من ذلك . « قال الذى عنده عِلْم من الكتاب » وهو واصف بن برخيا ، وكان يعرف الاسمَ الأعظم ، وكان يقوم على رأس سليمان بالسيف . قال مجاهد : دعا فقال : ياذا الجلال والإكرام . فبعث الله تعالى الملائكة فحملوا السرير تحت الأرض يخدُّون به الأرضَ خدًّا ، حتى انخرقت الأرض بالسرير بين يدى سليمان فقال : « نكِّروا لها عَرْشَها » فغيروه وزادوا فيه ونقصوا فلما « قيل : أهكذا عَرْشُك » ؟ « قالت : كأنه هو وأُوتينا العِلْمَ مِنْ قَبْلها » أى قالت قد أوتيت العلم بصحة نبوّة سليمان بأمر الهدهد والرسل الذى بعثت من قبل هذه الآية « وصدَّها ما كانت تَعْبُد » والمعنى : أنها كانت عاقلة وإنما كانت تتبع دين آبائها .

فأمر سليمانُ الشياطينَ فبنوا لها صَرْحاً على الماء من زجاج ، وهو القصر ، وكانت

---

(١) الرهج : الغبار .

الشياطين قد وقعت فيهـا عنده وقالوا : رِجْلها كرجل الحمار ، فأراد أن يرى ذلك ، فقيل لها : « ادخلى الصَّرْح » فحسبته لُجَّةً وهو مُعْظَم الماء «وكشفَتْ عن ساقيها» لدخول الماء » فقال سليمان : « إنه صَرْح مُمَرَّد » أى مملس «من قوارير » أى من زجاج . فعلمت أن مُلْك سليمان من الله تعالى. فقالت : «ربِّ إنِّى ظَلَمْتُ نفسى» أى بما سبق من الكفر.

ثم تزوجها سليمان عليه السلام وردها إلى مُلكها، وكان يزورها فى كل شهر مرة ، ويقيم عندها ثلاثة أيام ، وبقى ملكها إلى أن توفى سليمان ، فزال ملكها بموته .

الكلام على البسملة

وضحَ البيانُ وأنت فى غَرَرِ الهوى | متشاغلٌ ببطالةٍ وتَصابِى
ترتاح فى حُلَل المشيب مُنعَّماً[1] | أأخذتَ ميثاقاً من الأوصابِ
كم ناظرٍ قد راقَ حُسْنا ناظراً | أَبْلاه بالآفاتِ شرُّ مصابِ
لم يُغْنِ عنـه جمالُه وكمالُه | ومُقَام مُلْك فى أعز نِصابِ
وأتاه من حَرْب المَنُون مُعاجلٌ | صعبٌ شديد الوَهْنِ غير محابِ
فرأى اكتسابَ يديه ليس بنافعٍ | ودعا ذَوِيه فكان غيرَ مُجابِ
وحَواه لحـدٌ ضيِّق متهدِّمٌ | يعلوه كَرْبُ جنادلٍ وترابِ
فأفِقْ لنفسك والزمانُ[2] مساعِدٌ | وأطع نصيحَك ساعياً لِصوابِ
وارجع إلى مولاكَ حقًّا تائبا | من قبـل أن تَعْيَى بردِّ جوابِ

***

ألا متيقظ لما بَيْن يديه ، ألا متأهِّب للقدوم عليه ، ألا عامر للقبر قبل الوصول إليه .

تسمَّع فإن الموت ينذر بالصوت | وبادِرْ بساعات التُّقَى ساعةَ الموتِ[3]
وإن كنت لا تدرى متى أنت ميِّتٌ | فإنك تدرى أن لا بُدَّ من موتِ

إخوانى : إنما العمر مراحل ، وكأن قد بلغت سفينةُ الراحل[4] .

(١) ب : تنعما . (٢) ت : والنجاء مساعد . (٣) ت : بساعات البقا ساعة الفوت .
(٤) ت : سفينته الساحل .

دخلوا على أعرابي يعودونه فقالوا : كم أتى عليك ؟ فقال : خمسون ومائة سنة . فقالوا : عُمِّر والله . فقال : لا تقولوا ذلك فوالله لو استكملتموها لا ستقللتموها .

إخواني : من أخطأته سهام المنية قيَّده عِقَال الهرَم ، إن لكل سَفرٍ زادًا فتزوّدوا لسفركم التقوى ، وكونوا كمن عايَن ما أُعِدّ له ولا يَطُولَنّ عليكم الأَمَدُ فتقسوَ قلوبكم ، والله ما بُسِط أملُ من لا يدرى : أيصبح إذا أمسَى أو يُمْسى إذا أصبح .

لا تحسَبَنَّ الزمانَ يُنسِئك الـ قرْضَ ولكنه يداً بيدِ[1]
يُعطيك يوماً فيقتضيك غداً مَرِيرةً من مريرة الجسدِ[2]
يَسْرق الشيءَ مِنْ قُواكَ وإنْ كان خفيًّا عن أعين الرَّمِدِ[3]
حالاً فحالا حتى يردّيك بالكِبْرة بعدَ الشباب والغَيَدِ[4]

إخواني : إن العبَر قد وضحت، وإن النُّذر قد نصَحت ، وإن المواعظ قد أفصحت، ولكن النفوس من سُكرها ما صحَتْ ، أين الهمُّ المجتمع تفرق فما تنتفع ، يدعوك الهوى فتتبع ، ويحدثك المنى فتستمع ، كم زجرك ناصح فلم تطع ، وصَل الصالحون يا منقطع ، أما الذى عاقَك هو[5] مُختَدِع ، شرَوْا بما يفنى ما يبقى ولم تَشْرِ ولم تَبِع ، أين تعبهم نُسِخ بالرَّوْح ولم يضع ، تلمّح العواقب فلتلمّحك[6] العقلُ وضِع ، كأنه ما شَبِع ، من جاع ولا جاع من شَبِع ، أين الهمم الجدّة ، أين النفوس المستعدّة ، أين المتأهب قبل الشدة ، أين المتيقظ قبل انقضاء المدة ، عاتبْ نفسَك على قُبح الشِّيَم ، وحذِّرها من مثمرات الحزن والندم ، وامنعها تخليطها فقد طال السقم، وذكّرها لحاقها بمن قد سبق من الأمم ، واحضر معها باب الفكر فإنه نعم الحكَم ، ونادها فى الخلوات إلى كم مع الشُّبَات وكم .

رُبَّ حَتْفٍ بين أثناء الأملْ وحيــاةُ المرءِ ظِــلٌّ ينتقلْ
لو نجـا شيء تحت صاريةٍ[7] يَهْجَر السَّهلُ ويُجْبِل الجبَلْ

---

(١) ينسئك : يبيعك إلى أجل . (٢) المريرة : الشدة والقوة. والجسد : يراد به هنا السلب والحرمان .
(٣) الرمد : المصاب برمد فى عينه . (٤) الغيد : أول الشباب . (٥) ب : لهو مختدع .
(٦) ت : فلتلمحها . (٧) كذا بالأصل : والصارى : الحافظ . ويقال : أجبل القوم إذا صاروا إلى الجبل . وتجبلوا : دخلوا فى الجبل .

أين من كان خَفِيّ شَخْصه مثل قدّ السَّيْر إن عَض قَتَلْ
أين من يَسْلم من صَرْف الرَّدَى حكَم للوتُ علينــــا فعدَلْ
وكأنّا لا نرى ما قد نَرى وخطوبُ الدهر فينا تَنْتَضِلْ
فرويدا بظـــلام صبحه(١) فهى الأيام والدهر دُوَلْ

الكلام على قوله تعالى

«لا أُقْسِم بيوم ِالقيامة»

قال المفسرون : لا زائدة . والمعنى : أقسم . وقال بعضهم : « لا » رَدّ على منكر البعث . قال ابن قتيبة : زيدت « لا » على نيــة الرد على المكذبين ، كما تقول : لا والله ما ذاك كما تقول .

«ولا أُقْسِم بالنَّفْس اللوَّامة » فيها ثلاثة أقوال : أحدها : أنها التى تلوم نفسها حين لا ينفعها اللوم . قاله ابن عباس .

والثانى : أنها نفس المؤمن التى تلومه فى الدنيا على تقصيره . قاله الحسن . فعلى هذا تكون ممدوحة .

والثالث : أنها جميع النفوس . قال الفراء : ليس من نفس بَرّة ولا فاجرة إلا وهى تلوم نفسها ، إن كانت عملت خيرا قالت : هلّا زِدْتُ . أو شرا قالت : ليتنى لم أفعل . وجواب القسَم محذوف ، تقــديره : لَتُبْعَثن ، يدل عليــه قوله : « أيَحْسَب الإنسانُ أن لَنْ نَجْمَع عِظَامَه » والمراد به الكافر .

« بلى قادرين » المعنى : بل نجمعها قادرين « على أن نُسَوِّى بَنَانَه » والبنان : أطراف الأصابع . وفى المعنى قولان : أحدهما أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئا واحدا كحافر الحمار وخفّ البعير فيُعْدَم الإرفاق بالأعمال اللطيفة ، كالكتابة والخياطة . هذا قول الجمهور . والثانى : نقدر على تسوية بنانه كما كانت وإن صَغُرت عظامها ، ومن قدر

(١) كذا بالأصل.

على جمع صغار العظام كان على جمع كبارها أقدر . وهذا قول ابن قُتَيبة والزّجاج .

قوله تعالى : « بل يريد الإنسان ليَفْجُر أمامه » فيه قولان : أحدهما : يكذّب بما أمامه من البعث والحساب . قاله ابن ابن عباس . والثانى : يقدم الذنب ويؤخر التوبة ويقول: سوف أتوب . قاله سعيد بن جبير . فعلى هذا يراد بالإنسان المسلم وعلى الأول الكافر .

قوله تعالى : « يَسْأل أيّانَ يَوْمُ القيامة » أى متى هو ، تكذيباً به. فهذا هو الكافر .

« فإذا بَرِق البَصَرُ » قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحمزة والكسائى: « بَرِق » بكسر الراء . وقرأ نافع بفتحها ، وهما لغتان ، تقول العرب : برق البصر يَبْرِق وبرق يَبْرَق ، إذا رأى هَوْلًا يفزع منه .

ومتى يبرق البصر؟ فيه قولان : أحدهما يوم القيامة يَشْخص بصر الكافر فلا يطرف لما يرى من الأمور التى كان يكذّب بها فى دار الدنيا . قاله الأكثرون . والثانى : عند الموت . قاله مجاهد .

قوله تعالى « وخسف القمر » أى ذهب ضَوْؤه . قال أبو عبيدة : خسف وكسف بمعنى واحد .

قوله تعالى « وجُمِع الشمسُ والقمر » قال أبو عبيد : إنما قال جُمِع لتذكير القمر . وفى هذا الجمع قولان : أحدهما جمع بين ذاتيهما . قال ابن عباس(١) : جمعا كالبعيرين وكالفرسين(٢) . وقال عطاء بن يَسار : يُجمعان ويقذفان فى البحر . وقيل فى النار . وقيل يجْمعان فيطلعان من المغرب . والثانى : جُمِع بينهما فى ذهاب نورها . قاله الفرّاء والزّجّاج .

قوله تعالى : « يقولُ الإنسانُ » يعنى المكذِّب بيوم القيامة : « أين المَفَرّ » أين الفرار « كَلاَّ لا وَزَرَ » أى لا ملجأ « إلى ربِّك يومئذ المستقَرّ » أى المنتهى والرجوع « يُنَبَّأ الإنسان يومئذ بما قدَّم وأخَّر » فيه ثلاثة أقوال : أحدها : بما قدَّم قبل موته وما سَنَّ من شيء فعمِل به بعد موته . قاله ابن مسعود . والثانى : بأول عمله وآخره .

---

(١) ت : قال ابن مسعود .   (٢) ب : والقرينين . وما أثبته من ت .

قاله مجاهد . والثالث : بما قدَّم من الشر وأخَّر من الخير . قاله عكرمة وقال : بما قدم من معصيته وأخَّر من طاعته .

***

واأسفاً من الصحيفة إن نشرها ، واحزنا على الذنوب إن أظهرها ، واحسرتا على خطايا ما غفرها ، من[١] لمن حادَ عن الطريق وقد أبصرها ، من لمن شاهَد نجاته وكأنه لم يرها ، تالله لقد آذى العاصى نفسه وعثَّرها ، كم سمع موعظة من مذكِّر قد كررها ، ثم أعرض عنها بعد أن فهمها وتدبَّرها ، ويحك إلى متى تضيع زمنك ، وإلى متى إيثار فتَنِك ، أما آن التنبه من وِسَنك ، أما حق أن تميل عن سَنَنك ، يا لاهيا أتنسى وقت حَزَنك ، يا بائعا نفسه أرضيت الفانى بثمنك ، أين فهمك الثاقب وجودة[٢] فطنك ، كم بقى بين سرِّك وبين علَنك ، أين زاد رحيلك وعُدّة كفنك ، إلى متى مع الدنيا كم مع وثَنك ، كيف السبيل إلى صلاحك وتلافيك ، وكل ما ذكره العائب وتَلا فيك ، أمَا يزعجك تخويف : « وتلك القرَى أهلكناهم[٣] » أمَا ينذرك إعلام : « وكذلك أخْذُ ربِّك[٤] » أمَا يقصم عُرَى عزائمك : « وكم قصمْنا مِنْ قرْية[٥] » أمَا يقصِّر من قصورك : «وبئرٍ مُعطَّلةٍ وقَصْرٍ مَشِيد[٦]» أما يكفى لمثلك مثل : « وقد خلَتْ من قَبْلهم المَثُلاتُ[٧] » أما رأيت شَمال العقوبة كيف فرَّقت شَمْلهم ، لقد مرت فى جوِّ التخويف تهتف بالعصاة : « فكُلاًّ أخذْنا بذَنْبه[٨] » .

يا هذا لا نومَ أثقل من الغفلة ، ولا رِقَّ أملَك من الشهوة ، ولا مصيبة كموت القلب ، ولا نَذِير أبلَغ من الشَّيْب :

ألا تَسْلو فتقصر عن هواكا فقَدِّر شَيْبَ رأسك كان ذاكا[٩]
أكلَّ الدهر أنت كما أراكا تراك إلى الممات كذا تراكا

---

(١) الأصل : ما لمن . (٢) ب : وفطنك . (٣) سورة الكهف ٥٩ .
(٤) سورة هود ١٠٢ . (٥) سورة الأنبياء ١١ . (٦) سورة الحج ٤٥ .
(٧) سورة الرعد ٦ . (٨) سورة العنكبوت ٤٠ . (٩) ت : فقدر مشيب رأسك .

أراكَ تزيدُ حِذْقاً بالمعاصِي وتغفلُ عن نصيحة من دعاكا[1]

***

يا قوم غرقت السفينة ونحن نِيَام ! أبوكم لم يسامَحْ فى حَبَّـة حِنْطة ، وداود لم يساهل فى نظرة .

يا مُدْمن الذنوب مذ كان غلاما ، علام عوَّلْتَ قل لى على ما ، أتأمن ما أتى من أتى حراما ، أما ترى ما حلَّ بهم من الذنوب إليك قد ترامى ، آه لجفن عَلِم ما سيَلْقى كيف يلقى منامَاً ، أين أرباب الأسمار والنَّدامَى ، كلُّ القوم فى قبورهم ندامَى ، قل لى من اتخذتَ فى أمورك إماما ، أمَا ما جرى على العصاة يكفى أماما ، إلى كم تضيع حديثا طويلا وكلاماً ، ما أرى داءك إلا داء عقـاما ، أما تؤثر نيران تخويفك ؟ صارت بردا وسلاما .

فذكِّرِ النفسَ هَوْلاً أنت راكبُه وكُرْبةً سوف تَلْقَى بعدها كُرَبَا
إذا أتيتَ المعاصِي فاخش غايتَها من يَزْرع الشوكَ لا يَجْنى به عنبَا

***

إلى متى أعمالك كلها قِبَاح ، أين الجِدّ إلى كم مزاح ، كثر الفساد فأين الصلاح ، ستفارق الأجسادُ الأرواح ، إما فى غدوّ وإما فى رواح ، سينقضى هذا المساء والصباح ، وسيخلو البِلَى بالوجوه الصِّبَاح ، أفى هذا شك أم الأمر مزاح ، أين سكران الراح راح ، حلّ للبلى والدود مباح ، لهما اغتباق به ثمّ اصطباح ، عليه نطاقٌ من التراب ووشاح ، عنوانه لا يزول مفهومه لا بَراح ، أتاه منكر ونكير كذا فى الأحاديث الصحاح ، فمن لمحتج مرعوب ومقاتل بلا سلاح ، مشغول عن من مدحَ أو ذمَّ أو بكى أو ناح ، لو قيل له تمنَّ كان العَوْد الاقتراح ، وأنّى وهل يطير مقصوصُ الجناح .

إخوانى : لا تقولوا من مات استراح أمَا هذا لنا قليل[1] ، إنّا لوقاح .

أنِسَ النـاسُ بالغِيَرْ وتعامَوْا عن العِبَرْ
قـل لِلّاهِ بيومِه فى غدٍ تعرف الخبَرْ

---

(١) الأصل : قليل .

يا بنى الحرص والتكا ثر والبَغْى والبَطَرْ
ليس باقٍ كفافٌ فكونوا على حَذَرْ
يا ضجيعَ البِلى على فُرش الصخر والمدَرْ
قد تزَوّدْتَ مأثمًا وإلى ربّك السَّفرْ

سجع على قوله تعالى

« يُنَبَّأُ الإنسان يومئذٍ بما قدَّم وأخَّر »

يا من يخطر فى ثياب الغفلة يتبختر ويتجبر، وقبائحه تكتب وهو لا يحسّ ويُزْبر[1]، بين يديك يوم قريب ما يتأخر « يُنَبَّأُ الإنسان يومئذ بما قدَّم وأخَّر » يا متعرضا بالذنب والعقاب ، يا غافلا عن يوم السؤال والجواب ، يا مبارزا بالمعاصى ربَّ الأرباب ، من أعظم جراءةً منك على العذاب قل لى ومن أصْبر ، نسيت معادك وأطَلْت أملَك ، وأعرضت إلى الهوى عن أمر من مَلَكَ ، ولو رفعت والله عملك إلى مِلك أعظَم ذلك وأكْبَر ، لقد أناحَ التقصير والتمادى ببابك ، وقلَّ[2] أن يعبق بريح الثواب شىء من أثوابك ، والشيطان يجرى منك مجرى الدم من آرابك ، فهو متمكن منك إذا قمت فى محرابك إلى حين قولك الله أكبر .

تقوم إلى صلاتك وأنت متكاسل ، وتدخل فى الصلاة بقلب غافل ، وتستعجل فى الصلاة لأجل العاجل ، وإذا نظرت بعد الصلاة إلى الحاصل : فالجسد أقْبَل والقلبُ أدْبَر .

يامن ذل المعاصى يعلوه ، يامظلم القلب متى تَجْلوه ، هذا القرآن يتلى عليك وتتلوه ولكن ما تتدبر .

يا مغترًّا بالزخارف والتمويه ، تُعْجَب بما تجمعه من الدنيا وتحويه ، هلك والله ذو عجَب أو كِبْر أو تِيه ، ونجَا والله أشعث أغبر ؛ أنت فى دار انزعاج فاحذر منها لا تَرْكَن

(١) يزبر : يمنع . (٢) ب : وقل لى : محرفة .

إليها ولا تأمنها ، إنما أُسكنتها لتخرج عنها ، فتأهب للنُّقْلة فما يُستوطن مَعْبَر ، أين من كان يتنعم فى قصورها قد فسح لنفسه فى توانيها وقصورها ، خدعَتْه والله بغرير غرورها بعد أن ساس الرعايا ودَبَّر ، نقلته والله صريعا سريعا ، وسلبتْه والله ما جمعه جميعا ، وبَزَّته كِبْرا كبيرا وعِزًّا منيعا ، أتراه يفتخر فى قبره أو يتكبر ، خلا بعمله فى ظلام لحده لم ينفعه غير اجتهاده وجدّه ، لو قُضِى برجوعه إلى الدنيا وردّه لحدثنا بهذا أو أخبر .

فتنبه أنت من رقداتك ، وكن وصىَّ نفسك فى حياتك ، فلقد بالغت الزواجرُ فى عظاتك ، كم تسمع موعظة وكم تجلس تحت مِنْبر ، يالها من نصيحة لو وجدت نَفاذاً ، هى حُجة عليك إذا لم تسكن مَلاذا ، والشىء إذا لم ينفع فربما آذى ، وأنت يا هذا بعد هذا بنفسك أَخْبَر .

المجلس الثانى والعشرون

فى قصة سبأ

الحمد لله المتفرد بالعز والجلال، المتفضل بالعطاء والإفضال، مسخر السحاب الثقال، مربى الزرع تربية الأطفال، جلّ عن مثل ومثال، وتعالى عن حكم الفكر والخيال، قديم لم يزل ولا يزال، يتفضل بالإنعام فإن شُكِر زاد وإن لم يُشكَر أزال « لقد كان لسبإ فى مَسْكَنهم[1] آية جنّتان عَنْ يمين وشمال ».

أحمده على كل حال، وأصلى على رسوله محمد أشرف من نطق وقال، وعلى صاحبه أبى بكر الصديق باذل النفس والمال، وعلى عمر الفاروق العادل فما جارَ ولا مال، وعلى عثمان الثابت للشهادة ثبوت الجبال، وعلى [علىّ][2] بحر العلوم وبطل الأبطال، وعلى عمه العباس المقدم فى نسبه على جميع الأهل والآل.

***

قال الله تعالى : « ولقد كان لسبإ فى مسكنهم[1] آية جنّتان عن يمين وشمال[3] ».

سبأ هى القبيلة التى هم من أولاد سبأ، وكانت بلقيس لما ملكت قومها تراهم يقتتلون على ماء واديهم فجعلت تنهاهم فلا يطيعونها، فتركت مُلكها وانطلقت إلى قصرها فنزلته، فلما كثُر الشرُّ بينهم أتوها فسألوها أن ترجع إلى مُلكها فأبت، فقالوا : لترجعنّ أو لنقتلنك. فقالت إنكم لا تطيعونني. فقالوا : إنا نطيعك. فجاءت إلى واديهم وكانوا إذا مُطروا أتاه السيل من مسيرة خمسة أيام، فأمرت فسُدّ ما بين الجبلين بمُسَنّاة[4] وحبست الماء من وراء السد ؛ وجعلت له أبوابا بعضها فوقَ بعض. وبنت من دونه

---

(١) الأصل « مساكنهم » وهى قراءة . (٢) سقطت من الأصل . (٣) سورة سبأ ١٥ .
(٤) المسناة : السد .

بِرْكة وجعلت فيها اثنى عشر مَخْرجا على عدد أنهارهم ، فكان الماء يخرج منها بالسويّة، إلى أن أسلمت مع سليمان .

وقيل : إنما بنوا ذلك لئلا يَغْشَى السيلُ أموالهم فتهلك ، فكانوا يفتحون من أبواب السد مايريدون فيأخذون من الماء مايحتاجون إليه ، وكانت لهم جنتان عن يمين واديهم وعن شماله ، فأخْصبَتْ أرضُهم وكثرت فواكهُهم ، وإن كانت المرأة لتمرّ بين الجنتين والمِكْتَل على رأسها فترجع وقد امتلأ من الثمر ولا تمس بيدها شيئا منه ، ولم يكن فى بلدتهم حَيّة ولا عقرب ولا بعوضة ولا ذبابة ولا برغوث .

فبعث الله تعالى إليهم ثلاثة عشر نبيا وقيل لهم : « كُلُوا من رزق ربكم واشكروا له بلدةٌ طَيِّبة » أى هذه بلدة طيبة ، ولم تكن سبخة ولا فيها مايؤذى « وربٌّ غَفُور » أى والله رب غفور .

« فأعرضوا » عن الحق وكذّبوا الأنبياء « فأَرْسَلْنا عليهم سَيْلَ العَرِم » وفيه أربعة أقوال :

أحدها : أن العَرِم : الشديد . رواه ابن أبى طلحة عن ابن عباس . وقال ابن الأعرابى : إن العرم : السيلُ الذى لا يطاق .

والثانى : أنه اسم الوادى . رواه عطية عن ابن عباس . وبه قال قتادة والضحاك .

والثالث : أنه المسنَّاة . قاله مجاهد والفراء وابن قتيبة . وقال أبو عبيدة :العَرِم جمع عَرِمة وهى السَّكْر [1] والمُسنَّاة .

والرابع : أن العرم : الجرذ الذى نقب عليهم السكر . حكاه الزجاج .

وفى صفة إرسال هذا السيل عليهم قولان . أحدهما : أن الله تعالى بعث عليهم على سكرهم دابة فنقبته . روى عطية العَوْفى عن ابن عباس أنه قال : بعث الله تعالى عليهم دابة من الأرض فنقبت فيه نقبا فسال ذلك الماء إلى موضع غير الموضع الذى كانوا ينتفعون

(١) السكر . سد النهر وكذلك المسناة.

به . وقال قَتَادة والضحاك : بعث الله عليهم جُرذا يسمى الخُلْد ، والخلد الفأر الأعمى ، فنقبه من أسفله فأغرق الله به جناتهم وخرب الله به أرضهم .

والثانى : أنه أرسل عليهم ماء أحمر فنسف السدّ وهدَمه وحفر الوادى . قاله مجاهد .

قوله تعالى : « وبَدَّلناهم بجَنّتيْهم » يعنى اللتين كانتا تُطْعم الفواكه « جنتين ذواتَىْ أُكُل خَمْط » قرأ ابنُ كَثِير ونافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى : « أُكُلٍ ». بالتنوين وقرأ أبو عمرو « أُكُلِ ».بالإضافة . والأُكل : الثمر . وفى المراد بالخَمْط ثلاثة أقوال : أحدها : أنه الأراكٌ . قاله الحسن ومجاهد والجمهور . فعلى هذا أُكله ثمره . وثمرة الأراك : البَرِير . والثانى : أنه كلُّ شجرة ذات شوك . قاله أبو عبيدة . والثالث . أنه كل نَبْت قد أخذ طعماً من المرارة حتى لا يمكن أكله . قاله المبرِّد والزجاج. فعلى هذا القول : الخَمْط : اسم للمأكول .

والأَثْل : الطَّرْفاء . قاله ابن عباس . وقوله تعالى : « وشىء من سِدْر » وهو شجر النَّبق . والمعنى أنه كان الخمط والأثل فى جنتهم أكثر من السِّدْر .

« ذلك جزَيْناهم بما كَفروا » أى ذلك التبديل جزيناهم بكفرهم « وهل نُجَازِى إلا الكَفُور » قال طاوس : الكافر يجازى ولا يُغفر له ، والمؤمن لا يناقَش الحساب . وقال الفراء : المؤمن يُجْزَى ولا يجازى ، فيقال فى أفصح اللغة : جزى الله المؤمن ولا يقال جازاه بمعنى كافأه . والكافر يجازى بسيئة مثلها مكافأة له ، والمؤمن يتفضل عليه .

قوله تعالى : «وجعلنا بينهم » هذا معطوف على قوله : « لقد كان لِسَبإٍ » والمعنى: مِنْ قصصهم أنّا جعلنا بينهم وبين القُرَى التى بارَكْنا فيها وهى قُرى الشام « قُرىً ظاهِرةً » أى متواصلة ينظر بعضها إلى بعض « وقَدَّرْنا فيها السَّيْر» فيه قولان : أحدهما : أنهم كانوا يَغْدون فيَقِيلون فى قرية ويرجعون فيبيتون فى قرية . قاله الحسن وقتادة . والثانى . أنه جعل مابين القرية والقرية مقدارا واحدا . قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى « سِيرُوا فيها » المعنى : وقلنا لهم سيروا فيها « لَيَالِيَ وأياماً » أى ليلا ونهارا آمنين من مخاوف السفر من جوع أو عطش أو سبع أو تعب .

فبَطِروا النعمةَ وملُّوها ، كما مَلَّ بنو إسرائيل المنَّ والسلوى « فقالوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنَا » قرأ ابن كثير وأبو عمرو . « بَعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائى : « باعِدْ » روى عطية عن ابن عباس أنه قال : بطروا عيشهم وقالوا : لو كان جنَى جناتنا أبعد مما هى كان أجدَر أن نشتهيه .

« وظَلَمُوا أنفسَهم » بالكفر وتكذيب الرسل « فجَعَلْناهم أحاديثَ » لمن بعدهم يتحدثون بما فُعل بهم « ومَزَّقْناهم كُلَّ مُمَزَّقٍ » أى فرقناهم فى كل وجه من البلاد كل التفريق ، لأن الله تعالى لمـا أغرق مكانهم وأذهب جنتهم تبدّدوا فى البلاد وصارت العرب تتمثل فى الفرقة بقوم سبأ يقولون : تفرّقوا أيدى سَبا .

***

وقد حَذّرت هذه القصة من الخلاَف وبينت عقاب تاركى الشكر .

الكلام على البسملة

تعلَّقْتَ بآمالٍ طِوالٍ أىَّ آمالِ
وأقبلتَ على الدنيا مُلِحًّا أىَّ إقبالِ
فياهذا تجهَّزْ لـ فراقِ الأهلِ والمالِ
فلا بُدَّ مِن الموتِ على حالٍ من الحالِ

متى تفيق من هذا المرض المراض ، متى تستدركُ هذه الأيام الطوال العِراض ، يا غافلاً عن سهام الموت الحدّاد المَواض ، تالله لقد أصابَ السهمُ من قبل الإنباض(١) ، ولقد آن لجمع الحياة الشَّتاتُ والانفضاض ، وحانَ لبنيان السلامة الخرابُ والانتقاض ، وحُقَّ للمقْرِض أن يطالب المقرَض بالإقراض ، ودنا من مبسوط الآمال الاجتماع

(١) الإنباض : تحريك القوس لينطلق السهم .

والانقباض ، أما الأعمارَ كلَّ يوم فى انقراض ، لقد نهتْ قبل شَكَّة السهم صَكَّة[1] المِقراض ، أما ترى الراحلين ما ضياً خلفَ ماض ، كم بنيان ماتَمَّ حتى تَمَّ مأتَمٌ وهذا قد استفاض ، كم حُطَّ ذو خَفْض على رَغْم فى رُغَام وانخفاض ، انهض بجدّك والعاقل ناهض قبل الإنهاض ، إن الموت إليك كما كان لأبويك فى ارتكاض ، إن لم تقدر على مَشَارع الصالحين رِدْ باقى الحِيَاض ، إن لم تكن بنت لَبُون فلتكن بنت مَخَاض[2] ، إلى متى وحتى أتعبت الرُّوَّاض ، أمالك أنَفَةٌ من هذا التوبيخ ولا امتعاض ، كلما بنى نصيحُك نقَضْتَ وما يعلو بناء مع نقّاض ، يا من باع نفسه بلذة ساعة بَيعاً عن تَراض ، لبئس ما لبستَ أتدرى ما تعتاض ، يا علةً لا كالعِلَل ويامرضاً لا كالأمراض، إنما تُجزَى بقدر عملك عند أعدل قاض .

قَصْرُك[3] الشيبُ فاقضِ ما أنت قاض ببِدارٍ من قبل حين البيَاضِ
إنّ شَرْخَ الشبابِ قَرْضُ الليالى فتصرَّف فيه قبلَ التقاضى

***

العاقلُ مَن راقبَ العواقب ، والجاهلُ مَن مضى قُدُماً ولم يُراقِب ، أينَ لذّةُ الهوى زالت وكأنها لم تكن إذ حالت ، أين الذين برَوْا أقلام المنَى وقطُّوا ، وكَتَبوا صِكاكَ الآمال وخَطُّوا ، وتحكَّموا فى بلوغ الأغراض واشتطّوا ، وانفردُوا بما جمعوا فخزَنوا ولم يُعطوا ، علَوْا على عالٍ وما أسرَع ما انحطّوا ، وسارت بهم مطايا الرحيل تُحْذِى بهم وتَمْطُو[4] .

فكم مِنْ صحيح باتَ لِلموتِ آمناً أتتْه المنايا بَغتةً بعدما هَجع
فلم يستطع إذ جاءه الموتُ فَجْأةً فِراراً ولا منه بقوّته امتنَع
فأصبح تَبْكيه النساء مقنَّعا ولا يَسْمع الداعى وإنْ صوتَه رفَع

(١) الصكة : الضربة (٢) بنت لبون : الناقة إذا كانت فى العام الثانى واستكملته أو إذا دخلت فى الثالث . وبنت مخاض : الناقة التى دخلت فى السنة الثانية . (٣) قصرك : غايتك .
(٤) تمطو : تجد فى السير .

وقُرِّب من لَحْدٍ فصارَ مقيلَه وفارقَ ماقد كان بالأمسِ قد جَمعْ

***

ياحريصا على الدنيا مضى عمرك فى غير شىء ، انقشع غَيْمُ الزمان لاعن هِلَال الهُدَى ، مالذتْ لذةُ الدنيا إلا لكافر لا يؤمن بالآخرة ، أو لقليل العقل لا ينظر فى عاقبة ، الدنيا خراب وأَخْربُ منها قلبُ من يَعْمُرها ، إلى أىّ حين مع الصِّبَا ، أما يكفى ما قد مضى ، إلى كم هذا السكرَى أين التيقظ لحلول الثرى ، كم قد قتل قبلك المُنَى وإنما يفهم أولوا النُّهى ، ياأسير رُقاده ، يامريض فساده ، يامعرضا عن رشاده ، يامن حُبُّ الدنيا فى سَواد سواده ، ماينفعه النصح على كثرة تَرْداده ، سواء عليه ناداه أم لم يناده ، تالله لقد غمزَتْك الحوادث بسَلْب القُرَناء غَمْزا ، ولزَّك المتقاضى بالأجَل لو فهمت لَزّا [١] ، أمَا فى كل يوم بمحبوب تُعزّى ، أما ترى الأسِنّة تعمل طَعْنا ووَخْزا ، أما تشاهد مهنَّدات السيوف تُهز هزًّا ، أين من أوعد ووعد ، هل تحس منهم من أحدٍ أو تسمع لهم رِكْزاً .

على ذا ما مضَى وعليه نَمْضِى طوالُ مُنًى وآجالٌ قِصارُ
وأيامٌ تَعرَّفْنا مَداها أما أنفاسُنا فيها سُفَّارُ[٢]
ودهرٌ[٣] يَنْثُر الأعمار نَثْراً كما للغُصْن بالورقِ انتثارُ
ودُنْيا كلما وضَعت جَنينا غَذاه مِن نوائبها طِوَارُ[٤]
هى العَشْواء ماخبطتْ[٥] هَشِيمٌ هى العَجْماء ماجَرَحَتْ جُبارُ[٦]
فمن يَوْمٍ بلا أمسٍ ليومٍ بغير غَدٍ إليه بنا يُسَارُ

الكلام على قوله تعالى

﴿ رفِيع الدَّرَجات ﴾

قال ابن عباس : رافع السموات « ذو العرش » أى هو خالقه ومالكه .

---

(١) لزتك : شدتك وألصقتك . (٣) السفار . بضم السين وتشديد الفاء : المسافرون ، وخففت الفاء لضرورة الوزن . (٣) ب : ودهرا . (٤) الطوار : المقدار . (٥) ب : ماخطبت . محرفة والتصويب من ت . (٦) العجماء : الدابة . وجبار : هدر لادية فيه .

سجع

زين السماء بالنجوم تزيين النقش، وجمع الثريا وفرق بنات نعش ، ومد الأرض كتمهيد الفرش ، وأنزل القطر بين الوبل والطش[1] ، وحمل الآدمي على الفرش والنعش ، بينا هو يلهو جاء أمر[2] زاد على الحرش[3] ، وضج لمرضه وما يصبر على الخدش ، ثم يقيمه للقيامة بالبعثرة والنبش ، سبحانه من عظيم شديد البطش « رفيع الدرجات ذو العرش » .

قوله تعالى : « يلقي الروح » وهو الوحي « من أمره » أي بأمره « على من يشاء من عباده وهم الأنبياء « لينذر يوم التلاق » وفيه خمسة أقوال : أحدها أنه يلتقي أهل السماء والأرض . رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس وبه قال بلال بن سعد . والثاني يلتقي الأولون والآخرون . روى عن ابن عباس أيضا . والثالث : يلتقي الخالق والمخلوق.. قاله قتادة . والرابع: المظلوم: والظالم قاله ميمون ابن مهران . والخامس : يلتقي المرء بعمله . قاله[4] الثعلبي .

سجع على قوله تعالى

﴿ لينذر يوم التلاق ﴾

يوم تذل فيه الأعناق لهيبة الخلاق ، ويخسر[5] أهل الشقاق بالرياء والنفاق ، وتشهد الصحف والأوراق بالأعمال والأخلاق ، وتسيل دموع الآماق من الأحداق على تفريط الاباق[6] ، ويضيق على العصاة الخناق إذا عز الإعتاق ، وتبرز الجحيم فيها الحميم والغساق معد للفجار والفساق ، لفحتهم فأحالت جمالهم وما لهم من الله من واق ،

(١) الوبل : المطر الشديد . والطش : المطر الضعيف . (٢) ت : فزاد . (٣) زاد على الحرش : أصله المثل : هذا أجل من الحرش . والحرش : صيد الضب . ومن أساطير العرب : أن الضب إذا ولد ولداً حذره الحرش ، فبينا هو وولده في تلعة سمع وقع محفار على فم الجحر فقال : يا أبت الحرش هذا ؟ فقال : يابني هذا أجل . (٤) ت : حكاه الثعلبي . (٥) ت: ويحشر .
(٦) الأباق : جمع آبق . وهو العبد الهارب .

واطّلعت على الأفئدة وبواطن الأعماق يَحلّون[(١)] بها ولا يُحلّ لهم وثاق ، حرها شديد ويزيد بإطباق الأطباق ، وأسفا كم يُهدّدون[(٢)] وكم كم إحْداق، هذا وأهلُ الجنة قد نالوا الرضا بالوفاق ، فازوا وحازوا[(٣)] مراتب السبّاق ، فهم فى ضياء نورٍ كامل وإشراق ، ونعيم لا يحاط بوصفه مديد الرواق ، وكؤوس مملوءة فياحُسْن الدِّهَاق، كانوا يشتاقون إلى المحبوب وهو إليهم بالأشواق ، حدَا لهم حادِى العزم فجدّت النِّياق ، وقــد أعلمنا بما يجرى على الفريقين يومَ الافتراق « على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق » .

***

« يومَ هُمْ بارزُون » أى ظاهرون من قبورهم « لا يَخْفَى على الله منهم شىء » فيه ثلاثة أقوال : أحدها : لا يخفى عليه من أعمالهم شىء . قاله ابن عباس . والمراد التهديد بالجزاء وإن كان لا يخفى عليه اليوم شىء . والثانى : لا يستترون منه بجبل ولا مدَر . قاله قتادة . والثالث : أن المعنى : أبرزهم جميعا . حكاه الماوردىّ .

***

قوله تعالى : « لِمَن المُلْكُ اليوَم » اتفقوا على أن هذا الـكلام يقوله الله تعالى بعد فناء الخَلْق ، واختلفوا فى وقت قوله على قولين : أحدهما : أنه يقوله عند فناء الخلائق إذا لم يبق مجيب ، فيردّ هو على نفسه فيقول : لله الواحد القهار . قاله الأكثرون .

والثانى : أنه يقوله فى القيامة . وفيمن يجيبه قولان : أحدهما أنه يجيب نفسه ، وقد سكتت[(٤)] الخلائق لقوله . قاله عطاء . والثانى : أن الخلائق يجيبونه فيقولون : لله الواحد القهار . قاله ابن جُريج

سجع

إذا خلت الدِّيار ولم يبق ديَّار وذهب الليلُ والنهار ، والإنس والجن والأطيار ، ونَضَبت البحارُ والأنهار ، وبُسَّت الجبال فصارت كالغُبار ، قال الملِك العظيم الجبار

(١) الأصل : يحلوا (٢) الأصل : كم يحدذون . (٣) ت : فازوا فجازوا فحازوا .
(٤) ت : سكت .

« لمن المُلكُ اليومَ لله الواحدِ القهّار ».

[قوله تعالى][1] : ﴿ اليومَ تُجْزَى كل نفس بما كَسبت ﴾

سجع

قامت الأقدام حتى تعبت ونصِبت ، وكلما سعَتْ تعثَّرت فى الطريق وكبَتْ ، وسقطت الجبال ولطالما انتصبت ، وظهرت المخبآت التى كانت قد احتجبت ، والحوضُ غزير الماء وكم نفسٍ ماشربت ، فجئ بالنيران[2] فزفرت[3] وغضبت ، ونهضت مسرعة إلى أربابها ووثبت ، فانزعجت[4] القلوب ورهبت وهربت ، وكيف لا تجزع وهى تدرى أنها قد طُلِبت ، وموازين الأعمال على العدل قد نُصِبت ، ونادى المنادى فبكت العيون وانتحبت : « اليومَ تجزَى كلُّ نفس بما كسبت » .

***

قوله تعالى : ﴿ لا ظلْمَ اليومَ ﴾ .

ميزان العدل تبين فيه الذرّة فاحذروا ، الظلم ظلماتٌ يوم القيامة فاذكروا ، إن الله سريع الحساب قد بقى القليل لإتيانه .

« وأنذِرهم يومَ الآزفة » يعنى يوم القيامة. وسمّيت آزفةً لقربها ، يقال أزِف شُخوصُ فلانٍ أى قَرُب .

« إذ القلوبُ لدَى الحناجر » وذلك أنها ترتقى إلى الحناجر فلا تخرج ولا تعود « كاظمين » أى مغمومين ممتلئين خوفاً وحزناً « ماللظالمين من حَميم » أى قريب ينفعهم « ولا شفيعٍ يُطَاع » فيهم فتقبل شفاعته .

سجع

لو رأيت الظَّلَمة قد ذَلّوا بعد الارتفاع ، وصاروا تحت الأقدام وكانوا على يَفَاع ،

---

(١) من ت . (٢) ت : وجىء بجهنم . (٣) ب : فزفت . (٤) فأزعجت .

وبكوا ولا ينفعهم على.وفَاق الطِّباع ، وكِيل لهم الجزاء عدلًا بأوفر صاع ، وعلموا أن الأعمار مرّت بالغرور والخِدَاع ، وأن مُلكا كانوا فيه بئس المتاع ، ودّوا لو أن لقاء الدنيا كان لهم الوداع ، مرضوا بالحسراتِ والحسرات أشدّ الأوجاع ، وندم من مَدَّ الباع فاشترى ما يَفنى وباع ، لا يُنظر إليهم يوم القيامة كأنهم رَدِيءُ المتاع ، ظهر ذُلّهم بين الخلائق كلِّهم وشاع ؛ ورأوا من الأهوال ما أزعجهم وراع ، حشر الخلائق كلهم يومئذ فى قاع ، وطارت الصحف والرِّقاع فى تلك البقاع ، وقرِّبت الأعمال ونودى : سَماع سماع ، ونفعت الشفاعة للمؤمنين[1] وما للفجار انتفاع « ما لِلظّالمين مِنْ حَمِيم ولا شَفِيع يُطاع » .

***

قوله تعالى : « يَعْلم خائِنَة الأعْيُنِ » قال ابن قتيبة : الخائنة والخيانة واحد . وللمفسرين فيها ثلاثة أقوال : أحدها : أنه الرجل يكون فى القوم فتمرّ به المرأة فيريهم أنه يغضّ بصَره فإذا رأى منهم غفلةً لحظ إليها ، فإن خاف أن يَفطنوا له غضَّ بصره . قاله ابن عباس . والثانى : أنه نظر العين إلى ما نُهى عنه . قاله مجاهد . والثالث : الغمز بالعين . قاله الضحاك . وقال قتادة : هو الغمز بالعين فيما لا يحبه الله تعالى ولا يرضاه .

قوله تعالى : «وما تُخْفِي الصُّدورُ » فيه ثلاثة أقوال : أحدها : ما تضمره من الفعل أنْ لو قدرت على مانظرت إليه. قاله ابن عباس. والثانى : الوسوسة . قاله السُّدى . والثالث : ما تُسرّه القلوب من أمانة أو خيانة . حكاه الماوردى .

سجع

ذنوبك ظاهرة لا تحتاج إلى تفتيش ، حيّة لسانك فى الملاهى من الحيات المناهيش ، كيف تلحق الصالحين وهل يطير طائر بلا ريش ، تغتاب الرفقاء وتعيب الأصدقاء مع من تعيش ، لا عملك لنا خالص ولا تُقاك لهواك قانص ، لقد رضيتَ المعايب والنقائص أمَا ظِلُّ الحياة ظلٌّ قالِص ، كم قبضَ الموت كفٌّ قانص . كم أَشْخَص الردَى من طَرفٍ

(١) الأصل : المؤمن .

شاخص ، كأنك بك وقد جاءك المُغَافِص[1] ولقيت كلَّ الأذى من أدنى القوارص ، ورأيت هولًا ترْعِد منه الفرائص[2] ، وصاحوا ثم قالوا خلُّوه فهو عائص[3] ، وبكى لمصرعك العدو والولى المخالص .

سألتُ بنى الأيام عن ذاهـــل الصِّبا ... كأنك قلت الآن مافعل الطَّسْمُ[4]
مضى الشخصُ ثم الذِّكر فانقرضا معًا ... ومامات كلَّ الموت من عاش منه اسمُ
ألا ذَلِّلوا هـذى النفوسَ فإنهـــا ... ركائب شرٍّ ليس يضبطها الحزمُ

***

يامن عليه منازل الموت تدور ، وهو مستأنس بالمنازل والدور ، لا بد أن تخرج من القصور على التوانى والقصور ، لا بد من الرحيل إلى بلاد القبور على الغفلات وعلى الفتور ، أهلكك والله الغرور بفنون الخداع[5] والغُرور ، يامظلم القلب وما للقلب نور ، الباطن خراب والظاهر معمور ، لو ذكرت القبر المحفور كانت عين العين تفور ، ولو تفكرت فى الكتاب المسطور دفنت الاستغفار بين السطور ، ولو تصورت النفخ فى الصور والسماء تتغير وتمور ، والنجوم تتكدر وتغور ، والصراط ممدود ولا بدمن عبور ، وأنت متحير فى الأمور تبكى على خلاف المأمور ، ستحاسَب على الأيام والشهور ، وترى مافعلْته من فجور فى النهار والدَّيْجور ، ستحزن بعد السرور على تلك الشرور إذا وفِّيت الأجُور ، وبان المواصِل من المهجور ، ونجا المخْلصون دونَ أهلِ الزور ، تصلى ولكن بلا حضور ، وتصوم والصوم بالغيبة مغمور ، لو أردت الولدان والحور لسألتهم وقت السحور ، كم نتلطف بك ياَنفُور ، كم نُنْعم عليك يا كفور ، كم بارزت بالقبيح والكريم غفَور « يَعْلم خائنة الأعين وما تُخْفى الصدور » .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) المغافص : المفاجىء الذى يأخذ على غرة . (٢) الأصل : الفوارص . (٣) عائص : متحير
(٤) الطسم : قبيلة من عاد انقرضوا . (٥) ت : الخدع .

المجلس الثالث والعشرون

فى قصة يونس عليه السلام

الحمد لله الواحد الماجد العظيم ، الدائم العالم القائم القديم ، القدير البصير النصير الحليم ، القوى العلى الغنى الحكيم ، قضى فأسقم الصحيح وعافَى السقيم ، وقدر فأعان الضعيف وأوهَى القويم ، وقسم عباده قسمين طائع وأثيم ، وجعل مآلهم إلى دارين دار النعيم ودار الجحيم ، فمنهم من عصَمه من الخطايا كأنه[1] فى حَرِيم ، ومنهم من قضى له أن يبقى على الذنوب ويقيم ، ومنهم من يتردد[2] بين الأمرين والعمل بالخواتيم[3] ، خرج موسى راعياً وهو الكَليم ، وذهب ذو النون مغاضِبا فالتقمه الحوت وهو مُليم ، وكان محمد صلى الله عليه وسلم يتيما فكان الكَوْنُ لذلك اليتيم ، وعصى آدم وإبليس فهذا مَرْحوم وهذا رَجِيم ، فإذا سمعت بنيل المالك أو رأيت وقوعَ المهالك فقل : « ذلك تقديرُ العزيز العليم » أنعمَ علينا بالفضل الوافر العميم ، وهدانا بمَنِّه إلى الصراط المستقيم ، وحَذَّرنا بلطفه من العذاب الأليم ، ومَنَّ علينا بالكتاب العزيز القديم ، فهو مستحق الحمد ومستوجب التعظيم ، أحمده وكيف لا يُحمد ، وأشهد أنه لم يلد ولم يُولَد ، وأن محمداً عبده الأمجد ورسوله الأوْحد ، أخذ له الميثاق على أقْرب الأنبياء والأبْعَد ، وأقام عيسى يقول : « ومُبَشِّراً برسولٍ يأتى من بعدِى اسمه أحمد » وتوسل به آدمُ وقد أسْجِد له من أسجد من ملَك كريم ، صلى الله عليه وسلم ما سُلِك الطريق القويم ، وعلى صاحبه أبى بكر الصديق السابق إلى الإيمان والتصديق ، المحبّ الشفيق والرفيق الرقيق حين يسافر وحين يقيم ، وعلى عمَرَ الذى عَمر من الدين ما عَمر ودفع الكُفْر فدبَّر بأحسن تدبير وأكمل تقويم ، وعلى عثمان الشريف قَدْره الكثيف سِتْره الذى احتسب عند الله صَبْره على ما ضِيم ، وعلى علىٍّ مدار العلماء وقُطبهم ، ومقدَّم الشجعان فى حَرْبهم والمؤمنون

---

(١) ت : فكأنه . (٢) ت : تردد . (٣) ب : للخواتيم .

من كربهم فى مُقْعَد مُقِيم ، وعلى العباس عمه وصِنْو أبيه ، أقرب الخلق إليه نسباً يليه .

***

قال الله تعالى : « وإن يُونس لِمَن المرسَلِين »(١) يونس اسم أعجمى . وفيه ست لغات : ضم النون وفتحها وكسرها والهمز مع اللغات الثلاث .

وكان يونس من ولد يعقوب ، وكان عابداً من عبّاد بنى إسرائيل فرأى ما هم فيه من الكفر ، فخاف أن تنزل بهم عقوبة ، فخرج هارباً بنفسه وذريته وكانوا بنِينَوَى قرية من أرض الموصل ، فبعثه الله رسولاً إليهم فدعاهم إلى الله تعالى وأمرهم بترك عبادة الأوثان(٢) ، وكان رجلا فيه حِدّة ، فلما لم يقبلوا أخبرهم أن العذاب مُصَبّحهم بعدَ ثلاث. فأقبل العذابُ . قال ابن عباس رضى الله عنهما : لم يبق بين العذاب وبينهم إلا قدر ثلثى ميل ووجدوا حَرّه على أكتافهم . وقال سعيد بن جُبير : غشِيهم العذابُ كما يغشى الثوبُ الضَّفْر(٣) . وقال غيره : غامت السماء غيماً أسود يُظهر دخانا شديدا فغشى مدينتهم فاسودّت أسطحتهم ، فلما أيقنوا بالهلاك لبسوا المسُوح وحثَوْا على رءوسهم الرماد ، وفرّقوا بين كل والدة وولدها من الناس والأنعام وعَجُّوا إلى الله تعالى بالتوبة الصادقة وقالوا : آمنا بما جاء به يونس . فكشف عنهم العذاب فقيل ليونس : ارجع إليهم فقال : كيف أرجع إليهم فيجدونى كاذبا ، وكان من يكذب فيهم يُقتل .

فركب السفينة مغاضبا .

فإن قيل : فلمن غاضَب ؟ فالجواب : أنه غاضب قومَه قبل التوبة واشتهى أن ينزل بهم العذاب لِماَ عانى من تكذيبهم ، فعوتب على كراهية العفو عنهم ، فلما ركب السفينة وقفت فقال : ما لسفينتكم ؟ قالوا : لا ندرى . قال : لكنى أدرى ، فيها عبدٌ أبَق من ربه وإنها والله لا تسير حتى تُلقوه . قالوا : أمّا أنت والله يا نبى الله لا نُلقيك . قال : فاقترعوا فقُرِع يونس . وهو معنى قوله تعالى : « فساهَمَ » فألقى نفسه فى الماء « فالتقمه الحوتُ

---

(١) سورة الصافات ١٣٩ . (٢) ت : عبادة الأصنام . (٣) فى ت : الصفر . وفى ب : القبر . والضفر : الشعر المجتمع .

وهو مُلِيم » أى مُذْنب « فلَوْلَا أنَّه كان من المسبِّحين » أى من المصلّين قبـل التقام الحوت . وقيل : بل فى بطن الحوت .

وفى قدر مُكثه فى بطن الحوت خمسة أقوال : أحدها : أربعون يوما . قاله أنس وكعب وابن جُرَيج . والثانى : سبعة أيام . قاله سعيد بن جُبَير . والثالث : ثلاثة أيام . قاله مجاهد وقتـادة . والرابع : عشرون يوماً . قاله الضحاك . والخامس . بعض يوم . قال [١] الشَّعْبى : ما مكَث إلا أقلَّ من يوم ، التقمه الحوت ضُحًى فلما كان بعدَ العصر وقاربت الشمسُ الغروب تثاءب الحوتُ فرأى يونسُ ضوءَ الشمس فقال : « لا إله إلا أنت سبحانك إنِّى كنت من الظالمين » .

« فنبذناه بالعَرَاء [٢] » وهى الأرض التى لا يُتوارى فيها بشجر ولا غُبْرة « وهو سَقِيم » أى مريض . قال ابن مسعود : كهيئـة الفَرْخ الممعوط [٣] الذى ليس له ريش « وأنبتنا عليه شجرةً من يَقْطِين » وهى الدُّبَّاء [٤] وإنما أُنبتت عليه دون غيرها ليغطيه ورقُها ويمنع الذباب عنه فإنه لا يسقط على ورقه ذبابة . وقيَّض الله تعالى أُرْوِيّة [٥] من الوحش تروح عليه بكرةً وعشية فيشرب من لبنها . وقال وهب بن منبه : أنبت الله عليه الدُّبّاء فأظلّته ، ورأى خضرتها فأعجبته ، ثم نام فاستيقظ وقد يبست فحزن عليها فقيل له : أنت لم تخلق ولم تَسْق ولم تُنبت تحزن عليها ، وأنا الذى خلقت مائة ألفٍ من الناس أو يزيدون ثم رحمتهم فشقَّ عليك [٦] !

قوله تعالى : « وأرسلنـاه إلى مائة ألفٍ » المعنى : « وكنا أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون » المعنى : بل يزيدون . قاله ابن عباس . والثانى : أنها بمعنى الواو تقديره : ويزيدون قاله ابن قتيبة . وفى زيادتهم أربعة أقوال : أحدها : عشرون ألفا . رواه أُبَىّ ابن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . والثانى : ثلاثون ألفاً . والثالث : بضعة

---

(١) الأصل : قاله . (٢) ب : فنبذه . وقوله بالعراء . (٣) الممعوط : الذى لا ريش له .
(٤) الدباء : القرع . (٥) الأروية : أنثى الوعل . (٦) ب : فشق عليه . وما أثبته من ت .

وثلاثون ألفا . والقولان عن ابن عباس . والرابع : سبعون ألفا . قاله سعيد بن جُبَير .

فإن قيل : كيف قُبلت توبتهم ولم يقبل إيمان فرعون .

فالجواب من ثلاثة أوجه : أحدها: أن ذلك كان خاصًّا[1] لهم . كما فى الآية . والثانى : أن فرعون باشره العذاب ، وهؤلاء لم يباشرهم . ذكره الزّجاج . والثالث : أن الله تعالى عَلِم منهم صِدْق النيات بخلاف غيرهم . ذكره ابن الأنبارى .

***

فانظروا [إخوانى][2] إلى التوبة [النصوح][2] الصادقة كيف أثّرت ، وقاومت العذاب فدفعت ونفعت ، فَلْيلجأ العاصى إلى حَرم الإنابة ، وليطرقْ بالأسحار بابَ الإجابة[3] ، فما صدَق صادق فُردّ ، ولا أتى الباب مُخْلص فصُدّ ، وكيف يُرد من قد استُدْعِى فقيل لهم « توبوا » إنما الشأن فى صدق التوبة .

وليست التوبة نُطْق اللسان إنما هى ندَم القلب وعَزْمه أن لا يعود ، ومن شرط صحتها : أن تكون قبل معاينة أمور الآخرة ، فمن باشره العذاب أو عاينه فقد فات موسم القبول ، فاستدركوا قبل المفاجأة بالفوات الذى لا يُؤْمَن نسأل الله يقظة تحركنا إلى البِدار قبل أن يقع الفَوْت والخَسار .

الكلام على البسملة

يأتى على الناسِ إصباحٌ وإمساء	وكلُّنا لِصُروف الدهرِ نَسَّاء
يَثْوى الملوكُ ومِصْرٌ فى تغيّرهم	مِصْرٌ على العَهْد والأحْساء أحساء
خَسِسْتِ يا دار دُنْيانا فأفّ لمن	يَرْضى الخسيسة أو ناسٌ أخِسّاء
لقد نطَقْتِ بأصناف العِظات لنا	وأنت فيما يظن الناسُ خرساء
إذا تعطّفْتِ يوماً كنت قاسيةً	وإن نظرتِ بعينٍ فهى شَوْساء[4]

---

(١) ت : خالصا . (٢) من ت . (٣) ت : وليطرق بالاستجابة باب الإجابة .

(٤) الشوساء : التى تنظر بمؤخر العين تكبرا وغيظا .

أين الملوكُ وأبناء الملوك ومن كانت لهم عِزّة فى المُلْك قَعْساء[1]
نالوا يسيرا من اللذات وارتحلوا برَغْمهم فإذا النعْماء بأساء

الدنيا دار كَدَر ، بذلك جرى القدَر ، فإن صفا عيشُ لحظة ندَر ، ثم عاد التخليطُ فبدَر ، الورود فيها كالصَّدَر ، ودمُ قتيلها هدَر ، بلاؤها متتابع متواصل وسيفها إذا ضربت سيفٌ فاصل ، وحِرْصها على الحقيقة مُفَاصل[2] ، وخيرها مظنونٌ وشرّها حاصل .

نوائب إن حَلَّت تخلّت سريعة وإمّا تولت فى الزمان توالتِ
ودُنْياك إن قَلَّت أقلّت وإن قلَتْ فمن قِلّة فى الدين نَجَّتْ وعَلّتِ[3]
غلَتْ وأغالت ثم غالَت وأوحشَتْ وحشَّتْ وحاشت واستمالت ومَلّتِ[4]
وصلَّت بنيرانٍ وصلّت سيوفُهـا وسَلّت حُسَاما من أذاة وسَلّتِ[5]
أزالت وزَلّت بالفـتى عن مُقَامه وحلّت فلمـا أحكم العَقْدُ حلّتِ

***

أين أرباب البيض والسمر ، والمراكب الصفر والحمر ، والقِبَاب والقُبّ الضُّمر ، مازالوا يفعلون أفعالَ الغُمْر[6] إلى أن تقضَّى جميعُ العمر ، لو رأيت مرتفعهم بعد النصب قد جُرّ إلى بيت لا يدرى فيه الحرّ والقرّ ، وعليه ثوب لا خيط ولا زُرّ ، المحنة أنه أنه ماانتقل بما يسُرّ ، تالله لقد حالَ حُلْوهم إلى المُرّ وصار ما كان ينفع يضر ، باعوا بخشاب[7] الهـوى ثمين الدُّرّ ، ولا يمكن أن يقال البائع غِرّ لأنه باع وهو يدرى أنه حُرّ[8] .

المَشِيدات التى رُفِعت أَرْبُعٌ من أهلهـا دُرُسُ
أقام لـلأيام فى أُذنى واعظٌ من شأنه الخَرَسُ

---

(١) القعساء : تأنيث الأقعس ، وهو المرتفع . (٢) المفاصل : الفارق . (٣) قلت : أبغضت .
(٤) غلت : جاوزت الحد . وأغالت : أهلكت وغالت : اغتالت . وحشت : أصلحت وأعطت . وحاش الصيد : جاءه من حواليه ليصرفه إلى الحبالة . والمعنى : أهلكت . (٥) صلت : أدفأت . وصلت السيوف : سمع لها صوت عند الضراب . (٦) الغمر . من لم يجرب الأمور . (٧) الخشاب : الردىء .
(٨) الأصل : وهو يدرى من يدرى أنه حر .

مُهجتى ضِدّ تحــاربنى   أنا منّى كيف أحترس
إنما دُنيــاك غانيةٌ   لم يُهنّأ زوجُها العُرُسُ
فالقها بالزهد مُــدّرعا   فى يديك السيفُ والترْسُ
ليس يبقى فرع نائبة   أصلُهــا فى الموت مُفترَسُ

***

إخوانى : حاسبوا أنفسكم قبل الحساب وأعدّوا للسؤال صحيح الجواب ، واحفظوا بالتقوى هذه الأيام ، واغسلوا عن الأجرام هذه الأجرام ، قبل ندَم النفوس فى حين سياقها ، قبل طَمْس شمس الحياة بعد إشراقها [1] قبل ذوق كأس مُرّة فى مذاقهــا ، قبل أن تدور السلامة فى أفلاك مِحَاقها ، قبل أن تُجذب النفوس إلى القبور بأطواقها، وتُفترش فى اللحود أخلاق أخلاقهــا ، وتنفصل المفاصل بعد حسن اتساقها ، وتشتــد شدائد الحسرة حاسرةً عن ساقها ، وتظهر مخبآت الدموع بسرعة اندفاقها ، وتتقلب القلوب فى ضَنك ضيق خناقها ، ويطول جوعُ من كان فى الدنيا فاكها [2] ، وتبــكى النفوس فى أسْرها على زمان إطلاقها .

إخوانى : الأيام مطايا بيدها أزمّة ركبانها ، تنزل بهم حيث شاءت ، فبيناهم على غَواربها ألقتهم فوطئتهم بمنَاسِمها

قال الحسن : يُعرض على العبد يوم القيامة ساعاتُ عمره ، فكل ساعة لم يُحدث فيها خيرا تتقطع نفسُه عليها حسرات .

وكان يونس بن عُبيْد جالسا مع أصحابه يحدثهم فنظر فى وجوههم وقال : لقد ذهب من أجَلى وأجلكم ساعة .

وكتب الأوْزاعى إلى أخ له : أمّا بعد فقد أحيط بك من كل جانب ، واعلم أنه يسار بك فى كل يوم وليلة [3] مرحلة ، فاحذر الله تعالى والمقام [4] بين يديه وأن يكون آخر عهدك به والسلام .

---

(١) ت : قبل طمس شمس الإشراق بعد إشراقها (٢) الأصل : شاقها ، محرفة . ولعلها : شافها وهو يكثر الناس سؤاله . (٣) ب : فى كل ليلة وليلة . (٤) ب : والوقوف والمقام .

خَلِّ الذنوب صغيرَها ... وكبيرها فهو التُّقَى
كن مثل ماش فوق أر ... ضِ الشوكِ يحْذر مايَرى
لا تحقِرنّ صغيرةً ... إنّ الجبال من الحَصَى

قال أعرابى : لا تأمن من جعل فى ثلاثة دراهم قطع خير عضو منك أن يكون عقابه غداً هكذا .

قال رجل لبعض الحكماء : أوصنى . فقال : إياك أن تسىء إلى من تحب . قال : وهل يسىء أحد من يحب ؟ قال : نعم تعصى فتعذّب فتكون مسيئا إلى نفسك .

أعطيْتَ سيفاً لك بعضَ العِدَا ... وليس فى كفّك غير القِرَاب
فاهرب من الغَىّ وأشياعِه ... وحِنّ للنُّسْك حنينَ الضِّراب
تزجر[1] هذى النفس عن طَبْعها ... والأُسْد لا تترك قَصْد الرواب

الكلام على قوله تعالى

﴿ أفرأيت إنْ مَتَّعناهم سِنين ﴾

اعلم أن الآدمى ابن وقته ، لأن ما مضى لا لذّة له ، لا تغترر بعد المهل ولا تنس قرب الأجل ، فالأيام مراحل وستصل الرّواحل ، تأهّبْ لحوضٍ ستردِه ، ياخاسرا رأس المال وما يفتقده ، ياطالبا طول البقاء وما يجده .

دهرٌ يشيِّع سَبْتَه أحَدُه ... مُتَتابعٌ مايَنقضى أمَدُه[2]
يومٌ يبكّينا وآونةً ... يومٌ يبكّينا عليه غدُهْ
نبْكى على زمنٍ ومِنْ زمن ... فبكاؤنا موصولة مُدَدُه
ونَرى مكارهنا مخلّدة ... والعُمر يذهب فائتاً عدده
لا خَيْرَ فى عيش تخوّننا ... أوقاتُه وتَغُولنا مُدَده[3]

(١) الأصل : تذكر . (٢) ب : أجده . (٣) تغولنا : تغتالنا .

من أقرضَ الأيام أتلَفهـا ‏ ‏ ‏ ‏ وقضى جميعَ قروضها جَسدُه
حتى يُغيَّب فى مُطَمطمة [١] ‏ ‏ ‏ ‏ لا أهـلُه فيهـا ولا وَلدُه

***

تدبروا أموكم تدبّر ناظر ، أين السلطان الـكبير القاهر ، كم جمع فى مملـكته من عساكر ، وكم بنى من حصون ودساكر ، وكم تمتع بحُلَل وأساور ، وكم علا على المنابر ثم آخر الأمر إلى المقابر ، العاقل من ينظر فيما سياتى ، ويقهر بعَزْمه شرّ الهوى العاتى ، وإذا قالت النفس حظِّى قال حظى نجاتى .

عجبت لِمَا تَتُوق النفسُ جهـلاً ‏ ‏ ‏ ‏ إليـه وقد تصرّم لانبتـاتِ
وعصيانى العذولَ وقـد دعانى ‏ ‏ ‏ ‏ إلى رُشْدى وما فيه نجـاتى
أؤمِّـلَ أن أعيش وكلَّ يوم ‏ ‏ ‏ ‏ بسمعى رَنَّةٌ من مُعْوِلاتِ
وأيدى الحافرين تَـكِلُّ مما ‏ ‏ ‏ ‏ تُسَوِّى من مَسا كن مُوحشاتِ
نُرَاع إذا الجنـائزُ قابلَتْنـا ‏ ‏ ‏ ‏ ونَسْـكن حين تَخفَى ذاهباتِ
كرَوْعة قَلّة [٢] لظهور ذيبٍ ‏ ‏ ‏ ‏ فلما غاب عادَتْ راتعاتِ
فإن أمَّلت أن تَبقى فسائلْ ‏ ‏ ‏ ‏ بما أفـنى القرونَ الخالياتِ
فـكم من ذِى مَصانعَ قد بناها ‏ ‏ ‏ ‏ وشيَّدها قليلَ الخوف عاتِى
قليـلَ الهم ذوبالٍ رَخِيّ ‏ ‏ ‏ ‏ أصمّ عن النصائح والعظاتِ
فبات وما تروَّع من زوالٍ ‏ ‏ ‏ ‏ صحيحاً ثم أصبحَ ذا شِكاتِ
فباكَره الطبيب فريع لَمّا ‏ ‏ ‏ ‏ رآه لا يُجـيز إلى الدعاةِ
فلو أن المفرِّط وهو حىٌّ ‏ ‏ ‏ ‏ توخَّى الباقيـاتِ الصالحاتِ
لَفاز بغِبْطةٍ وأصاب حَظًّـا ‏ ‏ ‏ ‏ ولم يَغْشَ الأمورَ الموبقاتِ
فيـا لك عنـدها عِظَة لحىّ ‏ ‏ ‏ ‏ ويا لك من قلوبٍ قاسياتِ

---

(١) المطمطمة : الحفرة . ‏ ‏ (٢) القلة : الجماعة من الناس .

وكل أخي ثراء سوف يُمْسِي   عديماً والجميــعُ إلى شَتاتِ
كأنْ لم يَألف شيئاً ما تقضَّى   وليس بفائتٍ ما سوف يأتِي

***

كأنك بك وقد مَلَّ الناعت (١) ، وحلَّ بمحلك المستلِب الباغت ، وردك من مقام ناطق إلى حال صامت ، وبقيت متحيراً كالأسير الباهت ، وإنما هى نَفَس تخرج ونفَس هافت (٢) ، وقد مضى فمن يردّ الفائت ، وصرت فى حالة يَرْثى لها الشامت ، يا عجباً كيف يفرح هالك فائت .

عباد الله : النظرَ النظر إلى العواقب ، فإن اللبيب لها يراقِب ، أين تعبُ من صام الهواجر ، وأين لذة العاصى الفاجر ، رحلت اللذةُ من الأفواه إلى الصحائف ، وذهب نصَب الصالحين بجَزع الخائف ، فكأن لم يتعب من صابَر اللذات وكأن لم يلتذ من نال الشهوات .

أخبرنا هِبَة الله بن محمد ، أنبأنا أبو الحسين بن على ، أنبأنا أبو بكر بن مالك ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا يزيد ، حدثنا حمّاد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسولُ الله صلى عليه وسلم : « يُؤْتى بأَنعَمْ أهلِ الدنيا من أهل النار فيصبغ فى النار صبغة ثم يقال له : يا بن آدم هل رأيت خَيْرا قط ؟ هل مرّ بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يارب . ويؤتى بأشد الناس بؤساً فى الدنيا من أهل الجنة فيُصْبغ فى الجنة صبغةً ثم يقال له : يابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مرّ بك شدةٌ قط ؟ فيقول : لا والله يارب ما مرّ بى بؤس قط ولا رأيت شدة قط » .

انفرد بإخراجه مسلم (٣) .

وقيل : حَبس بعض السلاطين رجلاً زمانا طويلا ثم أخرجه فقال له : كيف وجدتَ

---

(١) كذا بالأصل .   (٢) كذا بالأصل . وهفت الشىء : انخفض واتضع ودق .

(٣) صحيح مسلم ٢١٦٢ ط عبد الباقى .

مَحْبِسك ؟ قال : ما مضَى من نعيمك يومٌ إلا ومضى من بُؤسى يوم ، حتى يَجْمعنا يوم .

ورويناأن داود عليه السلام رأى راهبا فى قُلّة جبل فصاح به : ياراهب مَن أنيسُك. فقال : اصعد تره . فصعد داود فإذا ميت مُسَجّى قال : من هذا ؟ قال : قصته مكتوبة عند رأسه . فدنا داود عليه السلام فإذا عند رأسه لوح عليه مكتوب فقرأه فإذا فيه : أنا فلان ابن فلان ملِك الأملاك ، عشتُ ألفَ عام ، وبنيت ألف مدينة ، وهزمت ألف عسكر ، وأحصنت ألف امرأة ، وافتضضت ألف عذراء ، فبينما أنا فى مُلكى أتانى ملَك الموت فأخرجنى مماأنا فيه فها أنذا : التراب فراشى والدود جيرانى . قال : فخرّ داود مغشيًّا عليه.

***

حصَلوا بأنواع من الأحداثِ   من كل ما عمروا على الأَجْداثِ
فإذا الذى جمَعوه طولَ حياتهم   نَهْبُ العِدَى وقَسِيمة الوُرّاثِ
حالت منازلُهم على طول المدَى   ووجوهُهم فى الأرض بعدَ ثلاثِ
يا من يُسَرّ ببيتــه وأثاثِه   لك فى الثّرى بيتٌ بغير أثاثِ

أخبرنا أبو القاسم الحريرى ، أنبأنا أبو بكر الخياط ، حدثنا أبو عبيد الله بن رَوْسَب ، حدثنا ابن صفوان ، حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا الحسن بن جمهور ، حدثنا الهيثم بن عدِىّ ، عن عبد الله بن عباس وابن حصين بن عبد الرحمن وغيره ، عن عمرو بن ميمون ، عن جَرِير بن عبد الله قال : افتتحنا بفارس مدينة فَدلّنا على مغارة ذُكر لنا أنّ فيهـا أموالًا ، فدخلناها ومعنا من يقرأ بالفارسية فأصبنا فى تلك المغارة من السلاح والأموال شيئا كثيرا ، ثم صرنا إلى بيت يشبه الأزج (١) عليه صخرة عظيمة فقلبناها ، وإذا فى الأزج سريرٌ من ذهب عليه رَجُل وعليه حُلل قد تمزقت وعند رأسه لوح فيه مكتوب فقرئ لنا فإذا [فيه] : أيها العبد المملوك لا تتجبّر على خالقك ، ولا تَعْدُ قَدْرك التى جعل الله لك ، واعلم أن الموت غايتُك وإن طال عمرك وأن الحساب أمامك ، وأنك

---

(٣) الأزج : ضرب من الأبنية .

إلى مُدةٍ معلومة تُترك ثم تؤخذ بغتةً أحبَّ ما كانت الدنيا إليك ، فقدِّم لنفسك خيرا تجده مُحْضَرا ، وتزوَّد لنفسك من متاع الغرور ليوم فاقتك . أيها العبد الضعيف اعتبر بى فإن فىَّ معتبرا ، أنا بهرام بن بهرام ملك فارس ، كنتُ من أعلاهم بطشاً وأقساهم قلباً وأطولهم أملًا ، وأرغبهم فى اللذة ، وأحرصهم على جمع الدنيا ، قد جَبَيْتُ [1] البلاد النائية ، وقتلت الملوك الساطية ، وهزمت الجيوش العظام وعشت خمسمائة عام ، وجمعت من الدنيا مالم يجمعه أحد قبلى ، فلم أستطع أن أفتدى نفسى من الموت إذ نزل بى .

وقال محمد بن سيرين : أخذَتْ معاوية قُرّة [أى من البرد] [2] فاتخذ أغشية خفافا فكانت تُلقى عليه فلا يلبث أن ينادِى : ادفعوها . فإذا أُخذت عنه سأل أن تُردّ عليه فقال : قبحَّك الله من دار ! مكثتُ فيك عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة ، ثم صرتُ إلى ما أرى !

وكان عبد الملك بن مروان يقول عند موته : والله وددت أنى عبدٌ لرجل من تِهامة أرعَى غنيماتٍ فى جبالها ، ولم أكن ألِى من هذا الأمر شيئا .

***

كلُّ حَىٍّ لاقِى الحِمَام فمودِى ... ما لحىٍّ مؤمَّلٍ من خلودِ [3]

لا تَهاب المنونُ شيئا ولا تُبـــقى [4] على والدٍ ولا مولودِ

يَقْدح الدهرُ فى شماريخ رَضْوَى ... ويحطّ الصخورَ من هَبُّودِ [5]

ولقد تَترك الحوادث والأيا ... مُ وَهْياً فى الصخرةِ الصَّيْخودِ [6]

وأرانا كالزرع يحصده الده ... رُ فمن بين قائم وحَصِيدِ

وكأنّا للموت رَكْب مُخِبُّو ... نَ سِراعاً لَمنْهلٍ مورودِ

أيها الجاهل الذى أمِن الده ... رَ وفى الدهر عاقرات الخدودِ

---

(١) جبيت : حصلت لى جبايتها ، أى خراجها . (٢) من ت .

(٣) هـذه الأبيات من قصيدة لابن مناذر فى رثاء عبد المجيد الثقفى ، وقد أورد المبرد فى الكامل طائفة منها ، وعنده أنها من حلو المراثى وحسن التأبين . الكامل ٧٣٨ ط أوربا .

(٤) رواية الكامل للمبرد : ولا ترعى . (٥) هبود : جبل .

(٦) الصيخود : الصماء الصلبة . ورواية البيت فى ب : ولقد تخزل الحوادث والأيام . وهنا . .

أين عادٌ وتُبَّعٌ وأبو ساسا … ن كسرى وأين صَحْبُ ثمودِ
أين ربُّ الحِصْنِ الحصين بسُورا … ءَ بناه وشاده بالشِّيدِ[1]
شدَّ أركانه وصاغ له العِقْيا … نَ باباً وحفَّه بالجنودِ[2]
كان يُجْبَى إليه ما بَيْنَ صنعا … ء ومصر إلى قرى يَبْرودِ
وترى حوله[3] زَرَافاتِ خيلٍ … حافلاتٍ تَعْدو بمِثْل الاسودِ
فرمَى شخصَه فأقصده الده … رُ بسَهْمٍ من المنايا، شديدِ
ثم لم يُنْجِه من الموت حِصْنٌ … دونه خَنْدق وبابٌ[4] حديدِ
وملوكٌ من قَبْله عَمَرُوا الدنيـــا … أُعينوا بالنصرِ والتأييدِ
بينما ذاكَ مرَّت الطير تجرى … لهمُ بالنُّحوس لا بالسُّعودِ
وصروفُ الأيام أَسْهَلْن بالحَيْ … نِ إليه من المحطِّ الـكؤودِ[5]
ما وقاهمْ ما حاولوا لَوْعةَ الده … رِ وما أكّدوا من التأكيدِ
وكذاكَ العَصْران لا يُلْبِثان الـــمرءَ … أن يأتياه بالموعودِ
وبعيدٌ ما ليس يأتى وما يُدْنيـ … ـه منكَ العَصْران غيرُ بعيدِ

سجع على قوله تعالى
﴿ ما أغنَى عنهم ما كانوا يُمتَّعُون ﴾

أين الذين كانوا فى اللذات يتقلّبون، ويتجبّرون على الخلْق ولا يُغلبون، مُزجت لهم كؤوس المنايا فباتوا يتجرّعون «ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون».

مدوا أيديهم إلى الحرام، وأكثروا من الزلَل والآثام، وكم وعظوا بمنثور ومنظوم

(١) الشيد: ما طلى به الحائط من جص ونحوه. ورواية البيت فى الـكامل:
أين رب الحصن الحصين بسورا … ورب القصر المنيف المشيد
(٢) رواية الـكامل:
شـــد أركانه وبوبه با … بى حديد وحفـــه بجنـــود
(٣) الـكامل: خلفه. (٤) الـكامل: وبابا حديد.
(٥) أسهلن: أسرعن. والمحط: المنحدر. والـكئود: الشديد.

من الـكلام ، لو أنهم يسمعون « ما أغنَى عنهم ما كانوا يُمَتّعون » .

حُمل كل منهم فى كفن، إلى بيت البِلَى والعفَن ، وما صحبهم غيره من الوطن ، من كل ما كانوا يَجْمعون « ما أغنى عنهم ما كانوا يُمَتّعون » .

ضمهم والله التراب ، وَسُدَّ عليهم فى تَراهم الباب ، وتقطعت بهم الأسباب ، والأحبابُ يرجعون « ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون » .

أين أموالهم والذخائر ، أين أصحابهم والعشائر ، دارت على القوم الدوائر ، ففيم أنتم تطمعون « ما أغنى عنهم ما كانوا يمتّعون » .

شُغلوا عن الأَهل والأولاد ، وافتقروا إلى يسيرٍ من الزاد ، وباتوا من الندم على أخشن مِهاد ، وإنما هذا من حَصاد ما كانوا يزرعون « ما أغنى عنهم ما كانوا يُمَتّعون » .

أين الجنود والخدم ، أين الُحرَم والحرَم ، أين النِّعَم والنَّعَم ، بعد ما كانوا يربعون فيما يرتعون « ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتّعون » .

لو رأيتهم فى حُلل الندامة ، إذا برزوا يوم القيامة ، وعليهم للعقاب علامة ، يساقون بالذل لا بالـكرامة ، إلى النـار فهم يُوزَعون « ما أَغْنَى عنهم ما كانوا يُمَتّعون » .

يا معشر العاصين قد بقى القليل، والأيام تنادِى : قد دنا الرحيل ، وقد صاح بـكم إلى الهدى الدليل إن كنتم تسمعون « ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتّعون » .

المجلس الرابع والعشرون
فى قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

الحمد لله الذى لم يزل عظيما عليّا ، يخذل عدوا وينصر وَليّا ، أنشأ الآدمى خَلْقا سويّا ، ثم قسمهم قسمين رشيدا وغويّا ، رفع السماء سقفاً مبنيا ، وسطح المهاد بساطا مَدْحِيّا ، ورزق الخلائق بحريًّا وبريّا ، كم أجرَى[1] لعباده سَرِيّا[2] أخرج منه لحما طَرِيّا ، كم أعطى ضعيفاً ما لم يعطِ قويا ، فبلَّغه على الضَّعْف ضِعْف المراد ووهب له على الكِبَر الأولاد « كهيعص ذِكْر رحمة ربك عبدَه زكريّا » .

أحمده إذ فضَّل وأعطى شِبعاً ورِيّا ، وأصلى على رسوله محمد أفضل من امتطى تَبْرِيّا[3] ، وعلى أبى بكر الذى أنفق وما قلل حتى تخلَّل[4] ويكفى زِيّا ، وعلى عمر الذى كان مقدّماً فى الجِدّ جَرِيّا ، وعلى عثمان الذى لم يزَلْ عفيفا حَيِيّا ، وعلى علىّ أشجع من حَمل خَطِّيا[5] ، وعلى عمه العباس المستسقَى بشيبته ، فانتقعت الأرض رِيّا .

***

قال الله تعالى : « كهيعص » للعلماء فى تفسيرها قولان : أحدهما : أنه من المتشابه الذى انفرد الله تعالى بعلمه .

والثانى : أنها حروف من أسماء الله عز وجل ، فالكاف من الكافى ، والهاء من الهادى والياء من حكيم والعين من عليم والصاد من صادق .

قوله تعالى : « ذِكْر رَحْمة ربك » المعنى : هذا الذى نتلو عليك ذكر رحمة ربك «عبدَه زكريا» وفيه ثلاثة لغات[6] : أهل الحجاز يقولون : هذا زكريّا قد جاء مقصورا . وزكرياء ممدودا . وأهل نجد يقولون زكرىّ فيجرّونه ويلقون الألف .

قوله تعالى « إذْ نادَى ربَّه نداء خَفِيّا » والمراد بالنداء الدعاء ، وإنما أخفاه لئلا يقول

---

(١) ب : كم أجد . (٢) السرى : النهر . (٣) كذا فى ت . وفى ب : سريا . والتبراء : الناقة الحسنة اللون . (٤) تخلّل : جعل الخلال فى ثوبه . (٥) الخطى : الرمح .

(٦) المذكور فى النشر فى القراءات العشر ٢/٢٣١ : المد والقصر . فقط .

الناس : انظروا إلى هذا الشيخ يسأل الولد على الكِبَر .

« قال رَبِّ إنِّى وهَن العَظْمُ منِّى » أى ضَعُف ، وإنما خص العَظْم لأنه الأصل فى التركيب . وقال مجاهد وقتادة : شكا ذهابَ أضراسه . « واشتعلَ الرأسُ شيبا » أى انتشر الشيبُ فيه كما ينتشر شُعاع النار فى الحطب . والمراد « بدعائك » : أى بدعائى إياك « رَبِّ شَقِيًّا » أى لم أكن أَتْعب بالدعاء ثم أخيَّبُ ، لأنك قد عوَّدتنى الإجابة .

« وإنِّى خِفْتُ الموالِيَ » يعنى الذين يَلُونه فى النسَب ، وهم بنو العم والعصَبة ، نخاف أن يتولَّوا مالَه وإن لم يكن على جهة الميراث ، وأحب أن يتولاه ولدُه . وقرأ عثمان وسعد بن أبى وقاص وابن جُبَير وابن أبى سُرَيْج ، عن الكسائى : « خَفَّت المَوالِى » بفتح الخاء وتشديد الفاء على معنى : قَلَّت . فعلى هذا إنما يكون خاف على عِلْمه ونبوّته ألّا يُورثا فيموت العِلْم .

قوله تعالى : « وكانت امرأتى عاقراً » والعاقر من الرجال والنساء الذى لا يأتيه الولد ، وإنما قال عاقرا ولم يقل عاقرة لأن الأصل فى هذا الوصف للمؤنث ، والمذكر كالمستعار ، فأُجرى مجرى طالِق وحائض . قال ابن عباس : وكان سِنّه يومئذ مائة وعشرين سنة وامرأته ثمان وتسعين سنة .

« فهَبْ لى مِن لَدُنْك » من عندك « وَلِيًّا » أى ولدا صالحا يتولاّنى . وسبب سؤاله : أنه لما رأى الفاكهة تأتى مريم لا فى حِينها طَمِع فى الولد على الكِبَر فسأل .

قوله تعالى : « يَرِثُنِي ويَرِثُ من آل يعقوب » المراد البنوة من الكل « واجعله رَبِّ رَضِيًّا » أى مرضيا . فصُرِف عن مَفْعول إلى فَعِيل كما قالوا : مقتول وقَتِيل .

« يا زكريا إنا نُبَشِّرك » أى نسرّك ونُفرحك . قال ابن عباس : لم يسمَّ يحيى قَبْله فشرّف بأن سماه الله تعالى ولم يَكِلْ تسميته إلى أبويه .

« قال رَبِّ أَنى يكون لى غُلامٌ . وكانت امرأتى عاقراً » وإنما قال هذا ليعلم أيأتيه الولدُ على هذه الحال أم يُرَدُّ هو وزوجته إلى حالة الشباب .

قوله تعالى : « وقد بلَغْتُ من الـكِبَر عِتياًّ » وهو نحول العظم ويُبْسه .

« قال كذلك » أى الأمرُ كما قيل لك من هِبَة الولد على الـكِبَر « قال ربُّك هو عَلَىَّ هَيِّن » أى خَلق يحيى علىَّ سَهْل « وقد خَلَقْتُك » أى أوجدتك « من قبلُ ولم تَكُ شيئا » .

«قال ربِّ اجعلْ لى آيةً » أىعلامةً على وجود الحَمْل، وأراد أن يستعجل السرورَ ويبادر بالشـكر . « قال آيتُك ألاَّ تـكلِّمَ الناسَ ثلاثَ ليَالٍ سَوِيًّا » والمعنى تُمنع من الـكلام وأنت سَوِىّ سليم من غير خَرَس .

« فخرَج على قومِه » وهذا فى صبيحة الليلة التى حَملت فيها امرأته « من المحراب » أى مُصَلاّه «فأوحَى إليهم» وفيه قولان : أحدهما: كَتب إليهم فى كتاب . قاله ابن عباس . والثانى : أومأ برأسه ويديه . قاله مجاهد « أن سَبِّحوا » أى صلّوا .

قوله تعالى : « يا يحيى » المعنى : وهبنا له يحيى وقلنا له يا يحيى « خُذِ الـكِتَابَ » وهو التوراة « بقوّة » أى بجد واجتهاد فى العمل بما فيها « وآتيناه الُحـكْم » وهو الفهم « صَبِيًّا » وفى سِنه يومئذ قولان : أحدهما : سبع سنين . رواه ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم . والثانى : ثلاث سنين قاله قتادة ومُقَاتل .

قوله تعالى : « وحَنَانًا » أى وآتيناه حنانًا أى رحمة « من لَدُنّا وزكاةً » أى عملا صالحا « وكان تَقِيًّا » فلم يفعل ذنبا « وبَرًّا بوالديه » أى جعلناه بَرًّا بوالديه .

قوله تعالى : « وسَلَامٌ عليه » أى سلامة له « يوم وُلِد ويومَ يَمُوت ويوم يُبْعَثُ حَيًّا » قال سفيان ابن عُيَيْنة : أوحشُ ما يكون ابن آدم فى ثلاث مواطن : يوم يولد فيخرج إلى دار هَمٍّ ، وليلة يموت مع الموتى فيجاور جيرانا لم يرَ مثلهم ، ويوم يُبْعث فيشهد مشهداً لم يرَ مثله قط ، فسلّمه فى هذه المواطن كلها .

قال علماء السير : لمّا حملت مريم اتهمت اليهودُ زكريا وقالوا هذا منه . فطلبوه ليقتلوه فهرب حتى انتهى إلى شجرة عظيمة فتجوّفت له فدخل فيها فجاءوا يطوفون بالشجرة

فرأوا هُدْبة ثوبه فقطعوا الشجرة حتى خَلصوا إليه فقتلوه . ونبيٌّ يحيى وهو صغير فى زمن أبيه ، وكان كثير البكاء فساح فى الأرض يدعو الناسَ إلى الله تعالى ، وكان طعامه الجراد وقلوب الشجر .

أخبرنا المحمدان ابن ناصر وابن عبد الباقى ، قالا حدثنا أحمد بن أحمد ، أخبرنا أبو نُعَيم الأصفهانى ، حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا أحمد بن الحسين ، حدثنى سعيد ابن شُرَحْبيل، حدثنا سعيد بن عُطَارد ، عن وهيب بن الورد ، قال: كان يحيى بن زكريا له خَطّان فى خديه من البكاء فقال له أبوه زكريا : إنى إنما سألت الله عز وجل ولداً تَقرّ به عينى فقال : ياأبت إن جبريل عليه السلام أخبرنى أن بين الجنة والنار مَفازة لا يقطعها إلا كلّ بَكّاء .

***

واختلفوا فى سبب قتل يحيى .

فروى سعيد بن جُبَير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بعث عيسى يحيى بن زكريا فى جماعة من الحواريين يعلّمون الناس ، فكان فيما نهاهم عنه نكاح ابنة الأخ ، وكان لملكهم ابنة أخ تُعْجبه ، فأراد أن يتزوجها وكان لها فى كل يوم حاجة مقضيّة ، فبلغ ذلك أمَّها فقالت : إذا سألك الملك حاجتك فقولى : حاجتى أن تذبح يحيى . فقالت له ، فقال : سَلِى غير هذا . قالت: ما أسألك غيره . فدعا يحيى فذبحه ، فبدرت قطرةٌ من دمه على الأرض فلم تزل تَغلى حتى بعث الله تعالى بُخْت نصَّر فقتل على ذلك الدم سبعين ألفا منهم حتى سكَن .

وقال الربيع بن أنس : كانت للملك بنت شابة وكانت تأتيه فيسألها حاجتها فيقضيها لها ، وإن أمهــا رأت يحيى وكان جميلا فأرادَته على نفسها فأَبَى . فقالت لابنتها : إذا أتيت أباك فقولى له : حاجتى رأس يحيى . فجاءت فسألته ذلك فردها فرجعت فقال : سَلِى حاجتك . فقالت : رأس يحيى . فقال : ذلك لك . فأخبرت أمها فبعثت إلى يحيى : إن لم تأت حاجتى قتلتك . فأبى فذبَحته ثم ندمت وجعلت تقول : ويل لها ويل لها . حتى ماتت فهى أوّل من يدخل جهنم .

وفى حديث آخر [أن] اسمها ربة . وقيل : أزميل . وقد قتلت قبله سبعين نبيا ، وهى مكتوبة فى التوراة مُقَتِّلة الأنبياء ، وأنها على منبر من النار يسمع صراخها أقصى أهل النار .

الكلام على البسملة

أين من كان قَبْلنا أين أينا … من رجالٍ كانوا جمالا وزَيْنَا
إنّ دهراً أتى عليهم فأفنَى … عدداً منهمُ سيأتى علينـــا
خدعتنـا الآمالُ حتى جَمَعنـا … وطلبنا لغيرنا وسعَيْنـاَ
وابتنينـا وما نفـكر فى الدهـــ … ـــر وفى صَرْفه غداة ابتنينا
وابتغَيْنـا من المعاش فُضولاً … لو قنعنا بدونها لا كتفينـا
ولَعَمْرى لنرْحلَن ولا نمـ … ـضِى بشىء منها إذا مامضينـاَ
اختلفنا فى المقدّرات وسوّى اللـ … ـه بالموت بَيْننا فاستوَيْنـاَ
كم رأينا من ميّت كان حيّـا … ووشيكاً يُرى بنا مارأيناَ
مالنـا نأمن المَنُون كأنّا … لا نَراهنّ يهتـدين إلينـاَ
عجباً لامرئٍ تيقّن أن الـ … ـموت حَقّ فقرّبا بالعيش عَيْنَا[1]

***

إخوانى : ما الدنيا لولا الشقاء المكتوب ، كل طُلاّبها قتلت فبئس المطلوب ، إلى متى مع الدنيا ، أين الذين اشتروا سِلع الشك[2] بِسلَع اليقين ، يامستور الحال غداً تَبين ، إذا حَشرجت فى الصدر وجاء الأنين ، وبرزت كُماةُ الموت من الـكمِين ، وصِرْتَ بعد التجبّر أذلّ مسكين ، وذُبحت وشيكا بغير سكين ، ونُقلت إلى لحدٍ

(١) الأبيات لأبى العتاهية ، وقد سبق للمؤلف أن أوردها فى أول هذا الجزء .

(٢) ب : الشكر . محرفة . وما أثبته من ت .

أنت فيه رهين ، انظر لنفسك أيها المتقاعد ، تدبَّر عملك قبل عَرْضه على الناقد ، وتأهبْ فكم بين يديك شدائد ، لا ينفعك فيه ولد ولا والد .

سبيلُ الخلق كلهم الفناَء ... فما أحدٌ يدوم له البقاء
يقرِّبنا الصباحُ إلى المنايا ... ويُدْنينا إليهن المسَاء
فلا تركب هواكَ وكن مُعِدّا ... فليس مقدَّرا لك ماتشاء
أتامل أن تعيش وأيُّ غصنٍ ... على الأيام طالَ له النماء
تراه أخضرَ العِيدان غضًّا ... فيُصْبح وهو مُسْوَدّ غثَاء
وجَدْنا هذه الدنيا غَرُورا ... متى ما تُعْط[1] يُرتجع العطاء
فلا تَرْكن إليها مطمئنًّا ... فليس بدائم منها الصفاء

***

عباد الله : على نيّة النقض وضع البنيان ، وعلى شرط الرحيل الأرواح فى الأبدان ، وإنما الدنيا مَعْبَر إلى دار الحيوان ، وليس للإقامة فالعجبُ لاغترار الإنسان ، أين العقل والنظر ، إلام الجهل والبطَر ، كم من منزل دَثر ، كم ساعٍ عثَر وأنت فى الأثَر ، إلام هذا الأشَر وقد علمت مآلَ البشَر ، أين العقول والفِكرَ ، كم واردٍ ماصدَر ، البلايا[2] مثلُ المطر ، وإنك لعلَى خطر ، كم حضرتَ لدى مُحتَضَر ، ودَمْع المآقى قد انهمر لقلة الزاد وطول السفر ، ويحك إلى متى تختار الضرر ، لقد بعت الدُّر بالبَعر ، إن العاقل ليختار الأجْود ، وإن الحازم لا يرضى أن يُستعبد ، يامن كلما جمَعْناه تبدّد ، يامن كلما زجرناه مدَّ اليد ، يامن إذا دعوناه لم يسدّد[3] ، كيف يختار الضلال من يعرف الطريق الأرْشد ، كيف يؤْثر النزولَ من يقال له اصعد ، إن اللبيب لَيرى بعين الفكر مافى غد ، لو سمعت الحجارةُ وَعْظنا لا نفطر الجلْمد ، كم نصَبْنا لك شَركا وإلى الآن لم نَصْطد .

---

(١) ت : تؤب . (٢) ت : البلاء . (٣) كذا فى ت . وفى ب : يامن إذا غرنا له فغيرنا أنجد . ولعلها محرفة .

حتى متى لا تزال مُعتذِراً   من زَلّة منك لا تزال راكبها[1]
تَعقبها[2] مثلها وتَعقبك الحسْـ   رةَ من مثلها عواقبُهـا
اتَرْكك الذنبَ لا تقاربه   أيسرُ من توبة تُطالبُها

***

أيها المعرض عن شكر الإفضال والنِّعم ، زاحمتَ[3] على حوض الغفلة النَّعَمَ ، تمدّ يد الجهل بالإنعام إلى أخذه واقتباسه ، وتنسى عقوبة ماقد جنيته فى وقت بأسه ، أين الهرب بخطاك ، عجبا منك وعينى تراك ، تراك تستحى[4] من غيرى ومنى لا تراك ، مَن الذى ستر على القبيح فيما مضى ، من الذى لطف بك فى دِيْن دِينه إذا اقتضى ، ياهذا إن وجدت من يَصْلح لك غيرنا فاذهب ، وإن رأيت مَشْربا يلذّ غير حِلْمنا فاشرب ، لو أعلمت أباك[5] مانْعلم منك أباك ، ولو أريْت[6] أخاك ما أريتنا جفاكَ ، نِعمنا عليك قديمة كم نبعتْ لك دِيمة[7] لُطْف بعدَ دِيمة ، أتراك تحن إلى ودّنا ، أو تراعى عهدَ عَهْدِنا .

ياهذا : جُبلت القلوبُ على حبٍّ من أحسن إليها ، فواعجبا ممن لم ير محسِنًا سِوَى الله عز وجل كيف لا يميل بكلّيته إليه ، يامنعَما عليه بالعافية بئس ماأنفقت فيه رأسَ المال ، كم ذنبٍ لك فعله غيرك فهتك ذاك[8] وسُترت .

ويحك ! احذر نِفَار النِّعَم فما كل شاردٍ بمردود ! إذا وصلتْ إليك أطرافها فلا تنفِّر أقصاها بقلة الشكر !

لك نفسٌ يسرّها   كلُّ شىء يضرّها
هى تَفنَى على الزما   ن ويزْداد شَرُّها

***

(١) ب : من زلة منك لا تجانبها . (٢) ب : يعقبك (٣) ب : لو زاحمت . محرفة .
(٤) ب : وعينى تراك تستحى . (٥) ب : لو علم . محرفة وما أثبته من ت .
(٦) ب : ولو رأيت . محرفة . وما أثبته من ت .
(٧) الديمة : مطر يدوم فى سكون بلا رعد وبرق (٨) ت : ذلك .

قوله تعالى

« يومَ يَبْعثُهم الله جميعا »

البعث : إخراج أهل القبور أحياء عند النفخة الثانية فى الصُّور . وذلك أن الله تعالى يُنْزل من السماء ماء فتَنْبُت الأجساد فى القبور ، فتعود كما كانت ، ثم ينفخ إسرافيل فى الصور فتنشقّ القبور ، فيقومون جميعا إلى العرض والحساب « فينبّئهم بما عَمِلوا » من المعاصى وتضييع الفرائض « أَحْصَاه الله » أى حَفِظه « ونَسُوه » .

أخبرنا ابن الحصَيْن ، انبأنا ابن المُذْهَب ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا عفان ، حدثنا همّام ، حدثنا قَتادة ، عن صفوان بن مُحْرِز ، عن ابن عمر قال : سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنّ الله عزوجل يُدْنى المؤمنَ ويضع عليه كَنَفه ويَستره من الناس ويقرّره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : فإنى سترتُها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم » .

أخرجاه فى الصحيحين .

وبالإسناد حدثنا أحمد ، قال حدثنا وكيع ، قال حدثنا الأعمش ، عن المعرور بن سُوَيْد ، عن أبى ذَرّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُؤْتَى بالرجل يومَ القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه فتُعرض عليه ويُخبّأ عنه كِبارها . فيقال عملتَ كذا وكذا وهو مقرّ لا يُنكِر وهو مشْفق من كِبَارها فيقال أعطوه مكانَ كل سيئة عَمِلها حسنة . قال: فيقول إن لى ذُنوبا ماأراها . قال أبو ذر فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك حتى بدت نواجذه .

انفرد بإخراجه مسلم [1] .

---

(١) صحيح مسلم حديث (٣١٤) ط عبد الباقى وأوله : « إنّى لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة ، وآخر أهل النار خروجاً منها : رجل يؤتى به الخ . » .

وفى أفراده من حديث الشّعْبى ، عن أنس قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك وقال : هل تدرون مِمّ أضحك ؟ قال : فقلنا الله ورسوله أعلم . قال : من مخاطبة العبد ربَّه عزوجل يقول : يارب ألم تُجِرْنى من الظُّلْم ؟ قال : يقول : بلى . قال : فيقول : إنى لا أُجيز على نفسى إلا شاهداً منّى فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكِرَام الكاتبين شهودا . قال : فيختم على فِيه ويقال لأركانه : انطقى . قال فتَنْطق بأعماله . ثم يخَلّى بينه وبين الكلام فيقول : بُعْداً لَكُنّ وسُحْقا فعنكُنّ كنت أناضِل .

إخوانى : ما من الموت بد ، باب البقاء فى الدنيا قد سُدّ ، كم قَدٍّ فى القبر قد قُدّ ، كم خَدّ فى الأخدود قد خُدّ ، يا من ذنوبه لا تُحصى إنْ شكَكْت عُدّ ، يامن أتى بابَ الإنابة كاذبا فُردّ ، يا شدّة الوجل عند حضور الأجَل ، يا قلة الحيل إذا حل الموتُ ونزَل ، يا قوة الأسَى إذا نوقش من أســـا ، يا خجل العاصين ، يا حسرة المفرِّطين ، يا أسَف المقصّرين ، يا سوء مصير الظالمين ، كيف يَصْنع مَن بضائعه القبائح ، كيف يفعل من شهوده الجوارح ، عدموا والله الوسيلة ، وأظلمت فى وجوههم وجوه الحيلة ، أصبحوا جِثيّا على رُكبهم ، مأسورين بما فى كُتبهم ، لايَدْررون مايُراد بهم ، قد جُمعوا فى صعيد ينتظرون حلولَ الوعيد، والأرض بالخَلْق كلهم تمِيد ، والعبراتُ على العثرات تزيد ، إنّ بطش ربك لشديد . زَفرتْ والله الحُطَمة فى وجوه الظَّلَمة فذلوا بعد العظمة ، وخرسوا عن كلمة .

***

إخوانى : أيام أعماركم قصيرة ، وقد ضاعت على بصيرة ، وآخر الأمر حَفيرة فيها أهوال كثيرة ، يا مشاهداً حاله بحال الحيرة ، ألك عُدة أم لك ذخيرة ، هذا المَلَك يحصِى عملك حرفاً حرفاً ، ويُمْلِى فيملأ بالخطايا صُحفاً ، يامن جمرات حِرصه على الهوى ماتُطْفَى ، وقد أُشْفِى به مرضٌ ما أراه يُشْفَى ، إلام هذا التعليل ، كم نقوّمك وتميل ، متى يبرأ هذا العليل ، يا مقابلاً جميلنا بغير الجميل ، آن رحيلا فأعِدّ الزاد ، آن معاداً فاذكر المعاد ، ألا يهلك العمر وإن تمادَى .

أيها المعرض عنا تذكَّر عَرْضك ، أيها الراقد فى غفلته اذكر غَمْضك ، أيها الذليل بالمعاصى اذكر عرضك ، كم عِتَاب ما أَمْرَضك ولا أَمضَّك .

ويحك ! استصغر أملاً يمنعه الفوْت ، استقصِرْ أَجَلاً يقطعه الموت .

أقبل على العقــــل مستشيرا فـكفى به نصيحا ونذيرا ، إنه ليَحُلّ نقاب الشُّبَه بأنامل البيان .

أوَلا يعلم العاصى أنه قد غرس لنفسه شجرة يتساقط عليه كل حين منها ثمرة ندم من غير هزّ ، فإذا قام فى القيامة شاهدَ أغصانَ ما غرس قد تعاظمت حتى أخذت برَّ البرّ ، فإن غُفر له لم يذل حَيِيًا مما جنى ، وإن عوقب ذاق مر الجنى ، وهذا الأسى الطويل إنما جرّه جَرْجرة الهــــوى ، ولو قنع بالطاق التى تسمع بها عينُ المباح لارتوى ، من غير أذى .

المرء [1] فى تأخيرِ مُدّته [2] كالثوب يَخْلَق بعد جِدّتهِ
ومَصِيره من بعـــد معرفةٍ للناس ظُلمة بيت وِحْدتهِ [3]
من مات مالَ ذوو مودّته عنه وحالوا عن مودتهِ
عجبــاً لمنتبهٍ يضيّع ما يحتاج فيه ليوم رَقْدتهِ
أزِف الرحيلُ ونحن فى لَعِب ما نستعدّ له بعُدّتهِ

قال عُتْبة الغلام : رأيت الحسَنَ عند الموت وقد قهقه ، ومارأيته قط تبسّم ، فقلت : يا أبا سعيد من أى شىء تضحك ؟ فما كلّمنى لثِقَل حاله ، فلما مات رأيته فى المنام فقلت : يا معلم الخير من أى شىء ضحكتَ ؟ فقال : من أمرِ ملَك الموت ، إنه نودى وأنا أسمع : شدِّد عليه فإنه بقى عليه خطيئة ، فضحكت لذلك . فقلت : ما كانت ؟ فلم يجبنى .

---

(١) الأبيات لأبى العتاهية ديوانه ص ٥٧ . (٢) الديوان : بيت لذته .
(٣) البيت فى الديوان .

ومصيره من بعد مدته بليا وذا من بعد وحدته

وما هنا أصح .

وا أسفا : هذا حالُ الحسن وما عُرف منه إلا الحسَن فكيف يكون حالنا إذن مع مالنا من مِحَن .

***

يا من قد لعب الهوى بفهمه ، وسوَّدت شهواتُه وجهَ عَزْمه ، يا مبنيًا عن عَزم البانى على هَدْمه ، يا محمولا إلى البِلَى لتمزيق لحمه ، أما يكفيه مُنْذرا وهَنُ عَظْمه ، كم نقربك وأنت متباعد ، كم نُنهضك إلى العُلاَ يا قاعد ، كم نحرّضك وما تساعِدُ ساعِد ، كم نوقظك وأنت فى اللهو راقد ، يا أعمى البصيرة وما له قائد ، ياقتيل الأمَل لست بخالد ، يامفرّق الهُموم والمقصود واحد ، إن لاحت الدنيا فشيطانٌ مارد ، تقاتل عليها فتكرّ وتطارد ، فإذا جاءت الصلاة فقلبٌ غائب وجسم شاهد ، وتقول قد صليت أتبَهْرَج على الناقد ، ما تعرفنا إلا فى أوقات الشدائد ، أمّا ذنوبك كثيرة فما للطَّرف جامد ، ملَكك الهوى ونحن نضرب فى حديد بارد .

وربمـا غُوفِص(١) ذو غفـلة أصحَّ ما كان ولم يستقمِ
يا واضعَ الميِّت فى قبره خاطَبك القَبْرُ فـلم تَفْهمِ

***

كم ليلة سهرتَها فى الذنوب ، كم خطيئة أمليْتها فى المكتوب ، كم صلاة تركتها مهملاً للوجوب ، كم أسبلت سترا على عتبة عيوب ، ياأعمى القلب بين القلوب ، ستدرى دمعَ من يجرى ويذوب ، ستعرف خبرك عند الحساب والمحسوب ، أين الفرار وفى كف الطالب المطلوب ، تنبَّه للخلاص أيها المسكين ، أعتق نفسك من الرقّ يارهين ، اقلع أصلَ الهوى فعِرْق الهوى مَكين ، احذر غرور الدنيا فما للدنيا يمين ، يا دائم المعاصى سِجْن الغفلة سِجِّين ، تثب على الخطايا ولا وثبة تِنّين ، كأنك بالموت قد برزمن كَمين ، وآن الأمر فوقعت فى الأنين ، واستبَنْت أنك فى أحوال عنّين ، كيف ترى حالك إذا عبثت

---

(١) غوفص : فوجىء على غرة .

الشمال باليمين ، ثم نُقلت ولُقّبت بالميت الدفين ، وا أسفا لعظم حيرتك ساعة التلقين ، يا مستورا على الذنوب غداً تنجلي وتبين ، متى هذا القلب القاسي يرعوى ويلين ، عجبا لقسوته وهو مخلوق من طين .

وقبلَ شُخوصِ المرء يَجْمع زادَه ‏ ‏ وتُمْلأ من قبل الرِّماء الكنائنُ
حَصادك يوماً ما زرعتَ وإنما ‏ ‏ يدان المرء يوماً بما هو دائنُ

ساعات السلامة بين يديك مبذولة ، سابق سيوفَ الآفات فإنها مسلولة ، وبادر مادامت المعاذير مقبولة ، واقرأ علومَ النجاة فهى منقوطة مشكولة ، وافتح عينيك فإلى كم بالنوم مكحولة ، وغيّر قبائحك القباحَ المرذولة ، يا لها نصيحة غير أن النفس على الخلائق مجبولة .

سجع

ويح العصاة لقد عَجِلوا ، لو تأملوا العواقب ما فعلوا ، أين ما شربوا أين ما أكلوا ، بماذا يجيبون إذا أُحضروا وسُئلوا « فينبئهم بما عملوا » .

آه لهم فى أى حَزْن من الُحزْن نزلوا ، لقد جدَّ بهم الوعظ غير أنهم هَزلوا ، ما نفعهم ما اقتنوا من الدنيا وعَزلوا ، إنما كانت ولايةُ الحياة يسيراً ثم عُزلوا ، وانفردوا فى زاوية الأسى واعتزلوا ، فإذا شاهدوا ذنوبهم مكتوبة ذُهلوا « فينبئهم بما عَمِلوا » .

ما نفعتهم لذاتهم إذ خرجت ذَواتُهم ، لقد جُمعت زلاتهم تَحوتْها مكتوباتهم ، فلما عاينوا أفعالَهم خجلوا « فينبّئهم بما عملوا » .

ذهبت من أفواههم الحلاوة ، وبقيت آثار الشقاوة ، وحُطّوا إلى الحضيض من أعلى رباوة ، وحملوا عِذْلى الموتِ والفوتِ والحسرةُ عِلاَوة ، فأعجزهم والله ما حَملوا « فينبئهم بما عملوا »

سجع على قوله تعالى

﴿ أحصاه الله ونَسُوه ﴾

اجتمعت كلمة إلى نَظْرة ، إلى خاطر قبيح وفكرة ، فى كتاب يُحْصِى حتى الذَّرّة ، والعصاةُ عن المعاصى فى سَكْرة ، فجنوا مِن جَنَى ما جَنَوا ثمار ما غرسوه « أحصاه الله ونَسُوه »

كم تنعَّم بمال المظلوم الظالم ، وبات لا يبالى بالمظَالم ، والمسلوبُ يبكى و يُبْكى الحمائم ، وما كفاهم أخذُ ماله حتى حبسوه « أحصاه الله ونسوه » .

أين ما كانوا جمعوه ، كم لِيمُوا وما سمعوه ، كم قيل لهم لو قَبِلوه ، ذهب العَرَضُ غير أن العِرْض دَنّسوه « أحصاه الله ونسوه » .

كم كاسبٍ للمال من حرامه وحلاله ، كان يحاسب شريكه على عود خِلاَله ، ولا ينفق منه شيئا فى تقويم خِلاَله ، فلما وقع صريعا بَيْن أشباله اشتغلوا عنه بانتهاب ماله ، ثم فى اللحد نكّسوه « أحصاه الله ونسوه » .

جعلنا الله وإياكم من الذين عرفوا الحق فاتبعوه ، وزجروا الهوى عنهم وزَدعوه ، إنه قريب مجيب .

المجلس الخامس والعشرون

فى قصة مريم وعيسى عليهما السلام

الحمد لله الذى لا شأن يَشْغله ، ولا نِسْيان يُذْهله ، ولا قاطع لمن يَصله ، ولا ناصر لمن يخذله ، جلَّ عن مِثْل يطاوله ، أو نِدّ يشاكله ، أو نظير يقابله، أو مناظر يقاوله ، يُثيبُ بالعمل القليل و يَقْبله ، ويحلم عن المعاصى فلا يعاجله، ويدَّعى الكافرُ شريكا و يمهله ، ثم إذا بطش هلَكَ كسرى وصَواهِلُه ، وذهب قيصرُ ومَعاقله ، استوى على العرش وما العرش يَحْمله، و يَنْزل لا كالمنتقل تخلو منازله ، هذه جملةُ اعتقادنا وهذا حاصلُه ، من ادَّعى علينا التشبيه فالله يقابله ، مذهبنا مذهب أحمد ومن [1] كان يطاوله ، وطريقنا طريق الشافعى وقد علمت فضائله ، ونرفض قول جَهْم وقد عرف باطله ، ونؤمِّل رؤية الحق ومتى خاب آمله ، لقد حنَّت حنّة إلى ولد فسألت من لا يُرَدّ سائله ، فيالها من مكفول ماتعنَّى كافِله، فلما بلغت حملت بمن شرف حامله ، فعجبت من ولد لامن والدٍ يشاكله ، فقيل هُزِّى إليك فهزت جذعا يابسا تزاوله ، فأخرجَ فى الحال رُطبا رَطْبا يلتذ آكله ، فاستدلت على تكوين ولد تُحمد شمائله ، فالنصارى غلَتْ واليهود عَتتْ « فأتت به قومَها تَحْمله » .

أحمده حمدا أُديمه وأُوصله ، وأصلى على رسوله محمد الذى ارتجت ليلة ولادته أعالى الإيوان وأسافله ، وعلى أبى بكر ثانى اثنين فاعرفوا مَن قائله ، وعلى عمر الذى صفا الإسلام بجِدّه وعَذُبت مناهله ، وعلى عثمان الذى زارته الشهادة وما تعبت رَواحله ، وعلى علىّ بحر العلوم فما يدرَك ساحله ، وعلى العباس أقرب الخلق نسباً فمن يساجله .

***

قال الله تعالى « واذكر فى الكتاب مريم [2] » .

الكتاب : القرآن ومريم اسم أعجمى ، وكان اسم أمها حنّة ، فتمنت ولدا فلما حملت

---

(١) ب : وما كان . (٢) سورة مريم ١٦ .

جعلت حملها مُحرَّرا خادما للكنيسة ، فلما وضعتها أنثى حملتها إليهم فكفلها زكريا .

فلما بلغت خمس عشرة سنة « انتبذَتْ » أى تنحَّتْ عن أهلها « مكانا شرقيًّا » مما يلى المشرق « فاتخذت من دونهم حِجَابا » أى حاجزا يمنع من النظر . قال ابن عباس : ضربت سترا لتطهر من الحيض وتمتشط . وقال السُّدى : احتجبت بالجدار .

« فأرسلنا إليها رُوحَنا » وهو جبريل « فتمثَّل لها » أى تصوّر فى صورة البشر التام الخِلقة . قال ابن عباس : جاءها فى صورة شاب جَعْد قَطَط [1] حين اخضرّ شاربه .

« قالت إنى أعُوذ بالرحمن منكَ إن كنتَ تقيا » المعنى : إن كنت تتقى الله فستنتهى بتعويذى .

« قال إنما أنا رسولُ ربِّك » أى فلا تخافى « لأهب [2] » لكِ أى أرسلنى ليهب « لك غلاما زكيًا » أى طاهرا من الذنوب « قالت أنَّى يكون لى غلامٌ » أى كيف يكون « ولم يَمْسسنى بشرٌ » تعنى الزوج « ولم أكُ بَغِيًا » والبغىّ الفاجرة .

« قال كذلكِ قال ربكِ هو علىَّ هَيِّن » أى يسير أن أهب لك غلاما من غير أب « ولِنَجْعلَه آيةً للناس » أى دلالة على قُدرتنا « ورَحْمةً منا » أى لمن اتبعه وآمن به « وكان أمراً مَقْضِيًا » أى محكوما به مفروغا منه . قال ابن عباس : فنفخ جبريل عليه السلام فى جيب دِرْعها فاستمر بها حَمْلُها .

وفى مقدار حملها سبعة أقوال : أحدها : أنها حين حملت وضعت . قاله ابن عباس . والثانى : حملته تسع ساعات . قاله الحسن . والثالث : تسعة أشهر . قاله سعيد بن جُبَير . والرابع : ثلاث ساعات ، حملته فى ساعة ، وصوّر فى ساعة ووضعته فى ساعة . قاله مقاتل والخامس : ثمانية أشهر فعاش . ولم يعش مولود قط لثمانية أشهر . فكان هذا آية . حكاه الزَّجاج . والسادس : ستة أشهر . حكاه الماوردى . والسابع : ساعة واحدة . حكاه الثعلبى .

---

(١) الجعد : القصير الشعر . والقطط : بمعناه . (٢) الأصل : أى ليهب .

قال وهب : أصبحت الأصنام ليلة ولادة عيسى منكّسة على رءوسها كلما ردوها انقلبت ، فحارت الشياطين وطاف إبليس الأرضَ ثم جاء فقال : رأيت مولودا فلم أستطع أن أدنو إليه .

قوله تعالى : « فانتبذت به » أي بالحمل « مكانا قَصِيّا » أي بعيدا . قال ابن إسحاق : مشت ستة أميال فرارا من قومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج « فأجاءها المَخاضُ [المعنى : فجاء بها][1] والمخاض وجع الولادة « إلى جِذْعِ النخلة » وهو ساق نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا سعف . « قالت ياليتنى مِتُّ قبلَ هذا » اليوم وهذا الأمر ، قالته حياء من الناس « وكنت نَسْيًا مَنْسِيّا » » أي ليتنى لم أكن شيئا .

« فناداها مِنْ تحتها » وفيه قولان : أحدهما المَلَك . وكانت على نشَز . والثانى : عيسى لما ولدته . والسَّرِىّ : النهر الصغير . وكانت قد حزنت لجدْب مكانها وخلوّه عن ماء أو طعام ، فقيل لها قد أجرينا لك نهرا وأطعمنا لك رُطبا ، وفي ذلك آية تدل على قدرة الله عزوجل فى إيجاد عيسى . « وهُزِّى إليك بجِذْعِ النخلة » الباء زائدة « تُسَاقِطْ عليك رُطَبًا جَنِيًّا » وهو الطرى المجتنَى « فكُلِي » من الرطب « واشربى » من النهر « وقَرِّى عينًا » بولادة عيسى . والصوم : الصمت . وإنما أُمرت بالسكوت لأنها لم يكن لها حُجّة عند الناس .

وفي سِنّها يومئذ ثلاثة أقوال : أحدها : خمس عشرة سنة . قاله ابن عباس ووهب . والثانى : اثنتى عشرة سنة . قاله زيد بن أَسْلَم . والثالث : ثلاث عشرة [سنة][2] قاله مقاتل .

قال ابن عباس : فلما مضت عليه أربعون يوما وطَهُرت من نفاسها جاءت إلى قومها بعيسى ، فبكوا ، وكانوا صالحين ، وقالوا : « يامريم لقد جئتِ شيئا فَرِيًّا » أى عظيما « يا أخت هٰرون » وفيه أربعة أقوال : أحدها : أنه أخ لها من أمها ، كان أَمْثَلَ

(١) من ت . (٢) من ت .

فتىً فى بنى إسرائيل . والثانى : أنها كانت من بنى هرون أخى موسى . والثالث : أنه رجل صالح من بنى إسرائيل شبّهوها به فى الصلاح . وهذه الأقوال عن ابن عباس . والرابع : أنه رجل من فُسّاق بنى إسرائيل . قاله وهب .

« ما كان أبوكِ » يعنون عمران « امْرَأَ سَوْء » أى زانيا « وما كانت أمُّك بَغِيًّا » أى زانية «فأشارت إليه» أى أومأت إلى عيسى أن كلّموه ، وكان عيسى قد كلمها قبل قومها وقال : يا أماه أَبشرى فإنى عبدُ الله ورسوله . فلما أشارت أن كلّموه تعجبوا وقالوا : « كيف نكلّمُ من كان فى المهد صَبِيًّا » وكان زائدة . فنزع فمَه من ثديها وجلس وقال: « إنى عَبْدُ الله آتانِىَ الكتابَ » قال عكرمة : قضى أن يؤتينى الكتاب. وقال غيره : علم التوراة وهو فى بطن أمه .

وأوحى الله تعالى إليه وهو ابن ثلاث سنين وأنزل عليه الإنجيل ، وكان يبرئ الأكمه والأبرص ، وكان يجتمع على بابه من المرضى خمسون ألفا فيداويهم بالدعاء ، فاتبعوه وسألوه أن يحيِىَ لهم سامَ بن نوح ، فأتى قبره فناداه فانشق القبر وقام فقال : هذا عيسى بن مريم فاتّبعوه . ثم قال : سَلْ ربّك أن يردّنى كما كنت .فسأل[ربه][1] فعاد .

وكان عيسى عليه السلام يلبس الصوف ويتخذ نعلين من لحاء الشجر شراكهما لِيف ، وكانت مريم تلتقط[2] فإذا عُلم بها نُثِر لها فتتحول إلى مكان لا تُعرف فيه .

وكان يقول : لباسى الصوف ، وشعارى الخوف ، وبيتى المسجد[3] ، وطيبى الماء ، وأُدْمى الجوع ، ودابتى رجلاى ، وسراجى بالليل القمر ، ومُصْطَلاىَ[4] فى الشتاء مَشارق الشمس ، وفاكهتى وريْحانى بقول الأرض ، وجلسائى المساكين .

وكان يقول لأصحابه : أهينوا الدنيا تكرمكم[5] الآخرة ، إنكم لا تدركون ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون، ولا تبلغون ما تريدون إلا بترك ماتشتهون .

---

(١) من ت . (٢) ب : « تلفظ » . (٣) ت : المساجد .
(٤) ب : وصلاتى . (٥) ب : تكرم الآخر عليكم . وما أثبته من ت .

أخبرنا الحسن بن أحمد ، عن محمد بن سباع النميرى ، قال : بينا عيسى بن مريم عليه السلام يَسِيح فى بعض بلاد الشام اشتد به المطر والرعد والبرق ، فجعل يطلب شيئا يلجأ إليه فرفِعت له خيمة من بعيد فإذا فيها امرأة فحاد عنها ، فإذا هو بكهف فى جبل فأتاه فإذا فى الكهف أسد ، فرفع يده ثم قال : إلهى جعلتَ لكل شىء مأوى ، ولم تجعل لى مأوى !

فأجابه الجليل : مأواك عندى فى مستقر رحمتى ، لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء[١] حلّيتها [بيدى][٢] . ولأطعمنّ فى عرسك أربعة آلاف عام ، كل عام منها كعمر الدنيا ، ولآمرنّ منادياً ينادى : أين الزاهدون فى الدنيا ، زوروا عُرْس الزاهد عيسى ابن مريم .

وقال أبو على الجَلْد[٣] : لقى عيسى بن مريم عليه السلام إبليس فقال : أسالك بالحى القيوم الذى جعل عليك اللعنة ما الذى يسلّ جسمَك ويَقْطع ظهرك ؟ فضرب نفسه الأرض ثم قام فقال : لولا أنك أقسمت علىّ بالحى القيوم ما أخبرتك ، أما الذى يقطع ظهرى فصلاة الرجل فى بيته نافلةً وفى الجماعة ، وأما الذى يسل جسمى فصَهيل الفرس فى سبيل الله !

وقال ابن عباس : دخل عيسى عليه السلام خَوْخةً فدخل وراء رجل من اليهود فأُلقى عليه شبه عيسى فقتلوه وصلبوه .

قال علماء النَّقْل : رفع لثلاث ساعات من النهار وأُلبس النور وكُسى الريش وقطعت عنه لذة المطعم والمشرب فأصبح إنْسيا مَلكيا .

وقال بعضهم : رفع ليلة القدر وكان عمره ثلاثا وثلاثين سنة وأشهرا ، وماتت أمه بعد رفعه بست سنين ، وكان عمرها نيفا وخمسين سنة .

وجاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أن عيسى عليه السلام ينزل على

---

(١) ت : حورية .   (٢) من ت .   (٣) ت : وقال أبو الجلد .

المنارة البيضاء بشرقىّ دمشق ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزْية ويقاتل الناس على الإسلام ، ويقتل الدجال ويتزوج ويولد له ، ويمكث خمسا وأربعين سنة ، ثم يموت فيدفن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الكلام على البيتين

حُكم المنيّة فى البريّة جارى ... ما هــذه الدنيــا بدار قرارِ
بَينْا يُرَى الانسان فيها مُخْبِرا ... حــتى يُرَى خــبراً من الأخبارِ
طُبعت على كدرٍ وأنت تريدها ... صَفْــوا من الأقذار والأكدارِ
ومكلِّف الأيام ضــد طِباَعها ... متطلب فى المــاء جَذْوة نارِ
وإذا رجوتَ المستحيل فإنمــا ... تبــنى الرجاء على شَفِيرٍ هارِ
فالعيش نومٌ والمنيّة يَقْظــة ... والمرء بينهما خيــالٌ سارِ
والنفس إنْ رضيتْ بذلك أو أبَتْ ... منقــادةٌ بأزِمّة المقــدارِ
فاقضُوا مآربكم عِجَالاً إنمــا ... أعماركم سَفرٌ من الأسفارِ
وتراكضوا خيلَ الشباب وبادروا ... أن تُستردّ فإنهن عوارِى
والدهرُ يخدع بالمــنَى ويَغصّ إن ... هنَّا ويهــدم ما بنى ببوارِ
قد لاح فى ليـل الشباب كواكبٌ ... إن أُمهلت عادت إلى الإسفارِ

***

لقد خرقت المواعظ المسامع ، وما أراه انتفع(١) السامع ، ولقد بدا نور الهــدى فى المَطَالِع لكنه قد عمى المُطالِع ، ولقد بانت عِبَرٌ من غَبر لمن عبر المصارع(٢) ، فما بالها ما انسكبت المدامع . يا من شبابه قد مضى(٣) هل ما مضى من العمر راجع ، تيقظ ، الحذِر ثم اعتذر وراجع ، فالهول شديدٌ والحساب دقيق والطريق شاسع ، « إنّ عذابَ ربِّك لَواقع » .

(١) ت : وما أراد استمع . (٢) ت : عبر من المصارع . (٣) ت : فى مضى .

أيها المطمئن إلى الدنيا وهى تطلبه بذحَل(١) ، قد مرضت عَيْنُ بصيرته فيها فما ينفع الكُحل ، يتبختر فى رياضها وما ثَمَّ إلا وحَل ، اقبل نصحى واشدد الرَّحْل عن مَحلّ المَحْل ، وتأمّرْ على نفسك فللنَّحْل فَحْل .

أيا صاحِ نُهَى الصاحى بحبلٍ منك مُدَّارِكْ(٢)
إلى كم مــع دنيـــاك وتلك المومِس الفارِكْ(٣)
تخون الأولَ العهدَ نخلِّ العرْس أو شارِكْ
مـــتى يُلْحقنى بالركبِ هــذا الجَمَلُ البارِكْ
ألا قد ذهب النـــاسُ ونِضْوى رازمٌ بارِكْ(٤)

***

آه لنفسٍ انفصلت ساعاتها وما حصلت طاعاتُها ، تبعَتْها تَبِعاتها وما نفعتْها دُعاتها ، شهورها وجُمعاتها ومجالسها وجماعاتها ، ومذكورها ورعاتها وقصائدها ومسجعاتها ، والدنيا ولَسَعاتُها ، والمِحَن وجَزعاتها ، والمنونُ ووقعاتها ، وما لانت مع هذا مُمْتنِعاتُها ، ولا خفَّت من رقاد الغفلة هجَماتها . يا من قد شاب أقبلْ على شانك ، واكشف هذا الحجاب وأسبل دمع شانك(٥) ، خلعتَ خِلعة الشباب وكانت عاريّة ، ولبست ثوبا تخلَعه فى البرّيّة ، فدع الهوى ودع كلَّ بَليّة ، فقد أنار الهدى بمصابيح جليّة .

سار الشبابُ فلم نعرف له خبرا ولا رأينا خيالاً منـــه مُنْتابَا
وحُقّ للعِيسِ لو نالت بنا بلداً فيه الصِّبَا كَوْن عُود النِّدّ أقتابَا
ألقى إليه قميص الشيب(٦) رهنَ بِلًى ثم استجدَّ قميص الشيب محتاجا
ما زال يَمْطل دنيـــاه بتَوْبته حـــتى أتته مناياه وما تابَا

***

(١) الذحل : الثأر . (٢) مدارك : متدارك . (٣) الفارك : المبغضة .
(٤) النضو : البعير المهزول . (٥) شانك : عيبك .
(٦) الأصل : السرح .

كان الحسن يقول : يابن آدم بِعْ عاجلتك بعاقبتك تربحهما جميعا ، ولا تبع عاقبتك بعاجلتك فتخسرها جميعا ، الثَّواء هنا قليل ، وقد أُسرع بخياركم فما ذا تنتظرون ؟ المعاينة فكأنها والله قد كانت ، وإنما ينتظر بأولكم أن يلحق بآخركم .

يابن آدم دِينك دِينك ، فإن سَلِم لك دينك سلم لك لَحمك ودمك ، وإن تكن الأخرى فإنها نار لا تُطْفَى ونفس لا تموت ، إنك معروض على ربك ومرتهن بعملك ، فخذ مما في يديك لما بين يديك عند الموت يأتيك الخير ، يا ابن آدم تَرْكُ الخطيئة أهون من معالجة التوبة . يابن آدم لا تعلّق قلبك بالدنيا فتعلقه بشَرّ مُعلّق ، قطع حبالها وأغلق عنك بابها، حسبك ما بلَّغك المحَلّ .

استغفر الله منيبــــا خاشعا … واهجر لَميسَ واجتنب ديارَها

من زاره عاتى الصِّبا فإنمــــا … زار من الأسْد الجُثوم دارَها

وأَفضل الأُزْر إزارُ عِفّةٍ … إذا الرجالُ[1] طرحت آزارَها

من أبَّر النخلَ إبارَ مُحْسن … أحمــــد فى إرطابها آثارَها

والعقل خيرٌ لا يُخاف غشّه … إذا الرجال اتَّهمت أخبارَها

فأَجبر النفسَ على التقوى ولا … تقـــل لم أستطع إجبارها

الـكلام على قوله تعالى

« يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نَصُوحا »

قرأ الجمهور : نَصُوحا بفتح النون . وقرأ أبو بكر عن عاصم بضمها . قال الزجّاج : من فتح فعلى صفة التوبة ، والمعنى توبة بالغـة في النصح . وفَعُول من أسماء الفاعلين التى تُستعمل للمبالغة فى الوصف . يقال رجل صَبُور وشَكُور . ومن قرأ بالضم فمعنـاه يُنْصحون بها نصوحا يقال : نصحتُ له نُصْحا ونَصاحة ونُصوحاً .

قال عمر بن الخطاب : التوبة النصوح أن يتوب العبد من الذنب وهو يحدّث نفسه أن لا يعود .

---

(١) الأصل : إذا القتال .

وسئل الحسن البصرى عن التوبة النصوح فقال : ندمٌ بالقلب ، واستغفار باللسان ، وتَرْك بالجوارح ، وإضمار أن لا يعود .

وقال ابن مسعود : التوبة النصوح تكفّر كلَّ سيئة . ثم قرأ هذه الآية .

***

اعلم أن التائب الصادق كلما اشتد ندمُه زاد مَقْته لنفسه على قُبْح زلته ، فمنهم من قَوِى مقتُه لها ورأى تعريضها [للقتل][1] مباحاً فى بعض الأحوال فعرّضها له ، كما فعل ماعِز والغامِدِيّة .

أخبرنا ابنّ عبد الواحد ، أنبأنا الحسن بن على ، أخبرنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله ابن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا أبو نُعَيم ، حدثنى بشير بن المهاجر ، عن عبد الله بن بُرَيْدة ، عن أبيه قال : كنت جالسا عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل يقال له ماعِز ابن مالك فقال : يا نبى الله إنى قد زنَيْت وأنا أريد أن تُطَهِّرنى فطهِّرْنى . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ارجع . فلما كان من الغد أتاه أيضا فاعترف عنده بالزنا فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ارجع . ثم أرسل النبى صلى الله عليه وسلم إلى قومه فسألهم عنه فقال : ما تعلمون من ماعز بن مالك الأَسْلَمى ؟ هل ترون به بأساً وما تنكرون[2] من عقله شيئا ؟ قالوا : يا نبى الله ما نرى به بأساً ولا ننكر من عقله شيئا . ثم عاد إلى النبى صلى الله عليه وسلم الثالثة فاعترف عنده بالزنا وقال : يا نبى الله طهِّرنى . فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم إلى قومه أيضا فسألهم عنه فقالوا له كما قالوا فى المرة الأولى : ما نرى به بأساً وما ننكر من عقله شيئا . ثم رجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم الرابعة فاعترف عنده بالزنا ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم فحفر له حَفِيرة[3] فجُعِل فيها إلى صدره ثم أمر الناسَ أن يرجموه .

قال بُرَيْدة : وكنت جالسا عند النبى صلى الله عليه وسلم فجاءته امرأة من غامِد فقالت : يانبى الله ، إنى قد زنَيْت وإنى أريد أن تطهِّرنى . فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم : ارجعى . فلما كان من الغد أتته أيضا فاعترفت عنده بالزنا فقال لها : ارجعى . فلما أن كان

---

(١) سقطت من ت . (٢) ت : أو تنكرون . (٣) ب : حفرة .

من الغد أتته فاعترفت عنده بالزنا وقالت : يا نبيَّ الله طهرني فلعلك أن تردني كما رددْتَ ماعزَ بن مالك فوالله إني لحُبلى من الزنا . فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : ارجعي حتى تلدي . فلما ولدت جاءت بالصبيّ تحمله فقالت : يانبي الله ، هذا قد ولدتُ. قال : فاذهبي حتى تفطميه . فلما فطمته جاءت بالصبيّ في يده كِسْرة خبز فقالت : يانبي الله. هذا قد فطمته. فأمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالصبي فدفع إلى رجل من المسلمين وأمر بها فحفر لها حفيرة فجعلت فيها إلى صدرها ، ثم أمر الناسَ أن يرجموها ، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضَح الدمُ على وجه خالد فسبَّها ، فسمع النبي صلى الله عليه وسلم سبَّه إياها فقال : مهلاً يا خالد فوالذى نفسي بيده لقد تابت توبةً لو تابها صاحب مَكْس[1] لغُفِر له . ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت .

انفرد بإخراج الحديثين مسلم[2] .

وقد أخرج في بعض الطرق أن ماعزاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : طهرني . فقال له : ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه . فرجع غير بعيد ثم جاء فقال : يارسول الله طهرني فقال : ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه فرجع ثم جاء فقال : طهرني . حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : مم أطهرك ؟ قال : من الزنا . فلما رجمه قال : « لقد تاب توبةً لو قُسِمت بين أمةٍ لوَسِعَتْهم » .

***

فانظرِ إلى مَقت هؤلاء أنفسَهم حتى أسْلموها إلى الهلاك غضبا عليها لما فعلتْ .

ومن التائبين[3] من لم يُجْز له التعريض بقتلها ، فكان[4] ينغص عيشَها .

قال بعض السلف : رأيت ضَيْغماً العابد قد أخذ كوزا من ماء بارد فصبَّه في الحُبّ واكتال غيرَه ، فقلت له في ذلك فقال : نظرتُ نظرةً وأنا شاب فجعلت على نفسي

(١) المكس : الظلم ، ودراهم كانت تؤخذ من بائعي الأسواق في الجاهلية . (٢) صحيح مسلم ١٦٩٥
(٣) ت : ومن الناس . (٤) ت : وكان .

ألاَ أذيقها الماء الباردَ ، أنغّص عليها أيامَ الحياة[١] .

***

يا نادماً على الذنوب أين أثرُ ندمك ، أين بكاؤك على زلة قدمك ، أين حذرك من أليم العقاب[٢] ، أين قلقك من خوف العتاب[٣] ، أتعتقد أن التوبة قول باللسان ، إنما التوبة نار تحْرق الإنسان . جَرِّد قلبك من الأقذار ، ثم ألبسه الاعتذار ، ثم حَله حُـلة الانـكسار ، ثم أقِمْه على باب الدار .

لَهِـج بعضُ العُبّاد بالبكاء ، فعوتب على كثرته فقال :

بكيتُ على الذنوبِ لِعظْمِ جُرْمِي ... وحُقّ لـكل من يَعْصِى البكاء

فلو أنّ البـكاء يردّ همّى ... لأسعدتِ الدموعَ معـاً دمائى

***

اعلم أن التائب المحقق يشغله تنظيف ما وسخ ، والحزن على ما فرط عن تصوير[٤] زَلّة ثانية .

[يا هذا][٥] اكتب قصة الرجوع بقلم النزوع بمداد الدموع ، وابْعث بها على قدم الخضوع إلى باب الخشوع ، وأَتْبعها بالعطش والجوع ، وسَلْ رَفْعها فرُبّ سؤالٍ مسموع ، كم هُتك سِتْر من فعل خطيئة قد فعلتَها وسُتِرت ، فابك على كثرة الذنب أو [على][٥] قلة الشـكر .

لئن جَـلّ ذَنبى وارتـكبتُ المآثما ... وأصبحتُ فى بحر الخطيئة عائما

أجرّر ذيـــلى فى مُتابعة الهوى ... لأقضىَ أو طارَ البطالة هائمـــا

فهـــا أنا ذا يارَبِّ أقررتُ بالذى ... جنيتُ على نَفْسِى وأصبحتُ نادماً

---

(١) لا يجيز الإسلام تحريم طيبات الحياة ولا يرى التطرف فى زجر النفس إلى حد الحرمان من المباحات التى جعل الله فيها عوناً على عبادته وطاعته ، ولـكن مناهج التربية عند الأقدمين كان يسودها بعض ما كان يعرف عند المترهبين . (٢) ب : العتاب . (٣) ب : العقاب . (٤) ب : تصور .

(٥) من ت .

أجَلُّ ذنوبى عند عفوك سيدِى   حقيرٌ وإن كانت ذنوبى عظائِمَا

***

تشَبثْ بذَيْل الحِلْم ، وصِحْ بصاحب العفو لعل شفيع الاعتراف يسأل فى أسير الاقتراف .

ذنبى إليك عظيمٌ   وأنت للعفو أهلُ
فإن عفوتَ بفضلٍ   وإن أخذتَ فعَدْلُ

[يا هذا] مناجاتك مَنْجاتك ، وصلاتك صِلَاتك ، نادِ فى نادى الأسحار والناس نائِمون : يا أكرم من أمَّله الآملون .

علىَّ دَيْنٌ ثقيل أنت قاضيه   يا من يُحَمّلنى ذنبى رجائيه
الحالُ مُرْهِقة والنفسُ مُشْفِقة   من دائها التمادِى أو تُداوِيه

إن طردتنى فإلى من أذهب ، وإن أبعدتنى فإليك أنْسَب ، علمتَ ذَنْبى وخَلقتنى ، ورأيت زَلَلى ورزقتنى .

برَّنِى معرُوفكمْ قبلَ أبِى   وغَذانِى برّكُمْ قبلَ اللَّبَنْ
وإذا أنتم وأنتم أنتمُ   لم تَوَلَّوْنِى وتُولُونِى فمَنْ

يا هذا : ماء العَيْن فى الأرض حياة الزرع ، وماء العين على الَخدّ حياةُ القلب ، يا طالبَ الجنة : بذنبٍ واحد أُخرجَ أبوك منها ، أتطمع فى دخولها بذنوب لم تَتُبْ عنها ، إن امرأً تنقضى بالجهل ساعاته ، وتذهب بالمعاصى أوقاته ، لخليق أن تجرى دائمًا دموعه ، وحقيق أن يقلّ فى الدجى هُجوعه .

واأسفا لمن ذهب عمره فى الخِلاف ، وصار قلبه بالخطايا فى غِلَاف ، لمّا سُترت عن التائبين العواقب فزعوا إلى البكاء واستراحوا إلى الأحزان ، كانوا يتزاورون فلا تجرى فى خَلْوة الزيارة إلا دموع الحذَر .

باحَتْ بسرِّى فى الهوى أدْمُعى ودلَّت الواشى على مَوضِعِى
يا قومِ إن كنتمْ على مَذهبى فى الوَجْد والحزن فنُوحوا معِى
يحقّ لى أبــكى على زَلّتى فلا تَلُومونى عــلى أدْمُعِى

***

آه لنفس لا تعقل أمرها ثم قد جهلت قَدْرها ، تضيع فى المعاصى عمرها وتخوض من الذنوب غَمْرها ، إلى متى تعصى وكم تتمرد ، وأقبح من قبيحك أنك تتعمد ، ياردىء العزم ياسيْ المقصد ، يا نقى الثوب والقلبُ أسودَ ، ما هذا الأمل ولست بمخلَّد ، أما تخاف من أوعدك وهدَّد ، يا مستوراً على القبيح أتقرّ أم تجْحد ، يا من شاب وما تاب هذا الدأبُ مذ أنت أمرد ، يا مشترياً لذةً تزول بالعذاب السَّرْمَد ، يا مرمِيّا فى جُبّ الهوى هذا الحَبْل وما تَصْعد ، بالله عليك تأمّل نُصحى وتفقَّد ، أما الطريق طويلة فاقبل منى وتزوّد ، تخلَّص من أسْر الهوى فإلى كم مقيّد ، ميِّز ما يبقى بما يَفْنى ثم اطلب الأجْوَد ، ما أرى قولى يؤثر فيك ولو دُرس مُجَلَّد ، أظرف من فعلك قلةُ فهمك وأنت تتبغْدد ، أسفاً لأيام مضت فى الذنوب وتولَّت ، تحكَّمت فيها النفسُ فأفسدتها إذ تولت ، وعلى ليالٍ كست الصحائفَ لونها فوكَستْ وأذلَّت ، وعلى ساعات فى طِلَاب الهوى هوت واضمحلت ، حسرةً عن حسير ذهبت وحلّت ، آه لشيب كان الشباب منه أصلح ، ولذى عيب ما قرَمه(1) العتاب ولا أُصْلح ، ولمفرّط يخسر كل يوم ولا يربح ، ولمتخبط فى ظلام الظلم والصباح قد أصبح .

قد تناهت فى بلائى حيلــتى وبلائى كلُّه من قِبَلِى
كلما قُلْت تجلّت غُمَّــتى عُدْت فى ثانيةٍ لا تَنْجلِى
لعبت بى شهــواتى وانقضت لى حيــاتى فى غرور الأملِ
وأحلّت بى ذنوبى سَقماً كيف بالبُرْء منــه كيف لِى

---

(١) قرمه : عضه وآلمه .

قد رَمَتْنى سيئاتى والهــوَى بسهامٍ فأصابت مَقْتَــلِى
وأتى شَيْبِى وحالِى كالذى كنتُ فيه فى الزمانِ الأولِ

لو رأيت التائب لرأيت جفْنا مقروحا ، تبصره فى الأسحـار على باب الاعتذار مطروحا ، سمع قول الإله يُوحى فيما يوحَى « توبُوا إلى الله توبةً نَصُوحا » .

مَطْعمه يَسِير ، وحُزنه كثير ، ومُزْعجه مُثير ، فكأنه [1] أسير قد رمِى مجروحا ، أنْحلَ بدنَه الصيام ، وأتعب قدمَه القيام ، وحلَف بالعزم على هَجْر المنام ، فبذل جسداً وروحا [توبوا إلى الله توبةً نَصُوحاً] [2] .

الذلّ قد علَاه والحزن قدوهَاه ، يذم نفسه على هواه ، وبهذا صار ممدوحا .

أين من يبكى جناياتِ الشباب التى بها اسودّ الكتاب ، أين من يأتى إلى الباب يجد الباب مفتوحا [توبوا إلى الله توبةً نَصُوحا] [2] . والحمد لله وحده .

---

(١) ت : وكأنه . (٢) من ت .

المجلس السادس والعشرون

فى قصة أهل الكهف

الحمد لله الذى لا يتأثر بالمدَى ولايتغير أبدا ، لم يزل واحدا أحدا ، لم يتخذ صاحبةً ولا ولدا ، اختار من شاء فنجّاه من الردَى ، أنقذ أهلَ الكهف وأرشد [1] وهدَى ، وأخرجهم بقلق راحَ بهم وغدا ، فاجتمعوا فى الكهف يقولون كيف حالُنا غداً ، فأراحهم بالنوم من تعب التعبّد مُددا « إذا أوَى الفِتْيةِ إلى الكهف فقالوا ربَّنا آتِنا من لَدُنْك رحمةَ وهيئْ لنا من أمرنا رشدا ، فضربنا على آذانهم فى الكهف سِنينَ عَدداً ، ثم بعثْناهم لنَعْلَم أىُّ الحِزْبين أحْصَى لِماَ لَبِثُوا أمداً ، نحن نقصُّ علَيْكَ نبأهُمْ بالحقِّ ، إنهم فِتْيةٌ آمنو بربِّهم وزِدْناهم هُدًى » .

أحمده ما ارتجزَ حادٍ وحدَا ، وأصلى على محمد أشرف متبوع وأفضل مُقْتَدى ، وعلى أبى بكر المتخِذ بإنفاقه عند الإسلام يدا ، وعلى عمر العادل الذى ما جار فى ولايته ولا اعتدَى ، وعلى عثمان الصابر فى الشهادة على وقع المُدَى ، وعلى علىّ محبوب الأولياء ومُبيد العِدَى، وعلى عمه العباس أشرف الكلّ نسَبا ومَحْتِدا .

***

قال الله عز وجل : « أم حَسِبْتَ أنّ أصحاب الكَهْفِ والرَّقِيم كانوا من آياتنا عجباً [2] » .

سبب نزولها : أن اليهود سألوا [3] عن أصحاب الكهف فنزلت .

ومعنى : « أم حَسِبْت » : أحسبتَ . والكهف : المغارة فى الجبل إلا أنه واسع فإذا صَغُر فهو غار

وفى الرقيم ستة أقوال : أحدها : أنه لوحٌ من رَصاص كان فيه أسماء الفتية

---

(١) ت : فأرشد . (٢) سورة الكهف ٩ . (٣) ب : سألوه .

مكتوبة ليَعْلم من اطلَّع عليهم يوماً من الدهر ما قِصّتهم . رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال وهب .

والثانى : أنه اسم الوادى الذى فيه الكهف . قاله قتادة والضحاك .

والثالث : أنه اسم القرية التى خرجوا منها . قاله كعب .

والرابع : أنه اسم الجبل . قاله الحسن(١) .

والخامس : أن الرقيم الدواة بلسان الروم . قاله عِكْرمة .

والسادس : أنه اسم الكلب . قاله سعيد بن جُبَيْر .

ومعنى الكلام : أحسبتَ أن أهلَ الكهف كانوا أعجب(٢) آياتنا ؟ قد كان فى آياتنا ما هو أعجب منهم .

« إذ أوى الفِتْية إلى الكهف » أى جعلوه مأوًى لهم . والفِتْية : جمع فتًى ، مثل غُلَام وغِلْمة . والفتى : الكامل من الرجال .

واختلف العلماء فى بدء أمرهم ومصيرهم إلى الكهف على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم هربوا ليلاً من مَلِكهم حين دعاهم إلى عبادة الأصنام ، فمروا براعٍ له كلب فتَبِعهم على دينهم ، فأوَوْا إلى الكهف يتعبّدون . قاله ابن عباس .

وقال عُبَيْد بن عُمَيْر : فقَدهم قومُهم فطلبوهم ، فعمَّى الله عليهم أمرهم ، فكتبوا أسماءهم فى لوح : فلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم فى شهر كذا فى سنة كذا فى مملكة فلان . ووضعوا اللوح فى خزانة الملك .

والثانى : أن أحد الحواريّين جاء إلى مدينة أصحاب الكهف فلقيه هؤلاء الفتية فآمنوا به ، فطُلِبوا فهربوا إلى الكهف . قاله وهب بن منبِّه .

والثالث : أنهم كانوا أبناء عظماء المدينة وأشرافهم ، فخرجوا واجتمعوا وراء المدينة على غير ميعاد ، فقال كبيرهم : إنى لأجد فى نفسى شيئا ما أظن أحدا يجده . قالوا : ماهو ؟

---

(١) ب : قاله حسن .   (٢) ت : كانوا عجبا .

قال : إن ربّى ربّ السموات والأرض . فتوافقوا فدخلوا الكهف فناموا . قاله مجاهد .

قوله تعالى : «فضرَبْنا على آذانهم» المعنى أنَمْناهم « ثم بعثناهم لنَعْلم أىّ الحِزْبَيْنِ » أى ليعلم خَلْقُنا . وأراد بالحزبين المؤمنين والكافرين وكان قد وقع بينهم تنازع فى مدة لبثهم . ومعنى قاموا : خلَوْا .

وكانت الشمس إذا طلعت تَزَّاور عن كهفهم وإذا غربت تَقْرضهم أى تَعْدل عنهم. وفى سبب ذلك قولان : أحدهما : أن كهفهم كان بإزاء بنات نَعْش(١) . قاله الجمهور . والثانى : أن ذلك كان آية . قاله الزجاج . والفَجْوة : المتّسع .

« وتَحْسَبهم أيْقاظاً » لأن أعينهم كانت مفتحة وهم نيام لئلا تذوب . قال ابن عباس : كانوا يقلبون فى كل عام مرتين ، ستة أشهر على هذا الجنب وستة أشهر على هذا الجنب . وقال مجاهد : بقوا على شقّ واحد ثلاثمائة عام ، ثم قلبوا تسع سنين . والوصيد: الفناء والباب .

« لو اطّلعت عليهم لوَلَّيْت منهم فِراراً » لأنهم طالت شعورهم وأظفارهم جدا . قال وهب : خرج المِلك وأصحابه فى طلبهم فوجدوهم نياما ، فكانوا كلما أراد أحد أن يدخل أخذه الرعب ، فقال قائل للملك : أليس أردت قتلهم؟ قال : بلى قال : فابن عليهم باب الكهف حتى يموتوا جوعا وعطشا . ففعل .

فأما سبب بَعْثهم فقال عكرمة : جاءت أُمّة مُسْلمة ، وكان ملكهم مسلما ، فاختلفوا فى الروح والجسد فقال قائل : تُبعث الروح وأما الجسد فتأكله الأرض . وقال قائل : تبعث الروح والجسد . فشق اختلافهم على المِلك فانطلق فلبس المسوح وقعد على الرماد ، ودعا الله تعالى أن يبعث لهم آية تبين لهم . فبعث الله أهل الكهف .

وقال وهب : جاء راع قد أدركه المطر إلى الكهف ففتح بابه ليأوى إليه الغنم ، فرد الله إليهم أرواحهم .

قال ابن إسحاق : قعدوا فرحين فسلّم بعضهم على بعض لا يرون فى وجوههم

---

(١) بنات نعش : نجوم .

ولا أجسادهم ماينكرون ، وإنما هم كهيئتهم حين رقدوا ، وهم يرون أن ملِكهم فى طلبهم فصلُّوا وقالوا ليمليخا صاحب نفقتهم : انطلق فاستمع مانُذْكَر به وابتغ لنا طعاما . فوضع ثيابه وأخذ ثيابا يتنكر فيها ، وخرج مستخفياً متخوِّفا أن يراه أحد ، فرأى على باب المدينة علامة تكون لأهل الإيمان ، فخُيِّل إليه أنها ليست بالمدينة التى يعرف ، ورأى ناسا لا يعرفهم ، فجعل يتعجب ويقول : لعلى نائم . فلما دخلها رأى قوما يحلفون باسم عيسى فأسند ظهره إلى جدار وقال فى نفسه : والله ما أدرى ماهذا ؛ عشية أمس لم يكن على الأرض من يذكر عيسى إلا قتل ، واليوم أسمعهم يذكرونه ! لعل هذه ليست بالمدينة التى أعرف ، والله ما أعرف مدينة قرب مدينتنا فقام كالحيران وأخرج وَرِقاً وأعطاه رجلا وقال : بِعْنى طعاما فنظر الرجل إلى نقشه فجعل يتعجب ، ثم ألقاه إلى آخر فجعلوا يتطارحونه بينهم ويتعجبون ويتشاورون ، وقالوا إن هذا قد أصاب كنزا . ففَرِق منهم وظن أنهم قد عرفوه فقال : أمسكوا طعامكم فلاحاجة بى إليه . فقالوا له : من أنت يا فتى ، والله لقد وجدتَ كنزا فشارِكنا فيه وإلا أتينا بك السلطان . فلم يدر ما يقولون فطرحوا كساءه فى عنقه وهو يبكى ويقول : فُرِّق بينى وبين إخوتى ، ياليتهم يعلمون ما لقيت .

فأتوا به إلى رجلين كانا يدبران أمر المدينة فقالا : أين الكنز الذى وجدت؟ قال : ما وجدتُ كنزا ، ولكن هذه وَرِق آبائى ونَقْش هذه المدينة وضَرْبها ولكن والله ما أدرى ما شأنى ولا ما أقول لكم . وكان الورِق مثل أخفاف الإبل فقالوا له : من أنت وما اسم أبيك ؟ فأخبرهم ، فلم يجدوا من يعرفه فقال له أحدهما : أتظن أنك تَسْخر منا وخزائن هذه المدينة بأيدينا وليس عندنا من هذا الضَّرْب درهمٌ ولا دينار ، فإنى[1] سآمر بك فتعذَّب عذاباً شديدا ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز . فقال يمليخا : أنبئونى عن شىء أسألكم عنه فإن فعلتم صَدَقْتُكم[2] . قالوا : سَل . قال : ما فعل الملك

(١) ت : وإنى . (٢) ب : صدقتم ، وما أثبته من : ت .

دقيانوس ؟ قالوا : لا نعرف على وجه الأرض اليوم مَلِكا يسمى دقيانوس ، وإنما هذا ملك قد كان منذ زمان طويل ، وهلكت بعده قرون كثيرة . فقال : والله ما يُصَدِّقنى أحد بما أقول ، لقد كنا فتية وأكرهنا الملك على عبادة الأوثان فهربنا منه عشيةَ أمس فَنِمنا ، فلما انتبهنا خرجتُ أشترى لأصحابى طعاما فإذا أنا كما ترون ، فانطلقوا معى إلى الكهف أريكم أصحابى .

فانطلق [معه](١) أهلُ المدينة ، وكان أصحابُه قد ظنوا لإبطائه عليهم أنه قد أُخذ ، فبيناهم يتخوفون ذلك إذ سمعوا الأصوات وجلَبة الخيل ، فظنوا أنهم رُسُل دقيانوس ، فقاموا إلى الصلاة وسلم بعضهم على بعض ، فسبق يمليخا إليهم وهو يبكى فبكوا معه وسألوه عن شأنه فأخبرهم خبره وقص عليهم الخبر ، فعرفوا أنهم كانوا نِيَاما بأمر الله تعالى وإنما أُوقِظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث .

وجاء مَلِكهم فاعتنقهم وبكى . فقالوا له : نستودعك الله ونقرأ عليك السلام حفظك الله وحفظ مُلكك . فبينا الملك قائم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفى الله عز وجل نفوسهم وحجَبهم بحجاب الرعب ، فلم يَقدر أحد أن يدخل عليهم . وأمر الملك فجعل على باب الكهف مسجدا يصلَّى فيه ، وصار عندهم عيد فى كل سنة .

***

وقد نبهت قصتهم على أن من فَرَّ إلى الله عز وجل حرَسه ولطف به وجعله سببا لهداية الضالين(٢) .

الكلام على البيت

جِدُّوا فقد زُمَّت مطاياكم ... لِنَقْلكم عن دار دُنْياكُمْ

وحصِّلوا(٣) زادًا لِمَسْراكم ... من قبلِ أن تَدْنو منايا كُمْ

إيمانكم دَعْوى فطُوبى لكم ... إن صَحَّ فى الإيمانِ دعواكُمْ

---

(١) من ت . (٢) ت : لهداية الصالحين . (٣) ت : وخلصوا .

يا من يعاتبه القرآن وقلبه غافل ، وتناجيه الآيات وفهمه ذاهل ، اعرف قدر المتكلم وقد عرفت الكلام ، وأحضر قلبك الغائب وقد فهمت الملام .

مكتوب فى التوراة : يا عبدى أما تستحى منى ! يأتيك كتابٌ من بعض إخوانك وأنت فى الطريق تمشى فتَعْدِل عن الطريق وتقعد لأجله وتقرأه وتتدبّره حرفاً حرفا حتى لا يفوتك منه شىء ، وهذا كتابى أنزلته إليك وأنت معرِض عنه ، أفكنتُ أهْوَن عليك من بعض إخوانك !

ياعبدى : يقعد إليك بعضُ إخوانك فتُقْبل عليه بكل وَجْهك و تصْغى إلى حديثه بكل قَلْبك ، وها أنا مُقْبل عليك ومحدِّث لك وأنت مُعرض بقلبك عنى .

كان السَّلَف لمعرفتهم بالمتكلم يلهجون بتلاوة القرآن .

قال عثمان بن عفان رضى الله عنه : لو طَهُرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم .

وكان كهمس بن الحسن يختم فى الشهر تسعين ختمة . وكان كُرْز بن وبرة يختم كل يوم وليلة ثلاث ختمات .

وكان فى السلف من يمنعه التفكر من كثرة التلاوة فيقف فى الآية يرددها .

قام تَميمٌ الدارىّ ليلةً إلى الصباح بآية : «أمْ حَسِب الذين اجْترحوا السّيئات[1]» وقام سعيد بن جُبَير ليلة بآية : « وامتازُوا اليومَ أيُّها المجْرِمون[2] » .

وقال سليمان الدَّارَانِىّ : إنّى لأتلو الآية وأقيم فيها أربع ليال أو خمساً ، ولولا أنى أقطع الفِكْر فيها ما جاوَزْتُها .

وقال بعض السلف : لى فى كل جمعة ختمة ، وفى كل شهر ختمة ، وفى كل سنة ختمة ، ولى ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغتُ منها بعد .

وقال أسلم بن عبد الملك : صحب رجل رجلا شهرين فما رآه نائما لا ليلا ولا نهارا ،

---

(١) سورة الجاثية . (٢) سورة يس .

فقال : مالى أراك لا تنام ؟ فقال : إن عجائب القرآن أطَرْن نومى فما أخرج من أعجوبة إلا وقعت فى أخرى .

وقال ابن مسعود : من أراد عِلْم الأوّلين والآخِرين فليكثر [تلاوة] القرآن .

يامعرضا عن تلاوة القرآن مشغولا باللهو والهذَيان ستدرى من يندم يومَ الخسران ، استدرك ماقد فات من هذا الزمان ، وقم فى الأسحار فللسَّحَر مع الرحمة شان ، وسَلِ العفو عمّا سَلف منك وكان .

***

مولاى جئتك والرجا ء قد استجارَ بحُسْن ظنّى
أبغِى فَواضلك الـتى تمْحُو بها ما كان منّى
فانظر إلَىّ بحقّ لُطْـفك يا إلهى واعفُ عنّى
لا تخْزِنى يوم المعـاد بما جَنيْتُ ولا تُهنّى

قال بعض السلف : كان لنا جارٌ من المتعبدين قد برّز فى الاجتهاد ، فصلى حتى تورمت قدماه وبكى حتى مرضت عيناه ، فاشترى جارية وكانت تُحْسن الغناء وهو لايعلم فبَيْنا هو فى محرابه رفعت صوتَها بالغناء فطار لُبه ، ورام ماكان عليه من التعبد فلم يَقْدر عليه ، فقالت له الجارية : يا مولاى لقد أبليتَ شبابك ورفَضْت لذاتِ الدنيا فى أيام حياتك ، فلو تمتعت بى . فمال إلى قولها وترك التعبد واشتغل بفنون اللذات ، فبلغ ذلك أخًا له كان يوافقه فى العبادة فكتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم . من الناصح الشفيق والطبيب الرفيق ، إلى من سُلب حلاوة الذّكر والتلذذ بالقرآن : بلَغنى أنك اشتريت قَيْنة بعتَ بها حظَّك من الآخرة ، فإن كنت بعتَ الجزيلَ بالقليل والقرآنَ بالقيان فإنى محذرك هاذمَ (١) اللذاتِ ومنغِّص الشهوات ، فكأنه قد جاءك على غِرّة فأبْكَم منك اللسانَ وهدّ منك الأركان وقرّب

(١) هاذم : قاطع . وهى كناية عن الموت .

منك الأكفان ، واحتوشك من بين الأهل والجيران ، وأحذرك من الصَّيْحة إذا جئت الامم لملِك جبار .

ثم طوى الكتاب وبعثه إليه ، فوافاه وهو على مجلس سروره ، فأذهله (١) وأغصَّه بريقه ، فنهض من مجلسه وعاد إلى اجتهاده حتى مات .

قال الذى وعظه : فرأيته فى المنام بعد ثلاث فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال :

الله عوَّضنى ذو العرش جاريةً حَوْراء تسقينى طَوْراً وتهنينى
تقول لى اشرب بما قد كنت تأملُنى وقَرَّ عيناً مع الوِلْدان والعين
يا من تخلَّى عن الدنيا وأزعجه عن الخطايا وعيدٌ فى الطواسين

***

ياويح عزيمة نُقِضت بالهوى عهودُها ، ترقَّت فى درجات العُلا ثم انعكس صُعودها ؛ بينما ثمرها الجدّ يَبِس عودها ، لقد سَوَّدتَ الصحائف فى طلب مالا تصادِف ، متى تذكر المتآلف ، إلى كم وكم تخالف ، كم طوى الدهر من طوائف ، إنما يَسْلم فى الشدة من هو فى الرجاء خائف ، إلى متى تضيع الوقت الشريف ، وتُعرض عن الإنذار والتخويف ، وتبيع أفضلَ الأشياء بقَدْر طفيف ، وتؤثر الفانى على الباقى وهذا الرأى السخيف ، أين لذة فرحك بعد تَرحك ، وأين سرور مَرَحك فى مُجترحك ، إنما العمر أيام معدودة ، والسلامة عَوارٍ مردودة .

وأى هوًى أو أىّ لهوٍ أصبته على لذة إلا وأنت مُفارِقُهْ
وتُرْخِى على السُّوء الستورَ وإنما تقلَّب فى علم الإله خلائقُهْ
ألا أيها الباكى على الميْت بعدَه رُوَيْدك لا تَعْجل فإنك لاحِقُهْ
وما هذه (٢) الساعات إلا على الفتى تُفاقصه (٣) طَوْراً وطوراً تُسارِقُهْ
أرى صاحبَ الدنيا مقيماً بجهله على ثقةٍ من صاحبٍ لا يُواثقه

(١) ت : فأوهله . (٢) ب : وما تخطب الساعات . (٣) تفاقصه : تفاجئه على غرة .

أين من اعتمـد على رضىّ الأمل والمنى واتخذهما مالًا ؟ مالَا ، أين من تنعَّم بالعِز والفخر وجعلهما حالًا ؟ حالَا ، أين من جمع الأموال بعضها فوق بعض [(١)] ، وتصرف بشهواته فى طول المنى والعَرْض ، ونسى الحساب يوم السؤال والعَرْض ، ولم يبالِ بعد نَيل غرضه بضياع الواجب والفَرْض ، أمَا حُطّ عن ظهر قَصْره إلى بطن الأرض ، خلا والله بقبيحه وحَسنه ، وانتبه فى قبره من وسَنه ، فما نفعتْه الإفاقةُ فى إبّان الفاقة ، ولا أفاده التيقّظ وقد انقضى وقت التحفّظ ، تبــدَّلَ بالأتراب التراب ، وواجه أليمَ الحساب والعتاب ، وندِم على ما خلَا فى خلاف الصواب ، وتقطّعت به الوصل والأَسباب [(٢)] ، فاعتبروا يا أولى الألباب .

سَلِ الأَجْداث عن صُوَرٍ بَلِينَا ... وعن خِلَق نَعِمْن فصِرْن طِينَا
وعن مَلِك تغرّر [(٣)] بالأمانى ... وكان يظنّ أن سيعيش حِينَا
لقـد أبتِ القبورُ على حزينٍ ... أتاها أن تَفُكّ له رَهِينَا
هى الدنيا تُفرِّق كل جَمْـــع ... وإن [أَلِف] [(٤)] القرين بها القَرِينَا

الكلام على قوله تعالى
﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾

أخبرنا ابن الحصَين ، أنبأنا ابن المُذْهَب ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله ابن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنى يونس بن سليم ، قال أملى علىّ يونس ابن يزيد الأيلى عن ابن شِهاب ، عن عروة بن الزبير ، عن عبد الرحمن بن عبد القادر ، قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد أنزلت علىّ عَشر آيات من أقامهن دخَل الجنة . ثم قرأ علينا « قد أفلح المؤمنون » حتى ختم العَشر .

---

(١) ت : إلى بعض . (٢) ب : والأنسابه . (٣) : ت تنعم . (٤) سقطت من ت

وأخبرنا أحمد بن عبد الباق ، أنبأنا أحمد بن أحمد ، أنبأنا أبو نعيم أحمد بن عبد الله ، أخبرنا محمد بن على بن مسلم ، حدثنا عثمان بن عمر الضبي ، أخبرنا أبو عمر الضَّرير ، أخبرنا عدى بن الفضل ، عن سعيد الجريرى ، عن أبى نَضْرة ، عن أبى سعيد الُخدْرى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الله تعالى بنى جنات عَدْن بيده وبناها لبنةً من ذهب ولبنة من فضة ، وجعل مِلَاطها المِسْكَ وترابها الزعفران وحصاها اللؤلؤ ثم قال : تكلمى . فقالت : « قد أفلح المؤمنون » .

وقال ابن قتيبة : أصل الفلاح : البقاء فالمفلحون الفائزون ببقاء الأبد . وقرأ أبىّ بن كعب وعكرمة بضم الألف والمعنى أصيروا إلى الفلاح .

***

لقد ربح القومُ وأنت نائم ، وخِبْت ورجعوا بالغنائم ، أنت بالليل راقدٌ وبالنهار هائم ، وغاية ما تشتهى مشاركة البهائم ، نظروا فى عواقب الأمور فقبروا أنفسهم قبل القبور ، وخرجوا من ظلام الشبهة إلى أجْلى نور ، فما استفزهم فانٍ ولا أذلهم غرور ، عرَضوا على النفوس ذِكر العَرْض فاعترضها القَلق ، وصوروا إحراق الصُّوَر فأحرقهم الفرَق ، وتفكروا فى نَشْر الصحائف فأزعجهم الأرَق ، وتذكروا محمدةَ المخاوف فسالت الحدَق ، أطار خوفُ النار نومَهم ، وأطال ذكر العطش الأكبر صومَهم ، وهَوَّن فِكْرهم فى العتاب نَصَبهم ، ونصَبهم على الأقدام ذِكْرُ القيام وأنْصَبهم ، أمّا الأجساد فالخوف قد أنحلها ، وأما العقول فالحذَر قد أذهلها ، وأما القلوب فالفِكْر قد شغلها (١) ، وأما الدموع فالإشفاق قد أرسلها ، وأما الأكف فقد كفّت عمايس لها ، وأما الأعمال فقد والله قَبلها ، حوانيتهم الخلوات وبضائعهم الصلوات ، وأرباحهم الجنات ، وأزواجهم الحسنات .

***

قوله تعالى : « الذين هم فى صلاتهم خاشعون » .

---

(١) ب : قد أشغلها .

أصل الخشوع : الخضوع والتواضع . وفى المراد به هاهنا ثلاثة أقوال : أحدها : أنه ترك الالتفات فى الصلاة . قاله علىّ عليه السلام . والثانى . السكون فى الصلاة . قاله مجاهد . والثالث : النظر إلى مواضع السجود . قاله قَتادة .

عرفوا طريق النجاة فوقفوا على قَدَم الأدب فى المناجاة ، فنال كلٌ منهم مارجَاه ، فاهم عنده أعظم قَدْر وجاه .

أخبرنا عبد الوهاب الحافظ ، أنبأنا أبو الحسين بن عبد الجبار ، أنبأنا إسماعيل ابن إسحاق ، حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا يزيد بن إبراهيم عن عمرو بن دينار ، قال : كان عبد الله بن الزبير يوماً يصلى فى الحِجْر مُرْخياً يديه ، فوافَى حَجَرٌ قَذّاف فذهب بطائفة من ثوبه ، فما انفتل من صلاته .

قال محمد بن القاسم : وحدثنا عمرو بن بكّار الباقِلاّوىّ ، قال حدثنا محمد بن إسحاق ، قال سمعت يحيى بن مَعِين يقول : كان المعلى بن منصور الرازى يوماً يصلى فوقع على رأسه كُورُ[1] الزنابير فما التفت وما انفتل حتى أتم صلاته فنظروا فإذا رأسه قد صار هكذا من شدة الانتفاخ .

وكان مسلم بن يسَار لايلتفت فى صلاته ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع[2] لها أهلُ السوق فما التفت . وكان إذا دخل منزله سكت أهلُ بيته ، فإذا قام يصلى تكلموا أو ضحكوا علماً منهم[3] بأن قلبه مشغول عنهم . وكان يقول : إلهى متى ألقاك وأنت عنى راضٍ .

إذا اشتغل اللاهون عنك بشغلهم جعلتُ اشتغالى فيك يا مُنيتى شُغلِي
فمن لى بأن ألقاك فى ساعةِ الرضا ومن لى بأن ألقاك والكُلُّ لى مَنْ لِي

***

أخبرنا أبو بكر الصوفى ، أنبأنا أبو سعيد الحِيرى ، أنبأ أبو عبد الله من باكوية

(١) الكور : موضع الزنابير. (٢) ب : ففزر . وما أثبته من ت . (٣) ب : منه عرفه. والتصويب من ت .

الشيرازى ، حدثنا عبد الواحد بن بكر ، حدثنى نصر بن أبى نصر ، عن هبة الله بن أحمد البغدادى ، قال سمعت أحمد بن سعيد الدارمى يقول : صلى أبو زُرْعة الرازى فى مسجده عشرين سنة بعد قدومه من السفر ، فلما كان يومٌ من الأيام قدِم عليه قوم من أصحاب الحديث ، فنظروا فإذا فى محرابه كتابة فقالوا له : كيف تقول فى الكتابة فى المحاريب ؟ فقال : قد كرهه قومٌ ممن مضى . فقالوا له : هو ذا فى محرابك كتابة ، أما علمت به ؟ فقال: سبحان الله ! رجل يدخل على الله تعالى ويدرى ما بين يديه !

أخبرنا المحمدان ابن ناصر وابن عبد الباقى ، قالا أنبأنا أحمد بن أحمد ، أخبرنا أبو نعيم الحافظ ، أخبرنا عبد الله بن محمد بن جعفر ، أخبرنا عبد الرحمن بن أبى حاتم ، حدثنى عفان بن الحسين الربعى ، عن رياح بن أحمد الهروىّ ، قال مرّ عصام بن يوسف بحاتم الأصم وهو يتكلم فى مجلسه فقال : يا حاتم كيف تصلى ؟ قال حاتم : أقوم بالأمْر ، وأمشى بالسَّكينة ، وأَدْخل بالنية ، وأُكبِّر بالعظمة ، وأقرأ بالترتيل والتفكر ، وأركع بالخشوع ، وأسْجد بالتواضع ، وأسلمها(١) بالإخلاص إلى الله تعالى ، وأخاف ألاَّ يُتقبَّل منى ! فقال : تكلَّمْ فأنت تُحْسن [أن] تصلِّى .

يا هذا : بَيْن صلاتك وصلاتهم كما بين وقتك وأوقاتهم .

أخبرنا على بن عبد الله ، أنبأنا ابن النَّقُّور ، أنبأنا ابن مدرك ، حدثنا محمد بن على الكاتب ، أنبأنا أحمد بن يحيى السوسِىّ ، حدثنا داود بن المحبّر ، حدثنا ميسرة ، عن الزبيدى ، عن الزهرى ، عن عطاء بن يزيد ، عن أبى أيوب الأنصارى ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إنّ الرجلين ليتوجّهان إلى المسجد فيصلّيان فينصرف أحدهما وصلاته أوْزن من أُحُد وينصرف الآخر وما تَعْدل صلاته مثقالَ ذَرّة» .

أخبرنا محمد بن عمر الفقيه وأحمد بن ظفر ، قالا أخبرنا عبد الصمد بن المأمون ، أنبأنا الدار قُطْنِىّ ، حدثنا عمرو بن محمد بن شعيب ، حدثنا عبد الله بن شَبِيب ، حدثنى

---

(١) كذا بالأصل . ولعلها : أسلم .

الوليد بن عطاء ، حدثنا عبد الله بن عبد العزيز ، حدثنا يحيى بن سعيد الأنصارى ، عن سعيد بن المسيَّب ، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من مُصَلٍّ إلا وملَكٌ عن يمينه وملَكٌ عن يساره ، فإن أتمها عرجا بها ، وإن لم يتمها ضربا بها وجهه .

***

يا غائب القلب فى صلاته ، ياشتيت الهم فى جهاته ، يا مشغولا بآفاته عن ذكر وفاته ، ياقليل الزاد مع قُرب مَماته ، يامن يرحل عن الدنيا فى كل لحظة مَرْحَلة ، وكتابه قد حوى حتى مقدار خَرْدَلة ، وما ينتفع بنَذِيرٍ والنذُر متصلة ، وما يرعوى لنصيح وكم قد عذَله ، ودروعه متخرقة والسهام مُرْسَلة ، ونور الهدى قد يُرَى وما رآه ولا تأمَّله ، وهو يأمل البقاء وقد رأى مصير من أمَّله ، وأجَلُه قد دنا ولكنّ أمله قد شَغله ، وقد انعكف على العَيْب بعد الشَّيْب بصبابةٍ وَوَلَه ، ويُحضر بدنَه فى الصلاة فأما القلب فقد أهمله ، كن كيف شئتَ فبَيْن يديك الحساب والزلزلة ، ونَمِّ جسدك فلا بد للدود أن يأكله ، ياعجبا من فتور مؤمنٍ بالجزاء [1] والمسألة ، أيقينٌ بالنجاة أم غرور وبلَه ، بادر ما بقى من العمر واستدرك أوَّله ، فبقية عمر المؤمن لاقيمة له .

إخوانى : حسن الأدب فى الصلاة دليل على معرفة المخدوم ، والتفات البدن دليل على إعراض القلب ، وقد وصَفْت لك أحوالَ الخاشعين ، فهل أنت منهم أو من الغافلين .

سجع على قوله تعالى

﴿ الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾

سبحان من قوَّمهم وأصلحهم ، وعاملوه باليسير فأربحهم ، واعتذروا من التقصير فسامَحهم ، وقد أثنى عليهم ومدحهم ، أفتعْرِفُون « الذين هُمْ فى صَلاتهم خاشِعون » .

---

(١) ب : عن الجزاء .

اغتنم القومُ الأيام ، واجتنبوا الخطايا والآثام ، وصمتوا عن رديء الكلام ، وصَمّوا عن استماع الحرام ، فكأنهم ما يسمعون « الذين هم فى صلاتهم خاشعون » .

كفّوا الأكفّ عن الفساد ، وهجرت الرءوسُ الوِسَاد ، وحضر القلب للمناجاة وانقاد ، وأنتم فى سكر الرقاد وهم يركعون ويسجدون «الذين هم فى صلاتهم خاشعون» .

ما أوْفى تلك الأحوال ، ما أصفَى تلك الخصال ، ما أزكى تلك الأعمال ، جمعوا الهموم فأما الأموال فلا[(١)] يجمعون « الذين هم فى صلاتهم خاشعون »[(٢)] .

نقّوا بالرياضة وهُذّبوا ، وابتُلوا بفراق المحبوب وجُرّبوا ، وأديروا فى فنون التكليف وقُلّبوا ، فإذا بُعدتم يوم الحضور وقُرّبوا فماذا تصنعون «الذين هم فى صلاتهم خاشعون».

ما ضر النفوسَ ما نَـكَا فيها حين نُـكَافِيها ، نعفو عنها يوم اللقاء ونعافيها ، وندخلها جنةً يروق [فيها][(٣)] صافيها ولهم فيها ما يَدّعون « الذين هم فى صلاتهم خاشعون » .

نزلوا والله المقام الأمين ، وكُتبوا فى أصحاب اليمين ، ونالوا كلّ مُثمن ثمين ، وأُسكنوا القصور وأُعطوا الحورَ العين ، كلها أبكار ليس فيها عُون[(٤)] ، قد عوضوا عن حريق القلق الرحيق ، وأُبدلوا عن بَريق[(٥)] السيوف الأباريق ، وقوبلت رياضتهم بالرّوْض الأنيق ، فهم يرتعون فيما يربعون « الذين هم فى صلاتهم خاشعون[(٦)] » .

إخوانى : توانيتم وسَيْرُ القوم حثيث ، وصفت أعمالهم وفعلكم كَدِر خبيث ، ونصحناكم ولكن قد ضاع الحديث ، وماأراكم تسمعون «الذين هم فى صلاتهم خاشعون».

[ياربنا وفقنا لما وفقت القوم ، وأيقظنا يامولانا من سِنَة الغفلة والنوم ، وارزقنا الاستعداد لذلك اليوم الذى يربح فيه العاملون « الذين هم فى صلاتهم خاشعون[(٧)] » وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) ت : فا . (٢) من ت . (٣) ليست فى ت . (٤) العون : الثيب (٥) ت : عن بروق . (٦) من ت . (٧) ما بين القوسين ساقط من ب .

المجلس السابع والعشرون

في قصة[(١)] نبينا صلى الله عليه وسلم في ابتداء أمره

الحمد لله قاهر المتجبر ومُذِلّه، ورافع المتواضع ومُجلّه، القريب من عَبْده فهو أقرب من ظِلّه، وهو عند المنكسر لا جْله حالَ ذُلّه، لا يعزب عن سمعه وقع القطر في أضعف طَلّه، ولا بُغَام ظَبْي البَرّ وكَشِيش صِلّه[(٢)]، ولا يغيب عن بصَره في الدُّجَى دبيبُ نملة، رفع من شاء بإعزازه كما حطّ من شاء بذلّه، اختار محمداً من الخلق فكأن الكل[(٣)] خُلقوا من أجله «هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله».

أحمده على أجلّ الإنعام وأقلّه، وأشهد بوحدانيته شهادة مصدِّق قوله بفعله، وأن محمدا عبده ورسوله أرسله لنقض الكفر وحَلّه، فقام معجزه ينادى: «فأتوا بسُورةٍ من مِثْلِهِ» صلى الله عليه وعلى أبى بكر الصديق واصل حَبْله، وعلى عمر الذى كان يفرق الشيطان من ظِلّه، وعلى عثمان مجهِّز جيش العسرة وعاقد شَمْله، وعلى علىّ أخيه وابن عمه ومقدَّم أهله، وعلى عمه العباس صِنْو أبيه وأصله.

اللهم يامن جميعُ الخلائق مفتقرون إلى فضله، يامنعما بالجزيل على من ليس من أهله، سامح كلًّا منا فى جدِّه وهَزْله، وارزقنا إقدام شجاع وَلِيَ[(٤)] العدوّ وجَمْعَه ولم يُوَلِّه، وارحمنا يومَ يَذْهل كلُّ خليل عن خِله، وانفعنى والحاضرين بما اجتمعنا لأجله.

***

قال الله تعالى: «هو الذى أرسل رسوله بالْهُدَى»[(٥)].

اعلموا أن نبينا صلى الله عليه وسلم المصطفى على الخلق كلهم. صان الله أباه[(٦)] من زَلّة الزنا.

---

(١) ت: فى فضل نبينا. (٢) البغام: صوت الظبى والكشيش: صوت الأفعى من جلدها والصل: الحية. (٣) ت: فكان الخلق كلهم خلقوا. (٤) ولى العدو: قرب منه عند النزال.
(٥) سورة الفتح. (٦) ب: فصان أباه.

أخبرنا محمد بن عبدالباقى البزار ، أنبأنا أبو محمد الجوهرى، أخبرنا أبو عمر بن حَيّوية أنبأنا أحمد بن معروف ، أنبأنا الحارث بن أبى أسامة ، أنبأنا محمد بن سعد ، أنبأنا محمد ابن عمر الأسلمى ، أنبأنا أبو بكر بن عبد الله بن أبى سَبْرة ، عن عبد المجيد بن سهل ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خرجت من لَدُن آدم من نـكاح غير سِفَاح » .

قال علماء السِّيَر : لمـا حملت به آمنة قالت : ماوجدتُ له ثِقلا .

وكانت ولادته يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول . وقال بعضهم : لعَشْر خلَوْن منه .

فلما ظهر خرج معه نور أضاء له مابين المَشْرق والمغرب .

وتوفى أبوه وهو حَمْـل ، فخلَّف له خمسـة أجمـال وقطعـة غنم وأمَّ أيمن كانت تحضنه .

وماتت أمه وهو ابن ست سنين . وكفَله جدُّه عبد المطلب ، ومات وهو ابن ثمان سنين وأوصى به أبا طالب .

وكان يسمَّى فى صِغره الأمين .

وكانت آيات النبوّة تظهر عليه قبل النبوة ، فـكان [1] يرى النورَ والضوء ، ولايمرّ بحجر ولا شجر [2] إلا قال السلام عليك يارسول الله . وقال : « إنى لأعْرف حجراً بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث ، إنى لأعرفه الآن » [3] .

ثم رُميت الشياطين بالشهب لمبْعَثه .

***

فأما نَسبه صلى الله عليه وسلم فهو : محمد ، بن عبد الله ، بن عبد المطّلب ، بن هاشم ، ابن عبد مناف ، ابن قُصَىّ ، بن كِلاَب ، بن مُرّة ، بن كَعْب ، بن لُؤَىّ ، بن غالب ،

(١) ت : وكان . (٢) ت : ولا شجرة إلا قالت . (٣) الحديث فى صحيح مسلم رقم ٢٢٧٧

ابن فهر ، بن مالك ، بن النَّضر ، بن كِنانة ، بن خُزَيمة ، بن مُدْركة ، ابن إلياس ، ابن مضر ، بن نزار ، بن معَدّ ، بن عدْنان ، بن أدد ، بن الهميْسَع ، بن حمل ، بن النبت ابن قيدار ، بن إسماعيل ، بن إبراهيم عليه السلام .

واسمه صلى الله عليه وسلم : محمد ، وأحمد ، والحاشر ، والمقفِّى ، والماحِى ، والخاتم ، والعاقب ، ونبىّ الرحمة ، ونبى التوبة ، ونبى الملاحم(١) ، والشاهد والبَشِير ، والنذير ، والضحوك والقتال(٢) ، والمتوكِّل ، والفاتح ، والأمين ، والمصطفى ، والرسول ، والأمِّى والقُثَم .

فالحاشر : الذى يحشر الناس وهو يَقْدُمهم . والمقفِّى آخر الأنبياء . وكذلك العاقب . والملاحم : الحروب . والضَّحُوك اسمه فى التوراة وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان طيّب النفس فكها . والقُثَم من القَثْم وهو الإعطاء ، وكان أجودَ الناس .

***

فأما صفته صلى الله عليه وسلم فإنه كان رَبْعة ليس بالطويل ولا بالقصير ، أَزْهر اللون ، أَشْعَر ، أدعج العَيْنين ، أَجْرَد ذو مَسْرُبة(٣) .

وكان أجود الناس وأَصْدَقهم لَهْجة ، وأَلْينهم عَرِيكة ، وأكرمهم عِشْرة .

أرضعته ثُوَيْبة مولاة أبى لهب أياماً ثم قَدِمت حليمةُ فأكملت رضاعه .

تزوجته خديجةُ وله خمس وعشرون سنة ، فأتت منه بزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة والقاسم والطاهر والطيّب . وقيل :ولدت له عبدَ الله فى الإسلام ، فلقب بالطاهر والطيب . وولدت مارية إبراهيم .

* * *

وبُعث لأربعين سَنة فنزل الملَك عليه بحراء يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان : وكان إذا نزل عليه كُرِب [له](٤) وتربّد وجهُه وعَرِق جبينه .

---

(١) أى الذى يجاهد فى سبيل الله . (٢) أى الذى يقتل الكفار الذين يصدون عن سبيل الله ، دفاعا عن العقيدة والإيمان . (٣) المسربة : الشعر وسط الصدر إلى البطن. (٤) من ب .

ورُمِيت الشياطينُ بعد عشرين يوماً من مبعثه .

وبقى ثلاث سنين يستتر بالنبوة ثم نزل عليه : « فاصْدَعْ بما تُؤْمَر »[1] فأعلن الدعاء[2] .

ولقى الشدائد مِن قَوْمه وهو صابر . وأمر أصحابه أن يخرجوا إلى أرض الحبشة فخرجوا .

وفى الصحيحين أنه كان يصلى وسلاَ[3] جَزُور قريبٌ منه ، فأخذه عُقْبة ابن أبى مُعَيط فألقاه على ظهره ، فلم يزل ساجدا حتى جاءت فاطمة فأخذته عن ظَهره . فقال حينئذ : « اللهم عليك بالملأ من قريش » .

وفى أفراد البخارى : أن عقْبة بن أبى معيط أخذ يوماً بمنكبه ولَوى ثوبه فى عُنقه فخنقه به خنقا شديدا ، فجاء أبو بكر فدفعه عنه وقال : « أتَقْتلون رجلاً أن يقول ربِّى الله ! »

فلما مات أبو طالب وماتت خديجة بعده خرج إلى الطائف ، وعاد إلى مكة ، وكان فى كل موسم يخرج فيَعْرض نفسه على القبائل ويقول : من يؤوينى ؟ من ينصرنى ؟ فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى !

ثم أُسْرى به فى سنة ثنتى عشرة من النبوة ، وبايعه أهلُ العقَبة ، وتسلَّل أصحابُه إلى المدينة ، ثم خرج هو وأبو بكر إلى الغار فأقاما فيه ثلاثاً وعَمِى أمرهم على قريش .

ثم دخل المدينة فتلقّاه أهلُها بالرَّحْب والسَّعَة ، فبنى مسجدَه ومنزله .

وغزا سبعاً وعشرين غَزاة ، قاتل منها فى تسع : بدر وأُحد والمُرَيْسِيع والخندق وقريظة وخيبر والفتح وحُنَيْن والطائف . وبعث سِتّا وخمسين سَرِيّة .

***

وما زال يَلْطُف بالخلق ويريهم المعجزات،فانشق له القمر، ونبع الماء من بين أصابعه ،

---

(١) سورة الحجر . (٢) كذا ولعلها : الدعوة . (٣) السلا : الفرث . والجزور : الناقة .

وحَنَّ إليه الجِذع ، وأخْبر بالغايبات فـكان كما قال .

وفضِّل على الأنبياء ، فصلى بهم فى ليلة المعراج ، وهو المتقدم عليهم يوم الشفاعة .

أنبأنا عبد الأول ، أنبأنا الداودى ، حدثنا ابن أعْيَن ، حدثنا الفَرَبْرِىّ ، حدثنا البخارى ، حدثنا محمد بن سِنان ، حدثنا هُشَيْم ، أنبأنا سيار عن يزيد الفقير ، أنبأنا جابر ابن عبد الله ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أُعطيت خمساً لم يُعْطَهن أحدٌ قَبْلى نُصِرْت بالرُّعْب مسيرةَ شهر ، وجُعلت لى الأرض مسجدا وطَهُورا ، فأيّما رجل من أمتى أدركتْه الصلاةُ فليصلِّ ، وأُحلت لى الغنائم ولم تَحِلّ لأحدٍ قَبْلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يُبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس كافة » .

أخرجاه فى الصحيحين(١) .

وفى أفراد مسلم من حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنا أولُ الناس يَشْفع يوم القيامة ، وأنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة ، وأنا أول من يَقْرع باب الجنة(٢) » .

وفى أفراده من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من يَنْشقّ عنه القبر ، وأول شافع وأول مُشَفَّع(٣) » .

أنبأنا الـكَرُوخِىّ ، أنبأنا أبو عامر الأزْدى وأبو بكر الغُورَجِىّ ، أنبأنا الجرّاحى ، حدثنا المحبوبى ، حدثنا الترمذى ، حدثنا الحسين بن يزيد الـكوفى ، حدثنا عبد السلام ابن حرب ، عن ليث بن الربيع ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا أول الناس خروجاً إذا بُعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وَفَدوا ، وأنا مبشِّرهم إذا أيِسوا ، لواء الحمد بيدى ، وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر » .

قال ابن الأنبارى : أراد لا أتبجّح بهذه الأوصاف ، لـكن أقولها شـكرا ومنبّها على إنعام ربى علىّ .

---

(١) صحيح البخارى ١/٦٢ ، وصحيح مسلم حديث ٥٢١ . (٢) صحيح مسلم حديث ١٩٦ .
(٣) صحيح مسلم حديث ٢٢٧٨ .

وفى حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وَسِعه إلا أن يتبعنى[1] » .

أخبرنا ابن الحصين ، أنبأنا ابن المُذْهَب ، أنبأنا القَطِيعى ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن همّام بن منبّه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَثلى ومثلُ الأنبياء من قبلى كمثل رجل ابتنى بيوتا[2] فأَحْسَنها وأَكْملها وأَجملَها إلا موضع لَبِنة من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويُعْجِبهم البنيانُ فيقولون : ألا وَضعْتَ ها هنا لَبِنة فيتمّ بنيانك ؟ فكنت أنا اللبنة » .

أخرجاه فى الصحيحين[3] .

وفيهما من حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم حتى تتفطر قدماه . قالت . وكان ضِجاَعه الذى كان ينام عليه فى الليل من أَدَم محشوًّا لِيفاً[4] .

وفيهما من حديث أبى هريرة قال : ما شَبِع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثلاثةَ أياما تباعا من خبز حنطة حتى فارق الدنيا[5] .

وفى أفراد مسلم من حديث عمر رضى الله عنه قال : لقد رأيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يظلّ اليومَ يلتوى ما يجد دِقْلا[6] يملأ به بطنه[7] .

أخبرنا محمد بن عبد الباقى ، أنبأنا الجوهرى ، أنبأنا ابن حيّويه ، أنبأنا ابن معروف ، أنبأنا الحارث بن أبى أسامة ، حدثنا محمد بن سعد ، أنبأنا هشام بن عبد الملك ، حدثنا أبو هاشم صاحب الزعفران ، عن محمد بن عبد الله ، أن أنس بن مالك حدّثه أن فاطمة جاءت بكسرة خبز إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذه الكسرة ؟ قالت : قرصٌ خبزْتُه فلم تَطِبْ نفسى حتى أتيتك منه بهذه الكسرة . فقال : أمَا إنه أولُ طعام دخل فم أبيكِ منذ ثلاثة أيام.

(١) أخرجه أحمد . (٢) ب : بنيانا . (٣) صحيح البخارى جـ ٢ / ٢١٨ وصحيح مسلم حديث ٢٢٨٦ (٤) صحيح البخارى جـ ٤ / ١٠١ وصحيح مسلم ص ١٦٥٠ (٥) صحيح البخارى جـ : / ١٠١ باختلاف . وصحيح مسلم حديث رقم ٢٩٧٠ (٦) الدقل : الردىء من التمر .
(٧) صحيح مسلم حديث رقم ٢٩٧٨ ط عبد الباقى .

أخبرنا هبة الله بن محمد ، عن حميد بن هلال ، عن أبي بُردة ، قال : أخرجت إلينا عائشة كساء مُلبَّدا وإزاراً غليظا فقالت : قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين . أخرجاه في الصحيحين[1] .

ما ضرَّهُ من الدنيا ما فات ، وهو سيِّد الأحياء والأموات .

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلَّى عليَّ واحدةً صلى الله عليه عَشْرا[2] » .

وفي حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من صلى عليّ واحدةً صلى الله عليه عشر صلوات ، وحطَّ عنه عشرَ خطيئات » .

وفي حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن لله عز وجل ملائكةً سيَّاحين يبلِّغوني من أمتي السلام » .

فالحمد لله الذي جعلنا من أُمَّته وحشَرنا اللهُ على كتابه وسُنَّته .

الكلام على البسملة

عجبتُ لحرِّ النفسِ كيف يُضامُ　　وحُرٍّ يخاف العَتْبَ وهو ينامُ
وراضٍ بأوساطِ الأُمور تقاعداً　　وفيه إلى غاياتهن قِيَامُ
يُسمُّون عيشاً في الخمولِ سلامةً　　وصحةُ أيامِ الخمولِ سَقَامُ
ويستبعدون الرزقَ طالت به يدٌ　　إذا أسمن الأجسام وهو سِمَامُ
جزى الله خيراً عارفاً بزمانه　　تجاربُه قد شِبْنَ وهو غلامُ
دعِ الناسَ فيما أجمعوا بعض واحدٍ　　فنَقْصك مما لا يُعدُّ تمامُ

***

ألا قرين عَزْم يبادر ، ألا خَدِين حَزْم يحاذر ، ألا شريف الهمة يأنف ، ألا متجافٍ عن الرذائل يتجانَف .

(١) صحيح البخاري ٤/٢١ وصحيح مسلم حديث ٢٠٨٠　　(٢) صحيح مسلم حديث رقم ٤٠٨ .

إخوانى : الدنيا دار قلعة لا حصن قَلْعة ، فَرحها يَحُول وتَرحُها يطول ، لو صحّت فكرة عُشّاقها فى مقابح أخلاقها لرفضوها لعيوبها وهجروها لذنوبها ، ولكنهم لم ينظروا عيب عيبها ولم يعلموا خضاب شَيْبها .

تُبْتُ إلى خالقى أفرّ من الـ دنيا وإنّى بها لمغترّ
تضحك لى خدعةً لأتبعها وهى عن الموبقات تفترّ

من نزل بساحة القناعة ذاق حلاوة الغنى ، من قرع بأنامل التفكّر باب الحزن فتح له عن رياض الأُنْس ، مراعاة الأسرار من علامات التيقظ ، لكل باب مفتاح ومفتاحُ الحكمة طَرْد الهوى .

إخوانى : فيكم من يترك ما يهوى لما يأمل ؟

***

وحَتْمٌ قِسْمة الأرزاق فينا وإن ضَعُف اليقينُ من القلوب
وكم من طالب رزقاً بعيدا أتاه الرزق من أمرٍ قريبِ
فأجمل فى الطِّلاَب وكن رفيقاً بنفسك فى معالجة الخطوبِ
فما الإنسان إلا مثل شِلْو(١) توا كَلُه النوائبُ بالنُّيوبِ
ففِربان المنيّة إن نَعَتْها فليس بفائتٍ رَجْم المشيبِ

قال أبو ذر : لك فى المال شركاء ثلاثة : القدر لا يَسْتأمرك أن يذهب بخير أو شر من هلاك أو موت ، والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقه وأنت ذميم ، وأنت الثالث ، فإن استطعت أن لا تكون أعْجَز الثلاثة فلا تكن !

قال على بن عبيدة : لولا لَهبٌ من الحرص يَنْشأ فى القلوب لا يملك الاعتبار أطفأ توقّده ، ما كان فى الدنيا عوض من يوم يضيع فيها يمكن فيه العمل الصالح .

الرأىُ أخْذُك بالحزامة فى الذى تبغى فقَصْرُك(٢) مِيتةٌ وذهابُ
غلَب الفسادُ على العقول فكُذّبتْ صُدقُ الأنامِ وصُدّق الكذابُ

---

(١) الشلو : الجسد . (٢) قصرك : غايتك .

ضَربوا الجماجمَ بالسيوف على الذى ... يَفْنى وطال عن الهوى الإضرابُ
وتغرّنا آمالُنــــا فنخالهــــا ... ماء يمــــوج وكلهن سرابُ

***

يا ناسيا مهلا عن قليل حادث ، حادِثْ قلبك بما بين يديك حادث ، يا راحلا وهو يظن أنه مقيم لابث ، يا نائما قد أزعجته المقلقاتُ البواعث ، يا لاعباً والليـالى فى سيره حَثائث ، يا ساهياً قد علقت به براثنُ الموت الضوابث (١) ، يا مُعْجَبا بزخارف فى ضمنها الحوادث ، يا مقبلا على سَحّار من الهوى نافث ، يامخمورا بالمنى الخمرُ أم الخبائث ، يامطلوبا بالجِدّ وفعله فعلُ عابث ، يا حريصا على المال مالُه حظ وارث ، إياكَ والدنيا فإن حَلِفها حلف حانث ، لاتسمعن قولها فالعزم عزمُ ناكث .

قد أصبحت ونُعاتها نُعاتُها ... وكذلك الدنيا تَخيب سعاتُها
كدّارة أحزانهــــا ضرارة ... أشجانهــــا مرارةٌ ساعاتُها
فـــتى يُنبِه من رُقادٍ مُهْلِك ... من قد أضرَّ بعينه هَجَعاتُها
من يغتبط بمعيشةٍ وأمامه ... نُوبٌ تطيل عناءه فجعاتُها
وإذا رجعت إلى النُّهى فذواهب الـــأيام غيرُ مؤمَّلٍ رَجعاتُها
أوما تفيق من الغرام بعاركٍ ... مشهورة مع غيرنا وقعاتُها

***

يا من عُمْره كلّما زاد نقص ، يا من يأمن الموت وكم قد قنَص ، يا مائلا إلى الدنيا هل سَلِمْتَ من نُغَص ، يامفرطا فى الوقت هلاّ بادرت الفرص . يامن إذا ارتقى فى سُلّم الهُدَى فَلاحَ له الهوى نــكص ، من لك يومَ الحشر إذا نُشرت القِصَص ، ذنوبك كثيرة جَمّة ، ونفسُك بغير الصلاح مهتمّة ، وأنت فى المعاصى إمام وأُمّة ، يا من إذا طُلب فى المتقين لم يوجد ثَمّة ، يا من سيلحق فى مصرعه ، وإن أباه ، أباه وأُمّه ، متى تنقشع هذه الظلمــة

---

(١) الضوابث : القوابض .

والغُمّة ، متى تنشقّ أكِمّة أكْمَه ذى كَمه ، يامن قد أعماه الهوى ثم أصمّه ، يامن لا يفرق بين المديح والمذمّة ، يا من باع فرحَه ثم اشترى غَمّه ؟ يا عقلاً خَرِبا يحتاج إلى مرمّة .

يا آدمىُّ أتدرى ما مُنيتَ به   أم دونَ ذهنك سِترٌ ليس ينجابُ
يومٌ ويومٌ ويَفْنَى العُمْر منطوياً   عامٌ جَدِيبٌ وعامٌ فيـــه إخصابُ

غيره :

فلا تغرّنّك الدنيـــا بزخرفها   فأرْيُها[1] إن بلاها غافلٌ صابُ
والحَزْم يَجْنى أموراً كلهـــا شَرفٌ   والحِرص يجنى أموراً كلها عابُ[2]

الكلام على قوله تعالى

﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِر الله وَجِلت قلوبهم[3] ﴾

قال الزّجاج : المعنى إذا ذُكرت عظمته وقُدْرته وما خوّف به من عصاه فزعت قلوبُهم . يقال : وَجِل يَوْجل وياجل ويَيْجَل وييجل.

وقال السُّدّى : هو الرجل يهمّ بالمعصية فيذكر الله فينزع عنها .

كان الحسن يقول : إن لله عباداً كمن رأى أهلَ الجنة فى الجنة وأهلَ النار فى النار ، ينظر إليهم الناظرَ فيحسبهم مَرْضَى .

وكان سُمَيْط يقول : أتاهم من الله وعيـد وقَذهم[4] فناموا على خوف وأكلوا على تنغيص .

وقال سَرِىّ[5] : أكلهم أكلُ المرضى ونومُهم نوم الفَرْقى[6] .

قال أبو طارق : شهدتُ ثلاثين رجـلاً ماتوا فى مجالس الذكر يمشون بأرجلهم

---

(١) الأرى : العسل . (٢) العاب : العيب . (٣) سورة الأنفال ٢ . (٤) وقذهم : أمرضهم مرضا شديدا . (٥) الفرقى : الخائفون. (٦) سرى بن المغلس السقطى ، كنيته أبو الحسن ، يقال إنه خال الجنيد وأستاذه . صحب معروفا الكرخى ، وهو أول من تكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال، وهو إمام البغداديين وشيخهم فى وقته . مات سنة ٢٥١ هـ . طبقات الصوفية ص ٤٨ .

صِحاحاً إلى المجلس وأجوافهم قَرِيحة ، فإذا سمعوا الموعظة تصدَّعت قلوبهم فماتوا .

وقال أحمد بن حنبل رضى الله عنه : الخوف يمنعنى من أكل الطعام والشراب فما أشتهيه .

وقيل : صَلَّى زُرَارة بن أبى أَوْفَى بالناس فقرأ « المدثِّر » فلما بلغ : « فإذا نُقِرَ فى الناقُور » خرَّ ميّتا .

وكان إبراهيم التَّيْمى يَذْكر وأبو وائل ينتفض انتفاضَ الطير .

وقال يوسف بن أَسْباط[١] : لما أتى ذو القرنين السدّ قال : دُلّونى على أَعْبَد رجل فيكم . فقالوا : فى هذا الوادى رجل يبكى حتى نبَت من دموعه الشجر . فهبط الوادى فأتاه فوجده ساجدا وهو يقول : إلهى اقبض روحى فى الأرواح وادفن جسدى فى التراب، واتركنى هَمَلاً لا تبعثنى يومَ الحساب .

وقال مالك بن دينار : رأيت جُوَيْرِية تطوف بالبيت وتقول : يارب كم من شهوةٍ ذهبتْ لذتُها وبقيتْ تبعتُها ! يارب ما كان لك عقوبة إلا بالنار ؟ !

فما زالت كذلك إلى الصباح .

يا عجباً كيف تنام عينٌ مع مخافة ، أم كيف تلهو نفس مع ذكر المحاسبة .

كان داود الطائِيَ[٢] يقول : فى ظلام الليل همُّك عطَّل علىَّ الهموم ، وحالف بينى وبين السُّهَاد ، فأنا فى سجنك أيها الكريم مطلوب .

وقيل : كان عُتْبة الغلام طويلَ البكاء فقيل له : ارفق بنفسك . فقال : إنما أبكِى على تقصيرى .

---

(١) يوسف بن أسباط الشيبانى الزاهد الواعظ ، يروى عن سفيان الثورى وغيره ، وثقه يحيى بن معين وقال البخارى : «كان قد دفن كتبه فكان لا يجيء بحديثه كما ينبغى» ميزان الاعتدال ٢/٣٢٨ ط السعادة.

(٢) دواد بن نصير ، أبو سليمان الطائى ، كوفى زاهد ، شغل نفسه بالعلم وكان يختلف إلى أبى حنيفة ثم تزهد وأغرق كتبه فى الفرات . مات سنة ١٦٥ هـ . تاريخ بغداد ١١/٢٢١ .

وقيل لعبد الواحد بن زيد : ما نفهم كلامك من بكاء عتبة فقال : أيبكى عُتبة على نفسه وأنهاه أنا ؟! لبئس واعظ قومٍ .

وكان يزيد بن مَرْثَد دائم البكاء فكانت زوجته تقول : ويحى ما خُصصت به من طول الحزن معك ما تقرّ لى عين .

***

ماكان يَقرأ واشٍ سَطْر كِتمانى لو أن دمعىَ لم يَنْطق بتِبْيانِ
ماء ولكنه ذَوْبُ الهموم وهلْ ماء بولّده نيرانُ أحزانى
ليت النَّوَى إذ سقتْنى سُمَّ أسْودها سَدّت سبيلَ امرئٍ فى الُحب يَلْحانى
قد قلتُ بالجزْع لما أنكروا جَزعى ما أبعدَ الصبر مّمن شوقُه دانى
عُجْنا على الرَّبْع نَسْتَسقى له مطراً ففاض دمعِى فأرواه وأظمانى

لما خفيت العواقبُ على المتقين فزعوا إلى القلق واستراحوا إلى البكاء .

قال مالك بن دينار : وددت أن الله عز وجل أذن لى يوم القيامة إذا وقفت بين يديه أن أسجد سجدةً فأعلم أنه قد رضى عنى ثم يقول يا مالك كن ترابا .

قد أوْبقَتْنى ذنوبٌ لست أحْصُرها فاجعل تغمّدها من بعضِ إحسانِكْ
وارفق بنفسىَ ياذا الجودِ إن جَهلتْ مقدار زَلّتها مقدار غُفْرانكْ

أعقلُ الناس مُحْسن خائف ، وأحمق الناس مسىء آمن .

كان بِشْر الحافى لاينام الليل ويقول : أخاف أن يأتى أمرُ الله وأنا نائم .

وكلما همَّ بذَوْق الكرى صاح به الهجرانُ قم لا تَنَمِ

***

ذكرت نفوسُ القومِ العذابَ فأنّت ، وتفكرت فى شدة العتاب فأرنّت ، تذكرت ما جنَتْ مما تجنَّت حُفِنّتْ ، أزعجها الحذَر ولولا الرجاء ما اطمأنت . آه لنفس ضنَّت بما بذلوه ، ثم رجَتْ ما نالوه ، بئس ما ظنت ، ما نفسٌ سابقَتْ كنفس تأنَّتْ .

طربت لذكرى منك هزّت جوانحى ... كما يُطرب النشوانَ[1] كأس مُدام

وما ذكرتك النفسُ إلا أصابها ... كلذع[2] ضرام أو كوخز سهام

وإنّ حديثاً منك أحلى مذاقه ... من الشهد ممزوجاً بماء غمام

كيف لا يخاف من قلبه بيد المقلّب ، من ظن أن عمَىَ يُسْلم ، من ظن أن برصيصا[3] يكفر ، رب غَرْس من المنى أثمر ، وكم من مستحصد تلف ، كرةُ القلب بحكم صولجان التقليب ، إن وقفت الكرة طردت وإن بعدت طلبت ، ليبين سرٌّ ، لو وُزن خوف المؤمن ورجاؤه لا عتدلا ، نادَى نادِى البعد ألا « تَقْنَطُوا[4] » ويقال للمذنبين « ويُحَذِّركم الله نفسَه[5] » لما قَرُب جبريل وميكائيل اهتزت الملائكة فخراً بقرب جنسها من جناب العِزّة ، فقُطع من أغصانها شجرة هاروت ، وكُسِر غُصْن ماروت ، وأُخذ من لُبّها كُرَة « وإنّ عليك لَعْنَتى[6] » فتزودت فى سفَر العبودية زادَ الحذَر ، وقادت فى سبيل معروفها نُجُب التطوّع المنقطعين « ويَسْتَغْفرون لِمَنْ فى الأرض[7] » .

نودى من نادى الإفضال : « من جاء بالحسنة فله عَشْر أمثالها[8] » فسارت نجائب الأعمال إلى باب الجزاء ، فصيح بالدليل : « ولَوْلَا أن ثبّتْناك[9] » فقال : « ما منكم من ينجّيه عمله » [10] .

***

رحم الله أعظُماً طالما نَصبت وانتصبت ، جن عليها الليل فلما تمكّن وثبتَ وثبتْ ، إن ذكرتْ عَدْله ذهبت وهرَبت ، وإن تصوّرت فَضْله فرحت وطربت ، اعترفت إذ نَبَت عن طاعته أنها قد أذنبت ، وقفت شاكرةً لمن لحمها على جُوده نبَت ، هبّت على أرض

---

(١) ت : كما يطرب السكران . (٢) ت كلدغ . (٣) كذا بالأصل

(٤) يشير إلى الآية الكريمة : « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله » سورة الزمر . (٥) سورة آل عمران ٣٠ . (٦) سورة ص ٧٨ . (٧) سورة الشورى ٤٢ .

(٨) سورة الأنعام ١٦٠ . (٩) سورة الإسراء ٧٤ . (١٠) يشير إلى الحديث الذى رواه البخارى فى صحيحه : « لن يدخل أحد منكم عمله الجنة » .

القلوب عقيمُ الحذَر فاقشعرت وندبَت ، فبكت عليها سحائب الرجاء فاهتزت وربَتْ .

بحَسْبك أن قوماً موتى تحْيا بذكرهم النفوس، وأن قوماً أحياء تقسو برؤيتهم القلوب !

رحَل القومُ وبقيت الآثار فى الآثار ، سألوا طُولَ التعبد عنهم فقالت خلت الديار [1] .

إذا دَمْعى شكا البَيْنَ بَيْنَها شكا غيرُ ذى نُطْقٍ إلى غير ذى فَهْمِ

جال الفكرُ فى قلوبهم فلاح صوابهم ، وذكروا التوفيق فمحا التذكر إعجابهم ، وما دوا المخافة فأصبحت دموعهم شرابهم ، وترنموا بالقرآن فأمسى مِزْهَرهم ورَبابَهم ، وكَلِفوا بطاعة الإله فألِفُوا محرابهم ، وخدموه مبتذلين فى خدمته شبابَهم ، فيا حُسْنَهم وريحُ الأسحار قد حرّكت أثوابهم ، وحمات قَصِيص القِصَص ثم ردّت جوابَهم .

نسيمَ الصَّبَا إن زُرْتَ [2] أرضَ أحِبّتى فخُصَّهم عنِّى بكلِّ سلامِ
وبلِّغْهم أنى رَهين صَبَابةٍ وأن غرامِى فوقَ كلِّ غرامِ
وإنّى ليكفينى طُروق خيالهم لو أن جُفونى مُتِّعت بمنامِ
ولست أُبَالِى بالجِنَان وباللَّظَى إذا كان فى تلك الديار مُقَامِى
وقد صُمْتُ عن لذات دهرى كلها ويومُ لُقاكم ذاكَ فِطْرُ صيامِى

***

لا يَطْمعن البَطَّال فى منازل الأبطال، إن لذة الراحة لا تُنال بالراحة ، من زرع حصَد ومن جَدّ وجد .

وكيف يُنال المجْدُ والجِسْمُ وادعٌ وكيف يُجاء الحَمْدُ والوَفْرُ [3] وافرُ

أى مطلوب نِيلَ من غير مشقة ، وأى مرغوب لم تَبْعُد على طالبه الشُّقة ، المال لا يحصل إلا بالتعب ، والعلم لا يُدرك إلا بالنصَب ، واسم الجواد لا يناله بخيل ، ولقب الشجاع [لا يحصل إلا [4]] بعد تعب طويل .

لا يدرك المجدَ إلا سيدٌ فَطِن لما يَشُقّ على الساداتِ فَعّالُ

---

(١) العبارة محرفة فى ب والتصويب من ت . (٢) ت : إن جزت . (٣) الوفر : المال .
(٤) من ت .

أمضى للفريقين فى أقرانه ظُبَةً والبيض هادية والسُّمرُ ضُلّالُ (١)
يريك مَخْبَره أضعاف مَنْظره بَيْن الرجال فيها الماء والآلُ (٢)
لولا المشقةُ ساد النــاس كلهم الجودُ يُفْقر والإقــدام قتّالُ
وإنمـــا يبلغ الإنسانُ طاقتَه ما كل ماشيةٍ بالرَّحْل شِمْلالُ
إنا لفى زمنٍ تَرْكُ القبيحِ به من أكثر الناسِ إحسانٌ وإجمالُ
ذِكْر الفتى عُمره الثانى وحاجته ما قاته وفُضولُ العيش أشغالُ (٣)

***

سبحان من أيقظ المتقين وخلع عليهم خِلَع اليقين ، وألحقهم بتوفيقه بالسابقين ، فباتوا فى جلباب الجد متسابقين .

سجع على قوله تعالى

« وَجِلت قلوبُهم »

كلما أذهب الأعمارَ طلوعُهم وغروبهم ، سالت من الأجفان جزَعاً غُروبهم ، وكلما لاحت لهم فى مرآة الفكر ذنوبهم تجافت عن المضاجع خوفاً جنوبهم ، وكلما نظروا فساءهم مكتوبهم « وَجِلت قلوبُهم » .

دموعهم على الدوام تجرى ، وعِزّتى : لأُرْبحنهم فى معاملتى وتَجْرى (٤) ، عَظُمت قدرتى فى صدورهم وقَدْرى ، فاستعاذوا بوصلى من هَجْرى ، عاملَوا معاملة من يفهم ويدرى ، فنومُهم على فراش القلَق وهبوبُهم « إذا ذُكِر الله وَجِلَت قلوبهم » .

أموات عن الدنيــا ما دُفنوا ، أغمضوا عنها عيونهم وحزنوا ، ولو فتحوا أجفانَ الشَّرَه لفُتنوا ، باعوها بما يبقى فلا والله ما غُبِنوا ، تالله لقــد حصَل مَطْلوبهم « إذا ذُكِر الله وجلت قلوبهم » .

---

(١) الظبــة : حد السيف . والبيض : السيوف . والسمر : الرماح . (٢) الأبيات لأبى الطيب المتنبى ديوانه ص ٥٠٤ ، ٥٠٥ (ط الدكتور عزام) . (٣) الآل : السراب ..
(٤) ب : لأربحن فى معاملتى تجرى . والتجر : التجارة .

حبسوا النفوسَ فى سجن المحاسبة ، وبسَطُوا عليها أَلْسُن المعاتبة ، ومدوا نحوها أكفَّ المعاقبة ، وتحقّ لمن بين يديه المناقشة والمطالبة ، فارتفعت بالمعاتبة عيوبُهم « إذا ذُكِر الله وَجِلت قلوبهم » .

شاهدوا الأخرى باليقين كرأى العَيْن ، فباعوا العقَار وأخرجوا العَيْن ، وعلموا بمقتضى الدِّين أن التُّقَى دَيْن ، فدنياهم خراب وأخراهم على الزَّيْن ، قد قنعوا بكسرتين وجرعتين ، هذا مأكولهم وهذا مشروبهم « إذا ذكِر الله وَجِلت قلوبهم » .

والحمد لله وحده .

المجلس الثامن والعشرون

فى فضل أبى بكر الصديق رضى الله عنه

الحمد لله الذى أحكم بحكمته مافطر وبنَى وقرُب من خَلقه برحمته ودنا ، ورضى الشكر من بريته لنعمته ثمنا ، وأمرنا بخدمته لا لحاجته بل لنا ، يغفر الخطايا لمن أسأ وجنا ، ويُجْزل العطايا لمن كان محسنا ، بيّن لقاصديه سبيلا وسُنَنا ، ووهب لعابديه جزيلا يُقتنَى ، وأثاب حامديه ألذّ ما يُجْتنَى « والذين جاهَدُوا فينا لَنهْدِينّهم سُبُلَنا[1] » .

أحمده مُسِرّا للحمد ومُعْلنا ، وأصلى على رسوله محمد أشْرف من تردّد بين جَمْع ومِنًى ، وعلى صاحبه أبى بكر المتخلل بالعباَ راضياً بالعناَ ، وهو الذى أراد بقوله تعالى وعنَى « ثانيَ اثنين إذ هُمَا فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتَحْزن إنّ اللهَ مَعنا[2] » وعلى عمر الجدّ فى عمارة الإسلام فما ونَى ، وعلى عثمان الراضى بالقدَر وقد دخل[3] بالفِناَء الفنَا ، وعلى علىّ الذى إذا بالَغْنا فى مدحه فالفخرُ لنا ، وعلى عمه العباس الذى أسس الله قاعدةَ الخلافة لبنيه وبنى .

***

قال الله تعالى : « إلاّ تَنْصُروه فقد نصرَه الله » إلا تنصروه بالنّفير معه « فقد نَصَرُه اللهُ » أى أعانه على أعدائه « إذأخْرَجه الذين كَفَروا » أى اضطروه إلى الخروج بقصدهم إهلاكَه « ثانىَ اثنَيْنِ » قال الزّجاج : المعنى فقد نصره الله أحدَ اثنين ، أى نَصره منفرداً إلا من أبى بكر . وهذا معنى قول الشّعْبى : عاتب الله أهلَ الأرض جميعاً فى هذه الآية غير أبى بكر .

فأما الغار فهو النقْب فى الجبل . وهذا الغار فى جبل ثَوْر بمكة ، وكان المشركون يُؤْذون المسلمين ، فتجهز أبو بكر رضى الله عنه ليلحق بالمدينة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : على رِسْلك فإنى أرجو أن يُؤْذَن لى .

---

(١) سورة الروم . (٢) سورة التوبة ٤٠ . (٣) الأصل : وقد خل . محرفة .

ثم خرجا إلى الغار فجعل أبو بكر يشق ثوبه ويسد الأثقاب ، فبقى ثقب فسده بعَقِبه .

فمكثا ثلاث ليال فى الغار ، فخرجت قريش تطلب الآثار ، فلما مروا بالغار رأوا نَسْج العنكبوت فقالوا : لو دخل هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على الباب . وقال أنس ابن مالك رضى الله عنه : أمر الله تعالى شجرةً فنبتت فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فستَرَته ، وأمر العنكبوت فنسجت وأمر حمامتين وحشيتين فوقعتا على فم الغار . وقال مقاتِل : جاء القائف فنظر إلى الأقدام فقال : هذا قدم ابن أبى قحافة والأخرى لا أعرفها ، إلا أنها تشبه القدم التى فى المقام .

« إذ يقولُ لصاحِبه » يعنى بالصاحب أبا بكر بلا خلاف .

أخبرنا ابن الحصين ، أنبأنا ابن المذهب ، أنبأنا القَطِيعى ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا عفَّان ، حدثنا همَّام ، حدثنا ثابت ، عن أنس رضى الله عنه أن أبا بكر رضى عنه حدثه قال : قلت للنبى صلى الله عليه وسلم ونحن فى الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدمَيْه لأبصرنا تحت قدميه . فقال : «يا أبا بكر ما ظنك باثنينِ اللهُ ثالثهما » .

أخرجاه فى الصحيحين (١) .

أنا مولاى إمامٌ ضحكت	من ثنايا فضله آى الزُّمَرْ
صَدّق المرسلَ إيماناً به	ولحا فى الله من كان كفَرْ
ثم بالغار له مَنْقبةٌ	خصه الله بها دون البشَرْ
ثانى اثنين وقول المصطفى	معنا اللهُ فلا تُبْدِى الحذَرْ

قوله : « فأنزل الله سَكِينَته عليه » والسكينة السكون والطمأنينة . وفى « عليه » قولان : أحدهما أنها ترجع إلى أبى بكر قاله على بن أبى طالب وابن عباس . والثانى : أنها فى معنى تثنية ، فالتقدير عليهما كقوله : « واللهُ ورسولُه أحقُّ أن يُرْضوه (٢) » ذكره ابن الأنبارى . « وأيّده » يعنى النبى صلى الله عليه وسلم وإنما قالوا ذلك لأن كل

---

(١) صحيح البخارى ٢/٥ ٢٠

(٢) سورة التوبة ٦٢

حرف يُردّ إلى اللاحق به ، فلما كان الانزعاج لأبى بكر وحده حَسُن رد هاء السكينة عليه، ولما كان التأييد بالجنود لا يصلح إلا للرسول رُدّت هاء «أيده» عليه . ومثله قوله تعالى : « لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزّروه وتوَقّروه وتُسبّحوه » .

قال العلماء : بعث الله ملائكة صرفت وجوه الكفار عنهما .

***

واعلم أن أبا بكر معروف الفضل فى الجاهلية والإسلام .

ولد بمنًى . واسمه عبدالله بن عثمان بن عامر بن عمر بن كعب بن سعدبن تَيْم بن مُرَّة ابن كعب ، وعند مُرّة يلتقى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى النَسب .

وأمه أم الخير سلمى بنت صخر ، أسلمت .

وكانت إليه فى الجاهلية الأَشنَاق وهى الدِّيات ، والمَغْرم ، وكان إذا احتمل شيئا فسأل فيه قريشاً صدّقوه وأمضَوا حمالةَ من نهض معه ، وإن احتملها غيره خذلوه .

ولما جاء الإسلامُ كان أولَ من أسلم ، ولقّبه رسول الله صلى الله عليه وسلم عَتِيقاً لحسن وجهه ، وقال : يكون بعدى اثنا عشر خليفة ، أبو بكر لا يلبث إلا قليلا .

وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه يحلف بالله أن الله عز وجل أنزل اسم أبى بكر من السماء « الصِّدّيق » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به لجبريل : إن قومى لا يصدقونى فقال له جبريل : يصدّقك أبو بكر وهو الصِّديق .

وهو أول من خاصم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

روت أسماء بنت أبى بكر قالت : أتى الصريخُ أبا بكر فقيل له : أدرك صاحبَك . فخرج من عندنا وإن له غدائر فدخل المسجد وهو يقول : ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربىَ الله ؟ فلهَوْا عن رسول الله صلى عليه وسلم وأقبلوا على أبى بكر فرجع إلينا فجعل لا يمسّ شيئا من غدائره إلا جاء معه وهو يقول : تباركتَ ياذا الجلاَل والإكرام .

وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

«إنّ أمَنَّ الناس عليَّ فى صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنتُ متخذاً خليلا غير ربى لا تخذتُ أبا بكر خليلا ، ولكن أخوّة الإسلام ومودته ، لا يبقى فى المسجد بابٌ إلا سُدّ إلا باب أبى بكر (١) » .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مالأحدٍ عندنا يد إلا وقد كافأناه ماخلاَ أبا بكر ، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة ، وما نفعنى مالُ أحدٍ قط ما نفعنى مال أبى بكر » . فبكى أبو بكر وقال : فهل أنا ومالى إلا لك يا رسول الله .

أخبرنا محمد بن عبد الباقى ، أنبأنا أبو طالب العُشَارِىّ ، أنبأنا على بن عمر الحافظ ، حدثنا البغَوِىّ ، حدثنا وهب بن بقيّة ، حدثنا عبد الله بن سفيان الواسطى ، عن ابن جُرَيْج ، عن عطاء ، عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : رآنى النبى صلى الله عليه وسلم أمشِى أمام أبى بكر فقال : ياأبا الدرداء أتمشى أمام من هو خيرٌ منك فى الدنيا والآخرة ! ماطلعت شمسٌ ولا غربتْ على أحدٍ بعد النبيين والمرسلين أفضلَ من أبى بكر .

أخبرنا عبد الأول ، أخبرنا الداودى، أخبرنا ابن أَعْيَن ، أخبرنا الفَرَبْرِىّ ، حدثنا البخارى ، حدثنى هشام بن عمار ، حدثنا صدقة بن خالد ، حدثنا زيد بن واقد ، عن بشر ابن عبدالله ، عن عابد الله أبى إدريس ، عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : كنت جالسا عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ أقبل أبو بكر رضى الله عنه آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أمّا صاحبكم فقد غامَر . فسلّم وقال : إنى كان بينى وبين ابن الخطاب شىء فأسرعتُ إليه ثم ندمت فسألته أن يغفر لى فأبى علىّ ، فأقبلت إليك . فقال : يغفر الله لك يا أبا بكر ثلاثا . ثم إن عمر رضى الله عنه ندم فأتى منزلَ أبى بكر فسأل : أثَمّ أبو بكر ؟ قالوا : لا . فأتى إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فجعل وجه النبى صلى الله عليه وسلم يتمعَّر (١) حتى أشفق أبو بكر فجثَا على ركبتيه : وقال

---

(١) صحيح البخارى ٢/٢٠٦ وصحيح مسلم حديث ٢٣٨٢ (٢) يتمعر : يتغير من الغضب.

يا رسول الله أنا كنت أظلَمَ مرتين . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله بعثنى إليكم فقلتم كذبتَ وقال أبو بكر صدَقْتَ وواسانى بنفسه وماله . «فهل أنتم تاركوا لى صاحبى» مرتين . فما أُوذى بعدها[1] .

***

وقد انفرد أبو بكر رضى الله عنه بأن أَفْتَى فى حَضْرة النبى صلى الله عليه وسلم وقدَّمه فى الصلاة ، ونص عليه نصًّا خَفِيًا بإقامته مكانه فى الصلاة .

أخبرنا عبد الأول ، أنبأنا الداودِىّ ، أنبأنا ابن أَعْيَن ، أنبأنا الفرَبْرِىّ ، حدثنا البُخَارِىّ ، حدثنا الُحمَيْدِىّ ، حدثنا إبراهيم بن سعيد ، عن أبيه ، عن أبيه ، عن محمد ابن جُبَير بن مُطْعِم ، عن أبيه ، قال أتت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها أن ترجع إليه . فقالت : أرأيتَ إن جئتُ ولم أجِدْكَ . كأنها تقول : الموت . قال : فإن لم تجدينى فَأْتى أبا بكر .

أخرجاه فى الصحيحين .

وفى الصحيحين أنه عليه السلام قال لعائشة رضى الله عنها : « ادعى لى أباكِ وأخاكِ حتى أكتب لأبى بكر كتابا ، فإنى أخاف أن يقول قائل ويتمنى مُتَمَنٍّ ، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر »[2] .

***

واعلم أن خِلاَل أبى بكر رضى الله عنه معلومة ، من الورع والخوف والزهد والبكاء والتواضع ، وأنه لما استُخلف أصبح غادياً إلى السوق ، وكان يحلب للحىّ أغنامهم قبلَ الخلافة ، فلما بويع قالت جارية من الحى : الآن لا يُحلب لنا . فقال : بلى لَا حْلبنها لكم ، وإنى لأرجو ألاّ يغيرِّنى ما دخلتُ فيه .

***

وجميع الصحابة رضى الله عنهم اعترفوا[3] بفضله .

---

(١) صحيح البخارى ٢/٢٠٦ (٢) صحيح البخارى ٢/٢٠٦ ، وصحيح مسلم حديث ٢٣٨٦
(٣) صحيح البخارى ، وصحيح مسلم حديث ٢٣٨٧ .

أخبرنا ابن الحصَين ، أنبأنا أبو طالب ابن غَيْلان ، أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الله الشافعي ، أنبأنا أبو بكر بن أبي الدنيا ، أنبأنا خالد بن خراش ، أخبرنا حماد بن زيد ، عن يحيى بن عتيق ، عن الحسن بن أبي الحسين ، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : ودِدْتُ أنِّى فى الجنة حيث أرى أبا بكر .

يا أيها الرافضى لا تسمع مدح أبى بكر من فيه ، اسمع ، قولَ ، (١) علىٍّ عليه السلام فيه .

أنبأنا عبد الأوّل ، أنبأنا الداودِى ، أنبأنا ابن أعْـين ، حدثنا الفرَبْرِىّ ، حدثنا البخارى ، حدثنا محمد بن كثير ، حدثنا سفيان ، عن جامع بن أبى راشد ، حدثنا أبو يَعْلى ، عن محمد بن الحنفية ، قال : قلت لأبى : أىّ الناس خيرٌ بعدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أبو بكر . قلت : ثم من ؟ قال : ثم عمر . قال : وخشيت أن أقول ثم من ؟ فيقول : عثمان : فقلت : ثم أنت . فقال ما أنا إلا رجل من المسلمين .

انفرد بإخراجه البخارى(٢) .

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز ، أنبأنا أبو الحسين بن المهتدى ، أنبأنا القاسم بن حبابة ، حدثنا أبو على إسماعيل بن العباس الوراق ، عن أحمد بن منصور بن زاج ، حدثنى أحمد بن مُصْعب ، حدثنى عمر بن إبراهيم بن خالد القرشى ، عن عبد الملك بن عُمَير ، عن أُسَيد بن صفوان ، قال : لما قُبض أبو بكر الصديق رضى الله عنه وسجِّى عليه ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فجاء علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه مستعجلا مُسْرعا مسترجعاً وهو يقول : اليوم انقطعت النبوة ، حتى وقف على البيت الذى فيه أبو بكر فقال : رحمك الله يا أبا بكر ، كنتَ إلفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأَنيسه ومُسْتَراحه وثقته وموضع سِرّه ومشاورته ، وكنت أول القوم إسلاما وأخلصهم إيمانا وأشدَّهم [لله](١) يقينا ، وأخوفهم لله وأعظمهم غناءً فى دين

(١) ليست فى ت . (٢) صحيح البخارى ٢/ ٢٣٥ .

الله عز وجل ، وأحْوطهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذَ بهم على الإسلام ، وأحسنهم صحبةً ، وأكثرهم مناقب وأفضلهم سوابق وأرفعهم درجةً ، وأقربهم وسيلة ، وأشْبَهم برسول الله صلى الله عليه وسلم هدياً وسَمْتاً ، وأشرفهم منزلةً وأرفعهم عنده وأكرمهم عليه ، فجزاك الله عن رسوله وعن الإسلام أفضل الجزاء .

صدَّقتَ رسول الله حين كذَّبه الناس وكنت عنده بمنزلة السمع والبصر ، سماك الله فى تنزيله صِدّيقا فقال : «والذى جاء بالصِّدْق وصدَّق به» وآسَيْته حين بَخِلوا ، وقمت معه على المكاره حين قعدوا ، وصحبته فى الشدة أكرم الصحبة ، ثانى اثنين صاحبه فى الغار ، والمنْزَل عليه السَّكينة ، ورفيقه فى الهجرة ، وخلَفْته فى دين الله وأمّته أحسنَ الخلافة حين ارتدّوا .

فقمت بالأمر ما لم يقم به خليفة نبيّ ، نهضتَ حين وهَن أصحابه ، وبرَزْت حين استكانوا ، وقَويت حين ضعفوا ، ولزمت منهاج رسوله إذ وهنوا ، كنت خليفةً حقّا لن تنازَع ولن تضارع ، برغم المنافقين وكبتَ الحاسدين ، قمت بالأمر حين فشلوا فاتبعوك فهُدُوا ، وكنت أخفضهم صوتاً وأعلاهم فَوْقاً ، وأقلّهم كلاما وأصدقهم مَنْطِقا وأطولهم صَمْتاً[1] وأبلغهم قولًا وأكرمهم رأياً ، وأشجعهم نفسا ، وأشرفهم عملا . كنتَ والله للدين يَعْسُوبا[2] ، أولًا حين نفَر عنه الناس وآخراً حين أَقْبَلوا .

كنت للمؤمنين أباً رحيما ، صاروا عليك عيالًا ، حملتَ أثقالَ ما عنه ضَعفوا ، ورعَيْتَ ما أهملوا وعَلِمت ما جهلوا ، وشمّرت إذ ظلعوا[3] ، وصبرت إذ جزعوا وأدركت أوتار ما طلبوا ، وراجعوا برأيك رُشْدهم فظَفِروا ، ونالوا برأيك ما لم يحتسبوا[4] .

كنت على الكافرين عذابا صبًّا ولهباً ، وللمؤمنين رحمة وأنسا وحصنا ، طرت والله

---

(١) ب : صوتا . محرفة . والتصويب من ت . (٢) اليعسوب : أمير النحل .
(٣) ظلعوا : ضعفوا . (٤) ت : مالم يحسنوا .

بعنائها وفزت بحِبائها ، وذهبتَ بفضائلها وأدركت سوابقها لم تُفْلل حجتك ولم تَضْعف بصيرتك ، ولم تجبن نفسك ولم يزغ قلبك ، فلذلك كنت كالجبال لا تحركها العواصف ولا تزيلها القواصف ، كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمنَّ الناس عليه فى صحبتك وذات يدك ، وكنت كما قال ضعيفا فى بدنك قويا فى أمر الله تعالى ، متواضعا فى نفسك عظيما عند الله تعالى ، جليلا فى أعين الناس كبيرا فى أنفسهم ، لم يكن لأحدهم فيك مَغْمز ولا لقائل فيك مَهْمَز ولا لمخلوق عندك هَوادة ، الضعيفُ الذليل عندك قوىٌّ عزيز حتىّ تأخذ بحقه ، القريب والبعيد عندك فى ذلك سواء ، وأقربُ الناس عندك أَطْوَعهم لله عز وجل وأتقاهم ، شأنك الحق والصدق والرفق ، قولك حُكْم وحَتْم ، وأمرُك حِلْم وحزم ورأيك علم وعَزْم ، اعتدل بك الدينُ وقوى بك الإيمان وظهر أمرُ الله فسبقتَ والله سبقاً بعيدا وأتعبتَ مَن بَعْدَك إتعابا شديدا ، وفُزْت بالخير فوزاً مبينا .

جَلَلْت عن البكاء وعظمتْ رزِيّتُك فى السماء وهدَّت مصيبتك الأنام ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . رضينا عن الله عز وجل قضاءه وسلمنا له أمره . والله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثلك أبدا ، كنت للدِّين عِزًّا وحرزا وكهفا .

فألحقك الله عز وجل بنبيك محمـــد صلى الله عليه وسلم ولا حرمَنا أجْرك ولا أضلَّنا بعدك .

فسكت الناس حتى قضى كلامه ثم بكوا حتى علت أصواتهم وقالوا : صدقت ياخَتَن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

***

أنفِق المالَ قبل إنفاقك العُمْـ ر ففى الدهرِ رَيْبُه ومَنُونُه
قلّما ينفـــع الثراء بخيلًا غَلِقت فى الثرى المهيل رُهونُه[1]

---

(١) غلقت رهونه : استحقها المرتهن .

لو نجا من حِمامه جاعِل (١) الما ... ل مَعاذاً له نجـــا قارونُهْ
خازنو المال ساجِنوه وما كا ... ن يسعى لساجنٍ (٢) مسجونُه

لما طُبع رسول الله صلى عليه وسلم على أشرف الأخلاق كان منها الكرم ، فأعطى غنماً بين جبلين ، فلما سار فى فَيَافِى الجود تَبعِه صَدِيقه فجاء بكل ماله فقال : ما أبقيتَ ؟ قال أبقيتُ اللهَ ورسوله .

سبَق الناسَ إليهـــا صفقةً ... لم يَعُدْ رائدُها عنها بغَبَنْ
هِزَّةٌ للجود صارت نَشْوةً ... لم يكدِّر عندها العُرْف (٣) بمَنّ
طَلبوا الشَّاء فوافى سابقاً ... جرَعٌ غَبَّر فى وجه المَشَنْ (٤)

جاز أبو بكر رضى الله تعالى عنه على بلال وهو يعذَّب فجذَب مغناطيسُ صَبْرِ بِلَال حديدَ صِدْق الصِّديق ، ولم يبرح حتى اشتراه وكسر قفصَ حَبْسه ، فكان عمر رضى الله عنه يقول : أبو بكر سَيِّدنا وأعتقَ بلالًا سيدنا .

تعب فى المكاسب فنالها حلالًا ، ثم أنفقها حتى جعل فى الكساء خِلَالا ، قال له الرسول أسْلِم فكان الجواب نعم بِلَا : لا ، ولو لم يفعل فى الإسلام إلا أنه أعتق بِلالًا.

أبو بكر حبـــا (٥) فى اللهِ مالًا ... وأعْتَق فى محبَّتــه بِلالًا
وقد واسَى النبيَّ بكل فضلٍ ... وأسرعَ فى إجابتــه بِلَا : لَا
لو أنَّ البحر يَقْصده ببعضٍ ... لما ترك الإله به بِلَالًا (٦)

كانت فضائله الباطنة مستورة بنقاب « ما سبقكم أبو بكر بصوم ولا صلاة ، ولكن بشىء وَقَر فى صَدْره » فهى مجانسة لمَنْقبة : « فأوحَى إلى عَبْده ما أوْحَى» (٧) .

إن كان حُبّ عتيق عَقْد النواصبِ ... فإنـــنى ناصبى من نَسْل ناصبى (٨)

---

(١) الأصل : عاجل . محرفة .   (٢) الأصل : ساجن .   (٣) العرف : المعروف .
(٤) كذا بالأصل : والجرع : الجم . والمشن : حلب مافى الضرع .   (٥) حبا : أعطى .
(٦) البلال : الندوة .   (٧) سورة النجم ١٠ .   (٨) النواصب : من يفضلون أبا بكر ، وكان الشيعة يرمونهم ببغض علىّ عليه السلام .

من كان خير رفيق لخير صاحب كهفاً له ومعيناً على النوائبِ
له الأمانة بالنص غير غاصب أشبه سِتْرا بنسج العناكبِ
وللسكينة فيه أعلى المناقب مناقبٌ هن كالأنجم الثواقبِ

جمع يومَ الردّة شملَ الإسلام بعد أن نعق غراب البَيْن ، وجهز عساكر العزم فمرّت على أحسن زَيْن ، وصاح لسان جِدّه فارتاع من بين الصّفين ، فقال : أقاتلهم ولو بابنتيّ هاتين .

عاد به روض العُلَى مُنضَّراً من بعدِ ما كان العُلَى قدا ضمحلْ
سائلْ به يومَ بنى حنيفةٍ والبيضُ فى بِيض الرءوس تنتضلْ
وليس إلا السيفُ قاضٍ فى الوغَى ولا رسولٌ غيرَ أطراف الأسَلْ (١)
كم خَلَلٍ رَمَّ ولولا عَزْمُه ما رُمَّ فى الإسلام هذاك الخللْ
وكم له من نائلٍ يَسِير ما بين الأنامِ ذكره سَيْرَ مَثَلْ
سكينةُ الله عليه أُنزلتْ وفضْله فى سورة الفتح نزَلْ
أُقسم بالله يميناً صادِقا لو فاضَل الأملاكَ بالصِّدق فضَلْ

***

من نهض كنهضته يومَ الردّة ، ومن عانَى من القوم تلك الشدة ، وأى إقدام يشبه تلك الحدة ، كانت آراؤه من التوفيق مستمدَّة .

لم يَسْمحوا بزمام أَمْرهمُ له حتى رأوه لكل خيرٍ جامعاَ
لم يَرْهبوه ولا اتقَوْه مخافةً جيشاً أطلّ ولا حُساماً قاطعاَ
كلاّ ولا خافوا بوائق بأسه إن خالفوه ولا رأوه مخادِعاَ
لكنهم علِموا شريفَ محلّه عند الرسول تُقَى وقَدْرا بارِعاَ

(١) الأسل : الرماح .

ورأوا نظامَ الدين عن آرائه مُستحكما وسنَى الشريعة طالِعاَ
أرْدَى حنيفةَ واليمامة إذ طغت فأعادَ مأنوس الديار بَلَاقِعاَ

أترى تقدم أبو بكر لكسل، أو مدح بالبخل، كلا بل هانت الدنيا لديه إذ عزَّت نفسُه عليه. لمّا علِم الصِّديق قُرْب الممات فرّق المالَ وتخلّل بالعبا، فخرج من الدنيا قبل أن يُخْرج.

يمّمت همّته قُصْوى الورَى فجرى جَرْيَ جوادٍ لجوادِ
بجِد المُتْلَف من أمواله واقعاً منه وقوعَ المستفادِ
فهو لا يَفْتر من سَحّ النّدى ببنانٍ سَبِطات لا جِعَادِ[1]
غير لاهٍ باللُّهَا[2] بل عالماً أن بَذْلَ العُرْف من خَيْر عتادِ[3]
مستزيداً من فِعَالٍ جَمّة ليس فيها لامرئٍ من مُسْتزادِ
كلُّ ذخرٍ لمعاش عنده مُقْتنًى من فَضْل زادٍ لمعادِ
سالكاً فى كل فَجٍّ وحدَه حين لا يوحشه طولُ انفرادِ
وكذاك البَدْر يَسْرى فى الدُّجى وله من نَفْسه نورٌ وهادِ

نزع أبو بكر ثوبَ مَخِيط الهوَى فمزَّقه علىّ، رمى الصِّديق جهازَ المطلَّقة فوافقه علىٌّ فى نزع الخاتم.

حبَّب الفقرَ إليه أنّه سُؤْدُدٌ وهو بذاك الفقرِ يَغْنَى
وشريفُ القوم من يُبْقِى لهم شرَف الذكر وخَلّى المال يَفْنى
ما اطمأنّ الوَفْر فى بحبوحةٍ فرأيتَ المجدَ فيها مُطْمئِنّا
تُهْدَم الأموال من آساسها أبداً ما دامت العلياء تُبْنَى

توافق أبو بكر وعلىّ على رَفْض الدنيا، فاسلك سبيلَهما وجانِب الرَّفْض.

وخير ما يَذْخر عبدٌ لغدٍ حُبُّ أبى بكر الإمام المرتضى

---

(١) السبطات: المنبسطة. والجعاد: المنقبضة. (٢) اللها: العطاء. (٣) الأصل: من غير. محرفة.

حب إمامٍ أوضح الله به ... من سبل الإسلام ما كان عفا
لم يَعبُد اللات ولـكن لم يزَلْ ... معترفاً بالله من حين نشا
لأنه كان زميلَ المصطفى ... يجرى على منهاجه حين جرى
حتى إذا الله اصطفاه مرسَلاً ... أجاب بالتصديق لما أن دعا
وما ارتضاه للصلاة دونَهم ... حتى رآه ذِروةً لا تُرتَقى
ثم دعَوْهُ بعدَه خليفـــةً ... عن ملأٍ منهم وأعطَوه الرِّضا
قال أقِيلونى فلستُ خيْرَكم ... فأعْظَموها وأبَوْا كلَّ الإبا
والله إنى لَمُوالٍ حيْدراً ... مثل مُوَالاتى عَتيقاً ذا السَّنا(١)
هما إمامَاى(٢) وأمْنِى فى غدٍ ... مما أخاف ورجائى واللَّجا(٣)
وإن دِين الرَّفْض كُفرٌ مُوبِق ... فمن صحا من سَكْرة الرفضِ نجا

***

لقد بان الهدى ولاحت الطريق ، فشمر أيهـا البخيل واخرج من المضيق ، وإياك والدنيا فـكم قتلتْ من صديق ، افعل بهـا فعل علىّ أو فِعلَ الصِّديق ، يا هذا من صفة المؤمن الـكرم ، والـكريم من أعطى ما لا يَجب وأنت تبخل بالواجب ، يا هذا مؤدِّى الدَّيْن لا يُحْمد ، لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل ، يا عجبا ممن لا يُخْرِج اليسيرَ المرذول كيف يُطْلَب منه الـكثير المحبوب .

إذا ما شَحّ ذو المـــالِ ... شحَّ الدهرُ بإيهابهْ
إذا لم يُثمر العُودُ ... فقَطْع العود أولَى بهْ

---

(١) حيدر : يريد علياعليهالسلام . وعتيق : أبو بكر الصديق رضىاللهعنه . (٢) الأصل : إمامى .
(٣) اللجا : الملجأ .

الكلام على قوله تعالى

﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لا تُلْهِكم أموالُكم ولا أولادُكم عن ذِكْرِ الله[1] ﴾

معنى تُلْهِكم : أى تَشْغلكم . وفى المراد بذكر الله تعالى أربعة أقوال : أحدها : طاعته فى الجهاد . رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثانى : الصلاة المكتوبة . قاله عطاء . والثالث : الفرائض كلها . قاله الضَّحاك . والرابع : أنه على إطلاقه يَحضّهم على إدامة الذِّكر . قاله الزجَّاج . قال بعض السلف : كل شىء يشغلك عن الله عز وجل من مال وولد فهو مشئوم عليك .

قوله تعالى : « وأنفِقوا مما رَزَقْناكم » فى هذه النفقة ثلاثة أقوال : أحدها الزكاة . قاله ابن عباس . والثانى : النفقة فى الحقوق الواجبة بالمال . قاله الضحاك . والثالث : صدقة التطوع . ذكره الماوردى . فيكون [على[2]] هذا القول نَدْباً وعلى ما قبله واجبا.

قوله تعالى : « من قَبْلِ أن يأتىَ أحدَكم الموتُ » أى من قبل أن يعاين ما يَعلم معه أنه ميت « فيقولَ رَبِّ لَوْلَا » أى هلّا « أخَّرْتَنِي إلى أجلٍ قَرِيبٍ » يريد بذلك الاستزادة فى أجله ليتصدّق .

قوله تعالى : « وأكُنْ مِنَ الصالحين » وقرأ أبو عمرو : « وأكونَ من الصالحين » قال الزجَّاج : من قرأ « وأكون » بالواو فهو على لفظ فأصَّدقَ ومن جزم : «وأكن» فهو على موضع فأصّدق ، لأن المعنى : إن أخرتنى أصّدّق وأكن . قال ابن عباس : « فأصّدق » أزكى مالى . « وأكن من الصالحين » أى أحج مع المؤمنين . قال : وما من أحد يموت قد كان له مال لم يزكّه وأطاق الحج فلم يحج إلا سأل الرَّجْعَة عند الموت .

***

واعلم أن أفضل الصدقة فى حال الصحة والسلامة .

أخبرنا ابن عبد الواحد ، أنبأنا ابن المُذْهِب ، أخبرنا أبو بكر بن مالك ، حدثنا

---

(١) سورة المنافقون ٩ . (٢) سقطت من ب .

عبد الله بن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا جَرِير بن عبد الحميد ، عن عُمارة بن القَعْقَاع ، عن أبي زُرْعة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيُّ الصدقة أفضل ؟ قال : « أن تصدَّق وأنت شَحِيح صَحِيح تأمل البقاء وتخاف الفقر ، ولا تُمْهِل حتى إذا بلغَت الحلقومَ قلتَ : لفلان كذا ولفلان كذا ، ألا وقد كان لفلان » .

أخرجاه في الصحيحين[١] .

أخبرنا محمد بن عمر الفقيه ، أخبرنا محمد بن على بن المهتدِي ، حدثنا عبد الله بن أحمد ابن الصَّبّاح ، حدثنا محمد بن مَعْن ، حدثنا محمد بن محمد بن حَيَّان ، حدثنا محمد بن كثير ، حدثنا سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن أبي حبيبة الطائيّ ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الذي يَعْتِق عند الموت كمثل الذي يُهْدِى إذا شَبِع » .

وقيل لميمون بن مِهْران : إنّ فلاناً أعتق كلَّ مملوك له يعني عند الموت . فقال : يَعْصُون الله مرتين : يبخلون به وهو في أيديهم ، حتى إذا صار لغيرهم أسرفوا فيه !

وليعلم البخيل أن ما أخرجه له وما تركه لغيره .

وفي أفراد البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أيكم مالُ وارثه أحبُّ إليه من ماله ؟ » قالوا : يا رسول الله ما منا أحدٌ إلا ما له أحبُّ إليه . قال : « فإنّ ماله ما قدَّم ومال وارثه ما أخّر[٢] » .

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول العبد : ما لي ما لي . وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفْنَى أو لبس فأبْلَى أو أعْطَى فاقتنى ، ما سِوَى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس[٣] » .

أخبرنا الكَرُوخِيّ ، أنبأنا الأَزْدِي والغُورجِيّ ، قالا أنبأنا الجرّاحي ، حدثنا المَحْبوبي ،

---

(١) صحيح البخاري ١/١٨٥ وصحيح مسلم حديث رقم ١٠٣٢

(٢) صحيح البخاري ٤/٩٩

(٣) صحيح مسلم حديث رقم ٢٩٥٩

حدثنا الترمذى، حدثنا محمد بن بشَّار ، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن سفيان ، عن أبى إسحاق، عن أبى مَيْسرة ، عن عائشة رضى الله عنها أنهم ذبحوا شاةً فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما بقى منها ؟ قالت : ما بقى منها إلا كتفها . قال : بقى كلُّها إلا كتفها »[1] .

من عَلم[2] فضلَ الإيثار بالصدقة حَمَل النفسَ على الإخراج .

بعث إلى عائشة بمال عظيم ففرقته على الفقراء فقالت جاريتها : لو خبأت درهما نشترى به لحماً نفطر عليه ؟ فقالت : لو ذكَّرْتِينى لفعلت .

بالجد فاز من فاز ، وبالعزم جاز من جاز ، وما حاز الثناء من المال حاز .

***

وسائلٍ عنهمُ ماذا تقدَّمَهمْ ... فقلتُ فَضْلٌ به عن غيرهم بانُوا

كما عرَّضوا المنايا الحُمْر أنفسَهم ... لخانَ قومٌ توقَّوْها وما خانُوا

وألهج الحمـــدَ بالأبطال بينهم ... أنْ ليس بينهم المال إبطانُ

واعجباً لغنى يبخل بما يفنى ، ولفقير لا يصبر على ما يبقى .

أعاذِلَ إن المال غير مُخَـــلَّدِ ... وإن الغـــنَى عاريةٌ فتزوّدِ

فـكم من جوادٍ يُفسد اليوم جودَه ... وساوسُ قد خوّفَتْه الفقرَ فى غدِ

كم ناداك مولاك وما تسمع ، وكم أعطاك ولـكن ما تقْنع ، لقـد استقرضك مالَك فمالك تجمع ، وضمن أن تنبت الحبـة سبعمائة وما تَزْرع ، ليـكن همُّك فى طلب المـال الإفضالَ به ، فإنّ الشريف الهمة لا يطلب الفضل إلا للفضل .

قال أعرابى لأخيه : إنّ مالك إن لم يكن لك كنتَ له ، فـكُلْه قبل أن يأ كلك .

كم مُخَلِّف لمتخلِّف ، ترك لمن لا يَحْمده وقدِم على من لا يعذره ، ران على القلوب حبُّ الدنيا فجمعتها كفُّ الشَّرَه ، وتمسكت بهـا أيدى البخل ، فلو تلمَّحْتَ معنى : « مَنْ ذا الذى يُقْرض » أو اشتقتَ إلى أرباح « فيضاعِفَه » لرأيت إنفاق كلٍّ محبوب حقيرا فى جنب ما ترجو .

---

(١) العبارة محرفة فى ب . والتصويب من ت .   (٢) ت : من علم فضل الصدقة .

فتدبروا إخوانى أحوالكم، وأنفقوا فى الخير أموالكم، فإن المال إذا أخذتم فى سيركم لغيركم.

يا مالَ كلٍّ جامعٍ وحارث أبْشر بريبٍ حادثٍ ووارثِ
إن الغـنى والفقرَ غـيرُ لابث ولا يهابُ الموتُ نَفْثَ نافثِ
قد يحصد الجنــةَ(١) غير الحارثِ ويُدْهَق الدلو لغير النابث(٢)
جدَّ الزمانُ وهو مثل العابثِ أقْسَم أن يُسىء غيرَ حانثِ

***

أخبرنا محمد بن ناصر، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا الحسن بن على، أنبأنا أحمد بن جعفر حدثنى أبى، حدثنا المغيرة، حدثنا صفوان، عن يزيد بن ميسرة، قال: كان رجل ممن مضى جمع مالاً فأوعى ثم أقبل على نفسه وهو فى أهله فقال: انعمى سنين. فأتاه ملَك الموت فقرَع الباب فخرجوا إليه وهو متمثل بمسكين فقال لهم: ادعوا لى صاحبَ الدار. فقالوا: يخرج سيدنا إلى مثلك! ثم مكث قليلا ثم عاد فقرَع باب الدار وصنع مثل ذلك فقال: أخبروه أنى ملَك الموت. فلما سمع سيدهم قعد فزعا وقال: ليِّنوه بالكلام. فقالوا: ما تريد غير سيدنا بارك الله فيك؟ قال: لا. فدخل عليه فقال له: قم فأوْصِ ما كنتَ موصياً فإنى قابضٌ نفسك قبل أن أخرج. قال: فصاح أهله وبكوا ثم قال: افتحوا الصناديق والتوابيت وافتحوا أوعية الذهب والفضة. ففتحوها جميعا فأقبل على المال يلعنه ويسبّه ويقول: لُعنت من مال! أنت الذى أنسيتنى ربى تبارك وتعالى وأغْفلتنى عن العمل وأخرتنى حتى بلَغنى أجَلى. فتكلم المالُ وقال: لا تسبّنى، ألم تكن وضيعا فى أعين الناس فرفعتُك؟ ألم يُرَ عليك من أثرى؟ وكنت تحضر سوقَ الملوك فتدخل ويحضر عبادُ الله الصالحون فلا يدخلون؟ ألم تكن تخطب بناتِ الملوك والسادات فتُنْكَح، ويخطب عبادُ الله الصالحون فلا يُنْكحون ألم تكن تنفقنى فى سبيل الخبيث فلا أتعاصى ولو أنفقتنى فى سبيل الله لم أتعاص عليك؟ فأنت اليوم ألْوَم منى، إنما خُلقت أنا وأنتم يا بنى آدم من تراب، فمنطلِق ببرٍّ ومنطلق بإثم.

---

(١) ت: قد يحصد الحبة. (٢) يدهق: يملأ. والنابث الحافر.

فهكذا يقول المال فاحذروا .

كان ملكُ الموت يأتى الناس فى صورة البشَر ، فركب بعضُ الجبارين فى جُنده يوماً فلقيه ملك الموت فقال : من أنت ؟ قال : أنا ملك الموت . فقال : دعنى آتى أرضى التى خرجتُ إليها ثم أرجع من موكبى . فقال : لا والله لاترى أرضك أبدا ولا ترجع من موكبك أبدا . قال : فدعنى أرجع إلى أهلى . فقال : لا والله لا ترى أهلك أبدا . فقبض روحه .

وبينا رجل ينظر فى أصناف ماله طلع ملك الموت فقال : والذى خوّلك ما ترى ماأنا بخارج من منزلك حتى أفرّق بين روحك وبدَنك . قال : فالمُهْلة حتى أفرّقه . قال : هيهات ! انقطعت عنك المهلة .

ولاح ملكُ الموت لرجل فقال لأهله : ايتونى بصحيفة . فقال ملك الموت : الأَمْر أَعْجَل من ذلك . فقبض روحه قبل أن يؤتى بالصحيفة .

إخوانى : استدركوا قبل الفَوْت وانتهوا قبل الموت ، وأصِيخُوا فقد أسْمَع الصوت.

سجع على قوله تعالى
﴿ ولن يؤخِّر الله نفساً إذا جاء أجَلُها ﴾

واعجبا لنفسٍ الموتُ مَوْئلها والقبر مَنْزلها واللحد مُدْخَلها ثم يَسُوء عملها «ولن يؤخِّر الله نفساً إذا جاء أجَلُها » .

كم قاطعٍ زمانه بالتسويف ، بائع دينَه بالحَبّة والرغيف ، مشترٍ للويل بتطفيف الطَّفِيف ، يتمنى العَوْد إذا رأت نفسه ما يُذهلها «ولن يؤخِّر الله نفساً إذا جاء أجلها» .

كم مشغولٍ بالقصور يَعْمرها ، لايفكر فى القبور ولايذكرها ، يبيت الليالى فى فكر الدنياو يَسْهرها ، يجمع الأموال إلى الأموال يثمّرَها ، وقع فى أشراك المنايا وهو لا يُبْصرها،

أفٍ لدنيا هذا آخرها وآه لأخرى [1] هذا أولها «ولن يؤخِّر الله نفساً إذا جاء أجَلُها» .

إذا ملك شمسَ الحياة المغيب ، قام عن المريض الطبيب فأخذ النفس من باطنها التوبيخ والتأنيب ، فلو رأيتها تُسأل عما بها ولا تجيب من يسألها « ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » .

آه لساعات شديدة السكُرُبات ، فيها غَمرات ليست بنوم ولا سُبات ، تتقطّع فيها الأفئدة باللوم على الفوات ، وتبكى عينُ الأسف لما مضى من هفَوات ، والمريض ملقًى على فراش الُحرقات ، فآه ثم آه من جبال حسَرات يحملها « ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلُها » .

لقد صاح بك الصائح بأخذ غادٍ وسَلْب رائح ، يكفى مامضى من قبائح ، فاقبل اليوم هذه النصائح فإن المسكين من يهملها « ولن يؤخِّر الله نفساً إذا جاء أجَلُها » .

والحمد لله وحده .

---

(١) ت : من أخرى .

المجلس التاسع والعشرون

فى فضل عمر بن الخطاب

الحمد لله خالق كلِّ مخلوق ، ورازق كل مرزوق ، سابق الأشياء ، فما دونه مسبوق ، موجد المنظور والملبوس والمذُوق ، أنشأ الآدمى بالقدرة من ماء مدفوق ، وركب فيه العقل يدعو إلى مراعاة الحقوق ، والهوى يحثّ على مايوجب العقوق ، فاحذر وفاق المشتهَى فإنه يَرْمى لا من فَوْق فُوق(١) ، فسحَ داودُ لنفسه فى نظرة فاتسعت الُخروق ، وغفل ابنهُ سليمان عن طـاعته « فطفِق مسْحًا بالسُّوق » .

أحمده على مايقضى ويسوق مما يغمّ وما يَشُوق ، وأُقرُّ له بالتوحيد هاجراً يعُوث ويَعُوق ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أرسله وقد ازدحمت سوقُ الباطل فى أَزْوج سوق ، فدمَغ بحقه أهل الزَّيْغ وأربابَ الفسوق ، صلى الله عليه وعلى آله ماهبَّ الهواء ولمعت البروق ، وعلى صاحبه أبى بكر الصديق ، وعلى عمر الملقّب بالفاروق . وعلى عثمان الصابر من الشهادة على مُرّ المذُوق ، وعلى علىٍّ مطلِّق الدنيا فما غرّه الزخرف والراووق ، وعلى العباس أقرب الـكل نسباً وأخصّ العروق .

اللهم يامالك المساء والشروق ، احفظنا من مَساءة الحوادث والطروق ، وهَبْ لنا من فضلك مايصفو ويروق ، وزد آمالنا من إحسانك فوق مانرجو ونتوق ، وافتح لى وللحاضرين مُوقَ بصَر البصيرة لحبيب المُوق .

***

أخبرنا هبة الله بن محمد ، أخبرنا الحسن بن على ، أخبرنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبدالله بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا فَزارة بن عمر ، حدثنا إبراهيمُ يعنى ابن سعد عن أبيه ، عن أبى سلمة ، عن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه كان فيمن مضَى قبلـكم من الأمم ناسٌ محدَّثون

(١) رى فوقاً : رشقاً .

وإنه إن كان فى أُمتى هذه منهم أحَد فإنه عمر بن الخطاب » .

أخرجاه فى الصحيحين[1] .

واعلم أن عمر رضى الله عنه ممن سبقت له الحسنى ، وكان مقدما فى الجاهلية والإسلام .

أمّا فى الجاهلية فكانت له السِّفَارة والمفاخَرة ، فإن وقع بين قريش وغيرهم بعثوه سفيراً ، وإن فاخرهم حَىٌّ بعثوه مفاخِرا ورضوا به .

وأمّا فى الإسلام ففضائله كثيرة .

وهو عمر بن الخطاب بن نُفَيْل بن عبد العُزّى بن رياح بن عبد الله بن قُرْط ابن رزَاح بن عدِىّ بن كعب وعند كعب يلتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النَسب .

أخبرنا محمد بن عبد الباقى ، أنبأنا أبو محمد الجوهرى ، أنبأنا أبو عمر بن حَيُّوية ، أنبانا أبو الحسن بن معروف ، أنبأنا الحسين بن الفهم ، حدثنا محمد بن سعد ، أنبأنا إسحاق بن يوسف الأزرق ، حدثنا القاسم بن عثمان البصرى ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : خرج عمر متقلداً السيفَ فلقيه رجل من بنى زُهْرة ، قال : أين تَعْمد ياعمر ؟ فقال : أريد أن أقتل محمدا . قال : وكيف تأمن فى بنى هاشم وبنى زهرة وقد قتلت محمداً ؟ فقال له عمر : ماأراكَ إلا قد صبأت وتركتَ دينك الذى أنت عليه . قال : أفلا أدلّك على العجب ياعمر ؟ إن خَتنك وأختك قد صبآ وتركا دينك الذى أنت عليه فمشى عمر ذامراً[2] حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خبّاب فلما سمع خباب حسَّ عمر توارَى فى البيت فدخل عليهما فقال : ماهذه الهَيْنَمة[3] التى سمعتُها عندكم ؟

(١) صحيح البخارى ، ٢/٢٣٨ : وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة حديث رقم (٢٣٩٨) ونص مسلم : « قد كان يكون فى الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن فى أمتى منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم » . ومعنى محدثون : ملهمون . (٢) ذامرا : غاضبا (٣) الهينمة : الصوف الخفى .

قال : وكانوا يقرءون : « طه » فقالا : ماعدا حديثاً تحدّثناه بيننا قال : فأعلمكما قد صبأْتما . فقال له خَتَنُهُ : أرأيت ياعمر إن كان الحقُّ فى غير دينك ؟ فوثب عمرُ على خَتَنَه فوطئه وطئاً شديدا ، فجاءت أخته فدفعته عن زوجها فنفحها نفحةً بيده فدمّى وجهها فقالت وهى غَضْبى : ياعمر إن كان الحق فى غير دينك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .

فلما يئس عمر قال : أعطونى هذا الكتاب الذى عندكم فأقرأه . فقالت : إنك رجْس ولا يمسُّه إلا المطهرون ، فقم فاغتسل أو توضأ . فقام فتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ « طه » حتى انتهى إلى قوله « إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعْبُدْنى وأقِمِ الصلاةَ لذِكْرِى » فقال عمر : دُلّونى على محمد . فلما سمع خبَّاب قولَ عمر خرج من البيت فقال أبْشر ياعمر ، فإنى أرجو أن تكون دعوةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ليلة الخميس : اللهم أعزَّ الإسلام بعمرَ بن الخطاب أو بعمرو بن هشام .

قال :و رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدار التى فى أصْل الصفا . فانطلق عمر حتى أتى الدارَ قال : وعلى باب الدار طلحة وحمزة وأناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى حمزة وجَل القوم من عمر قال حمزة : نعم فهذا عمر فإن يُرِد الله بعمر خيرا يُسْلم ويتبع النبى صلى الله عليه وسلم وإن يكن غير ذلك يكن قتله علينا هيِّنا . قال : والنبى صلى الله عليه وسلم داخل يوحَى إليه ، فخرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى عمرَ فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف فقال ما أنت منتهياً ياعمر حتى ينزل الله بك ماأنزل بالوليد بن المغيرة ! اللهم هذا عمر بن الخطاب ، اللهم أعزَّ الإسلام بعمر بن الخطاب . فقال عمر : أشهد أنك رسول الله. فأسلم وقال : اخرج يارسول الله .

وقد روى أنه لما أسلم قال (١) :

---

(١) يظهر وضع هذا الشعر ، ولا يعرف عند أحد من أهل العلم بالشعر .

الحمد لله الذى وجبت له ... علينا أيادى مالها غِيَرُ
وقد بدأنا فكذَّبْنا وقال لنا ... صِدْقَ الحديث نبيٌّ عنده الخبرُ
وقد ظلمتُ ابنةَ الخطاب ثم هدى ... ربِّى عشيةَ قالوا قد هُدِى عمرُ
وقد ندِمْت على ما كان من زَلَلٍ ... بلطمها حين تُتْلَى عندها السورُ
لما دعَتْ ربها ذا العرش جاهدةً ... والدمعُ من عينها عَجْلان يَبْتدرُ
أيقنتُ أن الذى تدعوه خالقُها ... فكاد يسبقنى من عَبرة دَرِرُ
فقلت أشهد أن الله خالقُنا ... وأن أحمد فينا اليومَ مُشْتهرُ
نبيُّ صدقٍ أتى بالحق من ثقةٍ ... وافِى الأمانةِ ما فى عُوده خَوَرُ

***

قال ابن عباس : لما أسلم عمر كبَّر أهلُ الدار تكبيرةً سمعها أهلُ المسجد . وقال : يا رسول الله ألسنا على الحق إن مِتْنا وإن حَيِينا ؟ قال : بلى والذى نفسى بيده . قال : ففيم الاختفاء والذى بعثك بالحق لَتخرجنَّ . قال عمر : فأخرجناه فى صَفَّين ، حمزة فى أحدهما وأنا فى الآخر له كَدِيد[1] ككديد الطِّحين ، حتى إذا دخلْنا المسجدَ نظرت قريش إلى حمزة وعمر فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها . قال : فسمَّانى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ الفاروق ، وفرق الله بى بين الحق والباطل .

قال ابن مسعود : ما زلنا أعزةً منذ أسلم عمر .

وفى الصحيحين من حديث أنس رضى الله عنه قال : قال عمر : وافقتُ ربى فى ثلاثٍ: قلت : يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مُصَلًّى ؟ فنزلتْ « واتخذوا من مَقَام إبراهيم مُصَلًّى » وقلت : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البَرُّ والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجبن . فنزلت آية الحجاب . واجتمع على رسول الله صلى الله عليه وسلم نساؤه فى الغيرة عليه فقلت لهن : عَسَى ربه إن طلقكن أن يُبْدله أزواجاً خيرا منكن .

(١) الكديد : الصوت .

فنزلت هذه الآية (١) .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « بَيْنا أنا نائم رأيتنى فى الجنة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر فقلت : لمن هذا القصر ؟ قالوا لعمر بن الخطاب . فذكرت غَيْرتك فولَّيت مُدْبرا » . فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله (٢) .

وفيهما من حديث سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لعمر : « والذى نفسى بيده ما لَقِيك الشيطانُ قط سالكاً فَجًّا إلّا سلك فجًّا غير فَجِّك (٣) » .

قال ابن مسعود : لقى رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم الشيطان فى زقاق من أزقة المدينة فدعاه الجنّى إلى الصِّراع فصرعه الإنسىُّ ، فقال : دَعْنى . ففعل . فقال : هل لك فى المعاودة ففعل فصرعه فجلس على صدره ، فقال : ما الذى يُعيذنا منكم ؟ قال : آية الكرسى . فقال رجل لابن مسعود ؟ من ذاك الرجل أعمر هو ؟ فعبَس وبسَر وقال : ومن عسى أن يكون إلا عمر !

وفى حديث ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «عُمر سراجُ أهل الجنة» .

وفى حديث أبى هريرة عنه عليه السلام قال : « إن الله عز وجل جعل الحقَّ على لسان عمر وقَلْبه» وفى حديث أنس عنه عليه السلام أنه قال: «أشدُّ أمتى فى أمر الله عمر» .

وفى حديث ابن عباس عنه عليه السلام قال : جاء جبريل عليه السلام فقال أقرئ عمر السلام وأخبره أن رضاه عِزّ وغضَبه حِلْم .

وفى حديث على عليه السلام أنه قال : اتقوا غضبَ عمر إذا غضب فإن الله يغضب إذا غضب .

وفى حديث عقبة ابن عامر عنه عليه السلام أنه قال: «لو كان بعدى نبىّ لكان عمر» .

---

(١) صحيح البخارى ج ٣ /٨٣ وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٢٣٩٩

(٢) صحيح البخارى ج ٢ /٢٣٧ وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٢٣٩٤

(٣) صحيح البخارى ج ٢/ ٢٣٨ وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٢٣٩٦

كلن عمر رضى الله عنه جدًا كله وكان يُقْدم على صاحب الشريعة وينبسط فيحتمله ، لعلمه بصحة قصده .

فمن ذلك : أنه أراد أن يصلى على ابن أُبَىّ فوقف فى صدره وقال : أتصلى عليه ؟!

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما لأبى هريرة : اذهب بنعلى هاتين فمن لقيتَ من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا به قلبه فبشِّره بالجنة . فذهب فلقيه عمر فأخبره الخبر فضرب بين ثدييه حتى خرّ وقال : ارجع فرجع . فقال يا رسول الله إنى أخشى أن يتّكل الناس عليها فخلِّهم يعملون . قال : فخلِّهم .

وفى حديث عمّار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سألت جبريل فقلت : أخبرنى عن فضائل عمر ؟ فقال : لو كنت معك ما لبث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ما نفدت فضائل عمر وإن عمر حسنة من حسنات أبى بكر[1] » رضى الله عنهما .

تحدَّث ولا تخرج[2] بكل عجيبةٍ ... عن البحر أو تلك الخِلَال الزّواهرِ
ولا عَيْبَ فى أخلاقه غير أنها ... فرائد دُرّ مالها من نظائرِ
يُقرّ لها بالفضل كلُّ مُنَازعٍ ... إذا قيل يومَ الجَمْع هل من مُفَاخرِ

قَوِيَتْ شدةُ عمر فى الدِّين فصلُبت عزائمه ، فلما حانت الهجرة تسللوا تسلّلَ القَطا واختال عمرُ فى مِشْية الأسد ، فقال عند خروجه : ها أنا أخرج إلى الهجرة ، فمن أراد لقائى فليَلْقَنى فى بطن هذا الوادى .

***

لما ولى الخلافة شمَّر عن ساق جِدّه فكظَمَ[3] على هوى نفسه ، وحمل فى الله فوق طَوْقه .

متيقظُ العَزماتِ مُذ نهضت به ... عَزماتُه نحو العُلَى لم يقعدِ

(١) هذا الحديث موضوع ، كما قال الإمام أحمد بن حنبل . انظر اللآلئ المصنوعة ١/١٥٧ . (المطبعة الأدبية) .
(٢) ت : ولا تجزع . (٣) ت : وكظم .

ويكاد من نور البصيرة أن يرَى   في يومِه فعلَ العواقب في غدِ

نبذ الدنيا من وراء ظهره فتخفف من الأثقال لأجل السباق، كان يخطب وفى إزاره ثنتا عشرة رقعة ، كفَّ كفَّه عن المال زاهدا فيه حتى أملَق أهلُه .

رأى يوماً صبيةً تمشي فى السُّوق والريحُ يلقيها لضعفها ، فقال من يعرف هذه ؟ فقال ابنه عبدُ الله : هذه إحدى بناتك . قال : أىّ بناتى ؟ قال : بنت عبد الله بن عمر . قال : فما بلغ بها ما أرى ؟ قال : إمساكُك ما عندك . قال : إمساكى ما عندى يمنعك أن تطلب لبناتك ما يطلب الناس ؟ أمَا والله مالك عندى إلا سَهْمك مع المسلمين وَسِعك أو عجَز عنك ، بينى وبينكم كتاب الله !

عفَّ عن الدنيا وقد تزخرفتْ   مُمكنةً وعافَها وقد قدَرْ
مُحكِّمٌ فى الناس يقضِى بينهم   بمُحْكَمِ الآيِ ومَنصوص السُّوَرْ
حدِّثْت عنه مثلَ ما تحدثت   عن كرم الأغصان حَلْواء الثمرْ

وفى أفراد البخارى أنه قسم مُرُوطاً بين نساء المدينة فبقى منها مِرْط [1] جيد فقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين أعط هذا المِرْط ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى عندك ، يريدون أم كلثوم بنت على . قال : أم سَلِيط أحقُّ به فإنها ممن بايع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وكانت تَزْفِر لنا القِرَب يوم أُحد [2] .

ورآه طلحة يدخل بيتا فلما أصبح دخل طلحةُ ذلك البيتَ فرأى عجوزا عمياء مُقْعدة فقال : ما صنع عندك ذلك الرجل ؟ فقالت : إنه يتعاهدنى منذ كذا ويأتينى بما يُصْلحنى ويخرج عنى الأذى . فقال طلحة : ثكلتْك أمك يا طلحة ! أعثرات عمر تَتَبَّع .

وروى ثابت عن أنس قال : بينما عمر يعسّ بالمدينة إذ مر برحَبة من رِحابها فإذا هو ببيت من شَعْر ، فدنا منه ، فسمع أنينَ امرأة ورأى رجلا قاعدا ، فدنا منه فسلم عليه ثم قال : من الرجل ؟ فقال : رجل من أهل البادية جئت إلى أمير المؤمنين أصيب مِن فَضْله . قال : فما هذا الصوت فى هذا البيت ؟ قال امرأة تَمْخض . قال : هل عندها أحد؟

---

(١) المرط : كساء من صوف أو خز .   (٢) صحيح البخارى ج ٣/ ٣٠ ، وتزفر : تحمل

قال : لا . فانطلق حتى أتى منزله فقال لامرأته أم كلثوم بنت على : هل لك فى أجرٍ ساقه الله إليك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : امرأة غريبة تمخض ليس عندها أحد . قالت : نعم إن شئت . قال : نخذى ما يصلح المرأة لولادتها من الخِرق والدُّهْن وجيئيني ببُرْمة [1] وشَحْم وحبوب . فجاءت به فقال : انطلق . وحمل البرمة ومشت خلفه حتى انتهى إلى البيت فقال لها : ادخلى إلى المرأة وجاء حتى قعد إلى الرجل فقال له : أوقد لى نارا . ففعل فأوقد تحت البُرْمة حتى أنضجها وولدت المرأة ، فقالت امرأته : يا أميرِ المؤمنين بشِّر صاحبك بغلام . فلما سمع الرجل بأمير المؤمنين هابَه فجعل يتنحّى عنه ، فقال : مكانَك كما أنت . فحمل البرمة عمر رضى الله عنـه فوضعها على الباب ثم قال أشبعيها . ففعلت ثم أخرجت البرمة فوضعتها على الباب فقام عمر فأخذها فوضعها بين يدى الرجل فقال : كل ويحك فإنك قد سَهِرْت من الليل . ففعل ثم قال لامرأته اخرجى . وقال الرجل إذا كان غد فائتنا نأمر لك بما يصلحك . ففعل الرجل فأجازه وأعطاه .

وكان يقول : لومات جَدْى بطَفّ [2] الفُرَات لخشيتُ أن يحاسِب الله به عُمر .

وكان فى وجهه خطان أسودان مثل الشِّرَاك من البكاء . وكان يمرّ بالآية من وِرْده بالليل فيبكى حتى يسقط ويبقَى فى البيت حتى يُعاد للمرض . وكان يصوم الدهر .

قالت عائشة رضى الله عنها : إذا شئتم أن يَطيب المجلس فعليكم بذكر عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

كلُّ يومٍ مَجْد ونخرٌ يشادُ ... وطريفٌ من المنَى وتِلَادُ [3]
وكرامٌ من المساعى حِسَانٌ ... عجزتْ عن طِلَابها الحُسَّادُ
هِمَمٌ دونَها الكواكبُ تتلو ... عَزَماتٍ للنار فيهـا اتقادُ
كلّما قيل قد دجَى ليلُ خَطْب ... فلرأى الفاروق فيـه زِنَادُ

---

(١) البرمـة : قدر من حجارة . (٢) الطف : الشاطىء . (٣) الطريف : الجديد . التلاد : القديم

مُغرَم بالمكارم الغرّ لمّـا ضَ أبكارَها إليه الولادُ
ساهرُ العـين بالعزائم يقظا ن وقد قيّد العيونَ الرقادُ
قد كفتْهُ المناقبُ المدحَ إلّا مَدْحُنا من صفاته يستفادُ

ما زال الإسلام قريرَ العين ما دام مفتوح العين . كان يقول : والله لئن بقيتُ ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظُّه من هذا المال وهو يرعى مكانه .

وقبَض المَحْلَ بِبَسْط راحه أعدى الجهامَ جودُها فهتّنا[1]
أوصافهُ تُمْلِي على مُدَّاحه ما سطَّر المجـدُ له ودَوَّنَا
إذا رَواها الدهرُ فى أبيـاته طرّبَ إعجاباً بهـا ولَحّنا
وإنْ بهـا وَرْقاء ليل غرّدَتْ مدَّ إليها كلُّ غُصْن فَنَنَا

***

كان عمر بعد أعماله الجميلة يقول عند موته : الويل لعمر إن لم يغفر الله له !

وفى الصحيحين أنه لما توفى قال علىّ عليه السلام : ما خلّفت أحدا أحبّ إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك يا عمر .

الكلام على قوله تعالى

﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾

كانت أقدامهم فى الدُّجَى قائمة ، وعيونهم ساهرة لا نائمة ، وقلوبهم على الطاعات عازمة [2] ، وهذه أفعال النفوس الحازمة ، فوجبت لهم نجاة قطعيّة جازمة « وجوهٌ يومئذ ناعمة » .

وجوه طال ما غسلتْها الدموع ، ووجوه طال ما أذلها الخشوع ، ووجوه أظهر عليها للاصفرار الجوع ، خاطرت فى المهالك فأصبحت سالمة « وجوه يومئذ ناعمة » .

---

(١) المحل : الجدب . والجهام : السحاب الذى لا ماء فيه . وهتنا : انصب ماؤه . (٢) ت : على الطاعة كل ساعة عازمة .

وجوه أَذْعنت إذ عنَتْ ولَذَّت ، وجوه أَلِفت السجودَ فما ملَّت ، وجوه توجهت إلينا وعن غيرنا تولَّت ، زالت عنها فترة الهَجْر وتجلَّت ، لحلت غانمة .

سهرهم إلى الصَّباح قد أثَّر فى الوجوه الصِّبَاح ، واقتناعهم بالخبز القِفَار والماء القَراح ، قد عمل فى الأجسام والأشباح ، وخَوْفهم من اجتراح الجناح قد صيَّرهم كمقصوص الجناح ، وعلى الحقيقة فـكل الأرواح من الخوف هائمة .

تجرى دموعهم فى الخدود كالمياه فى الأُخدود ، وتعمل نار الحذَر فى الكبود فيتمنون عدمَ الوجود ، فهم بين الركوع والسجود ونَصْب الأقدام القائمة .

يتفكرون فى السابقة ، ويحذرون من اللاحقة وكأنهم يتقون صاعقة ، أوكأنَّ السيوف على أعناقهم بارقة ، ياشدة قلقهم من الخاتمة « وجُوهٌ يومئذٍ ناعمةٌ » .

قال المفسرون : معنى قوله تعالى : « ناعمة » أى فى نعمة وكرامة « لِسَعْيِها فى الدنيا « راضِية » المعنى أنها رضيت ثوابَ عملها « فى جَنَّةٍ عالِيةٍ » المنازل « لاتَسْمع فيها لاغِيَة » أى كلمة لغو .

***

قوله تعالى : « فيها عَيْنٌ جارِيَة » .

طالما أطالوا البكاء فى الليل ، تجرى دموعهم جرْىَ السيل ، وتستبق فى صحراء الخدود كالخيل ، وإنما يُـكالُ للعبد على قَدْر الـكيل ، فإذا دخلوا الجنة فلـكل (١) عين جارية « فيها عينٌ جارِيَة » .

جنَّ الليلُ وهم قِيَام ، وجاء النهار وهم صِيَام ، وتورَّعوا قبل الكلام ، وسلَّموا على الدنيا لدار السلام ، فالبطون جائعة والأجساد عارية .

إتَّزروا بمئزر القنوع ، وارتَدَوْا برداء الخشوع ، واستلذوا بشراب الدموع ، ولولا صَحْو السهر والجوع مابان عند الجبل هلالُ « ياساريه » .

***

(١) ت : فـكل .

قوله تعالى : « فيها سُررٌ مَرْفُوعة » قال ابن عباس : ألواحها من ذهب مُكَلَّلة بالزَّبرجد والياقوت ، مرتفعة مالم يجيء أهلُها ، فإذا أراد صاحبها أن يجلس عليها تواضعت له حتى يَجلس عليها ثم تُرفع .

وفى حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « وفُرشٌ مَرْفوعة » قال : « والذى نفسى بيده إن ارتفاعها كما بين السماء والأرض » .

قوله تعالى : « وأكواب موضوعة » وهى الأباريق التى لا عُرَى لها ، موضوعة عندهم وإنما كانت بلا عُرّى لأن العُرْوة تردّ الشاربَ من جهتها وإنما تراد العُرْوة ليُمسَك بها الإناء .وقد قال أبو أمامة : إن الرجل لَيشتهى الشراب فيجىء الإناء فيقع فى يده فيشرب ثم يعود مكانه . ثم هناك أباريق بعُرَى فقد جمع الشيئان لهم .

قوله تعالى « ونَمَارِقُ مَصْفُوفة » وهى الوسائد واحدها نُمْرُقة بضم النون والراء ونِمْرِقة بكسرها . « مَصْفُوفة » بعضها إلى جنب بعض « وزَرَابِىّ » وهى الطَّنافس لها خَمل رقيق « مَبْثُوثة » كثيرة متفرقة .

يا غافلا عن هذه الدار ، ياراضيا عن الصّفا بالأكدار ، البدار البدار، سابق وقوع الموت قبل فوت الاقتدار ، ويحك أماترى سَلْب الجار ، أمَا يَشُوقك مدح الأبرار، أماتخاف الشّيْن أما تحذر العار ، إلى كم هذا الجهل والنفَّار ، ما هذا التقاعد والمُحِقّ [1] قد سار ، إن طوفان الهلاك قد دار حول الدار ، وإن خيرات الأسحار إذا رآها الطرف حار ، يا سكران الهوى قد قتل الخمار ، يابصيراً هو أعمى « فإنها لا تَعْمَى الأبصار » .

روى ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن أدْنى أهلِ الجنة منزلةً لمن ينظرفى ملكه ألفى سنة ، وإنّ أفضلهم لمن ينظر فى وجه الله عز وجل كلَّ يوم مرتين » .

(١) كذا بالأصل .

قال المفسرون : لمانعت الله عز وجل الجنة وما فيها عجب الكفار من ذلك فذكّرهم صنعته وقدرته فقال : « أفلَا يَنظُرون إلى الإبل كيفَ خلِقت » وقال قتادة : ذكَر الله عز وجل ارتفاع سُرر الجنة وفرشها فقالوا : كيف يُصعد إليها ؟ فنزلت هذه الآية .

قال العلماء إنما خص الإبل بالذكر لأن العرب لم يروا بهيمة قط أعظم منها ، ولم يشاهد الفيل منهم إلا الشاذُّ ، ولأنها كانت أنفَس أموالهم و أكثرها لا تفارقهم ، فيلاحظون فيها العِبَر الدالة على قُدرة الخالق من عجائب خَلقها ، وهى على عِظَمها مُذَلّلة للحِمْل الثقيل ، وتنقاد للصبى الصغير ، وليس فى ذوات الأربع ما يحمل وِقرَه وهو بارِك فيطيق النهوض به سواها .

***

يا مقيماً قد حان سَفره ، يا من عساكر الموتى تنتظره ، سيَمْزل الصحةَ السَّقَم ، وسيغلب الوجودَ العدم ، الساعات مراحل والموت ساحل ، البدار قبل فواته ، اجمع الزاد قبل شتاته :

إذا كنتُ أعلَم علماً يقيناً ... بأن جميع حياتى كساعَهْ
فلم لا أكون ضَنيناً[1] بها ... وأجعلها فى صلاحٍ وطاعَهْ

كم أخلَى الموت داراً ، كم ترك المعمورَ قِفَارا ، كم أوقد من الأسف نارا ، كم أذاق الغصص المُرّة مِرارا ، لقد جال يمينا ويسارا ، فما حابى فقرا[2] ولا يَسارا . أين الجيش العرَمْرَم ، أين الكبير المعظّم . إن الزمان يَقْدَح فى يَلْمَلَم ، ألحقَ أخيرا بمن تقدّم وبنى يسيرا ثم هدم ، بَيْنا يرى بحر الأمل لمن تيمم أتاه فرآه سرابا فتيمّم .

أين الذين على عَهْد الثرى وَطِئوا ... وحكّموا فى لذيذ العيش فاحتكموا
وملكوا الأرضَ من سهل إلى جبل ... وخُوِّلوا نِعماً ما مثلها نِعَمُ
لم يَبْق منهمْ على ضنّ القلوب بهم ... إلا رسومُ قُبورٍ حَشْوها رِمَمُ

---

(١) الأصل : ظنينا .
(٢) ت : فقيرا .

ساروا إلى دار الجزاء على الأعمال ، رحل القوم فاسأل الأطلال ، وإنما كانت ففنيت آجال ، لا يجيبون داعياً ، القومُ فى اشتغال ، غالَهم من البِلَى أقبح ما غال ، آلت أموالهُم إلى أكفٍّ الآل ، بضَع الأهل بضائعهم وقفلها إلى الأقفال ، وتلذذوا بكدّ غيرهم فسَلْ سالباً عن شَلْشَال [1] ، هذا مصيركم عن قريب ما يمر على البال « وتبيَّن لكم كيف فعلْنا بهم وضَرْبنا لكم الأمثال » .

ومُسْنِدون [2] تعاقَرُوا كأسَ الردَى ودعاَ بشُرْبهم الحِمَامُ فأسرعُوا
برَكَ الزمانُ عليهم بجِرَانِه [3] وهفَتْ بهم ريحُ الخطوب الزَّعْزَعُ
خُرسٌ إذا ناديتَ إلا أنهم وَعَظوا بما يَزَع اللبيبَ فأسمعُوا
والدهر يَفتك بالنفوس حِمَامُه فلمن نُعدّ كريمة أو نجمعُ
عجباً لمن يُبْقى ذخائرَ مالِه ويظل يَحْفَظهن وهو مضيِّعُ
ولغافلٍ ويَرى بكل ثنيّة مُلْقى له بطنُ الصفائح مَضْجَعُ
أتراه يحسب أنهم ما أسأَروا [4] من كأسه أضعافَ ما يتجرَّعُ

***

كأنكم بالأمور الفظيعة قد حلَّت ، وبالدنيا التى تولَّت قد تولت ، وبالنفس العزيزة عند الموت قد ذلت ، ويحاً كم أخطأت وكم قد زلّت ، متى يقال لهذه الغمْرة التى قد جلَّت [5] قد تجلَّتْ ، عجباً لنفس كلما عقدنا نفعها حلّت .

أوجزَ الدهرُ فى العِظاتِ إلى أن جعلَ الصَّمْتَ غايةَ الإيجازِ
مَنْطقٌ [6] ليس بالنَّثِير ولا الشِّعْـ ـرِ ولا فى طرائق الرُّجَّازِ
وعدتْنا الأيامُ كلَّ عجيبٍ وتكونُ الوعودُ بالإنجازِ
والليالى هَوازِئٌ راجعاتٌ فى أبِى جادِها وفى هَوَّازِ

---

(١) الشلشال : التفريق والنثر . (٢) مسندون : مصعدون فى الجبال . (٣) الجران : الصدر .
(٤) أسأروا : أبقوا . (٥) جلت : عظمت . (٦) الأصل : منطلقا . محرفة .

أوعزَ الدهرُ بالفناء إلى الناس فواهاً لذلك الإيعازِ
أعرِضوا عن مدائح وتهانٍ فالمراثِى أولى بكم والتعازِى

أحضروا قلوبكم للنصح والتواصى ، واحذروا يوم الأخذبالنواصى ، تذكّروا جمع الدانى والقاصى ، أسمعت يا من يروح فى المعاصى و يُبْكر « فذكِّر إنما أنت مذكر » .

واعجبا كيف نحدِّث السَّكْرى وقدملأتهم الغفلة، سكرى مايعقلون إلا بطارقِ النُّكْرا، وكم تُلى عليهم الوعظُ ذكرى ، هيهات إنما تنفع الذكرى المتذكر .

أيها النصيح أترى المنصوح أصم ، بيِّن له قُبْح ما قد جَمع وضَمّ ، فإن أفعاله جميعها توجب الذم ، ومتى رأيت النسيان للعواقب قد عم ، يا من يرى هواه الحاضر وينسى مولاه الناظر ، ولا ناصر له إلا الأخير ناصرٍ، علينا أن نقول تثبَّت وفكر ، كأنك بمذل القوىّ ومفقر الغنىّ وموقِظ الغبى وقاصم الفتى الفَتِىّ وما يأتى فى زى متنكر .

كم أجرَى الموتُ دمعاً وابلا ورَذاذا ، كم قطع البلاء صحيحا فجعله جُذَاذا ، كم من متجبّر أذله فلم يجد منه مَعاذا ، أتعرف صحة هذا أم تنكر .

كم موعوظ زُجِر فارعوَى، كم فاسدٍ وبخ فاستوى، كم مستقيم بالوعظ بعد ما التوى ، عادوا إلى الزلل بموافقة الهوى ، والمحنةُ أن الهوى يعكّر « فذكِّر إنما أنت مذكِّر » .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

المجلس الثلاثون
فى فضائل عثمان بن عفان

الحمد لله الذى لم يزَلْ قديماً دائما ، وخبيرا بالأسرار عالما ، قرَّب من شاء فجعله صائما قائما ، وطرد من شاء فصار فى بَيْداء الضلال هائما ، يفعل ما يريد وإن يأبَى العبد راغما ، ويقبل توبة التائب إذا أمسى نادما ، أحمده حمداً من التقصير سالما ، وأصلى على رسوله محمد الذى سافر إلى قاب قَوْسين ثم عاد غانماً ، وعلى صاحبه أبى بكر الذى لم يزَل رفيقا ملائما ، وعلى عمر الذى يعبد ربه مُسِرا كاتما ، وعلى عثمان الذى قُتل مظلوما ولم يكن ظالما ، وفيه أنزل : « أمَّن هو قانتٌ آناء الليلِ ساجداً وقائما [(١)] » وعلى علىّ الذى كان فى العلوم بَحْرا وفى الحروب صارما ، وعلى عمه العباس الذى لم يزل حولَ نصرته حائما .

اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد واجعل ذكر الآخرة لقلوبنا ملازما ، ووفِّقنا للتوبة توفيقا جازما ، وذكِّرنا رحيلنا قبل أن نرى الموت هاجما ، واقبل صالحنا واغفر لمن كان آثما .

***

أخبرنا هبة الله بن أحمد الحريرى ، أخبرنا أبو طالب العُشَارى ، أنبأنا ابن سمعون ، حدثنا محمد بن يونس المطرّز ، حدثنا يعقوب بن إسحاق المكتّب ، حدثنا يحيى بن سليمان المحاربى ، حدثنا مِسْعَر بن كُدَام ، عن عطية ، عن ابن سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال: رأيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من أول الليل رافعاً يديه يدعو لعثمان بن عفان . يقول : اللهم عثمان رضيتُ عنه فارض عنه . إلى أن طلع الفجر .

اعلم أن عثمان رضى الله عنه ممن تقدم إسلامه قبل أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأَرْقم ، فلما أسلم أخذه عمُّه الحكَم بن أبى العاص فأوثقه رباطاً فلما رأى صلابته فى دينه تركه . وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين، ومعه فيها رُقيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) سورة الزمر ٩.

حدثنا هبــة الله بن محمــد ، أنبأنا الحسن بن على ، أخبرنا أحمــد بن جعفر ، أخبرنا عبــد الله بن أحمــد ، حدثنى أبى ، حدثنا الحجاج ، حدثنا ليث ، حدثنى عقيل ، عن ابن شهاب ، عن يحيى بن سعيد بن العاص ، أن سعيد بن العاص أخبره أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وعثمان حدثاه أن أبا بكر استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع على فراشه لابس مِرْط عائشة ، فأذِن لأبى بكر وهو على حاله ، فقضى إليه حاجته ثم انصرف . قال : وكذا عمر . قال عثمان : ثم استأذنتُ عليه فجلس وقال لعائشة اجمعىِ عليك ثيابك . قال: فقضيت إليه حاجتى ثم انصرفت، فقالت عائشة : يا رسول الله مالى لا أراك فزعت لا لأبى بكر ولا لعمر كما فزعت لعثمان ؟ قال : إن عثمان رجل حَيِيّ وإنى خشيت إن أذنت له على تلك الحالة أن لا يبلغ إلىّ فى حاجته .

قال الليث : وقال جماعة من الناس : إن رسول الله صلى الله عليــه وسلم قال : « ألا نستحى ممن تستحى منه الملائــكة » ؟

قال أحمد : وحدثنا أبو قَطن ، حدثنا يونس ، يعنى بن أبى إسحاق ، عن أبيــه ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، قال : أشرف عثمان من القصر وهو محصور فقال : أنشد بالله من شهد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يوم حراء إذ اهتز الجبل فوكزه برجله ثم قال: اسكن حِرَاء ليس عليك إلا نبي أو صِدِّيق أو شهيد وأنا معه ؟ فانتشَد له رجال . فقال: أَنْشُد بالله من شهد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يومَ بيعة الرضوان إذ بعثنى إلى المشركين أهلِ مكةَ قال : هذه يدى وهذه يد عثمان . فبايَع لى ؟ فانتشد له رجال . ثم قال : أنشد بالله من شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قال: «من يوسِّع لنا بهذا البيت فى المسجد ببيت له فى الجنة» ؟ فابتعتُه من مالى فوسَّعت به المسجد ؟ فانتشد له رجال . قال : وأنشد بالله من شهد رسولَ الله صلى الله عليــه وسلم يوم جيش العُسْرة قال : من ينفق اليوم نفقــة متقبَّلة ؟ فجهزت نصف الجيش من مالى ؟ قال : فانتشد له رجالٌ . قال : وأنشد بالله من شهد بئر رُومَة يباع ماؤها لابن السبيل فابتعتها من مالى وأبحتها ابنَ السبيل ؟ فانتشد له رجال .

وقال عبد الرحمن بن سمرة : جاء عثمان بألف دينار فى ثوبه حين جهز النبىُّ صلى الله عليه وسلم جيشَ العُسْرة فصبّها فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم فجعل يقلبها ويقول ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد هذا .

وقال عبد الرحمن بن خَبّاب : شهدت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حثَّ على جيش العسرة فقام عثمان فقال : يارسول الله علىَّ مائة بعير بأَحْلاسها وأَقْتابها فى سبيل الله . ثم حثَّ على الجيش فقام عثمان فقال : يارسول الله علىّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله . قال : ثم حضّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجيش فقام عثمان فقال : يارسول الله علىّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله . قال عبد الرحمن فأنا رأيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وهو يقول : ماعلى عثمان ماعمل بعدَ اليوم .

وروت عائشة رضى الله عنها قالت : كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ياعائشة لو كان عندنا من يحدّثنا ؟ فقلت : ألا أبعث إلى أبى بكر ؟ فسكت ثم قال : لو كان عندنا من يحدثنا فقلت : ألا أبعث إلى عمر ؟ فسكت ثم دعا وَصِيفاً بين يديه فسارّه فذهب قالت : فإذا عثمان يستأذن فأذِن له فدخل . فناجاه النبى صلى الله عليه وسلم طويلا ثم قال : ياعثمان إن الله عز وجل مقمِّصك بقميص ، فإن أراد المنافقون على أن تخلعه فلا تخلعه لهم ولا كرامة . يقولها له مرتين أو ثلاثا .

وقال مُطرف : لقيتُ عليًّا فقال لى : ياأبا عبد الله ما أبطأ بك عنا ؟ أحُبّ عثمان ؟ أمَا إن قلت ذلك لقد كان أوصَلنا للرَّحِم وأتقانا للرب تعالى .

وقال الحسن : رأيت عثمان بن عفان يَقِيل فى المسجد وهو يومئذ خليفة ويقوم وأثر الحصى بجنبه فنقول : هذا أمير المؤمنين هذا أمير المؤمنين .

قال شُرَحْبيل بن مسلم : كان عثمان يطعم الناس طعام الإمارة ويَدْخل بيته فيأ كل الخلّ والزيت .

وقال ابن سيرين قالت امرأة عثمان حين أطافوا به يريدون قتله : إنْ تقتلوه أو تتركوه فإنه كان يحيي الليل في ركعة يَجْمع فيها القرآن !

وقال ابن عمر : جاء عليٌّ إلى عثمان يوم الدار وقد أغلق الباب ومعه الحسن بن علي وعليه سلاحه فقال للحسن : ادخل إلى أمير المؤمنين وأقرئه السلام وقل له : إنما جئت لنُصْرتك فمُرْني بأمرك . فدخل الحسن ثم خرج فقال لأبيه : إنّ أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول لك : لا حاجة لي في قتال وإهراق الدماء . قال : فنزع عليّ عمامةً سوداء فرمى بها بين يدي الباب وجعل ينادي : « ذلك ليَعْلَمَ أنّي لم أخُنْه بالغَيْب وأنّ الله لا يَهْدِي كَيْدَ الخائنين(١) » .

وكان عليّ رضي الله عنه يقول : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله عز وجل [فيهم] « ونزَعْنا ما في صُدورهم من غِلّ(٢) » .

رأى الرسولَ في منامه ليلة قَتْله وهو يقول : أفْطِرْ عندنا الليلة . فأصبحَ صائما ، فلما دخلوا عليه ضربه رجل بالسيف فقطع يده فقال : أمَا والله لأوّل كفٍّ خطَّت المُفَصّل(٣) .

***

شفَت العَبْرة بالنطق شفتْ ... وأكفُّ الزَّجْر بالوعظِ كَفَتْ
قد رأينا في الدُّنَا(٤) من عاهدت ... ورأينا غدرها إذ ما وفتْ
إنْ صفَتْ عادت بتَكْدير الذي ... قد صفَا يا وَيْحها ما أنصفَتْ
حلفت أن تُخْلف الماضي وما ... أخلفت إلا بأن قد أخْلفتْ
وقفتْ لهْوَ النفوسِ ساعةً ... ثم غالَتْ وقفَتْ فيما قفَتْ(٥)
ما عَجِبْنا من مِكَرٍ مَكْرِها ... بل عجِبْنا من نفوسٍ عرَفَتْ

إخواني : قد أعذرتْ إليكم الأيام بمن سُلب من الأنام ، وأيقظت الخطوب

---

(١) سورة يوسف ٥٢ . (٢) سورة الحجر ٤٧ . (٣) أي : أنه أول من كتب القرآن لرسول الله صلى الله عليه وسلم . (٤) الأصل : في الدنيا . (٥) قفت : أعطت . وغالت : أهلكت .

من غفَل ونام ، وما على المنـذِر قبل الأخذ ملام ، أمَا علمتم أن هذه الدنيا غدّارة ، أمَا بَرْد لذّتها ينقلب حرارة ، أمَا رِبحها على التحقيق خسارة ، أمَا يَنْقص الدِّينُ كلما ازدادت عِمَارة ، لا تغرنـكم فـكم قد غرت سَيَّارة ، أما قتلتْ أحبابها وإليك الإشارة ، إذا قال حبيبها : إنها لى ومعى . قتلتْه وقالت اسمعى يا جارة ، بَيْنا نورها قد لاح وسَنح ومحبّها فى بحرها قد سبحَ ، يسعى فى جمعها على أقدام المرَح ، كلما جاء باباً من أبوابهـا فُتح ، وكلما عانَى أمراً من أمورها صَلح ، وكلما لاحت له رياض غياضها مَرح، فبَيْنا هو فى لذاته يُدير القدَح ،قُدح زناد الغمّ فى حراق الفرح، فمن يستدرك ما فات ومن يداوى ما جَرح، ما نفعه أن نزح الجفنُ دمعَه إذا نزح .

لو رأيته وقتَ التلف شاخصا ، وفى سكرات الأسف غائصا ، وقد عاد ظل الأمل قالصا ، ولون السرور حائلا ناقصا ، ولاح صائد المَنُون لطريدته قانصا ، يتمنى وقد فات الوقت ، وينظر إلى نفسه بعين المقت ، ويصيح إلى نَصيحه : قد صدقت ، أمّل نخـانه الأمل ، وندم على الزاد لمّا رحل ، فلو حمِّل جَبَلا ما حمل .

تمنّتْ أحاليبَ[1] الرِّعَاء وخَيْمةً بنَجْدٍ فلم يُقْدَر لهـــا ما تمنَّتِ
إذا ذكَرَتْ نجــــداً وطِيب ترابه وبَرْدَ حصاه آخر الليل حنَّتِ

***

رُبَّ يوم ٍ معدود ليس فى العَدد ، رحل الإخوان ومرُّوا على جَدَد[2] ، هذه ديارهم سَلُوها ما بقِى أحد ، مضت والله والخيل بفرسانها ، وتهدمت الحصون على سُـكّانها ، وخلَتْ ديار القوم من قُطّانها ، فجُزْ عليها واعتبر بشأنها .

يا خليليَّ أسْعِدانى على الوجـ ـدِ فقد يُسْعد الحميمَ الحميمُ
وقِفَابِى على الديار فعندِى مُقْعِد من سؤالهـــا ومُقِيمُ

---

(١) الأحاليب : جمع إحلاب وإحلابة . قال فى اللسان : « والإحلابة : أن تحلب لأهلك وأنت فى المرعى لبنا ثم تبعث به إليهم ، وقد أحلبهم، واسم اللبن الإحلابة أيضا .. يقال قد جاء بإحلابين وثلاثة أحاليب » وهذا خاص بالإبل . اللسان ١/ ٣٢٠ . وفى الأصل: أخاليب . محرفة . (٢) الجدد : الطريق المستوى.

تنبه لنفسك أيها المظلوم ، تيقظ من رقداتك فإلى كم نوم ، حصِّل شيئا تُرضى به الخصوم ، قتلَك همُّ الدنيا فبئس الهموم ، أتلعب بالأبتر [١] ولم تشرب دِرْياقَ السُّموم ، قد بقي القليل فبادر تحصيل المَرْوم ، هذا هاجِم الموت قد تهيَّأ للهجوم .

يا فتىً الهمُّ مع كِبَره   وقليل الحظ من عُمرهْ
كن مع الدنيا على حذَر   فأمانُ المرء فى حذَرِهْ
واتخـــــذ زاداً لمنتظَرٍ   شأنُه إزعاجُ منتظِرهْ .

أتجتلى من الهوى كلَّ يوم عروسا ، وتدير فى مجالس الغفلة كؤوسا ، وتملأ بالأموال كيساً كَيِساً ، وتنسى يوماً شديداً عَبُوسا ، كم تَلْقى فيه هولًا وكم ترى بُوسا تخشع فيه الأبصار وقد كانت شُوسا [٢] وينزعج لزلازله [٣] إبراهيم وموسى ، والخلائق للفزع قد نكَسوا رءوسا ، وجاءوا عُراةً لا يملكون مَلْبوساً ، وصار كل لسان منطلقٍ محبوسا ، يا من تصير غدا فى التراب مرموسا ، يا من لا يجد فى لحده غير عمله أنيساً ، يا من سيعود عُوده بعد التثنّى يَبيساً ، يا مؤثرا رَذِيلًا ومضيعا نفيسا ، من لك إذا أوقد الموت فى الدار وَطِيسا ، وأخْلَى رَبْعاً قد كان يجمعك مأنوسا ، فالبِدَار البدار لقد رحّل لك عِيساً ، وتب فالتوبة تطرد الشيطان وما يَلْبث الدَّجال مع عيسى .

أفقْ وابك حانتْ كَبْرةٌ ومَشِيبُ   أمَا للتُّقَى والحقِّ فيك نصيبُ
أيا من له فى باطن الأرضِ [٤] مَنزِلٌ   أتأنس بالدنيـــا وأنت غريبُ
وما الدهرُ إلا مرُّ يومٍ وليــــلة   وما الموتُ إلا نازلٌ وقريب

(١) الأبتر : حية خبيثة .   (٢) الشوس : جمع شوساء ، وهى التى تنظر بمؤخر العين كبراً .
(٣) ت : لهوله .   (٤) ب : فى باطن الأمر .

الكلام على قوله تعالى

والله يدعو إلى دار السَّلَام (١)

دار السلام هى الجنة وفى تسميتها بذلك أربعة أقوال : أحدها : أن السَّلام هو الله ، وهى داره قاله ابن عباس والحسن وقَتادة والثانى : أنها دار السلامة التى لا تنقطع . قاله الزّجاج . والثالث : أن تحية أهلها فيها السلام . ذكره أبو سليمان الدّمشقى . والرابع: أن جميع حالاتها مقرونة بالسلام ، ففى ابتداء دخولهم : « ادخلوها بسلام »(٢) وحين استقرارهم : « والملائكةُ يَدْخُلون عليهم من كل باب سلامٌ »(٣) وكذلك قوله . « إلا قيلاً سلاماً سلاما »(٤) . وعندئذ رؤية ربهم عز وجل : « تحيتُهم يوْمَ يلقونه سلام »(٥) .

***

عزت الدار وجلّ المرَام ، ونال ساكنُها فوق المرام ، فيامشغولا عنها بأضغاث أحلام ، وصل كتابُ الملِك العلاَّم « والله يَدْعو إلى دار السلام »

دار الإعزاز والإكرام ، بُنيت لقوم كرام ، لا غُرْم فيها ولا غَرام ، ما يسكنها من يُضام ، ثمنها يامشترى بيّن: صلاةٌ وصيام ، نعيمها فى دوام لذاتها فى تمام ، والحور فى القصور والخيام ، شهواتها لم تخْطر على الأوهام ، انتبهوا لطلبها يانيام ، قد جمعت كلّ مشتهَى وزادت على كل الغرض المنتهَى ، عجباً لمن غفل عنها وسها ، انهض لها ياغلام « والله يَدْعو إلى دار السَّلام » .

أما آن ياصاح أن تَسْتفيقـــاَ   وأن تأتينّ الحمَى والعَقِيقـــاَ
وقد ضَحِكَ الشَّيْبُ فاحزنْ له   وصار مســاؤك فيه شُروقاَ
وركبٍ أتاهم وقـــد عرّسوا   على القاع راعِى المنايَا طُروقاَ

(١) سورة يونس ٢٥ . (٢) سورة الحجر ٤٦ . (٣) سورة الرعد ٢٣ ، ٢٤ .
(٤) سورة الواقعة ٢٦ . (٥) سورة الأحزاب ٤٤ .

يُدير عليهم كؤوس المنون صَبُوحا على كرهها أو غَبُوقَا[1]
وما زال فيهم غُراب الحِمَام يُسْمعهم للمنــايا نَعِيقــاَ
ويَحْجِل فى عَرَصات القصور حتى أعادَ الفَسِيحاء ضِيقاَ
ألا فازجر النفسَ عن غَيِّها تجُوز إلىَ الصراطَ الدقيــقاَ
ودُونَ الصراط لنــا موقفٌ به يتناسى الصديقُ الصديقاَ
فتُبْصِر ماشيت كفًا يُعضُّ وعينا تسحُّ وقلبــاً خَفوقاَ
إذا طَبَّقتْ فوقَهم لم تسكن لِتَسمع إلا البُكاَ والشهيقاَ
شرابُهـــم المُهْل فى قَعْرها يقطِّع أوصالهمْ والعُروقاَ
أذلك خيرٌ أم القــاصراتُ تخال مبَاسمهن الــبُروقاَ
قُصِرنَ على حُبِّ أزواجهن مشتـــاقةً تتلقى مَشُوقاَ
ويَرْفلن فى سرقات[2] الحرير فتبْصر عيناك أمراً أَنِيقــاَ
وأكوابهم ذهبٌ أحمــرٌ يطاف بها مُترعاتٍ رَحِيقــاَ
إذا جَرتِ الريح فوق الكَثِيب أثارتْ على القوم مِسْكاً سَحِيقاَ
ويوم زيارتهم يركبون إليــه من النور نُجُبا ونُوقاَ
كلوا واشربوا فلقد طالمــا أقمتم بدار الغرور الحقوقاَ

***

أخبرنا ابن الُحصيْن ، أنبأنا ابن المُذْهِب ، أخبرنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله ابن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا أبو النضر ، حدثنا زهير ، عن سعد [عن] أبى المُدِلّة أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه يقول : قلنا يارسول الله حدثنا عن الجنة مابناؤها ؟ قال : لَبِنة فضة ولبنة ذهب ، ومِلَاطها المسك الأذْفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا يَبْأس ويخلد لا يموت ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه »[3].

---

(١) الصبوح : الشرب أول النهار . والغبوق : مايشرب بالعشى .

(٢) السرقات : جمع سرقة وهى شقة الحرير . (٣) مسند أحمد حديث ٨٠٣٠ .

وفى حـديث آخر أنه ذكر الجنـة فقـال : « ألا متشمِّر لهـا ؟ هى ورب الـكعبة ريحانة تهتز ونور يتـلألأ ، ونهر مطّرد ، وزوجـة لا تمـوت فى حبـور ونعيم مقـام أبداً » .

***

قوله تعـالى « ويَهْدِى من يشاء » عمَّ بالدعوة وخص بالهـداية إذ الحـكم له فى خَلْقه .

وفى الصراط المستقيم أربعة أقوال : أحدها : كتاب الله . رواه علىّ عن النبى صلى الله عليه وسلم وسلم . والثانى : الإسلام . رواه النوَّاس بن سَمْعان ، عن النبى صلى الله عليه وسلم . والثالث : الحق قاله مجاهد . والرابع : المَخْرج من الضلال والشبهة . قاله أبو العالية .

قوله تعالى : « للذين أَحْسَنوا الحُسْنَى وزيادة » أحسنوا : عملوا بما أُمروا به .

يامن لا يُحْسن أن يُحْسـن اسمع صفة المحسِن :

أقلقهم الخوف والفرَق ، أحرقهم لذكر الموت الأرق ، طعامهم ماحضر من حلال واتفق ، يانورهم فى الدجى إذا دجى الغَسق ، ياحسنهم وجُنْد الدمع محْدِق بسور الحدَق ، انقطع سِلْك المدامع فسالت على نَسَق ، وكتبت على صحائف الخدود المُذْرَ لا فى ورق ، فإن كان المداد سواداً فذا المدادُ يقق[1] ، ياللذة تضرّعهم وياطيب الملَق ، أذاب الخوفُ أجسامهم فمـا أبقى إلا الرَّمَق ، ربحت تجـارتهم ومتاع الغافل مانفق .

وما كل من أوْمَى إلى العزّ ناله ودون العلى ضَرْبٌ يدمِّى النواصيا

***

جرت دموع حُزنهم فى سواقى أسفهم ، إلى رياض صفائهم فأورقت أشجارُ

---

(١) اليقق : الشديد البياض .

وِصَالهم ، ودموعهم تجرى كالدِّيَمَ كلما ذكروا زلة قدم ، يرعون العهد والذِّمم ، يحذرون نارا تعيد الجسم كالحِمم ، يخافون حرَّها ومن له بتَحِلّة القسم[1] ، الليلُ قد سجَى والدمع قد سَجم ، يراوحون بين الجبهة والقدم ، كم بينك وبينهم عند النقد تبين القيم ، تالله ما جعل من نام مثل من لم ينم ، جاءوا من طعام الهوى وآذاك التُّخَم ، ياقبيح العزائم ياسيّئ الهمم ، يامرذول الصفات ياردىء الشِّيم ، كأنك بك تتمنى إذا حُشرتَ العدم ، نثرتْ عَطايا الأسحار فبسَط القوم حجورَ الآمال كاتَبوا بالدموع فجاءهم ألطفُ جواب ، اجتمعت أحزان السر على القلب فأوقدَ حوله الأسف ، وكان الدمع صاحب الخبر فنمّ .

كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كثير البكاء ، فما زال يبكى حتى بكى الدمَ . تَغْريب لونِ المداد يعجب القارئ !

هذا كتابى إليكم فيه مَعْذرتى   يُنْبيكم اليومَ عن سُقْمِى وعن ألمى
أجْلَلْتُ ذِكْرَكمُ عن أن يدنّسه   لونُ المِدَاد فقد سطرَّتُه بدمِى
ولو قدرت على جَفْنى لأجعله   طِرْسِى وأبْرِى عظامى مَوْضع القلم
لكان هذا قليلاً فى محبتكمْ   وما وجدتُ له والله من ألمِ

تالله ما نال الكرامة إلا من قال للكرى : مَهْ . إن أردت لحاقهم فطلق الهوى طلاق البَتاَت ، اخْلُ بنفسك فى بيت الفكر وخاطبها بلسان النصح ، واعزم على الوفاق من غير تردد ، قف على باب الصبر ساعة وقد ركب على قفل العُسْر مفتاح النجاح .

* * *

فأما الحسنى فهى الجنة . والزيادة : النظر إلى الله عز وجل .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا »

أخبرنا أبو القاسم الحريرى ، أنبأنا أبو طالب العُشَارى حدثنا أبو الحسين بن سمعون ، حدثنا محمد بن مَخْلَد ، حدثنا حسين بن بحر ، حدثنا عمرو بن عاصم ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن عبد الرحمن بن أبى لَيْلَى ، عن صُهَيْب رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « للذين أحْسَنوا الحُسْنَى وزيادة » قال : إذا دخل أهلُ الجنة الجنة وأهل النار النار نادى منادٍ : « يا أهل الجنة إن لكم عند الله مَوْعدا يريد أن يُنجزكموه . فيقولون : ما هو ؟ ألم يُثقل موازيننا ويُبيّض وجوهنا ويُجِرْنا من النار ! فيكشَف الحجاب فينظرون إلى الله عز وجل فما شىء أعطوه أحبَّ إليهم من النظر إليه . وهى الزيادة .

انفرد بإخراجه مسلم(١) .

وفى الصحيحين من حديث جَرِير بن عبدالله أنه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم [إذ نظر إلى القمر](٢) ليلة البدر فقال : إنكم سترون ربكم عز وجل كما ترون [هذا(٢)] القمر لا تُضامُّون فى رؤيته(٣) .

أخبرنا الكَرُوخِىّ ، أخبرنا أبو عامر الأزدِىّ وأبو بكر الغُورَجِىّ ، قالا أخبرنا الجرّاحِىّ ، حدثنا المحْبوبى ، حدثنا الترمذى ، حدثنا سُوَيد بن نصر ، أنبأنا ابن المبارك ، أخبرنا مالك بن أنس ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد الخُدْرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة . فيقولون : لَبَّيْك ربنا وسَعْديك . فيقول : هل رَضِيتم ؟ فيقولون : ما لنا لا نرضى وقد أعطيتَنا ما لم تعطِ أحداً من خَلْقك . فيقول : إنى لأعطيكم أفضلَ من ذلك : قالوا : وأىّ شىء أفضل من ذلك ؟ قال : أُحِلّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا .

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم ١٨١ . ط عبد الباقى . (٢) من صحيح البخارى .

(٣) صحيح البخارى ٢٣١/٤ . وصحيح مسلم حديث رقم ١٨٢ ، ١٨٣ باختلاف . ومعنى تضامون : تتزاحمون .

لى إلى وجهك شوقٌ ... وإلى قُرْبك فاقَهْ
ليس لى والله يا سُؤْ ... لى بهجْرانكَ طاقَهْ
لا ولا حَدّثت عن حبك ... قلــبى بإفاقهْ

سجع على قوله تعالى
﴿ للذين أحْسَنوا الُحسْنَى وزِيادة[1] ﴾

سبحان من اختار أقواماً للإفادة ، فصارت نهمتهم فى تحصيل استفادة ، وما زالت بهم الرياضة حتى تركوا المـادة ، شغلتْهم مخاوفهم عن كل عادة ، وأنالَهم المقـامَ الأسنى « للذين أحْسَنُوا الحسْنى وزيادة » .

كلٌ منهم قد هجَـر مُراده ، وشمّـر لتصحيح الإرادة ، علت هممهم فطلبوا الزيادة ، وعاملوا محبوبهم يرجون وِدّاده ، ورفعوا مكتوبَ الحزن وجعلوا الدمع مِدّاده « للذين أحْسَنوا الحسنَى وزيادة » .

رفضوا الدنيـا شغلا بالدّين ، وسـاكوا منهاج المهتدين ، وسابَقوا سباق العابدين ، فصاروا أئمة للمريدين وقادة « للذين أحسنوا الحسنَى وزيادة » .

هجروا فى محبتــه كلّ غرَض ، وأقبلوا على أداء المفترَض ، والتفتوا إلى الجوهر معرضين عن العَرض ، فأنْحَلَهم الخوفُ فصاروا كالحرض ، ياله من مرض لا يقبل عيادة « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » .

لو رأيتَهم والليل قد سجَى ، وقد أقبلوا إلى باب المرتجَى، فلم يجدوا دون ذلك الباب مُرْتجاَ ، حالفوا فى ظلام الدجَى على هجر الوسادة « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » .

سبحان من أنعم عليهم وأفادهم ، وأعطاهم منـاهم وزادهم ، ما ذاك بقوّتهم بل هو أرادهم ، سبقت إرادتَهم تلك الإرادة « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » .

---

(١) سورة يونس ٢٦ .

لطَف بهم وهَداهم ، وأحسن إليهم وراعاهم ، وعطشوا من ميـاه الهوى فسقاهم ، وذلُّوا له النفوس فرقَّاهم إلى مقام السادة « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » .

أجرى لهم أجرا لا يوازَى ، ووهب لهم فى مفازة الخطر مفازًا ، وأنجز مَوْعدهم يوم اللقـــاء إنجـازا ، وجازى عبـاده على سابق العبادة « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » .

المجلس الحادى والثلاثون

فى فضل على بن أبى طالب رضى الله عنه

الحمد لله الذى أصبحت له الوجوه ذليلة عانية، وحَذِرته النفوسُ مُجِدّة ومتوانية، وعَظ فذم الدنيا الحقيرة الفانية، وشوّق إلى جنة قُطوفها دانية، وخوّف عِطَاش الهوى أن يُسْقَوا من عينٍ آنية، أحمده على تقويم شأنيه وأستعينه من شر شانئ وشانية. وأحصِّل بتحقيق التوحيد إيمانيه، وأصلِّى على رسوله محمد صلاةً ممهدة لعزة بانية، وعلى صاحبه أبى بكر الصِّديق السابق فى الوفاق والاتفاق وفى الدار والقربة فى الغار، أربَعٌ للفخر بانية، وله فضيلة التخلل والتقلُّل والرأفة والخلافة، صارت ثمانية، وعلى عمر مقيم السياسة على كل نفس جانية، وعلى عثمان الذى اختاره الرسولُ بعد ابنته للثانية، وعلى علىٍّ المنزَل فيه « الذين يُنْفقون أموالَهم بالليل والنهار سِرًّا وعلانية[1] » وعلى عمه العباس المستسقَى بشيبته فإذا أسباب الغيث والغَوْث دانية.

***

أخبرنا أبو القاسم الكاتب، أنبأنا أبو على التميمى، أنبأنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنى أبى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعْبة، عن الحكَم، عن مُصْعَب بن سعد، عن سعد بن أبى وقاص، قال: خلَّف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم علىَّ بن أبى طالب فى غزوة تبوك فقال: يا رسول الله تُخلِّفُنى فى النساء والصبيان؟ قال: أمَا ترضى أن تكون منِّى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبىَّ بعدى[2] ؟ ! » .

قال أحمد: وحدثنا قُتَيْبة، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يومَ خيبر لأُعطيَنّ هذه الراية غداً رجلا يفتح الله على يديه يحب اللهَ ورسوله ويحبه اللهُ ورسولُه. قال: فبات الناس

---

(١) سورة البقرة: ٢٧٤. (٢) صحيح البخارى ٣/٧٢ وصحيح مسلم حديث رقم ٢٤٠٤.

يَدُوكون[1] أيهم يُعْطَاها فلما أصبح الناس غدَوْا على رسول الله صلى الله عليه كلهم يرجو أن يُعْطاها ، فقال : أين على بن أبى طالب ؟ فقيل : هو يا رسول الله يشتكى عينيه . قال فأرسلوا إليه . فأُتى به فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عينيه ودعاله ، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال علىّ : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال : « انفذْ على رِسْلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله ، فوالله لانْ يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم[2] » .

قال أحمد : وحدثنا ابن نَضِير ، حدثنا الأعمش ، عن عدىّ بن ثابت ، عن زرّ ابن حُبَيْش قال : قال علىّ : والله إنه لمّا عهد إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه لا يُبْغضنى إلا منافق ولا يحبنى إلا مؤمن[3] .

انفرد مسلم بإخراج هذا الحديث واتفقا على الحديثين قبله .

***

اعلم أن عليًّا رضى الله عنه لا يزاحَم فى قُرب نسَبه وقد أقرّ الكل بعِلْمه وفضله .

وبُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن سبع سنين فتَبِعه ، ولم يزلْ معه يَكْشف الكروب عن وجهه . وصعد على مِنْكب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرمى صنماً .

أخبرنا هبة الله بن محمد ، أنبأنا الحسن بن على ، أخبرنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا أسْباط ، حدثنا نعيم بن حكيم ، عن أبى مريم ، عن على بن أبى طالب قال : انطلقتُ أنا والنبى صلى الله عليه وسلم حتى أتينا الكعبة فقال لى : اجلس . وصعد على منكبي فذهبتُ لِانهض فلم أقدر ، فرأى منى ضعفاً فنزل وجلس

---

(1) يدوكون : يخوضون ويتحدثون .
(2) صحيح البخارى ٢/٢٤٢ وصحيح مسلم حديث رقم ٢٤٠٦
(3) صحيح مسلم حديث رقم ٧٨

إليّ نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم وقال : اصعد على منكبي . فصعدت على منكبه . قال : فنهض بي قال: فإنه يخيّل إليّ أني لو شئت لنلت أُفق السماء ، حتى صعدت على البيت وعليه تمثال صُفْر أو نحاس ، فجعلت أزاوله عن يمينه وشماله وبين يديه ومن خلفه ، حتى إذا استمكنتُ منه قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقذف به . فقذفتُ به فتكسر كما تتكسر القوارير ثم نزلت ، فانطلقتُ أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم نَسْتبق حتى توارَيْنا بالبيوت خشيةَ أن يَلقانا أحدٌ من الناس .

***

وكان الخلق يحتاجون إلى علم عليّ حتى قال عمر رضي الله عنه آه من مُعْضلة ليس لها أبو حسن .

فلما ولّي لم يتغير عن الزهد في الدنيا وكان أحمد بن حنبل يقول : إن عليًّا ما زانَتْه الخلافةُ ولكن هو زانَها .

مازانَه المُلْكُ إذ حَواه ... بل كلُّ شيء به يُزَانُ
جرَى ففات الملوكَ سَبْقاً ... فليس قُدَّامه عِنَانُ
نالتْ يَداه ذُرَى مَعالٍ ... يَعْجِز عن مثلها العِيَانُ

***

أخبرنا محمد بن أبي منصور، أخبرنا جعفر بن أحمد ، أخبرنا الحسن بن علي ، أنبأنا أبو بكر بن مالك ، حدثنا عبدالله بن احمد، حدثني أبي ، حدثنا وهيب بن إسماعيل ، حدثنا محمد بن قيس ، عن علي بن ربيعة ، عن علي بن أبي طالب أنه جاءه ابن النبَّاح فقال : يا أمير المؤمنين امتلأ بيتُ المال من صفراء وبيضاء . قال : الله أكبر . قال : فقام متوكئاً على ابن النبّاح حتى قام على بيت المال فقال :

هذا جنايَ وخياره فيه ... وكل جانٍ يَدُه إلى فيه[1]

(١) الجنى : ما يجنى من الشجر . وهذ المثل لعمرو بن عدى اللخمى ابن أخت جذيمة بن الأبرش ، وهو أول من قاله . وأراد على رضى الله عنه : أنه لم يتلطخ بشيء من فيء المسلمين بل وضعه في مواضعه . اللسان ١٨/١٦٩ .

فأعطى جميعَ ما فى بيت المال المسلمين وهو يقول : يا صفراء يا بيضاء غُرِّى غيرى .
حتى ما بقى فيه دينار ولا درهم ثم أمر بنَضحه وصلى فيه ركعتين .

أخبرنا محمد بن عبد الباقى ، أنبأنا الجوهرى ، أنبأنا ابن حَيُّوية ، حدثنا أحمد ابن معروف، حدثنا الحسين بن الفهم ، حدثنا محمد بن سعد ، أنبأنا الفضل بن دُكَيْن ، حدثنا الُحرّ بن جُرْموز ، عن أبيه ، قال: رأيت عليًّا وعليه قطريّتان[1] إزار إلى نصف الساق ورداء مشمَّر ، ومعه دِرّة له يمشى بها فى الأسواق يأمرهم بتقوى الله وحسن البيع ويقول : أوفوا الكيل والميزان .

أخبرنا أبو بكر بن حبيب الصوفى ، أنبأنا أبو سعيد بن أبى صادق الحِيرىّ ، حدثنا أبو عبد الله بن باكُوية الشيرازى ، حدثنا عبد الله بن فهد بن إبراهيم الساجىّ ، حدثنا محمد بن زكريا ، حدثنا العباس بن بَكّار ، حدثنا عبد الواحد بن أبى عمرو الأسيدى ، عن الكلبى ، عن أبى صالح قال : قال معاوية بن أبى سفيان لِضرَار بن حمزَة : صف لى عليًّا فقال : أو تعفينى . قال : بل تَصِفه . فقال : أو تعفينى . قال : لا أعفيك . فقال : أما أن لا بُدّ فإنه كان بعيدَ المدَى شديد القوَى ، يقول فَصْلا ويَحْكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غَزِير الدّمْعة طويل الفِكْرة ، يقلِّب كفَّه ويخاطب نفسه ، يُعْجبه من اللباس ما خَشُن ومن الطعام ما جَشُب[2] ، كان والله كأحدِنا يجيبنا إذا سألناه ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن والله مع تقريبه لنا وقُرْبه منا لا نكلمه هيبةً [له[3]] ولا نبتديه تعظمة ، فإن تبسَّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظِّم أهلَ الدِّين ويحب المساكين ، لا يَطْمعُ القويُّ فى باطله ولا ييأس الضعيفُ من عَدْله ، فأشهد بالله لَرأيْته فى بعض مواقفه وقد أرخَى الليل سُجوفَه وغارت نجومُه ، وقد مَثُل فى محرابه قابضاً على لحيته يتملْمَل تململ السَّليم ويبكى بكاء الحزين وكأنى أسمعه وهو يقول : يا دنيا

---

(١) القطرية : ثياب خشنة منسوبة إلى قطر : مدينة بالبحرين . (٢) ما جشب : ما غلظ ، أو كان بلا أدم . (٣) من ت .

يا دنيا أبى تعرّضتِ أم بى تشوّقت[1] ؟ هيهات غُرِّى غيرى ، قد بتّتُّك ثلاثا لا رَجْعة لى فيك ، فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير ، آه من قِلّة الزاد وبُعد السفر ووَحْشة الطريق .

قال : فذرَفت دموعُ معاوية فما يَملكها وهو ينشّفها بكُمّه ، وقد اختنق القوم بالبكاء ، ثم قال معاوية : رحم الله أبا الحسن ! كان والله كذلك ، فكيف حُزْنك عليه ياضِرَار ؟ قال: حزن من ذُبح ولدها فى حِجْرها فلا تَرْقأُ عَبْرتها ولا يَسْكن حُزنها[2] .

الكلام على التسمية

أَهْوَى عليًّا وإيمانٌ محبّتُه ... كم مُشْرِك دمُه من سيفه وَكَفا[3]
إن كنت وَيْحك لم تسمع مَنَاقبه ... فاسمع مَناقبه من «هَلْ أَتى[4]» وكَفَى

كان عليه السلام[5] خليقاً بالسيادة ، إن نظرت فى علمه فقد احتاج إليه السادة ، وإن نظرتَ فى زهده فلا فراش ولا وِسادة .

وحَنَّ إليه المُلْك عند ولادِه ... وصافح كفّاه النّدَى وهو فى المهدِ
وأحْكمه التجريبُ كهلًا ويافعا ... يُنقّله من شأو مَجْد إلى مَجْدِ
تنقَّل منه رتبةً بعد رتبةٍ ... كما ازداد طولُ الرُّمْح عقداً على عَقدِ
ولم يرَ إلا الكدَّ راحةَ نفسه ... ونَيْلُ المنى يُنسى الفتى تعبَ الكَدِّ
إذا لاحظَ الغاياتِ عادَتْ فريسةً ... مقيدة من ناظر الأسَد الوَرْدِ[6]

كان يُشْبه القمر الزاهر والبحر الزاخر والأسد الحادِر[7] والربيع الباكر ، أشْبَه من القمر ضوءه وبهاءه ، ومن الغراب حذَره ومن الديك سخاءه ، ومن الأسد شجاعته ومضاءه ، ومن الربيع خِصْبه وماءه .

---

(١) ب : تشوقت . (٢) ت : ولا تسكن حسرتها . (٣) وكف : سال .
(٤) يشير إلى قوله سبحانه « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » سورة الدهر . ويروى أنها نزلت فى علىّ وفاطمة رضى الله عنهما . (٥) ت : كان علىّ رضى الله عنه .
(٦) الورد : من أسماء الأسد . (٧) الحادر : من أسماء الأسد . كالحيدر .

لَالاؤه ومَضــاؤه وغَناؤه فى كل مَشْهَـدْ
فـــتى رأى زَلَلَا أقا لَ وإن رأى خَللًا تغمَّدْ
ويخــافه القوم البرا ء ولا أخافَ ولا تهدَّدْ
لـكنه لَبِس المهــا بةَ فالفرائص منه ترْعَدْ
وإذا ارتأى فـكمن رأى وإذا سها فـكمن تفقدْ
وإذا تأمَّـــل أمره فهو الشهاب إذا توقَّدْ
هـــذا لعَمْرك سُؤدد لـكنه أيضا مؤكَّدْ

***

كان يُظن فى الـكرم بحْرا ويُحسَب لفظُه للحُسْن سِحْرا ، إذا أنشأ فَصْلا رأيته يقول فَصْلا ، وإذا أصل - أَصْلَى (١) ، لم يستطع أحد مثله أصلا ، كان يقول فى صفة نفسه :

إذا المشـكلاتُ تصدَّيْن لى كشفتُ حقائقهـــا بالنَّظَرْ
وإن رَقِيتْ (٢) فى مَحلِّ الصواب عَمْيـــاء لا يجْلِيها البصَرْ
مُقَنَّعة بغيـــوب الأمور وضعتُ عليها صحيح الفِـكَرْ
لسانٌ كشِقْشَقَةِ الأرحبِيِّ أوكلسانِ الحُسَام الذَّكَرْ (٣)

بادرَ الفضائل فـكان فى الأوائل ، وخاض بحر الشجاعة فلم يرض بسَاحِل ، وحاز العلوم لخار لجوابه السائل ، ولازم السهر ليسمع : « هل من سائل » وزهِد فى الدنيا لأنها أيام قلائل .

القائد الخيْلَ تُرْغيها شـكائمها والمطعِم البُزْلَ بالدَّيْمومة القاعِ (٤)

---

(١) أصل : كان لضربه صليل فى الحرب . وأصلى : ضرب ضربا شديدا . (٢) رقيت : صعدت .
(٣) الشقشقة : شىء كالرئة يخرجه البعير من فيــه إذا هاج . والأرحبى : فحل . تنسب إليه النجائب الأرحبيات . (٤) وترغيها : تجعلها ترغى ، أى تصوت . وهو فى الأصل صوت الإبل . والشكائم : لعلها جمع شكاع وهو جمع شكاعة ، وهى شوكة تملأ فم البعير لا ورق لها . والبزل : جمع بازل وهى الناقة التى طلع نابها . والديمومة : الفلاة الواسعة . والقاع : الأرض السهلة المطمئنة .

مابات إلا على همٍّ ولا اغتمضت عينــــاه إلا على عَزْمٍ وإزْماعِ
خَطِيب مَجْمَعةٍ تَغْــلِى شقاشِقُه إذا رمَوْه بأبصارٍ وأسمــاعِ
يذوق بالعين طعمَ النوم مَضْمضةً إذا الجبــان ملا عيناً بتَهْجَاعِ

سبحان من جمع له المناقب والفضائل ، بحر من البراعة ونجم من الشجاعة ثاقب

مجلِّى الـكروبِ ولَيْث الحروب فى الرَّهَج الأَسْطَع الأصْهبِ (١)
وبحر العلوم وغيظ الخصوم متى يَضْطرع وهم يَغْلبِ
يقلِّب فى فمــه مِقْوَلا (٢) كشَقْشَقةِ الجَمــل المُصْعَبِ
وكان أخًا لنبيٍّ الهُدَى وخُصَّ بذاك فلا يُكذَبِ
وفى ليـــلة الغار وَافَى النبيَّ عِشـــاءً إلى الفلَق الأشهبِ
وبات دُوَيْنَه فى الفراش موطِّن نفسٍ على الأصعبِ
وعمرو بن وَدٍّ وأحزابه سقاهُمْ حِساَ الموت فى يَثْربِ
وسَلْ عنه خَيْبَرَ ذاتِ الحصون تخبِّرْك عنه وعن مَرْحَبِ
وسِبْطاه جدُّهما أحمــــد فبَخْ بَخْ (٣) بجـــدِّهما والأبِ

***

كان بَعِير خوفه إذا جَنَّ الليلُ أطّ (٤) ، وموسى ولايته إذا رأى خراج ظُلم بَطّ ، يرمى إلى جوفه لُقَم الشعير لا الدجاج ولا البط ، تزيّنت الدنيا لباسها فمزق لباسها وعَطّ ، كان إذا علا كرب الـكرْب علا عليه وحَطّ ، ما برَى قلمَ رأسٍ من رؤساء الـكفر قَطّ إلا قَطّ (٥) ، رَقْم الجهادِ فى وجهه الـكريم ضرَبه فى الزمان كله وخَطّ ، فيا حُسْنه من مكتوب وياشَرفه من خَطّ ، كان يفتخر بأخوّة الرسول ويحق له ما اشتط .

كريم النَّجــار عفيفُ الإزار حوَى المَـكْرُمات وشادَا الفخارَا

(١) الرهج : الغبار : والأسطع : المنتشر . والأصهب مافيه صهبة وهى الحمرة. (٢) المقول : اللسان.
(٣) بخ بخ : كلمة تقال عند الإعجاب والفخر . (٤) أطت الإبل : أنت تعبا أوحنينا أوروزمة .
(٥) قط : قطع .

أعاد وأبدَى وللفضـــل أسْدَى ولِلقِرْن أرْدَى وللرِّيح بارَى
كريم الصَّنيعة ضَخْم الدَّسِيعـــة سَهْل الشَّريعـــة لم يأتِ[1] عارَا
غـــــنًى للفقير ونِعْم النصير إذا المستجير إليـــه استجارَا
يخوض الغِمـــارَ ويَحْمى الذِّمَار ويَبْنى الفخار ويَرْعى الجـــوارَا

***

طالت عليه أيام الحياة وكان يستبطىء القاتل حبًّا للقاء ربه ، فيقول : متى يُبْعث أشقاها ، وجيء إليه فقيل له : خذ حَذرك فإن الناس يريدون قَتْلك . فقال : إن الأجل جُنَّة حَصِينة . فلما خرج لصلاة الفجر يوم قُتل أُلهم أن ترَنَّم :

اشْدُدْ حَيازيمك[2] للموتِ فإنَّ الموتَ لاقيكَ
ولا تَجْزع من الموت إذا حَلَّ بواديـــكَ

أخبرنا ابن الُحصَيْن ، أنبأنا ابن الُمذْهِب ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله ابن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا وَكِيـع ، عن شَرِيك ، عن أبى إسحاق ، عن هُبَيْرة قال : خطبنا الحسن بن على فقال : لقد فارقـكم[3] رجلٌ بالأمس لم يسبقه الأولون بعِلْم ولم يدركه الآخِرون ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثه بالراية جبريلُ عن يمينه وميكائيل عن شماله ، فلا ينصرف حتى يفتح له .

الكلام على قوله تعالى

﴿ إن الأبرارَ يَشْربون من كأسٍ كان مِزَاجها كافورا ﴾[4] .

الأبرار واحدهم بَرٌّ وبار . وهو الصادق للطيع « يَشْربون من كأسٍ » أى من إناء فيـه شراب كان مزاج الـكأس كافورا . والمطلوب من الـكافور بَرْده وريحه .

---

(١) الدسيعة : العطية الجزيلة . والدسيعة أيضا : الجفنة والمائدة الكريمة . والشريعة : مورد الشاربة. كالمشرعة . (٢) الحيازيم : جمع حيزوم وهو : ما استدار بالظهر والبطن .
(٣) ب : فاركم . محرفة والتصويب من ت (٤) سورة الدهر .

قوله تعالى : « عَيْناً » قال الأخفش : المعنى . أعنى عيناً . وقال الزجاج : الأجود أن يكون المعنى من عين .

قوله تعالى : « يَشْرب بها » أى منها « عباد الله » أى أولياؤه « يفجّرونها » قال مجاهد : يقودونها إلى حيث شاءوا من الجنة .

قوله تعالى : يُوفُون بالنَّذْر » فيه إضمار [أى] كانوا يوفون بالنذر إذا نذروا فى طاعة الله « ويخافون يوماً كان شَرُّه مُسْتطيرا » أى فاشيا(١) منتشرا فانشقت السموات وتناثرت الكواكب وكورت الشمس والقمر ونُسفت الجبال وغارت المياه وتكسّر كل شىء على وجه الأرض من بناء أو جبل .

قوله تعالى : « ويُطْعمون الطعامَ على حُبِّه » روى عطاء عن ابن عباس أنها نزلت فى على بن أبى طالب رضى الله عنه أجّر نفسَه يسقى نخلا بشىء من شعير ليلة حتى أصبح، فلما قبض الشعير طحنوا ثُلثه وأصلحوا منه مايأكلونه فلما استوى أتى مسكين فأخرجوه إليه ، ثم عملوا الثلث الثانى فلما تم أتى يتيم فأطعموه، ثم عملوا الباقى ، فلما تمَّ أتى أسير من المشركين فأطعموه وطوَوْا فنزلت هذه الآيات .

قوله تعالى : « على حُبِّه » أى على حب الطعام . المعنى : وهم يشتهونه . وقال أبو سليمان الدارَانىّ : على حب الله عز وجل . « إنما نُطْعمكم لوَجْه الله لا نريدُ » قال سعيد بن جُبَيْر : ماتكلموا بذلك إنما عَلِم الله تعالى من قلوبهم فأثنى عليهم .

واليوم العَبُوس ، الذى تعبس فيه الوجوه ، فجعل ذلك من صفة اليوم . والقَمْطَرِير : الشديد . قال أبو عبيدة : العَبُوس القمطرير والقماطر والعصيب والعصبْصَب : أشد أشد مايكون من الأيام وأطوله فى البلاء .

« فوقاهم اللهُ شَرَّ ذلك اليوم » بطاعته فى الدنيا « ولَقَّاهم نَضْرةً » أى حُسْنا وبياضا

---

(١) ت : فاسيا

فى الوجوه « وسرورا » فى القلوب « وجزاهم بما صبروا » على طاعته « جَنَّة وحَرِيراً » وهو لباس أهل الجنة والأرائك : السُّرر فى الحِجَال . والزَّمْهرير : البرد الشديد « ودانيةً » وجَزاهم دانيةً « عليهم ظِلَالُها » أى قريبة منهم ظلال أشجارها « وذُلِّلت قُطوفها » يتناولون منها قياما وقعودا ومضطجعين . والأكواب : الأباريق التى لاعُرَى لها « كانت قوارير » أى تلك الأكواب قوارير ولكنها من فضة . قال ابن عباس : لو ضربت فضة الدنيا حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء من ورائها ، وقوارير الجنة من فضة فى صفاء القارورة[1] .

وقال الفرّاء : هذا على التشبيه ، المعنى كأنها من فضة أى لها بياض الفضة وصفاء كصفاء القوارير .

وفى قوله تعالى : « قَدَّرُوها تقديرا » قولان : أحدهما : قدّروها فى أنفسهم فجاءت على ماقدّروا . قاله الحسَن . قال الزجاج : جعل الإناء على قدر ما يحتاجون إليه . والثانى : قدَّرها السُّقاةُ والخدم على قَدْر ما يحتاج إليه السادة ، فلايزيد على ريّهم فيثقل الكف ولا ينقص منه فيطلب الزيادة « ويُسْقَون فيها » أى فى الجنة « كأساً كان مِزَاجها زَنْجَبِيلًا » وهو معروف فى الدنيا ، وهو عروق تسرى فى الأرض يؤكل رَطْباً ، والعرب تضرب المثلَ بالزنجبيل والخمر ممزوجين .

وكأن طَعْمَ الزَّنجبيل به إذ ذُقْته وسُلَافة الخمر

فشراب الجنة على بَرْد الكافور وطعم الزنجبيل وريح المسك .

« عَيْناً فيها » أى يسقون عينا . وسَلْسبيل : اسم العين وهو صفة لماء كان على غاية السلامة . قال مجاهد : سلسبيلا : حديدة الجرْية . وقال ابن الأنبارى : السَّلْسبيل : صفة للماء لسَلَسِه[2] وسهولة مدخله فى الحلق ، يقال شراب سَلْسَلٌ وسَلْسَال وسَلْسَبِيل . حكى الماوردى أن عليا رضى الله عنه قال : معنى الكلام سَلْ سَبِيلا إليها .

---

(١) ت : القوارير (٢) ت : لتسلسله .

قوله تعالى : « وَيَطُوفُ عليهم وِلْدانٌ مُخَلَّدُون » من الخُلْد ومنه[1] الخَلَدَة وهى القُرط « إذا رأيتَهم » منتشرين فى الخدم « حَسِبْتَهم لُؤلُؤًا مَنْثُورا . وإذا رأيتَ ثَمَّ » يعنى فى الجنة « رأيتَ نَعِيما » لا يوصف « ومُلْكا كَبِيراً » واسعا لا يريدون شيئا إلا قَدروا عليه ولا يدخل عليهم ملَكٌ إلا باستئذان .

قوله تعالى : « عالِيَهم ثيابٌ » يعنى أهل الجنة . والسندس : رَقِيق الدِّيباج . والإستبرق : غَليظه . والخضرة : لون بين البياض والسواد فهى أصْلَح للعين من غيرها من الألوان وقد أُلبس القوم الأساور « وسقاهم ربُّهم شرابا طَهُورا » لا يُحْدِثون منه ولا يبولون « إن هذا » الذى وصف من النعيم « كان لكم جزاء » بأعمالكم « وكان سَعْيكم » فى الدنيا بطاعة الله « مَشْكُورا » قال عطاء : شَكرتكم[2] عليه وأثبتُّكم أفضل الثواب .

وقد ذكرنا أن هذا نزل فى حق علىّ رضى الله عنه وأهل بيته لإيثارهم بالطعام .

***

كان أبو بكر رضى الله عنه قد خطب فاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : انتظر بها القضاء . فذكر ذلك لعمر فقال : رَدَّكَ يا أبا بكر . فخطبها عمر . فقال له مثلَ ما قال لأبى بكر . فقال أهلُ علىّ لعلى : اخطب فاطمة . فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فسلَّم عليه فقال : ما حاجتُك ؟ فقال : ذكرتُ فاطمة . فقال : مرحبا وأهلا . فخرج فأخبر الناسَ بما قال . فقالوا : قد أعطاك الأهلَ والمرْحَب . ثم قال له : ما تُصْدِقها ؟ قال : ما عندى ما أُصْدِقها . قال : « فأين دِرْعك الحُطَمِيّة[3] » . قال : عندى . قال : أصْدِقها إياها . فتزوجها فأُهديت إليه ومعها خَمِيلة ومِرْفقة من أَدَم حَشْوها ليف وقِرْبة ومُنْخل وقدَح ورحًى وجرابان . ودخلت عليه وما لها فراش

---

(١) كذا فى ت . وفى ب : وفيهم من الخلدة . (٢) ب : شكرتم .

(٣) الحطمية : الثقيلة أو التى تكسر السيوف ، أو نسبة إلى حطمة بن محارب ، رجل كان يعمل الدروع .

غير جلد كبشٍ ينامان عليه بالليل وتَعْلف عليه الناضح بالنهار ، وكانت هى خادمة نفسها .

تالله ما ضرها ذلك .

وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها : «ألا ترضَين أن تكونى سيدةَ نساء هذه الأمة أو نساء المؤمنين» [١] ؟

أخبرنا عبد الأول ، أخبرنا الداودِىّ ، حدثنا أبن أعْيَن ، حدثنا الفرَبْرِى ، حدثنا البخارى ، حدثنا الوليد بن عُيَيْنة ، عن عمرو بن دينار ، عن ابن أبى مُلَيْكة عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فاطمة بَضْعَة منى فمن أغضبها أغضبنى » .

أخرجاه فى الصحيحين [١]

***

لما تبخْتر جمالُ فاطمة فى جلباب كمالها ، حين شُروع الشَّرْع فى وصف جلالها ، أنهض الصديقُ خاطبا لها فى خطابه فسكت الرسول عن جوابه ، فنهض عمر نهوضَ الليث فى غابه فلم يجبه فاشتد الجوى به ، فلما نقل علىٌّ أقدامه لخطبتها وجدَ الوحىَ قد سبقه قُدّامه : « إن الله أمرنى أن أزوّج فاطمة من على » فتزوجها فى صفَر وبنَى بها فى ذى الحجة ، فولدت له الحسَن فى نصف رمضان سنة ثلاث من الهجرة ، وولدت الحسين لثلاث خلون من شعبان سنة أربع .

وفى الصحيحين من حديث البرَاء قال : رأيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم واضعاً الحسن بن على على عاتقه وهو يقول : «اللهم إنى أحبُّه فأحِبَّه » [٢] .

وفيهما من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه التزم الحسَن وقال :

---

(١) صحيح البخارى ٢/٢٤٩ وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٢٤٤٩

(٢) صحيح البخارى ٢/٢٤٧ وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٢٤٤٢

« اللهم إنى أُحبُّه فأحبَّه وأحبَّ من يحبه » .

وفى أفراد البخارى من حديث عمر أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال فى حق الحسن والحسين : « هما رَيْحانتاى » [١] .

وقد روى أبو سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحسن والحسين سيِّدا شباب أهل الجنة » .

وكان علىّ بن أبى طالب يقول : الحسن أشبه الناسِ برسولِ الله صلى الله عليه وسلم من الصدر إلى الرأس ، والحسين أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان أسفلَ من ذلك .

وفى حديث أم سلَمة أن النبى صلى الله عليه وسلم جَلَّل على الحسن والحسين وعليًّا وفاطمة كِساءً ثم قال : اللهم هؤلاء أهلُ بيتى وخاصتى أَذْهب عنهم الرِّجْسَ وطهرهم تطهيرا . فقالت أم سلمة : وأنا معهم ؟ قال : إنك إلى خير .

وكان أحمد بن حنبل إذا سئل عن على [وأهل بيته] [٢] . قال : أهلُ بيت لا يقاس بهم أحد .

* * *

يا بَنِى بنتِ النبى المصطفَى ... حبُّكم يَنْفِى عن المرء الظِّنَنْ [٣]
إن لله علينا مِنَناً ... حبكم شكرٌ لهاتيك [٤] المِنَنْ
أنتمُ من لم يُرِدْ مُعْطِى الهُدَى ... غير وُدِّ الناسِ إياكم ثَمَنْ
أنا عبدُ الحق لا عبد الهوى ... لعن الله الهوى فيمن لَعَنْ

لما وقف المسكين ببابهم آثر علىٌّ فوافقت فاطمة .

ملِكٌ حاز العُلَا وأذل العِدَى ... واستعبَدَ الزَّمَنَا
طَبْعه بالجودِ مُمْتَزجٌ ... هل رأيتَ الماءَ واللبنَا

(١) صحيح البخارى ٢/٢٤٨ (٢) من ب . (٣) الظنن : التهم . (٤) الأصل : لهاتين .

كفُّه تَهْوَى السَّمـــاَح ولو   أنفقتْ من غير ظَهْر غِـــنَى
خُلقت للجودِ راحتُــــه   فأرَتْك العارِضَ الهَتِناَ[1]
ما يريد الواصفون له   حَـــيَّرت أوصـافُه الفِطَناَ
أنطقت صُمَّ الصخور فـــلا   عجَب أن تخْرس اللَّسِناَ

لما جاءت المديحة على الإيثار ووصف نعيم الجنة لم يذكر فى ذلك الحور حفظاً لقلب فاطمة ، وكيف يُذْكر الحور وهن مماليك مع الُحرّة .

سبحان من كسا أهلَ البيت نورا وجعل عليهم خندقا يقى الرجس وسُورا ، فإذا تُلقُّوا يوم القيامة تَلقَّوا حُبورا « إنّ هذا كان لـكم جَزاء وكان سَعْيكم مَشْـكورا » .

ادخرنا لـكم نَعيا مقيما ، ومنحنا لـكم فضلا جزيلا عميما ، وجزينا من كان للفقراء رحيما ، أولستم قد أطعمتم مسكينا ويتيما ورحمتم مَأْسورا « وكان سَعْيكم مشكورا » .

مَن مثل علىّ مَن مثل فاطمة ، كم صبَرا على أمواجِ بلايا متلاطمة ، وآثرا الفقر ونار الجوع حاطمة ، فلهم نضَارةُ الوجوه والأهوالُ للوجوه خاطمة ، يا سُرعان ما انقلب حزنهم سرورا « وكان سعيكم مشكورا » .

كانت فاطمة بنت النبى صلى الله عليــه وسلم أحبَّ الناس إليه ، وكان علىّ أعز الخلق عليه ، وجعل الله ريحانته من الدنيا ولدَيْه ، فإذا أحضرهم الحق غداً عندَه ولدَيْه أكرمهم إكرما عظيما موفورا ، « وكان سَعْيكم مشكورا » .

واعجبا ! ذكَر فى هذه الآيات نعيم الجنات من الملبوس والمشروبات والمطعومات ، والأرائك والقصور والعيون الجاريات ، ولم يذكر النساء وهن غاية اللذات ، احتراما لفاطمة أشرف البنات ، ومن يصف فاطمة الزهراء لا يذكر حُورا « إن هذا كان لـكم جزاء وكان سَعْيكم مشكورا » .

---
(١) العارض : السحاب . والهتن : الشديد المطر .

المجلس الثانى والثلاثون

فى فضل عائشة وأزواج النبى صلى الله عليه وسلم

الحمد لله الواحد القديم ، الماجد العظيم ، المنّان الكريم ، الرحمن الرحيم ، أنعم بالعطايا فإنعامه عميم ، وستر الخطايا فهو الغفور الرحيم ، ابتلى بما شاء وهو بما يكون عليم ، فالواجب فى بلائه الرضا والتسليم ، سافرت عائشة مع الرسول وكان يخصها بالتقديم ، فانتزحت لشغلها وانشغل بها عظيم ، فحملوا هَوْدجها ظنًّا أن فى الكِناس الرِّيم [(١)] ، فصادفها صفوانُ فصدَّر الرجل سَلِيم ، فبلغها قولُ من باتَ يأفك ويهتك الحريم ، فما زال السَّلِيم يبكى بكاء السليم ، حتى بدا هلال الهدى فى ليل البلاء البهيم « لا تَحْسبوه شرًّا لكم بل هو خَيْر لكم لكل امرئ منهم ما اكتسَبَ من الإثم والذى تولى كِبْره منهم له عذابٌ عَظِيم [(٢)] » .

أحمده كلما عمَّت الغافلين غفلاتهم ، وأصلى على رسوله محمد الذى هلكت به عزّام ولاتُهم ، وعلى صاحبه أبى بكر الذى سلِّمت إليه قبل الموت صَلاتهم ، وعلى عمر الذى تقومت بعَدْله حالاتهم ، وعلى عثمان مقبول المال إذ مالت بالبخلاء آفاتهم ، وعلى علىّ الزاهد فى الدنيا إذ منعت أربابها شهواتهم ، وعلى أزواج النبى الطاهرات اللاتى نزهت جهاتهم «النبيُّ أَوْلَى بالمؤمنين مِنْ أَنْفُسِهم وأزواجُه أُمَّهاتُهم [(٣)] » وعلى عمه العباس آخذ البيعة له على الأنصار إذ حُمدت مَسْعاتهم .

***

قال الله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفكِ عُصْبَةٌ منكم » أجمع المفسرون على أن هذه الآية وما يتعلق بها بعدها نزلت فى قصة عائشة . والإفك : الكذب . والعُصْبة : الجماعة .

وفى المخاطَب بقوله « لا تَحْسَبوه شرًّا لكم » قولان : أحدهما : عائشة وصفوان

---

(١) الكناس : مأوى الظبى (٢) سورة النور ١١ . (٣) سورة الأحزاب ٦ .

ابن المعطّل . والثانى : رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعائشة . والمعنى : أنكم تُؤجرون فيه ، والأجر يغطى المكروه .

وفى هذا تسلية للإنسان لما يصيبه من المكاره ، وليعلم أنه ما سلم أحدٌ من شَرّ الناس .

« لكل امرئٍ مِنْهم » يعنى من المعصية الكاذبة « ما اكتسَب من الإثم » أى جزاء ما اجترح من الذنب على قدر خَوْضه فيه .

***

واعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقدِّم عائشة على جميع أزواجه .

وفى الصحيحين من حديث عائشة قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : «رأيتُك فى المنام ورجل يحملك فى سَرَقة من حرير فيقول : هذه امرأتك . فأقول : إن يك من عند الله عز وجل يُمْضه » (١)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج خديجة أولَ من تزوج فولدت له القاسم وعبدَ الله وهو الطيّب والطاهر ولد فى الإسلام فلقب باللقبين . ومن الإناث : زينب ورقيَّة وأم كلثوم وفاطمة ، ولم يتزوج على خديجة حتى ماتت فتزوج سَوْدَة بنت زَمْعة ثم عائشة . ولما كبرت سَوْدة أراد طلاقها فسألته أن يدَعها فى أزواجه وجعلت ليلتها لعائشة . وتزوج عائشة وهى بنت ست سنين وتزوج حفصة فطلقها تطليقة فقال له جبريل: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة فإنها صوَّامة قوامة . فراجعها وتزوج أم سلمة وأم حبيبة وزينب بنت جَحْش وزينب بن خُزَيْمة وجُوَيْرية بنت الحارث . وكان قد أصابها فى غزاة بنى المُصْطَلق . فوقعت فى سهم ثابت بن قيس فكاتبها ، فقضى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كتابتها وتزوجها فلما سمع الناسُ بذلك : أرسلوا ما فى أيديهم من سبَايا بنى المصطلق فأعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت . وتزوج صفية بنت حُيَيّ وميمونة بنت الحارث وبنى بها

---

(١) صحيح البخارى ٤/١٧٤ وصحيح مسلم حديث رقم ٢٤٣٨

بسَرِف وقدَّر الله موتها فى ذلك الموضع .

ولما تعبت خديجة فى تربية الأولاد أتاه جبريل فقال له : «اقرأ عليها السلام من ربِّها ومنِّى وبَشِّرها ببيت فى الجنة من قصَب لاصخَب فيه ولانصَب[١] » .

ولما خطب زينب بنت جحش قالت : ما أنا صانعة شيئا حتى أؤامر ربى . فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن فى نـكاحها . فجاء الرسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها . وكانت صوَّامة قوامة تعمل بيدها وتتصدق . ولما تزوج أم حَبيبة قدم أبو سفيان المدينة فى الحُدَيْبية فطوت فراشَ رسوله الله صلى الله عليه وسلم وقالت : إنك نجس .

وكان آثَر الـكل عنده عائشة لأنها جمعت الجمالَ والـكمال فى الذكاء والفطنة والعلم والفصاحة ، فبنى بها وهى بنت تسع سنين .

وفى أفراد البخارى من حديث عائشة أنها قالت : «يارسول الله أرأيتَ لو نزلتَ وادياً فيه شجرة قد أُكل منها ووجدت شجرا لم يؤكل منها فى أيها كنت ترْتع بعيرك ؟ قال: فى التى لم يُرْتع منها» . تعنى أنه لم يتزوج بكراً غيرها .

أخبرنا يحيى بن على ، أنبأنا ابن المُسْلمة ، أخبرنا المخلِّص ، أخبرنا البغَوى ، أخبرنا وهب بن بَقيَّة ، حدثنا خالد بن عبد الله الطحَّان ، عن خالد الحذَّاء ، عن أبى عثمان النَّهْدى ، عن عمرو بن العاص أنه أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال : من أحبُّ الناس إليـك يارسول الله ؟ قال : عائشة . قال : فمن الرجال ؟ قال : أبوها . قال : ثم من ؟ قال : عمر » .

أخرجاه فى الصحيحين[٢] .

أخبرنا أبو منصور القزَّاز ، أنبأنا عبد العزيز بن على الُجرَنجِىّ ، حدثنا المخلِّص ، حدثنا البغَوىّ ، حدثنا أبو بكر بن خلَّاد ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا شُعْبة ، عن

---

(١) صحيح مسلم حديث ٢٤٣٢ وصحيح مسلم كتاب الفضائل ، حديث رقم ٢٣٨٤

(٢) صحيح البخارى ٢/٣٠٦

عمر بن مُرّة ، عن أبى موسى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فَضْل عائشة على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .

أخرجاه فى الصحيحين [١] .

وفيهما من حديث عائشة أن الناس كانوا يتحرّون بهداياهم يومَ عائشة يبتغون بذلك مرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] .

وفيهما من حديثها عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كنتُ لكِ كأبى زَرْعٍ لأمٍّ زرع [٣] » .

وفيهما من حديثها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسأل فى مرضه الذى مات فيه أين أنا غداً ؛ أين أنا غدا ؟ يريد يومَ عائشة . فأذِن له أزواجُه يكون حيث شاء ، فكان فى بيت عائشة حتى مات عندها [٤] .

وفى أفراد البخارى من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأم سلَمة : « لا تُؤذينى فى عائشة فإنه والله ما نزَل علىّ الوحىُ وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها [٥] » .

وقال أبو موسى ما أشكل علينا أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثٌ قط فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه عِلما .

وقال عُرْوة : ما رأيتُ أحدا من الناس أعلَم بالقرآن ولا بفريضةٍ ، ولا بحلال ولا بحرام ، ولا بشِعْر ، ولا بحديث العرب ولا بنسَبٍ من عائشة .

---

(١) صحيح البخارى ٢/٢١٩ وصحيح مسلم كتاب الفضائل ، حديث رقم ٢٤٤٦

(٢) صحيح البخارى ٢/ ٦٤ وصحيح مسلم كتاب الفضائل حديث رقم ٢٤٤١

(٣) صحيح البخارى ٣/١٨٥ وصحيح مسلم حديث رقم ٢٤٤٨

(٤) صحيح البخارى ٣/٦٨ وصحيح مسلم حديث رقم ٢٤٤٣

(٥) صحيح البخارى ٢/٢٢٠

وكانت غزيرة السكرم . قسمت يوماً سبعين ألفا وهى تَرْقَع دِرْعها .

وكانت كثيرة التعبد (١) وكانت لها فصاحة .

أخبرنا محمد بن ناصر الحافظ ، أخبرنا ثابت بن بِنْدار ، أخبرنا محمد بن أحمد بن غالب البُرْقانى ، قال : قرأت على أحمد بن حباب الخوارزْمىّ ، حدثنا أبو يعقوب البغدادى ، حدثنا الحسين بن على العِجْلى ، حدثنا أبو أسامة ، عن هشام بن عروة ، لا أدرى ذكره عن أبيه أم لا ــ الشكُّ من أبى يعقوب قال : بلَغ عائشة أن أقواما يتناولون أبا بكر فأرسلت إلى أزْفلة « جماعة »(٢) منهم فلما حضروا أسدلت أستارها ثم دنَتْ فحمدت الله تعالى وصلّت على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعذَلَتْ وقرّعتْ ثم قالت : أبى وما أبيه ! أبى والله لا يعطوه الأبد(٣) ، ذاك طَوْد مُنيف وفرع مَدِيد ، هيهات كذبت الظنون أنجح إذ أكْدَيتم وسبق إذ وَنَيْتُم سَبْقَ الجواد إذا استولى على الأمَد [الغاية] فتى قريش ناشئاً وكهفها كهلًا ، يفكُّ عانيها ، ويَرِيش مُمْلقها [فقيرها] ويرْأبُ شَعْبَها(٤) حتى حلبته قلوبها ، ثم استشرى فى الله تعالى فما برحت شَكيمتُه وحِميّته فى ذات الله تعالى حتى اتخذ بفنائه مسجدا يحيي فيه ما أمات المبطلون .

وكان رحمه الله غَزِير الدّمْعة وَقِيذَ الجوارح شَجِىّ النَّشِيج ، فانقضت إليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزئون به « اللهُ يَسْتهزئ بهم ويَمُدّهم فى طُغْيانهم يَعمهون » فأكبرت ذلك رجالات قريش فحَجَنَتْ له قسيّها وفوقت له سهامها وانتثَلُوه غرضاً ، فما فَلُّوا له صفَاةً ولا قصفوا له قناة ، ومرّ على سِيسائه .

حتى إذا ضرب الدين بجِرَانه وألقى بَرْكه ورست أوتادُه ودخل الناس فيه أفواجا ومن كل فرقة أرسالًا وأشتاتا اختار الله لنبيه ما عنده ، فلما قبض الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم نصَبَ الشيطان رُوَاقه ومدّ طُنبه ونصَب حبائله ، وظن رجالٌ أن قد تحققت أطماعهم

---

(١) بعدها فى ت زيادة : ويكفيك فى مدحها العظيم الشأن ، ما نزل فى ذلك من القرآن .

(٢) ما بين القوسين تفسير للغريب ، وسيأتى إعادة لهذا التفسير بعد نهاية الحديث ولعل إثباته هنا من تصرف الناسخ . (٣) ج : الأبدى . (٤) الأصل : وبدأت شبعها . محرفة .

ولات حين الذى يَرْجون فأنَّى والصديقُ بين أظهرهم! فقام حاسرا مشمِّرًا، فجمع حاشيته ورفع قُطْرَيْه فردَّ نشز الإسلام على غَرْب، ولمَّ شَعثه بطبه، وأقام أوْدَه بثِقافه، فابذقَرَّ النفاقُ بوطأته، وانتاش الدينَ فنعشه، فلما أزاح الحق إلى أهله وقرّر الرءوسَ على كواهلها وحقن الدماء فى أهبها أتته منيتُه، فسدَّ ثُلمته بنظيره فى الرحمة وشقيقه فى السيرة والمعْدَلة، ذاك ابنُ الخطاب، لله دَرّ أمٍّ حملتْ به ودَرّت عليه، فقد أوْحدَتْ به، ففنخ الكفرَة وديَّخها، وشرَّد الشِّركَ شذَر مذَر، ونفَجَ الأرضَ وبخَعها، فقامت أُكلها ولفظت خَبها، ترْأمه ويَصْدف عنها، وتصدَّى له ويأباها، ثم زرع فيها وودَّعها كما صَحِبها، فأرونى ما تريبون، أىّ يوم تَنقْمون: أيوم إقامته إذ عدَل فيكم؟ أم يوم ظَعَنه فقد نظر لكم؟ أستغفر الله لى ولكم.

وفى هذا الحديث من الغريب: الأزفلة: الجماعة. ويُمْطوه: ينالوه. وأكديتم خِبتم. وونيتم: فترتم. والأمد: الغاية. والملاق: الفقير. ويرْأب: يجمع. والشَّعب: المتفرق. واستشرى: احتد وانكمش. فما برحت: أى ما زالت شكيمته، وهى الأنَفة والحمية. والوَقيذ: العليل. والشجىّ: الحزين. والنشيج: صوت البكاء. وانتثلوه: أى مثّلوه غرضا للرمى. وفلّوا: كسروا. والصَّفاة: الصخرة الملساء. وقولها على سيسائه: أى على حَدِّه. والجران: الصدر. وهو البَرْك. ومعنى: فرفع حاشيته وجمع قُطْريه: تحزم للأمر وتأهب. والقُطْر: الناحية. فرد نشز الإسلام على غَرْب: كذا وقع فى الرواية. والصواب على غِرة أى ظنة. والطب: الدّواء. والأود: العوج. والثقاف: تقويم الرماح. وابذقرّ: تفرق. وانتاش الدينَ: أزال عنه ما يخاف عليه. ونعشه: رفعه. والأُهب: جمع إهاب وهو الجلد. وأوْحدت: أى جاءت به منفردا لا نظير له. ففنخ الكفَرة: أذلّها. وديّخها: أى دوّخها. ومعنى شذَر مَذر: التفريق. وبخَع: شق. ومثله نفَج. والأُكل: الخير. وترْأمه: تعطف عليه.

الكلام على البسملة

بادِرِ الأيامَ فالحـ ـىُّ من الموتِ قريبُ
بينما يَخْطر فى أهـ ـلِ الحِمَى لا يَسْتَريبُ
إذ حَواه اللَّحدُ يوماً مُفرداً فهو غريبُ
خُذْ نصيبا قبل أن يُعْـ ـجِزَك الدهرُ المصيبُ
واحذر الأخرى لهو لِ يومُه يومٌ عصيبُ
يومَ لا يَسْلم مغرو رٌ ولا ينْجو مُرِيبُ
أطعِ الناصحَ إذ نا داك فالموت مجيبُ
كم ترى نُسْمعك النُّصْـ ـح وكم لا تستجيبُ

يا من لا يتعظ بسلف آبائه ، يا من لا يعتبر بتلفِ أو دائه ، يا أسير أغراضه وقتيل أهوائه ، يا من عجزَت الأطباء عن إصلاح دائه ، يا مشغولاً بذكر بقائه عن ذكر فَنائه ، يا مغرورا قد حَلَّ الممات بفنائه ، يا معجَبا بثوب صحته يمشِى فى خُيَلائه ، يا مُعْرِضا عن نصيحه مُشْمِتا لأعدائه ، يا من يلهو بأمله ، ويا من أجلُه من ورائه ، يجمع العيب إلى الشيب وهذا من أقبح رائه ، كم رأيتَ مستلباً من سروره ونَعمائه ، كم شاهدت مأخوذا عن أحبابه وأبنائه ، بينا هو فى غروره دبَّ الموتُ فى أعضائه ، بينا جُرَع اللذة فيه شَرِق بمائه ، بَيْنا ناظِر النَّظير يُعْجبه صار عبرةً لنظرائه ، ماله ضُيِّع ماله وبقى فى بلائه .

***

باتت هُمومى تَسْرى طوارقُها أكفُّ عَيْنى والدمعُ سابقُها (1)
هما طريقان فائز دخل الـ ـجَنّة حَفَّت به حدائقهـا
وفرقةٌ فى الجحيم مع تبع الشَّيْـ ـطان يَشْقى بهـا موافقها

(1) الأبيات لأمية بن أبى الصلت ديوانه ٤٢ مع اختلاف

اقترب الوعدُ والقلوب إلى اللـ ـهو وحُبُّ الحيـــاة سائقها
ما رَغْبة النفس فى البقاء وإن عاشت قليلا فالموتُ لاحقُها
أيامها غاية إليـــه ويَحْدو ها حثيثا إليـــه سائقُهـــا
وكل ما جمعت وأعجَبهـــا من عَيْشها مرةً مُفارقُها
يوشك من فرَّ من منيَّته فى بعض غِرَّاته يوافقُهـــا
من لم يمت عَبْطةً (١) يمت هرَماً للموت كأس والمرء ذائقُهـــا

يا من تجبَّر على مولاه وتمرد ، واستلَّ سيفَ البغى وجرَّد ، كم يُنْعَم عليك فتنسى وتجحد ، كم تشيِّع من ميت وترى لحد مُلْحَد ، يا قليل الزاد وألوية الرَّحيل تُعقَد ، يامن بين يديه النار بالأحجار توقد ، ينزل اللطف فى جمع (٢) شَمْلك وقبيحُ فعلك يَصْمد ، يا قليل الانتفاع بالوعظ إلى كم تتزود .

يا قبيـــحُ المتجرِّد كم علينـــا تتمرَّدْ
كم نُراعيك ونُوليـــك وللإحسان تجْحدْ
كم أناديك بوعظِى أتُرى قلبُك جَلْمَدْ
كم تُرى أنت على الشـ ـر إليه تتزوّدْ
أوَما تجْزع من نا رٍ على العاصين تُوقدْ
فمتى تحذر فى الإسـ ـراف ما مثلك يُوعَدْ

***

لقد نطقت الغِيَر بالعبَر ، ولقد خبَر الأمرَ من عنده خَبر ، وإنما ينفع البصر ذا بصَر ، فاعجبوا لمقصِّر عمره فى قِصَر ، يا من لا يُرى من توبته إلا الوعود ، فإذا تاب فهو عن قريب يعود ، أرضيتَ بفوت الخير والسعود ، أأعددت عُدّةً لنزول الأخدود ، أمَا

(١) مات : عبطة : بغير داء . (٢) ح : فى جم شملك .

علمت أن الجوارح من جملة الشهود ، تالله إنّ حوض الموت عن قريب مورود ، والله ما الزاد فى الطريق بموجود ، والله إن القيامة تشيّب المولود ، والله إن العمر محبوس ممدود ، والوجوهُ غداً بين بيض وسود ، إلى كم هذا الصِّبا والمراح، أأبقى اليشب موضعا للمزَاح ، لقد أغنى الصباحُ عن المصباح ، وقام حَرْب المنون من غير سلاح ، اعوجّت القناة بلا قَنا ولا صِفَاح ، فعاد ذو الشّيبة بالضعف ثخين الجرح ، ونطقت ألسُن الفناء بالوعظ الصُّراح ، وا أسفا صمّت المسامع والمواعظ فِصَاح ، لقد صاح لسانُ التحذير : يا صاح يا صاح ، وأنّى بالفهم لسكران غير صاح ، أسْكَرك الهوى سُكرا لايزاح ، أو ما تفيق حتى يقول الموت لابَراح ، متى يظهر عليك سيما المتقين ، متى تترقّى إلى مقام السابقين ، كأنك بك تذكر قوْلى وقد عرق الجبين ، وخابت الآمال وعبثت الشمال باليمين ، وبَرِق البصر وجاء الحقُّ اليقين ، ولا ينفع الانتباه حينئذ يا مسكين ، يا من يوعظ وكأنه ما يسمع ، يا مشغولًا بما يفنى يَحْوى ويجمع ، يا من شاب. وما تاب فى أى شىء تطمع ، يا غافلا والموت على أَخْذه قد أزْمع ، ستعرف يوم عَرْض الكتاب وسوء الحساب عين من تدمع ، أراك يوم الرحيل إذا ضاق رحب السبيل ما تصنع ، أتراك بماذا تتقى هَوْل ذاك المصْرَع ، عجبا لك تُؤثر ما يفنى وتعلم ما يبقى أنفع ، يا من أماراتُ طَرْده من وجه صَدِّه تَلْمع ، لقد نادانا لسانُ حالك بدوام القبيح من أفعالك غير أنا فيك نَطْمع .

كم تَعْذِلون وعَذْلُكمْ لا ينفعُ صاعَ الحديثُ فعلِّموا من يَسْمعُ

الكلام على قوله تعالى

﴿ والذى تولّى كِبْره منهم له عذابٌ عَظِيم[١] ﴾

قد ذكرنا أن هذا نزل فى حق عائشة حين قَذفت . وكِبْره بمعنى مُعْظَمه . وقد قرأ ابن عباس كُبْره بضم الكاف وهما لغتان . والذى تولى كبره ذلك ابن أُبىّ .

---

(١) سورة النور .

أخبرنا ابن الحصين ، أخبرنا أبو على التميمى ، أنبأنا أبو بكر بن مالك ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن الزُّهْرى ، أخبرنى سعيد بن المسيّب وعُروة بن الزُّبير وعلقمة بن وقاص وعبيد الله [بن عبد الله (١)] ابن عُتْبة عن حديث عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم حين قال لها أهلُ الإفك ما قالوا فبرأها الله عز وجل مما قالوا ، كلهم حدثنى بطائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت اقتصاصا ، وقد وعيتُ عن كل واحد منهم الحديثَ الذى حدثنى ، وبعضُ حديثهم يصدِّق بعضا .

ذكروا : أن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفَرا (٢) أقْرع بين نسائه فأيّتهن خرج سهمُها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه قالت عائشة : فأقرَع بيننا فى غَزاة فخرج فيها سهمى ، فخرجتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد ما أُنزل الحجاب ، فأنا أُحْمَل فى هَوْدَجى وأُنزل فيه ، فسِرْنا ، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غَزْوه فقفل ودنَوْنا من المدينة أذّن ليلةً بالرحيل فقمت حين أذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش . فلما قضيت شأنى أقبلت إلى الرحيل فلمستُ صدرى فإذا عقد من جزْع أظفار (٣) قد (٤) انقطع ، فرجعت فالتمست عِقْدى ، فحبَسَنى ابتغاؤه ، وأقبل الرهطُ الذين كانوا يَرْحلون بى فحملوا هَوْدجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب وهم يحسبون أنّى فيه . قالت : وكان النساء إذ ذاكِ خِفَافا لم يُهَبَّلْن (٥) ولم يَغْشَهن اللحم ، إنما يأكلن العُلْقة (٦) من الطعام ، فلم يستنكر القوم ثقَل الهودج حين رحّلوه ورفعوه ، كنت جاريةً حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا .

ووجدت عِقْدى بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مُجيب ،

(١) من ت .   (٢) ت : إذا أراد سفرا . وهى موافقة لرواية الصحيحين .
(٣) الجزع : الخرز . والأظفار : نبت طيب الرائحة . ورواية مسلم : ظفار ، وهى بلد باليمن .
(٤) ب ج : وقد انقطع .   (٥) يهبلن : يثقلن ، وهو لفظ البخارى .
(٦) العلقة : ما يمسك النفس ، أى القليل .

فيَمَّمْت منزلى الذى كنت فيه فظننت أن القوم سيَفْقدونى فيرجعون إلىّ فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عَيْنى فنمت ، وكان صفوان بن المعطّل السُّلَمى ثم الذَّكْوانى قد عرّس (١) من وراء الجيش فأدْلج فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم فأتانى فعرفنى حين رآنى ، وقد كان يرانى قبل أن يُضرب علىّ الحِجاب ، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفنى فخمَّرت وجهى بجلبابى ، والله ما كلَّمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، حتى أناخ راحلته فوطىء على يدها فركبتُها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين فى حَرّ الظهيرة ، فهلك من هلك فى شأنى ، وكان الذى تولى كِبْره عبد الله ابن أُبَىّ بن سَلُول .

فقدمتُ المدينة فاشتكيت حين قدمتها شهراً ، والناس يفيضون فى قول أهل الإفك ولا أشعر بشىء من ذلك ، وهو يريبنى فى وجَعى أنى لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللُّطْفَ الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول : كيف تِيكم ؟ فذاك يريبنى ولا أشعر بالشر ، حتى خرجت بعدما نَقِهتُ وخرجت مع أم مِسْطح قِبَل المَناصِع وهو مُتبرَّزنا ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكُنف قريبا من بيوتنا ، وأمرُنا أمر العرب الأُوَل فى التنزه ، وكنا نتأذّى بالكنفات أن نتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا وأُم مِسْطح وهى بنت أبى رُهْم بن عبد المطلب ، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق وابنها مِسْطَح ابن أثاثة ، فأقبلت أنا وبنت أبى رُهْم قِبَل بيتى حين فرغنا من شأننا فعَثرتْ أمُّ مسطح فى مِرْطها فقالت: تَعِس مِسْطح. فقلت لها : بئس ما قلت ! تسبِّين رجلا قد شهد بدرا ؟ قالت : أى هَنْتاه أو لم تسمعى ما قال ؟ قلت : وماذا قال ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك فازددتُ مرضاً إلى مرض . فلما رجعت إلى بيتى فدخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كيف تِيكم؟ قلت : أتأذن لى أن آتى أبوىّ ؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قِبَلهما . فأذِن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجئت أبوىّ فقلت لأمى : يا أمتاه

(١) عرس : أقام .

ما يتحدّث الناس ؟ فقالت : أى بنيــة هوّنى عليك فوالله لقلّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبّها ولها ضرائر إلا أكْثَرن عليها . قلت سبحان الله أو قد تحدَّث الناسُ بهذا ؟ قالت : فبــكيت تلك الليــلة حتى أصبحتُ لا يَرْقأ لى دمــع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبـكى .

ودعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبثَ الوحىَ يستشيرهما فى فراق أهله ، قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذى يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الودّ فقال : يا رسول الله هم أهلك ولا نعـلم إلا خيرا . وأما على بن أبى طالب فقال : لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تَصْدُقك . قالت : فدعا رسولُ الله صلى الله عليــه وسلم بَرِيرةَ فقال : أىْ بريرة هل رأيت من شىء يَرِيبُكِ من عائشة ؟ قالت له بريرة : والذى بعثك بالحق إنْ رأيتُ عليها أمرا قط أغْمِصُه(١) عليها أكثر من أنها جارية حديثة السّن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعذر من عبدالله بن أبىّ فقال وهو على المنبر: يامعشر المسلمين من يَعْذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ! فوالله ما علمتُ على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمتُ عليه إلا خيرا ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى .

فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال: أنا أعْذرك منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربْنا عنقــه ، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرْتنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام سعدُ ابن عُبــادة وهو سيد الخزرج ، وكان رجلا صالحا ولــكن احتملتْه الحَمِيّة ، فقال لسعد ابن معاذ : لَعمرك لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رَهْطك ما أحببت أن يقتل . فقام أُسَيْد بن حُضَيْر ، وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمرو الله لنقتلنّه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين . فثار الحيّان الأوس والخزرج حتى همُّوا أن يقتتلوا ورسولُ الله صلى الله عليــه وسلم قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت .

---

(١) أغمصه : أعيبه .

قالت : وبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلتى المقبلة لا يرقأ لى دَمْع ولا أكتحل بنوم ، وأبواى يظنان أن البكاء فالقٌ كبدى .

قالت : فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى استأذنت علىّ امرأة من الأنصار فأذنتُ لها فجلست تبكى معى ، فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس . قالت : ولم يجلس عندى منذ قيل لى ما قيل وقد لبث شهرا لا يوحَى إليه فى شأنى شىء ، قالت : فتشهَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال : أمّا بعدُ ياعائشة فإنه بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله عز وجل ، وإن كنت ألممتِ بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه . قالت : فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلَص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى : أجبْ عنى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم . فقال: والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت : فقلت وأنا جارية حديثة السنّ لا أقرأ كثيرا من القرآن : إنى والله قد عرفتُ أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر فى أنفسكم وصدّقتم به ، ولئن قلت لكم إنى بريئة لا تصدقونى بذلك ، ولئن اعترفتُ لكم بأمرٍ والله عز وجل يعلم أنى بريئة تُصدقونى ، فإنى والله ما أجد لى ولكم مثلًا إلا كما قال أبو يوسف : « فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تَصِفون » . قالت : ثم تحولتُ فاضطجعت على فراشى .

قالت : وأنا والله حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن الله عز وجل مُبرّئى ببراءتى، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحىٌ يُتلى ، ولَشأنى كان أحقرَ فى نفسى من أن يتكلم الله عز وجل فىّ بأمر يُتلى ، ولكن كنت أرجو أن يَرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم رؤيا يبرئنى الله عز وجل بها .

قالت : فوالله ما رام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مجلسَه ولا خرج من أهل البيت أحدٌ حتى أنزل الله عز وجل على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البُرحاء[1] عند الوحى

(١) البرحاء : الشدة .

حتى إنه لَيتحدَّر منه مثل الجُمَان من العرق فى اليوم الشاتِى من ثِقَل القول الذى أنزل عليه . قالت : فلما سُرِّىَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك ، قالت : فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشرى يا عائشة ، أما الله عز وجل فقد برأك . فقالت لى أمى : قومى إليه . فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل الذى أنزل براءتى .

فأنزل الله عز وجل : « إنّ الذين جاءوا بالإفك عُصْبَةٌ منكم » العشر الآيات[1] ، فأنزل الله هذه الآيات [فى][2] براءتى . قالت : فقال أبو بكر : وكان ينفق على مِسْطح لقرابته منه وفقره ، والله لا أُنفق عليه شيئا أبدا بعد الذى قال لعائشة . فأنزل الله تعالى : ولا يَأْتَل أُولوا الفَضْلِ مِنْكم والسَّعةِ » إلى قوله . «ألا تحبُّون أن يَغْفر الله لكم » . فقال أبو بكر: والله إنّى لأُحبّ أن يغفر الله لى . فرجَع إلى مِسْطح النفقةَ التى كان ينفق عليه ، وقال : لا أنزعها منه أبدا .

قالت عائشة : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينبَ بنت جحش زوج النبى صلى الله عليه وسلم عن أمرى ما علمت وما رأيتِ وما بلَغك ؟ قالت : يا رسول الله أحْمى سَمْعى وبصَرى ، والله ما علمتُ إلا خيرا . قالت عائشة : وهى التى كانت تُسَامِينى من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، فعصمها الله بالورع ، وطَفِقت أختُها حَمْنة بنت جحش تحارب لها فهلكتْ فيمن هلك .

هذا حديث متفق على صحته[3] .

ونحن نسأل الله تعالى أن يعصمنا من اعتقاد من لا يسمّى فإنهم تعتريهم عند ذكر عائشة حُمَّى .

أخبرنا ابن الحصَيْن ، أنبأنا ابن المذهِب ، حدثنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله ابن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا زائدة ، حدثنا عبدالله بن خُثَيْم ،

(١) كذا فى ت . وفى ب ج : عشر آيات . (٢) من ت . (٣) صحيح البخارى ٢/٨٥ وصحيح مسلم حديث رقم ٢٧٧٠

حدثني عبـد الله بن أبي مليـكة ، أنه حدثه ذَ كْوان حاجب عائشة أنه جاء عبـدُ الله ابن عباس يستأذن على عائشة فجئت وعنـد رأسها ابن أخيها عبـد الله بن عبد الرحمن فقلت : هذا ابن عباس يستأذن . فأ كبَّ عليها ابنُ أخيها فقال : هذا عبدالله بن عباس ، وهي تموت فقالت : دعني من ابن عباس. فقال : يا أماه إن ابن عباس من صالحي بَنِيك يسلِّم عليك ويودِّعك . فقالت : إيذن له إن شئت . فأدخلتُه فلما جلس قال : أبشري ، ما بينك وبين أن تَلْقَىْ محمدا صلى الله عليه وسلم والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد ، كنتِ أحبَّ نساء رسول الله صلى الله عليـه وسلم إلى رسول الله صلى الله عليـه وسلم ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب إلا طيِّبـاً وسقطت قلادتُك ليلة الأَبْواء فأصبح رسول الله صلى الله عليـه وسلم حتى يصبح فى المنزل وأصبح النـاسُ ليس معهم ماء فأنزل الله تعالى أن يتيمموا صَعيدا طيِّباً ، وكان ذلك فى سببك ، وأنزل الله براءتك من فوق سَبْع سموات جاء بها الروح الأمين فأصبح ليس مسجد من مساجد الله يُذكر فيه الله تعالى إلا يتلى فيه آناء الليل وآناء النهار . فقالت : دعني منك يابن عباس ، والذى نفسى بيده لوددت أنى كنت نِسْياً منسياً .

إخوانى: فضائل عائشة كثيرة بعضها يكفيها ، وبحسبها أن الله أنزل آيات تتلى فيها .

أخبرنا ابن الحُصَيْن ، أنبأنا ابن المُذْهِب ، حدثنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله ابن أحمد ، حدثنى أبى، حدثنا سفيان،عن مُجَالِد ، عن الشَّعْبِي ، عن أبى سلمة ، عن عائشة قالت : رأيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم واضعا يده على مَعْرفة فرسٍ وهو يكلم رجلا . قلت : رأيتك واضعا يديك على معرفة فرس دِحْية الكلبي وأنت تكلمه . قال: ورأيت؟ قلت : نعم . قال : ذاك جبريل وهو يقرئك السلام . قالت : وعليه السلام[1] .

انظروا إخوانى: كيف لم يواجهها بالسلام لأجل زوجها ، فمن هذه حالتها مع جبريل كيف يجوز عليها الزُّور والأباطيل ؟ أمّا أهلُ السنة فقلوبهم بالفرح عنـد ذكر عائشة طائشة ، وأما الرافضة فتأخذهم حمَّى نافضة .

---

(١) زاد أحمد فى مسنده ٦/٧٥ : ورحمة الله وبركاته جزاه الله خيراً من صاحب ودخيل ، فنعم الصاحب ونعم الدخيل . والدخيل : الضعيف .

أخبرنا إسماعيل بن أحمد السَّمَرْقندى ، قال أنشدنى عاصم بن الحسين لنفسه :

وحقٍّ من بَعْلُها النبىُّ ومن   والدُها المرتضى أبو بكرِ
لا حُلْت عن مِدْحتى لها أبداً   حتى أوارَى فى ظُلْمة القبرِ
قد تيقنتُ أنّ والدَها   يَشْفع فىَّ صبيحةَ الحشرِ
طاهرةٌ تَنْتمى إلى نسَب   شرَّفه الله منــــه بالفخرِ
لما رمَوْها لا درَّ درُّهم   بالزور والإفك عصبة الشرِّ
برّأها الله من مقالتهم   بغير شكٍّ فى مُحْكَم الذِّكْرِ
فما لها مُشبهٌ يُساجِلها   وحقٍّ طه وليلة القــــدرِ
وكم لها من فضيلة نطَقتْ   بها وذِكْرٌ يبقى على الدهرِ
قالت توفِّى النبىُّ خالفــةً   ما بين سَحْرى ومُلْتَقى نَحْرِى(١)
فلا رعَى الله من تنقَّصها   فما له فى المعاد من عُذْرِ
وأىّ عذر لمُبدع رَجسٍ   مَذْهبه شَتْم زوجة الطُّهرِ

سجع

هى اختيار العظيم العلىّ للنبى ، ومذ طفولتها تُعرف بالعز الأبىّ ، ولها عقل الكِبار فى سن الصبىّ ، وهل يضرها قول الجهول الغبىّ ، أو يَقدح فى ريح المسك الذكىّ إلا بهيم « والذى تولَّى كِبرَه منهم له عذابٌ عظيم » .

ما تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم بِكْرا سِوَاها ، ولا أحبَّ زوجة كحبه إياها ، جاء بهـا الملك فى سَرقة لجلاَّها ، وتـكلم الله ببراءتهـا سبحان من أعطاها ، وما يرمى الأصحاء بالسُّقْم إلا سَقيم « والذى تولَّى كبره منهم له عذاب عظيم » .

واعجبا لمبغضيها من هم ، إن فهمتَ قولى قلت إن هُمْ ، ضرهم والله ما صدر عنهم ، خفَّت والله عقولهم والآفة تَهيم « والذى تولَّى كِبَره منهم له عذاب عظيم » .

---

(٢) السحر : الصدر .

ما خفى على حُسّادها طهارة ذيلها ، غير أن الطباع الردية فى ميلها ، هجمت عليها الأحزان برَجِلها وخَيْلها ، فكانت طولَ نهارها وليلها تبكى بكاء اليتيم .

مدوا أبْواعهم إلى عِرْضها فما نالوا ، وأكثروا القولَ ظاهراً وباطنا واحتالوا ، ونوّعوا أسباب القذف وتكلموا وأطالوا ، وهى على طهارتها مما قالوا فى مقعد مقيم .

تكلموا فيها بتُرّهات ، وراموا ذمّ السماء وهيهات ، يا عائبها إن عرفت عيباً فهات ، كفانا الله شرّ عقوق الأمهات فإنه قبيح ذميم «والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم».

ما كان سِوى غَيْم ثمّ تجلَّى ، وانصرف الحزن وتولى بالفرح الذى تولَّى ، ولبس الممدوح أحسنَ الحُلَى وتحَلّى ، وحمل القاذف إثماً وكلّا ، أيقدح العقلاء فى أمهاتهم ، القاذفون كلّا هى منهم عقيم « والذى تولى كِبْرَه منهم له عذاب عظيم » .

حُوشيتْ من ريب أو فجور ، إنما زِيدتْ بما جرى فى الأجور ، تنزهت أمُّ العُدول أن تجور ، إنما وقعت فى أغباش ليل ظلامَ دَيْجور ، ثم بان النورُ فى سورة النور ، فنزل فى الكلام القديم : « والذى تولَّى كِبْره منهم له عذاب عظيم » .

المجلس الثالث والثلاثون

فى فضل الصحابة رضى الله عنهم

الحمد لله القديم الأحدىّ، المظيم الصَّمدِىّ، الدائم الأبدى، القائم السَّرْمدى، رفع بقدرته السماء وأجرى بحكمته الماء، وعلَّم آدم الأسماء، وأمْكنه من العيش الهنىّ، فخالف بالأكل الصواب، فكشف الخِلَافُ عنه الجلباب، فخرج ومايعرف الباب لشؤم ارتكاب المنْهِىّ، ويستدرك سالف الفوات حتى عطفت على تلك العبرات رحمةُ الراحم الخفىّ، فاحذر من الأفعال الخبَاَث فإنها سبب الالتياث، وتعلَّق بالمستغاث ينقذك من جهل العماء فإنه سريع الفرج، إذا اشتد الأمر ضيقاً فرَج « وما جَعَل عليكم فى الدِّين مِنْ حرَج » رفقاً بالضعيف والقوىّ.

من لاذَ بجَنابه مريضاً صَلح، من عاذ ببابه سائلا فتح، سبحانه لقد جاد وسمَح وحتى على الفاجر الشقىّ، ذلّ لجلاله من شمخ، وقلّ لكماله من بَذخ، وخرج الليلُ بقدرته وانسلخ عن النهار النقىّ، تفرّد بالإنعام والجود، وأذلّ الأعناق له بالسجود، وتنزه عن مشابهة كل موجود بالوجود الأزلىّ، سَعِد من بطاعته يلوذ، ونجا من بحَرِيمه يعوذ، وأمرُه فى خلقه نَفُوذ، فما حيلة المرمىّ، يعلم خفىَّ الخافى من السرّ، ويسمع أنين المضطر فى الضر، ويرى دَبيب الذَّر فى البَرّ تحت أخفاف المطىّ، لا يَعزُب عن سمعه خفىّ الرِّكْز [1]، ولا يمنع أمرَه حَصِين الحِرْز، تعالى أن يشابه المخلوق فى العجز بالعز الأبدىّ، يوصف بالحياة والكلام والسمع والنفس، وجلَّت صفاته عن توهّم الحَدْس، إنما هو وحىٌ أنزله روح القدس على قلب النبىّ، يرزق النمل فى الرمل والفرخ فى العش، ويبعث المُزْن بالوَبْل والوَدق والطَّش [2]، خلَق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش، لا كاستواء البشرىّ.

---

(١) الركز : الصوت الخفى. (٢) الوبل : المطر الشديد . والودق : المطر . والطش : المطر الضعيف .

يحاسِب العبادَ يوم القِصاص ، ويسأل عن خفىّ الرياء ودقيق الإخلاص ، ويتجلى فى الجنة لأهل الخلاص فيلحقه الرائى ويا عزة المرئىّ ، بيده مُلْك الطول والعرض ، وإذا أجمع الخلائق ليـوم العرض، حار من فى السموات ومن فى الأرض ، وانقضّتْ مَشِيدات المبنىّ .

موصوفٌ بالرضا ويُحْذَر منه السَّخَط ، معروف بالـكرم فإياك والقَنَط ، شرَط عليكم التقوى فقم بالذى شَرط ، فإنه لا ينسى أجر التقىّ .

لا يخفى عليه خائنة اللحظ ، ولا يحتجب عن سمعـه خفىُّ اللفظ ، وقد نزجرك عن الخطايا بأبلغ الوعظ ، وننهاك بالعقلى والحسّى ، تنزه عن العنصر والمزاج والطبع ، وتقدس عن الجوارح وإن وصف بالبصر والسمع ، ولا تُعرف صفاته إلا بالنقل والسمع ، لا برأى البدعىّ .

قضى بالقضاء قبل خلق الخَلْق وفرغ ، وأنزل القرآن والزمن النَّزْر قد فرغ ، لينذركم به ومن بلَغ باللسان العربىّ ، وهو المـكتوب المسموع المعروف ، المحفوظ المتلوُّ المألوف ، والمتكلِّم به بالـكلام موصوف ، تنزه عن الجَرْس والعِىّ . مسطور فى الصحائف والأوراق ، منزَّل من المليك الخلّاق ، أنزله من فوق السبع الطباق على الرسول الأمىّ ، كتاب معظَّم مبارك لا يدانَى فى لفظه ، ولا يشارَك بكشف نوره ، كلما تدارك عن بصر البصيرة عَمَى العَمِىّ ، نزل بأمر الملك الجليل على النبى النبيه النبيل ، وسهِّلت تلاوته أىّ تسهيل حتى على الصبىّ ، به فاقت هذه الأمة على الأمم ، وبه نُشر لهذا العالم العلَم ، ومن حـكمته هطلت على القلوب دِيَم فاهتزت وربت بالرىّ ، فركِّب فيها أغراس الإيمان ، وأورقت أغصان الإيقان ، وانحلَّت مُغوصات الإشـكال بالبيان ، حتى وصل إلى فهم الأعجمى .

منع حافظيه اللعبَ واللهو ، ودفع عن متدبريه البطالة والسَّهْو ، فمن استغنى به عن غيره فهو فى العيش الرضى ، إنه لأجَلُّ ما تحركت به الأفواه ؛ كيف لا والمتـكلِّم به هو

الله ، يكون مخلوقا وقد اتصف به الإله ؛ ويلٌ للمعتزليّ .

لا يَخْلَق عن كثرة التكرار ولا يبلى ؛ لا يقْدر الخلق على مِثْله حاشا وكلاّ ، تعرف الملائكة كلَّ بيت فيه يُتلى كمعرفتهم بالكوكب الدرِّى .

فاسلك فى اعتقادك طريق السلَف المَرْضِيّ ، وخذ بملازمة السنن بالسَّنَن السَّوىّ ، هذا مذهبُ المسلم وعَقْد الحنبلى .

أحمده على الفهم القوى ، وأستعيذه من الشيطان الرجيم الغوىّ ، وأشهد له بالتوحيد شهادةً زاد صفاؤها على الوصف المُرْفِىّ ، وأن محمداً عبده ورسوله استخرجه من العنصر الزكىّ فبشّر بولادته انشقاقُ الإيوانِ الكسْروى ، وجمَّله بنور الهيئة قبل الزىّ ، ونصَره بالرعب قَبْل المَشْرفى [١] ، وأرسله بالدليل الجلىّ والحكم الشرعى ، وزهَّده فى مجالسة الغنىّ الغبىّ ، ورغَّبه فى صحبة الفقير من الدنيا الخلِىّ ، وعاتبه فى صُهَيْب الرومىّ وبلالٍ الحبشىّ والفقير الضعيف القصى « ولا تَطْرد الذين يَدْعون ربَّهم بالغَداة والعَشِىّ »[٢] .

وصلى الله على محمد القرشى الهاشمى المكى الزَّمْزمى الأبْطحىّ المدَنى التِّهامىّ ، وعلى صاحبه المخصوص بفضيلة « ثَانِىَ اثنين » وهو فى القبر مُضَاجِعه كهاتين ، كيف لا وقد كانا رفيقين فى الزمان الجاهلى ، وعلى الذى كانت الشياطين تَفَرَّق من ظله وتتفرق هيبةً من أجله ، إذا سمعوا خَفْق نعله هربوا من الأحْوَذىّ [٣] وعلى مُصَابر البلاء من أيدى الأعداء الذى يستحى منه ملائكة السماء . سلام الله على ذاك الحيِىّ ، وعلى الذى ملئ علما وخوفا ، وعاهد على ترك الدنيا فأوفى ، ونحن والله نحبه أوفى من حب الرافضىّ ، وعلى جميع أصحابه وأزواجه وأتباعه على منهاجه ما قام مكلَّف بالفرض الرسمىّ ، واستقام نبت فى الأرض بالوسمىّ [٤] . وسلم .

***

(١) المشرفى : السيف . (٢) سورة الأنعام ٥٢ . (٣) الأحوذى : الخفيف الحاذق والمشمر للأمور . (٤) الوسمى : مطر الربيع .

قال الله تعالى : « مُحَمَّدٌ رسولُ الله والذين معه أشِدَّاء على الكُفَّار [(١)] » قال ابن عباس : شهد له بالرسالة . وقوله « والذين معه » يعنى أصحابه « أشِدَّاء » وهو جمع شديد . والرحماء جمع رحيم . والمعنى أنهم يَغْلُظون على الكفار ويتوادّون بينهم « تراهم رُكَّعًا سُجَّدا » يصف كثرة صلاتهم « يَبْتغون فَضْلًا من الله » وهو الجنة « ورِضْوانًا » وهو رضاالله عنهم .

« سِيمَاهم » أى علامتهم «فى وجوههم» وهل هذه العلامة فى الدنيا أو فى الآخرة؟ فيه قولان : أحدهما : فى الدنيا . ثم فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أنها السَّمْت الحسن رواه ابن أبى طلحة عن ابن عباس . وقال مجاهد : هو الخشوع والوقار والتواضع . والثانى : أنه نَدَى الطَّهُور وثَرَى الأرض . قاله سعيد بن جُبَيْر . وقال أبو العالِية : لأنهم يسجدون على التراب . والثالث : أنه الشُّهوم وهو اصفرار الوجه من أثر السَّهَر . وهو مذهب الحسن وعكرمة .

القول الثانى : أنها فى الآخرة . ثم فيها قولان : أحدها : أن موضعَ السجود من وجوههم يكون أشدَّ وجوههم بياضا يوم القيامة . قاله عطيه العَوْفى . وروى عن ابن عباس أنه قال : صلاتهم تبدو فى وجوههم يوم القيامة .

والثانى : أنهم يبعثون غُرًّا مُحَجَّلين من أثر الوضوء . قاله الزَّجَّاج ويدل عليه ماروى مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « أنتم الغُرّ المحجَّلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء ؛ فمن استطاع منكم فليُطِلْ غُرَّته وتحجيله[(٢)] » .

قوله تعالى : « ذلك مَثَلُهم فى التوراة » أى صفتهم . والمعنى : أن صفة محمد وأصحابه فى التوراة هكذا .

فأما قوله : «ومَثَلُهم فى الإنجيلِ » ففيه ثلاثة أقوال : أحدها : أن هذا المثل المذكور

---

(١) سورة الفتح ٢٩ . (٢) صحيح مسلم حديث رقم ٢٤٦ .

أنه مثلهم فى التوراة هو مَثَلهم فى الإنجيل . قاله مجاهد . والثانى : أن المتقدِّم مثلُهم فى التوراة ، فأما مثلهم فى الإنجيل فهو كزرع . قاله الضحاك . والثالث : أن مثلهم فى التوراة والإنجيل كزرع . ذكره أبو سليمان الدمشقى .

قوله تعالى « أَخْرَجَ شَطْأَه » أى فراخه . يقال قد أَشْطَأَ الزرع فهو مُشْطىء إذا أفرخ « فَآزَره » أى ساوَاه وصار مِثْل الأم « فاسْتَغْلَظَ » أى غَلُظ « فاستَوَى على سُوقِه » وهو جَمْع ساق .

وهذا مثلٌ ضربه الله عز وجل للنبى صلى الله عليه وسلم إذ خرج وحده فأيّده بأصحابه ، كما قوّى الطاقة من الزرع بما نبت منها حتى كثرت وغلظت واستحكمت .

وفيمن أريد بهذا المثل قولان : أحدهما : أن أصل الزرع عبد المطلب .

أخبرنا هبة الله بن أحمد الحريرى ، أنبأنا محمد بن على بن الفتح ، أخبرنا الحسين ابن شمعون ، أنبأنا أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد ، حدثنا أبو العباس عيسى بن إسحاق الأنصارى ، حدثنا الحسين بن الحارث بن طُلَيْب الهاشمى ، عن أبيه ، عن داود ابن أبى هند ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله عز وجل : « شَطْأَه » قال : أصلُ الزرع عبد المطلب ، أخرج شطأه : أخرج محمدا صلى الله عليه وسلم « فَآزَره » بأبى بكر « فاستغلَظَ » بعمر « فاستَوَى » بعثمان « على سوقه » علىُّ بن أبى طالب .

والثانى : أن المراد بالزرع محمد .

أخبرنا محمد بن عبد الباقى البزّاز ، أنبأنا أبو عمر الجوهرى ، أنبأنا الحسين بن محمد ابن عُبَيد ، أنبأنا إبراهيم بن عبد الله المخزومى ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ؛ حدثنا على ابن إبراهيم ، حدثنا الحسين بن على الهمدانى ، حدثنا محمد بن عبد العزيز ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « كزَرْعٍ » قال : الزرع محمد . « أخرَجَ شَطْأَه » أبو بكر « فَآزَره » بعمر « فاستغلَظ » بعثمان « فاستوى على سُوقه » بعلى « يعجب الزُّرَّاع » قال : المؤمنون

« لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ » قال : يقول عمر لأهل مكة : لا يُعبد الله عز وجل بعد يومنا هذا سرًّا .

قال مالك بن أنس : مَن أصبح وفى قلبه غيظٌ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية .

واعلم أن فضائل الصحابة على جميع صحابة الأنبياء ظاهرة وكان لسَبْقهم سببان :

أحدهما : خلوص البواطن من الشك بقوة اليقين . وإلى هذا أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما سَبَقَكم أبو بكر بكثيرِ صومٍ ولا صلاة ولكن بشىء وَقَرَ فى صَدْره » .

والثانى : بَذْل النفوس للمجاهدة والاجتهاد .

وقد عُلم ما جرى لموسى مع أصحابه وعُلم صبر صحابتنا .

ولمّا استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناسَ يوم بَدْر قال المِقْداد : والله لو ضربْت بطونَها حتى تَبْلغ بَرْكَ الغِمَاد[1] لتابَعْناك ، ولا نقول كما قال قومُ موسى : « اذهب أنت وربُّك فقاتِلَا » .

وكان أبو طلحة يوم أُحُد يقول : نَحْرِى دُون نَحْرِكَ . وقُتل يومئذ زوجُ امرأة وأبوها وابنها وأخوها فقالت : يا رسول الله لا أبالى إذ سَلِمْتَ مَن عَطِبَ !

قال ابن مسعود : إن الله نظر فى قلوب العباد فوجد قلبَ محمد خير قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته ، ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوبَ أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن عمر : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرَ هذه الأمة ، أبرَّها قلوبا وأعمقها عِلْماً وأقلَّها تكلفاً ، قوم اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه ونقل دِينه .

قال أبو زُرْعة : شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع أربعون ألفاً

---

(١) برك الغماد : أقصى معمور الأرض . أو موضع .

من الصحابة ، وشهد معه تبوك سبعون ألفا ، وقُبض عن مائة ألف وأربعة عشر ألفا من الصحابة ، ممن روى عنه وسمع منه .

أخبرنا محمد بن عبد الملك ويحيى بن على ، قالا أخبرنا ابن المُسْلمة ، أنبأنا أبو طاهر المخلِّص ، حدثنا البغَوىّ ، حدثنا محمد بن عبَّاد المكّى ، حدثنا محمد بن طلحة المدِينى ، عن عبد الرحمن بن سالم بن عبد الله بن عُوَيْم بن ساعدة ، عن أبيه ، عن جده ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله اختارنى واختار لى أصحابا ، فجعل لى منهم وزراء وأنصارا ، فمن سبَّهم فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يَقْبل الله منه يومَ القيامة صَرْفاً ولا عدلا » .

تفرد برواية هذا الحديث محمد بن طلحة ، وكان ثقة .

وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخُدْرى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تسبُّوا أصحابى فإن أحدَكم لو أنفق مثل أُحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفه[1] » .

أخبرنا هبة الله بن محمد ، أخبرنا الحسن بن على ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، عن محمد بن إسحاق ، حدثنى صَدَقة بن يسَار ، عن عقيل بن جابر ، عن جابر بن عبد الله فيما يذكر من اجتهاد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غَزاة فغشينا داراً من دور المشركين فأصبْنا امرأةَ رجل منهم ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا وجاء صاحبها وكان غائبا فذكِر له مصابها فحلف لا يرجع حتى يُهْرِيق فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم دماً .

فلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض الطريق فنزل فى شِعْب من الشعاب وقال : من رجلٌ يَكْلؤنا فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار فقالا : نحن يا رسول الله . قال فخرجا إلى فم الشِّعْب دون العسكر . ثم قال الأنصارى للمهاجرى : أتكفينى آخره وأكفيك أولَه ؟ قال فقال المهاجرىّ : بل اكفنى أولَه وأكفيك آخره . فنام المهاجرى وقام الأنصارى فافتتح سورةً من القرآن ، فبَيْنا هو فيها يقرأها

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم ٢٥٤٠

جاء زوجُ المرأة فلما رأى الرجلَ قائما عرف أنه رَبِيئة [١] القوم ، فنزع له السهم فيضعه فيه . قال : فينزعه فيضعه وهو قائم يقرأ فى السورة التى هو فيها ولم يتحرك كراهية أن يقطعها ، قال : ثم عاد له زوج المرأة الثالثة بسهم فوضعه فيه ، ثم ركع وسجد ثم قال لصاحبه : اقعد فقد أُثْبِتُّ . قال : فجلس المهاجرى فلما رآهما صاحب المرأة هرب وعرف أنه قد نُذِر به ، وإن الأنصارى يفوح دما من رَمَيات صاحبِ المرأة قال فقال له أخوه : يغفر الله لك ! ألا كنتَ آذَنْتنى أولَ مارماك ؟ قال : فقال : كنت فى سورة من القرآن قد افتتحتها أصلّى فيها ، فكرهتُ أن أقطعها ، وأيم الله لولا أن أضيع ثغرا أمرنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بحفظه لقطع نفسى قبل أن أقطعها .

فسبحان من خصَّهم بهذه الفضائل وحرمهم من القصور والرذائل .

الكلام على البسملة

وعظَتْك أجداثٌ صُمُتْ ونعَتْك أزمنةٌ مضَتْ
وتكلَّمتْ عن أعظمٍ تَبلى وعن صُوَرٍ سبَتْ
وأرَتْك قبرَك فى القبو ر وأنت حىٌّ لم تمُتْ
ولربمـــا انقلب الشَّما ت فحلَّ بالقوم الشمتْ [٢]

يا مؤثرا على العرض العرض ، يا صحيحا قد قتله المرض ، يا جامعا للمال والعمر قد انقرض ، يا هدَفَ البلايا سيصاب الغرض ، يا بائعا الدِّين بنَيْل الغرض ، من لك إذا ضقت عند الموت بالأهوال ذَرْعا ، وحالت منك الُحلَى وأجْدَب المرعى ، واجتثَّ البلاء منك أصلا وفرعا ، سالت الأماقى إذا لم ينفع الراقى دمعا ، ولم يستطع للأذى ردّا ولا للردَى دَفْعا ، وأخرس الموتُ منك لسانا وأصمَّ سَمْعا ، وأضحى خَشِن التراب بعد لين الثياب لك دِرْعا ، وأصبحت لُقًى بين القوم فى الثرى صرعَى ، يا من [هو] غَرَض الآفات

(١) الربيئة : الطليعة . (٢) الشمات : الفرح ببلية العدو . والشمت : الشامتون .

تَرْشقه سهامها رَشْقا ، لابد مما وصفنا حتماً وحقا ، فتأهبْ للفناء فقلّ ما تَبقى ، وتَهيأ للبلَى فبعيد أن تتوقّى ، وأصِخْ لهاتف العِبَر فقد حادثتْك نُطْقا ، وبادر السلامة فسيستحيل الصَّفْورَنْقا ، واحذر على نفسك أن تخسر وأن تشقى (١) ، واعمل ليوم ترى فيه مدامع الخلائق لا تَرْقا ، وهم فى أمر عظيم وأكرمهم عند الله الأتقى ، إن أُعطيت بخلت بالمال وبَطِرْت ، ومتى نبت ريشُ رياشك نبَتْ أرضُ الشُّكر فطِرْت ، كيف بك يوم تُكوى بها جباههم ، من لك حين توبيخ : « هذا ما كنزْتم » :

ترمّ المالَ وبالعِرْض تَلَمْ
لا سَلِم المالُ إذا العرض ثُلِمْ
قد كنتُ ناديتُكَ والأمرُ أَمَمْ
فلم تُطِعْنى رَبَّ رأىٍ مُتَّهمْ
سَمْعُك واعٍ وبمقلك الصَّمَمْ
مواردُ الجهلِ مصادرُ الندمْ
ومن رُمِىَ بالموقظاتِ لم يَنَمْ

***

قال كعب : إذا وضع العبد الصالح فى قبره احتوشَتْه أعمالُه الصالحة ، فتجىء ملائكة العذاب من قِبَل رجليه فتقول الصلاة : إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال القيام لله عز وجل . فيأتونه من قِبَل رأسه فيقول الصيام : لا سبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه لله عز وجل فى دار الدنيا . فيأتونه من قِبَل جسده فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه فقد أنْصَب نفسه وأتعب بدَنه . ويأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة : كُفوا عن صاحبى فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت فى يد الله عز وجل . فيقال له : نم هنيًا طبت حيا وميتا . وتأتيه ملائكة الرحمة فتفْرُشه فراشا من الجنة ودِثَارا من الجنة ،

(١) ب : أو أن تشقى . وما أثبته من ت.

ويُفسح له فى قبره مدّ بصره ، ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضىء بنوره إلى يوم القيامة .

وقف بعض الحكماء على المقابر فقال : يا أهل القبور ، أصبحتم نادمين على ما خلفتم فى البيوت ، وأصبحنا نقتتل على ما ندمتم عليه ، فما أعجبنا وأعجبكم !

يا أيهـــا الواقف بالقبورِ بين أناسٍ غُيَّبٍ حضورِ
قد أسكنوا فى خَرِب مغمور بين الثَّرَى وجندلِ الصخورِ
ينتظرون صيحة النُّشور لا تكُ عن حظك فى غرورِ

قال بعض الصالحين : صليت ركعتين فى الليل ثم وضعت رأسى على قبر ثم نمت ، فإذا صاحب القبر يقول : لقد آذيتنى منذ الليلة ، إنكم تعلمون ولا تعملون ، ونحن نعلم ولا نعمل ولا نقدر على العمل ، إن الركعتين اللتين ركعتهما خيرٌ من الدنيا وما فيها . ثم قال : جزى الله أهلَ الدنيا عنا خيرا أقرئهم منا السلام فإنه يدخل علينا من دعائهم نور أمثال الجبال .

كان الربيع بن أبى راشد يخرج إلى الجبَّان فيقيم طول النهار ويرجع مكتئباً فيقول له إخوانه وأهله : أين كنت ؟ فيقول : كنت فى المقابر ، نظرت إلى قوم قد مُنعوا ما نحن فيه .

طالما صعَّروا الخدود وهزوا الأ أرضَ فى يوم مَحْفلٍ وركوبِ
ثم أمسَوْا وَفْدَ القبور سكان أطبا ق الثَّرى تحت جندلٍ منصوب
كم كريمٍ منهم يَرى الوعدَ بخلا مستقلٍّ لكثرة الموهوبِ
ردَّ عنى غَرْبَ اللام خليلى إن نفسى صارت علىّ حَسِيبى
وتنحيتُ عن طريق الملاهى والملاهى وقلت للنفس توبى

الكلام على قوله تعالى

﴿ ولا تَطْرد الذين يَدْعون ربَّهم بالغداةِ والعشيِّ يريدون وجهَه ﴾

روى مسلم فى صحيحه[١] من حديث سعد بن أبى وقاص قال: نزلت هذه الآية فىَّ وفى ابن مسعود وصُهَيْب وعمار والمِقْداد وبلال، قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا لا نرضى أن نكون أتباعا لهؤلاء، فاطردهم عنك. فدخل من ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله، فنزلت هذه الآية[٢]

أخبرنا محمد بن عبد الباقى، أخبرنا أحمد بن أحمد الحداد، أخبرنا أبو نُعَيْم أحمد ابن عبد الله، حدثنا أبو بكر الطلحى، حدثنا عبيد بن غنام، حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا أحمد بن المفضَّل، حدثنا أسباط بن نصر، عن السُّدى، حدثنا سعيد الأزدِىّ، عن أبى الكنود، عن خباب بن الأرتّ قال: جاء الأقرع بن حابس التميمى هو وعُيَيْنة ابن حِصْن الفَزارىّ فوجدا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قاعداً مع عمَّار وصُهَيْب وبلال وخَبَّاب فى أناس من ضعفاء المؤمنين، فلما رأوهم حقروهم نخلَوْا به فقالوا: إن وفود العرب تأتيك، فنستحى أن ترانا العرب قعوداً مع هذه الأعبد، فإذا جئناك فأقمهم عنا. قال: نعم. قالوا: فاكتب لنا عليك كتابا. فدعا بالصحيفة ودعا عليّا ليكتب ونحن قعود فى ناحية، إذ نزل جبريل عليه السلام فقال: «ولا تَطْرد الذين يَدْعون ربَّهم بالغَداة والعشيِّ يريدون وجهَه» إلى قوله تعالى: «وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا» الآية. فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحيفة ودعانا فأتيناه وهو يقول: سلام عليكم فدنونا منه حتى وضَعْنا رُكبنا على ركبته. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس معنا فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله عز وجل: «واصبرْ نفسَك مع الذين يَدْعون ربَّهم بالغَداة والعشيِّ يريدون وَجْهَه ولا تَعْدُ عيناكَ عَنْهُمْ» قال: فكنا بعد ذلك نقعد

(١) صحيح مسلم حديث رقم ٢٤١٣ باختلاف (٢) ت: فأنزل الله تعالى هذه الآية.

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا بلغنا الساعة التى كان يقوم فيها قمنا وتركناه وإلا صبَر إذاً حتى نقوم .

***

قوله تعالى : « يَدْعُون رَبَّهم » المراد بهذا الدعاء خمسة أقوال : أحدها : أنه الصلاة المكتوبة . قاله ابن عمر وابن عباس . والثانى : ذِكْر الله عز وجل . قاله النَّخَعى . والثالث : عبادة الله عز وجل . قاله الضحَّاك . والرابع : تعلّم القرآن غدوةً وعشية . قاله أبو جعفر . والخامس : دعاء الله بالتوحيد والإخلاص وعبادته . قاله الزجَّاج .

قوله تعالى : « يريدون وَجْهه » أى يريدونه بأعمالهم .

كانوا يَصْبرون على الجماعة ، ويُخْلصون الطاعة ، ولا يضيعون ساعة ، فيا فَخْرهم إذا قامت الساعة .

أخبرنا السِّجزِىّ ، أخبرنا الدّراوَرْدى ، أنبأنا السَّرَخْسى ، حدثنا الفَربْرِىّ ، حدثنا البخارى ، حدثنا يوسف بن عيسى ، حدثنا ابن فضيل، عن أبيه ، عن أبى حازم ، عن أبى هريرة قال : لقد رأيت سبعين رجلا من أهل الصُّفة ما منهم رجل عليه رداء إمّا إزار وإما كساء قد ربطوا فى أعناقهم فمنها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن تُرى عورته .

انفرد بإخراجه البخارى .

وفى الصحيحين من حديث سهل بن سعد قال : إن كنا لَنفرح بيوم الجمعة ، كانت لنا عجوز تأخذ أصول السِّلْق فتجعله فى قدر لها وتجعل فيه حبات من شعير ، إذا صلينا زرناها فقربته إلينا (١) .

وفى الصحيحين من حديث سعد بن أبى وقاص قال : كنا نغزو مع النبى صلى الله عليه وسلم ما لنا طعام إلا ورق الْحُبْلة وهذا السَّمُر (٢) .

***

(١) صحيح البخارى ٣/٢٤٥ .

(٢) صحيح البخارى ٤/١٠١ ، وصحيح مسلم حديث رقم ٢٩٦٦ .

لله در أقوام أخلصوا الأعمال وحققوها ، وقيدوا شهواتهم بالخوف وأوثقوها ، وسابقوا الساعات بالطاعات فسبقوها ، وخلصوا أعمالهم من أشراك الرياء وأطلقوها ، وقهروا[1] بالرياضة أغراض النفوس الردية فمحقوها ، فمن إبعاد مثلهم وقع نهى النبى « ولا تَطْرد الذين يَدْعون ربَّهم بالغَداة والعشى » .

صعدت صحائفهم من الأكدار صافيـة ، وارتفعت أعمالهم بالإخلاص ضافيـة ، وأصبحت نفوسهم عن الدنيا متجافية ، والناسُ فى أخلاط والقومُ فى عافية ، ففاق المَوْلَى منهم على الرئيس القرشىّ « ولا تَطْرد الذين يَدْعون ربَّهم بالغَداة والعشىّ » .

دموعهم بالأحداق مُحْدِقة ، ورءوسهم فى الأسحار مُطْرِقة ، وأكفّهم بما تَسْكبه فى الخير مُنْفِقة ، ونفوسهم بعـد الجدّ من اللوم مشفقة ، يَرِدون من حيـاض المصافاة على أوفى الرِّىّ « يدعون ربَّهم بالغداةِ والعشىّ » . خلَّصوا الأعمال من الأكدار نَفْلا وفَرْضا ، واجتهدوا فى طاعة مولاهم ليرضى ، وحضُّوا أنفسهم لطلب الحظ الأحظّ حَضّا ، وغضوا أبصارهم عن غَضّ[2] الشهوات غَضّا ، فإذا أبصرتهم رأيت أجساداً مَرْضى وعيونا قد ألِفت السَّهر فما تـكاد تَطْعم غَمْضا ، بادروا أعمارهم لعِلْمهم أنها ساعات تتقضَّى ، فأمدهم بالعونِ السَّرْمدىّ « يَدْعُون ربَّهم بالغَداة والعشىّ » .

ابتلاهم فرضوا وصبروا ، وأنعم عليهم فاعترفوا[3] وشـكَروا ، وجاءوا بكلّ ما يرضى ثم اعتذروا ، وجاهدوا العـدو فمـا انقشعت الحرب حتى ظفروا ، فنالوا غاية الإمكان فى المـكان العلى « يدعون ربهم بالغداة والعشى » .

***

لله دَرّ أناس أخْلصوا العملَا[4] على اليقين ودانُو بالذى أُمِروا
أوْلاهم نعماً فازداد شُكرهُم ثم ابتلاهم فأرضَوْه بما صَبرُوا
وفَوْا له ثم وافَوْه بما عَمِـــلوا إذًا سَيُوفيهمُ[5] يوماً إذا نُشِرُوا

---

(١) ب : فهذبوا . (٢) ت : عن غرض . (٣) ب : فرفعوا . (٤) ت : عملا .
(٥) ت : وأنه سيوفيهم .

قال سعد بن أبى وقَّاص : لقيت عبدَ الله بن جحش يوم أُحد فقال : يا سعد ألا تدعو الله عز وجل ؟ فدعا عبد الله فقال : يا رب إذا لقيتُ العدوَّ غداً فلقِّنى رجلا شديداً بأسُه أقاتله فيك ويقاتلنى ثم يأخذنى فيَجْدَع أنفى وأُذنى ، فإذا لقيتك غداً قلتَ : يا عبد الله من جدَع أنفك وأذنك ؟ فأقول : فيك وفى رسولك . فتقول : صدقتَ .

قال سعد : فلقد رأيته آخرَ النهار وإنّ أنفه وأذنه لمعلَّقتان فى خيط .

وأقبل مصعب ابن عُمَيْر يوماً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه قطعة من نَمِرة[1] قد وصلها بإهَاب[2]، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد رأيتُ هذا وما بمكة فتًى أَنْعَمَ عند أبويه منه ، ثم أخرجه من ذلك الرغبةُ فى حبِّ الله ورسوله .

ولمّا كان يوم أُحد كان معه لواء المهاجرين ، فضربه ابن قَمِئَة فقطع يدَه ، ومُصْعَب يقول : « وما محمدٌ إلا رسولٌ » فأخذ اللواء بيده اليسرى وحَنَى عليه فضرب يدَه اليسرى فقطعها ، فحنى على اللواء وهو يقول : « وما محمدٌ إلا رسول » فقتل ولم يوجد له كفن إلا نَمِرة كانوا إذا وضعوها على رأسه خرجتْ رجلاه ، وإذا وضعوها على رجليه خرج رأسُه ، فجعلوا على رجليه شيئا من الإذْخَر[3] .

ولما تهيَّأ الناس للخروج إلى غزوة مُؤْتة جعل المسلمون يقولون: صَحِبكم اللهُ ودفَع عنكم . فقال ابن رَوَاحة :

لكننى أسألُ الرحمنَ مغفرةً ... وضربةً ذات فَرْغٍ[4] تقذف الزَّبَدا
أو طعنةً بيدىْ حَرّان مُجْهِزة ... بحربةٍ تُنْفِذ الأحشاء والكَبِدا
حتى يقولوا إذا مَرُّوا على جَدَثى ... أرشدَك[5] الله من غازٍ وقد رشَدَا

• أخبرنا محمد بن ناصر وعلى بن أبى عمر ، قالا أنبأنا رزق الله وطرّاد ، قالا حدثنا أبو الحسين بن بشْران ، أنبأنا ابن صَفْوان ، حدثنا أبو بكر القُرشى ، حدثنى أبى ، حدثنا عبد القدوس بن عبد الواحد الأنصارى ، حدثنا الحَكَم بن عبد السلام ، أن جعفر

---

(١) النمرة : بردة من صوف غليظ . (٢) الإهاب : الجلد . (٣) الإذخر : نبت .
(٤) ذات فرغ : واسعة . (٥) ابن هشام : أرشده .

ابن أبي طالب حين قُتل دعا الناسُ : يا عبد الله بن رَواحة . وهو فى جانب العسكر ومعه ضِلع جمل يَنْهشه ، ولم يكن ذاق طعاما قبل ذلك بثلاث . فرمى بالضلع ثم قال : وأنتَ مع الدنيا ! ثم تقدّم فقاتل فأصيب إصبعه فارتجز :

هل أنت إلا إصْبعٌ دَميتِ وفى سبيـــلِ الله مالقيتِ

يا نفسُ إلا تُقتــــلِي تموتى هذا حِياضُ الموت قد صَليتِ

وما تمنَّيْتِ فقـــد لقيتِ إن تفعـــلى فِعْلهما هُديتِ

وإن تأخرتِ فقد شَقِيتِ

ثم قال يانفس إلى أى شيء تتوقين ؟ إلى فلانة ؟ فهى طالق ثلاثا . وإلى فلان وفلان، غلمان له ، [فهم أحرار] وإلى معجف[1] حائط له ، فهو لله ولرسوله :

يا نفسُ مالك تَــكْرهين الجنّة طائعـــةً أو لتُـكْرَهِنّه

قد طال ما قد كنتِ مطمئنة هل أنت إلا نُطْفة فى شَنّة[2]

قد أجْلَبَ الناسُ وشَدُّوا الرنّة[3]

***

لله در أقوام تَعِبوا فأُريحوا ، وزهدوا فأُبيحوا ، جلِّيت أبصارهم فشاهدوا ، وأُعطوا سلاح المعونة فجاهدوا ، وتأملوا الدنيا وسَبروها ، وعرفوا حالها وخَبَرُوها ، فصدَّت نفوسُهم، ما صدَّها ما كانت تعبد وأقبلت على قِبْلة الاعتذار فى مناجاة « ظلمتُ نفسى » فضربت بالدنيا وجهَ عشاقها ، وشمَّرت فى سُوق الجِدّ عن ساقها ، ونَقَضت لتصحيح عملها خَدْع الخديعة ، ونفَضت يد أملها من سَراب بقِيعة ، فحدَتْ[4] ركائب سيرها فى إدلاج سُرَاها ، وزادها نشاطا حادِى الهمة لمّا حداها ، فسبقت إلى الخلال الكرائم ووصلت إلى الإفضال وأنت نائم .

---

(١) ب : معجن . (٢) الشنة : القربة الخلق ــ ضرب ذلك مثلا لنفسه فى جسده .

(٣) الرنة : الصوت : والرواية هنا مخالفة لرواية ابن هشام فى سيرته ٤/٢١ فى الترتيب ، وفيها نقص

(٤) ب : فحدرت .

قالت المَكْرماتُ لستُ لمختا ... رٍ ولكن لصامدٍ لىَ صَمْدًا
ويُكدّ الجثمانَ والروح والجا ... ه طويلا ولا يَرى الكَدّ كدًّا

يا هذا لو صحَّت منك العزيمة أوقعتَ فى جيش الهوى هزيمة ، إن فى البدن مُضْغة إذا صَلُحت صَلُح البدنُ وإذا فسدت فسد البدن ألا وهى القلب ، يا هذا متى حصل الفساد فى رأى الملِك تشتت الأعوان ، ومتى رُمى القذَر فى فُوهة النهر أثَّر فى المشارِع .

وإذا كان فى الأنابيب خُلْفٌ ... وقع الطَّيْشُ فى رءوس الصِّعَادِ

يا هذا إن أردت لقاءنا فى حضرة القُدْس ، واشتاق سمعك إلى نغمات الأُنْس ، فصُم عن لذات النفس وشهوات الحِسّ ، واصبر على قطع مَفاوز الحزْن واستأنس ببثك فى بيت الوَجْد ، وقضِّ نهار المُنَى بمحادثة الفكر ، واقطع أملَ الهوى بقَهْر العزم ، واقرع فضولَ الكلام بسَوْط الصمت ، وأقم على طَرْف طَرْفك حاجبَ الغضّ ، وانبذ إلى كلب الشهوات كِسَر الصبر ، وفرِّغ دارَ عُزلتك من شواغل القلب ، فإذا سمعت ضجيجَ محبوسِ النفس يستغيث من سجن الزهد لشدة الحصْر فصح [به][1] : يا صاح صبراً على ضِيق الحبْس ، لعلك تخرج إلى رياض « اجعلنى على خزائن الأرض » .

وقد صُمْتُ عن لذاتِ دَهْرى كلها ... ويومُ لِقاَكم ذاك فِطْر صيامِى

(١) من ت

المجلس الرابع والثلاثون
فى فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم

الحمد لله خالق الجامد والحسَّاس ، ومُبْدِع الأنواع والأجناس ، القوى فى سلطانه الشديد الباس ، المنزّه عن السِّنَة والنعاس ، المخرج رَطْب الثمار من يابس الأغراس ، نفذ قضاؤه فلم يمتنع بأَحْراس ، وقهر عزه كلَّ صعب المِراس لا يَعْزُب عن سمعه حركات الأضراس ، ولا دبيب ذَرٍّ بالليل ، فى مطاوى قرطاس ، نفذت مشيئته فكم مجتهدٍ عاد بالياس ، يفعل ما يريد لا بمقتضى تدبير الخَلْق والقياس ، قدَّم نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم عن كل نبى دبَّر وساس ، فسبحان من أجزل له العطا ، وجعله خيرَ نبى حارب وسطا ، وقال لأمته : « وكذلك جعلناكم أمةً وسطا لتكونو شهداء على الناس » .

أحمده حمداً يدوم بدوام اللحظات والأنفاس ، وأصلى على رسوله محمد الذى شَرْعه مستقرٌّ ثابت الأساس ، وعلى صاحبه أبى بكر الثابت العزم وقد ارتدَّ الناس ، وعلى عمر قاهر الجبابرة الأشواس ، وعلى عثمان الصابر يوم الشهادة على مرير الكاس ، وعلى علىٍّ أهدَى الجماعة إلى نصٍّ أو قياس ، وعلى عمه وصِنْو أبيه العباس .

***

قال الله تعالى : « وكذلك جَعلْناكم أمةً وسَطا (١) » الكاف فى قوله : « كذلك » كاف التشبيه ، فالكلام معطوف على قوله : « ولقد اصطَفَيْنَاه فى الدُّنيا » والتقدير : فكما اخترنا إبراهيم وذريته واصطفيناهم : كذلك جعلناكم أمة وسطا أى عُدولا خِيَارا . ومثله : « قال أَوْسَطُهم (٢) » أى خيرهم وأَعْدَلهم .

همُ وسَطٌ يرضى الأنَام بحكمهم ... إذا نزلت إحدى الليالى بمُعْظَمِ

---

(١) سورة البقرة ١٤٣ . (٢) سورة القلم ٢٨ .

وأصل هذا أن خير الأشياء أوساطها وأن الغلوّ والتقصير مذمومان .

« لتكونوا شهداء عَلَى الناس » وفيه قولان : أحدهما لتكونوا شهداء يوم القيامة للأنبياء على أممهم بأنهم قد بلّغوا .

أخبرنا ابن الْحُصَيْن، أنبأنا ابن المُذْهِب ، أخبرنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله ابن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا وَكِيع ، حدثنا الأعْمش ، عن أبى صالح ، عن أبى سعيد الْخُدْرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يُدْعَى نوحٌ عليه السلام يوم القيامة فيقال له : هل بلَّغت ؟ فيقول : نعم . فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلَّغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير . فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته . فذلك قوله تعالى : « وكذلك جعَلْناكم أمةً وسَطاً » . قال : الوسط : العدل . قال : فتُدْعَون فتشهدون له بالبلاغ . قال : « ثم أشهد عليكم » .

قال أحمد : وحدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يجىء النبىُّ يوم القيامة ومعه الرجل والنبى ومعه الرجلان وأكثر من ذلك ، فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلّغكم هذا ؟ فيقولون : لا . فيقال له : هل بلّغت قومَك ؟ فيقول : نعم . فيقال له : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته . فيدعى محمد وأمته . فيقال لهم : هل بلّغ هذا قومَه ؟ فيقولون : نعم . فيقال : وما عِلْمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبيُّنا فأخبرنا أن الرسل قد بلّغوا . قال : فذلك قوله عز وجل : « وكذلك جعَلْناكم أمةً وسَطا » قال : يقول : عَدْلا « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسولُ عليكم شهيدا » .

القول الثانى : لتكونوا شهداء لمحمد على الأمم اليهود والنصارى والمجوس ، ويكون الرسول شهيدا عليكم بأعمالكم . قاله مجاهد

ا

***

واعلم أنه كما فضَّل نبيّنا صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء فضَّلت أمتنا على سائر الأمم .

أخبرنا هبة الله بن محمد ، أنبأنا الحسين بن على ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن همّام بن مُنبّه ، حدثنا أبو هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نحن الآخِرون السابقون يومَ القيامة بَيْدَ أنهم أُوتوا الكتابَ من قَبْلنا وأوتيناه من بعدهم فهذا يومُهم الذى فُرِض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له ، فهم لنا فيه تَبَع ، فاليوم لنا ولليهود غداً وللنصارى بعد غد » .

قال أحمد : وحدثنا يحيى ، عن شعبة ، حدثنا أبو إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبة حمراء نحواً من أربعين فقال: أترضَوْن أن تكونوا رُبْع أهل الجنة . قلنا نعم . قال : أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة ؟ قلنا : نعم . قال : فو الذى نفسى بيده إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفسٌ مسلمة ، وما أنتم فى أهل الشِّرك إلا كالشَّعرة البيضاء فى جِلْد ثور أسود أو السوداء فى جلد ثور أحمر » .

قال أحمد : وحدثنا إسماعيل ، أنبأنا أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مَثلكم ومثلُ اليهود والنصارى كرجل استعمل عُمالًا فقال : من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط ؟ ألا فعملت اليهود . ثم قال : من يعمل لى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط ؟ ألَا فعملت النصارى . ثم قال : من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين ؟ ألا فأنتم الذين عملتم . فغضب اليهود والنصارى فقالوا : نحن كنا أكثر عملا وأقلَّ عطاء . قال : هل ظلمتُكم من حقكم شيئا ؟ قالوا : لا . قال : إنما هو فَضْلى أوتيه من أشاء » .

***

واعلم أن فضيلة هذه الأمة على الأمم المتقدمة وإن كان ذلك باختيار الحق لها وتقديمه إياها إلا أنه جعل لذلك سببا ، كما جعل سبب سجود الملائكة لآدم عِلْمه بما جهلوا ، فكذلك جعل لتقديم هذه الأمة سببا هو الفطنة والفهم واليقين وتسليم النفوس .

واعتبر [١] حالَهم بمن قبلهم : فإن قوم موسى رأوا قدرةَ الخالق فى شَقِّ البحر ثم قالوا : « اجعل لنا إلٰهاً » . ثم مال كثيرٌ منهم إلى عبادة العِجْل . وعرضت لهم غَزاة فقالوا : « اذهبْ أنت وربُّك فقاتِلَا » ولم يقبلوا التوراة حتى نُتق عليهم الجبل . ولما اختار سبعين منهم فوقع فى نفوسهم ما أوجب تزلزل الجبل بهم .

ولهذا لما صعد نبينا صلى الله عليهم وسلم إلى حِرَاء فى جماعة من أصحابه تزلزل الجبلُ فقال : «اسْكُن فما عليك إلا نبيٌّ أوصِدِّيق أوشهيد » . فكأنه أشار إلى أنه ليس عليك من يَشُكّ كقوم موسى .

ومن تأمَّل حالَ بنى إسرائيل رآهم قد أُمروا بقول « حِطَّة » فقالوا : « حِنْطة » وقيل لهم : « ادخلوا البابَ سُجَّدا » فدخلوا زحفا . وقالوا عن نبيهم : هو آدَر [٢] . ومن مذهبهم التشبيه والتجسيم وهذا من أعظم التغفيل ، لأن الجسم مؤلَّف ، ولا بد للمؤلَّف من مؤلِّف .

ومن غفلة النصارى : اعتقادهم أن الله تعالى جوهر والجوهر يتماثل ، ولامِثْل للخالق . ثم يقولون : عيسى ابنه وقد عُلِم أن الابن بعض ، والخالق سبحانه لايتجزَّأ فلا يتبعَّض . ثم قد علموا أن عيسى لا يقوم إلا بالطعام ، والإله من قامت به الأشياء لامن قام بها .

وقد عُرِف يقين أمتنا وبَذْلهم أنفسهم فى الحروب وطاعة الرسول ، وحفظهم للقرآن ، وأولئك كانوا لايحفظون كتابهم ، فلهذا فُضِّلوا .

فهم أولُ أمة يدخلون الجنة . وقد قال عليه السلام : « أهلُ الجنة مائة وعشرون صفًّا ، أمتى منهم ثمانون صَفًّا » .

---

(١) ب : فاعتبر . (٢) الآدر : العظيم الخصيتين .

أخبرنا ابن الحُصَيْن ، أنبأنا ابن المذْهِب ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله ابن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا يزيد ، حدثنا بَهْز بن حَكيم بن معاوية ، عن أبيه عن جده ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا إنكم تُوفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى » .

فالحمد لله الذى أعطانا بجوده وفضله (١) ما لَسْنا من أهله .

الكلام على البسملة

لِلنَّقْص من أعمارنا ما يَكْمُل   والدهر يُونسنا ونحن نؤمِّلُ
تمشى المَنُون رُوَيْدها لتَغُرَّنا   أبداً فتُدْركنا ونحن نُهرولُ
يا مُعجَبا بالعيش طال بقاؤه   بطَراً بقاؤك فى المنيّة أطولُ
عن جانِبَىْ دنياك فارغب إنه   أَوْدَى الحريصُ وما نجا المتوكِّلُ
وإذا الجفونُ تخلّصت من مُجْمل الشـ   ـبهات خلَّص نفسَه من يَعْقلُ
دنيا تسرُّ بما يضرّ بمثله   واسمٌ لها شَهْدٌ ومعنًى حنظلُ

يا هذا : الدنيا دار المحن ودائرة الفتن ، ساكنها بلا وطن واللبيب قد فَطن ، أين من مالَ إلى حب المال بالآمالِ وصباً ، وأصبح بين غَبُوقه وصَبُوحه لا يَعْرف وصَباً ، وتقلَّب بجهله فى روضتَىْ هوًى وصِباً ، وأضحى عَلَم شهواته على قباب عزه منتصبا ، وظلَّ ربيع ربعه بوفور جمعه خصبا ، وكلما دعِى إلى نفعه فى عاقبته أبَى ، أمَا شارك بمصرعه الفاجع له أمًّا وأبا ، أما صار إذ رحَل نبَا (٢) ، أتراه تزوَّد لمذهبه إذ أذْهب ذهَبا ، لقد لقى والله إذ نصب الموت شرَكه نَصَبا ، أين من رضى ظلالَ البطالة بضلاله رَبْعا وفِناَ ، أما أدركه التلفُ فى أسوأ حاله ثيابا وفَناَ ، لقد غادره جفاؤه لِماَ ينفعه جفاً ، لا يجدُ لمرضه إذ تمكن من جماته شِفا ، أين من كان مجلسه بين الناس فى الصدور ، أين من كانت همّته نِضَار القصور ، أما استلبه الموتُ من المنازل والقصور ، أين من كانت تقوى بسقائه الظهور (٣) ،

(١) ت : عطاء لسنا من أهله . (٢) كذا بالأصل . ولعل نبا : نبأ . أى صار خبرا من الأخبار .
(٣) كذا بالأصل . وهى محرفة فى ج .

أماَ عدم الظهير عند الموت حين الظهور ، حام الحِمَام حول حِماَه فلم ينفعه الحِمَى ، ورام راميه مَراميه فرماه إذ رمى ، وصاحت به هاتفاتُ الفراق بملء فيها ، ولفظته المنازل كأن لم يكن فيها ، كأن لم تعلق راحته براحة الهوى إذ زَلَّ قدمه فى التلف وهوى ، وكأنه ما عزم على غرض ولا نوى إذ جذبته بأيديها النوى ، وكأنه ماتحركَ من مراد ولا التوى حين أدركه سكون التلف والتَّوى[١] ، انبتَّ والله حَبْل بقائه بأَقْطع المُدَى ، وانتثر منظومُ حياته وانقطع المدَى ، فأُخرج عن الإنس كأنه ليس من الجنس ، وكُفَّ كَفُّه فى الرَّمْس بعد تصرف الخَمْس ، وأصبحت منازله إذ لم يصبح بها ولم يُمْس كأن لم تَغْنَ بالأمس .

أخى إنما الدنيا محـــلة نَغْصَةٍ ودارُ غرورٍ آذنَتْ بفراقِ
تزَوّدْ أخى من قبل أن تسكن الثَّرى ويلتفَّ ساقٌ للممـــات بساقِ

ما أقرب ما هوآت ، ما أبعد ما قد فات ، ما أغفل الأحياء عما حلَّ بالأموات .

يا غافلين عن الفَنا ليس الفنا عنكمْ بغافلْ

أخبرنا يحيى بن على المدير ، أخبرنا عبد الصمد بن المأمون ، أخبرنا الدارقطنى ، حدثنا الحسين بن إسماعيل ، حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا أبو أسامة ، عن بُرَيْد ، عن[٢] أبى بُرْدة ، عن أبى موسى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن مَثَلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجلٍ أتى قومَه فقال : يا قوم إنى رأيت الجيشَ بعينى وأنا النذير العريان ، فالنجاء . فأطاعه طائفة من قومه فأَدْلجوا وانطلقوا على مهلهم فنَجَوْا ، وكذَّبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم . فذلك مثل من أطاعنى واتبع ماجئت به ومثل من عصانى وكذب ماجئت به من الحق » .

أخرجاه فى الصحيحين[٣] .

وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه من أحد يموت إلا ندِم قالوا :

---

(١) التوى : الهلاك .
(٢) الأصل : عن يزيد بن أبى بردة . محرفة والتصويب من صحيح البخارى ٤/٢١١ .
(٣) صحيح البخارى ٤/٢١٠ وصحيح مسلم حديث رقم ٢٢٨٣ .

فما ندمُه يا رسول الله ؟ قال : إن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد ، وإن كان مسيئا ندم أن لا يكون نزَع » .

***

يا من لا يسمع قولَ ناصح ، أما هذا الشيب دليلٌ واضح ، لمن تحدّث والقلب غائب ، ليتنا نعلم مُستقرَّه فنكاتِب ، قلنا له : بياضُ الشيب قد فَضَحك فضَحِك ، يجمع التقصيرَ إلى التفريط ويضم ، وينوى فعلَ الذنوب فيعزم ويهمّ ، ويحك تأمّل هلالَ الهُدَى فما خَفِى ولاغُمّ ، واسمع واعظ العِبَر فقد زعزع الجبال الشُّمّ ، وأيقظ قلبك الغافل وهيهات لاتسمع الصُّم ، وعُمْ فى بحر حزنك على ذنوب تَعُمّ ، فلقد بالغنا فى زجرك يا من بالزجر قد أمّ ، فإذا رضيت أن تكون لنفسك مُبيرا[1] فلحَى اللهُ ظِئرا أَشفقَ من الأُمّ .

الكلام على قوله تعالى

﴿ كنتم خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس[2] ﴾

فى « كنتم » قولان : أحدها : أنه بمعنى الماضى . ثم فيه خمسه أقوال : أحدها : كان وصْفكم فى البشارة بكم قبلَ وجودكم : أنكم خير الناس . قاله الحسن .

والثانى : كنتم فى سابق علم الله تعالى وحكمه . قاله ابن مقسم .

والثالث : كنتم فى اللوح المحفوظ قد كتبتم خير أمة .

والرابع : كنتم مذ كنتم . والمعنى : ما زِلتم . قاله ابن الأنبارى .

والخامس : وجِدْتم وخُلقتم خير أمة .

القول الثانى : أن معنى « كنتم » : أنتم . مثل قوله تعالى « وكان الله غفورا رحيما » قاله الزجاج . وقال ابن قتيبة : وقد يأتى الفعل على بِنْية الماضى وهو ذاهب أو مستقبَل كقوله : « كنتم » ومعناه أنتم ومثله « إذ قال الله »[3] أى وإذ يقول . ومثله : « أَتى

(١) مبيرا : مهلكا . وفى ب : مشيرا والظئر : الأم من الرضاع . (٢) سورة آل عمران ١١٠ .
(٣) سورة المائدة ١١٠ .

أمرُ الله »[١] ومثله: « من كان فى المهد[٢] » ومثله « فسُقْناه إلى بلدٍ ميت » أى فنسوقه.
قال أبو هريرة : فى قوله « كنتم خير أمة أُخرجت للناس » : يجيئون بهم والأغلال فى أعناقهم فيدخلون فى الإسلام .

قال عطية : يشهدون للأنبياء بالتبليغ .

اعلم أن الخيرية تشمل أمتنا أولهَا وآخرها وإن كان للأول فضل السَّبق .

أخبرنا الكَرُوخى ، أنبأنا ابن عامر الأَزْدى وأبو بكرٍ الغُورَجِىّ ، قالا أنبأنا الجرَّاحى ، حدثنا المحْبُوبى ، حدثنا التِّرمذى ، حدثنا قُتيبة ، عن حمَّاد، عن ثابت البُنَانى، عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثل أمتى مثل المطَر لا يُدْرَى أوله خيرٌ أم آخره » .

فإن قيل : هذا يوجب تردّداً فى تفضيل الصحابة ؟ فالجواب : أنه أراد تقريب آخر الأمة إلى أولها فى الفضل ، كما تقول : لا أدرى : أَوَجْه هذا الثوب خير أم مؤخَّره ؟ وقد عِلم أن وجهه أفضل ، لكنك تريد تقريب مؤخره من وجهه فى الجود . ذكره ابن قتيبة .

فأما فضل الصحابة فلا يُشك فيه إذلهم صبرٌ على الحق لا يشاركهم فيه أحد .

كان بلال يعذَّب فى الرَّمْضاء ويقولون له قل : اللات والعزُّى . وهو يقول : أحَد أحَد . وكان عمّ الزبير يعلق الزبير ويدخِّن عليه بالنار ويقول : ارجع إلى الكفر فيقول : لا أرجع .

أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك ، أخبرنا أبو الحسن على بن محمد الخطيب ، أنبأنا أحمد بن يوسف ، أنبأنا الحسين بن صفوان ، أخبرنا أبو بكر القرشى ، أخبرنا على ابن الجعد ، أخبرنا عمرو بن الشمر ، حدثنى إسماعيل السُّدى ، قال سمعت أبا أراكة قال : صليتُ مع علىّ رضى الله عنه صلاة الفجر فلما سلم انفتل[٣] عن يمينه ثم مكث كأن

(١) سورة النحل ١ . (٢) سورة مريم ٢٩ . (٣) انفتل : انصرف .

عليه كآبة ، حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قِيد رُمْح قلّب يده فقال : والله لقد رأيت أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فما أرى اليوم أحداً يشبههم ، لقد كانوا يُصبحون شُعْثا غُبْرا بين أعينهم أمثال رُكَب المِعْزى ، قد باتوا لله سُجَّدا وقياما يتلون كتاب الله ، يراوحون بين جِباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا فذكروا الله ما دُوا كما يَميد الشجر فى يوم الريح وهَملت أعينهم حتى تبلّ ثيابهم ، والله لكأنّ القوم باتوا غافلين . ثم نهض فما رُئى بعد ذلك مُفْتَرًّا يضحك ، حتى ضربه ابن مُلْجم .

***

ولقد جاء من بعد الصحابة سادات برزوا فى العلم والعمل .

كان أبو مسلم الُخولانى قد علّق فى مسجده سَوْطا يعذب به نفسه كلما فترتْ ويقول: أيظن الصحابةُ أن يستأثروا بمحمد دوننا ؟ والله لأزاحمنهم عليه زحاما حتى يعلموا أنهم قد خلّفوا رجالا .

وكان عامر بن عبد قيس يصلىّ كل يوم ألف ركعة .

وكان كَهْمَس[1] يختم فى الشهر تسعين ختمة .

وصلى سليمان التيمىّ الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة .

وكان سُفْيان الثَّوْرى غايةً فى العلم والعمل فغلبه الخوف فصار يبول الدم ، فُحمل ماؤه إلى الطبيب فقال : هذا لا يشبه ماء المسلمين هذا ماء الرهبان ، هذا رجل فتَّت الحزنُ كبده .

وحُمل ماء سَرِىّ السَّقَطى إلى الطبيب فلما نظر إليه قال : هذا بول عاشق . قال حامله: فصعقت وغشى علىّ . ثم رجعت إلى سَرِىّ فأخبرته فقال : قاتله الله ما أبصره .

إذا أنا واجهتُ الصَّبَا عاد بَرْدُها ... مِنْ حَرّ أنفاسى عليه لهيبُ

وقد أكثرت فىّ الأطباء قولَهم ... ومالى إلا أن أراك طبيبُ

---

(١) كهمس بن الحسن التميمى : من تابعى التابعين .

يسالم قلبي الهمَّ فهو حَليفُه ... وبين جفوني والرقادِ حُروبُ

كان أبو عبيدة الخواص يقول : واشوقاه إلى من يرانى ولا أراه .

وكان وَلْهان المجنون يقول : عَدِمت قلباً يحب غيرك ، وثكلتُ خواطر أنست بسِواك .

وقيل لبعض عقلاء المجانين : لمَ سُميت مجنونا ؟ فقال : لمّا طال حبسى عنه فى الدنيا سُميت مجنونا لخوف فراقه .

قلــبى يحبك ما يُفيـ ... ـق وجَفْن عينىَ ما ينامُ
قد طالَ فيك الليــلُ حـ ... ـتى ما يقــال له انصرامُ
والنجمُ فيــه راكدٌ ... والفجر يمنعــه الظلامُ
ليلٌ بغــير نهايةٍ ... ولكلِّ مفتاحٍ ختامُ
فى وَصْلك العيشُ الهنـ ... ـىّ وهَجْرك الموت الزُّؤامُ

قال الشِّبْلى : جُزْت براهب فقلت : لمن تعبّد ؟ فقال : لعيسى ، قلت : ولم ؟ قال : لأنه بقى أربعين يوماً لا[1] يأكل . فقلت : فعُدَّها علىّ . فأقمت تحت صومعته أربعين يوماً لم آكل فأسلم .

أخبرنا أبو معمر الأنصارى ، أنبأنا محفوظ بن أحمد الفقيه ، قال : قال لنا أبو على الحسن بن غالب الحيرى ، سمعت أبا سعيد أحمد بن المبارك البزاز يقول : سمعت عمى محمد ابن أحمد يقول : رأيت فى المنام رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى جامع الخليفة وإلى جانبه رجل مكتهل فسألت عنه فقيل : هو عيسى بن مريم وهو يقول للنبى صلى الله عليه وسلم : أليس من أمتى الرهبان ؟ أليس من أمتى الأحبار ؟ أليس من أمتى أصحاب الصوامع ؟ فدخل أبو الحسين بن سمعون[2] فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : فى أمتك مثل هذا ؟ فسكت . فانتبهتُ .

---

(١) ب : لم يأكل . (٢) الأصل : ابن شمعون . محرفة . والتصويب من صفة الصفوة لابن الجوزى ٢/٢٦٩ . وهو أبو الحسين محمد بن أحمد بن إسماعيل بن عنبس بن سمعون ، من عباد بغداد توفى سنه ٣٨٧هـ.

كانت قلوبهم بالحق متعلقة ، وأنوارهم على الظواهر متألقة ، كلما هدلت حمائمُ نَوْحهم هطلت غمائم شَجْوهم ، دموعهم فى الدّجى ذوارف لما بين أيديهم من المخاوف ، يغسلون بالبكاء ذنوبَ الصحائف ، خوفهم شديد وما فيهم مخالِف ، إذا جنَّ الليلُ فالقدَم واقف ، يحنّون إلى الحبيب حنين شارِف[1] ، الدمع مساعِد والحزن مساعِف ، يفزعون إلى التذكر إذا مسَّهم طائف ، أحوالهم عِجاب وأمورهم طرائف ، كم بينهم وبين قوم موسى ؟ انقُدوا يا صيارِف .

أولئك قومٌ إن بنَوْا أحسنوا البِنا وإن عاهدوا أوْفَوا وإن عقَدوا شدُّوا
وإن كانت النعماء فيهم جَزوْا بها وإن أنعموا لا كدَّروها ولا كدُّوا
وحدَّثْتَني يا سعدُ عنهم فزِدْتَنى جنوناً فزِدْنى من حديثك يا سعدُ

علموا أن الدنيا متاع يَفْنى فعبَروها وما عمروها للسكنى ، واشتغلوا بدار كلما نُقضت هذه تُبنى ، طرق الوعظ أسماعَهم فتلمَّحوا المعنى ، يأخذون أهْبة الرحيل ولا يأخذون عرضَ هذا الأدنَى ، لا كِبْر عندهم تراهم بين المساكين والزَّمْنى ، لو تأملتهم رأيت ضلوعاً على المحبة تُحْنى ، حلَف صادقُهم على هجر الهوى فلا والله ما استثنى ، وأقبلوا على قدَم الفقر فلما رآهم أغنى ، ذكروا الجنة فاشتاقوا ولا شوق قيس إلى لُبنى .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اشتاقت الجنةُ إلى علىّ وعمَّار وسَلْمان » .

إلى الزهّاد فى الدنيا جِنَان الخُلْد تشتاقُ
عبيدٌ مِن خطاياهم إلى الرحمن أُبَّاقُ
حدَتْهم نحوه الرغبةُ والرهبة فاشتاقُوا
وراقت لهمُ الدنيا وعاقَتْهم فما انعاقُوا
عليهم حين تلقاهم سَكِيناتٌ وإطراقُ
يضجُّون إلى الله ودَمْع العين مُهْراقُ

---

(١) الشارف : الناقة المسنة .

توهَّمهم وقد مالت بسُكْر القوم أحداقُ
وقد قاموا فلا يَهْجعُ من قد ذاق ماذاقوا

قال عبد الواحد بن زيد : هجمنا مرةً على نفر من العباد فى بعض السواحل فتفرقوا حين رأونا فارتقينا على تلك الجزيرة وبتنا تلك الليلة، فما كنا نسمع عامةَ الليل إلا الصراخ والنفور من النار ، فلما أصبحنا طلبناهم وتبعنا آثارهم فلم نر أحدا !

نفذت أبصارُ بصائرهم بنور الغيب إلى مشاهدة موصوف الوعد ، تعلقت أكفُّ الآمال بما عاينتْ نواظرُ القلوب ، فأخمصوا البطون وغضوا الجفون ، وأهملوا الدموع على تململ مَلْسوع ، لو رأيتَهم من خوف البَيْن على أرجاء[1] الرجاَ ، الدموع كالسيل والليل قد دجاَ ، ذكروا ظلم النفوس والظلام قد سجا ، فمال القلبُ إلى اليأس بفتوى الحجاَ ، فهبَّ عليهم نسيمُ الظن فرجاً فرَجاً .

وقفنا فمن باكٍ أجابت دموعُه ومعتصمٍ بالصبر لم يملك الصَّبْرَا
ومن ساترٍ أجفانه بيمينه ومُلْقٍ على أحشائه يده اليُسْرَى
ومن طائش لم يُسْعد الدمعُ وَجْده وشرُّ البكا مااستنفدَ الأدمع الغُزْرا[2]
وقد مَلَقَتْ[3] خوصُ الرِّكَاب لبَيْننا فلم نستطع ضعفاً لشاردها زَجْرَا

قال بعض الصالحين : لقيتُ غلاما فى طريق مكة يمشى وحده فقلت له : ما معك مؤنس ؟ قال : بلى . قلت : أين هو ؟ قال : أمامى وخَلْفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ؟ قلت : أما معك زاد ؟ قال : بلى . قلت : أين هو ؟ قال : الإخلاص والتوحيد والإيمان والتوكل . قلت : هل لك فى مرافقتى ؟ فقال : الرفيق يشغل عن الله عز وجل ولا أحب أن أرافق من يشغلنى عنه طرفة عين . قلت : أماَ تستوحش فى هذه البرّية ؟ قال : إن الأنس بالله قطع عنى كلَّ وَحْشة ، فلو كنتُ بين السِّبَاع ما خِفتها . قلت : ألك

---

(١) ت : على رحا الرجا . (٢) ب : الأدمع الغرا . (٣) ملقت : سارت سيرا شديدا . وفى ب : تلفت . والخوص : الغائرة الأعين . والركاب : الإبل .

حاجة ؛ قال : نعم إذا رأيتنى فلا تكلمنى فقلت : ادع لى . قال : حجب الله طَرْفك عن كل معصية وألهم قلبك الفكر فيما يرضيه . قلت : حبيبى أين ألقاك ؟ قال : أمّا فى الدنيا فلا تحدّث نفسك بلقائى ، وأما الآخرة فإنها مَجْمَع المتقين فإن طلبتنى هنـاك فاطلبنى فى زُمْرة الناظرين إلى الله عز وجل . قلت : وكيف علمتَ ؟ قال : بغَضّ طرفى له عن كل مُحرَّم واجتنابى فيه كل مُنْكَر ومأثم ، وقد سألته أن يجعل جنتى النظر إليه . ثم صاح وأقبل يسعى حتى غاب عن بصرى .

***

وما تلوَّم جسمى عن لقائكم ... إلا وقلبى إليكم شَيِّق عَجِـــلُ

وكيف يقعد مشتاقٌ يحرِّكه ... إليكم الحافزان الشواق والأملُ

فإن نهضتُ فمالى غيركم وَطَر ... وإن قعدتُ فمالى غيركم شغلُ

وكم تعرَّض لى الأقوام بعدكم ... يستأذنون على قلبى فما وصلُوا

سجع

سبحان من قدَّمنا على جميع الناس ، وسقانا من معرفته أَرْوَى كاس ، وجعل نبينا أفضلَ نبىّ رعَى وساس ، فلما فضَّله على الأمة وأنعم علينا بعلوّ الهمة قال لنا : « كنتم خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس » .

أفى الأمم مثلُ أبى بكر الصديق ، أو عمر الذى أغصّ كسرى بالريق ، أو عثمان الصابر على مُرّ المذيق ، أو علىٍّ بحر العلم الغَمْر العميق ؛ أو مثل حمزة والعباس .

أفيهم مثل طلحة والزبير القرينين ، أو سعد وسعيد هيهات من أين ، ألهم صبر خَبَّاب وخُبَيْب ومن مثل الاثنين ، إن شبّهناهم بهم أبعدنا القياس . هل شجرةُ الرضوان فى أشجارهم ، هل وقعةُ بدر من أسمارهم ، إنما عرضتْ لهم غَزاةٌ فى جميع أعمارهم ، وجهادنا مع الأنفاس « كنتم خير أمةٍ أُخرجت للناس » .

أين أصحاب الأنبياء من أصحابنا ، هيهات ما القومُ من أضرابنا ، ولا ثوابهم

فى الأخرى مثل ثوابنا ، نُتق الجبل فقالوا : أقِلْنا ونحن قلنا فى كتابنا على العينين والراس « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

ردُّوا كتابهم وقد سُطِّر وصكّ ، وطلبوا صنما وقيد الهجر قد فُكّ ، وشكُّوا عند الجبل وما فينا من يشك ، إن تشبيه المسك باللك[1] وسواس . غمرهم التغفيل وتناهى فاعتقدوا للخالق أشباها ، فقالوا يوم اليَمّ « اجعل لنا إلٰها » ومافى عقائدنا نحن التباس .

آثر الصحابةُ[2] الفقرَ والجاعة ، واشتغلوا عن الدنيا بالطاعة ، وسألت النصارى مائدة للمجاعة ، إنما طلبوا قوت الأضراس .

أعند رهبانهم كزهد أُوَيْس ، أفى متعبدِّيهم كعامر بن قيس ، أفى خايفهم كالفضيل ، هيهات ليس ضوء الشمس كالمقباس .

أفيهم مثل بشْر ومعروف ، أفى زهادهم مذكور معروف ، أفى طوائفهم طائفة صلّت[3] وقد صَلْصلت[4] السيوف ورنّت الأقواس .

أفيهم مثل أبى حنيفة ومالك ، أو كالشافعى الهادى إلى المسالك[5] ، كيف لا نفخر وهو أجل من ذلك ما أحسن بنيانه والأساس .

أفيهم أَعْلَى من الحسن وأنْبل ، أو ابن سِيرِين الذى بالورع تُقبّل ، أو كأحمد الذى بذل نفسه وسبّل ، تالله مافيهم مثل ابن حنبل ، ارفع صوتك بهذا ولا باس « كنتم خير أمةٍ أُخرجت للناس » .

انتهى الجزء الأول من كتاب التبصرة للإمام أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى
ويليه الجزء الثانى وأوله : « الطبقة الثانية »

---

(١) اللك : نبات يصبغ به . (٢) ت : أصحابنا . (٣) ت : من صلت . (٤) ب : صلتت .
(٥) ب : إلى المالك .

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع

الموضوع	الصفحة

صفحة	الموضوع

تصويبات واستدراكات

الصفحة	السطر	الصواب
٣٧	٦	ابن المذْهِب
		وكذا فى صفحات ١٥٣، ١٦٩، ١٨٩، ٢٠٧، ٣٠٤، ٣٧٤
٨٤	١٧	عن بُرَيْد
٩٠	١٩	نادِ القصور
١٢١	١٢	حدثنا أبو عبد الله الفَرَبْرِىّ
١٣٩	١٩	تَغْتذى
١٤٦	٩	كما تَشاَ
١٥٥	٩	تقضّى
١٦١	٩	أبو سعد الحِيرى
١٨٣	١٣	«تيأر» كذا بالأصل ولعلها: «تبار» بمعنى هلاك.
٢٢٥	٢٠	هَلاَّ
٢٣٩	١٧	أبو سَعْد بن أبى صادق .
٢٨٠	٨	كيف يَسْتَتِر
٣٥٨	١٠	ومُذَ كِّروها ودعَاتها
٣٧٢	١٧	والطبيب
٤٤٨	١٦	«كان مِزَاجها كافوراً»
٤٦٣	٢	«محبوس» كذا بالأصل ولعلها : محسوب
٤٦٩	هامش	والدخيل : الضيف .

[رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٠/٤١٦١]